الرافدين على الجلالين

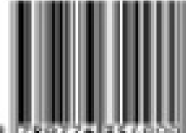
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثاني والعشرون




بسم الله الرحمن الرحيم

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩).

{وَ} اُذْكُرْ {زَكَرِيَّا} وَيُبْدَل مِنْهُ {إذْ نَادَى رَبّه} بِقَوْلِهِ {رَبّ لَا تَذَرنِي فَرْدًا} أَيْ بِلَا وَلَد يَرِثنِي {وَأَنْتَ خَيْر الْوَارِثِينَ} الْبَاقِي بَعْد فَنَاء خَلْقك.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠).

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} نِدَاءَهُ {وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى} وَلَدًا {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجه} فَأَتَتْ بِالْوَلَدِ بَعْد عُقْمهَا {إنَّهُمْ} أَيْ مَنْ ذُكِرَ مِنْ الْأَنْبِيَاء {كَانُوا يُسَارِعُونَ} يُبَادِرُونَ {فِي الْخَيْرَات} الطَّاعَات {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا} فِي رَحْمَتنَا {وَرَهَبًا} مِنْ عَذَابنَا {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} مُتَوَاضِعِينَ فِي عِبَادَتهمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا} [الأنبياء: ٨٩]، أي:"واذكر -أيها الرسول- خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلًا: ربّ لا تتركني وحيدًا بلا ولد ولا وارث".

قال الطبري: يقول:"واذكر يا محمد زكريا حين نادى ربه {رب لا تذرني} وحيدا {فردا} لا ولد لي ولا عقب، فارزقني وارثا من آل يعقوب يرثني".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء: ٨٩]، أي:"وأنت خير الباقين وخير مَن خلفني بخير".

قال الطبري:"ثم رد الأمر إلى الله فقال: {وأنت خير الوارثين}".

قال الصابوني: أي:"وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت".

قال الآلوسي: أي:"وأنت خير حي يبقى بعد ميت، وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه ﷻ، =

=

وقيل أراد بذلك رد الأمر إليه سبحانه كأنه قال: إن لم ترزقني ولدا يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين ا.هـ

وزكريا هو ابن آزن بن بركيا، ويتصل نسبه بسليمان- عليه السلام، وكان عيسى قريب العهد به، حيث كفل زكريا مريم أم عيسى.

أي: واذكر- أيها المخاطب- حال زكريا- عليه السلام وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال: يا رب لا تتركني فردا أي: وحيدا بدون ذرية وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ أي: وأنت خير حي باق بعد كل الأموات.

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال: فَاسْتَجَبْنا لَهُ أى دعاءه وتضرعه.

وَوَهَبْنا لَهُ بفضلنا وإحساننا ابنه يَحْيى عليهما السلام.

وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به.

قوله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"فاستجبنا له دعاءه".

قال الطبري:"فاستجبنا لزكريا دعاءه".

قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"ووهبنا له على الكبر ابنه يحيى".

قال الطبري:"ووهبنا له يحيى ولدا ووارثا يرثه".

قوله تعالى: {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"وجعلنا زوجته صالحة في

=

=

أخلاقها وصالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عاقرًا".

قال الفراء:"يقول: كانت عقيما فجعلناها تلد فذلك صلاحها".

قال مقاتل:"يعني: امرأته فحاضت وكانت لا تحيض من الكبر".

قال سعيد بن جبير:"كانت لا تلد".

قال قتادة:"كانت عاقرا فجعلها الله ولودا ووهب له منها يحيي".

وقال محمد بن كعب القرظي:"كان في خلقها شيء".

قال عطاء:"كان في خلقها سوء وفي لسانها طول وهو البذاء، فأصلح الله ذلك منها".

قال الطبري:"إن الله أصلح لزكريا زوجه، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولودا حسنة الخلق، لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخصص الله جل ثناؤه بذلك بعضا دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا وضع، على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"إنهم كانوا يبادرون إلى كل خير".

قال الطبري:"يقول الله: إن الذين سميناهم، يعني زكريا وزوجه ويحيى، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما يقربهم إلينا".

قال مقاتل:"يعني: أعمال الصالحات، يعني: زكريا وامرأته".

قوله تعالى: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"ويدعوننا راغبين فيما عندنا، خائفين من عقوبتنا".

قال الطبري:"وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا، وعنى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء

=

=

ربي شقيا} ويعنى بقوله {رغبا} أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله {ورهبا}، يعني: رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته".

قال مقاتل:"{ويدعوننا رغبا} في ثواب الله ﷻ {ورهبا} من عذاب الله- ﷻ".

عن ابن جريج قوله: " {ويدعوننا رغبا ورهبا}، قال: رغبا: طمعا وخوفا، وليس ينبغي لأحدهما إن يفارق الآخر".

عن ابن زيد، قوله: " {ويدعوننا رغبا ورهبا}، قال: خوفا وطمعا، قال: وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر".

قال سفيان:"رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا".

قوله تعالى: {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]، أي:"وكانوا لنا خاضعين متواضعين".

قال الطبري:"يقول: وكانوا لنا متواضعين متذللين، ولا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا".

عن قتادة: قوله: " {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}، قال: أذلاء".

قال مقاتل:"يعني لله سبحانه متواضعين".

قال الحسن:"الخشوع الخوف الدايم في القلب".

عن عبد الله بن حكيم قال: "خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين}".

قال ابن عاشور: وجملة رب لا تذرني فردا مبينة لجملة نادى ربه. وأطلق الفرد على من لا ولد له تشبيها له بالمنفرد الذي لا قرين له. قال تعالى: وكلهم آتيه يوم

=

=

القيامة فردا [مريم: ٩٥]، ويقال مثله الواحد للذي لا رفيق له، قال الحارث بن هشام:

وعلمت أني إن أقاتل واحدا ... أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

فشبه من لا ولد بالفرد لأن الولد يصير أباه كالشفع لأنه كجزء منه. ولا يقال لذي الولد زوج ولا شفع.

وجملة وأنت خير الوارثين ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحق فاقض علي من صفتك العلية شيئا. وقد شاع في الكتاب والسنة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، كما قال أيوب وأنت أرحم الراحمين [الأنبياء: ٨٣]، ودل ذكر ذلك على أنه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في آية [سورة مريم: ٦] يرثني ويرث من آل يعقوب. حذفت هاته الجملة لدلالة المحكي هنا عليها. والتقدير: يرثني الإرث الذي لا يداني إرثك عبادك، أي بقاء ما تركوه في الدنيا لتصرف قدرتك، أو يرثني مالي وعلمي وأنت ترث نفسي كلها بالمصير إليك مصيرا أبديا فإرثك خير إرث لأنه أشمل وأبقى وأنت خير الوارثين في تحقق هذا الوصف ا.هـ

وقوله: (إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ) المسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمة والجد للخيرات، أي لفعلها، تشبيها للمداومة والاهتمام بمسارعة السائر إلى المكان المقصود الجاد في مسالكه.

وهي تعليل لهذا العطاء الذي منحه سبحانه لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- والضمير في «إنهم» يعود للأنبياء السابقين. وقيل: يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى. أى: لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم، لأنهم كانوا يبادرون في فعل الخيرات التي ترضينا، ويجتهدون في أداء كل قول أو عمل أمرناهم به.

وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا أى: ويجأرون إلينا بالدعاء، راغبين في آلائنا ونعمنا وراهبين

=

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١).

{وَ} اُذْكُرْ مَرْيَمَ {اَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجهَا} حَفِظَتْهُ مِنْ أَنْ يُنَال {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحنَا} أَيْ جِبْرِيل حَيْثُ نَفَخَ فِي جَيْب دِرْعهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنهَا آيَة لِلْعَالَمِينَ} الْإِنْس وَالْجِنّ وَالْمَلَائِكَة حَيْثُ وَلَدَتْهُ مِنْ غَيْر فَحْل(١).

=

خائفين من عذابنا ونقمنا.

فقوله رَغَبًا وَرَهَبًا مصدران بمعنى اسم الفاعل، منصوبان على الحال، وفعلهما من باب «طرب» وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ أى: مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين. وبهذه الصفات الحميدة، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا.

(١) قوله تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [الأنبياء: ٩١]، أي:"واذكر - أيها الرسول - قصة مريم بنت عمران التي حفظت فرجها من الحرام".

قال الطبري:"واذكر التي أحصنت فرجها، يعني مريم بنت عمران، حفظت فرجها ومنعت فرجها مما حرم الله عليها إباحته فيه".

قال مقاتل:"{أحصنت فرجها} من الفواحش، لأنها قذفت وهي مريم بنة عمران أم عيسى- صلى الله عليهما-".

قال ابن كثير:"قَرَن تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مُوَطّئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة "آل عمران"، وفي سورة "مريم"، وهاهنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم".

=

=

عن ابن عباس قال: "كتب قيصر إلى معاوية: سلام عليك أما بعد.... فأنبئني بأكرم عباد الله عليه وأكرم إمائه عليه، فكتب إليه: أما بعد.. كتبت إلي تسألني فقلت: أما أكرم عباده عليه فآدم خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها، وأما أكرم إمائه عليه فمريم بنت عمران التي أحصنت فرجها".

قوله تعالى: {فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا} [الأنبياء: ٩١]، أي:"فأمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها - قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى".

قال قتادة:"نفخ في جيبها".

قال مقاتل:"نفخ جبريل عليه السلام في جيبها فحملت من نفخة جبريل بعيسى- صلى الله عليهم-".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٩١]، أي:"وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل عدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس".

قال ابن كثير:"أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [مريم: ٢١]".

قال مقاتل:"يعني: عبرة لبني إسرائيل، فكانا آية إذ حملت مريم- عليها السلام- من غير بشر، وولدت عيسى من غير أب- صلى الله عليه-".

قال الطبري:"يقول: وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمي زمانهما يعتبرون بهما ويتفكرون في أمرهما، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على ما نشاء".

قال قتادة: "يقول: خلق لا والد له، آية، ووالدته ولدته من غير رجل، آية".

عن ابن عباس، قوله: " {لِلْعَالَمِينَ} قال: الجن والإنس".

قال الفراء:"ولم يقل: آيتين، لأن شأنهما واحد. ولو قيل: آيتين لكان صوابا لأنها ولدت وهي بكر، وتكلم عيسى في المهد فتكون آيتين إذ اختلفتا".

=

=

قال الرازي: اعلم أن التقدير واذكر التي أحصنت فرجها، ثم فيه قولان: أحدهما: أنها أحصنت فرجها إحصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت: ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا [مريم: ٢٠]. والثاني: من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ.

وأما قوله: فنفخنا فيها من روحنا فلقائل أن يقول: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي [الحجر: ٢٩] أي أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله: فنفخنا فيها من روحنا ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام. والجواب من وجوه: أحدها: معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها، أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان أي في المزمار في بيته.

وثانيها: فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ا.هـ

أى: فنفخنا فيها من جهة روحنا، وهو جبريل- عليه السلام حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا، فنفخ في جيب درعها، فكان بذلك عيسى ابنها، ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى في سورة مريم: قالَ

- أى جبريل لمريم- إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا.

أى: لأكون سببا في هبة الغلام لك عن طريق النفخ في درعك فيصل هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته.

والمراد بالآية في قوله سبحانه: وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ: الأمر الخارق للعادة، الذي لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه.

أى: وجعلنا مريم وابنها عيسى آية بينة، ومعجزة واضحة دالة على كمال قدرتنا للناس جميعا، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسها بشر، ودون أن تكون بغيا.

=

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢).

{إِنَّ هَـذِهِ} أَيْ مِلَّـة الْإِسْـلَام {أُمَّـتكُمْ} دِينكُمْ أَيّهَـا الْمُخَـاطَبُونَ أَيْ يَجِـب أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا {أُمَّة وَاحِدَة} حَال لَازِمَة {وَأَنَا رَبّكُمْ فَاعْبُدُونِ} وحدون[1].

=

قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل آيتين كما قال سبحانه: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ؟ قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة. وهي ولادتها إياه من غير فحل».

(١) قوله تعالى: {إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً} [الأنبياء: ٩٢]، أي:"هؤلاء الأنبياء جميعًا دينهم واحد، الإسلام، وهو الاستسلام لله بالطاعة وإفراده بالعبادة".

قال ابن عباس:"إن هذا دينكم دينا واحدا".

قال قتادة:"أي دينكم دين واحد، وربكم واحد والشريعة مختلفة".

قال الطبري: يقول:"إن هذه ملتكم ملة واحدة".

قال الزجاج:"المعنى: أن هذه أمتكم في حال اجتماعها على الحق، فإذا افترقت فليس من خالف الحق داخلا فيها".

قال مقاتل:"يقول: إن هذه ملتكم التي أنتم عليها، يعني شريعة الإسلام هي ملة واحدة كانت عليها الأنبياء والمؤمنون الذين نجوا من عذاب الله ﷻ".

قال ابن كثير:"أي: سنتكم سنة واحدة".

قال السعدي:"أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضا واحد".

قوله تعالى: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢]، أي:"والله سبحانه وتعالى رب الخلق فاعبدوه - أيها الناس - وحده لا شريك له".

قال الطبري: يقول:"وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما

=

=

تعبدون من دوني".

قال السعدي:"{وأنا ربكم} الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدا، والنبي واحدا، والدين واحدا، وهو عبادة الله، وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم، القيام بها، ولهذا قال: {فاعبدون} فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه".

ولفظ الأمة يطلق بإطلاقات متعددة. يطلق على الجماعة كما في قوله تعالى وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ... ويطلق على الرجل الجامع للخير، كما في قوله تعالى: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا.. ويطلق على الحين والزمان، كما في قوله سبحانه: وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ.. أى وتذكر بعد حين من الزمان.

والمراد بالأمة هنا: الدين والملّة. كما في قوله تعالى: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ.. أى: على دين وملة معينة.

والمعنى: إن ملة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعا. هي ملتكم ودينكم أيها الناس، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء، وأن تخلصوا لله تعالى العبادة والطاعة، فهو سبحانه ربكم ورب كل شيء، فاعبدوه حق العبادة لتنالوا رضاه ومحبته.

قال ابن عاشور: إن مكسورة الهمزة عند جميع القراء، فهي ابتداء كلام. واتفقت القراءات المشهورة على رفع أمتكم. والأظهر أن الجملة محكية بقول محذوف يدل عليه السياق. وحذف القول في مثله شائع في القرآن.

والخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة. والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغا في صيغة اسم الفاعل منصوبا على الحال. والتقدير: قائلين لهم إن هذه أمتكم إلى آخره. والمقول محكي بالمعنى، أي قائلين لكل واحد من

=

=

رسلنا وأنبيائنا المذكورين ما تضمنته جملة إن هذه أمتكم.

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع، وهي طريقة شائعة في الإخبار عن الجماعات. ومنه قولهم: ركب القوم دوابهم، فتكون هذه الآية جارية على أسلوب نظيرها في سورة المؤمنين. وفيه ما يزيد هذه توضيحا فإنه ورد هنالك ذكر عدة من الأنبياء تفصيلا وإجمالا، كما ذكروا في هذه السورة. ثم عقب بقوله تعالى: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم [المؤمنون: ٥١] وأن- بفتح الهمزة وبكسرها- هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون [المؤمنون: ٥٢]، فظاهر العطف يقتضي دخول قوله تعالى: وإن هذه أمتكم أمة واحدة في الكلام المخاطب به الرسل، والتأكيد عن هذا الوجه لمجرد الاهتمام بالخبر ليتلقاه الأنبياء بقوة عزم، أو روعي فيه حال الأمم الذين يبلغهم ذلك لأن الإخبار باتحاد الحال المختلفة غريب قد يثير ترددا في المراد منه فقد يحمل على المجاز فأكد برفع ذلك. وهو وإن كان خطابا للرسل فإن مما يقصد منه تبليغ ذلك لأتباعهم ليعلموا أن دين الله واحد، وذلك عون على قبول كل أمة لما جاء به رسولها لأنه معضود بشهادة من قبله من الرسل.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافا والخطاب لأمة محمد ﷺ أي أن هذه الملة، وهي الإسلام، هي ملة واحدة لسائر الرسل، أي أصولها واحدة كقوله تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا [الشورى: ١٣] الآية. والتأكيد على هذا لرد إنكار من ينكر ذلك مثل المشركين.

والإشارة بقوله تعالى: هذه إلى ما يفسره الخبر في قوله تعالى: أمتكم كقوله تعالى: قال هذا فراق بيني وبينك [الكهف: ٧٨]. فالإشارة إلى الحالة التي هم عليها يعني في أمور الدين كما هو شأن الأنبياء والرسل. فما أفادته الإشارة من التمييز للمشار إليه مقصود منه جميع ما عليه الرسل من أصول الشرائع وهو

=

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣).

{وَتَقَطَّعُوا} أَيْ بَعْض الْمُخَاطَبِينَ {أَمْرهمْ بَيْنهمْ} أَيْ تَفَرَّقُوا أَمْر دِينهمْ مُتَخَالِفِينَ فِيهِ وَهُمْ طَوَائِف اليهود والنصارى قال تعا لي {كُلّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} أَيْ فَنُجَازِيهِ بِعَمَلِهِ.

=

التوحيد والعمل الصالح.

والأمة هنا بمعنى الملة كقوله تعالى: قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون [الزخرف: ٢٢]، وقال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وأصل الأمة: الجماعة التي حالها واحد، فأطلقت على ما تكون عليه الجماعة من الدين بقرينة أن الأمم ليست واحدة و (أمة واحدة) حال من أمتكم مؤكدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال. وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد ﷺ.

ومعنى كونها واحدة أنها توحد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعا وإن كان يجمعها وصف الشرك فذلك جنس عام وقد أومأ إلى هذا قوله تعالى:

وأنا ربكم، أي لا غيري. وسيأتي بسط القول في عربية هذا التركيب في تفسير سورة المؤمنين.

وأفاد قوله تعالى: وأنا ربكم الحصر، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على أمة واحدة، إذ المعنى: وأنا ربكم ربا واحدا، ولذلك فرع عليه الأمر بعبادته، أي فاعبدون دون غيري. وهذا الأمر مراعى فيه ابتداء حال السامعين من أمم الرسل، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤).

{فَمَنْ يَعْمَل مِنْ الصَّالِحَات وَهُوَ مُؤْمِن فَلَا كُفْرَان} أَيْ لَا جُحُود {لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} بِأَنْ نَأْمُر الْحَفَظَة بِكَتْبِهِ فَنُجَازِيهِ عَلَيْهِ.

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥).

{وَحَرَام عَلَى قَرْيَة أَهْلَكْنَاهَا} أُرِيدَ أَهْلهَا {أَنَّهُمْ لَا} زَائِدَة {يَرْجِعُونَ} أَيْ مُمْتَنِع رُجُوعهمْ إِلَى الدنيا.

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦).

{حَتَّى} غَايَة لِامْتِنَاعِ رُجُوعهمْ {إِذَا فُتِحَتْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {يَأْجُوج وَمَأْجُوج} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه اسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ وَيُقَدَّر قَبْله مُضَاف أَيْ سَدّهمَا وَذَلِكَ قُرْب الْقِيَامَة {وَهُمْ مِنْ كُلّ حَدَب} مُرْتَفَع مِنْ الْأَرْض {يَنْسِلُونَ} يُسْرِعُونَ.

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧).

{وَاقْتَرَبَ الْوَعْد الْحَقّ} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {فَإِذَا هِيَ} أَيْ الْقِصَّة {شَاخِصَة أَبْصَار الَّذِينَ كَفَرُوا} فِي ذَلِكَ الْيَوْم لِشِدَّتِهِ يَقُولُونَ {يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلنَا} هَلَاكنَا {قَدْ كُنَّا} فِي الدُّنْيَا {فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا} الْيَوْم {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} أَنْفُسنَا بِتَكْذِيبِنَا لِلرُّسُلِ.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨).

{إِنَّكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره مِنْ الْأَوْثَان {حَصَب جَهَنَّم} وَقُودهَا {أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} دَاخِلُونَ فِيهَا.

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩).

{لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ} الْأَوْثَان {آلِهَة} كَمَا زَعَمْتُمْ {مَا وَرَدُوهَا} دَخَلُوهَا {وَكُلّ} مِنْ الْعَابِدِينَ وَالْمَعْبُودِينَ {فيها خالدون}.

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠).

{لهم} العابدين {فِيهَا زَفِير وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} شَيْئًا لشدة غليانها ونزل لما قال بن الزِّبَعْرَى عَبْد عُزَيْر وَالْمَسِيح وَالْمَلَائِكَة فَهُمْ فِي النَّار عَلَى مُقْتَضَى مَا تَقَدَّمَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} [الأنبياء: ٩٣]، أي:"لكن الناس اختلفوا على رسلهم، وتفرَّق كثير من أتباعهم في الدين شيعًا وأحزابًا".

قال الطبري: يقول:"وتفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزابا، فهودت اليهود، وتنصرت النصارى وعبدت الأوثان".

قال ابن كثير:"أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مُصَدق لهم ومكذب".

قال مقاتل:"فرقوا دينهم الإسلام الذي أمروا به فيما بينهم فصاروا زبرا، يعني: فرقا".

قال الواحدي:"أي: اختلفوا في الدين فصاروا فيه فرقا وأحزابا، يعني: طوائف اليهود والنصارى، و «التقطع» في هذه الآية بمنزلة: التقطيع".

قال الكلبي: "فرقوا دينهم فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضا، وتبرأ بعضهم من بعض".

قال ابن زيد:"تقطعوا: اختلفوا، في الدين".

قال السدي: " تفرقوا دينهم الإسلام الذي أمروا به فدخلوا في غيره".

قال السعدي:"كان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أبيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: {وتقطعوا أمرهم بينهم} أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق =

=

معه، والباطل مع الفريق الآخر و {كل حزب بما لديهم فرحون}".

قولـه تعـالى: {كُلٌّ إِلَيْنَـا رَاجِعُـونَ} [الأنبيـاء: ٩٣]، أي:"وكلهـم راجعـون إلينـا ومحاسبون على ما فعلوا".

قال الواحدي:"أخبر أن مرجع جميع أهل الأديان إليه، وأنه مجاز جميعهم".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة، فيجازَى كل بحسب عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

قال السعدي:"قد علم أن المصيب منهم، من كان سالكا للدين القويم، والصراط المستقيم، مؤتما بالأنبياء وسيظهر هذا، إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: {كل} من الفرق المتفرقة وغيرهم {إلينا راجعون} أي: فنجازيهم أتم الجزاء".

عن أنس بن مالك قال: "كنا عند رسول الله ﷺ فقال: "تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفرقتين جميعًا. واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار". قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: "الجماعات الجماعات".

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات. كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه، إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه. فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلا لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى. ا.هـ

والضمير في قوله تعالى: وَتَقَطَّعُوا.. يعود للناس الذين تفرقوا في شأن الدين شيعا وأحزابا. أى: وافترق الناس في شأن الدين الحق فرقا متعددة، وسنحاسبهم جميعا

=

=

على أعمالهم حسابا دقيقا، يجازى فيه المحسن خيرا، ويعاقب فيه المسيء على إساءته.

قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [الأنبياء: ٩٤]، أي:"من يعمل شيئًا من الطاعات وأعمال البرّ والخير بشرط الإيمان".

قال الطبري:"فمن عمل من هؤلاء الذين تفرقوا في دينهم بما أمره الله به من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله؛ مصدق بوعده ووعيده متبرئ من الأنداد والآلهة".

قال مقاتل:"يقول وهو مصدق بتوحيد الله ﷻ".

قوله تعالى: {فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ} [الأنبياء: ٩٤]، أي:"لا بُطلان لثواب عمله ولا يضيع شيء من جزائه".

قال أبو عبيدة:"أي: فلا كفر لعمله، وقال:

من الناس ناس لا تنام جدودهم... وجدّى ولا كفران لله نائم".

قال الطبري:"يقول: فإن الله يشكر عمله الذي عمل له مطيعا له، وهو به مؤمن، فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح".

قال الزجاج:"كفران: مصدر مثل الغفران والشكران، والعرب تقول: غفرانك لا كفرانك".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} [الأنبياء: ٩٤]، أي:"وسيجد ما عمله في كتابه يوم يُبْعث بعد موته".

قال الطبري:"يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئا لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره".

قال يحيي:"تكتب له حسناته حتى يجزى بها الجنة".

=

قال الواحدي: أي:"نأمر الحفظة أن يكتبوا لذلك العامل ما عمل ليجازى به".
وقال سبحانه: فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ بالنفي المفيد للعموم، لبيان كمال عدالته تعالى وتنزيهه- ﷻ عن ظلم أحد، أو أخذ شيء مما يستحقه.
وعبر عن العمل بالسعي، لإظهار الاعتداد به، وأن صاحب هذا العمل الصالح، قد بذل فيه جهدا مشكورا، وسعى من أجل الحصول عليه سعيا بذل فيه طاقته.
ثم أكد سبحانه بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل سيرجعون إليه للحساب، فقال: وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ.
قوله تعالى: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)} [الأنبياء: ٩٥]
قال الطبري: يقول:"حرام على أهل قرية أهلكناهم بطبعنا على قلوبهم وختمنا على أسماعهم وأبصارهم، إذ صدوا عن سبيلنا وكفروا بآياتنا، أن يتوبوا ويراجعوا الإيمان بنا واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا".
وفي تفسير هذه الآية وجهان:
أحدهما: معناه: حرام على قرية وجدناها هالكة بالذنوب أنهم لا يرجعون إلى التوبة، وهو قول عكرمة.
عن عكرمة: " «وحرم»، قال: وجب {على قرية أهلكناها} قال: كتبنا عليها الهلاك في دينها {أنهم لا يرجعون} عما هم عليه".
عن عكرمة: " {وحرم}، قال: وجب بالحبشية".
الثاني: وحرام على قرية أهلكناها بالعذاب أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وهذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وبه قال ابن كثير.
قال قتادة:"أي" وجب عليها أنها إذا هلكت لا ترجع إلى دنياها".
عن ابن عباس: "أنه كان يقرأ هذه الآية: «وحرم على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون»، فلا يرجع منهم راجع، ولا يتوب منهم تائب".

وقال ابن عباس:"وجب على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون، كما قال: {ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون} ".

قال الطبري:"والقول الذي قاله عكرمة في ذلك أولى عندي بالصواب، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن تفريق الناس دينهم الذي بعث به إليهم الرسل، ثم أخبر عن صنيعه بمن عم بما دعته إليه رسله من الإيمان به والعمل بطاعته، ثم أتبع ذلك قوله: {وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون}، فلأن يكون ذلك خبرا عن صنيعه بمن أبى إجابة رسله وعمل بمعصيته، وكفر به، أحرى، ليكون بيانا عن حال القرية الأخرى التي لم تعمل الصالحات وكفرت به".

وللمفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كما تقدم، منها:

أن المعنى: وحرام- أي: وممتنع امتناعا تاما- على قرية أهلكنا أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا في الآخرة للحساب.

فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم، والذين آمنوا وعملوا صالحا في دنياهم، الكل سيرجعون إلى الله تعالى ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة.

وقد أكدت الآية الكريمة رجوعهم إليه تعالى يوم القيامة بأسلوب بديع، حيث نفت عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب في الدنيا، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد.

قال صاحب فتح القدير: قوله وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها.. قرأ أهل المدينة «وحرام»، وقرأ أهل الكوفة «وحرم» - بكسر الحاء وإسكان الراء- وهما لغتان مثل: حلال وحل.

ومعنى أَهْلَكْناها: قدرنا إهلاكها. وجملة أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ في محل رفع مبتدأ، وقوله: «حرام» خبرها.. والمعنى: وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء.. ا.هـ.

=

وقال بعض العلماء: وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و «لا» فيها على بابها. وهي مع لفظ «حرام» من قبيل نفى النفي. فيدل على الإثبات، والمعنى: وحرام على القرية المهلكة. عدم رجوعها إلى الآخرة، بل واجب رجوعها للجزاء، فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث. وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه سبحانه سيحييه وبعمله يجزيه،.

ومنهم من يرى أن «لا» زائدة، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى: وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم.

ومنهم من يرى أن المراد بقوله تعالى أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ أى: لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان.

قال الزمخشري: استعير الحرام للممتنع وجوده، ومنه قوله تعالى: إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ أى. منعهما منهم.. ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة، ومجاز الآية: إن قوما عزم الله تعالى على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة..

ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة في بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون في الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله تعالى بعد ذلك: حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ...

فإن حتى هنا ابتدائية، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها، فكأنه قيل: إن هؤلاء

=

=

المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب، ويقولوا عند مشاهدته: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ} [الأنبياء: ٩٦]، أي:"حتى إذا فتح سدُّ يأجوج ومأجوج".

قال يحيى:"يعني: فلما فتحت يأجوج ومأجوج".

قال الطبري: يقول:"حتى إذا فتح عن يأجوج ومأجوج، وهما أمتان من الأمم ردمهما".

قال ابن جريج:"أمتان من وراء ردم ذي القرنين".

قال ألو العالية:"إن يأجوج ومأجوج يزيدون على سائر الإنس الضعف، وإن الجن يزيدون على الإنس الضعف، وإن يأجوج ومأجوج رجلان اسمهما يأجوج ومأجوج".

عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "إن يأجوج ومأجوج يمر أولهم بنهر مثل دجلة، ويمر آخرهم فيقول: قد كان في هذا مرة ماء، لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا، وقال: من بعدهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله: تأويل، وتاريس، وناسك أو منسك، شك شعبة".

قال عبد الله بن عمرو: "يأجوج ومأجوج لهم أنهار يلقمون ما شاءوا، ونساء يجامعون ما شاءوا، وشجر يلقمون ما شاءوا، ولا يموت رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا".

قال عمرو البكالي،: "إن الله جزأ الملائكة والإنس والجن عشرة أجزاء فتسعة منهم الكروبيون وهم الملائكة الذي يحملون العرش، ثم هم أيضا الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، قال: ومن بقي من الملائكة لأمر الله ووحيه ورسالته، ثم

=

=

جزأ الإنس والجن عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجن، لا يولد من الإنس ولد إلا ولد من الجن تسعة، ثم جزأ الإنس على عشرة أجزاء، فتسعة منهم يأجوج ومأجوج، وسائر الإنس جزء".

عن عبيد الله بن أبي يزيد، قال: "رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج".

قال أبو سعيد: "يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحدا إلا قتلوه، إلا أهل الحصون، فيمرون على البحيرة فيشربونها، فيمر المار فيقول: كأنه كان ههنا ماء، قال: فبعث الله عليهم النغف حتى يكسر أعناقهم فيصيروا خبالا فتقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلون رجلا لينظر، ويشترط عليهم إن وجدهم أحياء أن يرفعوه، فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماء من السماء فيقذفهم في البحر، فتطهر الأرض منهم، ويغرس الناس بعدهم الشجر والنخل، وتخرج الأرض ثمرتها كما كانت تخرج في زمن يأجوج ومأجوج".

قال كعب:"إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجيء غدا فنخرج، فيعيدها الله كما كانت، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غدا فنخرج إن شاء الله، فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون ثم يخرجون، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان ههنا مرة ماء – وتفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شيء، يرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، فيقول: اللهم لا طاقة ولا يدين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت، فيسلط الله عليهم دودا يقال له

=

=

النغف، فتفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا فتأخذهم بمناقرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عينا يقال لها الحياة تطهر الأرض منهم وتنبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن، قيل: وما السكن يا كعب؟ قال: أهل البيت، قال: فبينا الناس كذلك، إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده، فيبعث عيسى طليعة سبع مائة، أو بين السبع مائة والثمان مائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض الله فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج من الناس يتسافدون كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع، فمن تكلف بعد قولي هذا شيئا أو على هذا شيئا فهو المتلكف".

عن حذيفة بن اليمان، قال رسول الله ﷺ: "أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان، والدابة، ثم يأجوج ومأجوج. قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، وما يأجوج ومأجوج؟ قال: يأجوج ومأجوج أمم كل أمة أربع مائة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه، وهم ولد آدم، فيسيرون إلى خراب الدنيا، يكون مقدمتهم بالشام وساقتهم بالعراق، فيمرون بأنهار الدنيا، فيشربون الفرات والدجلة وبحيرة الطبرية حتى يأتوا بيت المقدس، فيقولون قد قتلنا أهل الدنيا فقاتلوا من في السماء، فيرمون بالنشاب إلى السماء، فترجع نشابهم مخضبة بالدم، فيقولون قد قتلنا من في السماء، وعيسى والمسلمون بجبل طور سينين، فيوحي الله جل جلاله إلى عيسى: أن أحرز عبادي بالطور وما يلي أيلة، ثم إن عيسى يرفع رأسه إلى السماء ويؤمن المسلمون، فيبعث الله عليهم دابة يقال لها النغف، تدخل من مناخرهم فيصبحون موتى من حاق الشام إلى حاق العراق، حتى تنتن الأرض من جيفهم، ويأمر الله السماء فتمطر كأفواه القرب، فتغسل الأرض من جيفهم ونتنهم، فعند ذلك طلوع الشمس من مغربها".

=

=

قوله تعالى: {وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} [الأنبياء: ٩٦]، أي:"وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون للنزول".

قال الطبري:"يعني: وهم من كل شرف ونشز وأكمة يخرجون مشاة مسرعين في مشيهم كنسلان الذئب، كما قال الشاعر:

عسلان الذئب أمسى قاربا... برد الليل عليه فنسل".

قال الفراء:"الحدب كل أكمة ومكان مرتفع".

قال الزجاج:"رويت أيضا: «من كل جدث ينسلون»، - بالجيم والثاء - والأجود في هذا الحرف، {حدب ينسلون} بالحاء، والحدب كل أكمة، و {ينسلون}: يسرعون".

عن ابن عباس، قوله:"{من كل حدب ينسلون}، يقول: من كل شرف يقبلون".

قال قتادة:"من كل أكمة".

قال ابن زيد:"الحدب: الشيء المشرف". قال ابن زيد:"هذا مبتدأ يوم القيامة".

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} [الأنبياء: ٩٦]، قولان:

أحدهما: أنهم بنو آدم يخرجون من كل موضع كانوا دفنوا فيه من الأرض، وإنما عني بذلك الحشر إلى موقف الناس يوم القيامة. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"جمع الناس من كل مكان جاءوا منه يوم القيامة، فهو حدب".

الثاني: عني بذلك يأجوج، ومأجوج. وأن قوله {وهم} كناية عن أسمائه، وهذا قول عبد الله، وبه قال الطبري.

عن عبد الله، قال:"يخرج يأجوج ومأجوج فيمرحون في الأرض، فيفسدون فيها، ثم قرأ عبد الله {وهم من كل حدب ينسلون}، قال: ثم يبعث الله عليهم دابة مثل النغف، فتلج في أسماعهم ومناخرهم فيموتون منها فتنتن الأرض منهم، فيرسل الله عز وجل ماء فيطهر الأرض منهم".

=

=

وروي عن أبي سعيد الخدري قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يفتح يأجوج ومأجوج يخرجون على الناس كما قال الله: {من كل حدب ينسلون}، فيغشون الأرض".

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس، قيل: مأخوذان من الأوجة وهي الاختلاط أو شدة الحر، وقيل من الأوج وهو سرعة الجري.

والمراد بفتحهما: فتح السد الذي على هاتين القبيلتين، والذي يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس.

وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ والحدب: المرتفع من الأرض كالجبل ونحوه.

ويَنْسِلُونَ من النسل- بإسكان السين-، وهو مقاربة الخطو مع الإسراع في السير، يقال: نسل الرجل في مشيته إذا أسرع، وفعله من باب قعد وضرب.

أى: وهم- أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر، أو إلى الأماكن التي يوجههم الله تعالى إليها، وقيل إن الضمير «هم» يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر.

وقوله: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ.. معطوف على فُتِحَتْ أى: فتح السد الذي كان على يأجوج ومأجوج، وقرب موعد الحساب والجزاء.

قال الآلوسى: وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى. وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون في زمن نزول عيسى من السماء، وبعد قتله الدجال.

فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث طويل: إن الله تعالى يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال: أنى قد أخرجت عبادا من عبادي، لا يدان لك بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، فيبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج وهم كما قال سبحانه مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ثم يرسل الله عليهم نغفا- في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة» ا.هـ.

=

=

وقوله: فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا.. جواب للشرط وهو قوله: تعالى- قبل ذلك إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

والضمير «هي» للقصة والشأن. و «إذا» للمفاجأة.

قال الجمل: قوله: فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا.. فيه وجهان:

أحدهما- وهو الأجود- أن يكون هي ضمير القصة. وشاخصة: خبر مقدم. وأبصار:

مبتدأ مؤخر، والجملة خبر لهى لأنها لا تفسر إلا بجملة مصرح بجزأيها..» ا.هـ.

والمعنى: لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة، ومن خروج يأجوج ومأجوج، ومن عودة الخلق إلينا للحساب.. ورأى المشركون كل ذلك، فإذا بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع.

يقال: شخص بصر فلان يشخص شخوصا فهو شاخص، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما.

قوله تعالى: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [الأنبياء: ٩٧]، أي:"دنا يوم القيامة وبدَتْ أهواله".

قال يحيى:"يعني: النفخة الآخرة".

قال الطبري: يقول:"حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، اقترب الوعد الحق، وذلك وعد الله الذي وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب، وهو لا شك حق كما قال جل ثناؤه".

قال الفراء:"معناه- والله أعلم-: حتى إذا فتحت اقترب".

عن ابن زيد، قوله: " {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}، اقترب يوم القيامة منهم".

قال حذيفة: "لو أن رجلا افتلى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم القيامة".

=

=

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنبياء: ٩٧]، أي:"فإذا أبصار الكفار مِن شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تَطْرِف".

قال الطبري: يقول:"فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحق بأهواله وقيام الساعة بحقائقها".

قال الكلبي:"شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم".

قال السمعاني:"أي: منزعجة".

قال النسفي:"أي: مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه".

قوله تعالى: {يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [الأنبياء: ٩٧]، أي:"ويقولون يا ويلنا قد كنا لاهين غافلين عن هذا اليوم وعن الإعداد له".

قال الطبري: "وهم يقولون: يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاين ونزل بنا من عظيم البلاء".

قال يحيى:"يعنون تكذيبهم بالساعة".

قوله تعالى: {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء: ٩٧]، أي:"وكنا بذلك ظالمين".

قال يحيى: أي:"لأنفسنا".

قال الواحدي: أي:"أنفسنا بتكذيب الرسل".

قال البغوي: أي:"بوضعنا العبادة في غير موضعها".

قال الطبري: أي:"ما كنا نعمل لهذا اليوم ما ينجينا من شدائده، بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا وطاعتنا إبليس وجنده في عبادة غير الله ﷻ".

وقوله: يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا مقول لقول محذوف.

أى: أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر: يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك، فإننا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا اليوم الذي أحضرنا فيه للحساب.

وقوله: بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، إلى وصفها بالظلم

=

=

وتجاوز الحدود.

أى: لم نكن في الحقيقة في غفلة عن هذا اليوم وأهواله، فقد أخبرنا رسلنا به، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل لأننا لم نطعهم، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم.

وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة في يوم لا ينفعهم فيه ذلك.

وقوله سبحانه: إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ.. زيادة في تقريعهم وتوبيخهم.

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨]، أي:"إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام، حطب جهنم ووقودها".

قال الطبري: يقول:"إنكم أيها المشركون بالله، العابدون من دونه الأوثان والأصنام، وما تعبدون من دون الله من الآلهة {حَصَبُ جَهَنَّمَ}".

وفي قوله تعالى: {حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨]، أقوال:

أحدها: وقود جهنم، وهو قول بن عباس.

وقال ابن عباس:"شجر جهنم".

الثاني: معناه: حطب جهنم، قاله مجاهد، وقتادة، وعكرمة.

قال ابن سلام البغدادي:"يعني: حطب جهنم بلغة قريش".

وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة: «حطب جهنم».

قال قتادة:"حطب جهنم يقذفون فيها".

الثالث: أنهم يُرمَون فيها كما يُرْمَى بالحصباء، حتى كأن جهنم تحصب بهم، وهذا قول الضحاك، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا... بحاصب كنديف القطن منثور

=

=

يعني: الثلج.

وقرأ ابن عباس: «حضب جهنم»، بالضاد معجمة.

قال الطبري:"أراد أنهم الذين تسجر بهم جهنم، ويوقد بهم فيها النار، وذلك أن كل ما هيجت به النار وأوقدت به، فهو عند العرب حضب لها".

قال أبو عبيدة:"كل شئ ألقيته فى نار فقد حصبتها، ويقال: حصب فى الأرض أي ذهب فيها"".

قال الكسائي: "حضبت النار، بالضاد المعجمة، إذا أججتها فألقيت فيها ما يشعلها من الحطب".

قوله تعالى: {أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨]، أي أنتم داخلوها مع الأصنام".

قال الطبري:"معناه: أنتم عليها أيها الناس أو إليها داخلون".

والحصب- بفتحتين- ما تحصب به النار. أى: يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب والخشب.

أى: إنكم- أيها الكافرون- وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله تعالى وقود جهنم، وزادها الذي تزداد به اشتعالا.

وفي إلقاء أصنامهم معهم في النار مع أنها لا تعقل، زيادة في حسرتهم وتبكيتهم، حيث رأوا بأعينهم مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة.

قال الزمخشري: فإن قلت: لم قرنوا بآلهتهم؟ قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم، والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب، ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة، وينتفعون بشفاعتهم، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم ا.هـ.

وقال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)} [الأنبياء/ ٩٨].

=

=

هذه الآية تدل على أن جميع المعبودات مع عابديها في النار.

وقد أشارت آيات أخر إلى أن بعض المعبودين كعيسى والملائكة ليسوا من أهل النار، كقوله: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا} الآية [الزخرف/ ٥٧]، وقوله تعالى: {ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)} [سبأ/ ٤٠]، وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} الآية [الإسراء/ ٥٧].

والجواب من وجهين:

الأول: أن هذه الآية لم تتناول الملائكة ولا عيسى، لتعبيره بـ "ما" الدالة على غير العاقل.

وقد أشار تعالى إلى هذا الجواب بقوله: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)} [الزخرف/ ٥٨] لأنهم لو أنصفوا لما ادعوا دخول العقلاء في لفظٍ لا يتناولهم لغة.

الثاني: أن الملائكة وعيسى نَصَّ الله على إخراجهم من هذا، دفعًا للتوهم ولهذه الحجة الباطلة، بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)} الآية [الأنبياء/ ١٠١] ا.هـ

وجملة أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ بدل من حَصَبُ جَهَنَّمَ، أو مستأنفة.

أي: أنتم- أيها الكافرون- ومعكم أصنامكم داخلون في جهنم دخولا لا مفر لكم منه.

وجاء الخطاب بقوله أَنْتُمْ على سبيل التغليب، وإلا فالجميع داخلون فيها.

ولا يدخل في هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزيز والملائكة، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك، وإنما أمروهم بعبادة الله تعالى وحده.

=

=

ثم أقام سبحانه لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان عبادتهم لغيره فقال: لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها.

قوله تعالى: {لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا} [الأنبياء: ٩٩]، أي:"لو كان هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله تعالى آلهة تستحق العبادة ما دخلوا نار جهنم معكم أيها المشركون".

قال ابن زيد:"الآلهة التي عبد القوم".

قال الطبري:"أنتم أيها المشركون، وما تعبدون من دون الله واردو جهنم، ولو كان ما تعبدون من دون الله آلهة ما وردوها، بل كانت تمنع من أراد أن يوردكموها إذ كنتم لها في الدنيا عابدين، ولكنها إذ كانت لا نفع عندها لأنفسها ولا عندها دفع ضر عنها، فهي من أن يكون ذلك عندها لغيرها أبعد، ومن كان كذلك كان بينا بعده من الألوهة، وأن الإله هو الذي يقدر على ما يشاء ولا يقدر عليه شيء، فأما من كان مقدورا عليه فغير جائز أن يكون إلها".

قوله تعالى: {وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأنبياء: ٩٩]، أي:"إنَّ كلا من العابدين والمعبودين خالدون في نار جهنم".

قال ابن زيد:"العابد والمعبود".

قال الطبري:"يعني: الآلهة ومن عبدها أنهم ماكثون في النار أبدا بغير نهاية".

أي: لو كان هؤلاء الأصنام المعبودون من دون الله آلهة حقا- كما زعمتم أيها الكافرون- ما ألقى بهم في النار، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب، وحيث تبين لكم دخولهم إياه، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها، وأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها.

وقوله وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ تذييل مقرر لما قبله. أى: وكل من العابدين والمعبودين باقون في هذه النار على سبيل الخلود الأبدى.

=

=

ثم ختم سبحانه هذه الآيات ببيان حال الكافرين في جهنم فقال: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ.

قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} [الأنبياء: ١٠٠]، أي:"لهؤلاء المعذبين في النار آلام ينبئ عنها زفيرهم الذي تندفع فيه أنفاسهم من صدورهم بشدة".

قال الحسن: "الزفير" اللهب، ترفعهم بلهبها، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفا".

وقال قتادة: "إن أهل النار يدعون مالكا فيذرهم مقدار أربعين عاما لا يجيبهم ثم يقول: {إنكم ماكثون} [الزخرف: ٧٧]، ثم يدعون ربهم فيذرهم قدر عمر الدنيا مرتين، ثم يجيبهم: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨] قال: فما نبسوا بعدها بكلمة، ولا كان إلا الزفير والشهيق في نار جهنم".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} [الأنبياء: ١٠٠]، أي:"وهم في النار لا يسمعون؛ من هول عذابهم".

قال القرطبي:"وفي سماع الأشياء روح وأنس، فمنع الله الكفار ذلك في النار. وقيل: لا يسمعون ما يسرهم، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية. وقيل: إذا قيل لهم: {اخسؤا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨]، يصيرون حينئذ صما بكما".

قال الحسن: "ذهب الزفير بسمعهم، فلا يسمعون معه شيئا".

قال ابن مسعود:"إذا ألقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخرى فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أن في النار أحدا يعذب غيره، ثم قرأ: {لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون}".

أي: لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى أفواههم بصعوبة وعسر، كما هو شأن المغموم المحزون. وأصل الزفير: تردد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع.

=

=

وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ أى: وهم في جهنم لا يسمعون ما يريحهم، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم، أو: وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف.

مسألة: في التعريف بيأجوج ومأجوج.

* أصلهم: قبل الحديث عن خروج يأجوج ومأجوج أرى من المناسب أن نتعرف على أصلهم، وماذا يعني لفظ (يأجوج) و (مأجوج)؟ يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان، وقيل: عربيان، وعلى هذا يكون اشتقاقهما من أَجَّت النار أجيجًا: إذا التهبت أو من الأجاج: وهو الماء الشديد الملوحة المحرق من ملوحته. وقيل عن الأج: وهو سرعة العدو. وقيل: مأجوج من ماج؛ إذا اضطرب. وهما على وزن يفعول في (يأجوج)، ومفعول في (مأجوج)، أو على وزن فاعول فيهما، هذا إذا كان الاسمان عربيين، أما إذا كانا أعجميين؛ فليس لهما اشتقاق؛ لأن الأعجميَّة لا تُشتَقُّ من العربية، وقرأ الجمهور "ياجوج" وماجوج"؛ بدون همز، فتكون الألفان زائدتين، وأصلهما (يجج)، و (مجج)، وأما قراءة عاصم؛ فهي الهمزة الساكنة فيهما، وكل ما ذُكِرَ في اشتقاقهما مناسب لحالهم، ويؤيد الاشتقاق من (ماج) بمعنى اضطرب قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [الكهف: ٩٩]، وذلك عند خروجهم من السد. وأصل يأجوج ومأجوج من البشر، من ذرية آدم وحواء عليهما السلام، وقد قال بعض العلماء: إنهم من ذرِّية آدم لا من حواء، وذلك أن آدم احتلم، فاختلط منيُّه بالتراب، فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، وهذا مما لا دليل عليه، ولم يرد عمَّن يجب قبول قوله، والذي يدلُّ على أنهم من ذرِّيَّة آدم عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله تعالى يا آدم! فيقول لبيلك وسعديك، والخير في يديك فيقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين فعنده

=

=
يشيب الصغير، وتضع كلُّ ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد قالوا: وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال أبشروا؛ فإن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج ألف).

* أدِلَّة خروج يأجوج ومأجوج: خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان علامة من علامات السَّاعة الكبرى، وقد دل على ظهورهم الكتاب والسنة:

أ- الأدلَّة من القرآن الكريم:

١- قال الله تعال {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

٢- وقال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)} [الكهف: ٩٢ - ٩٩]. فهذه الآيات تدلُّ على أن الله تعالى سخر ذا القرنين الملك الصالح لبناء السد العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض وبين الناس، فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت السَّاعة؛
=

=

اندك هذا السد، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمع كبير، لا يقف أمامه أحد من البشر، فماجوا في الناس، وعاثوا في الأرض فسادًا، وهذا علامة علامة قرب النفخ في الصور، وخراب الدُّنيا، وقيام السَّاعة؛ كما سيأتي بيان ذلك في الأحاديث الثابتة.

ب- الأدلَّة من السنة المطهرة: الأحاديث الدالَّة على ظهور يأجوج ومأجوج كثيرة، تبلغ حد التواتر المعنوي، سبق ذكر بعض منها، وسأذكر هنا طرفًا من هذه الأحاديث: فمنها ما ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسل مدخل عليها يومًا فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها) قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ)، ومنها ما جاء في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: "إذا أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجتُ عبادًا لي لا يَدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرة طبريَّة، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدةٍ، ثم يُهبَطُ بنبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهم ونَتَنُهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله) رواه مسلم، وزاد في رواية - بعد قوله: (لقد كان بهذه مرة ماء"-: "ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد

=

=

قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابه إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا)، ومنها حديث أبي هريرة رَضِّوَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ: (فذكر الحديث، وفيه): (ويخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفر الناس منهم، فيرمون سهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وغلبنا من في السماء قوة وعلوًا قال: "فيبعث الله عَزَّوَجَلَّ عليهم نَغَفًا في أقفائهم" قال: "فيهلكهم، والذي نفس محمد بيده؛ إن دوابَّ الأرض لتسمن، وتبطر، وتشكر شكرًا، وتسكر سكرًا من لحومهم).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُٱللَّهُ في لمعة الاعتقاد (ص٣٠): " ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وما جهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه مثل حديث الإسراء والمعراج... إلى أن قال: ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج...".

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم (٦/ ١١٥، ١١٦): " الأحاديث الواردة في يأجوج ومأجوج: هذه الأخبار على حقيقتها يجب الإيمان بها؛ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، وقد ورد في خبرهم أنه لا قدرة لأحد على قتالهم من كثرتهم، وأنهم يحصرون نبي الله عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ومن معه من المؤمنين الذين نجوا من الدجال، فيدعو عليهم فيهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين بالنغف - وهو دود في رقابهم - فيؤذون الأرض والمؤمنين بنتنهم، فيدعو عيسى وأصحابه ربهم فيرسل الله طيرا فتحملهم حيث شاء الله".

وقال السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ في لوامع الأنوار (٢/ ١١٦): " إن خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل فوجب اعتقاده".

=

* سدُّ يأجوج ومأجوج: بنى ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج ليحجز بينهم وبين جيرانهم الذين استغاثوا به منهم، أما مكانه: ففي جهة المشرق لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ} [الكهف: ٩٠] وقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٣/ ٩٩) قصة عن السد ومحاولة بعض الملوك الوصول إليه فقال: وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشا سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فوصلوا من بلاد إلى بلاد ومن ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حراسا من الملوك المتاخمة له وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالا وعجائب.

ولم يذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ سندا لهذه القصة، ولم يتكلم عليها بشيء. والذي تدل عليه الآيات السابقة أن هذا السد بني بين جبلين لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} [الكهف: ٩٣] والسدان: هما جبلان متقابلان، ثم قال: {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} [الكهف: ٩٦] أي حاذى به رؤوس الجبلين وذلك بزبر الحديد ثم أفرغ عليه نحاسا مذابا فكان سدّا محكما.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ : «قال رجل للنبي ﷺ: رأيت السد من البرد المحبر. قال: " قد رأيته».

وعلى العموم البحث في تحديد مكان السد لا يهم كثيرا؛ ولا يحصل بعدم معرفته خلل في الاعتقاد؛ لأن المقصود بيان أن ما أخبرنا الله تعالى به، وما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن سد يأجوج ومأجوج موجود إلى أن يأتي الوقت المحدد لدك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج، وذلك عند دنو الساعة بهما في قوله ﷻ: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

=
حَقًّا - وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [الكهف: ٩٨ - ٩٩] كل ذلك: حقيقة يجب التصديق به.

والذي يدل على أن السد موجود ولم يندك، حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ في السد قال: «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا، قال: فيعيده الله ﷿ كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا إن شاء الله تعالى واستثنى، قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم».

قال الحافظ ابن حجر ﵀ في الفتح (١٣/ ١٩٠): قال ابن العربي - ﵀: " في هذا الحديث ثلاث آيات: الأولى: أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلا ونهارا، والثانية: منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بسلم أو آلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، الثالثة: أنه صدهم عن أن يقولوا: إن شاء الله حتى يجيء الوقت المحدد". فخروجهم الذي هو من أشراط الساعة الكبرى في آخر الزمان لم يقع؛ لأن الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ تدل على أن خروجهم بعد نزول عيسى ﵇، وهو الذي يدعو الله ﷿ بأن يهلكهم فيهلكون ويسلم الناس من شرهم.

فيجب على كل مسلم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة عن السد ويأجوج ومأجوج، ولا عبرة بمن أنكر وجود يأجوج ومأجوج ووجود السد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين الناس بحجة ظهور دول الكفر المتقدمة في الصناعة، وأن هؤلاء استطاعوا أن يكتشفوا كل ما في الأرض ولم يتركوا منها شيئا إلا أتوا عليه، ولكنهم لم يعثروا على يأجوج ومأجوج، ولم يروا سد ذي القرنين، ولا شك أن هذا قول فاسد؛ لأنه تكذيب صريح لما جاء في كتاب الله ﷿، ولما أخبر به رسولنا ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ومن كذب بشيء جاء في كتاب الله ﷿ وسنة رسوله
=

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١).

{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا} الْمَنْزِلَة {الْحُسْنَى} ومنهم من ذكر {أولئك عنها مبعدون}.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢).

{لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسهَا} صَوْتهَا {وَهُمْ فِي مَا اشتهت أنفسهم} من النعيم {خالدون}.

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣).

{لَا يُحْزِنهُمْ الْفَزَع الْأَكْبَر} وَهُوَ أَنْ يُؤْمَر بِالْعَبْدِ إلَى النَّار {وَتَتَلَقَّاهُمْ}

=

ﷺ فقد كفر، كما قال تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} [العنكبوت: ٤٧]. وأما دعواهم أن الأرض اكتشفت كلها ولم يجدوا فيها يأجوج ومأجوج والسد، فهي دعوى باطلة تدل على عجز البشر وقصورهم؛ لأن معرفة جميع بقاع الأرض والإحاطة بما فيهما من المخلوقات لا يقدر عليها إلا الله ﷻ الذي أحاط بكل شيء علما، ولا يلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم؛ لأنه قد يكون الله ﷻ صرفهم عن رؤية يأجوج ومأجوج ورؤية السد، أو جعل بينهم وبين الناس أشياء تمنع من الوصول إليهم كما حصل لبني إسرائيل حين ضرب الله عليهم التيه في فراسخ قليلة من الأرض، فلم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، جعل لكل شيء أجلا ووقتا، قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ - لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٦ - ٦٧]. وما عجز الأوائل عن اكتشاف ما اكتشفه المتأخرون إلا لأن الله ﷻ جعل لكل شيء أجلا.

تَسْتَقْبِلهُمْ {الْمَلَائِكَة} عِنْد خُرُوجهمْ مِنْ الْقُبُور يَقُولُونَ لَهُمْ {هَذَا يَوْمكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} فِي الدُّنْيَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آية في كتاب الله ﷻ لا يسألني الناس عنها ولا أدري أعرفوا ولا يسألوني عنها فسئل ما هي قال لما نزلت {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} شق ذلك على أهل مكة، وقالوا شتم محمد آلهتنا، فجاءهم ابن الزبعري فقال ما شأنكم؟ قالوا شتم محمد آلهتنا. قال: وما قال. قالوا: قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} قال ادعوه لي، فدعا محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال ابن الزبعري يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل ما عبد من دون الله؟ قال: "بل لكل ما عبد من دون الله ﷻ". قال: فقال خصمناه ورب هذه البنية يا محمد ألست تزعم أن عيسى عبد صالح وعزيرا عبد صالح والملائكة عباد صالحون قال: "بلى". قال فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيرا وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، قال فضج أهل مكة، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} قال ونزلت {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}.

أخرجه بنحوه أحمد (١/ ٣١٧ - ٣١٨)، والطحاوي في المشكل (٣/ ١٥ رقم ٩٨٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١١٨، رقم ١٢٧٣٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٠٦)، والحافظ ابن حجر في الموافقة (٢/ ١٧٢) وغيرهم والحديث قال عنه الحافظ ابن حجر في الموافقة: هذا حديث حسن، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الألباني في صحيح السيرة ص ١٩٨: وهذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك، لأنهم قومٌ عرب، ومن لغتهم أن (ما) لِمَا لَا يَعقِل، فقوله: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، =

=

أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} إنما أراد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صُوَر أصنام، وذكره الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص١٣٥-١٣٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٥/ ٨٦): إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عاصم- وهو ابن أبي النجود- فقد روى له أصحاب السنن، وحديثه في الصحيحين مقرون، وهو صدوق حسن الحديث، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٤٩٤): صحيح لغيره.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)}؛ قال المشركون: فإن عيسى وعزيرًا والشمس والقمر يُعْبَدن؛ فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٩٧)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (٣/ ١٥ رقم ٩٨٥)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢٣٦، ٢٣٧ رقم ٦٥٩)، والخطيب البغدادي في "الفقيه والمتفقه" (١/ ٢٢٤، ٢٢٥ رقم ٢٢٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "موافقة الخبر الخبر" (٢/ ١٧٣) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ٣٠٤، ٣٠٥ رقم ٣٢٤) - من طريق أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف؛ عطاء بن السائب اختلط، ولم يرو عنه أبو كدينة قبل الاختلاط. لكن له طريق أخرى، يأتي بعده؛ فيصح الحديث بها.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في عثمان وأصحابه، أو قال: عثمان منهم.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٢/ ٥١ - ٥٢ رقم ١٢١٠١)، وأحمد في "فضائل الصحابة" (١/ ٤٧٤ - ٤٧٥ رقم ٧٧١)، وابن أبي عاصم في "السنة"

=

=

(٢/ ٨١٧ رقم ١٢٥١)، والطحاوي في "المشكل" (٣/ ٢١ - ط الرسالة)، والطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٩٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٥/ ٤٨٩)، وإبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي في "الأمالي" (ق ١٠٩/ أ)، والبلاذري في "أنساب الأشراف" (٥/ ١٠)، والمحاملي في "الأمالي" (ص ٢١٠ رقم ١٩٥ - رواية ابن البيع)، وأبو الخير القزويني في "قربة الدارين في مناقب ذي النورين" (ق ٩٠/ أ)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (ص ٤٧١ - المطبوع - عثمان بن عفان) من طريق شعبة عن أبي بشر عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب، قال: سمعت عليًا ﷺ يخطب وتلا هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} قال: (فذكره).

قلنا: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات ومحمد بن حاطب صحابي صغير، ويوسف بن سعد ثقة، وجاءت نسبته في "المصنف"، و"السنة": يوسف بن ماهك. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٦٨١) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وعن النعمان بن بشير: أن عليًا قرأ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)}، فقال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وسعد وعبد الرحمن منهم.

أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي وابن مردويه في "تفاسيرهم"، وابن عدي في "الكامل"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٢/ ٣٧١ - ٣٧٢)، و"تفسير القرآن العظيم" (٥/ ٤٨٨) من طريق ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: جهالة ابن عم النعمان بن بشير. والثانية: ليث بن أبي سليم؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} [الأنبياء: ١٠١]، أي:"إن الذين سبقت لهم منا سابقة السعادة الحسنة في علمنا بكونهم من أهل الجنة".

=

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} [الأنبياء: ١٠١]، وجوه:
أحدها: أنها الطاعة لله تعالى: حكاه ابن عيسى.
والثاني: السعادة من الله، وهذا قول ابن زيد.
قال ابن زيد:"الحسنى: السعادة، سبقت السعادة لأهلها من الله، وسبق الشقاء لأهله من الله".
والثالث: الجنة، وهو قول الحسن، والسدي، ومقاتل.
قال الحسن:"الحسنى: الجنة، سبقت من الله ﷻ لكل مؤمن".
الرابع: أنها الوعد. حكاه النحاس.
الخامس: أنها التوبة. أفاده الماوردي.
قال الطبري:"«الحسنى»: من «الحسن»، وإنما عني بها السعادة السابقة من الله لهم".
قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١]، أي:"أولئك عن النار مبعدون، فلا يدخلونها ولا يكونون قريبًا منها".
وفي قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١]، ثلاثة أقوال:
أحدها: أنهم عيسى والعزير والملائكة الذين عُبِدوا من دون الله وهم كارهون وهذا قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد.
وقال ابو صالح، والضحاك:"عيسى، وأمه، وعزير، والملائكة".
وقال ابن إسحاق: أي:"عيسى ابن مريم، وعزير، ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذي مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله".
وقال سعيد بن جبير أنه:"عيسى -عليه السلام-".
وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: " {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

=

أولئك عنها مبعدون}، قال: «عيسى وعزير، والملائكة»".

الثاني: أنهم علي بن ابي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن العفان، والزبير، وطلحة، وسعد، وعبدالرحمن. رواه النعمان بن بشيرعن علي بن أبي طالب.

وروي عن علي بن ابي طالب، قال:"عثمان بن عفان".

الثالث: أنها عامة في كل من سبقت له من الله الحسنى، فإنه مبعد عن النار. ذكره الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: عني به: ما كان من معبود، كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع وعابدوه بعبادتهم إياه بالله كفار".

قال البغوي:"قيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة. وقال أكثر المفسرين: عني بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره".

قال ابن عباس، قوله: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى}، قال:"أولئك أولياء الله، يمرون على الصراط مرا هو أسرع من البرق فلا تصيبهم يسمعون حسيسها ويبقى الكافر فيها جبيسا".

قال ابن عاشور: جملة إن الذين سبقت لهم منا الحسنى مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولما كان فريق القرية هم المشركين فالفريق المقابل له هم المؤمنون. ولا علاقة لهذه الجملة بجملة إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم [الأنبياء: ٩٨] ولا هي مخصصة لعموم قوله تعالى: وما تعبدون من دون الله بل قوله تعالى: والذين سبقت لهم منا

=

=

الحسنى عام يعم كل مؤمن مات على الإيمان والعمل الصالح.

والسبق، حقيقته: تجاوز الغير في السير إلى مكان معين، ومنه سباق الخيل، واستعمل هنا مجازا في ثبوت الأمن في الماضي، يقال كان هذا في العصور السابقة، أي التي مضت أزمانها لما بين السبق وبين التقدم من الملازمة، أي الذين حصلت لهم الحسنى في الدنيا، أي حصل لهم الإيمان والعمل الصالح من الله، أي بتوفيقه وتقديره، كما حصل الإهلاك لأضدادهم بما قدر لهم من الخذلان.

والحسنى: الحالة الحسنة في الدين، قال تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [يونس: ٢٦] أو الموعدة الحسنى، أي تقرر وعد الله إياهم بالمعاملة الحسنى. وتقدم في سورة يونس.

وذكر الموصول في تعريفهم لأن الموصول للإيماء إلى أن سبب فوزهم هو سبق تقدير الهداية لهم. وذكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدم على اسم الإشارة من الأوصاف، وهو سبق الحسنى من الله. واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم، والرفعة تشبه بالبعد.

قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} [الأنبياء: ١٠٢]، أي:"لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها".

قال الحسن:"يعني: صوتها".

قال ابن سلام البغدادي: أي:"لا يسمعون جلبتها بلغة قريش".

قال مقاتل:"يقول: لا يسمع أهل الجنة صوت جهنم حين يقال لهم: اخسئوا فيها، ولا تكلموا، فتغلق عليهم أبوابها فلا تفتح عنهم أبدا ولا يسمع أحد صوتها".

قال أبو عبيدة:"{لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها}، أي: صوتها والحسيس والحسّ واحد «٣» قال عبيد بن الأبرص:

=

=

فاشتال وارتاع من حسيسها... وفعله يفعل المذءوب".

عن أبي عثمان النهدي، قوله: " {لا يسمعون حسيسها}، قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قالوا: حس.. حس".

عن ابن عم النعمان بن بشير قال: "وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون}، قال: أنا منهم، وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم أو قال: سعد منهم، قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: {لا يسمعون حسيسها}".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠٢]، أي:"وأصبحوا فيما تشتهيه نفوسهم من نعيم الجنة ولذاتها مقيمين إقامةً دائمة".

قال مقاتل:"يعني: لايموتون".

قال ابن كثير:"فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب".

وجملة لا يسمعون حسيسها بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد مما يبلغ منه المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم. وجيء فيه بما يدل على العموم وهو في ما اشتهت أنفسهم وما يدل على الدوام وهو خالدون. والشهوة: تشوق النفس إلى ما يلذ لها.

وجملة لا يحزنهم الفزع خبر ثان عن الموصول.

=

=

قوله تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [الأنبياء: ١٠٣]، أي:"لا يخيفهم الهول العظيم يوم القيامة".

وفي قوله تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} [الأنبياء: ١٠٣]، اقوال:

أحدها: أن «الفزع الأكبر»: النفخة الأخيرة، وهذا قول ابن عباس، والحسن.

الثاني: أنه ذبْحُ الموتِ بين الجنة والنار، قاله ابن جريج، وأبو بكر الهذلي.

الثالث: أنه الموت. قاله عطاء.

الرابع: أنه انصراف العبد حين يؤمر به إلى النار. قاله الحسن.

الخامس: حين تطبق جهنم على أهلها، وهذا قول سعيد بن جبير، والكلبي.

السادس: أنه العرض في المحشر. افاده الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وآمن منه، فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده".

قوله تعالى: {وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠٣]، أي:"تبشرهم الملائكة، قائلين: هذا يومكم الذي وُعِدتُم فيه الكرامة من الله وجزيل الثواب".

قال الطبري:"يقول: وتستقبلهم الملائكة يهنئونهم يقولون: {هذا يومكم الذي كنتم توعدون} فيه الكرامة من الله والحباء والجزيل من الثواب على ما كنتم تنصبون في الدنيا لله في طاعته".

قال ابن زيد:"هذا قبل أن يدخلوا الجنة".

والفزع: نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع. والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم.

=

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤).

{يوم} منصوب باذكر مُقَدَّرًا قَبْله {نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلّ} اسْم ملك {للكتاب} صحيفة بن آدَم عِنْد مَوْته وَاللَّام زَائِدَة أَوْ السِّجِلّ الصَّحِيفَة وَالْكِتَاب بِمَعْنَى الْمَكْتُوب وَاللَّام بِمَعْنَى عَلَى وَفِي قِرَاءَة لِلْكُتُبِ جَمْعًا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّل خَلْق} مِنْ عَدَم {نُعِيدهُ} بَعْد إعْدَامه فَالْكَاف مُتَعَلِّقَة بِنُعِيد وَضَمِيره عَائِد إلَى أَوَّل وَمَا مَصْدَرِيَّة {وَعْدًا عَلَيْنَا} مَنْصُوب بِوَعَدْنَا مُقَدَّرًا قَبْله وَهُوَ مُؤَكِّد لِمَضْمُونِ مَا قَبْله {إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} مَا وَعَدْنَاهُ.

=

وذلك مفاد قوله تعالى: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون فهؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى: ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله [النمل: ٨٧].

والتلقي: التعرض للشيء عند حلوله تعرض كرامة. والصيغة تشعر بتكلف لقائه وهو تكلف تهيؤ واستعداد.

وجملة هذا يومكم الذي كنتم توعدون مقول لقول محذوف، أي يقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون، تذكيرا لهم بما وعدوا في الدنيا من الثواب، لئلا يحسبوا أن الموعود به يقع في يوم آخر. أي هذا يوم تعجيل وعدكم. والإشارة باسم إشارة القريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنه اليوم الحاضر.

وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه كقول جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... هذا زمانك إني قد خلا زمني

أي هذا الزمن المختص بك، أي لتتصرف فيه.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥).

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُور} بِمَعْنَى الْكِتَاب أَيْ كُتُب الله الْمُنَزَّلَة {مِنْ بَعْد الذِّكْر} بِمَعْنَى أُمّ الْكِتَاب الَّذِي عِنْد الله {أَنَّ الْأَرْض} أَرْض الْجَنَّة {يَرِثهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} عَام فِي كل صالح.

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦).

{إِنَّ فِي هَذَا} الْقُرْآن {لَبَلَاغًا} كِفَايَة فِي دُخُول الْجَنَّة {لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} عَامِلِينَ بِهِ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧).

{وَمَا أَرْسَلْنَاك} يَا مُحَمَّد {إِلَّا رَحْمَة} أَيْ لِلرَّحْمَةِ {لِلْعَالَمِينَ} الْإِنْس وَالْجِنّ بِك.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨).

{قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكُمْ إِلَه وَاحِد} أَيْ مَا يُوحَى إِلَيَّ فِي أَمْر الْإِلَه إِلَّا وَحْدَانِيّته {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} مُنْقَادُونَ لِمَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ وَحْدَانِيَّة الْإِلَه وَالِاسْتِفْهَام بمعنى الأمر.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩).

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} عَنْ ذَلِكَ {فَقُلْ آذَنْتُكُمْ} أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ {عَلَى سَوَاء} حَال مِنْ الْفَاعِل وَالْمَفْعُول أَيْ مُسْتَوِينَ فِي عِلْمه لَا أَسْتَبِدّ بِهِ دُونكُمْ لِتَتَأَهَّبُوا {وَإِنْ} مَا {أَدْرِي أَقَرِيب أَمْ بَعِيد مَا تُوعَدُونَ} مِنْ الْعَذَاب أَوْ الْقِيَامَة الْمُشْتَمِلَة عَلَيْهِ وَإِنَّمَا يَعْلَمهُ الله.

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)،

{إِنَّهُ} تَعَالَى {يَعْلَم الْجَهْر مِنْ الْقَوْل} وَالْفِعْل مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْركُمْ {وَيَعْلَم مَا تَكْتُمُونَ} أَنْتُمْ وَغَيْركُمْ مِنْ السِّرّ.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١).

{وَإِنْ} مَا {أَدْرِي لَعَلَّهُ} أَيْ مَا أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ وَلَمْ يُعْلَم وَقْته {فِتْنَة} اخْتِبَار {لَكُمْ} لِيُرَى كَيْفَ صُنْعكُمْ {وَمَتَاع} تَمَتُّع {إِلَى حِين} أي انقضاء آجالكم وهذا مقابل لِلْأَوَّلِ الْمُتَرَجَّى بِلَعَلَّ وَلَيْسَ الثَّانِي مَحَلًّا لِلتَّرَجِّي.

قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢).

{قُلْ} وَفِي قِرَاءَة قَالَ {رَبّ أُحْكُمْ} بَيْنِي وَبَيْن مُكَذِّبِي {بِالْحَقِّ} بِالْعَذَابِ لَهُمْ أَوْ النَّصْر عَلَيْهِمْ فَعُذِّبُوا بِبَدْرٍ وَأُحُد وَحُنَيْن وَالْأَحْزَاب وَالْخَنْدَق وَنُصِرَ عَلَيْهِمْ {وَرَبّنَا الرَّحْمَن الْمُسْتَعَان عَلَى مَا تَصِفُونَ} مِنْ كَذِبكُمْ عَلَى الله فِي قَوْلكُمْ اتَّخَذَ وَلَدًا وَعَلَيَّ فِي قَوْلكُمْ سَاحِر وَعَلَى الْقُرْآن فِي قَوْلكُمْ شِعْر[١] .

---

(١) وفي قوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [الأنبياء: ١٠٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن السجل الصحيفة تطوى على ما فيها من الكتابة، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

الثاني: أنه الملك. قاله ابن عمر، والسدي.

قال ابن عمر: "السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نورا".

قال السدي: "السجل ملك موكل بالصحف، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة".

الثالث: أنه كاتب يكتب بين يدي رسول الله -ﷺ-، وهذا قول ابن عباس أيضا.

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع الصحيفة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا يعرف لنبينا ﷺ كاتب كان اسمه السجل، ولا في الملائكة ملك ذلك اسمه".

وقرئ: «يوم تطوى السماء» بالتاء وضمها، على وجه ما لم يسم فاعله.

قوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]، أي:"ونبعث فيه الخلق على هيئة خَلْقنا لهم أول مرة كما ولدتهم أمهاتهم".

وفي قوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]، وجهان:

أحدهما: معناه: نعيد الخلق عراة حفاة غرلا يوم القيامة، كما بدأناهم أول مرة في حال خلقناهم في بطون أمهاتهم. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "يحشر الناس حفاة عراة غزلا فأول من يكسى إبراهيم" ثم قرأ: {كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين}".

عن مجاهد، " {أول خلق نعيده}، قال: حفاة عراة غرلا".

عن عقبة بن عامر الجهني، قال: "يجمع الناس في صعيد واحد ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة، كما خلقوا أول يوم".

عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة مشاة غرلا قلت: يا أبا عبد الله ما الغرل؟ قال: الغلف، فقال بعض أزواجه: يا رسول الله، أينظر بعضنا إلى بعض إلى عورته؟ فقال لكل امرئ يومئذ ما يشغله عن النظر إلى عورة أخيه"، قال هلال: قال سعيد بن جبير {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة}، قال: كيوم ولدته أمه، يرد عليه كل شيء انتقص منه مثل يوم ولد".

قالت عائشة-رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: "دخل علي رسول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي، فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها العجزة، قالت: فأخذ العجوز ما أخذها،

=

فقال: إن الله ينشئهن خلقا غير خلقهن، ثم قال: يحشرون حفاة عراة غلفا، فقالت: حاش لله من ذلك، قال رسول الله ﷺ: بلى إن الله قال: {كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا}... إلى آخر الآية، فأول من يكسى إبراهيم خليل الله".

الثاني: معناه: كما كنا ولا شيء غيرنا قبل أن نخلق شيئا، كذلك نهلك الأشياء فنعيدها فانية، حتى لا يكون شيء سوانا. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"نهلك كل شيء كما كان أول مرة".

قوله تعالى: {وَعْدًا عَلَيْنَا} [الأنبياء: ١٠٤]، أي:"وَعَدْنا بذلك وعدًا حقًا علينا".

قال الطبري:"يقول: وعدناكم ذلك وعدا حقا علينا أن نوفي بما وعدنا".

قال ابن كثير:"يعني: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقًا جديدًا، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك".

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، أي:"إنا كنا فاعلين دائمًا ما نَعِدُ به".

قال الطبري: يقول: "إنا كنا فاعلي ما وعدناكم من ذلك أيها الناس، لأنه قد سبق في حكمنا وقضائنا أن نفعله، على يقين بأن ذلك كائن، واستعدوا وتأهبوا".

يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب السجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

فقوله سبحانه: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ.. الظرف فيه منصوب بقوله تعالى قبل ذلك لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ أو بقوله سبحانه: وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ.

وقوله: نَطْوِي من الطى وهو ضد النشر. والسجل: الصحيفة التي يكتب فيها.

=

والمراد بالكتب: ما كتب فيها من الألفاظ والمعاني، فالكتب بمعنى المكتوبات. واللام بمعنى على.

والمعنى: إن الملائكة تتلقى هؤلاء الأخيار الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى بالفرح والسرور، يوم يطوى سبحانه السماء طيا مثل طي الصحيفة على ما فيها من كتابات.

وفي هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته تعالى في منتهى السهولة واليسر، حيث شبه طيه السماء بطى الصحيفة على ما فيها.

وقيل: إن لفظ السِّجِلِّ اسم لملك من الملائكة كما تقدم، وهو الذي يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم، وهو ضعيف والصواب القول الأول.

وأما ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبي صلوات الله عليه، كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما، فأثر منكر لا يصح.وقد أخرجه من طرق أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥)، ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٠٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٢٠)، والطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٠)، والطبراني (١٢٧٩٠)، وأبو نعيم في المعرفة (٣٦٨٦)، والبيهقي (١٠/ ١٢٦)، والحديث قال عنه شيخ الإسلام والحافظ أبو الحجاج المزي: موضوع كما قال ابن كثير في البداية والنهاية، وفي تفسيره، وضعفه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٠٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٢٠)، والذهبي في الميزان (٤/ ٣٩٩)، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٨٣): وهذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلا وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضا. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه -وإن كان في سنن أبي داود-منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، فسح الله في عمره، ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءا على حدة، ولله الحمد. وقد تصدى

=

=

الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث. وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة والعوفي، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب} أي: على هذا الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: {فلما أسلما وتله للجبين} [الصافات:١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم ا. هـ وأما العلامة الألباني فقد ضعفه فقط في ضعيف أبي داود، وكذا ضعفه الشيخ مشهور في طبعته (٦/ ٣٦)، وقال الشنقيطي: وقول من قال: إن السجل صحابي، كاتب للنبي ﷺ؛ ظاهر السقوط كما ترى.

والإضافة في قوله كَطَيِّ السِّجِلِّ من إضافة المصدر إلى مفعوله، والجار والمجرور صفة لمصدر مقدر. أى. نطوى السماء طيا كطي الرجل أو الملك الصحيفة على ما كتب فيها.

وقرأ أكثر القراء السبعة: للكتاب بالإفراد. ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب.

وقوله تعالى: كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ بيان لصحة الإعادة قياسا على البدء، إذ الكل داخل تحت قدرته- عَجَّلَّ.

أى: نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه، دون أن ينالنا تعب أو يمسنا لغوب، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء: قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...

=

=

قال الزمخشري: «وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوله إيجاده من العدم، فكما أوجده أولا عن عدم. يعيده ثانيا عن عدم».

وقوله تعالى: وَعْدًا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ تأكيد للإعادة. ولفظ «وعدا» منصوب بفعل محذوف. و «علينا» في موضع الصفة له.

أي: هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا، إنا كنا محققين هذا الوعد، وقادرين عليه، والعاقل من يقدم في دنياه العمل الصالح الذي ينفعه عند بعثه للحساب.

ثم ساق سبحانه سنة من سننه التي لا تتخلف فقال: وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ، أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ} [الأنبياء: ١٠٥]، أي:"ولقد كتبنا في الكتب المنزلة من بعد ما كُتِب في اللوح المحفوظ".

قال الطبري: يقول:"ولقد قضينا، فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أم الكتاب".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ} [الأنبياء: ١٠٥]، أربعة أقوال:

أحدها: أن الزبور الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه، و «الذكر» أُمّ الكتاب الذي عنده في السماء، وهذا قول مجاهد، وابن زيد.

قال ابن زيد:"الزبور: الكتب التي أنزلت على الأنبياء، و «الذكر»: أم الكتاب الذي تكتب فيه الأشياء قبل ذلك".

وقال سعيد بن جبير:"{الذكر}: الذي في السماء".

قال الزجاج:"الزبور: جميع الكتب، التوراة، والإنجيل، والفرقان، زبور، لأن الزبور والكتاب بمعنى واحد. ويقال زبرت وكتبت بمعنى واحد، والمعنى: ولقد كتبنا في الكتب من بعد ذكرنا في السماء {الأرض يرثها عبادي الصالحون}".

=

=

والثاني: أن «الذكر»: التوراة، و «الزبور»: الكتب. قاله ابن عباس، والضحاك.
قال الضحاك:"«الذكر»: التوراة، ويعني بـ «الزبور من بعد التوراة»: الكتب".
الثالث: أن «الزبور»: القرآن، و «الذكر»: التوراة، والمعنى: كتبنا في القرآن بعد التوراة. وهذا قول سعيد بن جبير.
الرابع: أن «الزبور»: زبور داود، و «الذكر»: توراة موسى صلى الله عليهما. وهذا قول عامر الشعبي.
قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك ما قاله سعيد بن جبير ومجاهد ومن قال بقولهما في ذلك، من أن معناه: ولقد كتبنا في الكتب من بعد أم الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه قبل خلق السماوات والأرض، وذلك أن الزبور هو الكتاب، يقال منه: زبرت الكتاب وذبرته: إذا كتبته، وأن كل كتاب أنزله الله إلى نبي من أنبيائه، فهو ذكر. فإذ كان ذلك كذلك، فإن في إدخاله الألف واللام في الذكر، الدلالة البينة أنه معني به ذكر بعينه معلوم عند المخاطبين بالآية، ولو كان ذلك غير أم الكتاب التي ذكرنا لم تكن التوراة بأولى من أن تكون المعنية بذلك من صحف إبراهيم، فقد كان قبل زبور داود".
قوله تعالى: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، أي:"أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون الذين قاموا بما أُمروا به، واجتنبوا ما نُهوا عنه".
قال الطبري: " يعني بذلك: أن أرض الجنة يرثها عبادي العاملون بطاعته، المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده، دون العاملين بمعصيته منهم المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته".
قال سهل بن عبد الله:"أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح، معناه: لا يصلح إلا ما كان خالصا لي، لا يكون لغيري فيه أثر، وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله، وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه".

=

=

وفي قوله تعالى: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، وجوه:

أحدها: أنها أرض الجنة يرثها أهل الطاعة، وهذا قول ابن عباس، سعيد بن جبير، وابي العالية، ومجاهد، وابن زيد.

قال الزجاج:"قيل في التفسير إنها أرض الجنة، ودليل هذا القول قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ} [المؤمنون: ١٠ - ١١]".

قال ابن عباس:"أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض، أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون".

قال ابن زيد:"فالجنة مبتدؤها في الأرض ثم تذهب درجات علوا، والنار مبتدؤها في الأرض، وبينهما حجاب سور ما يدري أحد ما ذاك السور، وقرأ {باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب} ـ قال: ودرجها تذهب سفالا في الأرض، ودرج الجنة تذهب علوا في السماوات".

الثاني: أنها أرض الدنيا، والذي يرثها أمة محمد -ﷺ-، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

قال الزجاج:"وهذا القول أشبه، كما قال الله ﷻ: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الجمعة: ١، التغابن:١]، والأرض إذا ذكرت فهي دليلة على الأرض التي نعرفها، ودليل هذا القول أيضا: قوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأعراف: ١٣٧]. وهذه الآية من أجل شواهد الفقهاء أن الأرض ليس مجراها مجرى سائر ما يعمر".

الثالث: أنها الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث. وهذا قول عامر بن عبد الله.

=

=

قال صفوان:"سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان: هل لأنفس المؤمنين مجتمع؟ قال: فقال: إن الأرض التي يقول الله: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون}، قال: هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث".

الرابع: أنها الأرض المقدسة يرثها بنو إسرائيل، وهذا قول الكلبي.

قال القرطبي:"أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير، لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم".

فيكون المعنى: ولقد كتبنا في الكتب السماوية، من بعد كتابتنا في اللوح المحفوظ: أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين.

وهذا القول يؤيده قوله تعالى في شأن المؤمنين: وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ.

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا: أرض الدنيا فيكون المعنى: ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التي يعيش عليها الناس مؤمنهم وكافرهم، ستكون في النهاية لعبادنا الصالحين.

قال الآلوسى ما ملخصه: أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالأرض في الآية: أرض الجنة، وإنها الأرض التي يختص بها الصالحون. لأنها لهم خلقت، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع، وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون. ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون. ويستولون عليها.

أخرج مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى زوى لي الأرض

=

=

فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها..».

وقد سار على التعميم ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية: «يقول الله تعالى مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وقال سبحانه إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

وقال الشنقيطي: واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية. ومن ذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن المراد بالأرض في قوله هنا: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)} فيه للعلماء وجهان:

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. وهذا القول يدل له قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)} وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة "مريم".

الثاني: أن المراد بالأرض: أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا؛ ويدل لهذا قوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)}، وقوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} الآية، وقوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)}، وقوله تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} الآية، وقوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} إلى غير ذلك من

=

=

الآيات. ا.هـ

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية، فهو كائن لا محالة، ولهذا قال: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ...

قال الشنقيطي: أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة: أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك. وأن المراد بالذِّكْر: أم الكتاب، وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب.

وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة؛ وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد. ا.هـ

قوله تعالى: {إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)} [الأنبياء: ١٠٦]

قال الطبري:"إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ لبلاغا لمن عبد الله بما فيه من الفرائض التي فرضها الله إلى رضوانه، وإدراك الطلبة عنده".

قال ابن الجوزي: المعنى:"أن من اتبع القرآن وعمل به، كان القرآن بلاغه إلى الجنة".

عن كعب، قوله:"{إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين} -قال: صوم شهر رمضان، وصلاة الخمس، قال: هي ملء اليدين والبحر عبادة".

قال كعب:"والذي نفس كعب بيده، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين، إنهم لأهل، أو أصحاب الصلوات الخمس، سماهم الله عابدين".

عن الجريري، قال: "قال كعب الأحبار {إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين}: لأمة محمد".

=

=

عن ابن عباس، قوله:"{إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين}، يقول: عاملين".

قال ابن جريج:"يقولون في هذه السورة لبلاغا".

وقال ابن زيد:"إن في هذا لمنفعة وعلما لقوم عابدين، ذاك البلاغ".

قال سهل بن عبد الله:"لم يجعله بلاغا لجميع عباده، بل خصه لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله تعالى، وبذلوا له مهجهم، لا من أجل عوض، ولا من أجل الجنة، ولا من أجل النار، بل حبا له وافتخارا بما أهلهم لعبادتهم إياه، والله سبحانه وتعالى أعلم".

واسم الإشارة في قوله تعالى: إِنَّ فِي هذا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عابِدِينَ يعود على القرآن الكريم الذي منه هذه السورة.

والبلاغ: الشيء الذي يكفى الإنسان للوصول إلى غايته. يقال: في هذا الشيء بلاغ أى: كفاية أو سبب لبلوغ المقصد.

أى: إن في هذا القرآن، وفيما ذكر في هذه السورة من آداب وهدايات، وعقائد وتشريعات، لبلاغا وكفاية في الوصول إلى الحق، لقوم عابدين.

وخص العابدين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم، إذ العابد لله تعالى بإخلاص، يكون خاشع القلب، نقى النفس، مستعدا للتلقي والتدبر والانتفاع.

ثم بين سبحانه أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه ﷺ ليكون رحمة لهم فقال: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ.

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)} [الأنبياء: ١٠٧]

قال الطبري: يقول: " وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي".

قال السدي:"يعني: لمن آمن من الإنس والجن".

=

=

عن سعيد بن جبير قال: "من آمن بالله ورسوله تمت عليه الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر بالله ورسوله عوفي مما عذبت به الأمم، وله في الآخرة النار".

وفي الحديث: «إنما بعثت رحمة مهداة». قال السمعاني:"أي: هدية من الله".

وقال-ﷺ-: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة».

قال الزمخشري:"أرسل ﷺ رحمة للعالمين لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع. فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله: أن يفجر الله عينا غديقة، فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه، حيث حرمها ما ينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أن عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال".

واختلف أهل التفسير في معنى هذه الآية، على قولين:

أحدهما: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر. قاله ابن عباس.

قال السمعاني:"وهذا القول أشهر، وأما معنى رحمته للكافرين فهو تأخير العذاب عنهم، وقيل: هو رفع عذاب الاستئصال عنهم، وأما رحمته للمؤمنين فمعلومة".

قال ابن عباس:"من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف".

وقال ابن عباس:"تمت الرحمة لمن به في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي مما أصاب الأمم قبل".

قال مقاتل:"يعني: الجن والإنس فمن تبع محمدا -ﷺ- على دينه فهو له رحمة".

الثاني: أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"العالمون: من آمن به وصدقه".

=

=

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب. القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله".

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلًا قال: لو فجر الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول؛ فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقى أناس مفرطون كُسالى عن العمل؛ فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)}. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيثما إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأَمِنوا به عذابَ الاستئصال. والأول أظهر.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أنه ما أرسله إلا رحمة للعالمين؛ يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء موضحًا في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)} وقوله: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيكَ الْكِتَابُ إلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} الآية.

وفي الحديث الشريف: «إنما أنا رحمة مهداة» فرسالته ﷺ رحمة في ذاتها، ولكن

=

=

هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها، أما من أعرض عنها فهو الذي ضيع على نفسه فرصة الانتفاع.

وقال الزمخشري: أرسل ﷺ «رحمة للعالمين» لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع، فإنما آتى من عند نفسه، حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله: أن يفجر الله عينا عذيقة- أي: كبيرة عذبة-، فيسقى ناس زروعهم، ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا. فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله تعالى ورحمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه، حيث حرمها ما ينفعها».

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر الناس بأن رسالته لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده فقال: قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ..

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الأنبياء: ١٠٨]، أي:"قل: إن الذي أُوحي إليّ وبُعِثت به: أن إلهكم الذي يستحق العبادة وحده هو الله".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد: ما يوحي إلي ربي إلا أنه لا إله لكم يجوز أن يعبد إلا إله واحد، لا تصلح العبادة إلا له ولا ينبغي ذلك لغيره".

قال الزمخشري:"«إنما» لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية، لأن إنما يوحى إلي مع فاعله، بمنزلة: إنما يقوم زيد. وأنما إلهكم

إله واحد بمنزلة: إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحى إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية".

قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [الأنبياء: ١٠٨]، أي:"فأسلموا له، وانقادوا لعبادته".

قال الطبري:"فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون العابدون الأوثان والأصنام

=

=

بالخضوع لذلك، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم؟".

قال الصابوني:"استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره".

قال الزمخشري:"في قوله: {فهل أنتم مسلمون}، أن الوحى الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد، وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع".

أى: قل- يا محمد- للناس: إن الذي أوحاه الله تعالى إلىّ من تكاليف وهدايات وعبادات وتشريعات.. تدور كلها حول إثبات وحدانيته سبحانه ووجوب إخلاص العبادة له وحده.

قال الآلوسي- رَحِمَهُ اللهُ: «ذهب جماعة إلى أن في الآية حصرين: الأول: لقصر الصفة على الموصوف. والثاني: لقصر الموصوف على الصفة.

فالأول: قصر فيه الوحى على الوحدانية. والثاني: قصر فيه الله تعالى على الوحدانية، والمعنى: ما يوحى إلىّ إلا اختصاص الله بالوحدانية، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه، أو غير منظور إليه في جانبه..».

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)} [الأنبياء/ ١٠٨].

عبر في هذه الآية الكريمة بلفظة "إنما"، وهي تدل على الحصر عند الجمهور. وعليه، فهي تدل على حصو الوحي في توحيد الألوهية.

وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه أوحي إليه غير ذلك، كقوله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} الآية [الجن/ ١]، وقوله: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} [آل عمران/ ٤٤]، وقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية [يوسف/ ٣].

والجواب: أن حصر الوحي في توحيد الألوهية حصرٌ له في أصله الأعظم الذي

=

=

يرجع إليه جميع الفروع؛ لأن شرائع كل الأنبياء داخلة في ضمن: (لا إله إلا الله)؛ لأن معناها: خلع كل الأنداد سوى الله في جميع أنواع العبادات، وإفراد الله بجميع أنواع العبادات، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والاستفهام في قوله سبحانه: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ للتحضيض أى: مادام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا.

ثم أرشد سبحانه النبي ﷺ إلى ما يقوله للناس في حال إعراضهم عن دعوته، فقال: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ ...

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [الأنبياء: ١٠٩]، أي:"فإن أعرض هؤلاء عن الإسلام".

قال ابن جريج:"{فإن تولوا}، يعنى: قريشا".

قوله تعالى: {فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنبياء: ١٠٩]، أي:"فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواءٍ في الإعلام لم أخصَّ أحدًا دون أحد".

قال الطبري:"يقول: أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب، لا صلح بينكم ولا سلم".

قال الزمخشري:"«آذن»: منقول من: أذن، إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار. ومنه قوله تعالى: {فأذنوا بحرب من الله ورسوله}، وقول ابن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة، فنبذ اليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك على سواء، أى: مستوين في الإعلام به، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم، وقشر

=

=

العصا عن لحائها".

قولــه تعــالى: {وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيــبٌ أَمْ بَعِيــدٌ مَــا تُوعَــدُونَ} [الأنبيــاء: ١٠٩]، أي:"ولستُ أعلم - بعد ذلك - متى يحل بكم ما وُعِدْتُم به من العذاب؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه: قل وما أدري متى الوقت الذي يحل بكم عقاب الله الذي وعدكم، فينتقم به منكم، أقريب نزوله بكم أم بعيد؟".

قال يحيى:"يعني به: الساعة".

قال ابن كثير:"أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده".

قال الزمخشري: يعني:"ما توعدون من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه".

وآذنتكم: من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار. ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها.

قال بعضهم: آذن منقول من أذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في إجرائه مجرى الإنذار والتحذير.

أى: فإن أعرضوا عن دعوتك- أيها الرسول الكريم- فقل لهم: لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربي أن أعلمكم وأخبركم به، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره، وإنما أخبرتكم جميعا «على سواء» أى: حال كونكم جميعا مستوين في العلم.

فقوله: عَلى سَواءٍ في موضع الحال من المفعول الأول لآذنتكم. أى: فقد أعلمتكم ما أمرنى ربي به حالة كونهم مستوين في هذا العلم.

ويجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر. أى: فقد آذنتكم إيذانا على سواء.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ} [الأنبياء: ١١٠]، أي:"إن الله يعلم ما تجهرون به من أقوالكم".

قال الطبري: يقول:"قل لهؤلاء المشركين، إن الله يعلم الجهر الذي يجهرون به من القول".

قال الزمخشري: يعني: "والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام".

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} [الأنبياء: ١١٠]، أي:"وما تكتمونه في سرائركم".

قال يحيى:"يعني: ما تسرون".

قال الطبري: يقول:"ويعلم ما تخفونه فلا تجهرون به، سواء عنده خفيه وظاهره وسره وعلانيته، إنه لا يخفى عليه منه شيء".

قال الزمخشري: يعني: " وما تكتمون في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه".

قال ابن كثير في تفسير الآية:"أي: إن الله يعلم الغيب جميعَه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك، على القليل والجليل".

قال السدي في الآية:"إنه يعلم ما كان قبل الخلق وما يكون بعده".

قوله تعالى: {وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ} [الأنبياء: ١١١]، أي:"ولست أدري لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه استدراج لكم وابتلاء م".

قال ابن كثير:"أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم".

قال الطبري: يقول:"فإن أخر عنكم عقابه على ما تخفون من الشرك به أو تجهرون به، فما أدري ما السبب الذي من أجله يؤخر ذلك عنكم؟ لعل تأخيره ذلك عنكم

=

مع وعده إياكم لفتنة يريدها بكم".

قال الزمخشري: يعني: " لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون".

قال الحسن:"لعل ما أنتم فيه من الدنيا من السعة والرخاء، وهو منقطع زائل".

قوله تعالى: {وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأنبياء: ١١١]، أي:"ولعلَّ هذا التأخير لتستمتعوا في الدنيا إلى حين؛ فتزدادوا كفرًا، ثم يكون أعظم لعقوبتكم".

قال الطبري: يقول:"ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه، ثم ينزل بكم حينئذ نقمته".

قال الزمخشري: يعني: " أو تمتيع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة عليكم، وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة".

قال الحسن:"إلى يوم القيامة".

وقال قتادة: "إلى الموت".

عن ابن عباس:"{وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين}، يقول: لعل ما أقرب لكم من العذاب والساعة، أن يؤخر عنكم لمدتكم، ومتاع إلى حين، فيصير قولي ذلك لكم فتنة".

وقوله تعالى: وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ إرشاد منه سبحانه لنبيه ﷺ إلى ما يقوله لهم- أيضا- في حال إعراضهم عن دعوته.

و «إن» نافية. أى: فإن أعرضوا عن دعوتك يا محمد، فقل لهم: لقد أعلمتكم جميعا بما أمرنى الله بتبليغه إليكم، وإنى بعد هذا التبليغ والتحذير ما أدرى وما أعرف، أقريب أم بعيد ما توعدون به من العذاب، أو من غلبة المسلمين عليكم، أو من قيام الساعة. فإن علم ذلك وغيره إلى الله تعالى وحده، وما أنا إلا مبلغ عنه.

وقوله تعالى: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ.

=

فهو سبحانه الذي يعلم ما تجهرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال. ويعلم- أيضا- ما تكتمونه في نفوسكم من كفر وجحود وكراهية لي ولأتباعى، وسيعاقبكم سبحانه على ذلك العقاب الذي تستحقونه.

وقوله سبحانه: وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ زيادة في تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله تعالى وحده.

أى: وإنى- أيضا- ما أدرى، لعل تأخير عقابكم- بعد أن أعرضتم عن دعوتي- من باب الامتحان والاختبار لكم، أو من باب الاستدراج لكم إلى حين مقدر عنده سبحانه، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

وفي إسناد علم ما سينزل بهم إلى الله تعالى وحده، تخويف لهم أى: تخويف، وأدب ليس بعده أدب من النبي ﷺ مع الله- ﷻ.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ} [الأنبياء: ١١٢]، أي:"قال النبي ﷺ: ربِّ افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالقضاء الحق".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد: يا رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قومي وكفر بك، وعبد غيرك، بإحلال عذابك ونقمتك بهم، وذلك هو الحق الذي أمر الله تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به، وهو نظير قوله جل ثناؤه: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين}".

قال ابن كثير:"أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق".

قال ابن عباس:"لا يحكم بالحق إلا الله، ولكن إنما استعجل بذلك في الدنيا، يسأل ربه على قومه".

عن قتادة: "أن النبي ﷺ، كان إذا شهد قتالا قال: {رب احكم بالحق}".

قال قتادة:"كانت الأنبياء تقول: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين}، فأمر الله نبيه إن يقول: رب احكم بالحق أي اقض بالحق. وكان

=

=

رسول الله ﷺ يعلم أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل وكان إذا لقي العدو قال: {رب احكم بالحق}".

وقال الحسن: "أمره الله أن يدعو أن ينصر أولياءه على أعدائه، فنصره الله عليهم".

وقرأ أبو جعفر: «رب احكم» بضم الباء من «الرب»، على وجه نداء المفرد، وقرأ ضحاك بن مزاحم: «ربي أحكم» بتثبيت الياء في «الرب»، وهمز الألف من «أحكم»، ورفع «أحكم» على أنه خبر للرب تبارك وتعالى، بأن الله أحكم بالحق من كل حاكم.

قوله تعالى: {وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١١٢]، أي:"ونسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تَصِفونه - أيها الكفار - من الشرك والتكذيب والافتراء عليه".

قال قتادة: "على ما تكذبون، يعني به المشركين".

قال الطبري:"وقل يا محمد: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته، الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله {هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون}، وقولكم {بل افتراه بل هو شاعر}، وفي كذبكم على الله جل ثناؤه وقيلكم {اتخذ الرحمن ولدا}، فإنه هين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ما تصفون من ذلك".

قال ابن كثير:"أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك".

قال الصابوني:"ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين".

قال الزمخشري:"كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون

=

=

أن تكون لهم الشوكة والغلبة، فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم".

وختم سبحانه السورة الكريمة بقوله: قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ أى: قال الرسول ﷺ بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه: رب احكم بيني وبين هؤلاء الذين آذنتهم على سواء بالحق وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ أى: الكثير الرحمة على عباده الْمُسْتَعانُ أى: المطلوب منه العون عَلى ما تَصِفُونَ أى: على ما تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب والزور والبهتان.

وقرأ أكثر القراء السبعة قل رب احكم بالحق ... بصيغة الأمر. وهذه القراءة تدل على أن الرسول ﷺ قد أمره الله تعالى أن يقول ذلك.

وصيغة «قال..» تدل على أن الرسول ﷺ قد امتثل أمر ربه، فقال ما أمره بقوله.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (الأنبياء: ٢)، وفي سورة الشعراء: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء: ٥)، فورد في الأولى: (مِنْ رَبِّهِمْ) وفي الثانية: (مِنَ الرَّحْمَنِ) مع اجتماع الآيتين في أن التذكير لا يجدي على ما ذكر في الآيتين، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن هذين الاسمين العظيمين وهما: الرب والرحمان تواردا في الكتاب العزيز كثيرًا، أول ذلك في الفاتحة، ثم إن اسمه سبحانه الرحمان يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس، فمن مراده في التأنيس البسملة، وأم القرآن، وصدر سورة طه، وآية الشعراء المتكلم فيها، وما ورد من مثل الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ) (الفرقان: ٦٠)، فتحقيق الاعتبار يقتضي تأويله بالرجوع

=

إلى ما ذكرنا، وأما اسمه الرب فيعم وروده طرفي الترغيب والترهيب.
أما الترغيب فبين، وأما الترهيب فحيث يرد معنى ملكيته سبحانه لهم، وانفراده بإيجادهم، وإدرار أرزاقهم، وبيان انفراده تعالى بذلك، ثم هم ذلك على كفرهم. ولما تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكم ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمان، ألا ترى أن قوله تعالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) (الأنبياء: ١) أشد تخويفًا للمخاطبين، ثم لفظ الناس لفظ لا يخص به المؤمنون، إنما يرد حيث يراد عموم المخاطبين، ويكثر حيث يراد الوعيد والإنذار والتخويف والدعاء الأولى إلى العبادة والدخول في الإسلام، وأما ما ذكر بعد وصفه بالغفلة والإعراض وما انجر مع ذلك فأهل الكفر والتكذيب، والسورة مكية ولفظ الناس عام كما تقدم، إلا أن قوله بعد: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) (الأنبياء: ٣) خاص بمن حكى قولهم الذي أسروه وهو: (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) (الأنبياء: ٣) أما آية الشعراء فمبينة على تأنيس النبي ﷺ وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى عليهم، ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كشق الجبل فوق بني إسرائيل.
وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) (الشعراء: ٤)، ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين، فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ، وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم، فأشاء إلى هذا وناسبه اسمه الرحمان، فقال تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء: ٥)، فقد وضح ورود كل من الآيتين في موضعه على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.
الآية الثانية – قوله تعالى: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي

=

يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء: ٣٦)، وفي سورة الفرقان: (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا...) (الفرقان: ٤١ - ٤٢)، هنا سؤالان: أحدهما ظهور الفاعل في الآية الأولى وإضماره في الثانية، والثاني ما وجه تعقيب الآية الثانية بما أعقبت به؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يتقدم قبل آية الأنبياء أو فيما يليها من آي السورة أو يقرب منها خطاب يعنيهم ويخصهم من غيرهم، إنما تقدم قبلها قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء: ٣٠)، وهذا يتناول كل كافر ملف ذي عقل كان من العرب أو من غيرهم معاصر أو غير معاصر، ثم لم يقع بعد هذه الآية ما يعارض عمومها، فلهذا تعين إظهار الفاعل في قوله: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (الأنبياء: ٣٦) إذ قيل: وإذا رأوك، لما كان يمكن رجوعه إلا للمذكورين قبل في قوله: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) (الأنبياء: ٣٠)، وليس خاصًا بالمعاصرين، فلم يكن ليناسب.

أما آية الفرقان فإن قبلها قوله تعالى: (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) (الفرقان: ٣٢)، والمنزل عليه القرآن معلوم ﷺ، فالقائلون معاصرون وهم الذين عنوا على القطع بقوله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)، فلما تقدم ذكرهم غير متناول غيرهم، وعنوا بالذكر، واحتيج بعد إلى الإخبار عنهم، أتى بضميرهم، إذ هو أوجز وقد علم، (فقيل): (وَإِذَا رَآكَ)، ولم يكن الإضمار ليناسب في آية الأنبياء، ولم يمكن الإظهار هنا، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا

=

=

آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) (الأنبياء: ٢١)، وقوله: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء: ٢٢)، وقوله: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) (الأنبياء: ٢٤)، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم، ناسبه قولهم: (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) (الأنبياء: ٣٦).

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله: (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان: ٧)، فأنكروا كون الرسول من البشر، (فجرى مع ذلك وناسبه قولهم: (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا) (الفرقان: ٤١) تعجبًا واستبعادًا أن يكون الرسل من البشر)، وقد رد ذلك عليهم بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان: ٢٠)، فوضح التناسب فيها، والله أعلم.

الآية الثالثة قوله تعالى: (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) (الأنبياء: ٤٥)، قراءة الجماعة إلا ابن عامر: (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ)، وقرأ ابن عامر: (وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) بضم التاء وفتح الميم من الصم، وفي النمل والروم: (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) (النمل: ٨٠). قراءة ابن كثير بضم الياء وفتح الميم كقراءة الجماعة في آية الأنبياء، وقراءة الباقين: (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) بضم التاء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء، فاستوت الآي الثلاث في ورود القراءتين على الجملة وفي المعنى المقصود، ثم ختمت الأولى بقوله: (إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)، وآيتا النمل والروم بقوله: (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، فيسأل عن ذلك.

والجواب، والله أعلم: أن آية الأنبياء قد تقدمها أمره، عليه السلام، بخطاب حاضريه، وإنذارهم بما أوحي إليه، وإعلامهم بأن إنذاره إياهم لا يجدي عليهم، تسلية له، عليه السلام، وإعلامًا بما سبق لهم أزلًا، فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)، ثم قال لهم: (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) (الأنبياء: ٤٥)، فأعلمهم بإعلام الله

=

=

تعالى بأنهم صموا عن سماعه، ومنعوا ثمرته من الإجابة لما سبق عليهم فقيل: (إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)، أي أنهم وقت إنذارهم ممنوعون عن السمع، كما قال تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) (الكهف: ٥٧)، وكما ورد قبل آيتي النمل والروم وقوله تعالى: (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) (الروم: ٥٢) إلحاقًا لحال المخاطبين بهم في عدم الجدوى عليهم، ناسب ذلك قوله: (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، فوضح التناسب في نظام هذه الآي، وإن العكس لا يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة قوله تعالى في إبراهيم: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الأنبياء: ٥٢ – ٥٣)، وفي سورة الشعراء: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء: ٦٩ – ٧٤)، فورد في الأولى: (وَجَدْنَا آبَاءَنَا) وفي الثانية: (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا)، فيسأل عن زيادة (بل) في الثانية؟ وقد يسأل عن المختلف من حكاية قول إبراهيم، عليه السلام في الأولى: (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (الأنبياء: ٥٢) وفي الثانية: (مَا تَعْبُدُونَ) وظاهر القصة أنها واحدة وقد اختلف المحكي؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن جوابهم في الموضعين ليس جوابًا لسؤال واحد، وإنما ورد (جوابًا) لسؤالين، فاختلف بحسبهما، فسؤاله في آية الأنبياء سؤال مطلع على معبوداتهم ما هي؟ بعد أن شاهد عبادتهم لها، ولزومهم إياها، وكيفية صورها. فقال: (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) أي ملازمون، فلم يجدوا جوابًا إلا اعترافهم بأنها تماثيل مصورة منحوتة، والتماثيل ما جعل من الصور مثالًا لغيره ونحي به نحوه، فأقروا بالعجز عن جواب مقنع، واستشعروا ما يلزمهم في عبادة ما يصنعونه بأيديهم، وتقدم وجودهم وجوده، فرجعوا إلى التقليد

=

فوقع جوابهم على ما تقدم.
وأما آية الشعراء فإن سؤال إبراهيم، عليه السلام، إياهم بقوله: (مَا تَعْبُدُونَ) ورد (مورد) سؤال عن ماهية معبوداتهم وكيفيتها، وكأنه، عليه السلام، لم يشاهدها، وعلم أنهم يعبدون ما لايعبد، فسألهم عن ما هيته فجاوبوه: (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) فجاوبوه معترفين بماهية معبوداتهم على ما أمرهم عليه، وطابق جوابهم سؤاله، فأردف، عليه السلام، بسؤال آخر، قاصدًا تعجيزهم والقطع بهم فقال: (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) (الشعراء: ٧٢ - ٧٣) أي إذا كانوا هكذا مستبدين غير مفترقين فذلك عذر في عبادتكم إياهم، فلما استشعروا ما يلزمهم عدلوا عن الجواب، وأضربوا عن طرفي الإثبات والنفي إلى تقليد الآباء وقالوا: (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء: ٧٤)، وحصل من جوابهم بمفهوم الإضراب ببل أن آلهتهم لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، إذ لو اتصفت بوجود هذه الصفات لما عدلوا إلى الإضراب.

فإن قيل إنما أضربوا عن أن يجيبوا بنفي أو بإثبات فكيف يقال: إن اعترافهم حاصل بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر؟ فأقول: لو وجدوا أدنى شبهة لتراموا عليها، فقد وضح أن جوابهم هنا بناء على ما بنوه جوابًا عليه لا يمكن غيره إلا بمخالفتهم المحسوس لو أنهم قالوا: إنها تسمع أو تنفع أو تضر، أو نسبتهم أنفسهم إلى ما عذر لعاقل في ارتكابه، ولا شبهة لو أفصحوا جوابًا بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، ثم استمروا على عبادتهم إياها، فأضربوا عن ذلك إلى اعتمادهم على تعبد آبائهم، وجعلوا ذلك حجة على مرتكبهم على وهن هذا التعليق، ولهذا قيل لهم: (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأنبياء: ٥٤)، إن جوابهم هنا ببل لازم لما قصده، ولا يمكن بسقوطها، وإن جوابهم في آية الأنبياء لا يمكن فيه بل بوجه، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني أنه لا حامل على القول بأن القصة واحدة، وإذا أمكن أن يكون ذلك في محلين ووقتين لم يلزم اتحاد الجواب، فلا سؤال، والله أعلم.
الآية الخامسة قوله تعالى: (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) (الأنبياء: ٧٠)، وفي الصافات: (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) (الصافات: ٩٨)، هنا سؤالان: أحدهما: ما وجه الاختلاف مع اتحاد المقصود في الموضعين؟ والثاني: ما وجه اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه؟
والجواب عن السؤالين معًا: أن الخاسر عندنا من فقد ما بيده من مال أو سبب كان يعتمده لدنياه ومعاشه، أو محاولة فسدت عليه فساءت حاله، لذلك ومهما استحكمت حاله في ذلك كان أخسر، وقد جعل سبحانه في الخسران المبين من خسر الدنيا والآخرة، وأعلمنا تعالى أن الأخسرين لا يقام لهم (وزن في القيامة، قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (الكهف: ١٠٣) إلى قوله: (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف: ١٠٥)، فلا أدون حالًا من هؤلاء. ولما أراد قوم إبراهيم، عليه السلام، به الكيد ألحقهم تعالى بهؤلاء عقوبة توافق مرتكبهم وسوء انتحالهم، والأخسرون هم الأسفلون، وهذا كان مطلب الكافر في الآخرة وتمنيه لو بلغه إلحاق من أضله من الجن والإنس بهذا النمط، قال تعالى مخبراً عن حالهم في الآخرة: (رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) (فصلت: ٢٩)، فالصفتان من الخسران والسفالة غاية حالة الكافر، ومن كان من الأسفلين فقد خسر خسرانًا مبينًا، فلا تضاد بين الصفتين سوى أن السفول لاحق في ذات المسفل، والخسران حقيقة في خارج عنه، فالسفول أبلغ، فقد ما هو لاحق خارجي، وأخر ما لا يتعدى ذات المتصف تكملة وتتمة، إذ هو أبلغ على ما يجب وعلى ما قدمنا من رعي الترتيب، والتسفل (ضد) التّعالي، فورد كل على ما يجب ويناسب، وقيل روعي

=

في آية والصافات مقابلة قولهم: ابنوا لـه بنيانًا، لأنـه يفهـم منه إرادتهم علـو أمـرهم بفعلهم ذلك، فقوبلوا بالضد، فجعلوا الأسفلين. قال معناه صاحب الدرة، وهـو حسن، والله أعلم.

الآية السادسة قوله تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء: ٨٣ – ٨٤)، وفي سورة ص: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (ص: ٤١ – ٤٣)، ففي آية الأنبياء: (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) وفي آية ص: (رَحْمَةً مِنَّا)، وفي آية الأنبياء: (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)، وفي آية ص: (لِأُولِي الْأَلْبَابِ)، فيسأل عن الفرق بين الوصفين؟ ووجه الاختصاص؟

والجواب على الجملة، والله أعلم: أنه لما ورد في الأنبياء تلطف أيوب عليه السلام بقوله: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء: ٨٣)، فلما تلطف في سؤاله، ولم يفصح، عليه السلام، تلطفًا وتضرعًا بعظيم ما أصابه من البلاء إفصاحه في آية ص بقوله: (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) (ص: ٤١)، فبني كل (من الأيتين) على ما يناسبه، فقيل جوابًا على عظيم تضرعه وتلطفه في قوله: (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ما يلائم لطيف هذه الشكوى، وعلى قوله (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) ما يناسب إفصاحه بهذه البلوى، فقيل بناء على الأول: (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) (الأنبياء: ٨٤)، وقيل بناء على الثانية: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) (ص: ٤٢)، لما وقع ذكر الشيطان، وأنه السبب في ذلك الامتحان، جووب باستعمال سبب فقيل له: اركض برجلك واغتسل وذلك يذهب عنك ما مسك به الشيطان، وحين لم يذكر، عليه السلام، واسطة جووب برفع ما به بغير واسطة سبب، فقيل جوابًا

=

=

لقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (الأنبياء: ٨٤)، وبني على الأول قوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ لتمكن (عند) فيما قصد، وعلى الثاني: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ إذ ليس موقعها موقع ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾، ثم قيل في الأولى: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ مناسبة لما تقدم، وقيل في الثانية: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مناسبة أيضًا، إذ اعتبار أولي الألباب يورثهم مقام العابدين، وهو أسنى مقام، وكل ذلك بعد مقامات عليه وأوال جليلة، وقد جرى مع (كل) مقام ما يناسبه، ووضح أن كلًا من هذه المبينات على ما قبلها لا يناسبه غير ما بني عليه، والله أعلم.

وأما وجه خصوص الواقع في كل من السورتين بموضعه، فإن سورة الأنبياء لما رود فيها من قصص الأنبياء المذكورين قبل ذكر أيوب، عليه السلام، إعلاء مقاماتهم، ولم يرد في ذلك ما يخرج عن هذا، وذلك من لدن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ (الأنبياء: ٥١) إلى قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٢)، ناسب ذلك من قصة أيوب، عليه السلام، ما يلائم هذا الغرض، فلما ورد في ص ما بني عليه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ (ص: ٢٤) إلى قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ...﴾ (ص: ٢٥) وما بني عليه (قوله): ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ (ص: ٣٤) ظغلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ (ص: ٣٥)، ناسب ذلك أيضًا ما أعقبت به من قصة أيوب، عليهم السلام، فتأمل الوارد من قصص داود وسليمان في قوله في الأنبياء: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ (الأنبياء: ٧٨) إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠)، والوارد من قصصهما في سورة ص، واعتبر ذلك، فإن الفرق في ذلك بين، وقد تنزل على كل من هذه القصص في السورتين ما يناسبهما من قصص أيوب، وإذا استوضحت ذلك علمت أن كلًا منهما لا يناسبهما من قصص أيوب، وإذا استوضحت ذلك علمت أن كلا منهما لا يناسبه غير موضعه، ثم إن كلا من الآيتين في السورتين قد جرى على ما اتصل به مما

=

=

تقدمه وتأخر عنه من فواصل الآي ومقاطعها، فلو وردت على العكس لما ناسب آية منها ما اتصل بها، فحصل التناسب في اللفظ والمعنى على أوضح شيء، وأنه لا يمكن عكس الوارد على ما قد تمهد بوجه، والله أعلم بما أراد.

الآية السابعة من سورة الأنبياء قوله تعالى: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) (الأنبياء: ٩١)، وفي سورة التحريم: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) (التحريم: ١٢)، فيسأل عن وجه الاختلاف في الضميرين مع اتحاد المعنى المقصود من الواقع به الثناء وإن اختلف الحامل على ذكر قصتها في الموضعين؟ وعن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد (فيه)؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: بعد تسلمي اتحاد المعنى الواقع به البناء، إن الضمير في الأولى عائد إلى ما أشير إليه بالموصول الذي هو التي، وهي مريم ابنة عمران المفتتح باسمها في آية التحريم، أعيد الضمير هنا إليها من حيث إن ذلك تخصيص وتكريم جليل وآية باهرة، وقد قصد ههنا تشريفها وتشريف ابنها، عليه السلام، بالذكر في قوله: (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً) (الأنبياء: ٩١)، ولم يقع في آية التحريم ذكر ابنها، فلما اتسع المقصود هنا بذكر من لم يذكر هناك، وقصد من التشريف ما هو أكثر، ناسبه التوسعة في عودة الضمير، فأعيد إلى الذات المطهرة (بجملتها، فقيل): (فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا)، وأفهم ذلك ما أفهمه الضمير الخاص بمحل النفخ من غير إشكال، وقيل في آية التحريم: (فيه) لعوده إلى الموضع المخصوص على ما يجب، لم يقصد هنا من توسع المدح ما قصد في الأولى، وإنما قصد بآية التحريم تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها، وتصديقها، وإثباتها في القانتين، وتشبيه حالها في سابق سعادتها بالمذكورة قبلها، واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين، فالحامل على ذكرها هنا غير الحامل في سورة

=

=
الأنبياء مع اتحاد الوصف الواقع به التمدح، مع تناظر الألفاظ (وتشاكلها)، وهي قوله تعالى: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا) (الأنبياء: ٩١)، فاجتمع في هذا الموضع ما قصد من مدحها ومدح ابنها، عليه السلام، مع مضارعة الألفاظ وتشاكلها، فجاء كل على ما ثبت فيه، ولم يقصد في التحريم غير ذكرها بالحال التي ناسبتها فيها امرأة فرعون، ولم يوسع الكلام بذكر ابنها، عليه السلام، كما ذكر في الأخرى، ولا هنا داعية تشاكل كما هناك، فلهذا ورد الضمير على ما ورد من الخصوص فقيل: (فيه).

والجواب، عن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد فيه: أن آية الأنبياء ورت منسوقة على آيات تضمنت ذكر جملة من الرسل، موصوفين بخصائص عليه وآيات نبوية، أولهم إبراهيم، عليه السلام، ثم ابنه إساحاق ثم ابنه يعقوب ثم نوح ولوط وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكرياء، فلما ذكر هؤلاء العلية، عليهم السلام، بخصائص ومنح ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما منحا عليهما السلام. وأما آية التحريم فمقصود فيها ذكر عظيمتين جليلتين يبين بهما حكم سبقية القدر بالإيمان والكفر، وهما قضية امرأتي نوح ولوط، وإن انضواءهما إلى هذين النبيين الكريمين، عليهما السلام، انضواء الزوجية التي لا أقرب منها، ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئًا، وقصة امرأة فرعون وقد انضوت إلى أكفر كافر، فلم يضرها كفره، ثم ذكرت مريم، عليها السلام، للالتقاء في الاختصاص وسبقية السعادة، ولم يدع داع إلى ذكر ابنها فلا وجه لذكره هنا، وأما آيةالأنبياء فلذكره هناك أوضح حامل، فجاء كل على ما يجب، ولا يمكن فيه عكس الوارد، والله أعلم.

الآية الثامنة من سورة الأنبياء قوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء: ٩٢ - ٩٣)، وفي
=

=

سورة المؤمنون: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون: ٥٢ – ٥٣)، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: (فَاعْبُدُونِ) وفي الثانية: (فَاتَّقُونِ)؟ وفي الأولى: (وَتَقَطَّعُوا) وفي الثانية (فَتَقَطَّعُوا)؟ وفيها أيضًا: (زُبُرًا) ولم يرد في الأولى؟ وأتبعت الأولى بقوله: (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) والثانية بقوله: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)؟ فهذه أربعة مواضع مما يسأل عنها؟

فأقول تمهيدًا للجواب: الأمة هنا الملة، وقوله: (إِنَّ هَذِهِ) إشارة إلى ملة الإسلام، قال الزمخشري: أي ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها، ملة واحدة وغير مختلفة، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون، والخطاب للناس كافة، قال: والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينفي عنهم ما أسمدوه، ويقبح عندهم فعله، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، قال والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذالك نصيب، تمثيلًا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو يحاسبهم ويجازيهم، هذا معنى كلامه.

ونرجع إلى الجواب (فنقول: الجواب) عن الأول أن سورة الأنبياء لم يرد فيها ذكر لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها، وورد الأمر بالعبادة في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٢٥). وأما سورة المؤمنون فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع، أولها – قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون: ٢٣)، وفي ما بعد الآية المتكلم فيها (قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

=

=

(المؤمنون: ٨٧)، فروعي في الأولى ما تقدمها، ونوسب بالثانية ما اكتنفها، وأيضًا فإن العبادة مأمور بها ليحصل الاتقاء، فهي مقدمة في الطلب لتحصيل ما يتسبب عنها إذا كانت الإجابة، وعلى ذلك ورد دعاء الخلق، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ٢١)، وفي سورة المؤمنون المذكورة: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون: ٢٣)، فالاتصاف بالتقوى ثان عن الاتصاف بالعبادة، فقيل في الأنبياء: (فَاعْبُدُونِ) وفي سورة المؤمنون: (فَاتَّقُونِ)، وكلاهما ذكر على مقتضى الترتيب، وأيضًا فإنا إذا اعتبرنا ما قدم من قصص الرسل في السورتين وجدنا الوارد في سورة الأنبياء مقصورًا على ذكر منحهم وتخليصهم وتأييدهم من لدن قوله تعالى في إبراهيم: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) (الأنبياء: ٥١)، وقوله: (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (الأنبياء: ٧٣)، فتضمنت هذه الآي بضعة عشر نبيًا، أولهم إبراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة، وقد اقتصر من قصصهم في هذه الآي على ما يطلع المؤمنين على تكفله سبحانه بالمصطفين من عباده وما اختصهم به، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم، ولا ما يرجع إلى هذا وكل هذا تأنيس وذكر نعم وآلاء وألطاف يناسبها قوله: (فَاعْبُدُونِ) لكونه أمرًا بالعبادة مجردًا عما في قوله: (فَاتَّقُونِ) من التخويف.

وأما الوارد في سورة طه فمتضمن الطرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء، وهو ذكر جواب الأمم للرسل وقبيح تكذيبهم إياهم وشنيع ردهم وقبيح مقالهم كقول قوم نوح، عليه السلام: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) (المؤمنون: ٢٤)، (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) (المؤمنون: ٢٤ - ٢٥)، ثم بالغوا في الاستهزاء بقولهم في إخبار الله تعالى عنهم: (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) (المؤمنون: ٢٥)، وقول أهل القرون المذكورين بعد قوم نوح لنبيهم: (مَا

=

=

هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (المؤمنون: ٣٣)، وقوله: (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (المؤمنون: ٣٤) إلى قوله: (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون: ٣٨)، وقوله تعالى لما تواتر ذكر إرسال الرسل وتكذيب قومهم لهم فقال تعالى: (كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) (المؤمنون: ٤٤) إلى قوله: (فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: ٤٤)، وقال تعالى مخبراً عن قوم موسى: (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) (المؤمنون: ٤٦)، فناسب هذا التخويف بقوله عقب هذا: (فَاتَّقُونِ)، كما ناسب ما تقدم في آية سورة الأنبياء قوله تعالى: (فَاعْبُدُونِ)، ولم يكن ليناسب ورود واحدة منها موضع الأخرى، فجاء كل على ما يجب، ولا يمكن خلافه.

والجواب عن السؤال الثاني، وهو الفرق بين قوله في سورة الأنبياء (وَتَقَطَّعُوا)، وفي سورة المؤمنون (فَتَقَطَّعُوا) بفاء التعقيب: أنه ورد في آي الأنبياء قبل هذه الآية تأنيسًا لنبيا ﷺ قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء: ٧) وقوله: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (الأنبياء: ٧)، ثم قال: (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) (الأنبياء: ٨) إلى قوله: (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) (الأنبياء: ٩)، فنبهوا على السؤال، ثم ذكر من قصص الأنبياء أوضحه وأجلاه لمن اعتبر، وأورد ذلك إيراد التلطف بذكر تخليص أولئك العيلة، عليهم السلام، وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) (الأنبياء: ٢٥ - ٢٦)، ونظير هذا قوله تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) (الرعد: ٣٠). فهذه الآي في قوة أن لو قيل: نحن نبين لهم وهم يكفرون، فهو سبحانه يذكر لنبيه ﷺ أحوال الأمم مع الرسل مع مشاهدة الآيات تأنيسًا له ﷺ وتذكيرًا بالصبر على قومه، (فعلى) هذا

=

=

المنهج جرى الوارد من قوله: (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ) (الأنبياء: ٩٣) أي نبهناهم على السؤال، وأوضحنا (لهم) أمر من تقدمهم وعاقبة الاستجابة لمن تمسك بهدي المذكورين، وهم مع ذلك على عنادهم وافتراقهم، وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم، ولم يشبه شدة الوعيد ليبقى رجاؤه، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في استجابتهم، فلم يخل معنى الكلام مع الإخبار بتفرقهم عن بعض إبقاء تأنيس مناسبًا لما تقدمه، ولهذا لم يقع بعد الآية تسجيل بتصميم على الكفر ولا إمعان في طرف التخويف الوارد في آية المؤمنون من قوله: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون: ٥٣) إلى قوله: (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (المؤمنون: ٥٦) كما في آية الأنبياء آنفًا.

أما قوله في المؤمنون: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) (المؤمنون: ٥٣) فمنزل على ما قبله منزلة قوله في سورة النحل: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ) (النحل: ٣٦) إلى قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) (النحل: ٣٦)، وهذا وعيد شديد لمن حقت عليه كلمة العذاب ولم يجد عليه التذكار، فكان مجموع هذه الآي في قوة أن لو قيل لهم: قد بين لكم، وأطلعتم على مآل من كذب، وخوطبتم بما قيل للرسل: (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون: ٥١)، وملة الكل ملة واحدة، ولم تؤمروا بما لا تطيقونه، فتقطعتم. إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كما جرى في سورة الأنبياء فقيل: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ) أي فتفرقوا وما أجدي عليهم القرآن شيئًا، فهذه الآية أشد في التخويف والترهيب من الأخرى، وكل يناسب ما قبله. ولو وردت إحداهما موضع الأخرى لما ناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله في آية المؤمنون (زُبرا) تأكيد لافتراقهم، وانتصابه على الحال الواردة بيانًا وتأكيدًا لقبح تفرقهم وشنيع مرتكبيهم، فناسب

=

ذلك مقصود هذه الآية هنا من التخويف والإنذار، ولم يكن ليناسب آية الأنبياء لبنائها على غير ما قصد هنا، لما تقدمها من تأنيس نبينا ﷺ، وتعريفه بما منح سبحانه متقدمي الرسل، وما أعقبهم صبرهم على أممهم، وهو، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد قيل له: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) (الأنعام: ٩٠)، فقدم له، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في سورة الأنبياء من قصصهم ما ثبت فؤاده، وصار جليل هذا التأنيس مما بنيت عليه السورة، وعلى ذلك جرت سورة مريم وسورة طه على ما مهدته وبسطته في ترتيب هذه السور الكريمة، فمن حيث الإشارة إلى ما ذكر لم يكن ليناسب ذلك تأكيد افتراقهم وتشتتهم، ولما رجع الكلام للآية الثانية، بعد تثبيته، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتأنيسه، إلى التعريف بمرتكبات الأمم، وذكر ما استحقوا به ما عوقبوا به، وإن كلًا من المكذبين أخذ بذنبه، كان ذلك مظنة تأكيد المرتكب، فقيل: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا) (المؤمنون: ٥٣)، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: أن تعقيب آية الأنبياء بقوله: (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء: ٩٣) وإن كان وعيدًا وتهديدًا فليس في شدة التهديد ومخوف الوعيد كالواقع في سورة المؤمنون، يوضح ذلك ويبينه ما اتصل بكل من الآيتين من قوله في آية الأنبياء: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (الأنبياء: ٩٤)، فذكر عند وجوعهم إليه سبحانه جزاء من أجاب وأحسن، وطوى الكلام عن الإفصاح بحكم الطرف الآخر من ذكر من أساء، فلم يجر لهم ذكر مفصح به كما في الطرف الآخر، مع أن إجمال قوله تعالى: (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء: ٩٣) وما أعقب به من قوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (الأنبياء: ٩٤) كقوله في آية المؤمنون: (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) (المؤمنون: ٥٤) وقوله: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (المؤمنون: ٥٥ – ٥٦) فقد وضح مناسبة المتبع به في كل من الآيتين

سُورَةِ الْحَجّ(١)

=

لما تقدمه، ولم يكن ليناسب عكس الوارد، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٤٥-٣٥٦).

(١) في وقت نزول السورة أقوال:

أحدها: أنها مكية. قاله النسفي، وعبدالقاهر الجرجاني، وابن كثير.

الثاني: أنها مدنية. قاله ابن عباس، وابن الزبير، والضحاك.

قال ابن عاشور:"عدت سورة الحج:"السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سور القرآن في رواية جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: «نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين». وهذا يقتضي أنها عنده مدنية كلها لأن سورة النور وسورة المنافقين مدنيتان فينبغي أن يتوقف في اعتماد هذا فيها".

الثالث: أنها مكية كلها، غير آيتين نزلتا بالمدينة: قوله سبحانه وتعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْف} [الحج: ١١]، والتي تليها. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

الرابع: أنها نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، من قوله: {هَـذَانِ خَصْمَان} [الحج: ١٩] إلى قوله: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } [الحج: ٢١]. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء بن السائب، وبه قال القرطبي.

الخامس: أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهنّ الآيات: [٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥]. قاله ابن عباس، وقتادة.

السادس: أنها مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة، من قوله: {هَـذَانِ خَصْمَان} [الحج: ١٩] إلى قوله: {صِرَاطِ الْحَمِيد} [الحج: ٢٤]. قاله الثعلبي، والفيروزآبادي، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي.

=

=

السابع: أنها مكية، إلا الآيات: [١، ٢٥، ١١، ٢، ٣٩، ٤٠، ٥٤، ٥٨، ٥٩]. قاله مقاتل.

الثامن: أن أولها مدني إلى قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧]، وسائرها مكي. قاله أبو سليمان الدمشقي.

قال ابن عطية: "قال الجمهور مختلطة فيها مكي ومدني، وهذا هو الأصح والله أعلم لأن الآيات تقتضي ذلك".

ذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال: سورة الحج: "هي من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، مختلف العدد".

وقال هبة الله بن سلامة: سورة الحج: " نزلت في مواطن مختلفة وهي من أعاجيب سور القرآن لأنها نزلت ليلا ونهارا، وفيها مكي ومدني وسفري وحضري وحربي وسلمي وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه... فأما المكي منها فمن رأس الثلاثين منها الى آخرها، وأما المدني منها فمن رأس خمسة عشر الى رأس ثلاثين، وأما الليلي منها فمن أولها الى رأس خمس آيات، وأما النهاري فمن راس خمس الى رأس تسع، وأما السفري فمن رأس تسع الى رأس تسع إلى اثنتي عشرة، وأما الحضري منها فألى رأس العشرين، نسبت الى المدينة لقرب مدته".

* عدد آياتها ثمانٍ وسبعون فى عدّ الكوفيِّين، وسبع للمدَنيين، وخمس للبصريِّن، وأَربع للشاميِّين. وكلماتها ألفان ومائتان وإِحدى وتسعون كلمة. وحروفها خمسة آلاف وخمسة وسبعون.

والآيات المختلف فيها خمس: الحميم، الجلود، وعاد وثمود، {وَقَوْمُ لُوطٍ}، {سَمَّاكُمُ المسلمين}. مجموع فواصل آياتها (انتظم زبرجد قطَّ) على الهمزة منها {إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ}.

=

=

* تسمى «سورة الحج» اشتهرت تسميتها بـ «سورة الحج»، في عهد الرسول-ﷺ-، وعهد اصحابه-رضوان الله عليهم-، وبذلك سميت في المصاحف وكتب التفسير وفي كتب السنة.

سميت «سورة الحج» لإعلان فريضة الحج فيها على الناس، على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧]، وذلك بعد بناء البيت العتيق، فأذن، فبلغ صوته أنحاء الأرض، وأسمع النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام، وأجابوا النداء: «لبيك اللهم لبيك».

وليس لهذه السورة غير اسم واحد، ولذلك لم يعدها السخاوي أو السيوطي في عداد السور ذوات الاسمين أو اكثر.

* مقصود السورة على طريق الإجمال: الوصيّة بالتَّقوى، والطَّاعة، وبيان هَوْل السّاعة، وزلزلة القيامة، (والحجّة) على إثبات الحشر والنشر، وجدال أَهل الباطل مع أَهل الحقِّ، والشكاية من أَهل النفاق بعد الثبات، وعَيْب الأَوثان وعبادتها، وذكر نُصْرة الرّسول ﷺ، وإقامة البرهان والحُجَّة، وخصومة المؤمن والكافر فى دين التوحيد، وتأذين إبراهيم على المسلم بالحجِّ، وتعظيم الحُرُمات والشعائر، وتفضيل القرآن فى الموسم، والمِنَّة على العباد بدفع فساد أَهل الفساد، وحديث البئر المعطَّلة، وذكر نسيان رسول الله ﷺ وسهوه حال تلاوة القرآن، وأَنواع الحجّة على إثبات القيامة، وعجز الأَصنام وعُبَّادها، واختيار الرّسول من الملائكة والإنس، وأَمر المؤمنين بأَنواع العبادة والإحسان، والمِنَّة عليهم باسم المسلمين، والاعتصام بحفظ الله وحِياطته فى قوله {واعتصموا بالله هُوَ مَوْلاَكُمْ} إلى قوله {وَنِعْمَ النصير}.

* المتشابهات: قوله: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} وبعده {وَتَرَى الناس سكارى} محمول على:

=

=

أَيُّها المخاطب كما سبق فى قوله {وَتَرَى الفلك}.

قوله: {ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [فى هذه السورة، وفى لقمان: {وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ}] لأَنَّ ما فى هذه السّورة وافق ما قبلها [من الآيات، وهى: نذير، القبور، وكذلك فى لقمان وافق ما قبلها] وما بعدها وهى الحمير والسّعير والأُمور.

قوله: {مِن بَعْدِ عِلْمٍ} بزيادة (مِن) لقوله {مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} الآيه وقد سبق فى النحل.

قوله: {ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} وفى غيرها {أَيْدِيْكُمْ} لأَنَّ هذه الآية نزلت فى نضر بن الحارث وقيل [فى] أَبى جهل [فوحده، وفى غيرها] نزلت فى الجماعة الَّذين تقدم ذكرهم.

قوله: {إِنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا "والصابئين والنصارى"} (قدّم الصابئين لتقدم زمانهم. وقد سبق فى البقرة.

قوله: {يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات} سبق فى الرّعد.

قوله: {كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} وفى السّجدة {مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا} لأَنَّ المراد بالغمِّ [الكرب] والأَخذ بالنَّفْس حتى لا يجد صاحبه مُتنفَّسًا، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك، وهو {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ} إِلى قوله {مِنْ حَدِيْدٍ} فمَنْ كان فى ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حَرّه أَحشاءُ بطنه، حتى يذوب ظاهرُ جِلده، وعليه موكَّلون يضربونه بمقامع من حديد، كيف يجد سرورًا ومُتنفَّسًا من تلك الكُرَبِ التى عليه وليس فى السّجدة من هذا ذِكر، وإِنما قبلها {فَمَأْوَاهُمُ النار كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا}.

قوله: {وَذُوْقُوا}، وفى السَّجدة: {وَقِيْلَ لَهُمْ ذُوْقُوا} القول ها هنا مضمر. وخُصّ بالإِضمار لطُول الكلام بوصف العذاب. وخصّت سورة السّجدة بالإِظهار،

=

=
موافقة للقول قبله فى مواضع منها {أَم يَقُوْلُونَ افْتَرَاهُ} {وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا}، و {قُلْ يَتَوَفَّاكُم} و {حَقَّ الْقَوْلُ} وليس فى الحجّ منه شئ. قوله: {إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار} مكرَّرة. وموجِب التكرار قوله: {هاذان خَصْمَانِ}، لأَنَّه لمّا ذكر أَحَدَ الخَصْمين وهو {فالذين كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ} لم يكن بُدّ من ذِكر الخَصْم الآخر فقال: {إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُوا}.

قوله: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين} وفى البقرة {وَالْعَاكِفِيْنَ} وَحَقَّه أن يذكر هناك لأَنَّ ذكر العاكف هاهنا سبق فى قوله {سَوَآءً العَاكِفَ فِيْهِ وَالبَاد} ومعنى {والقآئمين والركع السجود} المُصَلُّون. وقيل: (القائمين) بمعنى المقيمين. وهم العاكفون [لكن] لمَّا تقدّم ذكرهم عُبِّر عنهم بعبارة أُخرى.

قوله: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القانع والمعتر} كرّر؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بكلام إِبراهيم وهو اعتراض ثم أَعاده مع قوله {والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ}.

قوله: {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} وبعده {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا} خصّ الأَوّل بذكر الإِهلاك؛ لاتِّصاله بقوله: {فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} أَى أَهلكتهم، والثانى بالإِملاءِ؛ لأَنَّ قوله: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب} دَلّ على أَنَّه لم يأْتهم فى الوقت، فحسنُ ذكر الإِملاءِ.

قوله: {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل} هنا وفى لقمان {مِن دُونِهِ الباطل} لأَنَّ هنا وقع بين عشر آيات كلُّ آية مؤكَّدة مرّة أَو مرَّتيْن، ولهذا أَيضًا زيدَ فى هذه السّورة اللاَّم فى قوله: {وَإِنَّ الله لَهُوَ الغني الحميد} وفى لقمان: {إِنَّ الله هُوَ الغني الحميد} إِذ لم يكن سورة لقمان بهذه الصّفة. وإِن شئت قلت: لمّا تقدّم فى هذه السّورة ذِكْرُ الله سبحانه وتعالى وذكرُ الشيطان أَكَّدهما؛ فإِنَّه خبر [وقع] بين خبرين. ولم يتقدّم فى لقمان ذِكرُ الشيطان، فأَكد ذكر الله، وأَهمل ذكر الشَّيطان.
=

مَكِّيَّة إلَّا {وَمِنْ النَّاس مَنْ يَعْبُد الله} الْآيَتَيْنِ أَوْ إلَّا {هَذَانِ خَصْمَانِ} السِّتّ آيَات فَمَدَنِيَّات وآياتها ٧٨ نزلت بعد النور.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١).

{يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة وَغَيْرهمْ {اتَّقُوا رَبّكُمْ} أَيْ عِقَابه بِأَنْ تُطِيعُوهُ {إنَّ زَلْزَلَة السَّاعَة} أَيْ الْحَرَكَة الشَّدِيدَة لِلْأَرْضِ الَّتِي يَكُون بَعْدهَا طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا الَّذِي هُوَ قُرْب السَّاعَة {شَيْء عَظِيم} فِي إزْعَاج النَّاس الَّذِي هُوَ نَوْع مِنْ الْعِقَاب.

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢).

{يَوْم تَرَوْنَهَا تَذْهَل} بِسَبَبِهَا {كُلّ مُرْضِعَة} بِالْفِعْلِ {عَمَّا أَرْضَعَتْ} أَيْ تَنْسَاهُ {وَتَضَع كُلّ ذَات حمل} أي حبلى {حملها وَتَرَى النَّاس سُكَارَى} مِنْ شِدَّة الْخَوْف {وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} مِنْ الشَّرَاب {وَلَكِنَّ عَذَاب الله شَدِيد} فَهُمْ يَخَافُونَهُ[2].

=

وهذه دقيقة.

بصائر ذوي التمييز.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

=

=

عن أنس بن مالك؛ قال: نزلت: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} على النبي ﷺ وهو في مسير له، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه، ثم قال: "أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله -جلّ وعلّا- لآدم: يا آدم، قم فابعث بعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين"؛ فكبر ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ: "سددوا وقاربوا وأبشروا، فوالذي نفسي بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثّرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من كَفَ الجن والإنس".

أخرجه عبد بن حميد في "مسنده" (رقم ١١٨٥ - المنتخب)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣١)، والطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٨٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٢١٤)، وأبو يعلى في "المسند" (٥/ ٤٣٠ - ٤٣١ رقم ٣١٢٢)، وابن حبان في "صحيحه" (١٦/ ٣٥٢ رقم ٧٣٥٤ - إحسان) أو (رقم ١٧٥٢ - موارد)، والحاكم في "المستدرك" (١/ ٢٩، ٤/ ٥٦٦ - ٥٦٧)، وابن منده في "الإيمان" (٣/ ٨٨٤ رقم ٩٩٢) جميعهم من طريق معمر عن قتادة عن أنس به، وزاد بعضهم مع قتادة: أبان عن أنس.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ٣٩٤): "رواه أبو يعلى؛ ورجاله رجال الصحيح؛ غير محمد بن مهدي وهو ثقة".

وإسناده ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: قتادة؛ مدلس ولم يصرح بالسماع عند جميع من ذكرناهم.

والثانية: معمر؛ قال عنه الحافظ في "التقريب": "ثقة ثبت فاضل؛ إلا أن في روايته

="

=

عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئًا، وكذا فيما حدث به بالبصرة". وهذا منها؛ فقتادة بصري، وأصحاب قتادة يروونه عنه عن الحسن عن عمران به، فجعلوه من مسند عمران

أخرجه من هذا الوجه أحمد في "المسند" (٤/ ٤٣٥)، والترمذي (رقم ٣١٦٩) - وقال: "حسن صحيح"-، والنسائي في "التفسير" (٢/ ٨٢ رقم ٣٦٠)، والطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٨٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٨/ رقم ٣٠٦، ٣٠٨)، و"مسند الشاميين" (٤/ رقم ٢٦٣٦)، والحاكم (١/ ٢٨ - ٢٩، ٢/ ٢٣٣، ٣٨٥، ٤/ ٥٦٧)، وابن أبي حاتم في "التفسير"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٢١٤)، والطيالسي (رقم ٨٣٥)، والخطابي في "غريب الحديث" (١/ ٤٦٥) وغيرهم من طريق سعيد بن أبي عروبة وسليمان التيمي وهشام الدستوائي وشيبان النحوي وأبي عوانة وسعيد بن بشير والحكم بن عبد الملك كلهم عن قتادة عن الحسن عن عمران به. فأصحاب قتادة كما ترى يروونه عنه هكذا، وعليه؛ فإن معمرًا وهم فيه؛ كما قال الذهلي

أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٥)، والطيالسى (٨٣٥)، والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٠)، والترمذى (٣١٦٩)، والطبرانى (١٨/ ١٤٤)، والحاكم (٤/ ٦١١) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبى، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: بينا رسول الله ﷺ في مسيره في غزوة بني المصطلق؛ إذ أنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} إلى قوله: {وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ} فلما أنزلت عليه وقف على ناقته، ثم رفع بها صوته فتلاها على أصحابه، ثم قال لهم: "أتدرون أي يوم ذاك؟ "، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "ذاك يوم

=

=

يقول الله لآدم: يا آدم! ابعث بعث النار من ولدك. فيقول: يا رب! من كل كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدًا إلى الجنة"؛ فبكى المسلمون بكاءً شديدًا، ودخل عليهم أمر شديد. فقال: "والذي نفس محمد بيده؛ ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الشاة السوداء، وأني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، بل أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة".

أخرجه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ٣٧٨)، و"الدر المنثور" (٦/ ٦) من طريق محمد بن إسحاق ثنا محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.

والكلبي كذاب، وأبو صالح متهم، ويغني عنه ما سبق.

* افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق- ﷻ إلى الناس جميعا، يأمرهم فيه بامتثال أمره، وباجتناب نهيه، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} [الحج: ١]، أي:"يا أيها الناس احذروا عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه".

قال مقاتل:"يخوفهم يقول اخشوا ربكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته فأطيعوه ولا تعصوه، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد".

قوله تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١]، أي:"إن ما يحدث عند قيام الساعة من أهوال وحركة شديدة للأرض، تتصدع منها كل جوانبها، شيء عظيم، لا يُقْدر قدره ولا يُبْلغ كنهه، ولا يعلم كيفيَّته إلا رب العالمين".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١]، قولان:

أحدهما: أنها في الدنيا، وهي أشراط ظهورها، وآيات مجيئها. قاله علقمة، وعامر، وابن جريج.

=

=

قال الزجاج:"قيل إن هذه الزلزلة في الدنيا وأن يكون بعدها طلوع الشمس من مغربها".

عن علقمة، قوله:"{إن زلزلة الساعة شيء عظيم}، قال: الزلزلة قبل الساعة".

قال عامر:"هذا في الدنيا من آيات الساعة".

قال جرير: "هذا بين يدي الساعة".

والثاني: أنها في القيامة. وهذا مروي عن رسول الله-ﷺ-، وبه قال ابن زيد.

عن عمران بن حصين، قال: «بينما رسول الله ﷺ في بعض مغازيه وقد فاوت السير بأصحابه، إذ نادى رسول الله ﷺ بهذه الآية: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم}. قال: فحثوا المطي، حتى كانوا حول رسول الله ﷺ قال " هل تدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم ينادى آدم، يناديه ربه: ابعث بعث النار، من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين إلى النار، قال: فأبلس القوم، فما وضح منهم ضاحك، فقال النبي ﷺ: ألا اعملوا وأبشروا، فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلا كثرتاه، فمن هلك من بني آدم، ومن هلك من بني إبليس ويأجوج ومأجوج. قال: أبشروا، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في جناح الدابة"».

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله -ﷺ-، فإنه -ﷺ-أعلم بمعاني وحي الله وتنزيله".

عن أنس بن مالك قال: «نزلت: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم}، على النبي ﷺ وهو في مسير له فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه ثم قال: "أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله جلا وعلا لآدم يا آدم قم فابعث بعث النار من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين"، فكبر ذلك على المسلمين فقال النبي ﷺ: "سددوا وقاربوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في

=

=

جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفر الجن والإنس"».

وقوله سبحانه: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ تعليل للأمر بالتقوى.

قال القرطبي: الزلزلة شدة الحركة، ومنه قوله تعالى: ... وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ... وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع، أي: زال عنه وتحرك، وزلزل الله قدمه، أي: حركها وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء» ا.هـ.

وقال الآلوسى: «والزلزلة: التحريك الشديد، والإزعاج العنيف، بطريق التكرير، بحيث يزيل الأشياء من مقارها، ويخرجها عن مراكزها.

وإضافتها إلى الساعة، من إضافة المصدر إلى فاعله، لكن على سبيل المجاز في النسبة كما في قوله تعالى: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لأن المحرك حقيقة هو الله تعالى، والمفعول الأرض أو الناس، أو من إضافته إلى المفعول، لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعا كما في قوله: «يا سارق الليلة أهل الدار ... »

والمعنى: يا أيها الناس اتقوا ربكم اتقاء تاما، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما لا يرضيه، وبأن تسارعوا إلى فعل ما يحبه، لأن ما يحدث في هذا الكون عند قيام الساعة، شيء عظيم، ترتجف لهوله القلوب، وتخشع له النفوس.

وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته بالخالقية، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم.

وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيد.

وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام. وأول تقواه

=

=

هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية.

وقال سبحانه: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشيء العظيم، لزيادة التهويل والتخويف.

ثم فصل سبحانه هذا الشيء العظيم تفصيلا يزيد في وجل القلوب فقال: يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ....

قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [الحج: ٢]، أي:"يوم ترون قيام الساعة تنسى الوالدةُ رضيعَها الذي ألقمته ثديها؛ لِمَا نزل بها من الكرب".

قال مقاتل:"وتدع المراضع البنين من الفزع الشديد".

قال الطبري:"يوم ترون أيها الناس زلزلة الساعة تنسى وتترك -من عظمها- كل مرضعة مولود عما أرضعت".

قال ابن كثير:"أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: {كُلُّ مُرْضِعَةٍ}، ولم يقل: "مرضع" وقال: {عَمَّا أَرْضَعَتْ} أي: عن رضيعها قبل فطامه".

قال الزمخشري:"أى: تذهلها الزلزلة. والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة. فإن قلت: لم قيل مرضعة دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى. والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت

الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة عما أرضعت عن إرضاعها، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل".

=

=

عن سفيان قوله: " {يوم ترونها تذهل}، قال: تغفل".

قال الحسن:"تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام".

قوله تعالى: {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} [الحج: ٢]، أي:"وتُسْقط الحامل حملها من الرعب".

قال ابن كثير:"أي: قبل تمامه لشدة الهول".

قال مقاتل: أي: "النساء والدواب [تضع] حملها من شدة الفزع، لشدة الفزع من الساعة، وذلك قبل النفخة الأولى ينادي منادمن السماء الدنيا: يأيها الناس جاء أمر الله، فيسمع صوته أهل الأرض جميعا فيفزعون فزعا شديدا، ويموج بعضهم في بعض ويشيب فيها الصغير ويسكر فيها الكبير وتضع الحوامل ما في بطونها".

قال الحسن:"وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام".

قوله تعالى: {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى} [الحج: ٢]، أي:"وتغيب عقول الناس، فهم كالسكارى من شدة الهول والفزع".

قال مقاتل: " {وترى الناس سكارى} من الخوف".

قال الزجاج:"التفسير: أنك تراهم سكارى من العذاب والخوف".

قال الزمخشري:"المعنى: وتراهم سكارى على التشبيه".

قال ابن كثير:"أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارى".

قال الزمخشري: أي:"{وما هم بسكارى} على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه".

عن الربيع:"{وترى الناس سكارى}، قال: ذلك عند الساعة، يسكر الكبير ويشيب الصغير وتضع الحوامل ما في بطونها".

=

=

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: «سكرى وما هم بسكرى»، بضم السين فيهما وبالألف، وقرأ حمزة والكسائي: «وترى الناس سكرى وما هم بسكرى»، بغير ألف فيهما والسين مفتوحة.

عن أبي نهيك، أنه قرأ: «وترى الناس»، يعني: تحسب الناس، قال: لو كانت منصوبة كانوا سكارى، ولكنها «ترى»: تحسب".

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ} [الحج: ٢]، أي:"وليسوا بسكارى من الخمر، ولكن شدة العذاب أفقدتهم عقولهم وإدراكهم".

قال مقاتل: " {وما هم بسكارى} من الشراب، {ولكن عذاب الله شديد} ".

قال الزجاج:" {وما هم بسكارى} من الشراب، ويدل عليه: {ولكن عذاب الله شديد} ".

والضمير في «ترونها»، يعود إلى الزلزلة لأنها هي المتحدث عنها والظرف «يوم» منصوب بالفعل تذهل، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم.

والذهول: الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف، ومنه قول عبد الله ابن رواحة- رضى الله عنه-: ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

أى: أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذي ألقمته ثديها. وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم قيل مُرْضِعَةٍ دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى، والمرضع: التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة عَمَّا أَرْضَعَتْ

=

=

عن إرضاعها: أو عن الذي أرضعته وهو الطفل ... » ا.هـ.

وقوله سبحانه: (وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها) بيان لحالة ثانية تدل على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها.

أى: وترونها- أيضا- تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع.

قال الرازي: والمعنى أنها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث، قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام، وقال القفال: يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة تبعث حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله: يوما يجعل الولدان شيبا [المزمل: ١٧] ا.هـ

وقال ابن عاشور: والمراد: أن ذلك يحصل لكل مرضعة موجودة في آخر أيام الدنيا. فالمعنى الحقيقي مراد، فلم يقتض أن يكون الإرضاع واقعا، فأطلق ذهول المرضع وذات الحمل وأريد ذهول كل ذي علق نفيس عن علقه على طريقة الكناية.

وزيادة كلمة (كل) للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع وليس هو لبعض المراضع باحتمال ضعف في ذاكرتها. ثم تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة. وذلك أن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة. وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن

=

=

استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية، وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء. ا.هـ

ثم بين سبحانه حالة ثالثة للآثار التي تدل على شدة هذه الزلزلة فقال: وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ.

أى: وترى- أيها المخاطب- الناس في هذا الوقت العصيب، هيئتهم كهيئة السكارى من قوة الرعب والفزع. وما هم على الحقيقة بسكارى، لأنهم لم يشربوا ما يسكرهم ولكن عذاب الله شديد. أى: ولكن شدة عذابه سبحانه هي التي جعلتهم بهذه الحالة التي تشبه حالة السكارى في الذهول والاضطراب.

وقد أشار الزمخشري إلى هذا المعنى فقال: «وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله، هو الذي أذهب عقولهم، وطير تمييزهم، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ...".

وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة الزمخشري هذه فقال: قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه، كقولك: زيد حمار، إذا وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول: وما هو بحمار، فتنفى عنه الحقيقة، فكذلك الآية، بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء، والسر في تأكيده: التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء، وإنما هو أمر لم يعهدوا مثله من قبل. والاستدراك بقوله وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ

راجع إلى قوله: وَما هُمْ بِسُكارى

وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى، فكأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: شدة عذاب الله تعالى».

=

=

هذا، وقد اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا، فمنهم من يرى أنها تكون في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة ومنهم من يرى أنها تكون يوم القيامة، بعد خروج الناس من قبورهم للحساب.

فقالت جماعة من أهل العلم: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وممن قال بهذا القول: علقمة، والشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، وابن جريج. وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، ولكنه لم يثبت ما يؤيده من النقل، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه؛ وهو القول الآخر. وحجة من قال بهذا القول حديث مرفوع جاء بذلك، يسمى حديث الصور، -وحديث الصور أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٦)، (٣٨٧)، وابن جرير في تفسيره (٢/ ٣٣٠ - ٣٣١) والبيهقي في البعث والنشور (٦٦٨ و ٦٦٩)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٣٩، ٣٤٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب " الطاعة والعصيان "، وأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في " المطولات " وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المديني كلاهما في " المطولات "كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا والحديث قال عنه ابن كثير في تفسير (٢/ ١٤٧): هذا حديث مشهور وهو غريب جدا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة وفي تهذيب التهذيب (٩/ ٣٢٤) قال الإمام أحمد رجاله لا يعرفون، وقال البخاري لم يصح، وقال ابن حبان لست أعتمد على إسناده، وقال الأزدي ليس بالقائم في إسناده نظر، وقال الدارقطني: إسناده لايثبت ا. هـ، وضعفه أيضا الطبري في تفسيره، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٧)، والبيهقي، وعبد الحق، والحافظ في المطالب العالية (٣/ ٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٧٨٨): ظاهره النكارة-.

=

=

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور.

وقد ساق ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ سبعة أحاديث استدل بها أصحاب الرأى الثاني.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم. فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف- أراه قال- تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد». فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. فقال ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة- فكبرنا- ثم قال: ثلث أهل الجنة- فكبرنا- ثم قال: شطر أهل الجنة فكبرنا».

وعلى الرأى الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقي، بأن تتزلزل الأرض وتضطرب، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها، ثم تقوم الساعة.

وعلى الرأى الثاني قد تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفزع، كما في قوله تعالى في شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا فالمقصود: أصيبوا بالفزع والخوف، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم.

فإن قيل: هذا النص فيه إشكال، لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث، حتى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع، حتى تذهل عما أرضعت. فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أن من ماتت حاملًا تبعث حاملًا، فتضع

=

=

حملها من شدة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل.

الوجه الثاني: أن ذلك كناية عن شدة الهول، كقوله تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)} هو ومثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة.

(تنبيه): اعلم أن هذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا بعضها يَرِد عليه سؤال، وهو أن يقال: إذا كانت الزلزلة المذكورة بعد القيام من القبور، فما معناها؟

والجواب: أن معناها شدة الخوف، والهول، والفزع؛ لأن ذلك يسمى زلزالًا، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأزاب من الخوف: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)} أي: وهو زلزال فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول بالعمل الصالح، في دار الدنيا قبل تعذر الإمكان؛ لما قدمنا مرارًا من أن "إنَّ" المشددة المكسورة تدل على التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، ومسلك النص والظاهر، أي: اتقوا الله؛ لأن أمامكم أهوالًا عظيمة، لا نجاة منها إلَّا بتقواه جل وعلا.

(تنبيه): قال الرازي: المسألة الخامسة: احتجت المعتزلة بقوله تعالى: إن زلزلة الساعة شيء عظيم وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة، واحتجوا أيضا بقوله تعالى: إن الله على كل شيء قدير [البقرة: ٢٠] فالشيء الذي قدر الله عليه إما أن يكون موجودا أو معدوما، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادرا على إيجاد

=

=

الموجود، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذي قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شيء. واحتجوا أيضا بقوله تعالى: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا [الكهف: ٢٣] أطلق اسم الشيء في الحال على ما يصير مفعولا غدا، والذي يصير مفعولا غدا يكون معدوما في الحال، فالمعدوم شيء والله أعلم والجواب: عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة وهي جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك في المعدوم محال، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئا حال عدمها، فلا بد من التأويل بالاتفاق ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئا، وهذا هو الجواب عن البواقي ا.هـ

قلت قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٥): والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف: أن المعدوم ليس في نفسه شيئا وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم قال الله تعالى لزكريا: {وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا} فأخبر أنه لم يك شيئا وقال تعالى: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}؟ وقال تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون}؟ فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم أم خلقوا هم أنفسهم؛ ولهذا قال جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع. ولو كان المعدوم شيئا لم يتم الإنكار إذا جاز أن يقال ما خلقوا إلا من شيء لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئا معدوما. وقال تعالى: {فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا} ولو كان المعدوم شيئا لكان التقدير: لا يظلمون موجودا ولا معدوما والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم. وأما قوله {إن زلزلة الساعة شيء عظيم} فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخبارا عن الزلزلة في هذه الحال؛ ولهذا قال: {يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما

=

=

أرضعت} ولو أريد به الساعة لكان المراد بـه أنهـا شـيء عظـيم في العلـم والتقـدير. وقوله تعالى {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} قد اسـتدل بـه مـن قال المعدوم شيء وهو حجة عليه؛ لأنه أخبر أنه يريد الشيء وأنـه يكونـه وعنـدهم أنه ثابت في العدم وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه والقرآن قـد أخـبر أن نفسه تـراد وتكون وهذا من فروع هذه المسألة. فإن الذي عليه أهـل الـسنة والجماعـة وعامـة العقلاء أن الماهيات مجعولة وأن ماهية كـل شـيء عـين وجـوده وأنـه لـيس وجـود الشيء قدرا زائدا على ماهيته بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هـو الـشيء وهـو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته وليس وجوده وثبوته في الخارج زائدا على ذلك.

وأولئك يقولون الوجود قدر زائد علـى الماهيـة ويقولـون الماهيـات غـير مجعولـة ويقولون وجود كل شيء زائد على ماهيته ومن المتفلسفة مـن يفـرق بـين الوجـود والواجب والممكن فيقول: الوجود الواجب عين الماهية. وأمـا الوجـود الممكـن فهو زائد على الماهية. وشبهة هؤلاء ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ماهية الـشيء ولا يعلم وجوده وأن الوجود مشترك بين الموجـودات وماهيـة كـل شـيء مختـصة به. ومن تدبر تبين له حقيقة الأمر فإنا قد بينا الفرق بـين الوجـود العلمـي والعينـي؛ وهذا الفرق ثابـت في الوجـود والعـين والثبـوت والماهيـة وغـير ذلـك فثبـوت هـذه الأمور في العلم والكتاب والكلام: ليس هو ثبوتها في الخارج عن ذلك وهو ثبـوت حقيقتها وماهيتها التي هي هي فالإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهني ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقي الخـارجي. فقـول القائـل: قـد تـصورت حقيقـة الشيء وعينـه ونفـسه وماهيتـه ومـا علمـت وجـوده أو حـصل وجـوده العلمـي ومـا حصل وجوده العيني الحقيقـي ولـم يعلـم ماهيتـه الحقيقيـة ولا عينـه الحقيقيـة ولا نفسه الحقيقيـة الخارجيـة فـلا فـرق بـين لفـظ وجـوده ولفـظ ماهيتـه؛ إلا أن أحـد اللفظين قد يعبر به عن الذهني والآخر عن الخارجي فجاء الفرق من جهـة المحـل

=

=

لا من جهة الماهية والوجود.

وأما قولهم: إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها - فالقول فيه كذلك فإن الوجود المعين الموجود في الخارج لا اشتراك فيه كما أن الحقيقة المعينة الموجودة في الخارج لا اشتراك فيها؛ وإنما العلم يدرك الموجود المشترك كما يدرك الماهية المشتركة فالمشترك ثبوته في الذهن لا في الخارج وما في الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة في الخارج لم يكن فيها اشتراك وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة وليس في الخارج شيء مطلق عام بوصف الإطلاق والعموم وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد في الخارج إلا معينا. فينبغي للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشيء ووجوده في نفسه وبين ثبوته ووجوده في العلم فإن ذاك هو الوجود العيني الخارجي الحقيقي وأما هذا فيقال له الوجود الذهني والعلمي وما من شيء إلا له هذان الثبوتان فالعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط فيصير لكل شيء أربع مراتب: وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البنان وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي. ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ذكر فيها النوعين فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} {خلق الإنسان من علق} فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عموما ثم خصوصا فخص الإنسان بالخلق بعدما عم غيره ثم قال: {اقرأ وربك الأكرم} {الذي علم بالقلم} {علم الإنسان ما لم يعلم} فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم وذكر القلم لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى، فصار تعليمه بالقلم مستلزما للمراتب الثلاث: اللفظي والعلمي والرسمي؛ بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك

=

=

مستوعبا للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي وأن الله سبحانه هو معطيهما؛ فهو خالق الخلق وخالق الإنسان وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان. فأما إثبات وجود الشيء في الخارج قبل وجوده فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع.

(منبهة): قال الله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) [سورة الحج: ١ - ٢].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة: يا آدم. فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.... » أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث (٣٣٤٨)، وفي كتاب تفسير القرآن، حديث (٤٧٤١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (٢٢٢)، وفي كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث (٢٩٤٠).

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ لما نزلت: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) إلى قوله: (ولكن عذاب الله شديد) قال: «أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار، فقال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة.... » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٣٥)، والترمذي في سننه، في كتاب التفسير، حديث

=

=

(٣١٦٨)، وقال: «حديث حسن صحيح».

* ظاهر الحديثين الشريفين أن زلزلة الساعة المذكورة في الآية تكون يوم القيامة بعد قيام الناس من قبورهم، وقد استشكل بأن ذلك الوقت لا حمل فيه ولا رضاع، فكيف يكون فيه ذهول المرضعة عما أرضعت، ووضع الحامل لحملها؟

* اختلف المفسرون في الوقت الذي تكون فيه الزلزلة المذكورة في الآية على مذهبين:

الأول: أنها كائنة في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم الساعة.

وهذا المذهب قال به بعض المتقدمين، كعلقمة، والشعبي، وابن جريج، ومقاتل.

وهو اختيار القاضي ابن عطية، وحكاه مذهب الجمهور من المفسرين.

واستدل له: بأن الرضاع والحمل لا يكون إلا في الدنيا، وأما الآخرة فلا يكون فيها شيء من ذلك.

وأجاب عن الأحاديث الواردة في المسألة: باحتمال أن النبي - ﷺ - قرأ الآية المتضمنة ابتداء أمر الساعة، ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة، وهذا من الفصاحة.

المذهب الثاني: أن الزلزلة المذكورة في الآية كائنة يوم القيامة بعد قيام الناس من قبورهم.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير الطبري، وابن العربي، وابن الجوزي، وأبي عبد الله القرطبي، والنووي، والحافظ ابن حجر، والشنقيطي.

وعمدتهم في هذا التفسير الأحاديث الواردة في المسألة، الدالة على أن ذلك كائن يوم القيامة، يوم أن يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: أخرج بعث النار.

ولهم في الجواب عن الإشكال الوارد في الأحاديث مسلكان:

الأول: حمل الأوصاف المذكورة في الحديثين على المجاز.

=

=

ويرى أصحاب هذا المسلك أن ما ذكر في الأحاديث هو كناية عن شدة الهول والهلع، بحيث إنه لو حضرت حامل حينئذ لوضعت، ولو حضرت مرضعة لذهلت عما أرضعت.

وهذا المسلك قال به ابن الجوزي، والنووي.

المسلك الثاني: حمل الأوصاف المذكورة في الحديثين على الحقيقة.

حيث ذهب الحافظ ابن حجر إلى أن ما ذكر في الأحاديث محمول على الحقيقة؛ لأن كل أحد يبعث يوم القيامة على ما مات عليه، فالحامل تبعث حاملا، والمرضع تبعث مرضعا، والطفل يبعث طفلا؛ فإذا وقعت زلزلة الساعة، وقيل ذلك لآدم، ورأى الناس آدم، وسمعوا ما قيل له، وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحمل، ويشيب له الطفل، وتذهل به المرضعة.

قال: «ويحتمل أن يكون ذلك بعد النفخة الأولى، وقبل النفخة الثانية، ويكون خاصا بالموجودين حينئذ، وتكون الإشارة بقوله: «فذاك» إلى يوم القيامة، وهو صريح في الآية، ولا يمنع من هذا الحمل ما يتخيل من طول المسافة بين قيام الساعة، واستقرار الناس في الموقف، ونداء آدم لتمييز أهل الموقف؛ لأنه قد ثبت أن ذلك يقع متقاربا؛ كما قال الله تعالى: (فإنما هي زجرة واحدة (١٣) فإذا هم بالساهرة (١٤)) [النازعات: ١٣ - ١٤]، يعني أرض الموقف، وقال تعالى: (يوما يجعل الولدان شيبا (١٧) السماء منفطر به) [المزمل: ١٧ - ١٨]، والحاصل أن يوم القيامة يطلق على ما بعد نفخة البعث من أهوال وزلزلة وغير ذلك إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار». اهـ

ولابن العربي جواب آخر، حيث يرى أن يوم الزلزلة يكون عند النفخة الأولى، وفيه ما يكون فيه من الأهوال العظيمة، ومن جملتها ما يقال لآدم، ولا يلزم من ذلك أن يكون ذلك متصلا بالنفخة الأولى، بل له محملان:

=

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣).

وَنَزَلَ فِي النَّضْر بْن الْحَارِث وَجَمَاعَته {وَمِنْ النَّاس مَنْ يُجَادِل فِي الله بِغَيْرِ عِلْم} قَالُوا الْمَلَائِكَة بَنَات الله وَالْقُرْآن أَسَاطِير الْأَوَّلِينَ وَأَنْكَرُوا الْبَعْث وَإِحْيَاء مَنْ صَارَ تُرَابًا {وَيَتَّبِع} فِي جِدَاله {كُلّ شَيْطَان مَرِيد} أَيْ مُتَمَرِّد.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤).

{كُتِبَ عَلَيْهِ} قُضِيَ عَلَى الشَّيْطَان {أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ} أَيْ اتَّبَعَهُ {فَأَنَّهُ يُضِلّهُ وَيَهْدِيهِ} يَدْعُوهُ {إلى عذاب السعير} أي النار(١).

=

أحدهما: أن يكون آخر الكلام منوطا بأوله، والتقدير: يقال لآدم ذلك في أثناء اليوم الذي يشيب فيه الولدان، وغير ذلك.

وثانيهما: أن يكون شيب الولدان عند النفخة الأولى حقيقة، والقول لآدم يكون وصفه بذلك إخبارا عن شدته وإن لم يوجد عين ذلك الشيء.

وذكر الحليمي واستحسنه أبو عبد الله القرطبي أنه يحتمل أن يحيي الله حينئذ كل حمل كان قد تم خلقه ونفخت فيه الروح، فتذهل الأم حينئذ عنه؛ لأنها لا تقدر على إرضاعه، إذ لا غذاء هناك ولا لبن، وأما الحمل الذي لم ينفخ فيه الروح فإنه إذا سقط لم يحيى، لأن ذلك يوم الإعادة، فمن لم يمت في الدنيا لم يحيى في الآخرة.

(١) قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣]

قال مقاتل:"نزلت في النضر بن الحارث القرشي وأمه اسمها صفية بنت الحارث بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، قال: ويتبع النضر {كل شيطان مريد}، يعني: مارد..".

=

=

قال السمعاني:"الأكثرون على أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، وكان ينكر البعث ويجادل فيه".

قال الزمخشري:"قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلا يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا. وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله".

قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الحج: ٣]، أي:"وبعضٌ من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان".

قال الطبري: يقول: [ومن الناس] " من يخاصم في الله، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار ترابا، بغير علم يعلمه، بل بجهل منه بما يقول، {ويتبع} في قيله ذلك وجداله في الله بغير علم {كل شيطان مريد}".

قال يحيى:"يعني: المشرك يلحد في الله فيجعل معه آلهة، {بغير علم} أتاه من الله".

قال سهل بن عبد الله:"أي يخاصم في الدين بالهوى والقياس دون الاقتداء، فعند ذلك يضل الناس ويبتدع".

عن ابن جريج:"{ومن الناس من يجادل في الله بغير علم}، قال: النضر بن الحارث".

قال ابن كثير:"يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، أي: علم صحيح".

=

=

قوله تعالى: {وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: ٣]، أي:"يطيع ويقتدي بكل عات متمرد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق".

قال الزجاج:"أي: يتبع ما يسول له الشيطان، و «مريد» و «مارد»، معناه: أنه قد مرد في الشر، وأصله في اللغة: املساس الشيء، من ذلك قولك للإنسان: أمرد، إذا لم يكن في وجهه شعر، ويقال للصخرة: مرداء، إذا كانت ملساء".

قال السمعاني:"المريد: المتمرد، والمتمرد: هو المستمر في الشر، يقال: حائط ممرد أي: مطول، وقيل: المريد هو العاري عن الخير، يقال صبي أمرد إذا كان عاريا خده من الشعر".

عن قتادة قوله: " {ويتبع كل شيطان مريد} ، قال: تمرد على معاصي الله".

قال يحيى:"مرد، يعني اجترأ على المعصية".

وقوله يُجادِلُ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة، مأخوذ من جدلت الحبل. أى: أحكمت فتله، كأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه، ويضعف رأى صاحبه.

وهي عطف على جملة (يا أيها الناس اتقوا ربكم)، أي الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أيمة الشرك وزعماء الكفر لأنهم الذين يتصدون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة وتمويه.

والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقبولها في الفطرة.

والمراد بالمجادلة في الله: المجادلة في ذاته وصفاته وتشريعاته.

أي: يخاصم في الله بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله، كالذي يدعي له

=

=

الأولاد والشركاء، ويقول: إن القرآن أساطير الأولين، ويقول: لا يمكن أن يحيي الله العظام الرميم، كالنضر بن الحارث، والعاص بن وائل، وأبي جهل بن هشام، وأمثالهم من كفار مكة الذين جادلوا في الله ذلك الجدال الباطل بغير مستند من علم عقلي، ولا نقلي، ومع جدالهم في الله ذلك الجدال الباطل يتبعون كل شيطان مريد.

وقوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ حال من الفاعل في يجادل. وهي حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد.

أي: ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد، لأنهم يجادلون وينازعون في ذات الله وصفاته، وفي وحيه وفي أحكامه بغير مستند من علم عقلي أو نقلي، وبغير دليل أو ما يشبه الدليل.

وقوله سبحانه وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ معطوف على ما قبله. والمريد والمتمرد البالغ أقصى الغاية في الشر والفساد، يقال: مرد فلان على كذا- من باب نصر وظرف- إذا عتا وتجبر واستمر على ذلك.

وأصل المادة للملاسة والتجرد، ومنه قولهم: شجرة مرداء، أى ملساء لا ورق لها. وغلام أمرد. أى: لم ينبت في ذقنه شعر..

أي: يجادل في ذات الله وصفاته بغير علم يعلمه، ويتبع في جداله وتطاوله وعناده، كل شيطان عاد عن الخير، متجرد للفساد، لا يعرف الحق أو الصلاح، ولا هما يعرفانه، وإنما هو خالص للشر والغي والمنكر من القول والفعل.

وتقييد الجدال بكونه بغير علم، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال الباطل، سائغ محمود، ولذا قال الرازي: «هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة»، فالمجادلة الباطلة: هي المرادة من قوله تعالى: ما

=

=

ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.. والمجادلة الحقة هي المرادة من قوله: وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ا.هـ.

ثم بين سبحانه سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل، والمتبع لكل شيطان مريد، فقال: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ.

قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ} [الحج: ٤]، أي:"قضى الله وقدَّر على هذا الشيطان أنه يُضِل كل من اتبعه، ولا يهديه إلى الحق".

قال الطبري: يقول:"قضى على الشيطان أنه يضل أتباعه، ولا يهديهم إلى الحق، فمعنى {كتب}، ههنا: قضي".

قال الزجاج: أي:"كتب على الشيطان إضلال متوليه".

قال ابن كثير:"يعني: كتب عليه كتابة قدرية {أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ} أي: اتبعه وقلده".

عن قتادة قوله: {كتب عليه أنه من تولاه}، قال: كتب على الشيطان، أنه من اتبع الشيطان من خلق الله".

عن مجاهد قوله: " {كتب عليه}، قال: على الشيطان، {أنه من تولاه}، قال: اتبعه".

قال ابن عباس: "قضى الله أن من أطاع إبليس أضله ولم يرشده".

قوله تعالى: {وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [الحج: ٤]، أي:"يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة جزاء اتباعه إياه".

قال ابن عباس: " وجره إلى عذاب السعير".

قال الطبري: يقول:"يقول: ويسوق من اتبعه إلى عذاب جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم".

قال ابن كثير:"أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار

=

=

المؤلم المزعج المقلق".

قال يحيى:"«السعير»: اسم من أسماء جهنم".

قال أبو كعب المكي: "قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرنا عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة - والقعقعة في كلام العرب: الرعد - فإذا قِحْف رأسه ساقط بين يديه".

أى: كتب على هذا الشيطان، وقضى عليه «أنه من تولاه» أى اتخذه وليا وقدوة له «فأنه يضله» أى: فشأن هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير «ويهديه إلى عذاب السعير» أى: وأن شأن هذا الشيطان- أيضا- أن يهدى متبعه إلى طريق النار المستعرة، وفي التعبير بقوله: وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ تهكم بمن يتبع هذا الشيطان، إذ سمى سبحانه قيادة الشيطان لأتباعه هداية..

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن النضر بن الحارث أو العاص بن وائل، أو أبى جهل.. وكانوا يجادلون النبي ﷺ بالباطل.

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين في شأن هؤلاء الأشخاص إن صح، لا يمنع من عمومهما في شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأشقياء، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولذا قال الزمخشري: «وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز، من الصفات والأفعال. ولا يرجع إلى علم. ولا يعض فيه بضرس قاطع، وليس فيه اتباع للبرهان، ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل».

(تتمة): للمناظرة أو المجادلة أغراض صحيحة وأغراض باطلة:

أما الأغراض الصحيحة فمنها الأخروي ومنها الدنيوي أما الأخروي فهو طلب مرضاة الله والأجر والثواب؛ لأن المناظرة نوع من الأمر بالمعروف والنهي عن

=

=

المنكر والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمسلمين.

ولذا قال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم وهم يجادلونهم ويناظرونهم ويدعونهم لتوحيد الله وترك الشرك قالوا جميعا _ نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام _: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين}.

وقال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: {قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله}

وأما الغرض الدنيوي فأمران:

١- بيان الحق وإظهار الصواب في المسائل العلمية والعملية وهذا يشمل الحق من الأقوال والحق من الأدلة والراجح منهما ويدخل في هذا مناظرة الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ومناظرة أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة والصوفية والقبورية ونحوهم.

ويكون الغرض بيان عقيدة الإسلام للمخالف من الكفار وعقيدة أهل السنة والجماعة للمخالف من أهل القبلة.

كما يدخل في هذا المناظرة في المسائل العملية في الفروع بين أصحاب المذاهب من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والظاهرية وغيرهم.

ويكون الغرض من هذا بيان الراجح من الأقوال في مسائل الفروع.

٢- كشف الباطل ودفع الشبه والشكوك وإزالة الإشكال وهذا يشمل أيضا الأقوال والأدلة او الشبه.

وذلك كمناظرة المشركين وأهل الكتاب في بيان عقائدهم الباطلة وكشف الفساد فيها كما حدث في مناظرة إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه ومناظرته للنمرود.

وكذا مناظرة أهل البدع في بيان بدعهم وكشف الشبه التي يستدلون بها لباطلهم

=

=

كما حدث في مناظرة ابن عباس للخوارج ومناظرة أحمد للمعتزلة في مسألة القول بخلق القرآن.

ثم ليعلم أن المقصود بالغرضين هو إظهار مقابله فالمناظرة لبيان الحق تسلزم بيان بطلان ما عداها فالحق واحد لا يتعدد في جميع مسائل الشريعة.

بينما المناظرة لبيان الباطل لا تسلتزم ظهور الحق إلا فيما لا يوجد فيه إلا قول واحد باطل؛ لأن بيان بطلان قول الخصم لا يلزم منه ترجيح ما يراه المناظر حقا لاحتمال ورود أقوال أخرى غير ما أبطله ولذلك كانت مناظرات الطوائف من المتكلمين وغيرهم التي كل منها يخالف السنة ولو بقليل أعظم ما يستفاد منها بيان إبطال بعضهم لمقالة بعض.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا كان كثير من مناظرة أهل الكلام إنما هي في بيان فساد مذهب المخالفين وبيان تناقضهم؛ لأنه يكون كل من القولين باطلا فما يمكن أحدهم نصر قوله مطلقا فيبين فساد قول خصمه وهذا يحتاج إليه إذا كان صاحب المذهب حسن الظن بمذهبه قد بناه على مقدمات يعتقدها صحيحة فإذا أخذ الإنسان معه في تقرير نقيض تلك المقدمات لم يقبل ولا يبين الحق ويطول الخصام كما طال بين أهل الكلام

فالوجه في ذلك أن يبين لذلك رجحان مذهب غيره عليه أو فساد مذهبه بتلك المقدمات وغيرها فإذا رأى تناقض قوله أو رجحان قول غيره على قوله اشتاق حينئذ إلى معرفة الصواب وبيان جهة الخطأ فيبين له فساد تلك المقدمات التي بنى عليها وصحة نقيضها ومن أي وجه وقع الغلط..) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٤٣)

وأما الأغراض الباطلة فهي:

١- دحض الحق وكسره ومحاولة بيان الخطأ فيه للناس.

=

=

٢- إظهار الباطل ونشره وبيان أنه الحق والصواب.

٣- كسر المناظر والخصم ومحاولة إنتقاصه والتقليل من شأنه.

٤- طلب غرض من أغراض الدنيا كالشهرة والعلو والمال والمنصب ونحو ذلك.

وتحديد الغرض من المناظرة له أثر كبير في نتائجها فالذي يكون غرضه صحيحا يدرك الحق لا محالة إما على لسانه أو على لسان مناظره فهو لا يهمه على لسان من تظهر فيكون قصده لطلب الحق سببا للوصول إليه وقد بين الله تعالى أن من حسن قصده وجاهد للوصول إلى الحق أن الله يوفقه كما في قوله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} وقوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم} وقوله تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى} وقوله تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم} وقوله تعالى: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما}.

وبعكسه من أعرض عن طلب الحق يعاقب بزيادة الضلال كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}.

كما أن المناظر إذا حسن قصده وغرضه أثيب على هذا القصد، وأعانه الله وسدده وقويت حجته.

أما الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها المناظر من المناظرة فمنها:

١- القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يعظم ويقل بحسب موضوع المناظرة وآثارها ونتائجها.

٢- تحصيل ملكة الجدل والمناظرة والبحث والاستنباط والفهم والتعليل وتقوية الذهن وفتح نوافذ العقل في فهم المسائل.

=

=

٣- الوصول إلى الحق في المسائل العلمية والعملية.

٤- إبطال الباطل وبيان الخطأ من الأقوال والمرجوح منها.

٥- رفع الإشكال واللبس والاشتباه الواقع في الأدلة عند المناظر أو الشبه التي يستدل بها المخالف.

٦- تبادل الفوائد ودقائق المسائل بين المتناظرين.

٧- تقليل الخلافات بين المسلمين في المسائل العلمية والعملية.

٨- مذاكرة المسائل العلمية وتثبيتها وتثبيت الإيمان بها واعتقادها.

*: مشروعية المناظرة.

وردت نصوص في الكتاب والسنة وآثار عن السلف تدل على مشروعية المناظرة والجدال كما وردت نصوص أخرى وآثار عن السلف تذم المناظرة والجدال وعند التحقيق نجد أن المناظرة والجدل نوعان:

النوع الأول: المناظرة المحمودة والجدل المحمود وهي تشمل:

١- المناظرة في المسائل العملية في الأحكام في الطهارة والصلاة والزكاة ونحوها إذا كانت لطلب الحق ولمن هو أهل لذلك.

قال ابن عبد البر: (وأما الفقه فاجمعوا على الجدال فيه والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول للحاجة إلى ذلك

٢- مناظرة أهل الكتاب بالتي هي أحسن عند الحاجة لمن كان أهلا لذلك.

٣- مناظرة أهل الأهواء والبدع عند الحاجة إذا كان صاحب الهوى قد قويت شوكته كالحاكم أو من اعتضد به كما حدث في مسألة خلق القرآن في عهد الإمام أحمد، أو رجي من المناظرة رجوعه.

ويدل على مشروعية المناظرة المحمودة الكتاب والسنة وعمل الصحابة:

النوع الثاني: المناظرة المذمومة والجدل المذموم، وعليه تحمل النصوص وآثار

=

=

السلف.

والمقصود: أن المناظرة قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة وقد تكون مباحة وقد تكون مكروهة وقد تكون محرمة بحسب ما يعرض لها:

قال الكرماني الجدال هو الخصام ومنه قبيح وحسن وأحسن فما كان للفرائض فهو أحسن وما كان للمستحبات فهو حسن وما كان لغير ذلك فهو قبيح قال أو هو تابع للطريق فباعتباره يتنوع انواعا وهذا هو الظاهر............ فتح الباري (١٣/ ٣١٤)

و قال ابن حجر: (ويؤخذ منه الإشارة إلى مراتب الجدال فإذا كان فيما لا بد له منه تعين نصر الحق بالحق فان جاوز الذي ينكر عليه المأمور نسب إلى التقصير وان كان في مباح اكتفى فيه بمجرد الأمر والإشارة إلى ترك الأولى) فتح الباري (١٣/ ٣١٤).

و قال القرطبي في تفسير آية المجادلة: (وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله قال الله تعالى: {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} إن عندكم من سلطان أي من حجة وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه ورده عليهم في عبادة الأوثان كما في سورة الأنبياء وغيرها وقال في قصة نوح عليه السلام قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا الآيات إلى قوله وأنا بريء مما تجرمون وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآي فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل وجادل رسول الله أهل الكتاب وباهلهم بعد الحجة على ما يأتي بيانه في آل عمران وتحاج آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة وتجادل أصحاب رسول الله يوم السقيفة وتدافعوا وتقرروا وتناظروا حتى صدر الحق في أهله وتناظروا بعد مبايعة أبي بكر في أهل

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥).

{يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْب} شَكّ {مِنْ الْبَعْث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ} أَيْ أَصْلكُمْ آدَم {مِنْ تُرَاب ثُمَّ} خَلَقْنَا ذُرِّيَّته {مِنْ نُطْفَة} مَنِيّ {ثُمَّ مِنْ

=

الردة إلى غير ذلك مما يكثر إيراده وفي قول الله ﷻ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٧١)

و قال في موضع آخر: (والجدل في الدين محمود ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق فمن قبله أنجح وأفلح ومن رده خاب وخسر وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم) (٩/ ٢٧)

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (الجدال قد يكون واجبا أو مستحبا كما قال تعالى {وجادلهم بالتى هي أحسن} وقد يكون الجدال محرما في الحج وغيره كالجدال بغير علم وكالجدال في الحق بعد ما تبين) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٠٧)

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في الأذكار (ص ٥٣٠ - ٥٣١) (٢/ ٨٩٦ تحقيق الهلالي): (اعلم أن الجدال قد يكون بحق وقد يكون بباطل قال الله تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} وقال تعالى: {وجادلهم بالتي هي أحسن} وقال الله تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} ..).

عَلَقَة} وَهِيَ الدَّم الْجَامِد {ثُمَّ مِنْ مُضْغَة} وَهِيَ لَحْمَة قَدْر مَا يُمْضَغ {مُخَلَّقَة} مُصَوَّرَة تَامَّة الْخَلْق {وَغَيْر مُخَلَّقَة} أَيْ غَيْر تَامَّة الْخَلْق {لِنُبَيِّن لَكُمْ} كَمَال قُدْرَتنَا لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا فِي ابْتِدَاء الْخَلْق عَلَى إعَادَته {وَنُقِرّ} مُسْتَأْنَف {فِي الْأَرْحَام مَا نَشَاء إلَى أَجَل مُسَمًّى} وَقْت خُرُوجه {ثُمَّ نُخْرِجكُمْ} مِنْ بُطُون أُمَّهَاتكُمْ {طِفْلًا} بِمَعْنَى أَطْفَالًا {ثُمَّ} نُعَمِّركُمْ {لِتَبْلُغُوا أَشُدّكُمْ} أَيْ الْكَمَال وَالْقُوَّة وَهُوَ مَا بَيْن الثَّلَاثِينَ إلَى الْأَرْبَعِينَ سَنَة {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} يَمُوت قَبْل بُلُوغ الْأَشُدّ {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدّ إلَى أَرْذَل الْعُمُر} أَخَسّه مِنْ الْهَرَم وَالْخَرَف {لِكَيْلَا يَعْلَم مِنْ بَعْد عِلْم شَيْئًا} قَالَ عِكْرِمَة مَنْ قَرَأَ الْقُرْآن لَمْ يَصِرْ بِهَذِهِ الْحَالَة {وَتَرَى الْأَرْض هَامِدَة} يَابِسَة {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ} تَحَرَّكَتْ {وَرَبَتْ} ارْتَفَعَتْ وَزَادَتْ {وَأَنْبَتَتْ مِنْ} زَائِدَة {كُلّ زَوْج} صِنْف {بَهِيج} حَسَن.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦).

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ بَدْء خَلْق الْإِنْسَان إلَى آخِر إحْيَاء الْأَرْض {بِأَنَّ} بِسَبَبِ أَنَّ {الله هو الحق} الثابت الدائم {وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير}

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧).

{وَأَنَّ السَّاعَة آتِيَة لَا رَيْب} شَكّ {فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَث مَنْ فِي الْقُبُور} وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْل[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} [الحج: ٥]، أي:"يا أيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يُحيي الموتى فإنَّا خلقنا أباكم آدم من تراب".

قال القرطبي:"هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى، والمعنى: يا أيها الناس إن =

=

كنتم في شك من الإعادة، [فإنا] خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني آدم عليه السلام {من تراب}".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} أي: في شك {مِنَ الْبَعْثِ} وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} أي: أصل بَرْئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام".

قرأ الحسن: «من البعث»، بالتحريك.

قال الزمخشري:"كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم".

قال المراغي:"أي إن كنتم فى شك من مجئ البعث فانظروا إلى مبدإ خلقكم ليزول ريبكم وتعلموا أن القادر على خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثانيا، وعبر سبحانه بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله، إيذانا بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد- هو الارتياب فى شأنه، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل على حال".

قوله تعالى: {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} [الحج: ٥]، أي:"ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل".

قال المراغي:"أي: ثم من منى مكون من الدم المتولد من الغذاء المنتهى إلى التراب".

قال ابن كثير:"أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين".

قال القرطبي:"«النظفة» هو المني، سمي نطفة لقلته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى

=

=

جورا». أراد بحر المشرق وبحر المغرب. والنطف: القطر. نطف ينطف وينطف. وليلة نطوفة دائمة القطر".

قوله تعالى: {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} [الحج: ٥]، أي:"ثم من دم جامد غليظ".

قال ابن كثير:"ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله".

قال عكرمة:"العلقة: الدم".

قال الزمخشري:"العلقة: قطعة الدم الجامدة".

قال القرطبي:"العلق: الدم العبيط، أي: الطري. وقيل: الشديد الحمرة".

قال الصابوني:"هو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه".

قال المراغي:"ولا يخفى ما بين الماء والدم من المباينة والمخالفة".

قوله تعالى: {ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} [الحج: ٥]، أي:"ثم من قطعة من اللحم مسواة، لا نقص فيها ولا عيب فى ابتداء خلقها، ومضغة غير مسواة، فيها عيب".

قال ابن كثير:"فتمكث-العلقة- كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط".

قال المراغي:"وبهذا التفاوت فى الخلق يتفاضل الناس فى صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم".

قال القرطبي: «المضغة»: "هي لحمة قليلة قدر ما يمضغ، ومنه الحديث: «ألا وإن

=

=

في الجسد مضغة». وهذه الأطوار أربعة أشهر".

قال ابن عباس:"«المخلقة»: ما كان حيا، و «غير مخلقة»: ما كان من سقط".

قال عكرمة:"«المضغة»: اللحم، و «المخلقة»: التي تم خلقها، و «غير مخلقة»: السقط".

عن مجاهد: " {مخلقة وغير مخلقة}، قال: السقط مخلوق وغير مخلوق".

قال أبو العالية:"ينفخ فيه الروح في العشر". يعني: في العشر بعد الأشهر الأربعة.

قال ابن عباس:"قال ابن عباس: ثم يصوّر في العشر بعد الأربعة الأشهر، ثم ينفخ فيه الروح، فذلك عدة المُتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا، فإذا تحرَّك في جوفها علمت أن فيه ولدًا.

قال الزمخشري:"المضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة: المسواة الملساء من النقصان والعيب. يقال: خلق السواك والعود، إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، وإذا كانت ملساة، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم".

وفي الحديث الشريف:"إن الله قد وكل بالرحم ملكا يقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضى خلقها قال أى رب شقى أو سعيد ذكر أو أنثى فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه".

روي عن ابن مسعود، عن رسول الله-ﷺ-، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا ويؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه

=

=

وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة".

قوله تعالى: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ} [الحج: ٥]، أي:"خلقناكم على هذا النمط البديع، لنبين لكم جميل نظامنا، وعظيم حكمتنا، التي من جملتها أمر البعث".

قال الزمخشري: يقول:"وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما: قدر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة من تلك، وأهون في القياس. وورود الفعل غير معدى إلى المبين: إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف".

عن قتادة قوله: " {لنبين لكم}، قال: إنكم كنتم في بطون أمهاتكم كذلك".

وقرأ ابن أبى عبلة: «ليبين لكم».

قوله تعالى: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج: ٥]، أي:"ونبقي ما نشاء من الأجنة إلى الوقت الذي قدر أن تلد فيه المرأة".

قال ابن كثير:"أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها".

عن مجاهد: " {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}، قال: التمام".

عن ابن زيد قوله: " {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}، قال: إقامته في الرحم حتى يخرج".

وقرئ: «ويقرّ»، بالياء، وقرأ يعقوب: «نقر»، بالنون وضم القاف، من قر الماء إذا صبه.

=

=

قال الزمخشري:"فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر في الأرحام ما نشاء أن يقره من ذلك إلى أجل مسمى، وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو سنتين، أو أربع، أو كما شاء وقدر، وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته. والقراءة بالنصب: تعليل معطوف على تعليل ومعناه: خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين، أحدهما: أن نبين قدرتنا. والثاني: أن نقر في الأرحام من نقر، حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم. ويعضد هذه القراءة قوله: {ثم لتبلغوا أشدكم} وحّده لأن الغرض الدلالة على الجنس. ويحتمل: نخرج كل واحد منكم طفل".

قوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [الحج: ٥]، أي:"ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغتم الأجل الذي قدرته لخروجكم منها أطفالا صغارا فى المهد".

قال ابن كثير:"أي: ضعيفا في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار".

وقرئ: «ونخرجكم»، بالنون والنصب، «ويخرجكم»، بالنصب والرفع.

قوله تعالى: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} [الحج: ٥]، أي:"ثم يعمركم ويسهل تربيتكم حتى تبلغوا كمال عقولكم، ونهاية قواكم".

قال ابن كثير:"أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر".

قال الزمخشري:"الأشد: كمال القوة والعقل والتمييز".

قوله تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى} [الحج: ٥]، أي:"ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال عقله".

قال ابن كثير:"أي: في حال شبابه وقواه".

=

=

قوله تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} [الحج: ٥]، أي:"ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف".

قال السدي:"{أرذل العمر}: هو الخوف".

قال ابن كثير:"وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر".

قال الزمخشري:"«أرذل العمر»: الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته: ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم. بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى".

قال المراغي:"وخلاصة ذلك- إنه إما أن يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذي يسلب فيه العلم والقدرة على العمل".

قوله تعالى: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥]، أي:"فلا يعلم هذا المعمَّر شيئًا مما كان يعلمه قبل ذلك".

قال الصابوني:"أي: ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه".

قال الزمخشري:"أى: ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته، يقول لك: من هذا؟ فتقول: فلان، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه".

عن عكرمة قال: "من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: {لكي لا يعلم بعد علم شيئا}".

وقرأ أبو عمرو: «العمر»، بسكون الميم.

=

=

عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: "المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر {لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه".

قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} [الحج: ٥]، أي:"وترى الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها".

قال قتادة:"أي: غبراء متهشمة".

قال الزمخشري:"الهامدة: الميتة اليابسة. وهذه دلالة ثانية على البعث، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة، كررها الله في كتابه".

قال ابن كثير:"هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلَة التي لا نبت فيها ولا شيء".

قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [الحج: ٥]، أي:"فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات تتفتح عنه، وارتفعت وزادت لارتوائها".

قال ابن كثير:"أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، تحركت وحييت بعد موتها، وارتفعت لما سكن فيها الثرى".

قال قتادة:"يقول: نفرق الغيث في سبختها وربوها".

=

=

قال الزمخشري: أي:"تحركت بالنبات وانتفخت".

وقرئ: «ربأت»، أي: ارتفعت.

قوله تعالى: {وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥]، أي:"وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يَسُرُّ الناظرين".

قال ابن كثير:"ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي: حسن المنظر طيب الريح".

قال الزمخشري:"البهيج: الحسن السار للناظر إليه".

عن ابن عباس، وقتادة: قوله {زوج بهيج}، قالا: "حسن".

قال أبو حيان في البحر: لما ذكر سبحانه من يجادل في قدرة الله بغير علم، وكان جدالهم في الحشر والمعاد، ذكر دليلين واضحين على ذلك. أحدهما: في نفس الإنسان وابتداء خلقه. وتطوره في أطوار سبعة، وهي: التراب، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والإخراج طفلا، وبلوغ الأشد، والتوفي أو الرد إلى أرذل العمر.

والدليل الثاني: في الأرض التي يشاهد تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا، فإذا ورد الشرع بوقوعه، وجب التصديق به، وأنه واقع لا محالة ا.هـ.

وقال ابن عاشور: أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أن منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه. وهو الخلق الأول. قال تعالى: أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد [ق:١٥]. فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كونه من ماء. ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه وفي أحوال عقله وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

=

=

ودخول المشركين باديء ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم ولذلك قيل إن الخطاب هنا خاص بهم.

وجعل ريبهم في البعث مفروضا ب (إن) الشرطية مع أن ريبهم محقق للدلالة على أن المقام لما حف به من الأدلة المبطلة لريبهم ينزل منزلة مقام من لا يتحقق ريبه كما في قوله تعالى: أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين [الزخرف: ٥].

والظرفية المفادة ب (في) مجازية. شبهت ملابسة الريب إياهم بإحاطة الظرف بالمظروف ا.هـ

فالمراد بالناس هنا: المشركون وكل من كان على شاكلتهم في إنكار أمر البعث واستبعاده، لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب.

والمعنى: يا أيها الناس إن كنتم في شك من أمر إعادتكم الى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة، فانظروا وتفكروا في مبدأ خلقكم، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك، لأن الذي أوجدكم الإيجاد الأول. وخلقكم من التراب، قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى، إذ الإعادة- كما يعرف كل عاقل- أيسر من ابتداء الفعل.

وقد قرب سبحانه هذا المعنى في أذهانكم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وأتى سبحانه بأن المفيدة للشك فقال: إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ مع أن كونهم في ريب أمر محقق تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيها لموضوع البعث عن

=

=

أن يتحقق الشك فيه من أى عاقل، وتوبيخا لهم لوضعهم الأمور في غير مواضعها. ووجه الإتيان بفي الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

قال الآلوسى: «وقوله فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ دليل جواب الشرط، أو هو الجواب بتأويل، أى: إن كنتم في ريب من البعث، فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم، فإنا خلقناكم من تراب، وخلقهم من تراب في ضمن خلق أبيهم آدم منه ... » ا.هـ.

وقال بعض العلماء ما ملخصه: والتحقيق في معنى قوله تعالى فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ أنه سبحانه خلق أباهم آدم منه، ثم خلق من آدم زوجه حواء، ثم خلق الناس منهما عن طريق التناسل.

فلما كان أصلهم الأول من تراب، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب لأن الفروع تتبع الأصل. وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو الطور الأول..».

ثم بين سبحانه الطور الثاني من أطوار خلق الإنسان فقال: ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ وهذا اللفظ مأخوذ من النطف- بفتح النون مع التشديد وإسكان الطاء- بمعنى السيلان والتقاطر.

يقال: نطفت القربة، إذا تقاطر الماء منها بقلة.

والنطفة تطلق في اللغة: على الماء القليل، والمراد بها هنا: الماء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع، والمعبر عنه بالمنى.

وقوله ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ هو الطور الثالث. والعلقة جمعها علق، وهي قطعة من الدم جامدة، تتحول إليها النطفة.

وقوله ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ هو الطور الرابع، والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تتحول إليها العلقة.

وقوله سبحانه مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ صفة للمضغة.

=

=

قال الشنقيطي: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَغَيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ} في معناه أوجه معروفة عند العلماء، سنذكرها هنا إن شاء الله، ونبين ما يقتضي الدليل رجحانه.

منها أن قوله: {مُخَلَّقَةٍ وَغَيرِ مُخَلَّقَةٍ} صفة للنطفة، وأن المخلقة هي ما كان خلقًا سويًّا، وغير المخلقة هي ما دفعته الأرحام من النطف، وألقته قبل أن يكون خلقًا. وممن روي عنه هذا القول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، نقله عنه ابن جرير وغيره، ولا يخفى بعد هذا القول؛ لأن المخلقة وغير المخلقة من صفة المضغة، كما هو ظاهر.

ومنها: أن معنى مخلقة تامة، وغير مخلقة، أي: غير تامة، والمراد بهذا القول عند قائله أن الله جل وعلا يخلق المضغ متفاوتة، منها: ما هو كامل الخلقة، سالم من العيوب، ومنها: ما هو على العكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس، في خلقهم، وصورهم، وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم.

وممن روي عنه هذا القول قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره، وعزاه الرازي لقتادة والضحاك.

ومنها: أن معنى مخلقة مصورة إنسانًا، وغير مخلقة، أي: غير مصورة إنسانًا، كالسقط الذي هو مضغة، ولم يجعل له تخطيط وتشكيل، وممن نقل عنه هذا القول، مجاهد، والشعبي، وأبو العالية كما نقله عنهم ابن جرير الطبري. ومنها: أن المخلقة هي ما ولد حيًّا، وغير المخلقة هي ما كان من سقط. وممن روي عنه هذا القول ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال صاحب الدر المنثور: إنه أخرجه عنه ابن أبي حاتم وصححه، ونقله عنه القرطبي، وأنشد لذلك قول الشاعر:

أفي غير المخلَّقةِ البكاءُ ... فأين الحزمُ وَيحك والحيَاءُ

=

=

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: المخلقة المصورة خلقًا تامًّا، وغير المخلقة السقط قبل تمام خلقه؛ لأن المخلقة، وغير المخلقة من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقًا سويًّا إلا التصوير. وذلك هو المراد بقوله: {مُخَلَّقَةٍ} خلقًا سويًّا، و {وَغَيرِ مُخَلَّقَةٍ} بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير، ولا ينفخ الروح. انتهى منه.

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير اختاره أيضًا غير واحد من أهل العلم.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري رحمه الله تعالى لا يظهر صوابه، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك، وهي قوله جل وعلا في أول الآية: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى ثم خلقناكم من مضغة مخلقة، وخلقناكم من مضغة غير مخلقة. وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة،

فيه من التناقض كما ترى فافهم.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة السقط؛ لأن قوله: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} يفهم منه أن هناك قسمًا آخر لا يقره الله في الأرحام إلى ذلك الأجل المسمى، وهو السقط.

فالجواب: أنه لا يتعين فهم السقط من الآية؛ لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر، وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف يشاء.

أما السقط فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قوله: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ} الآية؛ لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتًا ولو بعد التشكيل والتخطيط لم يخلق الله منه إنسانًا واحدًا من المخاطبين بقوله: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ} الآية. فظاهر القرآن يقتضي أن كلًّا

=

=

من المخلقة، وغير المخلقة يخلق منه بعض المخاطبين في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} الآية.

وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية هو القول الذي لا تناقض فيه؛ لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضًا، لا ليتناقض بعضه مع بعض، وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك. وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشاف ولم يحك غيره، وهو أن المخلقة هي التامة، وغير المخلقة هي غير التامة.

قال الزمخشري في الكشاف: والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملسه. من قولهم: صخرة خلقاء، إذا كانت ملساء، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها: ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها: ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم. انتهى منه.

وهذا المعنى الذي ذكره الزمخشري معروف في كلام العرب، تقول العرب: حجر أخلق، أي: أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء، وصخرة خلقاء بينة الخلق، أي: ليس فيها وصم، ولا كسر، ومنه قول الأعشى:

قد يتركُ الدّهرُ في خلقاءَ راسية ... وَهْيًا وينزل منها الأعصم الصَّدعا

والدهر في البيت فاعل يترك، والمفعول به وهيا. يعني أن صرف الدهر قد يؤثر في الحجارة الصم السالمة من الكسر والوصم، فيكسرها، ويوهيها، ويؤثر في العصم من الأوعال برؤوس الجبال، فينزلها من معاقلها، ومن ذلك أيضًا قول ابن أحمر يصف فرسًا، وقد أنشده صاحب اللسان للمعنى المذكور:

بمقلّص درك الطريدة متنهُ ... كصفا الخليقة بالفضاء الملبَد

فقوله: كصفا الخليقة، يعني أن متن الفرس المذكور كالصخرة الملساء التي لا كسر فيها، ولا وصم، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته. والسهم المخلق هو

=

=

الأملس المستوي.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر لي؛ لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض، والله جل وعلا أعلم.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ}، أي: لنبين لكم بهذا النقل من طور إلى طور كمال قدرتنا على البعث بعد الموت، وعلى كل شيء؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولًا، ثم من نطفة ثانيًا، مع ما بين النطفة والتراب من المنافاة والمغايرة، وقدر على أن يجعل النطفة علقة، مع ما بينهما من التباين والتغاير، وقدر على أن يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظامًا، فهو قادر بلا شك على إعادة ما بدأه من الخلق، كما هو واضح ا.هـ

وقال ابن عاشور: وكون الإنسان مخلوقا من النطفة لأنه قد تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مدة الحيض جزءا هو مقر الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين، وهذا الجزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي (المبيض) - بفتح الميم وكسر الموحدة على وزن اسم المكان- لأنه مقر بيضات دقيقة هي حبيبات دقيقة جدا وهي من المرأة بمنزلة البيضة من الدجاجة أو بمنزلة حبوب بيض الحوت، مودعة في كرة دقيقة كالغلاف لها يقال لها (الحويصلة) - بضم الحاء بصيغة تصغير حوصلة- تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة فإذا حاضت المرأة ازدادت كمية ذلك السائل الذي تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحويصلة، فيأخذ ذلك السائل في الانحدار يحمل البيضة السابحة فيه إلى قناة دقيقة تسمى (بوق فلوبيوس) لشبهه بالبوق، وأضيف إلى (فلوبيوس) اسم مكتشفه وهو البرزخ بين المبيض والرحم، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض لقحت فيه البيضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة

=

=

المشتملة على جرثومات ذات حياة وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام تكون البيضة في أثنائها تتطور بالشكل بشبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي. وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم وهنالك تأخذ في التشكل، وبعد أربعين يوما تصير البيضة علقة في حجم نملة كبيرة طولها من ١٢ إلى ١٤ مليمتر، ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لحم هي المسماة (مضغة) طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكلات الوجه والأنف خفية جدا كالخطوط، ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفع للخروج وهو الولادة.

فقوله تعالى: مخلقة وغير مخلقة صفة مضغة. وذلك تطور من تطورات المضغة. أشار إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف، ولذلك

لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة، إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة. وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لا زمان للمضغة، فلا يستقيم تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت.

والتخليق: صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقا بعد خلق، أي شكلا بعد شكل.

وقدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة على خلاف الترتيب في الوجود لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة لأنه إكمال للدليل وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم. فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء وهو المقصود من الكلام ا.هـ

وقوله تعالى: لِنُبَيِّنَ لَكُمْ متعلق بقوله: خَلَقْناكُمْ أى: خلقناكم على هذا النحو العجيب، وفي تلك الأطوار البديعة. لنبين لكم كمال قدرتنا، وبليغ حكمتنا. وأننا

=

=

لا يعجزنا إعادة كل حي إلى الحياة بعد موته.

وحذف مفعول «نبين» للإشعار بأن أفعاله تعالى الدالة على كمال قدرته، لا يحيط بها وصف، ولا تمدها عبارة..

أي: لنبين لكم عن طريق المشاهدة، ما يدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها.

وقوله تعالى: وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم، وتوارد تلك الأطوار عليهم.

أي: ونقر ونثبت في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره وثبوته فيها من الأجنة والأحمال، إلى أجل معلوم عندنا. وهو الوقت المحدد للولادة والوضع، وما لم نشأ إقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته، إذ كل شيء بمشيئتنا وإرادتنا.

وقوله تعالى: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا بيان للطور الخامس من أطوار خلق الإنسان.

أي: ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها إلى الوقت الذي حددناه، طفلا صغيرا. أي: أطفالا صغارا، وإنما جاء مفردا باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد، أو باعتبار كل واحد منهم، وهو حال من ضمير المخاطبين.

ومن الأساليب العربية المعهودة، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس. يكثر إطلاقه على الجمع، ومن ذلك قوله تعالى: وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أي: أئمة. وقوله سبحانه فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً.. أي: أنفسا، ومن هذا القبيل قول الشاعر:

وكان بنو فزارة شرّ عمّ ... فكنت لهم كشر بنى الأخينا

أي: شر أعمام.

وقوله تعالى ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ بيان للطور السادس، والأشد: قوة الإنسان وشدته

=

=

واشتعال حرارته، من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة، يقال: شد النهار إذا ارتفع، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع، أو جمع لا واحد له، أو جمع شدة- كأنعم ونعمة-.

قال الآلوسى: «والجملة علة لنخرجكم، وهي معطوفة على علة أخرى مناسبة لها.

كأنه قيل: ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا أشدكم، أى كمالكم في القوة والعقل والتمييز.. وقيل: علة لمحذوف. والتقدير: ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم ...

وتقديم التبيين «لنبين لكم» على ما بعده، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل، للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات.

وإعادة اللام في «لتبلغوا» مع تجريد «نقر، ونخرج» عنها، للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة».

وقوله سبحانه: وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا بيان للطور السابع والأخير.

أى: منكم- أيها الناس- من يبلغ أشده في هذه الحياة، ومنكم من يموت قبل ذلك، ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر أى: أخسه وأدونه، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها، لا علم له ولا فهم، شأنه في ذلك شأن الأطفال.

قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكمل تصوير، للتنبيه على مظاهر قدرة الله تعالى وعلى أن البعث حق وصدق.

وبعد إقامة هذا الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث، ساق سبحانه الدليل الثاني عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال إلى حال، فقال تعالى وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ

=

=

زَوْجٍ بَهِيجٍ.

وقوله: هامِدَةً أى: يابسة، يقال: همدت الأرض تهمد- بضم الميم- همودا، إذا يبست.

ومعنى: «اهتزت»: تحركت، يقال: هز فلان الشيء فاهتز، إذا حركه فتحرك.

ومعنى: «ربت» زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها، يقال: ربا الشيء يربو ربوا، إذا زاد ونما، ومنه الربا والربوة.

أى: وترى- أيها العاقل- ببصرك الأرض يابسة لا نبات فيها، فإذا ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء، تحركت بسبب خروج النبات منها، وانتفخت بسبب ما يتخللها من الماء والنبات، وأنبتت بعد ذلك من كل صنف بهيج نضر حسن المنظر.

وشبيه بهذه الآية في أن إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم، بقدرة الله تعالى وإرادته، قوله- ﷻ: وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثم بين سبحانه بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال: ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ} [الحج: ٦]، أي:"ذلك المذكور مما تقدَّم من آيات قدرة الله تعالى، فيه دلالة قاطعة على أن الله سبحانه وتعالى هو الرب المعبود بحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له".

قال ابن كثير:"أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء".

قال الطبري: يقول:"ذلك هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده، طفلا وكهلا وشيخا هرما وتنبيهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث، لتؤمنوا وتصدقوا بأن ذلك الذي فعل ذلك الله الذي هو الحق لا شك فيه، وأن من سواه مما تعبدون

=

=

من الأوثان والأصنام باطل لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى} [الحج: ٦]، أي:"وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات".

قال ابن كثير:"أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع".

قال الطبري: يقول:"وتعلموا أن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة لا يتعذر عليها أن يحيي بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب".

عن عون، قال: "قلت لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحج: ٦]، أي:"وبأنه قادر على ما أراد".

قال الطبري: يقول:"وأن فاعل ذلك على كل ما أراد وشاء من شيء قادر لا يمتنع عليه شيء أراده".

قال ابن إسحاق:"أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض بعد موتها..

أى: ذلك الذي ذكرناه لكم دليل واضح، وبرهان قاطع، على أن الله تعالى هو الإله الحق، الذي يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة، لأنه هو وحده الخالق لكل شيء، ولأنه هو وحده الذي يعيد الموتى إلى الحياة، ولأنه هو وحده الذي لا يعجزه شيء.

وخص سبحانه إحياء الموتى بالذكر، مع أنه من جملة الأشياء المقدور عليها.

للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث، ولدحض شبه المنكرين له.

ثم أكد سبحانه ذلك تأكيدا دامغا فقال: وَأَنَّ السَّاعَةَ وما تشتمل عليه من حساب

=

=

وثواب وعقاب آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها أى: لا ريب ولا شك في إتيانها في الوقت الذي يريده الله تعالى.

وَأَنَّ اللهَ تعالى وحده يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ليحاسبهم على أعمالهم.

قوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الحج: ٧]، أي:"وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية".

قال ابن كثير:"أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية".

قال الطبري: يقول:"ولتوقنوا بذلك أن الساعة التي وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورهم جائية لا محالة، لا شك في مجيئها وحدوثها".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [الحج: ٧]، أي:"وأن الله يبعث الموتى مِن قبورهم لحسابهم وجزائهم".

قال الطبري: يقول:"{: {وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ} حينئذ {مَنْ فِي الْقُبُورِ} من الأموات أحياء إلى موقف الحساب، فلا تشكوا في ذلك، ولا تمتروا فيه".

قال ابن كثير:"أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} [يس: ٧٨ – ٨٠] والآيات في هذا كثيرة".

عن أبي رَزين العقيلي – واسمه لَقِيط بن عامر– أنه قال: «يا رسول الله، أكلنا يرى ربه ﷻ يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: "أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟ " قلنا: بلى. قال: "فالله أعظم". قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: "أما مررت بوادي أهلك محلا، " قال: بلى. قال: "ثم مررت به يهتز خضرا؟". قال: بلى. قال: "فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه".

=

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨).

{وَمِنْ النَّاس مَنْ يُجَادِل فِي الله بِغَيْرِ عِلْم وَلَا هُدًى} مَعَهُ {وَلَا كِتَاب مُنِير} لَهُ نُور مَعَهُ.

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩).

{ثَانِيَ عِطْفه} حَال أَيْ لَاوِيَ عُنُقه تَكَبُّرًا عَنْ الْإِيمَان وَالْعِطْف الْجَانِب عَنْ يَمِين أَوْ شِمَال {لِيُضِلّ} بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمّهَا {عَنْ سَبِيل الله} أَيْ دِينه {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْي} عَذَاب فَقُتِلَ يَوْم بَدْر {وَنُذِيقهُ يَوْم الْقِيَامَة عَذَاب الْحَرِيق} أَيْ الْإِحْرَاق بِالنَّارِ وَيُقَال لَهُ.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠).

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاك} أَيْ قَدَّمْته عَبَّرَ عَنْهُ بِهِمَا دُون غَيْرهمَا لِأَنَّ أَكْثَر الْأَفْعَال تُزَاوَل بِهِمَا {وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ} أَيْ بِذِي ظُلْم {لِلْعَبِيدِ} فَيُعَذِّبهُمْ بِغَيْرِ ذَنْب.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١).

{وَمِنْ النَّاس مَنْ يَعْبُد الله عَلَى حَرْف} أَيْ شَكّ فِي عِبَادَته شُبِّهَ بِالْحَالِ عَلَى حَرْف جَبَل فِي عَدَم ثَبَاته {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْر} صِحَّة وَسَلَامَة فِي نَفْسه وَمَاله {اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَة} مِحْنَة وَسَقَم فِي نَفْسه وَمَاله {انْقَلَبَ عَلَى وَجْهه}

=

عن معاذ بن جبل قال: "من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور - دخل الجنة".

أَيْ رَجَعَ إِلَى الْكُفْر {خَسِرَ الدُّنْيَا} بِفَوَاتِ مَا أَمَلَهُ مِنْهَا {وَالْآخِرَة} بِالْكُفْرِ {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَان الْمُبِين} البين.

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢).

{يَدْعُو} يَعْبُد {مِنْ دُون الله} مِنْ الصَّنَم {مَا لَا يَضُرّهُ} إنْ لَمْ يَعْبُدْهُ {وَمَا لَا يَنْفَعهُ} إنْ عَبَدَهُ {ذَلِكَ} الدُّعَاء {هُوَ الضَّلَال الْبَعِيد} عَنْ الْحَقّ.

يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣).

{يَدْعُو لَمَنْ} اللَّام زَائِدَة {ضَرّه} بِعِبَادَتِهِ {أَقْرَب مِنْ نَفْعه} إنْ نَفَعَ بِتَخَيُّلِهِ {لَبِئْسَ الْمَوْلَى} هُوَ أَيْ النَّاصِر {وَلَبِئْسَ الْعَشِير} الصَّاحِب هُوَ وَعَقَّبَ ذِكْر الشَّاكّ بِالْخُسْرَانِ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ فِي[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي مالك قال: نزلت (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) في النضر بن الحارث.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٤٨) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف، لإرساله.

وعن مجاهد؛ قال: أنزلت (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) في النضر بن الحارث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ١٢) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا؛ قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ}؛ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله؛ قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله؛ قال: هذا دِينُ سوء.

=

=

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم؛ فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن؛ قالوا: إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط؛ قالوا: ما في ديننا هذا خير؛ فأنزل الله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٥/ ٥١٧، ٥١٨)، و"فتح الباري" (٨/ ٤٤٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ١٣) - ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١١٨ - ١١٩ رقم ١١٨) من طريقين عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده حسن.

وعن أبي سعيد الخدري؛ قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده؛ فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال له: أقلني. فقال: "إن الإسلام لا يقال". فقال: إني لم أصب من هذا الدين خيرًا؛ ذهب بصري ومالي ومات ولدي ... ! فقال: "يا يهودي! الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة"؛ فنزلت: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ} الآية.

أخرجه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٢/ ٣٧٩): ثنا عبد الله بن محمد ثنا الحكم بن معبد الخزاعي ثنا علي بن الحارث ثنا محمد بن فضيل ثنا محمد بن عبيد الله عن عطية العوفي عن أبي سعيد به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: عطية هو ابن العوفي؛ قال ابن حبان في "المجروحين" (٢/ ١٧٦): "سمع من أبي سعيد الخدري أحاديث، فلما مات أبو سعيد جعل يجالس الكلبي -وهو

=

=

كذاب- ويحضر قصصه، فإذا قال الكلبي: قال رسول الله بكذا فيحفظه، وكنّاه أبا سعيد ويروي عنه، فإذا قيل له: من حدثك بهذا؟ فيقول: حدثني أبو سعيد، فيتوهمون أنه يريد أبا سعيد الخدري، وإنما أراد به الكلبي؛ فلا يحل الاحتجاج به ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب". وعليه؛ فإن تدليس عطية هذا من أقبح أنواع التدليس؛ فليتنبه لذلك، خاصة فيما يرويه عن أبي سعيد الخدري. والثانية: محمد بن عبيد الله هو العرزمي؛ متروك.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٨/ ٤٤٣): "وروى ابن مردويه من حديث أبي سعيد بسند ضعيف". وقال في "الكاف الشاف" (رقم ١١٦) -ونقله عنه المناوي في "الفتح السماوي" (٢/ ٨٣٣) -: "وإسناده ضعيف".

* قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الحج: ٨]، أي:"ومن الكفار مَن يجادل بالباطل في الله وتوحيده واختياره رسوله ﷺ وإنزاله القرآن، وذلك الجدال بغير علم".

قال مقاتل:"يعني: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن السياف ابن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة، يخاصم في الله ﷻ أن الملائكة بنات الله تعالى".

قوله تعالى: {وَلَا هُدًى} [الحج: ٨]، أي:"ولا بيان".

قال مقاتل:"«ولا كتاب» من الله تعالى «منير» يعني: مضيئا فيه حجة بأن الملائكة بنات الله فيخاصم بهذا".

قوله تعالى: {وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} [الحج: ٨]، أي:"ولا كتابٍ نير بيّن الحجة".

قال مقاتل:"ولا بيان معه من الله ﷻ بما يقول".

قال ابن كثير- رَحِمَهُ اللهُ: «لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم في الآية الثالثة من هذه السورة وهي قوله سبحانه: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر

=

=

والبدع، فقال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ أى: بلا عقل صحيح. ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأى والهوى» ا.هـ.

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة في شأن المقلدين لغيرهم، أنه سبحانه قال فيها في شأنهم: وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ.

أما في هذه الآية فقد قال في شأن هذا النوع من الناس: ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... أى: ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله تعالى واتباع طريقه الحق.

وقد نفت الآية الكريمة عن هذا المجادل، استناده إلى أى دليل أو ما يشبه الدليل، فهو يجادل في ذات الله تعالى وفي صفاته «بغير علم» يستند إليه وبغير «هدى» يهديه ويرشده إلى الحق وبغير «كتاب منير» أى: وبغير وحى ينير عقله وقلبه، ويوضح له سبيل الرشاد.

فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند إليه في جداله سواء كان عقليا أم نقليا، بل أثبتت له الجهالة من جميع الجهات.

ثم صورته السورة الكريمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية، صورة الجاهل المغرور المتعجرف، فقال تعالى: ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ.

قوله تعالى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} [الحج: ٩]، أي:"معرضًا عن الحق لاويًا عنقه كفرا".

وفي قوله تعالى: {ثَانِيَ عِطْفِهِ} [الحج: ٩]، قولان:

أحدهما: لاَوِي عنقه إعراضًا عن الله ورسوله، وهذا قول مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال الفراء:"يجادل معرضا عن الذكر".

قال يحيى:"ثاني رقبته، معرض عن الله، وعن رسوله، ودينه".

قال مجاهد:"يعرض عن الحق".

قال قتادة:"لاوي عنقه".

=

=

وقال قتادة:"هو المعرض من العظمة، إنما ينظر في جانب واحد".

قال ابن زيد:"لاوي رأسه معرضا موليا لا يريد إن يسمع ما قيل له".

وقال ابن عباس:"يعرض عن ذكري".

الثاني: معناه: لاَوِي عنقه كِبْرا عن الإجابة، وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"مستكبرا في نفسه".

قال ابن قتيبة:"أي: متكبر معرض".

قال أبو عبيدة:"يقال: جاءنى فلان ثانى عطفه أي يتبختر من التكبر، قال الشّمّاخ:

نبّئت أن ربيعا أن رعى إبلا... يهدى إليّ خناه ثانى الجيد

قال أبو زبيد:

فجاءهم يستنّ ثانى عطفه... له غيب كأنما بات يمكر".

قال الطبري:"وهذه الأقوال.. متقاربات المعنى، وذلك أن من كان ذا استكبار فمن شأنه الإعراض عما هو مستكبر عنه ولي عنقه عنه والإعراض.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هذا المخاصم في الله بغير علم أنه من كبره إذا دعي إلى الله، أعرض عن داعيه، لوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكبارا".

قوله تعالى: {لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الحج: ٩]، أي:"ليصُدَّ الناس عن دين الله وشرعه".

قال الطبري: يقول:"يجادل هذا المشرك في الله بغير علم معرضا عن الحق استكبارا، ليصد المؤمنين بالله عن دينهم الذي هداهم له ويستزلهم عنه".

قوله تعالى: {لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [الحج: ٩]، أي:"له هوان وذل في الحياة الدنيا".

قال يحيى: يعني:"القتل".

=

=

قال الطبري: يقول:"لهذا المجادل في الله بغير علم في الدنيا خزي، وهو القتل والذل والمهانة بأيدي المؤمنين، فقتله الله بأيديهم يوم بدر".

عن ابن جريج، قوله:"{في الدنيا خزي}، قال: قتل يوم بدر".

قوله تعالى: {وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ٩]، أي:"ونذيقه في الآخرة النار المحرقة".

قال الطبري: يقول: "ونحرقه يوم القيامة بالنار".

قال يحيى:"عذاب جهنم، يحرق بالنار، وتفسير الكلبي: أنها نزلت في النضر بن الحارث فقتل، أحسبه قال: يوم بدر".

قال الحسن:"بلغني إن أحدهم حرق في اليوم سبعين ألف مرة".

قال ابن عاشور: قوله (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) عطف على جملة يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث كما عطفت جملة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير على جملة يا أيها الناس اتقوا ربكم. والمعنى: إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنا نزيل ريبكم بهذه الأدلة الساطعة، فالناس بعد ذلك فريقان: فريق يوقن بهذه الدلالة فلا يبقى في ريب، وفريق من الناس يجادل في الله بغير علم وهؤلاء هم أيمة الشرك وزعماء الباطل. ا.هـ

وقوله ثانِيَ من الثّنى بمعنى اللّىّ والميل عن الاستقامة. يقال: فلان ثنى الشيء إذا رد بعضه على بعض فانثنى أى: مال والتوى.

والعطف- بكسر العين- الجانب، وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله. أى:

أنه مع جداله بدون علم، متكبر معجب بنفسه، معرض عن الحق، مجتهد في إضلال غيره عن سبيل الله تعالى وعن الطريق الذي يوصل إلى الرشاد.

=

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ} [الحج: ١٠]، أي:"ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال".

قال الطبري:"ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة: هذا العذاب الذي نذيقكه اليوم بما قدمت يداك في الدنيا من الذنوب والآثام، واكتسبته فيها من الإجرام".

عن أبي مالك، قوله: " {ذلك}، يعني: هذا".

عن سعيد بن جبير:"{ذلك}، يعني: الذي نزل بهم".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الحج: ١٠]، أي:"وأن الله عادل لا يظلم أحدًا من خلقه".

قال الطبري:"يقول: وفعلنا ذلك لأن الله ليس بظلام للعبيد، فيعاقب بعض عبيده على جرم، وهو يغفر مثله من آخر غيره، أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب، فيعاقبه به ويعفو عن صاحب الذنب، ولكنه لا يعاقب أحدا إلا على جرمه، ولا يعذب أحدا على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به منه مغفرته".

عن ابن عباس في قوله: " {وأن الله ليس بظلام للعبيد}، قال: ما أنا بمعذب من لم يجرم عندي أن أعذبه".

ثم بين سبحانه سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال: ولَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ أى: هوان وذلة وصغار. وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ أى: ونجعله يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق. ويصطلى به جزاء غروره وشموخه في الدنيا بغير حق.

وتقول له ملائكتنا وهي تصب عليه ألوان العذاب ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ أى: ذلك الذي تتذوقه من عذاب محرق سببه: جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر، وحرصك على إضلالك لغيرك.

وأسند سبحانه سبب ما نزل بهذا الكافر من خزي وعذاب إلى يديه، لأنهما

=

=

الجارحتان اللتان يزاول بهما أكثر الأعمال.

وقوله سبحانه وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ بيان لعدله تعالى مع عباده، أى: وأن الله تعالى ليس بذي ظلم لعباده أصلا، حتى يعذبهم بدون ذنب، بل هو عادل رحيم بهم، ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاعف الحسنات، ويعاقب على السيئات، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده.

فالمعنى أن الكافر إذا أذيق يوم القيامة عذاب الحريق، يقال له: {ذَلِكَ} أي: هذا العذاب الذي نذيقكه بسبب ما {قَدَّمَتْ يَدَاكَ} أي: قدمته في الدنيا من الكفر والمعاصي {وَأَنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)} فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة {[وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)} والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: {وَأَنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)} في محل خفض عطفًا على ما المجرورة بالباء.

والمعنى هذا العذاب الذي يذيقكه الله حصل لك بسببين، وهما ما قدمته يداك، من عمل السوء من الكفر والمعاصي، وعدالة من جازاك ذلك الجزاء الوفاق، وعدم ظلمه. ا.هـ

ثم بين سبحانه نوعا آخر من الناس، لا يقل جرما عن سابقه فقال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ.

قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: ١١]، أي:"ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين".

قال ابن عباس:"كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما

=

في ديننا هذا خير. فأنزل الله {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ}".

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ} [الحج: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: على شكّ. قاله مجاهد، وقتادة.

قال الماوردي:"لكونه منحرفًا بين الإيمان والكفر".

قال أبو عبيدة:"كل شاك فى شئ فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم، وتقول: إنما أنت لى على حرف، أي: لا أثق بك".

قال الزجاج:"جاء في التفسير: على شك، وحقيقته أنه يعبد الله على حرف الطريقة في الدين، لا يدخل فيه دخول متمكن".

الثاني: على شرط، وهو قول ابن كامل.

الثالث: على ضعف في العبادة كالقيام على حرف، وهو قول علي بن عيسى.

الرابع: معناه: على وجه واحد ومذهب واحد. قاله ابن قتيبة.

الخامس: أن «حرف» الشي بعضه، فكأنه يعبد الله بلسانه ويعصيه بقلبه. أفاده الماوردي.

قال الصابوني:"وهذا تمثيلُ للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فإن أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فر".

قوله تعالى: {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ} [الحج: ١١]، أي:"فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه".

قال الزجاج:"أي: إن أصابه خصث وكثر ماله وماشيته اطمأن بما أصابه ورضي بدينه".

قال ابن زيد:"هذا المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة".

=

قال قتادة: " يقول: إن أصاب خصبا وسلوة من عش وما يشتهي، اطمأن إليه وقال: أنا على حق وأنا أعرف الذي أنا عليه".

وعن قتادة: " {فإن أصابه خير}، يقول: أكثر ماله وكثرت ماشيته اطمأن وقال: لم يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خير".

عن مجاهد، قوله: {فإن أصابه خير}، قال:"رخاء وعافية، {اطمأن به}، استقر".

قوله تعالى: {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} [الحج: ١١]، أي:"وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر".

قال الزجاج: أي:"اختبار بجدب وقلة مال، رجع عن دينه إلى الكفر وعبادة الأوثان".

قال ابن قتيبة:"أي: ارتد".

قال ابن زيد:"وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه. وإذا أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر".

عن قتادة: " {وإن أصابته فتنة}، أي: بلاء {انقلب على وجهه}، يقول: ترك ما كان عليه من الحق فأنكر معرفته".

وعن قتادة: " {وإن إصابته فتنة}، يقول: وإن ذهب ماله، وذهبت ماشيته".

عن مجاهد، قوله: " {وأن أصابته فتنة}، عذاب ومصيبة {انقلب} ارتد {على وجهه} كافرا".

قال ابن عباس:"كان أحدهم إذا قدم المدينة وهى أرض وبيئة- فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما، ورضى به واطمأن إليه وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرا، وإن رجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت

=

=

على دينك هذا إلا شرا. وذلك «الفتنة»".

قال ابن جريج:"كان ناس من قبائل العرب ومن حولهم من أهل القرى يقولون: نأتي محمدا ﷺ، فإن صادفنا خيرا من معيشة الرزق ثبتنا معه، وإلا لحقنا بأهلنا".

قال الضحاك:"كان ناس من قبائل العرب ومن حول المدينة من القرى كانوا يقولون: نأتي محمدا ﷺ فننظر في شأنه، فإن صادفنا خيرا ثبتنا معه، وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا. وكانوا يأتونه فيقولون: نحن على دينك! فإن أصابوا معيشة ونتجوا خيلهم وولدت نساؤهم الغلمان، اطمأنوا وقالوا: هذا دين صدق، وإن تأخر عنهم الرزق، وأزلقت خيولهم، وولدت نساؤهم البنات، قالوا: هذا دين سوء، فانقلبوا على وجوههم".

قوله تعالى: {خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} [الحج: ١١]، أي:"أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية".

قال الطبري:"يقول: غبن هذا الذي وصف جل ثناؤه صفته دنياه، لأنه لم يظفر بحاجته منها بما كان من عبادته الله على الشك، ووضع في تجارته فلم يربح والآخرة: يقول: وخسر الآخرة، فإنه معذب فيها بنار الله الموقدة".

قال قتادة: "يقول: خسر دنياه التي كان لها يحزن وبها يفرح ولها يسخط ولها يرضى، وهي همه وسدمه وطلبته ونيته، ثم أفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطي بها خيرا فـ {ذلك هو الخسران المبين} ".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١]، أي:"ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله".

قال الطبري:"يقول: وخسارته الدنيا والآخرة هي الخسران: يعني الهلاك المبين: يقول: يبين لمن فكر فيه وتدبره أنه قد خسر الدنيا والآخرة".

فهذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة

=

=

غير المطمئن بصدق دعوة الإسلام ولا المعرض عنها إعراضا تاما ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام. فهم يقبلون دعوة الإسلام ويدخلون في عداد متبعيه ويرقبون ما يتتابهم بعد الدخول في الإسلام فإن أصابهم الخير عقب ذلك علموا أن دينهم القديم ليس بحق وأن آلهتهم لا تقدر على شيء لأنها لو قدرت لانتقمت منهم على نبذ عبادتها وظنوا أن الإسلام حق، وإن أصابهم شر من شرور الدنيا العارضة في الحياة المسببة عن أسباب عادية سخطوا على الإسلام وانخلعوا عنه. وتوهموا أن آلهتهم أصابتهم بسوء غضبا من مفارقتهم عبادتها كما حكى الله عن عاد إذ قالوا لرسولهم إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [هود: ٥٤].

قال الزمخشري: «على حرف» أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه.

وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم: لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن، وإلا فر وطار على وجهه ... ».

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإذا ولدت امرأته غلاما، ونتجت خيله. قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء ... ».

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد صورت المذبذبين في عقيدتهم أكمل تصوير، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية، إن ربحوا من ورائها فرحوا، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في شأن المنافقين: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ.

والتعبير بقوله سبحانه عَلى حَرْفٍ يصور هذا النوع من الناس، وكأنه يترجح في

=

=

عبادته كما يترجح من يكون على طرف الشيء. فهو معرض للسقوط في أية لحظة.

والمراد من الخير في قوله تعالى فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ الخير الدنيوي من صحة وغنى ومنافع دنيوية.

أي: فإن نزل بهذا المذبذب في عبادته خير دنيوى اطْمَأَنَّ بِهِ أي: ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتا ظاهريا، وليس ثباتا قلبيا حقيقيا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد.

وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ أي: مصيبة أو شر انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أي: ارتد ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ بيان لسوء عاقبة صنيعه.

أي: هذا الذي يعبد الله على حرف، جمع على نفسه خسارتين، خسارة الدنيا بسبب عدم حصوله على ما يريده منها، وخسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر وغشيان السيئات، وذلك الذي جمعه على نفسه هو الخسران الواضح، الذي لا ينازع في شأنه عاقلان، إذ لا خسران أشد وأظهر، من الخسران الذي ضيع دنياه وآخرته.

ثم بين سبحانه مظاهر خسران هذا المذبذب، وأحواله القبيحة فقال: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ...

قوله تعالى: {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ} [الحج: ١٢]، أي:"يعبد ذلك الخاسر من دون الله ما لا يضره إن تركه، ولا ينفعه إذا عبده".

قال الطبري:"وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة، ارتد عن دين الله، يدعو من دون الله آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا ولا تنفعه في الآخرة إن

=

=

عبدها".

قال الزجاج:"يعنى: يدعو الوثن الذي لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر".

عن السدى قوله: " {يدعوا من دون الله ما لا يضره}، إن عصاه في الدنيا، {وما لا ينفعه}، إن أطاعه وهو الصنم".

قال ابن زيد:"يكفر بعد إيمانه".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [الحج: ١٢]، أي:"ذلك هو الضلال البعيد عن الحق".

قال الطبري:"يقول: ارتداده ذلك داعيا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة، والذهاب عن دين الله ذهابا بعيدا".

أى: يعبد سوى الله تعالى أوثانا وأصناما، إن ترك عبادتها لا تستطيع أن تضره، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه.

وذلِكَ الذي يفعله هذا الشقي من عبادته لما لا يضر ولا ينفع هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ بعدا شاسعا عن كل صواب ورشاد.

ثم أضاف سبحانه إلى تبكيت هذا المذبذب وتقريعه تقريعا آخر فقال: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

قوله تعالى: {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ} [الحج: ١٣]، أي:"يعبد وثنًا أو صنمًا ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة".

قال الطبري: يقول: " يدعو هذا المنقلب على وجهه من أن أصابته فتنة آلهة لضرها في الآخرة له، أقرب وأسرع إليه من نفعها".

قال السدي:"يقول: ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا".

وقرئ ابن مسعود: «يدعو من ضره أقرب من نفعه».

=

=

قال الزجاج:"فإن قال قائل: كيف يقال: {أقرب من نفعه}، ولا نفع من قبله ألبتة؟ فالعرب تقول لما لا يكون: هذا بعيد، والدليل على ذلك قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٣]".

قوله تعالى: {لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} [الحج: ١٣]، أي:"قبح ذلك المعبود نصيرًا، وقبح عشيرًا".

قال الطبري:"يقول: لبئس ابن العم هذا الذي يعبد الله على حرف، ولبئس الخليط المعاشر والصاحب".

قال ابن قتيبة:"{لبئس المولى} أي الولي، {ولبئس العشير} أي الصاحب والخليل".

قال أبو عبيدة:"«لَبِئْسَ الْمَوْلى»: معناه -هاهنا-: ابن العم، «وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ»: الخليط المعاشر".

قال السدي:"{لبئس المولى}، يقول: الصنم".

عن مجاهد: " {لبئس المولى ولبئس العشير}، قال: الصاحب".

قال ابن زيد:"العشير: هو المعاشر الصاحب".

والمولى: هو كل من انعقد بينك وبينه سبب، يجعلك تواليه ويواليك، وتناصره ويناصرك.

والعشير: هو من يعاشرك ويخالطك في حياتك.

أى: يعبد هذا الإنسان الجاهل المضطرب، معبودا ضرره أقرب من منفعته، لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية التي جعلت المعبود الباطل ضرره أقرب من نفعه، وبين الآية السابقة عليها والتي نفت الضر والنفع نفيا تاما.

وقد أجاب العلماء عن هذا التساؤل بإجابات منها: أن لفظ «يدعو» في الآية الثانية

=

=

بمعنى يقول.

وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا الرأى فقال ما ملخصه: «قوله تعالى يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ. استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى ويقرر كون ذلك ضلالا بعيدا. فالدعاء هنا بمعنى القول.

أى: يقول الكافر يوم القيامة برفع صوت، وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه، ولا يرى منه أثرا مما كان يتوقعه منه من نفع أو دفع ضر: والله لبئس الذي يتخذ ناصرا- من دون الله- ولبئس الذي يعاشر ويخالط، فكيف بما هو ضرر محض، عار عن النفع بالكلية، وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه ما لا يخفى ... » ا.هـ

ومنها ما ذكره الإمام القرطبي فقال: قوله تعالى يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ. أي: هذا الذي انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه، أي: في الآخرة، لأنه بعبادته دخل النار. ولم ير منه نفعا أصلا، ولكنه قال: ضره أقرب من نفعه، ترفيعا للكلام، كقوله تعالى: وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ا.هـ

ومنها: ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى في شأن الذين يعبدون الأصنام، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها، ولذا قال فيها: ما لا يضره وما لا ينفعه، والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام: التعبير بلفظة «ما» في قوله: ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ لأن لفظ «ما» يأتى- غالبا- لما لا يعقل. والأصنام لا تعقل.

أما الآية الثانية فهي في شأن من عبد بعض الطغاة من دون الله، كفرعون القائل لقومه:

«ما علمت لكم من إله غيرى» فإن فرعون وأمثاله من الطغاة المعبودين، قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم. وهذا النفع الدنيوي بالنسبة لما سيلاقونه من عذاب لا شيء. فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار. أقرب من نفعه بعرض

=

إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤).

{إِنَّ الله يُدْخِل الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} مِنْ الْفُرُوض وَالنَّوَافِل {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار إِنَّ الله يَفْعَل مَا يُرِيد} مِنْ إِكْرَام مَنْ يُطِيعهُ وَإِهَانَة مَنْ يَعْصِيه[1].

=

قليل زائل من حطام الدنيا.

والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل في الآية الثانية بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء: هي التعبير «بمن» التي تأتى- غالبا- لمن يعقل، كما قال تعالى: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ..

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الحج: ١٤]، أي:"إن الله يدخل الذين آمنوا بالله ورسوله، وثبتوا على ذلك، وعملوا الصالحات، جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال سهل بن عبد الله:"هم الذين صدقوا الله في السر والعلانية، واتبعوا سنة نبيهم ﷺ، ولم يبتدعوا بحال".

قال القرطبي:"لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا".

قال ابن كثير:"لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات".

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [الحج: ١٤]، أي:"إن الله يفعل ما يريد من ثواب أهل طاعته تفضلا وعقاب أهل معصيته عدلا".

قال القرطبي:"أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله، وللكافرين النار بما سبق من عدله، لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد".

قال ابن كثير:"لما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: {إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}".

قال الماتريدي:"المعتزلة كذبت هذه الآية والآية التي تلي هذه الآية، وهو قوله: {وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ} [الحج: ١٦]؛ لأنهم يقولون: أراد إيمان جميع الخلائق ثتم لم يفعل ذلك، وأراد جميع الخيرات والكف عن الشرور ثم لم يقدر على وفاء ما أراد، ويقولون: لا صنع له في أفعال العباد، ولا تدبير؛ فعلى قولهم: لم يفعل الله مما أراد واحدا من ألوف، ويقولون: إن الله أراد هدى جميع الخلائق، لكنهم لم يهتدوا، وهو أخبر أنه يهدي من يريد، وهم يقولون: يريد هدى الخلق كلهم فلم يهتدوا.

ونحن نقول: من أراد الله هداه اهتدى، وما أراد أن يفعل فعل، وهو ما أخبر {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد} [هود: ١٠٧/ البروج: ١٦]، أخبر أنه يفعل ما يريد".

وهذه الآية مقابل قوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق [الحج: ٩] وقوله: خسر الدنيا والآخرة [الحج: ١١]. فالجملة معترضة، وقد اقتصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب

الآخرة دون ذكر حالهم في الدنيا لعدم أهمية ذلك لديهم ولا في نظر الدين.

وجملة إن الله يفعل ما يريد تذييل للكلام المتقدم من قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم [الحج: ٨] إلى هنا، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها

=

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥).

{مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرهُ الله} أَيْ مُحَمَّدًا نَبِيّه {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ} بِحَبْلٍ {إِلَى السَّمَاء} أَيْ سَقْف بَيْته يَشُدّهُ فِيهِ وَفِي عُنُقه {ثُمَّ لْيَقْطَعْ} أَيْ لِيَخْتَنِقْ بِهِ بِأَنْ يَقْطَع نَفْسه مِنْ الْأَرْض كَمَا فِي الصِّحَاح {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْده} فِي عَدَم نُصْرَة النَّبِيّ {مَا يَغِيظ} مِنْهَا الْمَعْنَى فَلْيَخْتَنِقْ غَيْظًا مِنْهَا فَلَا بُدّ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦).

{وَكَذَلِكَ} أَيْ مِثْل إِنْزَالنَا الْآيَة السَّابِقَة {أَنْزَلْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن الْبَاقِي {آيَات بَيِّنَات} ظَاهِرَات حَال {وَأَنَّ الله يَهْدِي مَنْ يُرِيد} هُدَاهُ مَعْطُوف عَلَى هَاء أَنْزَلْنَاهُ[1].

=

الغرض. وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال الناس في الدنيا والآخرة. وفعل الله ما يريد هو إيجاد أسباب أفعال العباد في سنة نظام هذا العالم، وتبيينه الخير والشر، وترتيبه الثواب والعقاب، وذلك لا يحيط بتفاصيله إلا الله تعالى.

(١) قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [الحج: ١٥]، أي:"من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة".

وفي قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ} [الحج: ١٥]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا. حكاه ابن قتيبة عن المفسرين.

الثاني: أن لن يرزقه الله، وهو قول ابن عباس، مجاهد، وأبي عبيدة.

=

=

و «النصر»: الرزق والعطية، ومنه قول الشاعر:

أبوك الذي أجدى عليّ بنصره... فانصت عنى بعده كلّ قائل

أي: بعطيّته.

قال ابن قتيبة:"كأنه يريد: من كان قانطا من رزق الله ورحمته فليفعل ذلك، فلينظر هل يذهب كيده، أي حيلته غيظه لتأخر الرزق عنه؟".

الثالث: معناه: أن لن يمطر أرضه، قاله ابو عبيدة، يقال: نصر المطر أرض كذا، أي جادها وأحياها، قال الراعي:

إذا أدبر الشهر الحرام فودعى... بلاد تميم وانصرى أرض عامر

وقال الشاعر:

وإنك لا تعطى امرأ فوق حظه... ولا تملك الشقّ الذي الغيث ناصره".

ومنه قول رؤبة:

إني وأسطار سطران سطرا... لقائل يا نصرَ نصرٍ نصرا

وفي قوله تعالى: {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [الحج: ١٥]، وجهان:

أحدهما: أن النصر في الدنيا بالغلبة، وفي الآخرة بظهور الحجة.

قال الفراء:"«الهاء» فى قوله: {ينصره الله} للنبي ﷺ. أي من كان منكم يظن أن الله لن ينصر محمدا بالغلبة حتى يظهر دين الله".

الثاني: أن النصر في الدنيا علو الكلمة، وفي الآخرة علو المنزلة.

قوله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} [الحج: ١٥]، أي:"فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟".

وفي قوله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} [الحج: ١٥]، وجهان من التفسير:

=

=

أحدهما: فليمدد بحبل إلى سماء الدنيا ليقطع الوحي عن محمد--ﷺ-، ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ أي: يذهب الكيد منه ما يغيظه من نزول الوحي عليه، وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"من كان يظن إن لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه، فليقطع ذلك من أصله حتى يأتيه، فإن أصله في السماء ثم ليقطع أي عن النبي الوحي الذي يأتيه من الله إن قدر".

قال ابن قتيبة:"«السماء» هاهنا: السماء بعينها لا «السقف»، كأنه قال: فليمدد بسبب إليها أي بحبل، وليرتق فيه، ثم ليقطع حتى يخر فيهلك، أي: ليفعل هذا إن بلغه جهده، فلينظر هل ينفعه.

ومثله قوله لرسول الله، ﷺ- حين سأله المشركون أن يأتيهم بآية ولم يشأ الله أن يأتيهم بها، فشق ذلك عليه-: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: ٣٥]، يريد: اجهد إن بلغ هذا جهدك".

قال ابن قتيبة:"وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجيح، عن كردم: أن رجلا سأل أبا هريرة، وابن عمر، وابن عباس، عن رجل قتل مؤمنا متعمدا، هل له توبة؟ فكلهم قال: هل يستطيع أن يحييه؟ هل يستطيع أن يبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء؟.

يريدون: أنه لا توبة له، كما أن هذا لا يكون".

والثاني: معناه: فليمدد بحبل إلى سماء بيته وهو سقفه، ثم لِيخْنقَ به نفسه فلينظر هل يذهب ذلك بغيظه من ألا يرزقه الله تعالى، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وبه قال الفراء، وابن قتيبة.

وعلى هذا القول أن المراد بـ «السماء»: سقف البيت. قال ابن قتيبة:"وكل شيء

=

=

علاك وأظلك فهو سماء، والسحاب: سماء، يقول الله تعالى: {ونزلنا من السماء ماء مباركا} [ق: ٩]، وقال سلامة بن جندل يذكر قتل كسرى النعمان:

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه... نحور الفيول بعد بيت مسردق

يعني: سقفه، وذلك أنه أدخله بيتا فيه فيلة فتوطأته حتى قتلته".

قال ابن عباس:"السماء التي أمر الله أن يمد إليها بسبب سقف البيت أمر أن يمد إليه بحبل فيختنق به، قال: فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ إذا اختنق إن خشي أن لا ينصره الله!".

قال قتادة:"من كان يظن أن الله غير ناصر دينه فليمدد بحبل إلى السماء سماء البيت فليختنق فلينظر ما يرد ذلك في يده".

قال ابن كثير:"وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: ٥١، ٥٢]".

قال الطبري: معنى الكلام:"من كان يحسب أن لن يرزق الله محمدا ﷺ وأمته في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سني عطاياه وكرامته، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم، فليمدد بحبل إلى سماء فوقه: إما سقف بيت، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ما قضى الله، فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فلينظر هل يذهبن كيده اختناقه كذلك ما يغيظ، فإن لم يذهب ذلك غيظه؛ حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجاله نصر الله محمدا ودينه لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يعجل قبل حينه، وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان، تباطئوا عن الإسلام، وقالوا:

=

=

نخاف أن لا ينصر محمد ﷺ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يروونا، فقال الله تبارك وتعالى لهم: من استعجل من الله نصر محمد، فليمدد بسبب إلى السماء فليختنق فلينظر
استعجاله بذلك في نفسه، هل هو مذهب غيظه؟ فكذلك استعجاله من الله نصر محمد غير مقدم نصره قبل حينه".
قال النحاس:"فمن أحسن ما قيل فيها أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله جل وعز محمدا ﷺ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه، فليمدد بسبب إلى السماء أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ثم ليقطع أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له فلينظر هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبي ﷺ والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر".
وفي قراءة عبد الله: «ثم ليقطعه».
وللعلماء في تفسير الآية أقوال كما تقدم:
أولها أن الضمير في قوله يَظُنُّ يعود إلى أعداء النبي ﷺ وفي قوله يَنْصُرَهُ يعود إليه ﷺ والمعنى: «من كان يظن» من الكافرين الكارهين للحق الذي جاء به محمد ﷺ «أن لن ينصره الله». أى: أن لن ينصر الله نبيه ﷺ «في الدنيا والآخرة فليمدد» هذا الكافر «بسبب» أى: بحبل إلى السماء، أى: سقف بيته، لأن العرب تسمى كل ما علاك فهو سماء. «ثم ليقطع» ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل، بأن يشده حول عنقه ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت.
«فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» أى: فليتفكر هذا الكافر في أمره، هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله تعالى لنبيه ﷺ؟
كلا، فإن ما يفعله بنفسه من الاختناق والغيظ، لن يغير شيئا من نصر الله تعالى لنبيه ﷺ، فليمت هذا الكافر بغيظه وكيده.

=

=

فالمقصود بالآية الكريمة: بيان أن ما قدره الله تعالى من نصر لنبيه ﷺ لن يحول بين تنفيذه حائل، مهما فعل الكافرون، وكره الكارهون، فليموتوا بغيظهم، فإن الله تعالى ناصر نبيه لا محالة.

وصح عود الضمير في قوله أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ إلى النبي ﷺ مع أنه لم يسبق له ذكر، لأن الكلام دال عليه في الآيات السابقة، إذ المراد بالإيمان في قوله تعالى في الآية السابقة إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... الإيمان بصدق النبي ﷺ فيما جاء به عند ربه تعالى.

وعبر سبحانه عن اختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله: ثُمَّ لْيَقْطَعْ لأن قطع الشيء يؤدى إلى انتهائه وهلاكه، والمفعول محذوف. والتقدير: ثم ليقطع نفسه أو حياته.

وقد صدر الزمخشري تفسيره للآية بهذا القول فقال: هذا كلام قد دخله اختصار.

والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك.. فليستقص وسعه، وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه. بأن يفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ، حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر - هذا الحاسد - وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟

وسمى سبحانه فعل هذا الكافر كيدا، لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو سماه كذلك على سبيل الاستهزاء، لأنه لم يكد به محسوده، إنما كاد نفسه.

والمراد: إنه ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ... » ا.هـ.

وثانيها: إن الضمير في قوله: لَنْ يَنْصُرَهُ يعود إلى «من» في قوله مَنْ كانَ يَظُنُّ وأن النصر هنا بمعنى الرزق..

=

=

فيكون المعنى: من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليختنق، وليقتل نفسه، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه، أو فليختنق، فإن اختناقه لن يغير شيئا مما قضاه الله تعالى.

قال الآلوسى: واستظهر أبو حيان كون الضمير في «ينصره» عائدا على «من» لأنه المذكور، وحق الضمير أن يعود على مذكور ... وفسر النصر بالرزق.

قال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بنى بكر فقال: من ينصرني نصره الله- أى: من يرزقني رزقه الله.

والمعنى: أن الأرزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته، فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا.

والغرض: الحث على الرضا بما قسمه الله تعالى لا كمن يعبده على حرف ... ا.هـ.

وثالثها: أن الآية في قوم من المسلمين استبطئوا نصر الله تعالى لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين، فنزلت الآية لبيان أن كل شيء عند الله بمقدار.

ويكون المعنى: من كان من الناس يظن أن لن ينصره الله، واستبطأ حدوث ذلك، فليمت غيظا. لأن للنصر على المشركين وقتا لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته.

ويبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب، القول الأول، وعليه جمهور المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

وقوله سبحانه: ... وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

قال السعدي: معنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ،

=

=

الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي، تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول -إن كان ممكنا- ائت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي: والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق. وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم ا.هـ

وقال ابن عاشور: موقع هذه الآية غامض، ومفادها كذلك. ولنبدأ ببيان موقعها ثم نتبعه ببيان معناها فإن بين موقعها ومعناها اتصالا، فيحتمل أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين في قوله تعالى: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم [الحج: ٨] الآية، وقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١]. وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجلهم للدخول في الإسلام وأن لم يتريثوا في ذلك وهؤلاء هم المنافقون.

ويحتمل أن يكون موقعها تذييلا لقوله: ومن الناس من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] الآية بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى فيكون المراد: أن الفريق الذين يعبدون الله على حرف والمخبر عنهم بقوله: خسر الدنيا والآخرة [الحج:

=

=

١١] هـم قـوم يظنـون أن الله لا ينـصرهم في الـدنيا ولا في الآخـرة إن بقـوا علـى الإسلام.

فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاء، وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث ومن أجل هذا علق فعل لـن ينصره بـالمجرور بقولـه في الـدنيا والآخـرة إيمـاء إلـى كونـه متعلـق الخـسران في قولـه خـسر الـدنيا والآخـرة [الحـج: ١١]. فـإن عـدم النـصر خـسران في الـدنيا بحـصول ضـده، وفي الآخـرة باسـتحالة وقـوع الجـزاء في الآخـرة حـسب اعتقـاد كفـرهم، وهـؤلاء مـشركون مترددون.

ويترجح هذا الاحتمال بتغيير أسلوب الكلام، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله ومن الناس من يعبد الله [الحج: ١١] ولم تورد فيه جملة ومن النـاس كمـا أوردت في ذكر الفريقين الـسابقين ويكـون المقـصود مـن الآيـة تهديـد هـذا الفريـق. فيكـون التعبير عن هذا الفريق بقوله من كان يظن إلخ إظهارا في مقام الإضمار فإن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ذلك الفريق فيقال بعد قوله: إن الله يفعـل مـا يريـد [الحـج: ١٤]، فليمدد بـسبب إلـى الـسماء إلـخ ... عائـدا الـضمير المـستتر في قولـه فليمـدد على من يعبد الله على حرف [الحج: ١١].

والعـدول عـن الإضـمار إلـى الإظهـار لـوجهين، أحـدهما: بعـد معـاد الـضمير، وثانيهما:

التنبيـه علـى أن عبادتـه الله علـى حـرف ناشـئة عـن ظنـه أن لـن ينـصره الله في الـدنيا والآخرة إن صـمم علـى الاسـتمرار في اتبـاع الإسـلام لأنـه غيـر واثـق بوعـد النـصر للمسلمين.

وضمير النصب في ينصره عائد إلى من يعبد الله على حرف [الحج: ١١] على كـلا الاحتمالين.

=

=

واسم السماء مراد به المعنى المشهور على كلا الاحتمالين أيضا أخذا بما رواه القرطبي عن ابن زيد (يعني عبد الرحمان بن زيد بن أسلم) أنه قال في قوله تعالى: فليمدد بسبب إلى السماء قال: هي السماء المعروفة، يعني المظلة. فالمعنى: فلينط حبلا بالسماء مربوطا به ثم يقطعه فيسقط من السماء فيتمزق كل ممزق فلا يغني عنه فعله شيئا من إزالة غيظه.

ومفعول ليقطع محذوف لدلالة المقام عليه. والتقدير: ثم ليقطعه، أي ليقطع السبب.

والأمر في قوله فليمدد بسبب إلى السماء للتعجيز، فيعلم أن تعليق الجواب على حصول شرط لا يقع كقوله تعالى: يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا [الرحمن: ٣٣].

وأما استخراج معنى الآية من نظمها فإنها نسجت على إيجاز بديع، شبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الإسلام على حنق، أو حالة ترددهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سبل الانفراج، فامددوا حبلا بأقصى ما يمد إليه حبل، وتعلقوا به في أعلى مكان ثم قطعوه تخروا إلى الأرض، وذلك تهكم بهم

في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم، وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة.

ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومرتابين في نيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضر الله ولا

=

=

رسوله ولا يكيد الدين وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم، ولعل هؤلاء من المنافقين.
فموقع الآية على هذا الوجه موقع الاستئناف الابتدائي لذكر فريق آخر يشبه من يعبد الله على حرف، والمناسبة ظاهرة.
ويجيء على هذا الوجه أن يكون ضمير ينصره الله عائدا إلى رسول الله ﷺ.
وهذا مروي عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج.
ويستتبع ذلك في كل الوجوه تعريضا بالتنبيه لخلص المؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط. قال تعالى: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين [الأحزاب: ٢٣- ٢٤] الآية.
والسبب: الحبل. وتقدم في قوله وتقطعت بهم الأسباب في [سورة البقرة: ١٦٦].
والقطع: قيل يطلق على الاختناق لأنه يقطع الأنفاس.
و (ما) مصدرية، أي غيظه.
والاستفهام ب هل إنكاري، وهو معلق فعل فلينظر عن العمل، والنظر قلبي، وسمي الفعل كيدا لأنه يشبه الكيد في أنه فعله لأن يكيد المسلمين على وجه الاستعارة التهكمية فإنه لا يكيد به المسلمين بل يضر به نفسه ا.هـ
ثم مدح سبحانه القرآن الكريم فقال: وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ ...
قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الحج: ١٦]، أي:"وكما أقام الله الحجة من دلائل قدرته على الكافرين بالبعث أنزل القرآن، آياته واضحة في لفظها ومعناها".
قال الطبري: يقول: " وكما بينت لكم حججي على من جحد قدرتي على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه، فأوضحتها أيها الناس، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمد

=

=

ﷺ هذا القرآن آيات بينات، يعني: دلالات واضحات، يهدين من أراد الله هدايته إلى الحق".

قال الزمخشري:"أى: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات".

قال ابن كثير:"أي: القرآن {آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ} [الحج: ١٦]، أي:"يهدي بها الله مَن أراد هدايته".

قال الطبري: يقول: " ولأن الله يوفق للصواب ولسبيل الحق من أراد، أنزل هذا القرآن آيات بينات".

قال الزمخشري: أي:"ولـ {أن الله يهدي} به الذين يعلم أنهم يؤمنون. أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى، أنزله كذلك مبينا".

قال ابن كثير:"أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب".

أى: ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح، أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة، وتوجيهاتها السديدة.

وأن الله تعالى يهدى هداية توفيق من يريد هدايته إلى صراطه المستقيم، فهو الهادي الذي ليس هناك من هاد سواه.

(تتمة): اعلم رحمني الله وإياك أن مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة أهل الحديث والأثر، هو الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها وحركاتها، قال الله تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

=

=

وَكِيلٌ}، وقال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}، وقال عن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه قال لقومه: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}، ويؤمنون بانه سبحانه: يهدي من يشاء ويعصم، ويعافي فضلا منه وإحسانا، ويضل ويبتلي عدلا منه وحكمة، هو يهدي ويعصم ويعافي فضلا، ويضل ويبتلي حكمة منه وعدلا سبحانه وتعالى، وهذه المسألة؛ وهي مسألة الهدى والضلال مسألة عظيمة من أهم مسائل القدر حتى إن العلامة ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- قال: إنه قلب أبواب القدر؛ مسألة الهدى والضلال.

ومراتب الهداية أربعة:

المرتبة الأولى: الهداية العامة لكل مخلوق إلى ما يصلحه، هذه الهداية العامة عامة لكل مخلوق للآدميين والطيور والوحوش والصغار والكبار والأطفال، ويدخل في ذلك: هداية الطيور إلى أوكارها، وهداية الأنعام إلى مراتعها، وهداية الطفل إلى ثدي أمه، وهداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاشه وما يقيم به أمور حياته، هداه الله كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينكح، الحيوانات هداها الله تعرف كيف تأكل وكيف تشرب وكيف تنكح أنثاها، هي عامة شاملة للآدميين وللحيوانات وللوحوش وللطيور، قال الله- سبحانه وتعالى-: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} هذه دليل الهداية العامة، وقال -سبحانه- في جواب موسى لفرعون: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} وهذه المرتبة ما أنكرها أحد.

النوع الثاني من الهداية: هداية البيان والدلالة والإرشاد والتعليم والدعوة والإبلاغ إلى ما يصلح الإنسان في معاده، وهذه خاصة بالآدميين خاصة بالمكلفين من الجن والأنس، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه لا يعذب الله أحدا حتى تقوم عليه الحجة، وحتى يُهدى هذه الهداية وهي التي أرسل من أجلها الرسل وأنزل

=

=

من أجلها الكتب قال سبحانه: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وقال سبحانه: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} يعني ما كان الله ليضلهم بعد أن هداهم وبين لهم طريق الخير فلما بين لهم طريق الخير وتركوه أضلهم عقوبة لهم، {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} هذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقال -سبحانه-: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} هديناهم يعني دللناهم طريق الخير وطريق الشر، فلما بين الله لهم طريق الخير وطريق الشر واستحبوا العمى على الهدى جاءتهم العقوبة {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

وهذه الهداية ثابتة للرسل والأنبياء والمصلحين والدعاة كلهم يقدرون عليها قال الله -تعالى- للنبي ﷺ {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي ترشد وتدل وتبلغ وتدعو، هذه هداية يقدر عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام- ويقدر عليها الدعاة والمصلحون يهدون الناس هداية الدلالة والإرشاد والبيان والتبليغ والدعوة هذه خاصة بالمكلفين من الإنس والجن وليست للحيوانات ولا الطيور، وهذه المرتبة ما أنكرها المعتزلة.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام والتسديد وجعل الإنسان يقبل الحق ويرضاه ويختاره وخلق هداية القلب هذه خاصة بالله، لا يقدر عليها إلا الله، لا يقدر عليها أحد من الخلق لا الأنبياء ولا غيرهم وهذه هي المنفية عن النبي ﷺ نفاها الله بقوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} فهو لا يهدي يعني لا يخلق الهداية في القلب ولا يوفق ولا يلهم ولا يجعله يقبل الحق ويختاره ويرضاه.

وقال سبحانه: {مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فالله -تعالى- يهدي ويضل، فالهداية والإضلال، بيد الله ﷻ والعبد هو الضال

=

=

والمهتدي ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين:

الأمر الأول: الهداية من الله، يعني يهديه الله.

والثاني: الاهتداء من العبد فإذا هداه الله واهتدى حصلت له الهداية بالتوفيق وكذلك الإضلال من الله، والعبد هو الضال إذا أضله الله فضل صار ضالا.

فالهداية والإضلال بيد الله ﷻ وقد اتفقت رسل الله وكتبه المنزلة على أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وهذه المسألة مسألة الهداية والإضلال مسألة عظيمة؛ لأن أفضل ما يقدره الله على العبد وأجل ما يقسمه له هو الهداية وأعظم ما يبتلي الله به العبد وأعظم مصيبة تصيبه هو أن يقدر الله عليه الإضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل مصيبة هي دون مصيبة الإضلال، فلذلك كانت الهداية والإضلال بيد الله ﷻ، و هذه المرتبة أنكرها المعتزلة والقدرية فأنكر عليهم أهل السنة وبدَّعُوهم وضللوهم، المعتزلة والقدرية والإمامية قالوا: الهداية والإضلال بيد العبد وليس بيد الله الهداية والإضلال أنكروا هذه المرتبة. أنكر عليهم أهل السنة وقالوا: النصوص واضحة لأن الله – سبحانه وتعالى– بيده الهداية والإضلال قال: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} لو كانت الهداية بيد العبد لما قيدها بالمشيئة {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} ولكن الله –سبحانه وتعالى– خص المؤمن بنعمة دينية دون الكافر، كما قال –سبحانه–: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} وقال –سبحانه–: {وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً}.

هذه النعمة اختص الله بها المؤمنين اختصهم بنعمة دينية جعلهم يقبلون الحق

=

=

ويرضون به ويختارونه وألهمهم إياه وخلق الهداية في قلوبهم فصاروا مهتدين. وله الفضل والإحسان. والكافر أضله الله خذله وأضله الله وابتلاه - كل ذلك -عدلا منه حكمة بالغة -سبحانه وتعالى-. فالهداية والإضلال بيد الله ﷻ. والمعتزلة والقدرية أنكروا هذه المرتبة، وقالوا: الهداية والإضلال بيد العبد، وتأولوا النصوص بقوله: {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} قالوا معناه: يهدي أي يسميه مهتديا ويبين لهم طريق الصواب فسروها بهداية الدلالة والإرشاد. ويضل من يشاء قالوا: يسميه ضالا أو يحكم عليه بالإضلال بعد أن يخلق الضلال من نفسه، وهذا من أبطل الباطل، وهذا مبني على شبهتهم السابقة.

وهو أن لو هدى هؤلاء وأضل هؤلاء لكان هذا جورا، والله عادل لا يجور، وهي شبه باطلة، لأن الله له الحكمة البالغة فيما يقدره، وأن الله عاقبهم لما لم يستجيبوا للحق بعد ظهوره ووضوحه عاقبهم كما سبق في الآية {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} فلما بين لهم ما يتقون واتضح لهم الأمر فلم يقبلوه أضلهم الله عقوبة لهم، وقال -سبحانه-: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} وقال -سبحانه-: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}، فمن علم الله فيه خيرًا وعلم من قلبه إقبالًا وتقبلًا للخير هداه الله وأنار قلبه. ومن علم الله أنه شريرٌ وعلم أنه من أهل الشر، وأنه لا خير فيه حَرمَه الهداية، وحال بينه وبين الإيمان وقسّى قلبه وصده عن الخير (ولا يظلم ربك أحدًا) (الكهف:٤٩). (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) الأنبياء:٢٣. وهذه المرتبة أنكرها المعتزلة والقدرية وهي خاصة بالله.

والمرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة، فالكفار يهديهم الله إلى النار، والمؤمنون يهديهم الله إلى الجنة، قال سبحانه وتعالى في الكفار: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى

=

صِرَاطِ الْجَحِيمِ} الآية من سورة الصافات، وقال سبحانه في المؤمنين: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} فهذه هداية بعد قتلهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم في إلغاء خصومهم وقبول أعمالهم، فهذه مراتب الهداية.

المرتبة الأولى الهداية العامة والمرتبة الرابعة ليس فيهما إشكال، إنما البحث في المرتبة الثانية، مرتبة هداية الدلالة والإرشاد، والمرتبة الثالثة هداية التوفيق والتسديد، هذا محل النزاع والخلاف بينهم وبين أهل السنة.

أهل السنة يقسمون الهداية إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق وإلهام.

(منبهة): ليكن على بالك أن أساس الضلال الحاصل في المسائل المتعلقة بالقدر؛ اعتقاد ثمة تناقض بين الشرع والقدر، وعليه فالواجب أولًا بيان انتفاء التناقض بينهما، وأنه لا يلزم لإثبات القدر القدح في الشرع؛ كما فعلت الجبرية، ولا يلزم لإثبات الشرع القدح في القدر؛ كما فعلت القدرية، وأن التسليم بكليهما يقتضى عدم الميل بأحدهما عما يجب فيه، لذا كان المنهج الصحيح هو التوسط وعدم ضرب نصوص الشرع بعضها ببعض، بل الإيمان بأن: كلا من عند ربنا، "فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب على شيء من الأعيان والأفعال، وعموم مشيئته وخلقه لكل موجود، وأثبت في الوجود شيئًا بدون مشيئته وخلقه.

وأدلة القدرية متضافرة صحيحة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره، وقال: إنه ليس بفاعل شيئًا، والله يعاقبه على ما لم يفعله، ولا له قدرة عليه بل هو مضطر إليه مجبور عليه".

والحقيقة أن الخروج عن نهج الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح أساس

=

لكل ضلال وبلاء، فالتسليم بالقدر دون جدال ومراء من أعظم أسس الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان ذلكم أنه قد نهى عن الجدال في القدر والخوض فيه بلا علم فالله تعالى لم يأمر عباده ولم يتعبدهم بكيفية القدر؛ ولكن تعبدهم بالتسليم له، مع عدم ضرب نصوص الدين بعضها ببعض، يقول الإمام الطحاوي "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبى مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن الأنام، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين".

وعند سبر أقوال المخالفين لمنهج السلف؛ نجد أن الانحراف داخلهم من رد نصوص بعض الكتاب، أو استخدام بعض الألفاظ التي لم ترد في الشرع، فهؤلاء القدرية ردوا صريح الكتاب بأن الله تعالى خالق لكل شيء، وأنه لا أحد يملك الخروج عن مشيئته؛ كما قال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩]، فدلالة هذه النصوص على إثبات خلق الله تعالى لأفعال العباد صريحة صحيحة، لا يجادل فيها إلا مكابر، قد قدم هواه على الشرع الحكيم، وليس في ذلك ما يبطل الشرع وحكمة المولى تعالى؛ كما فعل غلاة الجبرية، ومتوسطوهم، فالله حكيم يضع كل شيء في محله، وقد تقدم هذا كما أنه ﷻ لا يجبر أحدًا على فعله، فالجبر مما لم يرد لأفعال العباد؛ فلا يقال جبر وإنما خلق وجبل، فالله تعالى أعظم من أن يجبر أحدًا على شيء، وإنما يخلق ويجبل عبده على ما يريد؛ حتى يجعل العبد مريدًا لأفعاله عن اختيار ومشيئة.

=

لذا كان هذا من الألفاظ التي كرهها الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد رد على من قال: إن الله جبر العباد، فقال: هكذا لا تقول وأنكر هذا وقال: يضل من يشاء ويهدى من يشاء، وفي رواية أخرى أنه في رده قال: بئس ما قال، ولم يقل شيئًا غير هذا.

وجماع هذين الأمرين، أعني: إثبات مشيئة العبد وإرجاعها أولًا وأخيرًا إلى مشيئة الرب تعالى، قوله عز من قائل: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]، يقول شيخ الإسلام: "وهذه الآية رد على الطائفتين: المجبرة الجهمية، والمعتزلة القدرية، فإنه تعالى قال: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: ٢٨] فأثبت للعبد مشيئة وفعلًا، ثم قال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله، والأولى رد على الجبرية، وهذه رد على القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله". ا.هـ

فالواجب على العباد أن يستخدموا الألفاظ التي جاءت بها النصوص، روى اللالكائي بإسناده إلى بقية قال: سألت الأوزاعي والزبيدي عن الجبر؟

فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب. وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلا من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ.

وورد مثل هذه الأقوال عن جمع من علماء السلف مثل سفيان الثوري وأبي إسحاق الفزاري وغيرهم.

وإنما أنكروا إطلاق القول بأن الإنسان مجبر على فعله، لأن لفظ (الجبر) مجمل، فقد يراد بالإجبار معنى الإكراه كقولك: أجبر الأب ابنته على النكاح وجبر الحاكم على بيع ماله لوفاء دينه ومعنى الإجبار هنا الإكراه، فيكون معنى قولهم: أجبر الله العباد، أي: أكرههم، لا أنه جعلهم مريدين لأفعالهم مختارين لها عن حب ورضا.

=

وإطلاق هذا على الله تبارك وتعالى خطأ بين، فإن الله أعلى وأجل من أن يجبر أحدا، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريدا للفعل مختارا له محبا له راضيا به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريدا له محبا له راضيا به، فكيف يقال أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق.

وأما إطلاق الجبر مرادا به أن الله جعل العباد مريدين لما يشاء منهم مختارين له من غير إكراه فهذا صحيح، وقال بعض السلف في معنى الجبار: هو الذي جبر العباد على ما أراد. ولما كان لفظ الجبر لفظ مجمل يطلق على هذا وهذا منع السلف من إطلاقه نفيا أو إثباتا. ذكر شيخ الإسلام عن أبي بكر الخلال في كتابه (السنة) أن المروزي قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا نقول، وأنكر ذلك وقال: يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء. وذكر عن المروذي أن رجلا قال: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه آخر، فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل، فأنكر عليهما جميعا على الذي قال جبر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمره أن يقول: يضل من يشاء ويهدي من يشاء. وذكر عن إسحاق الفزاري قال: جاءني الأوزاعي فقال: أتاني رجلان فسألاني عن القدر، فأجبت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما. قلت: رحمك الله، أنت أولى بالجواب. قال: فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان، فقال: تكلما. فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر، فنازعونا في القدر ونازعناهم فيه، حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا: إن الله جبرنا على ما نهانا عنه، وحال بيننا وبين ما أمرنا به، ورزقنا ما حرم علينا. فقلت: يا هؤلاء، إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة، وأحدثوا حدثا، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه. فقال الأوزاعي: أصبت وأحسنت يا أبا

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} هُمْ الْيَهُود {وَالصَّابِئِينَ} طَائِفَة مِنْهُمْ {وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ الله يَفْصِل بَيْنهمْ يَوْم الْقِيَامَة} بِإِدْخَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّة وَإِدْخَال غَيْرهمْ النَّار {إِنَّ الله عَلَى كُلّ شَيْء} مِنْ عَمَلهمْ {شَهِيد} عَالِم بِهِ عِلْم مُشَاهَدَة[1].

=

إسحاق.

(١) ذكر سبب النزول.

عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكر من صلاتهم وصيامهم وعبادتهم؛ فنزل قوله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} إلى قوله: {شَهِيدٌ}.

أخرجه ابن أبي عمر العدني في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٦٣١ رقم ٤٠٤٨)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٢٦ رقم ٧٧٥٤): ثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان: (وذكره). وهذا سند ضعيف؛ فإن مجاهدًا لم يدرك سلمان.

وعن عكرمة؛ قال: قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت الصابئة: نحن نعبد الملائكة من دون الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر من دون الله، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان من دون الله؛ فأوحى الله إلى نبيه ليكذب قولهم: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١)} [الإخلاص: ١] إلى آخرها {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} [الإسراء: ١١١]، وأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ}.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ١٦، ١٧) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: ١٧]، أي:"إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمدٍ ﷺ".

قال الطبري: أي:"هم المصدقون رسول الله فيما أتاهم به من الحق من عند الله، وإيمانهم بذلك، تصديقهم به".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَادُوا} [الحج: ١٧]، أي: "والذين انتسبوا إلى دين اليهود. وهي شريعة موسى".

وفي أصل كلمة «اليهود»، أقوال:

أحدها: أنها من «هاد» بمعنى: رجع، سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل.

الثاني: أنهم سمّوا بذلك، لقولهم: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [سورة الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا، قاله ابن جريج.

الثالث: أن الهوادة: السكون والموادعة. ومنه قوله تعالى: {هُدْنَا إِلَيْك} [الأعراف: ١٥٦]، أي: سكنا إلى أمرك، قاله ابن عرفة.

الرابع: أنها من كلمة: «يهوذا» بالذال المعجمة، وغيّرتها العرب إلى «يهودا»، وقيل: «يهودي» في نسبة الواحد إلى الاسم، ثم حذف الياء في الجمع، فقيل: «يهود».

الخامس: أنها مشتقة من: «هاد، يهود»؛ بمعنى: الميل والرجوع؛ لأن اليهود كانوا كلما جاءهم نبي أو رسول هادوا إلى ملكهم ودلوه عليه ليقتلوه.

السادس: أنها من «التهويد»، وهو النطق في سكون ووقار ولين، وسموا بذلك لأنهم يتهودون عند قراءة التوراة. حكاه ابن عطية عن الزهراوي، وأنشد قول الراعي النميري:

=

=

وخودٌ من اللائي تَسَمَّعْنَ بالضُّحَى... قريضَ الرُّدَافَى بالغِنَاءِ المُهَوَّدِ

السابع: أنه من: «الهوادة»، وهي: الخضوع، فـ {هدنا إليك}، أي: خضعنا إليك.

الثامن: أن أصلها من: «هاد، يهيد»، أي: تحرك، ومنه سمي اليهود؛ لتحركهم في دراستهم، قاله أبو عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: {وَالصَّابِئِينَ} [الحج: ١٧]، أي:"والصابئين- وهم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه-".

قال البيضاوي:"قوم بين النصارى والمجوس".

قال النسفي: أي"الخارجين من دين مشهور إلى غيره، من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة".

قال الثعلبي: يقال: صبا يصبوا صبوءا، إذا مال وخرج من دين إلى دين".

وفي الأصل اللغوي لكلمة الـ «صابئة»، أقوال:

أحدها: إن الكلمة- بالهمز- عربية تفيد معنى: الخروج والتحول والانتقال من دين إلى آخر، مأخوذة من قول العرب: صبأ ناب البعير إذا طلع حده وخرج، وتصبأ النجوم أي: تخرج من مطالعها، والصابيء: المستحدث سوى دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى دين آخر. وهذا القول عليه جمهور أهل اللغة.

الثاني: إن الكلمة- بغير الهمز- عربية تفيد معنى: الميل والنزع، تقول أصبا إلى الشيء يصبو إذا مال قلبه إليه، ونزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، وقد يقال صبا الرجل إذا عشق وهوى، ومن هذا المعنى قوله تعالى عن يوسف عليه السلام {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣].

قال بعض العلماء: وسمى القوم بذلك؛ لأنهم مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم... أو مالوا عن سنن الحق وزاغوا عن نهج الأنبياء.

الثالث: أنها مشتقة من: «صباؤوث» العبرانية، أي جند السماء دلالة على أنهم

=

=

يعبدون الكواكب. قاله اللغوي الألماني: جسنيوس.

الرابع: أنها مشتقة من: صب الماء، إشارة إلى اعتمادهم بالماء. قاله نولدكي.

الخامس: أن الكلمة لاتفيد معنى خاصًا وإنما هي منسوبة إلى أحد الأشخاص يسمى صبائًا.

واختلف أصحاب هذا القول في تحديد هذا الشخص بين اثنين:

أ- صابيء متوشلخ «متوشالح» حفيد النبي إدريس - عليه الصلاة والسلام -.

ب- صابيء بن ماري، الذي ظهر في زمن الخليل عليه السلام.

ولا يحفى بأن الأقوال السابقة بينها ترابط، وذلك من خلال أن الشخص الذي صبأ وخرج عن دينه إلى دين آخر، هو في الحقيقة لم يصنع ذلك إلا لما مال قلبه إلى ذلكم الدين الجديد، ثم اغتسل بالماء إعلانًا منه الخروج عن الدين الأول، وتمسكه بأبرز سماة الدين الجديد ألا وهو عبادة الكواكب.

وقد اختلفت أهل العلم في المعنيين بالـ «الصابئة»، على أقوال:

أحدها: أنهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين. قاله مجاهد، وعطاء.

الثاني: أنهم منزلة بين اليهود والنصارى. قاله سعيد بن جبير.

الثالث: قبيلة بين المجوس واليهود، ولاتؤكل ذبائحهم ولاتنكح نساؤهم. قاله الحسن، ومجاهد، وابن أبي نجيح.

الرابع: هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. قاله أبو العالية والسدي، والربيع بن أنس، وأبو الشعشاء جابر بن زيد، والضحاك، وإسحاق بن راهويه.

الخامس: أنهم أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول لا إله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول الله. قاله ابن زيد.

=

=

السادس: هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي. ذكره ابن كثير.

السابع: هم قوم يعيدون الملائكة ويصلون إلى القبلة. قاله قتادة، وزياد بن أبيه، وأبو جعفر الرازي.

الثامن: أنهم طائفة من أهل الكتاب. قاله السدي.

قال ابن كثير: "وأظهر الأقوال - والله أعلم - قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم باقون على فطرتهم، ولادين مقرر يتبعونه ويقتضونه".

قال ابن القيم: "لقد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم... وبالجملة فالصابئة أحسن حالًا من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأولى، فإن المجوس من أخبث الأمم دينًا ومذهبًا، ولايتمسكون بكتاب ولاينتمون إلى ملة ولايثبت لهم كتاب ولاشبهة كتاب أصلًا... وكل ماعليه المجوس من الشرك فشر الصابئة إن لم يكن أخف منه فليس بأعظم منه".

قوله تعالى: {وَالنَّصَارَى} [الحج: ١٧]، أي:"الذين انتسبوا إلى دين عيسى".

قال الثعلبي: هم"الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يبدّلوا وماتوا على ذلك".

وفي سبب تسميتهم بـ «النصارى»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم سُمُّوا بذلك، لقريةٍ تُسَمَّى: «ناصرة»، كان ينزلها عيسى عليه السلام، فَنُسِبَ إليها، فقيل: عيسى الناصري، ثم نسب أصحابه إليه فقيل: النصارى، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن جريج.

الثاني: أنهم سُمُّوا بذلك، لنصرة بعضهم لبعضٍ، ومنه قول الشاعر:

لمَّا رأيتُ نَبَطًا أَنْصَارَا... شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتِيَ الإِزَارَا

كُنْتُ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى جَارَا

=

الثالث: أنهم سُمُّوا بذلك، لقوله: {مَنْ أَنْصَارِي إلى الله} [الصف: ١٤].

قوله تعالى: {وَالْمَجُوسَ} [الحج: ١٧]، أي:"والمجوس -وهم: عبدة النار-".

قال قتادة:"المجوس: عبدة الشمس والقمر والنيران".

قال القرطبي:"هم عبد ة النيران القائلين أن للعالم أصلين: نور وظلمة، وقيل: المجوس في الأصل «النجوس» لتدينهم باستعمال النجاسات، والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين، والأيم والأين".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [الحج: ١٧]، أي:"والذين أشركوا -وهم: عبدة الأوثان".

قال قتادة:"وأما {الذين أشركوا}: فهم عبدة الأوثان".

قال القرطبي:"هم العرب عبدة الأوثان".

قال ابن كثير:"فعبدوا غير الله معه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الحج: ١٧]، أي:"إنَّ الله يفصل بينهم جميعًا يوم القيامة فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار".

قال قتادة:"الأديان ستة: فخمسة للشيطان، ودين لله ﷻ".

قال القرطبي:"أي: يقضي ويحكم، فللكافرين النار، وللمؤمنين الجنة. وقيل: هذا الفصل بأن يعرفهم المحق من المبطل بمعرفة ضرورية، واليوم يتميز المحق عن المبطل بالنظر والاستدلال".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة.. يحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار".

قال الزمخشري:"الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعا، فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد. وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن. جعل الصابئون مع

=

النصارى لأنهم نوع منهم. وقيل يفصل بينهم يقضى بينهم، أى بين المؤمنين والكافرين. وأدخلت إن على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التوكيد".

قال عكرمة:"فصل قضاءه بينهم، فجعل الجنة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: ١٧]، أي:"إن الله على كل شيء شهيد، شهد أعمال العباد كلَّها، وأحصاها وحفظها، وسيجازي كلا بما يستحق جزاء وفاقًا للأعمال التي عملوها".

قال القرطبي:"أي: من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يعزب عنه شي منها، سبحانه".

قال ابن كثير:"فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم".

يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: {إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.

ولما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مثارا لأن يتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وأن يسأل عن الدين الحق لأن كل أمة تدعي أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك.

فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة، إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا.

وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض، ومثله يكون كناية عن تصويب المتكلم طريقته وتخطئته طريقة خصمه، لأن مثل ذلك التفويض لله لا

=

=

يكون إلا من الواثق بأنه على الحق وهو كقوله تعالى: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير [الشورى: ١٥] وذلك من قبيل الكناية التعريضية.

وذكر المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين تقدم في آية البقرة وآية العقود.

ففي هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس: أما الفرقة الأولى، فهي: فرقة الذين آمنوا، والمراد بهم: الذين آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه واتبعوه.

وابتدأ القرآن بهم، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق، القائم على أساس أن الفوز برضا الله تعالى لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك، كما قال تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ.

وأما الفرقة الثانية فهي فرقة الذين هادوا أى: صاروا يهودا. يقال: هاد فلان وتهود أى:

دخل في اليهودية.

وسموا يهودا نسبة إلى «يهوذا» أحد أولاد يعقوب- عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقلبت الذال دال عند التعريب. أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل مأخوذ من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ومنه قوله تعالى: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أى: تبنا إليك.

والفرقة الثالثة هي فرقة «الصابئين» جمع صابئ، وهو الخارج من دين إلى آخر.

يقال: صبأ الظّلف والناب والنجم- كمنع وكرم- إذا طلع.

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة: الصابئة أمة كبيرة فيهم السعيد والشقي وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر فإن الأمم قبل مبعث النبي نوعان: نوع كفار أشقياء كلهم ليس فيهم سعيد كعبدة الأوثان والمجوس، ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي وهم اليهود والنصارى والصابئة وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله

=

=

واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وكذلك قال في المائدة، وقال في سورة الحج إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد فلم يقل ها هنا من آمن منهم بالله واليوم الآخر لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا فذكر ست أمم منهم اثنتان شقيتان وأربع منهم منقسمة إلى شقي وسعيد وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر ذكرهم أربع أمم ليس إلا، ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلها معهم فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر والشقي والسعيد وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارى وهم أنواع صابئة حنفاء وصابئة مشركون، وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح ولهم كتب وتآليف ا. هـ وما ذكره ابن القيم من انقسام الصابئة إلى موحدين ومشركين قرره شيخه شيخ الإسلام أيضا في غير موضع.

والفرقة الرابعة هي فرقة «النصارى» جمع نصران بمعنى نصراني كندامى وندمان. والياء في نصراني للمبالغة، وهم قوم عيسى- عليه السلام، قيل: سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له: وقيل: إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة، وهي القرية التي كان عيسى قد نزل بها.

وأما الفرقة الخامسة فهي فرقة «المجوس» وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار.

وقيل: هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئا، ومن دين اليهود شيئا، ويقولون: بأن للعالم أصلين: نورا وظلمة..

قال ابن عاشور: فأما المجوس فهم أهل دين يثبت إلهين: إلها للخير، وإلها للشر، وهم أهل فارس.

=

=

ثم هي تتشعب شعبا تأوي إلى هذين الأصلين. وأقدم النحل المجوسية أسسها (كيومرث) الذي هو أول ملك بفارس في أزمنة قديمة يظن أنها قبل زمن إبراهيم عليه السلام، ولذلك يلقب أيضا بلقب (جل شاه) تفسيره: ملك الأرض. غير أن ذلك ليس مضبوطا بوجه علمي وكان عصر (كيومرث) يلقب (زروان) أي الأزل، فكان أصل المجوسية هم أهل الديانة المسماة: الزروانية وهي تثبت إلهين هما (يزدان) و (أهرمن). قالوا: كان يزذان منفردا بالوجود الأزلي، وأنه كان نورانيا، وأنه بقي كذلك تسعة آلاف وتسعين سنة ثم حدث له خاطر في نفسه: أنه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سمي (أهرمن) وهو إله الظلمة مطبوعا على الشر والضر. وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري بقوله في لزومياته:

قال أناس باطل زعمهم ... فراقبوا الله ولا تزعمن.

فكر يزدان على غرة ... فصيغ من تفكيره أهرمن

فحدث بين (أهرمن) وبين (يزدان) خلاف ومحاربة إلى الأبد. ثم نشأت على هذا الدين نحل خصت بألقاب وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة (زرادشت) الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية. وقد سمى إله الخير (أهورا مزدا) أو (أرمزد) أو (هرمز)، وسمى إله الشر (أهرمن)، وجعل إله الخير نورا، وإله الشر ظلمة. ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنها مظهر إله الخير وهو النور.

ووسع شريعة المجوسية، ووضع لها كتابا سماه «زندافستا». ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة «المانوية»، وهي المنسوبة إلى (ماني) الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة ٢٣٨ وسنة ٢٧١ م.

=

=

وظهرت في المجوس نحلة (المزدكية)، وهي منسوبة إلى (مزدك) الذي ظهر في زمن قباذ بين سنة ٤٨٧ وسنة ٥٢٣ م. وهي نحلة قريبة من (المانوية)، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلا أنها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأن لها كتابا، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب. ولذلك

قال النبيء ﷺ فيهم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أي في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام كما يكره المشركون على الدخول في الإسلام ا.هـ

وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهي فرقة الذين أشركوا. والمشهور أنهم عبدة الأصنام والأوثان، وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله تعالى إلها آخر.

وقوله سبحانه: إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ بيان لما سيكون عليه حالهم جميعا يوم القيامة، من حكم عادل سيحكم الله تعالى به عليهم.

أى: إن الله تعالى يحكم بين هؤلاء جميعا بحكمه العادل يوم القيامة، إنه سبحانه على كل شيء شهيد، بحيث لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه.

قال الجمل ما ملخصه: ولهذه الآية قيل: الأديان ستة. واحد للرحمن وهو الإسلام.

وخمسة للشيطان وهي ما عداه. وإنّ الثانية واسمها وخبرها في محل رفع خبر لإن الأولى.

وقوله: إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تعليل لقوله: إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ..

وكأن قائلا قال: أهذا الفصل عن علم أو لا؟ فقيل: إن الله على كل شيء شهيد. أى:

=

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله يَسْجُد لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَمَنْ فِي الْأَرْض وَالشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم وَالْجِبَال وَالشَّجَر وَالدَّوَابّ} أَيْ يَخْضَع لَهُ بِمَا يُرَاد مِنْهُ {وَكَثِير مِنْ النَّاس} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ بِزِيَادَةٍ عَلَى الْخُضُوع فِي سُجُود الصَّلَاة {وَكَثِير حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَاب} وَهُمْ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ أَبَوْا السُّجُود الْمُتَوَقِّف عَلَى الْإِيمَان {وَمَنْ يُهِنْ الله} يُشْقِهُ {فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِم} مُسْعِد {إِنَّ الله يَفْعَل مَا يَشَاء} مِنْ الإهانة والإكرام[١].

=

علم به علم مشاهدة».

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الحج: ١٨]، أي:"ألم تعلم- أيها الرسول- أن الله سبحانه يسجد له خاضعًا منقادًا مَن في السموات من الملائكة ومَن في الأرض من المخلوقات".

قال الطبري: يقول: " ألم تر يا محمد بقلبك، فتعلم أن الله يسجد له من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق من الجن وغيرهم".

قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ} [الحج: ١٨]، أي:"وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع".

قال الطبري: يقول: " والشمس والقمر والنجوم في السماء، والجبال، والشجر، والدواب في الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس، وحين تزول، إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده".

=

عن مجاهد، قوله: " {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب} ، قال: ظلال هذا كله".

قال ابن كثير:"إنما ذكر هذه [وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ] على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة {لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧]".

وفي الصحيحين عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: «قال رسول الله ﷺ: "أتدري أين تذهب هذه الشمس؟". قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت"».

وفي حديث الكسوف: "إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تَجَلى لشيء من خلقه خشع له".

وفي تفسير «السجود» في الآية قولان:

أحدهما: أن «السجود» ههنا: الخضوع لله عز وجل، وهى طاعة ممن خلق الله من الحيوان والجماد، والدليل على أنه سجود طاعة قوله: {وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب} ، هذا أجود الوجوه أن يكون تسجد مطيعة، لله عز وجل، كما قال الله تعالى: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين} [فصلت: ١١]، وكما

قال: {وَإِنَّ مِنْهَا} [البقرة: ٧٤]، يعني: الحجارة {لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله} [البقرة: ٧٤]، فـ «الخشية» لا تكون إلا لما أعطاه الله مما يختبر به خشيته. قاله الزجاج.

وقال سهل بن عبد الله:"سجود هذه الأشياء معرفتها بالحق بالتذلل والانقياد له".

وقال أبو العالية: "ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجدا حين

=

يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين، وزاد محمد: حتى يرجع إلى مطلعه".

الثاني: أن السجود من هذه الأشياء التي هي جماد ومن الحيوان الذي لا يعقل إنما هو أثر الصنعة فيها والخضوع الذي يدل على أنها مخلوقة، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر:

بجَمْع تضل البُلْقُ في حَجَراته... ترى الأكْم منه سجدا للحوافر

أي: قد خشعت من وطء الحوافر عليها.

قال الزجاج: وذلك القول الذي قالوه لأن السجود الذي هو طاعة عندهم إنما يكون ممن يعقل، والذي يكسر هذا ما وصف الله ﷻ من أن من الحجارة لما يهبط من خشية الله، والخشية والخوف ما عقلناه إلا للآدميين، وقد أعلمنا الله - ﷻ - أن من الحجارة ما يخشاه، وأعلمنا أنه سخر مع داود الجبال والطير تسبح معه، فلو كان تسبيح الجبال والطير أثر الصنعة: ما قيل: «سخرنا» ولا قيل: «مع داود الجبال»، لأن أثر الصنعة يتبين مع داود وغيره، فهو سجود طاعة لا محالة، وكذلك التسبيح في الجبال والطير، ولكنا لا نعلم تسبيحها إلا أن يجيئنا في الحديث كيف تسبيح ذلك، وقال الله ﷻ -: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]".

وروي عن مجاهد، قال:"سجود كل شيء فيئه، وسجود الجبال فيئها".

وقال مجاهد:"الثوب يسجد".

قال الضحاك:"إذا فاء الفيئ لم يبق شيء من دابة ولا طائر إلا خر لله ساجدا".

عن عمرو بن دينار رضي الله عنه قال: "سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكي، فإذا هو طاوس! فقال: عجبت من بكائي؟ قلت: نعم، قال: ورب هذه البنية، إن هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له".

=

=

قوله تعالى: {وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ} [الحج: ١٨]، أي:"ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة".

قال الفراء:"من أهل الطاعة".

قال الطبري:"يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون بالله".

عن مجاهد: " {وكثير من الناس}، قال: المؤمنون".

عن طاوس رَحِمَهُ اللَّهُ في الآية، قال: "لم يستثن من هؤلاء أحدا حتى إذا جاء ابن آدم استثناه، فقال: {وكثير من الناس}، قال: والذي أحق بالشكر هو أكثرهم".

قوله تعالى: {وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} [الحج: ١٨]، أي:"وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه".

قال يحيى:"يعني: من لم يؤمن".

قال السمعاني:"هم الكافرون، وإنما حق عليهم العذاب هاهنا بترك السجود، ومعنى الآية: وكثير من الناس أبو السجود فحق عليهم العذاب".

قال الطبري: يقول: " وكثير من بني آدم حق عليه عذاب الله، فوجب عليه بكفره به، وهو مع ذلك يسجد لله ظله".

قال البغوي:"وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عَجَلَّ. والواو في قوله: {وكثير حق عليه العذاب} واو الاستئناف".

عن مجاهد:"{وكثير حق عليه العذاب}، وهو يسجد مع ظله".

قال النحاس:"ثم قال جل وعز: وكثير حق عليه العذاب وهذا مشكل من الإعراب. فيقال: كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل مثل: {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣١]، فزعم الكسائي والفراء أنه لو نصب لكان حسنا. ولكن اختير الرفع لأن المعنى: وكثير أبى السجود، وفي رفعه قول آخر، يكون معطوفا على الأول داخلا في السجود، لأن

=

=

السجود هاهنا إنما هو الانقياد لتدبير الله جل وعز من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح، وهذا يدخل فيه كل شيء".

قال مكي:"ارتفع «كثير» على العطف على من في قوله: {يسجد له من}، وجاز ذلك، لأن السجود هو التذلل والانقياد فالكفار الذين حق عليهم العذاب أذلاء تحت قدر الله وتدبيره فهم منقادون لما سبق فيهم من علم الله لا يخرجون عما سبق في علم الله فيهم وقيل ارتفع كثير بالابتداء وما بعده الخبر ويجوز النصب كما قال: {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣١] باضمار فعل كأنه قال واهان كثيرا حق عليه العذاب أو وخلق كثيرا حق عليه العذاب وشبه ذلك من الاضمار الذي يدل عليه المعنى وإنما اختير فيه الرفع عند الكسائي لأنه محمول على معنى الفعل لأن معناه وكثير أبى السجود".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]، أي:"وأيُّ إنسان يهنه الله فليس له أحد يكرمه".

قال الفراء:"يقول: ومن يشقه الله فما له من مسعد".

قال الطبري: يقول:"ومن يهنه الله من خلقه فيشقه، {فما له من مكرم} بالسعادة يسعده بها، لأن الأمور كلها بيد الله، يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء، ويشقي من أراد، ويسعد من أحب".

قال السمعاني:"أي: ومن يشقي الله فما له من مسعد، وقال بعضهم: ومن يهن الله: ومن يذله الله، فما له من إكرام، أي: لا يكرمه أحد".

قال يحيى:"{ومن يهن الله} فيدخله النار، {فما له من مكرم} يدخله الجنة".

قراءة ابن أبى عبلة: «فما له من مكرم»، يريد: من إكرام.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨]، أي:"إن الله يفعل في خلقه ما يشاء وَفْقَ حكمته".

=

قال الطبري: يقول:"إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد كرامته، لأن الخلق خلقه والأمر أمره، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]".

قال السمعاني:"أي: يكرم ويهين، ويشقي ويسعد، بمشيئته وإرادته، وهو اعتقاد أهل السنة".

قال البغوي:"أي: يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته".

عن علي -رضي الله عنه- أنه قيل له: "إن هاهنا رجلا يتكلم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله خلقك الله، لما يشاء أو لما شئت؟ قال: بل لما يشاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك الجنة حيث شاء أو حيث شئت؟ قال: بل حيث شاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف".

وهذه الآية فيها بيان لعظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته. بانقياد هذه العوالم العظمى له، وجريها على وفق أمره وتدبيره.

والاستفهام في قوله أَلَمْ تَرَ ... للتقرير. والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله تعالى آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته.

والسجود في اللغة: التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه. وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

والمراد به هنا: دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله تعالى وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تاما، وخضوعها له- عز وجل بكيفية هو الذي يعلمها. فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله تعالى ونفوض كيفية هذا السجود له تعالى.

قال الرازي: السؤال الثاني: ما السجود هاهنا قلنا فيه وجوه: أحدها: قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله: ثم

=

استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين [فصلت: ١١]، أن نقول له كن فيكون [النحل: ٤٠]، وإن منها لما يهبط من خشية الله [البقرة: ٧٤]، وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤]، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن [الأنبياء: ٧٩] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل هذا التأويل يبطله قوله: وكثير من الناس فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه: أحدها: أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عاما في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر، فهذا الشخص وإن كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر. وثانيها: أن نقطع قوله: وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن نقول تقدير الآية: ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، وإنما فعلنا ذلك لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه جميعا. الثاني: أن يكون قوله: وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: حق عليه العذاب، والثالث: أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب. وثالثها: أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعا يقول: المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين، فعنى بها في حق العقلاء، الطاعة وفي حق الجمادات

=

=

الانقياد ا.هـ

والمعنى: لقد علمت- أيها العاقل- أن الله تعالى يسجد له، ويخضع لسلطانه جميع من في السموات وجميع من في الأرض.

قال ابن عاشور: الآية جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه إلى قوله: لبئس المولى ولبئس العشير [الحج: ١٢، ١٣] ارتباط الدليل بالمطلوب فإن دلائل أحوال المخلوقات كلها عاقلها وجمادها شاهدة بتفرد الله بالإلهية. وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه.

وما وقع بين هاتين الجملتين استطراد واعتراض.

والرؤية: علمية. والخطاب لغير معين.

والاستفهام إنكاري. أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله بالإلهية. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء ﷺ والاستفهام تقريريا، لأن حصول علم النبيء ﷺ بذلك متقرر من سورة الرعد وسورة النحل ا.هـ

وقوله: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ عطف خاص على قوله: مَنْ فِي السَّماواتِ. ونص سبحانه عليها مفردا إياها بالذكر، لشهرتها، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب، فبين سبحانه أنها عابدة وساجدة لله، وليست معبودة.

وقوله تعالى: وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ عطف خاص على مَنْ فِي الْأَرْضِ ونص سبحانه عليها- أيضا- لأن بعضهم كان يعبدها، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام.

وقوله تعالى وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بيان الذين اهتدوا إلى طريق الحق.

أى: ويسجد له- كذلك- كثير من الناس، وهم الذين خلصت عقولهم من شوائب

=

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩).

{هَذَانِ خَصْمَانِ} أَيْ الْمُؤْمِنُونَ خَصْم وَالْكُفَّار الْخَمْسَة خَصْم وَهُوَ يُطْلَق عَلَى الْوَاحِد وَالْجَمَاعَة {اخْتَصَمُوا فِي رَبّهمْ} أَيْ فِي دِينه {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَاب مِنْ نَار} يَلْبَسُونَهَا يَعْنِي أحيطت بهم النار {يصب من فوق رؤوسهم الْحَمِيم} الْمَاء الْبَالِغ نِهَايَة الْحَرَارَة.

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠).

{يُصْهَر} يُذَاب {بِهِ مَا فِي بُطُونهمْ} مِنْ شُحُوم وَغَيْرهَا {وَ} تُشْوَى بِهِ {الْجُلُود}.

وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١).

=

الشرك والكفر، وطهرت نفوسهم من الأدناس والأوهام.

وقوله: وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى.

أى: وكثير من الناس حق وثبت عليهم العذاب، بسبب إصرارهم على الكفر، وإيثارهم الغي على الرشد.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بما يدل على نفاذ قدرته، وعموم مشيئته فقال: وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ. إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

و «من» شرطية، وجوابها: «فما له من مكرم» ومكرم اسم فاعل من أكرم.

أى: ومن يهنه الله ويخزه، فما له من مكرم يكرمه، أو منقذ ينقذه مما هو فيه من شقاء، إن الله تعالى يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب يحاسبه، أو معقب يعقب على حكمه.

قال تعالى: وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ.

{ولهم مقامع من حديد} لضرب رؤوسهم.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢).

{كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا} أَيْ النَّار {مِنْ غَمّ} يَلْحَقهُمْ بِهَا {أُعِيدُوا فِيهَا} رُدُّوا إِلَيْهَا بِالْمَقَامِعِ {وَ} قِيلَ لَهُمْ {ذُوقُوا عَذَاب الْحَرِيق} أَيْ الْبَالِغ نِهَايَة الْإِحْرَاق.

إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣).

وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ {إِنَّ الله يُدْخِل الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِر مِنْ ذَهَب وَلُؤْلُؤ} بِالْجَرِّ أَيْ مِنْهُمَا بِأَنْ يُرَصَّع اللُّؤْلُؤ بِالذَّهَبِ وَبِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلّ مِنْ أَسَاوِر {وَلِبَاسهمْ فِيهَا حَرِير} هُوَ الْمُحَرَّم لُبْسه عَلَى الرِّجَال فِي الدُّنْيَا.

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤).

{وَهُدُوا} فِي الدُّنْيَا {إِلَى الطَّيِّب مِنْ الْقَوْل} وَهُوَ لَا إِلَه إِلَّا الله {وَهُدُوا إِلَى صِرَاط الْحَمِيد} أَيْ طَرِيق الله الْمَحْمُودَة وَدِينه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي ذر؛ قال: نزلت (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وصاحبيه وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٦، ٣٩٦٨، ٣٩٦٩، ٤٧٤٣)، ومسلم (رقم ٣٠٣٣) من طريق أبي هاشم الرماني عن أبي مجلز عن قيس بن عباد سمعت أبا ذر =

=

(فذكره).

وأخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٥، ٣٩٦٧، ٤٧٤٤) من طريق سليمان التيمي عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن علي قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، وقال: فينا نزلت هذه الآية.

قال الحافظ في "فتح الباري" (٧/ ٢٩٧): "وحديث الباب مع الاختلاف عليه هل هو عن علي أو أبي ذر؟ والذي يظهر لي أنه -يعني: قيس- سمعه من كل منهما ويدل عليه اختلاف السياقين"، وهو كما قال.

ثم ذكر كلامًا قويًا حول هذا الاختلاف تراه في "الفتح" (٨/ ٤٤٤)؛ فانظره لزامًا.

ورد على من أعلّه بالاضطراب؛ كالدارقطني في "العلل" له.

ورد على الدارقطني -أيضًا- الإمام النووي في "شرح صحيح مسلم" (١٨/ ١٦٦). وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٩٩) بسند صحيح عن قيس به مرسلًا، والموصول أصح.

وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت هؤلاء الآيات: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)} في الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٩٩): ثنا ابن حميد ثنا سلمة بن الفضل ثني محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء به. وسنده ضعيف جدًا مع إرساله؛ لكن معناه صحيح تقدم في "صحيح البخاري"

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} قال: هم أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابًا، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من

=

=

كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدًا، فكان ذلك خصومتهم في ربهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ٩٩)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٢٠) وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن أبي العالية؛ قال لما التقوا يوم بدر؛ قال لهم عتبة بن ربيعة: لا تقتلوا هذا الرجل؛ فإنه إن يكن صادقًا؛ فأنتم أسعد الناس بصدقة، وإن يكن كاذبًا؛ فأنتم أحق من حقن دمه. فقال أبو جهل بن هشام: لقد امتلأت رعبًا. فقال عتبة: ستعلم أينا الجبان المفسد لقومه. قال: فبرز عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، فنادوا النبي ﷺ وأصحابه فقالوا: ابعث إلينا أكفاءنا نقاتلهم. فوثب غلمة من الأنصار من بني الخزرج، فقال لهم رسول الله ﷺ: "اجلسوا ... قوموا يا بني هاشم"؛ فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فبرزوا لهم، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم أن تكونوا أكفاءنا قاتلناكم. قال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب ... أنا أسد الله وأسد رسوله. فقال عتبة: كفء كريم! فقال علي: أنا علي بن أبي طالب ... فقال: كفء كريم! فقال عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث ... فقال عتبة: كفء كريم! فأخذ حمزة شيبة بن ربيعة، وأخذ علي بن أبي طالب عتبة بن ربيعة، وأخذ عبيدة الوليد. فأما حمزة؛ فأجاز على شيبة، وأما علي؛ فاختلفا ضربتين فأقام فأجاز على عتبة، وأما عبيدة؛ فأصيبت رجله. قال: فرجع هؤلاء وقتل هؤلاء، فنادى أبو جهل وأصحابه: لنا العزى ولا عزى لكم، فنادى منادي النبي ﷺ: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار؛ فأنزل الله: {هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ... }.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ١٩) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

=

=

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما بارز علي وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد، قالوا لهم: تكلموا نعرفكم. قال: أنا علي، وهذا حمزة، وهذا عبيدة. فقالوا: أكفاء كرام! فقال علي: أدعوكم إلى الله وإلى رسوله. فقال عتبة: هلم للمبارزة. فبارز علي شيبة؛ فلم يلبث أن قتله، وبارز حمزة عتبة فقتله، وبارز عبيدة الوليد فصعب عليه؛ فأتى علي فقتله؛ فأنزل الله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ١٩) ونسبه لابن مردويه.

وعن قتادة؛ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: إن كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم، فأفلج الله أهل الإسلام على من ناوأهم؛ فأنزل الله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} إلى قوله: {عَذَابَ الْحَرِيقِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٠) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن لاحق بن حميد؛ قال: نزلت هذه الآية يوم بدر: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ} في عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. ونزلت: {إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} إلى قوله: {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} في علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٠) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

=

=

* مقتضى سياق السورة واتصال آي السورة وتتابعها في النزول أن تكون هذه الآيات متصلة النزول بالآيات التي قبلها فيكون موقع جملة هذان خصمان موقع الاستئناف البياني. لأن قوله وكثير حق عليه العذاب [الحج: ١٨] يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حق على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك، فهي استئناف بياني. فاسم الإشارة المثنى مشير إلى ما يفيده قوله تعالى: وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب [الحج: ١٨] من انقسام المذكورين إلى فريقين أهل توحيد وأهل شرك كما يقتضيه قوله: وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب [الحج: ١٨] من كون أولئك فريقين: فريق يسجد لله تعالى، وفريق يسجد لغيره.

فالإشارة إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهد بالعين، ومثلها كثير في الكلام (ابن عاشور).

قوله تعالى: {هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج: ١٩]، أي:"هذان فريقان اختلفوا في ربهم: أهل الإيمان وأهل الكفر، كل يدَّعي أنه محقٌّ".

قال السمعاني:"أي: جادلوا في دينه وأمره".

و «الخصمان» ها هنا: فريقان، وفيهما أربعة أقوال:

أحدها: أنهما المسلمون والمشركون حين اقتتلوا في بدر، وهذا قول أبي ذر، وهلال بن يساف، وعطاء بن يسار.

الثاني: أنهم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتابا، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد ﷺ، وآمنا بنبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم تركتموه وكفرتم به حسدا. وكان ذلك خصومتهم في ربهم. وهذا قول ابن عباس، وقتادة.

الثالث: أنهم أهل الإيمان والشرك في اختلافهم في البعث والجزاء، وهذا قول

=

=

مجاهد، والحسن، وعطاء بن ابي رباح، وعاصم، والكلبي.

قال مجاهد:"مثل المؤمن والكافر اختصامهما في البعث".

قال ابن جريج:"خصومتهم في الدنيا من أهل كل دين، يرون أنهم أولى بالله من غيرهم".

الرابع: هما الجنة والنار اختصمتا، فقالت النار: خلقني الله لنقمته، وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته، وهذا قول عكرمة.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: عني بالخصمين جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا وجميع المؤمنين، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له، قد حق عليه العذاب، فقال: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر} ثم قال: {وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب}، ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما، فقال: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) وقال الله: {إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار} ؛ فكان بينا بذلك أن ما بين ذلك خبر عنهما.

فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما روي عن أبي ذر إن ذلك نزل في الذين بارزوا يوم بدر؟ قيل: ذلك إن شاء الله كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب، وهذه من تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خصم، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خصم".

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ} [الحج: ١٩]، أي:"فالذين

=

=

كفروا يحيط بهم العذاب في هيئة ثياب جُعلت لهم من نار يَلْبَسونها، فتشوي أجسادهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {قطعت لهم ثياب من نار} من نحاس، وليس من الآنية شيء إذا حمي اشتد بأحر منه".

عن إبراهيم التيمي، أنه قرأ قوله: {قطعت لهم ثياب من نار}، قال: "سبحان من قطع من النار ثيابا".

قوله تعالى: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} [الحج: ١٩]، أي:"ويُصبُّ على رؤوسهم الماء المتناهي في حره".

قال يحيى: {الْحَمِيمُ}: " هو الحار الشديد الحر".

قال ابن قتيبة: {الْحَمِيمُ} " أي: الماء الحار، {يصهر به ما في بطونهم} أي يذاب. يقال: صهرت النار الشحمة. والصهارة: ما أذيب من الألية".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {يصب من فوق رؤسهم الحميم}، قال: النحاس يذاب على رؤوسهم".

عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة، حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدمه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

وقال الرازي: ذكروا في تفسير الخصمين وجوها: أحدها: المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون في ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما يرجع إلى أهل الأديان الستة في ربهم أي في ذاته وصفاته وثانيها: روي أن أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا، فهذه خصومتهم في ربهم

=

=

وثالثها: روى قيس بن عبادة عن أبي ذر الغفاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة.

ورابعها: قال عكرمة: هما الجنة والنار قالت النار خلقني الله لعقوبته. وقالت الجنة خلقني الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد ﷺ ذلك، والأقرب هو الأول لأن السبب وإن كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره ا.هـ

قال ابن عاشور: والاختصام: افتعال من الخصومة، وهي الجدل والاختلاف بالقول يقال: خاصمه واختصما، وهو من الأفعال المقتضية جانبين فلذلك لم يسمع منه فعل مجرد إلا إذا أريد منه معنى الغلب في الخصومة لأنه بذلك يصير فاعله واحدا. وتقدم قوله تعالى: ولا تكن للخائنين خصيما في [سورة النساء: ١٠٥]. واختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين قد ملأ الفضاء جلبته، فالإخبار عن الفريقين بأنهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيدا للتفصيل في قوله فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار.

فالمراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين.

ووقع في «الصحيحين» عن أبي ذر: أنه كان يقسم أن هذه الآية هذان خصمان اختصموا في ربهم نزلت في حمزة وصاحبيه علي بن أبي طالب وعتبة بن الحارث الذين بارزوا يوم بدر شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وفي «صحيح البخاري» عن علي بن أبي طالب قال: إنا أول من يجثو بين يدي الرحمان للخصومة يوم القيامة قال قيس بن عبادة: وفيهم نزلت هذان خصمان اختصموا في ربهم. قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. وليس في كلام علي أن الآية نزلت في

=

=

يوم بدر ولكن ذلك مدرج من كلام قيس بن عبادة، وعليه فهذه الآية مدنية فتكون هـذان إشـارة إلـى فـريقين حاضـرين في أذهـان المخـاطبين فنـزل حـضور قـصتهما العجيبـة في الأذهـان منزلـة المـشاهدة حتـى أعيـد عليهـا اسـم الإشـارة الموضـوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البلغاء، ومنه قـول الأحنـف بـن قـيس: «خرجـت لأنصر هذا الرجل» يريد علي بن أبي طالب في قصة صفين.

والأظهر أن أبا ذر عني بنزول الآية في هؤلاء أن أولئك النفـر الـستة هـم أبـرز مثـال وأشهر فرد في هذا العموم، فعبر بالنزول وهو يريد أنهم ممن يقصد من معنى الآية. ومثل هذا كثير في كلام المتقدمين. والاختـصام على الوجه الأول حقيقـي وعلـى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا لأن الاختـصام في الـدين هو سبب تلك المبارزة.

واسم الخصم يطلق على الواحـد وعلـى الجماعـة إذا اتحـدت خـصومتهم كـما في قوله تعالى: وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحـراب [ص: ٢١] فلمراعـاة تثنيـة اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى ولمراعـاة العـدد أتي بـضمير الجماعـة في قوله تعالى: اختصموا في ربهم.

ومعنى في ربهم في شأنه وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر ا.هـ

أي: هذان خصمان اختصموا في ذات ربهم وفي صفاته، بأن اعتقـد كـل فريـق مـنهم أنه على الحق، وأن خصمه على الباطل.

قال الجمل: والخصم في الأصل مـصدر ولـذلك يوحـد ويـذكر غالبـا، وعليـه قولـه تعالى: وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ويجـوز أن يثنـى ويؤنـث، ولمـا كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قـال: اخْتَصَمُوا بـصيغة الجمـع كقولـه تعـالى: وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فالجمع مراعاة للمعنى.

وقوله سبحانه: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ ... تفصيل وبيان لحال كـل

=

=

خصم وفريق.

أي: فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله تعالى لهم من النار ثيابا، وألبسهم إياها.

قال الآلوسى: أى أعد الله لهم ذلك، وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم. ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة. وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوق بعض.. وعبر بالماضي، لأن الإعداد قد وقع، فليس من التعبير بالماضي لتحققه..ا.هـ.

وقوله: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ زيادة في عذابهم، أى: لم تقطع لهم ثياب من نار فحسب، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم «الحميم» أى: الماء البالغ أقصى درجات الشدة في الحرارة.

وقوله: يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ بيان للآثار التي تترتب على هذا العذاب.

قوله تعالى: {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} [الحج: ٢٠]، أي:"يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود".

قال الزجاج:"يغلى به ما في بطونهم حتى يخرج من أدبارهم، فهذا لأحد الخصمين".

قال يحيى: " {يصهر به}: يحرق به".

وقال الحسن: "يقطع به".

وقال مجاهد:"يذاب إذابة".

وقال الكلبي: "ينضح به".

قال ابن عباس:"يمشون وأمعاؤهم تساقط وجلودهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {يصهر به ما في بطونهم}، قال: تسيل أمعاؤهم والجلود، قال: تتناثر جلودهم حتى يقوم كل عضو بحياله".

=

=

قال السدي:"يأتيه الملك يحمل الإناء بكليتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه يكرهه فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه. فذلك قوله: {يصهر به ما في بطونهم والجلود}".

عن عطاء الخراساني قوله: " {يصهر به}، قال: يذاب كما يذاب الشحم".

قال سعيد بن جبير:"إذا جاء أهل النار في النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختنست جلود وجوههم، فلو إن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم بها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد سقطت عنه الجلود ويصهر به ما في بطونهم يمشون وأمعاؤهم تساقط وجلودهم".

والفعل «يصهر» مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة. يقال: صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه.

أى: فذلك الحميم الذي يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء. كما تذاب به جلودهم- أيضا- فقوله: وَالْجُلُودُ عطف على ما الموصولة في قوله ما فِي بُطُونِهِمْ أى: يذاب به الذي في بطونهم وتذاب به أيضا جلودهم.

وقيل: إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على «يصهر».

والتقدير: يصهر به ما في بطونهم من أحشاء وشحوم، وتحرق به الجلود. قالوا: وذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار.

قوله تعالى: {وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} [الحج: ٢١]، أي:"ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون".

قال يحيى: " يعني: من نار، يقمع رأسه بالمقمعة، فيحترق رأسه، فيصب في الحميم حتى يبلغ جوفه".

عن الضحاك قوله: " {ولهم مقامع}، قال: مطارق".

=

=

قال ابن عباس:"يضربون بها فيقع كل عضو على حياله".

قال سعيد بن جبير:"ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو علي حياله يدعون بالويل والثبور".

عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «لو إن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان، ما ألقوه من الأرض، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان».

روي أن أبا العوام، سادن بيت المقدس:"قرأ هذه الآية: {عليها تسعة عشر} [المدثر: ٣٠] فقال للقوم: ما تقولون تسعة عشر ملكا أو تسعة عشر ألف ملك؟ فقالوا: الله أعلم، فقال: هم تسعة عشر ملكا، بيد كل ملك مرزبة من حديد لها شعبتان، فيضرب بها الضربة فتهوي بها سبعون ألفا، أي من أهل النار".

والضمير في قوله سبحانه: وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذي تصهر به البطون.

والمقامع: جمع مقمعة- بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية-، وهي آلة تستعمل في القمع عن الشيء، والزجر عنه، يقال: قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله.

أى: وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رءوسهم زيادة في إذلالهم وقهرهم.

وقيل: إن الضمير في «لهم» يعود على خزنة النار. أى: ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء الكافرين.

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل تصوير.

وقوله سبحانه: كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها بيان لما يقابلون به عند ما يريدون التزحزح عن النار.

=

=

قوله تعالى: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [الحج: ٢٢]، أي:"كلما أراد اهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها".

قال: الحسن: "ترفعهم بلهبها، فإذا كانوا في أعلاها قمعتهم الملائكة بمقامع من حديد من نار، فيهوون فيها سبعين خريفا".

عن الفضيل بن عياش في الآية، قال: "والله ما طمعوا في الخروج، لأن الأرجل مقيدة والأيدي موثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها".

عن أبي جعفر القارئ، أنه قرأ هذه الآية: {كلما أرادوا إن يخرجوا منها من غم}، فبكى وقال: أخبرني زيد بن أسلم في هذه الآية إن أهل النار في النار لا يتنفسون".

قوله تعالى: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ٢٢]، أي:"وقيل لهم: ذوقوا عذاب النار المحرق".

قال الطبري: " ويقال لهم ذوقوا عذاب النار، وقيل عذاب الحريق والمعنى: المحرق، كما قيل: العذاب الأليم، بمعنى: المؤلم".

عن سلمان، قال: " النار (سوداء) مظلمة، لا يضيء جمرها ولا يطفى لهبها، ثم قرأ: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا (مِنْ غَمٍّ) أُعِيدُوا فِيهَا} وقيل لهم: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: ٢٢]".

قال الثعلبي:"معنى قوله {ذوقوا}: قاسوا واحتملوا. قال الشاعر:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر... من الغيظ في أكبادنا والتحوب

وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار تقول العرب: اركب هذا الفرس فذقه، وانظر فلانا فذق ما عنده. قال الشماخ في وصف قوس:

فذاق، فأعطته من اللين جانبا... كفى ولها أن يغرق السهم حاجز

وأصله من الذوق بالفم".

أي: كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكربها وسعيرها:

=

=

أعيدوا فيها مرة أخرى، كما قال تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ.

وقوله تعالى: وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ مقول لقول محذوف أى: أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار: ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم.

هذا هو حال فريق الكافرين. وهو حال يزلزل القلوب ويرهب المشاعر، ويفزع النفوس.

ولكن القرآن كعادته في قرن الترهيب بالترغيب. لا يترك النفوس في هذا الفزع، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حسن حال المؤمنين فيقول: إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ....

وغير سبحانه الأسلوب فلم يقل: والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا.. تعظيم لشأن المؤمنين، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم الكافرين.

أى: إن الله تعالى بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات، جنات عاليات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الحج: ٢٣]، أي:"إن الله تعالى يدخل أهل الإيمان والعمل الصالح جنات نعيمها دائم، تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري: يقول:"وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، فإن الله يدخلهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار".

قوله تعالى: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا} [الحج: ٢٣]، أي:"يُزَيَّنون فيها بأساور الذهب وباللؤلؤ".

قال الطبري:"فيحليهم فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا".

=

=

قال سعيد بن المسيب:"ليس من أهل الجنة أحد إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ".

عن ابن لهيعة، أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلا من أهل الجنة بدا إسواره لغلب على ضوء الشمس».

قرأ نافع وعاصم فى رواية أبى بكر {ولؤلؤا}، نصبا، وكان عاصم فى رواية يحيى عن أبى بكر يهمز الواو الثانية ولا يهمز الأولى، والمعلى عن أبى بكر عن عاصم يهمز الأولى ولا يهمز الثانية ضد رواية يحيى عن أبى بكر، وحفص عن عاصم {ولؤلؤا} يهمزهما، والمفضل عن عاصم «ولؤلؤ» خفضا ويهمزهما، وقرأ الباقون: «ولؤلؤ»، خفضا ويهمزونهما.

قوله تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣]، أي:"ولباسهم المعتاد في الجنة الحرير".

قال الطبري:"يقول: ولبوسهم التي تلي أبشارهم فيها ثياب حرير".

قال مقاتل:"مما يلي الجسد الحرير وأعلاه السندس والإستبرق".

قال ابن كثير:"في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» ".

عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»، قال ابن الزبير من قبل نفسه: ومن لم يلبسه في الآخرة لم يدخل الجنة، لأن الله تعالي قال: {ولباسهم فيها حرير}".

وقوله يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ بيان لما ينالون

=

=

في تلك الجنات من خير وفير، وعطاء جزيل.

اى: يتزينـون في تلـك الجنـات بأسـاور كائنـة مـن الـذهب الخـالص، ومـن اللؤلـؤ الثمين، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الناعم الفاخر.

قـال الآلوسـى: وقولـه تعـالى: وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ غيـر الأسـلوب حيـث لـم يقـل ويلبسون فيها حريرا، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمـر محقـق غنـى عـن البيـان.. ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة، وقيل هو باعتبـار الأغلـب، لمـا أخرجه النسائي وابن حيان وغيرهما عن أبى سعيد الخـدري قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الـدنيا لـم يلبسه في الآخـرة. وإن دخـل الجنـة لبسه أهـل الجنة ولـم يلبسه» ا.هـ.

قالوا: ومحله فيمن مات مصرا على ذلك.

وقوله تعالى: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ بيـان لحسن خاتمتهم، ولعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم.

قولـه تعـالى: {وَهُـدُوا إِلَـى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَـوْلِ} [الحـج: ٢٤]، أي:"أرشـدوا إلـى الكلام الطيب والقول النافع".

قال الطبري: يقول: " وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله".

عن ابن عباس:"{وهدوا إلى الطيب من القول}، قال: ألهموا".

وفي قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} [الحج: ٢٤]، وجوه:

أحدها: أنه: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا حـول ولاقـوة إلا بـالله. وهـو قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"هدوا إلى الكلام الطيب: لا إلـه إلا الله، والله أكـبر، والحمـد لله؛ قـال الله: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}".

الثاني: أنهم {هدوا إلى الطيب مـن القـول} في الخـصومة، إذ قـالوا: الله مولانـا ولا

=

=

مولى لكم. وهذا قول أبي العالية.

الثالث: أنه شهادة أن لا إله إلا الله. قاله ابن عباس، والكلبي.

قال مقاتل:"يعني: التوحيد وهو قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كقوله: {كَلِمَةً طَيِّبَةً} [إبراهيم: ٢٤]، يعنى: التوحيد".

الرابع: معناه: هدوا إلى الإخلاص. قاله إسماعيل بن ابي خالد.

الخامس: أنه الإيمان، وهو قول الحسن.

السادس: أنه القرآن، وهو قول قطرب.

السابع: أنه الأمر بالمعروف. ذكره الماوردي.

الثامن: أنه ما شكره عليه المخلوقون وأثاب عليه الخالق. افاده الماوردي.

التاسع: أنه البشارات الحسنة. حكاه النحاس.

العاشر: أنه قوله أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر: ٣٤]. حكاه النحاس.

الحادي عشر: القول الذي يثنى به الخلق، ويثيب عليه الخالق. حكاه السمعاني.

الثانية عشر: أن معناه على العموم. حكاه النحاس.

قال ابن كثير: أي:"فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا} [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُرَوّعون به ويقرعون به، يقال لهم: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}".

قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤]، أي:"وأرشدوا إلى الطريق الحميد".

قال الطبري: يقول: " وهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الرب الحميد، وطريقه: دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه".

قال يحيى:"قوله: {وهدوا}، يعني: في الدنيا، {إلى صراط الحميد}، وهو الله،

=

=

وهو كقوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} [الشورى: ٥٢] أي: إلى الجنة: {صراط الله} [الشورى: ٥٣] طريق الله الذي هدى له عباده المؤمنين إلى الجنة".

وفي قوله تعالى: {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤]، وجوه:

أحدها: الإسلام، قاله إسماعيل بن ابي خالد.

قال مقاتل:"يعنى: دين الإسلام {الحميد} عند خلقه، يحمده أولياؤه".

قال السمعاني:"أي: صراط الله، وصراط الله هو الإسلام".

الثاني: إلى المنازل الرفيعة. حكاه السمعاني.

الثالث: أنه ما حمدت عواقبه وأمنت مغبته. أفاده الماوردي.

قال ابن كثير: أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ» ".

أي: وهدى الله تعالى هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذي يرضى الله تعالى عنهم، كأن يقولوا عند دخولهم الجنة: ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ.

وهداهم- أيضا- خالقهم إلى الصراط المحمود، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأقوال الطيبة، ويفعلون الأفعال الحميدة.

قال الشوكانى: قوله: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ... أى: أرشدوا إليه. قيل: هو لا إله إلا الله. وقيل: القرآن. وقيل: هو ما يأتيهم من الله من بشارات. وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا، وهو قوله سبحانه: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ

=

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله} طاعته {وعن} الْمَسْجِد الْحَرَام الَّذِي جَعَلْنَاهُ} مَنْسَكًا وَمُتَعَبَّدًا {لِلنَّاسِ سواء العاكف} المقيم {فيه والباد} الطَّارِئ {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} الْبَاء زَائِدَة {بِظُلْمٍ} أَيْ بِسَبَبِهِ بِأَنْ ارْتَكَبَ مَنْهِيًّا وَلَوْ شَتَمَ الْخَادِمَ {نُذِقْهُ مِنْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم أَيْ بَعْضه وَمِنْ هَذَا يُؤْخَذ خَبَر إِنَّ أَيْ نُذِيقهُمْ مِنْ عَذَاب أَلِيم.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦).

{و} اذكر {إذ بوأنا} بينا {لِإِبْرَاهِيم مَكَان الْبَيْت} لِيَبْنِيَهُ وَكَانَ قَدْ رُفِعَ زَمَن الطُّوفَان وَأَمَرْنَاهُ {أَنْ لَا تُشْرِك بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِي} مِنْ الْأَوْثَان {لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ} الْمُقِيمِينَ بِهِ {وَالرُّكَّع السُّجُود} جَمْع رَاكِع وَسَاجِد المصلين.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧).

{وَأَذِّنْ} نَادِ {فِي النَّاس بِالْحَجِّ} فَنَادَى عَلَى جبل أبي قبيس يأيها النَّاس إِنَّ رَبّكُمْ بَنَى بَيْتًا وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجّ إِلَيْهِ فَأَجِيبُوا رَبّكُمْ وَالْتَفَتَ بِوَجْهِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا فَأَجَابَهُ كُلّ مَنْ كَتَبَ لَهُ أَنْ يَحُجّ مِنْ أَصْلَاب الرِّجَال

=

...

ومعنى: وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة، أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الإسلام.

وَأَرْحَام الْأُمَّهَات لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ وَجَوَاب الْأَمْر {يَأْتُوك رجالا} مشاة جمع راجل كقائم وقيام {و} ركبانا {على كل ضامر} أَيْ بَعِير مَهْزُول وَهُوَ يُطْلَق عَلَى الذَّكَر وَالْأُنْثَى {يَأْتِينَ} أَيْ الضَّوَامِر حَمْلًا عَلَى الْمَعْنَى {مِنْ كُلّ فَجّ عَمِيق} طَرِيق بَعِيد.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨).

{لِيَشْهَدُوا} أَيْ يَحْضُرُوا {مَنَافِع لَهُمْ} فِي الدُّنْيَا بالتجارة أو في الآخرة فِيهِمَا أَقْوَال {وَيَذْكُرُوا اسْم الله فِي أَيَّام مَعْلُومَات} أَيْ عَشْر ذِي الْحِجَّة أَوْ يَوْم عَرَفَة أَوْ يَوْم النَّحْر إلَى آخِر أَيَّام التَّشْرِيق أَقْوَال {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَة الْأَنْعَام} الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم الَّتِي تُنْحَر فِي يَوْم الْعِيد وَمَا بَعْده مِنْ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا {فَكُلُوا مِنْهَا} إذَا كَانَتْ مُسْتَحَبَّة {وَأَطْعِمُوا الْبَائِس الْفَقِير} أَيْ الشَّدِيد الْفَقْر.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩).

{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثهمْ} أَيْ يُزِيلُوا أَوْسَاخهمْ وَشَعَثهمْ كَطُولِ الظُّفُر {وَلْيُوفُوا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {نُذُورهمْ} مِنْ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا {وَلْيَطَّوَّفُوا} طَوَاف الْإِفَاضَة {بِالْبَيْتِ الْعَتِيق} أَيْ الْقَدِيم لِأَنَّهُ أَوَّل بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين: أحدهما: مهاجري، والآخر: من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة؛ فنزلت فيه: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}؛ يعني: من لجأ إلى الحرم {بِإِلْحَادٍ}؛ يعني: بميل عن الإسلام.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧)، و"لباب النقول" (ص ١٤٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

ثم رأينا الحافظ ابن كثير: ساق سنده في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٢٢٥): "وقال ابن أبي حاتم: ثنا أبو زرعة ثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ثنا ابن لهيعة ثنا عطاء بن دينار ثني سعيد بن جبير؛ قال: قال ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن لهيعة.

وعن مجاهد قال: كانوا لا يركبون؛ فأنزل الله: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ}؛ قال: فأمرهم بالزاد، ورخص لهم في الركوب والمتجر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٠٧) بسند صحيح إليه لكنه مرسل.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الحج: ٢٥]، أي:"إن الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم، ويمنعون الناس أن يدخلوا فى دين الله، ويصدون عن الدخول فى المسجد الحرام".

قال الطبري: يقول:"إن الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم، ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه، وعن المسجد الحرام".

قال الزجاج:"لفظ: «يصدون»: لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي، لأن معنى الذين كفروا الذين هم كافرون، فكأنه قال إن الكافرين والصادين".

قال القشيري:"الصد عن المسجد الحرام بإخافة السبل، وبغصب المال الذي لو بقي فى يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام".

قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ} [الحج: ٢٥]، أي:"الذي جعلناه لجميع المؤمنين".

=

=

قال الطبري: يقول:"الذي جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة لم يخصص منها بعضا دون بعض".

قال السمعاني:"أي: جعلناه للناس قبلة لصلاتهم، ومنسكا لحجهم".

قال الواحدي:"قال المفسرون: {جعلناه للناس}: خلقناه وبنيناه للناس كلهم، لم نخص به منهم بعضا دون بعض".

قوله تعالى: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [الحج: ٢٥]، أي:"سواء المقيم فيه والقادم إليه".

قال الطبري:"يقول: معتدل في الواجب عليه من تعظيم حرمة المسجد الحرام، وقضاء نسكه به، والنزول فيه حيث شاء العاكف فيه، وهو المقيم به؛ والباد: وهو المنتاب إليه من غيره".

قال مقاتل:"{العاكف فيه}، يعني: المقيم في الحرم وهم أهل مكة، {والباد}، يعني: من دخل مكة من غير أهلها".

قال الواحدي:"معنى: «البادي»: النازع إليه من غربة، من قولهم: بدا القوم إذا خرجوا من الحضر إلى الصحراء".

وفي قوله تعالى: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} [الحج: ٢٥]، وجهان:

أحدهما: أنهم سواء في دوره ومنازله، وليس العاكف المقيم أولى بها من البادي المسافر، وهذا قول مجاهد، وقتادة، وأبي صالح، وابن سابط، وابن زيد، وهو قول مَنْ منع بيع دور مكة كأبي حنيفة، وبه قال الزجاج.

قال الزجاج: أي:"أنه يستوي في سكنى مكة: المقيم بها والنازح إليها من أي: بلد كان".

قال الواحدي:"وإنما يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما بأحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أن لا يخرج أحد من بيته".

=

=

وقال ابن عباس:"يقول: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام".

قال قتادة:"سواء فيه أهله وغير أهله".

قال مجاهد:"أهل مكة وغيرهم في المنازل سواء".

قال أبو صالح:"العاكف: أهله، والباد: المنتاب في المنزل سواء".

قال ابن زيد:"العاكف فيه: المقيم بمكة؛ والباد: الذي يأتيه هم فيه سواء في البيوت".

قال ابن سابط:"كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم، وكان الرجل إذا وجد سعة نزل. ففشا فيهم السرق، وكل إنسان يسرق من ناحيته، فاصطنع رجل بابا، فأرسل إليه عمر:

أتخذت بابا من حجاج بيت الله؟ فقال: لا إنما جعلته ليحرز متاعهم، وهو قوله: {سواء العاكف فيه والباد} ، قال: الباد فيه كالمقيم، ليس أحد أحق بمنزله من أحد إلا أن يكون أحد سبق إلى منزل".

عن أبي حصين، قال: "قلت لسعيد بن جبير: أعتكف بمكة، قال: أنت عاكف. وقرأ: {سواء العاكف فيه والباد} ".

قال السمعاني: وعلى هذا القول: " أن المراد من الآية جميع الحرم، ومعنى التسوية: أن المقيم بمكة والجائي من مكة سواء في النزول، فكل من وجد مكانا فارغا ينزل، إلا أنه لا يزعج أحدا.

وكان عمر - رضي الله عنه - ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في زمان الموسم، وفي رواية: منعهم أن يتخذوا الأبواب فاتخذ رجل بابا فضربه بالدرة، وفي الخبر: أن دور مكة كانت تدعى السوائب، من شاء سكن، ومن استغنى أسكن، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها".

قال الواحدي:"ومن مذهب هؤلاء أن شراء دور مكة وبيعها حرام بالمسجد

=

=

الحرام على قولهم الحرم كله، كقوله: {أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام} [الإسراء: ١]".

الثاني: أنهما سواء في أن من دخله كان آمنًا، وأنه لا يقتل بها صيدًا ولا يعضد بها شجرًا. وهذا قول مجاهد ايضا، والحسن، وعطاء، وبه قال الطبري.

عن مجاهد، قوله:"{سواء العاكف فيه}، قال: الساكن، {والباد}، الجانب سواء حق الله عليهما فيه".

قال الواحدي: وعلى هذا القول" المراد بـ «المسجد الحرام»: عين المسجد الذي يصلى فيه، وظاهر القرآن يدل على هذا، والمراد باستواء العاكف والبادي فيه استواؤهما في تفضيله، وتعظيم حرمته، وإقامة المناسك به... وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به، ويدعون أنهم أربابه وولاته".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥]، أي:"ومن يرد في المسجد الحرام الميْلَ عن الحق ظلمًا فيَعْصِ الله فيه، نُذِقْه مِن عذاب أليم موجع".

قال الزجاج: " قيل: «الإلحاد» فيه: الشرك بالله، وقيل: كل ظالم فيه ملحد، وجاء عن عمر أن احتكار الطعام بمكة إلحاد.. ومعنى «الإلحاد» في اللغة: العدول عن القصد".

قال الأخفش:"معناه: ومن يرد إلحادا. وزاد «الباء» كما تزاد في قوله: {تنبت بالدهن} وقال الشاعر:

أليس أميري في الأمور بأنتما... بمالستما أهل الخيانة والغدر".

واختلفوا في معنى «الإلحاد»، هاهنا، على ثلاثة وجوه:

احدها: أنه الشرك وعبادة غير الله. هذا قول مجاهد، وقتادة، وعطاء، ومقاتل،

=

=

ويحي بن سلام.

قال قتادة:"هو الشرك من أشرك في بيت الله عذبه الله".

وقال الكلبي:"الإلحاد، الميل عن عبادة الله إلى الشرك".

الثاني: انه العمل السيء. قاله مجاهد -ايضا- -.

الثالث: أنه كل شيء منهي. حكاه الواحدي.

قال ابن عاشور: هذا مقابل قوله وهدوا إلى صراط الحميد [الحج: ٢٤] بالنسبة إلى أحوال المشركين إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار [الحج: ١٩] كما تقدم. فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني. والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله ا.هـ

وصح عطف المضارع وهو «يصدون» على الماضي وهو «كفروا» لأن المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو استقبال، وإنما المراد به مجرد الاستمرار، كما في قولهم: فلان يحسن إلى الفقراء، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه.

ويجوز أن يكون قوله وَيَصُدُّونَ ... خبرا لمبتدأ محذوف، أى: وهم يصدون عن المسجد الحرام. وخبر إن في قوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... محذوف لدلالة آخر الآية عليه.

والمعنى: إن الذين أصروا على كفرهم بما أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، واستمروا على منع أهل الحق من أداء شعائر دين الله تعالى، ومن زيارة المسجد الحرام..

هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا أليما.

ويصح أن يكون الخبر محذوفا للتهويل والإرهاب. وكأن وصفهم بالكفر والصد

=

=

كاف في معرفة مصيرهم المهين.

قال القرطبي: قوله تعالى: وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ قيل إنه المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن، لأنه لم يذكر غيره، وقيل الحرم كله، لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عنه عام الحديبية، فنزل خارجا عنه ... وهذا صحيح لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك ا.هـ.

وقوله سبحانه: الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ.. تشريف لهذا المكان حيث جعل الله تعالى الناس تحت سقفه سواء، وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه.

ولفظ «سواء» قرأه جمهور القراء بالرفع على أنه خبر مقدم، والعاكف: مبتدأ، والباد معطوفة عليه أي: العاكف والباد سواء فيه. أي مستويان فيه.

وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على أنه المفعول الثاني لقوله «جعلناه» بمعنى صيرناه.

أي: جعلناه مستويا فيه العاكف والباد. ويصح أن يكون حالا من الهاء في جَعَلْناهُ أي: وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد.

والمراد: بالعاكف فيه: المقيم فيه. يقال: عكف فلان على الشيء، إذا لازمه ولم يفارقه.

والباد: الطارئ عليه من مكان آخر. وأصله من يكون من أهل البوادي الذين يسكنون المضارب والخيام، ويتنقلون من مكان إلى آخر.

أي: جعلناه للناس على العموم، يصلون فيه، ويطوفون به، ويحترمونه ويستوي تحت سقفه من كان مقيما في جواره، وملازما للتردد عليه، ومن كان زائرا له وطارئا عليه من أهل البوادي أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة.

فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه

=

=

أحد منهم، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء.

مسألة: حكم بيع رباع مكة ودورها.

لا يختلف السلف على أن أماكن المناسك الخاصة لا يجوز بيعها؛ كالمطاف والمسعى ومرمى الجمار، وقد حكى الإجماع غير واحد؛ كابن عقيل وابن تيمية من أصحابنا، وكذلك: فإن مزارع مكة يجوز بيعها، وبه قال الجماهير، وقد حكى ابن تيمية الإجماع على ذلك، ولكن الفقهاء اختلفوا في دور مكة ومساكنها ورباعها؛ هل يجوز بيعها؟ على أقوال ثلاثة، هي ثلاثة أقوال عن مالك:

الأول: ذهب الشافعي: إلى جواز تملكها وبيعها؛ وذلك لما ثبت في "الصحيحين"، عن أسامة بن زيد؛ أنه قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل في دارك بمكة؟ فقال: (وهل ترك لنا عقيل من رباع، أو دور؟)، "وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي شيئا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين".

وقد جاء عن بعض الصحابة أنهم اشتروا من أرض مكة، كما اشترى عمر بن الخطاب من صفوان بن أمية داره بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم.

وروي عن عمر خلاف ذلك؛ وفيه نظر. وقد قال بهذا القول طاوس وعمرو بن دينار.

الثاني: مذهب جماعة من السلف؛ كعطاء ومجاهد، وبه قال أبو حنيفة وإسحاق: أنها لا تباع؛ وعلى هذا مشهور مذهب الحنابلة، واستدل لذلك بما رواه ابن ماجه؛ من حديث علقمة بن نضلة؛ قال "توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب؛ من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن". وهو مرسل ضعيف.

وبما روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (مكة مناخ؛ لا تباع

=

=

رباعها، ولا تؤاجر بيوتها) أخرجه الدارقطني، وفيه جهالة، وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو، ولا يصح رفعه.

وأما ما رواه أحمد وأهل "السنن"؛ من حديث عائشة؛ قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نبني لك بمنى بيتا أو بناء يظلك من الشمس؟ فقال: (لا، إنما هو مناخ من سبق إليه)، فهو في أماكن المناسك؛ فمنى من مواضع النسك كعرفة ومزدلفة والمسعى ومرمى الجمار: لا تملك، وإنما كلام الفقهاء عامته في رباع مكة، لا في مناسكها.

الثالث: مذهب أحمد: أنها تملك وتورث وتباع، لكنها لا تؤجر؛ فمن استغنى عنها أسكنها؛ وبهذا قال ابن تيمية.

وقال قوم بالكراهة، فأجازوا البيع على كراهة فيه؛ وهذا مروي عن مالك وغيره.

والأظهر: جواز بيع دور مكة ورباعها وإجارتها، وقد كان الصحابة ومن بعدهم يبنون دورا ويبيعونها ويؤجرونها، ولو كان النهي صريحا لجميع رباع مكة، لكان واردا بنص قطعي يجري عليه عمل الصحابة ولا يختلفون فيه، فقد كان بمكة جماعة من الصحابة، ولم يثبت عنهم القطع بذلك، ثم إن البيع كالميراث، وثبت أن أهل مكة يتوارثون، والإرث انتقال الملك من شخص لشخص، والبيع مثله ولكن باختلاف السبب، وفي المنع من بيع دور مكة ورباعها من الضيق والحرج ما الله به عليم.

والناس يتوارثون ويتبايعون مساكن مكة ودورها إلى اليوم، وعملهم الشائع في كل القرون عليه.

وقد بين الله عظمة الصد عن المسجد الحرام في مواضع؛ منها قوله تعالى: {وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون} [الأنفال: ٣٤].

وقوله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) تهديد لكل من

=

=

يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه في هذا المسجد الحرام.

والإلحاد الميل. يقال: ألحد فلان في دين الله، أي: مال وحاد عنه.

و «من» شرطية وجوابها «نذقه» ومفعول «يرد» محذوف لقصد التعميم. أي: ومن يرد فيه مرادا بإلحاد، ويصح أن يكون المفعول قوله بِإِلْحادٍ على أن الباء زائدة.

أي: ومن يرد في هذا المسجد الحرام إلحادا، أي: ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره، ولا يكتنه كنهه.

وقد جاء هذا التهديد في أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من ينوى ويريد الميل فيه عن دين الله، وإذا كان الأمر كذلك، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد، ومصيره أقبح.

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل، أو عن الخير إلى الشر كالاحتقار، والغش.

ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي ذكرناه من أن المراد بالظلم في هذا الموضع، كل معصية لله، وذلك لأن الله عم بقوله: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ ولم يخصص به ظلما دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له ا.هـ.

قال الشنقيطي: قال بعض أهل العلم: من هم أن يعمل سيئة في مكة، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك وإن لم يفعلها، بخلاف غير الحرم المكي من البقاع، فلا يعاقب فيه بالهم. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو أنَّ رجلًا أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذال الأليم. وهذا ثابت عن ابن

=

=

مسعود، ووقفه عليه أصح من رفعه.
والذين قالوا هذا القول استدلوا له بظاهر قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)} لأنه تعالى رتب إذاقة العذاب الأليم على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم: إن الباء في قوله: بإلحاد، لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم، أي: ومن يهمم فيه بإلحاد. وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله - ﷺ -: "ومن هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة" الحديث، وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر.
قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ} العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله مكة وغيرها.
والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزمًا مصممًا عليه أنَّها كارتكابه حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: "إذا الْتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه" فقولهم: ما بال المقتول سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنَّه لم يفعل القتل، فبين النبي ﷺ بقوله: "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه المسلم"، وقد قدمنا مرارًا أن إن المكسورة المشددة تدل على التعليل، كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه.
ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل بسبب طير أبابيل: {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ} لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم، فأهلكهم الله بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما

=

=

عزموا عليه. والعلم عند الله تعالى. والظاهر أن الضمير في قوله: {فِيهِ} راجع إلى المسجد الحرام، ولكن حكم الحرم كله في تغليظ الذنب المذكور كذلك. والله تعالى أعلم ا.هـ

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت وتطهيره فقال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا).

قوله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [الحج: ٢٦]، أي:"واذكر -أيها النبي- حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت".

قال ابن قتيبة:"أي: جعلنا له بيتا".

قال ابن كثير:"هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسسّتْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضعَ أول؟ قال: "المسجد الحرام". قلت: ثم أي؟ قال: "بيت المقدس". قلت كم بينهما؟ قال: "أربعون سنة".

وقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيم} الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥]".

طريق معمر عن قتادة، قال: "وضع الله البيت مع آدم حين اهبط الله آدم إلى الأرض، وكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعا، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم فشكا ذلك إلى الله فقال الله: «يا آدم، إني قد أهبط لك بيتا

=

=

يطاف به كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي فاخرج إليه» فخرج إليه آدم ومد له في خطوة، فكان بين كل خطوتين مفازة. فلم تزل تلك المفاوز بعد على ذلك. وأتى آدم فطاف به ومن بعده من الأنبياء.

قال معمر: وأخبرني أبان أن البيت أهبط ياقوتة واحدة أو درة واحدة. قال معمر: وبلغني إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا، حتى إذا أغرق الله قوم نوح فقد وأبقى أساسه، فبوأه الله لإبراهيم فبناه بعد ذلك. فذلك قوله: وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت قال معمر: قال ابن جريج: قال ناس: أرسل الله سبحانه سحابة فيها رأس، فقال الرأس: يا إبراهيم، إن ربك يأمرك إن تأخذ قدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها ويخط قدرها، قال الرأس: قد فعلت؟ قال: نعم. ثم ارتفعت فأبرز عن أساس ثابت في الأرض. قال ابن جريج: قال مجاهد: أقبل الملك والصرد والسكينة مع إبراهيم من الشام، فقالت السكينة يا إبراهيم، ريض على البيت قال: فلذلك لا يطوف البيت أعرابي ولا ملك من هذه الملوك، إلا رزيت عليه السكينة والوقار".

قوله تعالى: {أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا} [الحج: ٢٦]، أي:"أمرناه ببناء البيت العتيق خالصًا لله".

قال ابن كثير:"أي: ابْنه على اسمي وحدي".

قوله تعالى: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [الحج: ٢٦]، أي:"طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة".

قال ابن كثير:"أي: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، {وَالْقَائِمِينَ} أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: {وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين

بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثني من الصلاة

=

=

عند اشتباه القبلة وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم".

قال سهل بن عبد الله: "يعني طهر بيتي من الأوثان لعبادي الطاهرة قلوبهم من الشك والريب والقسوة، فكما أمر الله بتطهير بيته من الأصنام، فكذلك أمر بتطهير بيته الذي أودعه سر الإيمان ونور المعرفة، وهو قلب المؤمن، أمر الله تعالى المؤمن بتطهيره عن الغل والغش والميل إلى الشهوات والغفلة للطائفين فيه زوائد التوفيق والقائمين بأنوار الإيمان، والركع السجود، الخوف والرجاء، فإن القلب إذا لم يسكن خرب، وإذا سكنه غير مالكه خرب، فإذا أردتم أن تعمروا قلوبكم فلا تدعوا فيها غير الله، وإذا أردتم أن تعمروا ألسنتكم فلا تدعوا فيها غير الصدق، وإذا أردتم أن تعمروا جوارحكم فلا تدعوا فيها شيئا إلا بالسنة".

وبوأنا من التبوؤ بمعنى النزول في المكان. يقال: بوأته منزلا أى: أنزلته فيه، وهيأته له، ومكنته منه.

والمعنى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام، وأرشدناه إليه، لكي يبنيه بأمرنا، ليكون مثابة للناس وأمنا.

وقد اختلف العلماء فيمن بنى البيت أولًا على أقوال، أشهرها:

منهم من قال: إنهم الملائكة – وهو قول أبي جعفر الباقر .

ومنهم من قال: إنه آدم عليه السلام – وهو قول عطاء وسعيد بن المسيب، وممن قال به: ابن الجوزي وابن حجر، ويرجحه الشنقيطي.

وذهبت طائفة إلى أنه إبراهيم عليه السلام – وهو قول ابن تيمية وابن القيم وابن كثير ويرجحه العلامة العثيمين.

و «أن» في قوله تعالى: أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا مفسرة، والتفسير – كما يقول الآلوسي – باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة، فكأنه قيل: أمرنا إبراهيم بالعبادة، وذلك فيه معنى القول دون حروفه، أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ.

=

=

والمعنى: واذكر- أيها المخاطب- وقت أن هيأنا لإبراهيم- عليه السلام- مكان بيتنا الحرام، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا، وبإخلاص العبادة لنا، كما أوصيناه- أيضا- بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات، وأن يجعله مهيأ للطائفين به، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة.

قال الشوكاني: والمراد بالقائمين في قوله: وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ المصلون..

وذكر الرُّكَّعِ السُّجُودِ بعده، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة، وقرن الطواف بالصلاة، لأنهما لا يشرعان إلا في البيت، فالطواف عنده والصلاة إليه.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام، قذر من الأقذار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية، فلا يترك فيه أحد يرتكب مالا يرضى الله، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات.

ثم ذكر سبحانه ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، يَأْتُوكَ رِجالًا. وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ} [الحج: ٢٧]، أي:"ونادِ في الناس داعيًا لهم لحج بيت الله العتيق".

قال الطبري: يقول: " عهدنا إليه أيضا أن أعلم وناد في الناس أن حجوا أيها الناس بيت الله الحرام".

قال ابن كثير:"أي: ناد في الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه".

قال ابن عباس:"يعني بـ «الناس»: أهل القبلة، ألم تسمع أنه قال: {إن أول بيت

=

=

وضع للناس للذي بمكة مباركا} ... [إلى قوله: {ومن دخله كان آمنا}]، يقول: ومن دخله من الناس الذين أمر أن يؤذن فيهم، وكتب عليهم الحج، فإنه آمن، فعظموا حرمات الله تعالى، فإنها من تقوى القلوب".

قوله تعالى: {يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} [الحج: ٢٧]، أي:"يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركبانا على جمل هزيل قد أعبه وأنهكه بعد المسافة".

قال ابن قتيبة:"أي: رجالة، جمع «راجل»، مثل: صاحب وصحاب، {وعلى كل ضامر} أي: ركبانا على ضمر من طول السفر".

قال الطبري:"يقول: فإن الناس يأتون البيت الذي تأمرهم بحجه مشاة على أرجلهم، وركبانا على كل ضامر، وهي الإبل المهازيل".

عن ابن عباس: قوله: " {يأتوك رجالا} ، قال: مشاة"، -وفي رواية:"على أرجلهم" -، قوله: {وعلى كل ضامر} ، قال: الإبل".

قال ابن عباس:"ما آسى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججت ماشيا، سمعت الله يقول: {يأتوك رجالا} ".

قال مجاهد:"حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين".

قال ابن كثير:"قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام".

قوله تعالى: {يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧]، أي:"تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد".

قال ابن عباس:"يعني: من مكان بعيد". وروي عن قتادة مثله.

قال ابن قتيبة:"أي: بعيد غامض".

=

=

قال الطبري:"يقول: تأتي هذه الضوامر من كل طريق ومكان ومسلك بعيد".

قال ابن كثير:"{كُلِّ فَجٍّ}، يعني: طريق، كما قال: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا} [الأنبياء: ٣١]، وقوله: {عَمِيقٍ} أي: بعيد".

قال ابن كثير:"وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار".

قال القرطبي:"ورد الضمير إلى «الإبل» تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها، كما قال: {والعاديات ضبحا} [العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله".

قال ابن عباس:"لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: {أذن في الناس بالحج}، قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي البلاغ فنادى إبراهيم: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا- قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون".

قال ابن عباس:"قام إبراهيم خليل الله على الحجر، فنادى: يا أيها الناس كتب عليكم الحج، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن من سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك".

قال سعيد بن جبير:"لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أوحى الله إليه، أن أذن في الناس بالحج، قال: فخرج فنادى في الناس: يا أيها الناس أن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فلم يسمعه يومئذ من إنس، ولا جن، ولا شجر، ولا أكمة، ولا تراب، ولا جبل، ولا ماء، ولا شيء إلا قال: لبيك اللهم لبيك".

قال مجاهد:"قام إبراهيم على مقامه، فقال: يا أيها الناس أجيبوا ربكم، فقالوا:

=

=

لبيك اللهم لبيك، فمن حج اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم يومئذ".

قال عكرمة: "لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قام على المقام، فنادى نداء سمعه أهل الأرض: إن ربكم قد بنى لكم بيتا فحجوه، قال داود: فأرجو من حج اليوم من إجابة إبراهيم عليه السلام".

والآذان: الإعلام. و «رجالا» أي: مشاة على أرجلهم، جمع راجل.

يقال: رجل بزنة فرح فلان يرجل فهو راجل إذا لم يكن معه ما يركبه.

والضامر: المهزول من الإبل أو الخيل من طول السفر، وهو اسم فاعل من ضمر- بزنة قعد- يضمر ضمورا فهو ضامر، إذا أصابه الهزال والتعب.

وقد أخذ بعضهم من تقديم الله للراجلين على الراكبين فضل المشي على الركوب في المناسك، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

فمنهم: من فضل المشي؛ لتقديم الآية، ولكونه أكثر نصبا؛ فقد قال النبي ﷺ لعائشة لما أهلت من التنعيم: (ولكنها على قدر نصبك)، وهذا قول للشافعي وإسحاق.

ومنهم: من فضل الركوب؛ وهذا قول مالك وأبي حنيفة.

والأظهر: أن الفضل يعود إلى العمل؛ فمن كان أداؤه للعبادة والنسك أفضل حال ركوبه، فيركب، ومن كان أداؤه لها أفضل حال مشيه، فالمشي أفضل؛ وذلك أن من الناس في دفعه من عرفة من يزدحم الناس عليه ويخشى التأخر في وصوله إلى عرفة إن لم يركب، فركوبه أفضل من مشي يتأخر به، ومثله لو كانت المراكب مزدحمة ويتأخر لو ركب، فالأفضل له أن يمشي ليصل على الوقت المشروع.

ومثل ذلك التعب والنصب؛ فمن رأى أنه إن مشى، ضعف في العبادة ولم يؤدها كما جاءت بها السنة، فركوبه أفضل، والناس يختلفون في ذلك.

وقد سار النبي ﷺ من ذي الحليفة محرما على راحلته، وعليها أهل وكبر وحمد

=

=

وسبح.

وجملة «يأتين من كل فج عميق» صفة لقوله «كل»، والجمع باعتبار المعنى. كأنه قيل:

وركبانا على ضوامر من كل طريق بعيد..

والفج في الأصل: الفجوة بين جبلين، ويستعمل في الطريق المتسع. والمراد به هنا: مطلق الطريق وجمعه فجاج.

والعميق: البعيد، مأخوذ من العمق بمعنى البعد، ومنه قولهم: بئر عميقة، أى: بعيدة الغور.

والمعنى: وأعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة، من كل مكان بعيد.

قال ابن كثير: أى: ناد- يا إبراهيم- في الناس داعيا إياهم إلى الحج الى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم؟

فقيل: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل:

على أبى قبيس، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك» ا.هـ.

وقيل: إن الخطاب في قوله تعالى: وَأَذِّنْ ... للرسول ﷺ وأن الكلام عن إبراهيم- عليه السلام قد انتهى عند قوله تعالى: وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

وجمهور المفسرين على أن الخطاب لإبراهيم- عليه السلام لأن سياق الآيات يدل

=

=

عليه، ولأن التوافد على هذا البيت موجود منذ عهد إبراهيم.

وما يزال وعد الله يتحقق منذ هذا العهد الى اليوم وإلى الغد، وما تزال أفئدة ملايين الناس تهوى إليه، وقلوبهم تنشرح لرؤيته، وتسعد بالطواف من حوله ...

وقوله سبحانه: (لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ متعلق بقوله: يَأْتُوكَ).

قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحج: ٢٨]، أي:"ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية".

وفي قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحج: ٢٨]، وجوه:

أحدها: أنه شهود المواقف وقضاء المناسك.

الثاني: أنها المغفرة لذنوبهم، قاله محمد بن علي، والضحاك.

الثالث: أنها التجارة في الدنيا والأجر في الآخرة، وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"التجارة، وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة".

الرابع: أنها التجارة ومنافع الدنيا. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي رزين.

قال ابن عباس: "هي الأسواق".

قال الطبري:"وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عم لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت".

قال الفخر:"إنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات".

قوله تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} [الحج: ٢٨]، أي:"ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر".

=

=

قال الطبري: يقول:"وكي يذكروا اسم الله.. في أيام معلومات هن أيام التشريق في قول بعض أهل التأويل. وفي قول بعضهم أيام العشر. وفي قول بعضهم: يوم النحر وأيام التشريق".

وفي «الأيام المعلومات» ستة أقوال:

أحدها: أنها أيام العشر، قاله ابن عمر، وابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والشافعي.

قال ابن عباس:"هي عشر ذي الحجة آخرها يوم النحر".

الثاني: تسعة أيام من العشر، قاله أبو موسى الأشعري.

الثالث: يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده، رواه نافع عن ابن عمر، ومقسم عن ابن عباس.

الرابع: أنها أيام التشريق، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء الخراساني، والنخعي، والضحاك.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده".

وروي عن ابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال:"الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالمعلومات يوم النحر ويومان بعده، والمعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر".

الخامس: أنها خمسة أيام، أولها يوم التروية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

السادس: ثلاثة أيام، أولها يوم عرفة، قاله مالك بن أنس.

وروي عن ابن عباس، قال:"قبل يوم التروية بيوم ويوم التروية ويوم عرفة".

قال الزجاج:"يعنى به: يوم النحر والأيام التي بعده ينحر فيها، لأن «الذكر» - ههنا- يدل على التسمية على ما ينحر لقوله: {على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}".

قال ابن الجوزي:"قيل: إنما قال: «معلومات»، ليحرص على علمها بحسابها من

=

=

أجل وقت الحج في آخرها".

قوله تعالى: {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} [الحج: ٢٨]، أي:"شكرًا لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام".

قال الطبري: يقول:"على ما رزقهم من الهدايا والبدن التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم".

قال الماوردي:"يعني: على نحر ما رزقهم نحره من بهيمة الأنعام، وهي الأزواج الثمانية من الضحايا والهدايا".

قال ابن كثير:"{بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}، يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [الأنعام: ١٤٣]".

عن الضحاك:"{على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}، يعني: البدن".

قال الفخر:"كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان".

قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا} [الحج: ٢٨]، أي:"كلوا من لحوم الأضاحي".

قال الطبري:"يقول: كلوا من بهائم الأنعام التي ذكرتم اسم الله عليها أيها الناس هنالك. وهذا الأمر من الله جل ثناؤه أمر إباحة لا أمر إيجاب، وذلك أنه لا خلاف بين جميع الحجة أن ذابح هديه أو بدنته هنالك، إن لم يأكل من هديه أو بدنته، أنه لم يضيع له فرضا كان واجبا عليه، فكان معلوما بذلك أنه غير واجب".

قال السمعاني:"هذا أمر إباحة، وليس بأمر إيجاب، وقال بعضهم: هو أمر (ندب)، ويستحب أن يأكل منها".

قال عطاء:"كان لا يرى الأكل منها واجبا".

=

=

قال مجاهد وهشيم وعطاء:"هي رخصة: إن شاء أكل، وإن شاء لم يأكل".

قال مجاهد:"إن ابن مسعود كان [يقول] للذي يبعث بهديه معه: كل ثلثا وتصدق بالثلث، وأهد لآل عتبة ثلثا".

وفي رواية عن الحجاج بن أرطاة:"أن عبد الله بن مسعود بعث بهدي مع علقمة وأمره أن يأكل هو وأصحابه ثلثا، وأن يبعث إلى أهل عتبة بن مسعود ثلثا وأن يطعم المساكين ثلثا".

قال جابر بن عبد الله:"نحر رسول الله ﷺ من كل جزور بضعة، فجعلت في قدر فأكل رسول الله ﷺ وعلي من اللحم وحسوا من المرق. قال سفيان: لأن الله يقول: فكلوا منها".

وقال سعيد بن المسيب:"ليس لصاحب البدنة منها إلا ربعها".

وقال الحسن:"لا يطعم من الأضحية أقل من الربع".

عن نافع، عن ابن عمر أنه كان يطعم من بدنه.... يأكل لا يرى بذلك بأسا".

قوله تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: ٢٨]، أي:"وأطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة، والفقير الذي أضعفه الإعسار".

قال الطبري:"يقول: وأطعموا مما تذبحون أو تنحرون هنالك من بهيمة الأنعام من هديكم وبدنكم البائس، وهو الذي به ضر الجوع والزمانة والحاجة، والفقير: الذي لا شيء له".

قال يحيى بن سلام:"وأطعموا منها وكلوا منها، هما سواء لا يرى بأسا أن يطعم منها قبل أن يأكل".

عن ناعم مولى أم سلمة:"أنه حضر عليا بالكوفة يوم أضحى، فخطب ثم نزل، فاتبعته، فدعا بتيس فذبحه، فذكر اسم الله ثم قال: عن علي وعن آل علي، ثم لم يبرح حتى قسم لحمه ففضل منه شيء فبعثه إلى أهله".

=

=

عن الحسن قال،:"هي مقدمة مؤخرة {فكلوا منها وأطعموا} [الحج: ٢٨] وأطعموا منها وكلوا، لا بأس أن يطعم منها قبل أن يأكل وإن شاء لم يأكل منها".

عن عائشة ابنة سعد بن مالك:"أن أباها كان يأكل من بدنته قبل أن يطعم".

وفي الأكل والإطعام ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الأكل والإطعام واجبان لا يجوز أن يخل بأحدهما، وهذا قول أبي الطيب بن سلمة.

والثاني: أن الأكل والإطعام مستحبان، وله الاقتصار على أيهما شاء وهذا قول أبي العباس بن سريج.

والثالث: أن الأكل مستحب والإطعام واجب، وهذا قول الشافعي، فإن أطعم جميعها أجزأه، وإن أكل جميعها لم يُجْزه، وهذا فيما كان تطوعًا، وأما واجبات الدماء فلا يجوز أن نأكل منها.

وفي معنى: {الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: ٢٨]، وجوه:

أحدها: أن الفقير المحتاج الذي به زمَانةٌ، وهو قول قتادة.

الثاني: الفقير الذي به ضر الجوع.

الثالث: أن البائس: الذي ظهر عليه أثر البؤس، والفقير: المتعفف. قاله عكرمة.

وقال عكرمة:"البائس المضطر الذي عليه البؤس، والفقير الضعيف".

الرابع: أنه الذي يمد يده بالسؤال. قاله مجاهد أيضا.

وقال مجاهد:"الذي يبسط يديه".

الخامس: معناه: الضعيف الفقير. رواه أبو يحيى عن مجاهد.

السادس: أنه القانع. قاله ابن زيد.

السابع: أنه الذي يؤنف عن مجالسته.

قال السمعاني:"البائس هو الذي اشتد بؤسه، والبؤس: العدم، والفقر معلوم

=

=

المعنى".

قال ابن كثير:"استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها ".

وقال عبد الله بن وهب: "قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: {فَكُلُوا مِنْهَا}: قال ابن وهب وسألت الليث، فقال لي مثل ذلك".

وقال إبراهيم:"كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل".

أى: يأتيك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد، ليشهدوا وليحصلوا منافع عظيمة لهم في دينهم وفي دنياهم.

ومن مظاهر منافعهم الدينية: غفران ذنوبهم، وإجابة دعائهم، ورضا الله تعالى عنهم.

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية: اجتماعهم في هذا المكان الطاهر، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء وغير ذلك من أنواع المعاملات التي أحلها الله تعالى.

وجاء لفظ «منافع» بصيغة التنكير، للتعميم والتعظيم والتكثير. أى: منافع عظيمة وشاملة لأمور الدين والدنيا، وليس في الإمكان تحديدها لكثرتها، وقوله وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ معطوف على قوله لِيَشْهَدُوا.

والمراد بالأيام المعلومات: الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة، أو هي أيام النحر، أو يوم العيد وأيام التشريق. والمراد ببهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

=

=

أى: ليشهدوا منافع لهم، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته في تلك الأيام المباركة. وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التي يتقربون إليه سبحانه عن طريق ذبحها وإراقة دمائها، واستجابة لأمره- ﷻ.

وقوله سبحانه: فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ إرشاد منه تعالى إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها.

أى: فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها، وأطعموا منها الإنسان البائس، أى: الذي أصابه بؤس ومكروه بجانب فقره واحتياجه.

قال الآلوسى: والأمر في قوله فَكُلُوا مِنْها ... للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعا، وقد قالوا: إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدل على سبق النهى قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا».

وقيل: لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها ا.هـ.

مسألة: في قوله تعالى: {فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير}: فيه مشروعية الأكل من الهدي وإطعام الفقير؛ كما فعل رسول الله ﷺ حيث نحر هديه بيده ثم أكل منه لما طبخ له وشرب من مرقه، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر أن يوضع من كل هدي ذبحة قطعة في قدر فيطبخ ليطعم من جميعه، مع أنه ساق مئة من الإبل ونحر بيده ثلاثا وستين، وجعل عليا ينحر ما بقي منها؛ كما جاء في "الصحيح"؛ من حديث جابر.

وأفضل الإطعام أن يكون للأشد فقرا؛ كما قال تعالى: {وأطعموا البائس الفقير}، والبائس: المضطر الذي طهر بؤسة مع فقره، وهو قدر زائد عن مجرد الفقر.

ويستحب الأكل من الهدي كله واجبه ومستحبه عند عامة السلف وجماهير العلماء.

=

=

خلافا للشافعي؛ فقد ذهب الى أنه لا يأكل المهدي من لحم هديه الواجب؛ لأنه هدي وجب بالإحرام، فلم يجز الأكل منه؛ كدم الكفارة، وأجاز الأكل من هدي التطوع فقط.

وهذا يخالف ما ثبت في السنة، فلم يفرق النبي ﷺ بين الهدي الواجب والمستحب، ولا علم أصحابه ذلك مع كثرة هديهم ودخول بعضه في بعض.

ولا يأكل المهدي من جزاء صيده وفدية أذاه.

وذهب بعضهم: إلى وجوب الأكل من الهدي والأضحية؛ لظاهر الأمر في الآية، وهو قول لأحمد.

والأظهر: الاستحباب؛ لأن الله إنما أمر بذلك؛ لأن العرب كانت تعتقد حرمة الأكل من هديهم، فجاء الأمر رافعا لما توهموه من حظر، لا موجبا لحكم، وفرق بين أمر جاء عند استواء الأمرين بين حظر وإباحة، وبين أمر جاء بعد حظر، فالأمر وحده بعد الحظر لا يفيد الوجوب إلا بغيره من عمل وقرينة أخرى.

* وأخذ بعض الفقهاء من قول الله تعالى: {فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير} نقسيم الهدي والأضحية إلى نصفين: نصف يطعمه صاحب الهدي وأهل بيته، ونصف للفقراء.

وذهب جماعة: إلى أنه يقسم ثلاثة أقسام؛ أخذا من قوله تعالى: {فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر} [الحج: ٣٦]؛ وبه قال ابن مسعود وابن عمر، وإليه ذهب أحمد والشافعي.

والتقسيم ثلاثا أصح، ولم يصح عن أحد من الصحابة تقسيم الهدي إلى نصفين.

وقد روى نافع، عن ابن عمر؛ قال: "الضحايا والهدايا ثلث لأهلك، وثلث لك، وثلث للمساكين"؛ رواه ابن حزم.

وروى ابن أبي شيبة والطبراني، عن علقمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه: "كان يبعث

=

=
بالبدن مع علقمة، ولا يمسك عما يمسك عنه المحرم، ثم يأمره إذا بلغت محلها أن يتصدق ثلثا، ويأكل ثلثا، ويبعث إلى ابن أخيه عند الله بن عتبة بن مسعود ثلثا".
وهي صحيحة، ويروى في ذلك من حديث ابن عباس في صفة أضحية النبي ﷺ، قال: (ويطعم أهل بيته الثلث، ويطعم فقراء جيرانه الثلث، ويتصدق على السؤال بالثلث).
ويروى عند مسدد في "مسنده"؛ من حديث إبراهيم مؤذن أهل المدينة، عن أبيه؛ قال: "شهدت أبا هريرة رضي الله عنه بالمصلى قال لرجلين: ما عندكما ما تضحيان به؟ قالا: لا، فانطلق بهما الى منزله وأخرج شاته، قال تقبل الله من أبي هريرة ومن فلان وفلان، ثم أخذ كبدها أو شيئا منها، فأكلوا منها، ثم حزأها ثلاثة أجزاء، فانقلب الرجلان بثلثيها، ودخل بيت أبي هريرة رضي الله عنه الثلث" ؛ وفيه جهالة.
وكان السلف يفتون بذلك في العقيقة أيضا؛ كما روى عبد القدوس، عن عطاء ومجاهد؛ أنهما قالا: "كانوا يقولون في العقيقة: ثلث للجيران، وثلث للمساكين، وثلث لأهل البيت"؛ أخرجه أبو طاهر السلفي في "المشيخة البغدادية".
واختلف في القدر الذي تقسم عليه الأضحية والهدي: هل تقسم أثلاثا أم ثلاثا؟ فلا يلزم من كل تثليت أن يكون أثلاثا، كما لا يلزم من التشطير تساوي القدر في الاثنين، ولا يظهر أن السلف يتكلفون الوزن، والأظهر: أن تقسيم الهدي والأضحية يكون بحسب الحال؛ فإن تقاربت حال المضحي والمهدي من حال غيره الذي يهديه أو يتصدق عليه، فإنه يقسمها أثلاثا، وإن كانت الحاجة في إحدى الجهات أشد، فإنه يقسمها ثلاثا لا أثلاثا، ويزيد في الجهة المحتاجة.
ولا حد لقدر كل قسم يلزم معه تساويها؛ وذلك أنه قد تكون الحاجة إلى الإطعام أشد من الأكل، والحاجة إلى الأكل أشد من الإطعام، فيزيد في هذا، وينقص من هذا؛ وذلك لما جاء عند الترمذي من حديث بريدة؛ أن النبي ﷺ قال: (كلوا ما بدا
=

=

لكم، وأطعموا وادخروا)، وأصله في مسلم، وجاء في "الصحيحين"، من حديث عائشة بلفظ: (فكلوا وادخروا وتصدقوا)، وعندهما من حديث جابر، وفيه: (كلوا وتزودوا)، وعندهما من حديث سلمة بن الأكوع، وفيه: (كلوا وأطعموا وادخروا)، وهو كما قال مالك: "لا حد فيما يأكل ويتصدق ويطعم الفقراء والأغنياء؛ إن شاء نيئا، وإن شاء مطبوخا".

وظاهر عمل النبي ﷺ: التوسعة في الأضحية من المأكول والمتصدق به والمهدى منه، وقد روى مسلم في "صحيحه"، عن ثوبان؛ قال: ذبح رسول الله ﷺ ضحيته، ثم قال: (يا ثوبان، أصلح لحم هذه)، فلم أزل أطعمه منها حتى قدم المدينة.

وأما ما جاء في حديث عائشة، عند أبي داود؛ من طريق مالك -وهو في "موطئه" - عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة، وفيه أن النبي ﷺ قال: (ادخروا الثلث، وتصدقوا بما بقي)، فالأظهر: أنه تصحيف، واللفظ: (ادخروا لثلاث)؛ يعني: لثلاثة أيام، وليس (الثلث)؛ لمناسبة السياق، والحديث في مسلم؛ من طريق مالك؛ قال ﷺ: (ادخروا ثلاثا، ثم تصدقوا بما بقي).

وفقه مالك يخالف ذكر الثلث، وهذا من قرائن تحريفها، وإن كانت في نسخ عتيقة؛ فهذا يقع مثله في كتب السنة؛ وقد تكلم عليه الأئمة النقاد.

ومن الفقهاء: من أوجب التصدق من لحم الأضحية إن كانت تطوعا، ولو قليلا بما يطلق علبه اسم الصدقة؛ وهو قول في مذهب أحمد، وهو الصحيح من مذهب الشافعية وقول جمهورهم المتقدمين، والأفضل عندهم: التصدق بأكثرها.

ثم بين سبحانه ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

قوله تعالى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ} [الحج: ٢٩]، أي:"ثم ليكمل الحجاج ما بقي عليهم من النُّسُك، بإحلالهم وخروجهم من إحرامهم، وذلك بإزالة ما تراكم مِن

=

=

وسخ في أبدانهم، وقص أظفارهم، وحلق شعرهم".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ} [الحج: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: مناسك الحج، وهو قول ابن عباس، وابن عمر.

عن ابن عباس، قوله: " {ثم ليقضوا تفثهم}، يقول: نسكهم". وفي رواية:"قضاء النسك كله".

قال ابن عمر:"التفث: المناسك كلها".

الثاني: يعني: حلق الرأس، قاله الحسن، والضحاك، وقتادة، قال أمية بن أبي الصلت:

حفوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثًا... ولم يسلوا لهم قملا وصئبانا

وروي عن الحسن:"التفث ذا الشعث وذا التقشف".

الثالث: أن التفث: حلق الرأس، وتقليم الظفر. قاله مجاهد.

وروي عن عكرمة:"أن التفث: الشعر والظفر".

الرابع: إزالة قشف الإحرام من تقليم ظفر وأخذ شعر وغسل واستعمال الطيب، وهو قول الحسن.

قال ابن زيد:"التفث: حرمهم".

الخامس: أن التفث: حلق الرأس، وأخذ من الشاربين، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين، ورمي الجمار، والموقف بعرفة والمزدلفة. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"يعني بالتفث: وضع إحرامهم من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظفار ونحو ذلك".

وقال محمد بن كعب القرظي:"رمي الجمار، وذبح الذبيحة، وأخذ من الشاربين واللحية والأظفار، والطواف بالبيت وبالصفا والمروة".

=

=

وقال مجاهد:"حلق الرأس، وحلق العانة، وقصر الأظفار، وقص الشارب، ورمي الجمار، وقص اللحية".

وقال ابن جريج:"الأخذ من اللحية، ومن الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، ورمي الجمار".

قال عطاء بن السائب: "التفث: حلق الشعر، وقص الأظفار والأخذ من الشارب، وحلق العانة، وأمر الحج كله".

قال أبو عبيدة:"{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم}: وهو الأخذ من الشارب وقصّ الأظفار ونتف الإبط والاستحداد وحلق العانة".

قال ابن قتيبة:"والتفث: الأخذ من الشارب والأظفار، ونتف الإبطين، وحلق العانة".

قال الزجاج:"التفث: الأخذ من الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والأخذ من الشعر، كأنه الخروج منى الإحرام إلى الإحلال".

وقيل لبعض الصلحاء: "ما المعنى في شعث المحرم؟ قال: ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته".

وسئل الحسن عن التجرد في الحج فقال: "جرّد قلبك من السهو، ونفسك من اللهو ولسانك من اللغو، ثم يجوز كيف شئت". وقال الشاعر:

قضوا تفثًا ونحبًا ثم ساروا... إلى نجدٍ وما انتظروا عليًا

وقرأ أبو عمرو: «ثم ليقضوا»، بكسر اللام.

قال الزجاج:"والقراءة بالتسكين مع «ثم» كثيرة".

قوله تعالى: {وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج: ٢٩]، أي:"وليوفوا بما أوجبوه على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا".

قال الطبري:"يقول: وليوفوا الله بما نذروا من هدي وبدنة وغير ذلك".

=

=

قال ابن عباس:"نحر ما نذروا من البدن".

قال مجاهد:"نذر الحج والهدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج".

قال ابن كثير:"وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض» ".

قوله تعالى: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج: ٢٩]، أي:"وليطوفوا بالبيت العتيق القديم، الذي أعتقه الله مِن تسلُّط الجبارين عليه، وهو الكعبة".

قال الطبري:"يقول: وليطوفوا ببيت الله الحرام، وهو طواف الإفاضة الذي يطاف به بعد التعريف، إما يوم النحر وإما بعده، لا خلاف بين أهل التأويل في ذلك".

قال الماوردي:"يعني: طواف الإفاضة، وهو الواجب في الحج والعمرة، ولا يجوز في الحج إلا بعد عرفة، وإن جاز السعي".

عن ابن عباس، قوله: " {وليطوفوا بالبيت العتيق}، يعني: زيارة البيت".

عن الحسن: " {وليطوفوا بالبيت العتيق}، قال: طواف الزيارة".

قال الحسن:"الطواف الواجب".

قال عطاء:"طواف يوم النحر".

عن عمرو بن أبي سلمة، قال: "سألت زهيرا عن قول الله: {وليطوفوا بالبيت العتيق}، قال: طواف الوداع".

عن أبى جمرة قال: "قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: {وليطوفوا بالبيت العتيق}، قال: فإن آخر المناسك الطواف بالبيت".

قال ابن عباس:"لما نزلت هذه الآية وليطوفوا بالبيت العتيق طاف رسول الله ﷺ من ورائه".

=

=

وفي تسمية «البيت»: عتيقًا، وجوه:

أحدها: لأن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه، وهو قول ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وقتادة.

قال مجاهد:"إنما سمي البيت العتيق، لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك".

ووفي لفظ عن مجاهد: "فليس في الأرض جبار يدعي أنه له".

قال ابن الزبير:"إنما سمي البيت العتيق، لأن الله أعتقه من الجبابرة".

قال ابن قتيبة:"سمي بذلك لأنه عتيق من التجبر، فلا يتكبر عنده جبار".

الثاني: لأنه عتيق لم يملكه أحد من الناس، وهو قول مجاهد.

قال مجاهد:"إنما سمي البيت العتيق لأنه ليس لأحد فيه شيء".

الثالث: لأنه أعتق من الغرق في زمن نوح-عليه السلام-، وهذا قول سعيد بن جبير.

قال الزجاج:"ودليل هذا القول: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [الحج: ٢٦]، فهذا دليل أن البيت رفع وبقي مكانه".

الرابع: سمي بذلك لقدمه. قاله الحسن، وابن زيد، والثوري.

قال ابن زيد:"العتيق: القديم، لأنه قديم، كما يقال: السيف العتيق، لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم، وهو أول من بناه، ثم بوأ الله موضعه لإبراهيم بعد الغرق، فبناه إبراهيم وإسماعيل".

الخامس: إنما سماه عتيقا تكرمه له، كما تقول العرب: جسد عتيق، وفرس عتيق إذا كان كريما. حكاه التستري عن الحسن.

قال الطبري:"ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه في قوله: (البيت العتيق) وجه صحيح، غير أن الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي روي عن ابن الزبير أولى بالصحة، إن كان ما: حدثني به محمد بن سهل البخاري... عن عبد الله بن الزبير، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما سمي البيت

=

=

العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه قط صحيحا".

قال الزجاج:"وأكثر ما جاء في التفسير أنه اعتق من الجبابرة، فلم يغلب عليه جبار.. وكل ما مر في تفسير العتيق فجائز حسن - والله أعلم بحقيقة ذلك - وهذه الآية تدل على أن الطواف يوم النحر فرض".

قال سهل بن عبد الله:"وكما أعتق الله بيته كذلك أعتق قلب المؤمن من الغير، وهو أقدم مما نصبه الله تعالى علما في أرضه وجعله في المسجد الحرام، كذلك القلب له قلب آخر، وهو موضع وقوف العبد بين يدي مولاه، لا يتحرك في شيء إنما هو ساكن إليه".

قال ابن كثير:"قوله: {بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛

لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي.. عن ابن عباس قال: "لما نزلت هذه الآية: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}، طاف رسول الله ﷺ من ورائه» ".

والمراد بالقضاء هنا: الإزالة، وأصله القطع والفصل، فأريد به الإزالة على سبيل المجاز.

والتفث: الوسخ والقذر، كطول الشعر والأظفار يقال: تفث فلان- كفرح- يتفث تفثا فهو تفث، إذا ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف فأصابته الأوساخ.

والمراد بالطواف هنا: طواف الإفاضة، الذي هو أحد أركان الحج، وبه يتم التحلل.

والعتيق: القديم حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وقيل سمى بالعتيق

=

=

لأن الله تعالى أعتقه من أن يتسلط عليه جبار فيهدمه أو يخربه.

والمعنى: ثم بعد حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك. فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم، وليوفوا نذورهم التي نذروها لله تعالى في حجهم، وليطوفوا طواف الإفاضة، بهذا البيت القديم الذي جعله الله تعالى أول بيت لعبادته، وصانه من اعتداء كل جبار أثيم.

(تنبيه): لا يجوز لطائف بالبيت في حج أو عمرة أو طواف نفل أن يدخل من حجر إسماعيل ولا يجزئه ذلك لو فعله لأن الطواف بالبيت، والحجر من البيت لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ (ولْيطَّوَّفوا بالبيت العتيق). ولما روى مسلم وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت سألت رسول الله، ﷺ، عن الحجر فقال هو من البيت وفي لفظ قالت إني نذرت أن أصلي في البيت قال صلي في الحجر فإن الحجر من البيت.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه: عن امرأة وزوجها أخذا عمرة وطافا ستة أشواط وفي الشوط السابع دخلا ما بين الكعبة والحجر ثم رجعا إلى بلدهما. فما الحكم في هذه الحالة.

فأجاب: الطواف الذي يدخل فيه الإنسان بين الحجر وبين الكعبة طواف ناقص، لأن الواجب أن يكون الطواف بجميع الكعبة مع الحجر لقول الله تعالى: (وليطوفوا بالبيت العتيق) الحج/ ٢٩، وإذا كان ناقصا لم يكن عليه أمر الله ورسوله. وقد قال النبي ﷺ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) أي مردود عليه.

وبهذا يتبين أن طواف هذين الشخصين - الرجل وزوجته - طواف غير صحيح، فيجب عليهما الآن، فورا أن يلبسا ثياب الإحرام، وأن يذهبا إلى مكة فيطوفا بنية العمرة، ويسعيا ويقصرا، أو يحلق الرجل وتقصر المرأة، وبذلك يحلان من إحرامهما. هذا هو الواجب عليهما الآن.

=

=

وأما ما ارتكباه من فعل المحظور وهو صادر عن جهل منهما فلا إثم عليهما فيه ولا فدية، لقول الله تبارك وتعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) البقرة/ ٢٨٦، وأخبر النبي ﷺ أن الله تعالى قال: (قد فعلت).

(منبهة): لا يجوز الطواف بغير الكعبة المشرفة، سواء كان حول قبر نبي أو صالح أو غير ذلك ؛ لأن الطواف عبادة لم يشرعها الله إلا حول بيته، كما قال تعالى: (وليطوفوا بالبيت العتيق) الحج/ ٢٩، ومن صرف هذه العبادة لغير الله، فطاف حول الأضرحة والقبور فقد وقع في الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به ورسوله، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين، ومن اعتقد ذلك دينًا فهو كافر، سواء طاف ببدنه أو بقبره".

وقال أيضًا: "ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة ... فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذ مكانًا يطاف به كما يطاف بالكعبة؟ والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال ... " ا.هـ

وقال ابن حجر الهيتمي في الدر المنظم (ص٦٣): لا يجوز أن يطاف بقبره ﷺ كما نقله النووي عن أطباق العلماء، ويوجه بأنهم كما أجمعوا على تحريم الصلاة لقبره ﷺ إعظامًا له، كذلك أجمعوا على تحريم الطواف بقبره؛ لأن الطواف بمنزلة الصلاة" ا.هـ

وسئل الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما نصه: " كنت جالسا مع إخوة لي من أبناء وطني من صعيد مصر، فقالوا لي: يوجد عندنا مقام لأبي الحسن الشاذلي من طاف به سبع مرات كانت له عمرة، ومن طاف به عشر مرات كان له حجة، ولا يلزمه الذهاب

=

=

إلى مكة، فقلت لهم: إن هذا الفعل كفر بل شرك -والعياذ بالله- فهل أنا مصيب؟ وبماذا تنصحون من ينخدع بذلك؟

الجواب: نعم قد أحسنت، لا يجوز الطواف بالقبور، لا بقبر أبي الحسن الشاذلي، ولا بقبر البدوي، ولا بقبر الحسين، ولا بالسيدة زينب، ولا بالسيدة نفيسة ولا بقبر من هو أفضل منهم، لأن الطواف عبادة لله وإنما يكون بالكعبة خاصة، ولا يجوز الطواف بغير الكعبة أبدا، وإذا طاف بقبر أبي الحسن الشاذلي أو بمقامه يتقرب إليه بالطواف، صار شركا أكبر، وليس هو يقوم مقام حجة، ولا مقام عمرة، بل هو كفر وضلال، ومنكر عظيم، وفيه إثم عظيم.

فإن كان طاف يحسب أنه مشروع، ويطوف لله لا لأجل أبي الحسن فهذا يكون بدعة ومنكرا، وإذا كان طوافه من أجل أبي الحسن ومن أجل التقرب إليه فهو شرك أكبر- والعياذ بالله- وهكذا دعاؤه والاستغاثة بأبي الحسن الشاذلي، أو النذر له، أو الذبح له، كله كفر أكبر -نعوذ بالله-... فالدعاء والاستغاثة بالأموات، والذبح لهم، والنذر لهم، والتوكل عليهم، أو اعتقاد أنهم يعلمون الغيب، أو يتصرفون في الكون، أو يعلمون ما في نفوس أصحابهم، والداعين لهم، والطائفين بقبورهم، كل هذا شرك أكبر -نعوذ بالله من ذلك- فالغيب لا يعلمه إلا الله؛ لا يعلمه الأنبياء ولا غيرهم، وإنما يعلمون من الغيب ما علمهم الله إياه، ويقول الله سبحانه وتعالى: قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [النمل: ٦٥].

فمن زعم أن شيخه يعلم الغيب، أو يعلم ما في نفس زائره، أو ما في قلب زائره فهذا كفر أكبر- والعياذ بالله- فالغيب لله وحده سبحانه وتعالى، وكذلك إذا عكف على القبر يطلب فضل صاحب القبر، ويطلب أن يثيبه أو يدخله الجنة بالجلوس عند قبره، أو بالقراءة عند قبره، أو بالاستغاثة به أو نذره له، أو صلاته عنده، أو نحو

=

=

ذلك، فهذا كفر أكبر.

فالحاصل أن الواجب على المؤمن أن يحذر الشرك كله وأنواعه، والقبور إنما تؤتى للزيارة، يزورها المؤمن للدعاء لهم، والترحم عليهم، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يغفر الله لنا ولكم يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية وهكذا.

أما أن يدعوهم مع الله، أو يستغيث بهم، أو ينذر لهم، أو يتقرب إليهم بالذبائح بالبقر، أو بالإبل، أو بالغنم، أو بالدجاج فكل هذا كفر أكبر- والعياذ بالله- فالواجب الحذر والواجب التفقه في الدين، المسلم عليه أن يتفقه في دينه حتى لا يقع في الشرك والمعاصي.

وعلماء السوء علماء ضلالة يضلون الناس ويغشونهم، فالواجب على علماء الحق أن يتقوا الله وأن يعلموا الناس من طريق الخطب والمواعظ وحلقات العلم، ومن طريق الإذاعة، ومن طريق الكتابة والصحافة، ومن طريق التلفاز، يعلمون الناس دينهم ويرشدونهم إلى الحق حتى لا يعبدوا الأموات، ولا يستغيثوا بهم، وحتى لا يطوفوا بقبورهم، وحتى لا يتمسحوا بها، وحتى لا ينذروا لها وحتى لا يقعوا بالمعاصي.

والقبور تزار للذكرى؛ لذكر الآخرة، وذكر الموت، وللدعاء للميت والترحم عليه كما تقدم، أما أن يطاف بقبره أو يدعى من دون الله أو يستغاث به، أو يجلس عنده للصلاة، فهذا لا يجوز، والجلوس عند قبره للصلاة عنده أو للقراءة عنده بدعة، وإذا كان يصلي له كان كفرا أكبر، فإن صلى لله وقرأ لله يطلب الثواب من الله، ولكن يرى أن القبور محل جلوس لهذه العبادات صار بدعة فالقبور ليست محل جلوس للصلاة أو للقراءة، ولكنها تزار للدعاء للأموات، والترحم عليهم، مثلما زارهم النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

=

=

فالنبي كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وكان إذا زار البقيع يقول: اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد ويترحم عليهم، وهذه هي الزيارة الشرعية، فيجب الحذر مما حرم الله مما أحدثه عباد القبور، وأحدثه الجهال، مما يضر ولا ينفع بل يوقع أصحابه في الشرك الأكبر- ولا حول ولا قوة إلا بالله " انتهى من "فتاوى نور على الدرب". (١/ ٣٠٤)

وسئلت اللجنة الدائمة (١/ ٢٠٦): " ما حكم الطواف حول أضرحة الأولياء، أو الذبح للأموات أو النذر، ومن هو الولي في حكم الإسلام، وهل يجوز طلب الدعاء من الأولياء أحياء كانوا أم أمواتا؟

فأجابت: الذبح للأموات أو النذر لهم شرك أكبر، ولولي: من والى الله بالطاعة ففعل ما أمر به وترك ما نهي عنه شرعا ولو لم تظهر على يده كرامات، ولا يجوز طلب الدعاء من الأولياء أو غيرهم بعد الموت، ويجوز طلبه من الأحياء الصالحين، ولا يجوز الطواف بالقبور، بل هو مختص بالكعبة المشرفة، ومن طاف بها يقصد بذلك التقرب إلى أهلها كان ذلك شركا أكبر، وإن قصد بذلك التقرب إلى الله فهو بدعة منكرة، فإن القبور لا يطاف حولها ولا يصلى عندها ولو قصد وجه الله " انتهى.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: " من طاف بالأضرحة -يعني: القبور- يدعو صاحب القبر، ويستغيث به، ويستنجد به، فهو مشرك شركا أكبر، وقد قال الله تعالى: إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار [المائدة:٧٢] وإذا صلى هؤلاء في المساجد وهم مصرون على هذا الشرك -أعني: دعاء أصحاب الأضرحة والاستغاثة بهم- فإن صلاتهم لا تقبل منهم ولا تنفعهم عند الله، لقول الله تعالى: وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا

=

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠).

{ذَلِكَ} خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أَيْ الْأَمْر أَوْ الشَّأْن ذَلِكَ الْمَذْكُور {وَمَنْ يُعَظِّم حُرُمَات الله} هِيَ مَا لَا يَحِلّ انْتِهَاكه {فَهُوَ} أَيْ تَعْظِيمهَا {خَيْر لَهُ عِنْد رَبّه} فِي الْآخِرَة {وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَام} أَكْلًا بَعْد الذَّبْح {إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} تَحْرِيمه فِي {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَة} الْآيَة فَالِاسْتِثْنَاء مُنْقَطِع وَيَجُوز أَنْ يَكُون مُتَّصِلًا

=

بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون [التوبة:٥٤]. لكن الواجب على أهل العلم في تلك البلاد أن يكثفوا الدعوة، والذهاب إلى هؤلاء لبيان الحق لهم، وألا ييئسوا من روح الله، وإذا كان لا يمكن أن ندعوهم جهارا على سبيل العموم؛ لأن من الناس من يقول: لو ذهبت إلى هؤلاء العامة وأدعوهم وأقول لهم: إن عملكم هذا شرك ربما يقتلونني، فإنه من الممكن أن يختار من زعمائهم من يختار، ويدعوه إلى بيته أو يزوره هو في بيته، ويتكلم معه بهدوء، ويبين له محاسن الإخلاص، ويبين له -أيضا- أن هؤلاء الموتى لا يستجيبون له، كما قال الله تعالى: إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير [فاطر:١٤] وقال تعالى: ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين [الأحقاف:٥-٦] فليكثف الدعوة معهم؛ لأن هؤلاء الذين يترددون إلى الأضرحة ويدعونهم يعتبرون في حكم أهل الجاهلية، فلا بد من دعوتهم وتكثيف الدعوة معهم، ولعل الله سبحانه وتعالى أن يهديهم على أيدي إخواننا المصلحين " انتهى من "لقاء الباب المفتوح" (٥٣/ ٦).

وَالتَّحْرِيم لِمَا عَرَضَ مِنْ الْمَوْت وَنَحْوه {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْس مِنْ الْأَوْثَان} مِنْ لِلْبَيَانِ أَيْ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَان {وَاجْتَنِبُوا قَوْل الزُّور} أَيْ الشِّرْك بِاَللهِ فِي تَلْبِيَتكُمْ أَوْ شَهَادَة الزُّور.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١).

{حُنَفَاء لِلَّهِ} مُسْلِمِينَ عَادِلِينَ عَنْ كُلّ دِين سِوَى دِينه {غَيْر مُشْرِكِينَ بِهِ} تَأْكِيد لِمَا قَبْله وَهُمَا حَالَانِ مِنْ الْوَاو {وَمَنْ يُشْرِك بِاَللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ} سَقَطَ {مِنْ السَّمَاء فَتَخْطَفهُ الطَّيْر} أَيْ تَأْخُذهُ بِسُرْعَةٍ {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيح} أَيْ تُسْقِطهُ {فِي مَكَان سَحِيق} بَعِيد فَهُوَ لَا يُرْجَى خَلَاصه.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢).

{ذَلِكَ} يُقَدَّر قَبْله الْأَمْر مُبْتَدَأ {وَمَنْ يُعَظِّم شَعَائِر الله فَإِنَّهَا} أَيْ فَإِنَّ تَعْظِيمهَا وَهِيَ الْبُدْن الَّتِي تُهْدَى لِلْحَرَمِ بِأَنْ تُسْتَحْسَن وَتُسْتَسْمَن {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب} مِنْهُمْ وَسُمِّيَتْ شَعَائِر لِإِشْعَارِهَا بِمَا تُعْرَف بِهِ أَنَّهَا هَدْي كَطَعْنِ حَدِيد بسنامها.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣).

{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِع} كَرُكُوبِهَا وَالْحَمْل عَلَيْهَا مَا لَا يَضُرّهَا {إِلَى أَجَل مُسَمًّى} وَقْت نَحْرهَا {ثُمَّ مَحِلّهَا} أَيْ مَكَان حِلّ نَحْرهَا {إِلَى الْبَيْت الْعَتِيق} أَيْ عِنْده وَالْمُرَاد الْحَرَم جَمِيعه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي بكر الصديق؛ قال: كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج؛ فنزلت: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ =

=

مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٣٦) وزاد نسبته لعبد الرزاق.

وعن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق؛ قال: كان ناس من مضر وغيرهم يحجون البيت وهم مشركون، وكان من لا يحج البيت من المشركين يقولون: قولوا حنفاء؛ فقال الله -تعالى-: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} يقول: حجاجًا غير مشركين به.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٤٥) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: في قوله: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} قال: حجاجًا لله غير مشركين به. وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام؛ قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٤٥) ونسبه لابن المنذر.

* قوله تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)} [الحج: ٣٠]

التفسير:

ذلك الذي أمر الله به مِن قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو ما أوجبه الله عليكم فعظِّموه، ومن يعظم حرمات الله، ومنها مناسكه بأدائها كاملة خالصة لله، فهو خير له في الدنيا والآخرة. وأحلَّ الله لكم أَكْلَ الأنعام إلا ما حرَّمه فيما يتلى عليكم في القرآن من الميتة وغيرها فاجتنبوه، وفي ذلك إبطال ما كانت العرب تحرِّمه من بعض الأنعام، وابتعِدوا عن القذارة التي هي الأوثان، وعن الكذب الذي هو الافتراء على الله.

قوله تعالى: {ذَلِكَ} [الحج: ٣٠]، أي:"ذلك الذي أمر الله به مِن قضاء التفث

=

=

والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو ما أوجبه الله عليكم فعظِّموه".

قال الزمخشري:"{ذلك} خبر مبتدإ محذوف، أى: الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا".

قال مقاتل:"يعني: أمر المناسك كلها {فهو خير له} عند ربه فى الآخرة".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج: ٣٠]، أي:"ومن يعظم حرمات الله، ومنها مناسكه بأدائها كاملة خالصة لله، فهو خير له في الدنيا والآخرة".

قال مجاهد:"الحرمة الحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها".

قال الزجاج:"و {حرمات الله}: الحج والعمرة وسائر المناسك، وكل ما فرض الله فهو من حرمات الله، و «الحرمة»: ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه".

قال الزمخشري:"الحرمة: ما لا يحل هتكه. وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها، فيحتمل أن يكون عاما في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج".

عن أبي ربيعة المخزومي، عن النبي ﷺ قال: «لن تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها يعني مكة فإذا ضيعوا ذلك هلكوا».

قوله تعالى: {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [الحج: ٣٠]، أي:"وأحلَّ الله لكم أَكْلَ الأنعام إلا ما حرَّمه فيما يتلى عليكم في القرآن من الميتة وغيرها فاجتنبوه".

وفي قوله تعالى: {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [الحج: ٣٠]، قولان:

أحدهما: إلا ما يتلى عليكم من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل

=

=

السبع إلا ما ذكيتم وما ذُبِحَ على النصب.

والثاني: إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم.

قال الطبري: المعنى:"وأحل الله لكم أيها الناس الأنعام أن تأكلوها إذا ذكيتموها، فلم يحرم عليكم منها بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حاما، ولا ما جعلتموه منها لآلهتكم، إلا ما يتلى عليكم في كتاب الله، وذلك: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذبح على النصب، فإن ذلك كله رجس".

عن قتادة: " {إلا ما يتلى عليكم}، قال: إلا الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه".

قوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج: ٣٠]، أي:"وابتعِدوا عن القذارة التي هي الأوثان".

قال الطبري:"يقول: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها فإنها رجس".

قال ابن كثير:": «من» -هاهنا- لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان".

وفي قوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج: ٣٠]، وجهان:

أحدهما: أي: اجتنبوا من الأوثان الرجس، ورجس الأوثان عبادتها، فصار معناه: فاجتنبوا عبادة الأوثان. وهذا قول ابن عباس، وابن جريج.

قال ابن عباس:"يقول تعالى ذكره: فاجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان".

عن ابن جريج قوله: " {الرجس من الأوثان}، قال: عبادة الأوثان".

الثاني: معناه: فاجتنبوا الأوثان فإنها من الرجس. قاله يحيى بن سلام.

قال الطبري: أي:"اجتنبوا أن ترجسوا أنتم أيها الناس من الأوثان بعبادتكم إياها، فإن قائل قائل: وهل من الأوثان ما ليس برجس حتى قيل: فاجتنبوا الرجس منها؟

=

=

قيل: كلها رجس. وليس المعنى ما ذهبت إليه في ذلك، وإنما معنى الكلام: فاجتنبوا الرجس الذي يكون من الأوثان أي عبادتها، فالذي أمر جل ثناؤه بقوله: (فاجتنبوا الرجس) منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس، على ما قاله ابن عباس".

قوله تعالى: {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠]، أي:"وابتعِدوا عن الكذب الذي هو الافتراء على الله".

قال الطبري:"واتقوا قول الكذب والفرية على الله بقولكم في الآلهة: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} وقولكم للملائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القول، فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله".

وفي قوله تعالى: {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠]، أقوال:

أحدها: الشرك، وهو قول يحيى بن سلام، ومقاتل.

الثاني: يعني: الكذب، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، والزجاج.

قال ابن عباس: يعني:"الافتراء على الله والتكذيب".

الثالث: شهادة الزور. وهو قول عبد الله، ووائل بن ربيعة.

قال عبد الله:"تعدل شهادة الزور بالشرك".

روى أيمن بن خريم أن النبي -ﷺ- قام خطيبًا فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكا بالله» ثلاثا، ثم قرأ: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}".

الرابع: أنها عبادة المشركين، حكاه النقاش.

الخامس: أنه النفاق لأنه إسلام في الظاهر زور في الباطن. أفاده الماوردي.

قال الزجاج:"والآية تدل - والله أعلم - على أنهم نهوا أن يحرموا ما حرم أصحاب الأوثان نحو قولهم {مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ

=

=

عَلَى أَزْوَاجِنَا} [الأنعام: ١٣٩]، ونحو نحرهم البحيرة والسائبة، فأعلمهم الله أن الأنعام محللة إلا ما حرم الله منها، ونهاهم الله عن قول الزور أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ليفتروا على الله كذبا".

قال الزمخشري:"لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور، لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا. وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد، وذلك أن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئا منه لتماديه في القبح والسماجة. وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان.

وسمى «الأوثان»: رجسا، وكذلك الخمر والميسر والأزلام، على طريق التشبيه. يعنى: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة. ونبه على هذا المعنى بقوله رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب من الأوثان بيان للرجس وتمييز له، كقولك: عندي عشرون من الدراهم، لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان".

قال ابن كثير:": وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور".

وفي الصحيحين عن أبي بَكْرَة قال: «قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ " قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: "الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس، فقال: - ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور". فما زال يكررها، حتى قلنا:

=

=

ليته سكت».

واسم الإشارة ذلِكَ في قوله: ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ ... يؤتى به في مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين، والمشهور في مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ «هذا» كما في قوله تعالى: هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ.

وجيء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه، وعلو منزلته، وهو يعود إلى المذكور من تهيئة مكان البيت لإبراهيم، وأمره بتطهيره ... إلخ.

قال الزمخشري: قوله ذلِكَ خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا، وقد كان كذا ا.هـ.

والحرمات: جمع حرمة. والحرمة كل ما أمر الله تعالى باحترامه، ونهى عن قوله أو فعله، ويدخل في ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحريم الرفث والفسوق والجدال والصيد، وتعظيم هذه الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها، وبالعمل بمقتضى هذا العلم.

والمعنى: ذلك الذي ذكرناه لكم عن البيت الحرام وعن مناسك الحج، هو جانب من أحكام الله تعالى في هذا الشأن فاتبعوها، والحال أن من يعظم حرمات الله تعالى بأن يترك ملابستها واقترافها، فهو أي: هذا التعظيم، خير له عند ربه. إذ بسبب هذا التعظيم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه.

وقد جاء النهى في هذه الجملة عن فعل هذه الحرمات بأبلغ أسلوب حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو لفظ «خير» وبإضافتها إلى ذاته.

فكأنه سبحانه يقول: إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله يؤدى إلى حصولكم على شيء من المتاع الدنيوي الزائل، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم وخالقكم، فكونوا عقلاء ولا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو

=

=

خير.

ثم بين سبحانه بعض الأحكام التي تتعلق بالأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فقال: وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ.

أي: وأحل الله تعالى لكم فضلا منه ورحمة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما يتلى عليكم تحريم ذبحه وأكله فاجتنبوه.

وهذا الإجمال هنا، قد جاء ما فصله قبل ذلك في سورة الأنعام في قوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ.

قال بعض العلماء: ثم إنه ليس المقصود بما يتلى، ما ينزل في المستقبل، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع، بل المراد ما سبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به. أو ما يدل على حرمة الصيد في الحرم أو حالة الإحرام.

وعلى هذا يكون السر في التعبير بالمضارع، التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره والالتفات إليه.. والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع في الوهم من أن تعظيم حرمات الله في الحج قد يقضى باجتناب الأنعام، كما قضى باجتناب الصيد.

ثم أمرهم سبحانه باجتناب ما يغضبه، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ والفاء في قوله: فَاجْتَنِبُوا هي الفصيحة. والرجس: الشيء المستقذر الذي تعافه النفوس. ومَنْ في قوله مِنَ الْأَوْثانِ بيانية، والأوثان: الأصنام. يدخل في حكمها ومعناها عبادة كل معبود من دون الله تعالى كائنا من كان.

وسماها سبحانه رجسا، زيادة في تقبيحها وفي التنفير منها.

والزور: الكذب والباطل وكل قول مائل عن الحق فهو زور، لأن أصل المادة التي

=

=

هي الزور من الازورار بمعنى الميل والاعوجاج، ومنه قوله تعالى: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ أى: تميل.

قوله تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} [الحج: ٣١]، أي:"مستقيمين لله على إخلاص العمل له، مقبلين عليه بعبادته وحده وإفراده بالطاعة، معرضين عما سواه بنبذ الشرك

قال الطبري: يقول:"اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان، وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصا دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئا من دونه".

قال ابن كثير:"أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال {غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}".

قال السمعاني:"قال أهل التفسير: كانت قريش يقولون: من حج واحتنف وضحى، فهو حنيف، فقال الله تعالى: {حنفاء لله غير مشركين به}، يعني: أن «الحنيفة» إنما يتم بترك الشرك، ومن أشرك لا يكون حنيفا".

عن ابن عباس، قوله: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}، قال:"حجاجا لله غير مشركين به، وذلك إن الجاهلية كانوا يحجون مشركين فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله".

قال القشيري:"«غير مشركين به»: الشرك جلى وخفى".

عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق قال: "كان ناس من مضر وغيرهم يحجون البيت وهم مشركون، وكان من لا يحج البيت من المشركين يقولون: قولوا حنفاء، فقال الله: حنفاء لله غير مشركين به يقول: حجاجا غير مشركين به".

وفي قوله تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ} [الحج: ٣١]، وجوه:

أحدها: يعني: مسلمين لله، وهو قول الضحاك، قال ذو الرمة:

=

=

إذا حَوَّل الظلُّ العشِيَّ رأيتَه... حنيفًا وفي قَرنِ الضحَى يَتَنَصَّر

قال الزجاج: يعني: " مسلمين لا يميلون إلى دين غير الإسلام".

الثاني: مخلصين لله، وهو قول مقاتل، ويحيى بن سلام.

الثالث: مستقيمين لله، وهو قول عليّ بن عيسى.

الرابع: يعني: متبعين، قاله مجاهد.

الخامس: حجاجًا إلى الله، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن القاسم، وقطرب.

قال القشيري:"«الحنيف»: المائل إلى الحق عن الباطل فى القلب والنفس، فى الجهر وفى السر، فى الأفعال وفى الأحوال وفى الأقوال".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ} [الحج: ٣١]، أي:"ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير فتقطع أعضاءه".

قال الطبري: يقول:"فإنه من يشرك بالله شيئا من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خر من السماء فتخطفه الطير فهلك".

قال مقاتل:"ثم عظم الشرك فقال: {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير}، يعني: فتذهب به الطير النسور".

قال السمعاني:"{فكأنما خر من السماء}، أي: سقط من السماء، وفي بعض الأخبار عن بعض الصحابة أنه قال: «بايعت رسول الله أن لا أخر إلا مسلما»، أي: لا أسقط ميتا إلا مسلما، وقوله: {فتخطفه الطير} أي: تسلبه الطير وتذهب به".

قال ابن كثير:"أي: [كأنما] سقط منها فتقطعه الطيور في الهواء".

قال قتادة:"هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه".

قوله تعالى: {أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]، أي:"أو عصفت

=

=

به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة".

قال الطبري: يقول:"أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد، من قولهم: أبعده الله وأسحقه، وفيه لغتان: أسحقته الريح وسحقته، ومنه قيل للنخلة الطويلة: نخلة سحوق؛ ومنه قول الشاعر:

كانت لنا جارة فأزعجها... قاذورة تسحق النوى قدما

ويروى: تسحق: يقول: فهكذا مثل المشرك بالله في بعده من ربه ومن إصابه الحق، كبعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم في الهواء".

عن مجاهد قوله: " {في مكان سحيق}، قال: بعيد".

قال مقاتل:"يعنى: بعيدا، فهذا مثل الشرك في البعد من الله ﷻ".

قال السمعاني:"أي: تسقط به الريح في مكان بعيد، ومعنى الآية: أن من أشرك فقد هلك، وبعد عن الحق بعدا لا يصل إليه بحال ما دام مشركا".

وجاء في حديث البراء بن عازب: "إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى غضب الله وسخطه. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، ولا يفتح له، ثم قرأ رسول الله - ﷺ -: {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج

=

=

الجمل في سم الخياط} فيقول الله تبارك وتعالى: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق}، فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري؟ فيقولان له: مادينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له لادريت، فينادي مناد من السماء أن كذب فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابا من النار، فيأتيه من حرها وسمومها. ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح
الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يوم الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة".

وقوله حُنَفاءَ جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة الى الدين الحق.

والمعنى: مادام الأمر كما ذكرت لكم، فاجتنبوا- أيها الناس عبادة الأوثان أو تعظيمها، واجتنبوا- أيضا- القول المائل عن الحق، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق، وعلى إخلاص العبادة لله تعالى الذي خلقكم، وخلق كل شيء.

وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق من وجوب تعظيم حرمات الله، ومن وجوب التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه.

قال الآلوسي: قوله تعالى: وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، لما فيها من ادعاء الاستحقاق، كأنه تعالى لما حث على تعظيم الحرمات، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما، والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك. ولم يعطف قول

=

=

الزور على الرجس، بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء. والإضافة بيانية.. ا.هـ.

وجملة حُنَفاءَ لِلَّهِ وجملة غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ حالان مؤكدتان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان، واجتناب قول الزور.

أى: اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق، مخلصين لله العبادة.

ثم صور سبحانه حال من يشرك بالله تصويرا تنخلع له القلوب، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس فقال: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ.

أى: ومن يشرك بالله تعالى في عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر.

والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين، وبيان أن الوقوع في الشرك يؤدى إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله، وتتخطفه الطير أو تلقى به الريح في مكان بعيد لا يطمع له في نجاة، بل هو هالك لا محالة.

فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة.

قال الزمخشري: يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا- أى قطعا- في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح- أى المقاذف- البعيدة.

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله

=

=

بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة، بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة ا.هـ.

ثم أمر سبحانه بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم حرماته فقال: (ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ).

قوله تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ} [الحج: ٣٢]، أي:"ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس وأمرتكم به من اجتناب الرجس من الأوثان واجتناب قول الزور، حنفاء لله، وتعظيم شعائر الله، وهو استحسان البدن واستسمانها وأداء مناسك الحج على ما أمر الله جل ثناؤه".

قوله تعالى: {فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، أي:"أي فإن تعظيمها من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بتقوى الله وخشيته".

قال الطبري: أي: " من تقوى قلوبكم".

قال ابن عباس: "يريد من التقوى الذي اتقاه المتقون".

قال السدي:"يعني من إخلاص القلوب".

قال الزمخشري:"أى: فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب.. وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء".

قال الواحدي:"أضاف «التقوى» إلى «القلوب»، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب، كما روي في الحديث أن النبي -ﷺ- وقال: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره".

=

=

قال القرطبي:"أضاف التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره".

قال القرطبي: والشعائر: جمع شعيرة، وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم. ومنه شعار القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة لها.. فشعائر الله: إعلان دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك. وقال قوم: المراد هنا تسمين البدن. والاهتمام بأمرها.. ا.هـ.

والمعنى: ذلك الذي أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته، والحال أن من يعظم شعائر الله، التي من بينها الذبائح التي يتقرب بها إليه تعالى يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها، وحسن اختيارها يكون دليلا على تقوى القلوب، وحسن صلتها بالله سبحانه وخشيتها منه، وحرصها على رضاه- ﷻ.

قال الآلوسى: وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان. روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة- أى حلقة- من ذهب. وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك، وقال له: بل أهدها.. ا.هـ.

وفي إضافة هذه الشعائر إلى الله تعالى: حض على الاهتمام بها وفعل ما يرضى الله تعالى بالنسبة لها.

والضمير المؤنث في قوله فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ يعود على الفعلة التي يتضمنها الكلام، أو إلى الشعائر بحذف المضاف، أي: فإن تعظيمها أى الشعائر من تقوى القلوب، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه.

وقوله سبحانه: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ بيان

=

=

لبعض مظاهر نعم الله تعالى عليهم في هذه الأنعام.

قوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج: ٣٣]، أي:"لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها".

وفي قوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج: ٣٣]، قولان:

أحدهما: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة. {إلى أجل مسمى}، يعني: إلى أن تنحروها. وهو قول عطاء بن أبي رباح. وبه قال الشافعي.

واستدلوا بما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ:"رأى رجلا يسوق بدنة فقال له: «اركبها، فقال يا رسول الله إنها بدنة، فقال: اركبها ويلك، في الثانية أو الثالثة»".

الثاني: المنافع التي فيها قبل أن يسمى للهدي، فإذا سميت للهدي فلا ينتفع بها. والأجل المسمى تسميتها: بدنة. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والزجاج، وطائفة من الصحابة.

قال ابن عباس:"الأجل المسمى: إلى أن تقلد وتشعر".

قوله تعالى: {ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج: ٣٣]، أي:"ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى".

قال محمد بن موسى:"محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق".

قال الضحاك وعطاء: "إلى يوم النحر تنحر بمنى".

قال الواحدي:"ثم محلها أي: حيث يحل نحرها، {إلى البيت العتيق}، يعني: عند البيت، وهو الحرم كله".

قال السمعاني:"«المحل» -ها هنا-: هو وقت النحر ومكانه".

قال الصابوني:"وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى: {هَدْيًا بَالِغَ الكعبة} [المائدة: ٩٥]".

=

=

أى: لكم- أيها المؤمنون- في تلك الأنعام التي تقدمونها قربة لله تعالى «منافع» تصل إليكم عن طريق ركوبها ولبنها ونسلها.. وهذه المنافع موقوتة إلى وقت معين، هو وقت ذبحها أو وقت تعيينها وتسميتها هديا، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها للفقراء والمحتاجين، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله تعالى.

وقوله سبحانه ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ بيان لمكان ذبحها.

والمحل مأخوذ من حل الشيء يحل- بالكسر- حلولا إذا وجب أو انتهى أجله. والمراد به في الآية مكان الحلول، أى: المكان الذي ينتهى فيه أجل تلك الأنعام، أو المكان الذي يجب ذبحها فيه.

والمعنى: لكم في تلك الانعام منافع إلى أجل مسمى ثم المكان الذي تذبح فيه منته إلى البيت العتيق. ومتصل به.

والمقصود بهذا المحل الحرم كله، لأن البيت ليس مكانا للذبح.

وبعضهم يرى أن المراد بالمحل في قوله: ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ: تحلل الحجاج من إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله تعالى: ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ....

قال القرطبي: قوله تعالى: ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف فقوله: مَحِلُّها مأخوذ من إحلال المحرم.

والمعنى: أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه..

مسألة: قوله تعالى: {ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب}: المراد بشعائر الله هنا كل المناسك، وأخصها بالذكر: الهدي؛ وذلك لأنه قال بعد ذلك: {لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق}؛ وبهذا قال ابن عباس وعطاء والضحاك، وتعظيم شعيرة الهدي باختيار الطيب السمين.

=

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

=

وقد كان رسول الله ﷺ يتحرى الطيب فيضحي به؛ كما جاء عن أنس: "أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين".

وذكر أنس لهذا الوصف دليل على أنهما قصدا تلمسا للطيب من الغنم، ولو لم يكن الوصف مؤثرا، ما ذكره في سياق عبادة.

وقد ذكر بعضهم الإجماع على استحسان لون الأضحية كالنووي ؛ ففي "السنن"؛ من حديث أبي سعيد: "أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحيل، يأكل في سواد، ويمشي في سواد، وينظر في سواد".

وقد قال أبو أمامة بن سهل: "كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون"؛ رواه البخاري.

وفي قوله: {لكم فيها منافع إلى أجل مسمى} إباحة الانتفاع بالهدي قبل نحره، وذلك بركوبه، والحمل عليه، والانتفاع بصوفه ووبره وشعره، وفي "الصحيحين"، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة، فقال له: (اركبها)، فقال: يا رسول الله، إنها بدنة؟ ! قال في الثالثة أو في الرابعة: (اركبها ويلك، أو ويحك!).

وفي الحج مناسك وشعائر عظيمة، نعظيمها وامتثال التعبد بها بما جاء عن النبي ﷺ: من تعظيم شعائر الله؛ فقد قال ﷺ: (لتأخذوا مناسككم) ؛ يعني: عنه؛ فكل أعمال المناسك من شعائر الله؛ كالصفا والمروة؛ كما قال تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} [البقرة: ١٥٨]، ومن شعائر الله: الأشهر الحرم، والقلائد، وقاصدو البيت الحرام، والهدي؛ كما قال تعالى: {لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام} [المائدة: ٢]، وكذلك فى البدن والهدي كما يأتي؛ في قوله تعالى: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} [الحج: ٣٦].

فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤).

{وَلِكُلِّ أُمَّة} أَيْ جَمَاعَة مُؤْمِنَة سَلَفَتْ قَبْلكُمْ {جَعَلْنَا مَنْسَكًا} بِفَتْحِ السِّين مَصْدَر وَبِكَسْرِهَا اسْم مَكَان أَيْ ذَبْحًا قُرْبَانًا أَوْ مَكَانه {لِيَذْكُرُوا اسْم الله عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَة الْأَنْعَام} عِنْد ذَبْحهَا {فَإِلَهكُمْ إِلَه وَاحِد فَلَهُ أَسْلِمُوا} انْقَادُوا {وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ} الْمُطِيعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥).

{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ} خَافَتْ {قُلُوبهمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} مِنْ الْبَلَايَا {وَالْمُقِيمِي الصَّلَاة} فِي أَوْقَاتهَا {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} يَتَصَدَّقُونَ.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦).

{وَالْبُدْن} جَمْع بَدَنَة وَهِيَ الْإِبِل {جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِر الله} أَعْلَام دِينه {لَكُمْ فِيهَا خَيْر} نَفْع فِي الدُّنْيَا كَمَا تَقَدَّمَ وَأَجْر فِي الْعُقْبَى {فَاذْكُرُوا اسْم الله عَلَيْهَا} عِنْد نَحْرهَا {صَوَافّ} قَائِمَة عَلَى ثَلَاث مَعْقُولَة الْيَد الْيُسْرَى {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبهَا} سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْض بَعْد النَّحْر وَهُوَ وَقْت الْأَكْل مِنْهَا {فَكُلُوا مِنْهَا} إنْ شِئْتُمْ {وَأَطْعِمُوا الْقَانِع} الَّذِي يَقْنَع بِمَا يُعْطَى وَلَا يَسْأَل وَلَا يَتَعَرَّض {وَالْمُعْتَرّ} والسائل أو المعترض {كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل ذَلِكَ التَّسْخِير {سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ} بأن تنحر وتركب وإلا فلم تُطِقْ {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} إنْعَامِي عَلَيْكُمْ.

لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧).

{لَنْ يَنَال اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا} أَيْ لَا يُرْفَعَانِ إِلَيْهِ {وَلَكِنْ يَنَالهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} أَيْ يُرْفَع إِلَيْهِ مِنْكُمْ الْعَمَل الصَّالِح الْخَالِص لَهُ مَعَ الْإِيمَان {كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا الله عَلَى مَا هَدَاكُمْ} أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ وَمَنَاسِك حَجّه {وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ} أَيْ الْمُوَحِّدِينَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء، فينضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك؛ فأنزل الله: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٥٥، ٥٦) ونسبه لابن المنذر وابن مردويه.

وعن ابن جريج؛ قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فنحن أحق أن ننضح؛ فأنزل الله: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٤٩)، و"الدر المنثور" (٦/ ٥٦) ونسبه لابن أبي حاتم.

وإسناده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن ابن جريج؛ قال: النصب ليست بأصنام، الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجرًا، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت، وشرحوا اللحم، وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله! كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه. فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكره ما قالوه؛ فنزلت: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا}.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٥٦) ونسبه للطبري وابن المنذر.

* قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} [الحج: ٣٤]، أي:"ولكل جماعة مؤمنة سلفت، جعلنا لها مناسك مِنَ الذبح وإراقة الدماء".

قال الطبري: يقول:"ولكل جماعة سلف فيكم من أهل الإيمان بالله أيها الناس، جعلنا ذبحا يهريقون دمه".

وفي قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} [الحج: ٣٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: يعني: حجًا، وهو قول قتادة.

الثاني: ذبحًا، وهو قول مجاهد، وعكرمة.

وقال مجاهد:"إهراق الدماء".

قال الزجاج:"المنسك في هذا الموضع يدل على معنى النحر فكأنه قال: جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله، ويدل على ذلك قوله تعالى: {ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}، المعنى ليذكروا اسم الله على نحر ما رزقهم من بهيمة الأنعام".

الثالث: عيدًا، وهو قول ابن عباس، والكلبي.

الرابع: إنه مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها. وهذا قول ابن زيد.

قال الفراء:"المنسَك فِي كلام العرب: الموضع الَّذِي تعتاده وتألفه ويقال: إن لفلان مَنْسِكًا يعتاده فِي خير كَانَ أو غيره. والمناسك بذلك سميت- والله أعلم- لترداد الناس عليها بالحج والعمرة".

قال الزجاج:"وقال بعضهم: المنسك الموضع الذي يجب تعهده، وذلك جائز".

قوله تعالى: {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} [الحج: ٣٤]، أي:"وذلك ليذكروا اسم الله تعالى عند ذبح ما رزقهم مِن هذه الأنعام ويشكروا له".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: " {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} بذلك لأن من البهائم ما ليس من الأنعام، كالخيل والبغال والحمير. وقيل: إنما قيل للبهائم بهائم لأنها لا تتكلم".

قوله تعالى: {فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الحج: ٣٤]، أي:"فإلهكم -أيها الناس- إله واحد هو الله".

قال الطبري:"فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور، فإلهكم إله واحد لا شريك له، فإياه فاعبدوا وله أخلصوا الألوهة".

قوله تعالى: {فَلَهُ أَسْلِمُوا} [الحج: ٣٤]، أي:"أي: فأخلصوا له العبادة، واستسلموا لحُكْمه وطاعته".

قال مقاتل:"فله أخلصوا".

قال الطبري:"يقول: فلإلهكم فاخضعوا بالطاعة، وله فذلوا بالإقرار بالعبودية".

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج: ٣٤]، أي:"بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم".

قال الطبري:"يقول: وبشر يا محمد الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة".

وفي قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} [الحج: ٣٤]، وجوه:

أحدها: المطمئنين إلى الله، وهو قول مجاهد، ويحيى بن سلام، ومنه قوله تعالى: {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُم} [الحج: ٥٤].

الثاني: معناه: المتواضعين، وهو قول مجاهد-في رواية-، و قتادة، والضحاك.

قال ابن قتيبة:"الإخبات: التواضع والوقار".

قال الزجاج:"واشتقاقه من: «الخبت من الأرض»، وهي المكان المنخفض منها، فكل مخبت متواضع".

=

=

الثالث: الخاشعين، وهو قول الحسن، وسهل بن عبد الله، والفراء.

قال الماوردي:"والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع في الأخلاق والخشوع في الأبدان".

الرابع: الوجلين. قاله السدي.

الخامس: المخلصين، وهو قول إبراهيم النخعي، ومقاتل.

السادس: الرقيقة قلوبهم، وهو قول الكلبي.

السابع: أنهم المجتهدون في العبادة، وهو قول الكلبي، ومجاهد.

الثامن: أنهم الصالحون المطمئنون، وهو مروي عن مجاهد أيضًا.

التاسع: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، وهو قول عمرو بن أوس، ومجاهد، والخليل بن أحمد.

قال الطبري:"وهذه الأقوال متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها، لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس "الإخبات"، عند العرب: الخشوع والتواضع".

قال ابن كثير:"وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: خافت منه قلوبُهم، {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} أي: من المصائب".

والمنسك- بفتح السين وكسرها- مأخوذ من النسك بمعنى العبادة، فيجوز أن يراد به النسك نفسه، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه.

ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهي الذبح تقربا إلى الله تعالى.

قال الآلوسي: والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان، أو النسك إذا كان مصدرا.

وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى فجعله

=

=

مصدرا، وحمل النسك على عبادة خاصة، وهو أحد استعمالاته وإن كان في الأصل بمعنى العبادة مطلقا، وشاع في أعمال الحج...

وجملة وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ... معطوفة على قوله تعالى قبل ذلك: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى.

والمعنى: جعلنا لكم- أيها المؤمنون- منافع كثيرة في هذه الأنعام الى وقت معين، ثم تكون نهايتها وذبحها عند البيت الحرام، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة الذبح ليتقربوا بها إلينا، وأرشدناهم إلى المكان الذي يذبحون فيه، وإلى أفضل الطرق التي تجعل، ذبائحهم مقبولة عندنا.

وفي هذه الجملة الكريمة وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا، تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها، وإنما هي من شعائرها ومن شعائر الأمم التي سبقتها.

وقوله تعالى: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ بيان للعلة التي من أجلها شرعت تلك الذبائح.

أى: شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم للإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو سبحانه الذي رزقكم إياها بفضله وإحسانه، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره، ليزيدكم من خيره ورزقه.

وفي هذه الجملة الكريمة تقريع وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله تعالى عند الذبح، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه تعالى، حتى لكأن المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام، هو المداومة على ذكر اسم الله- ﷻ وعلى شكره سبحانه على نعمه، أما ما سوى ذلك كالأكل منها، والانتفاع بها.. فهي مقاصد فرعية.

ثم عقب سبحانه على ذلك بتقرير وحدانيته، وبوجوب إسلام الوجه إليه، فقال: فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا.

=

=

أي: شرعنا لكم ذلك لأن إلهكم إله واحد لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته، فله وحده أسلموا وجوهكم، وأخلصوها لعبادته وطاعته.

فجملة فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه الكريم بالذكر عند الذبح، لأن تفرده سبحانه بالألوهية يستلزم هذا التخصيص.

وقوله تعالى: فَلَهُ أَسْلِمُوا مرتب على ما قبله، لأنه متى ثبت أن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد الأحد، فعليهم أن يسلموا وجوههم إليه.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبشر المخبتين برضاه سبحانه وبمثوبته فقال: وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ أي: المتواضعين لله تعالى المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم، ولفظ الْمُخْبِتِينَ من الإخبات. وهو في الأصل نزول الخبت- بفتح الخاء وسكون الباء. أي: المكان المنخفض، ثم استعمل في اللين والتواضع. يقال: فلان مخبت، أي: متواضع خاشع لله رب العالمين.

قال السخاوي في تفسيره: قوله ﷻ: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} قيل: المطمئنين. وقيل: المتواضعين.

وقيل: الخاشعين، والفرق بين الخشوع والتواضع أن الخشوع في الأبدان، والتواضع في الأخلاق. وقيل: المخلصين. وقيل: المجتهدين في العبادة. وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإن ظلموا لم ينتصروا. ا.هـ

وحذف سبحانه المبشر به لتهويله وتعظيمه، أي: وبشر- أيها الرسول الكريم- هؤلاء المتواضعين لله تعالى بالثواب العظيم، والأجر الكبير الذي لا تحيط بوصفه عبارة.

ثم مدحهم سبحانه بأربع صفات فقال: الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...

قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الحج: ٣٥]، أي:"هؤلاء المتواضعون الخاشعون مِن صفاتهم أنهم إذا ذُكِر الله وحده خافوا عقابه، وحَذِروا

=

=

مخالفته".

قال يحيى بن سلام:"يعني: خافت قلوبهم".

قال الطبري:"هذا من نعت المخبتين؛ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وبشر يا محمد المخبتين الذين تخشع قلوبهم لذكر الله وتخضع من خشيته وجلا من عقابه وخوفا من سخطه".

قال الصابوني: أي:"إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون، ولجلاله وعظمته مشاهدون".

قال السدي:"إذا ذكر الله عند الشيء وجل قلبه".

عن مقاتل: {الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}، عند ما يخوفون".

عن ابن زيد، قوله: " {الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}، قال: لا تقسو قلوبهم".

قوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} [الحج: ٣٥]، أي:"وإذا أصابهم بأس وشدة صبروا على ذلك مؤملين الثواب من الله ﷻ".

قال مقاتل:"من البلاء والمصيبات".

قال الطبري:"من شدة في أمر الله، وما نالهم من مكروه في جنبه".

قوله تعالى: {وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ} [الحج: ٣٥]، أي:"والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة في أوقاتها مستقيمةً كاملة مع الخشوع والخضوع".

قال الطبري: أي:"المفروضة".

قال يحيى بن سلام:"الصلوات الخمس يحافظون على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها".

قال مقاتل:"يعني: إقامتها بأداء ما استحفظهم الله فيها".

قرأ الجمهور: {وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ}، بالإضافة. السبعةَ وبقيةَ العشرة أيضا. وقرأ

=

=

ابن السَّمَيْقَع: «والمقيمينَ الصلاة»، بالنصب.

قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الحج: ٣٥]، أي:"وينفقون مما رزقهم الله في وجوه الخيرات".

قال يحيى بن سلام:"يعني: الزكاة المفروضة".

قال الطبري: يفقون: "في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاه ونفقة عيال ومن وجبت عليه نفقته وفي سبيل الله".

أى: بشر هؤلاء المخبتين الذين من صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله تعالى وصفاته، وحسابه لعباده يوم القيامة، خافت قلوبهم، وحذرت معصيته تعالى.

والذين من صفاتهم كذلك: الصبر على ما يصيبهم من مصائب ومحن في هذه الحياة، والمداومة على أداء الصلاة في مواقيتها بإخلاص وخشوع، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى على الفقراء والمحتاجين.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية التي وصفت المؤمنين الصادقين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وبين قوله تعالى في آية أخرى: أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.

فالجواب: أنه لا تنافى بين الآيتين، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه لعباده يوم القيامة، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل.

فإذا ما استحضر بعد ذلك رحمته سبحانه وسعة عفوه، اطمأن قلبه وسكن روعه، وثبت يقينه، وانشرح صدره، واستسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع.

فالوجل والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن في قلبه، في وقتين مختلفين. وفي حالتين متمايزتين.

ويؤخذ من هاتين الآيتين: أن التواضع لله تعالى، والمراقبة له سبحانه والصبر على بلائه، والمحافظة على فرائضه.. كل ذلك يؤدى إلى رضاه- ﷻ، وإلى السعادة

=

=

الدنيوية والأخروية.

قال أبو علي الفاريي في الحجة للقراء السبعة (١/ ٢٢٢): " فأمّا جمع من جمع بين هذه الآية وبين الأخرى وهي قوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال/ ٢] وقوله: إنّهما متدافعتان- لأنّ الوجل خلاف الطمأنينة- فجهل وذهاب عمّا عليه الآيتان وما أريد بهما، وذلك أنّ الاطمئنان إنّما يكون عن ثلج القلب وشرح الصدر بمعرفة التوحيد والعلم به وما يتبع ذلك من الدرجة الرفيعة والثواب الجزيل. والوجل إنّما يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى وما يستحق به الوعيد فتوجل القلوب لذلك. فكلّ واحد من الحالين غير صاحبتها، فليس هنا إذا تضادّ ولا تدافع. وهذان المعنيان المفترقان في هاتين الآيتين قد اجتمعا في آية واحدة، وهي قوله: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ [الزمر/ ٢٣]، لأنّ هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدهم ووثقوا به، فانتفى عنهم الشكّ، والارتياب الذي يعرض لمن كان خلافهم ممن أظهر الإسلام تعوّذا، فحصل له حكمه دون العلم الموجب لثلج الصدر وانتفاء الريب والشكّ".

وقال ابن جماعة: " «قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، وقال في الرعد: {أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}؟

جوابه: أن المراد "بالذكر" ذكر عظمة الله وجلاله، وشدة انتقامه ممن عصى أمره لأن الآية عند اختلاف الصحابة في غنائم بدر، فناسب ذكر التخويف.

وآية الرعد: نزلت فيمن هداه الله وأناب إليه، والمراد بذلك الذكر: ذكر رحمته وعفوه ولطفه لمن أطاعه وأناب إليه.

وجُمع بينهما في آية الزمر فقال تعالى: {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي: عند ذكر عظمته وجلاله وعقابه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمته

=

=

وعفوه وكرمه»".

وقال الرازي: " فإن قيل: إنه تعالى قال هاهنا: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، وقال في آية أخرى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ} فكيف الجمع بينهما؟ وأيضا قال في آية أخرى: {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ} قلنا: الاطمئنان إنما يكون عن ثلج اليقين، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل إنما يكون من خوف العقوبة، ولا منافاة بين هاتين الحالتين، بل نقول: هذان الوصفان اجتمعا في آية واحدة، وهي قوله تعالى: تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله والمعنى: تقشعر الجلود من خوف عذاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله".

ثم أكد سبحانه- ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه تعالى عند الذبح، ومن وجوب شكره على نعمه فقال: (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ).

قوله تعالى: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ} [الحج: ٣٦]، أي:"وجعلنا لكم نَحْرَ البُدْن من شعائر الدين وأعلامه؛ لتتقربوا بها إلى الله".

قال يحيى بن سلام:"يعني: أجر في نحرها والصدقة منها تتقربون بها إلى الله".

قال السدي:"يعني: في البدن أجر".

قال مقاتل:"يقول: لكم في نحرها أجر في الآخرة ومنفعة في الدنيا، وإنما سميت البدن لأنها تقلد وتشعر وتساق إلى مكة، والهدى الذي ينحر بمكة ولم يقلد ولم يشعر والجزور البعير الذي ليس ببدنة ولا بهدى".

قال الطبري:"البدن: هو الضخم من كل شيء، ولذلك قيل لامرئ القيس بن النعمان صاحب الخورنق، والسدير البدن: لضخمه واسترخاء لحمه، فإنه يقال: قد بدن تبدينا. فمعنى الكلام. والإبل العظام الأجسام الضخام، جعلناها لكم أيها الناس من شعائر الله: يقول: من أعلام أمر الله الذي أمركم به في مناسك حجكم إذا

=

=

قلدتموها وجللتموها وأشعرتموها، علم بذلك وشعر أنكم فعلتم ذلك من الإبل والبقر".

عن عطاء: " {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله}، قال: البقرة والبعير".

قوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ} [الحج: ٣٦]، أي:"لكم فيها نفع فى الدنيا كالركوب واللبن، وأجر فى الآخرة بنحرها والتصدق بها".

قال الطبري:"يقول: لكم في البدن خير، وذلك الخير هو الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى ركوبها".

قال مجاهد:"أجر ومنافع في البدن".

قال إبراهيم:"اللبن والركوب إذا احتاج". وقال:"إذا اضطررت إلى بدنتك ركبتها وشربت لبنها".

وقال إبراهيم:"من احتاج إلى ظهر البدنة ركب، ومن احتاج إلى لبنها شرب".

قوله تعالى: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} [الحج: ٣٦]، أي:"فاذكروا اسم الله على البدن حين نحركم إياها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقولوا: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك".

قال الطبري: يقول:"فاذكروا اسم الله على البدن عند نحركم إياها صواف".

عن ابن عباس، قوله: " {صواف}، قال: قائمة، قال: يقول: الله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك".

عن أبي ظبيان، عن ابن عباس، قال: "قلت له: قول الله: {فاذكروا اسم الله عليها صواف}، قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فانحرها، وقل: الله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، ثم سم ثم انحرها. قلت: فأقول ذلك للأضحية، قال: وللأضحية".

قال ابن عباس:"الصواف: أن تعقل قائمة واحدة، وتصفها على ثلاث فتنحرها

=

=

كذلك".

قال مجاهد:"الصواف: إذا عقلت رجلها وقامت على ثلاث".

عن عبد الله: "أنه كان ينحر البدن وهي قائمة مستقبلة البيت تصف أيديها بالقيود، قال: هي التي ذكر الله: {فاذكروا اسم الله عليها صواف}".

قال بجير بن سالم: "رأيت ابن عمر وهو ينحر بدنته، قال: فقال: {صواف}، كما قال الله، قال: فنحرها وهي قائمة معقولة إحدى يديها".

وروي عن الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم، أنهم قرءوا: «صوافي» بالياء منصوبة، بمعنى: خالصة لله لا شريك له فيها صافية له.

وعن ابن مسعود أنه قرأه: «صوافن»، بمعنى: معقلة.

قوله تعالى: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [الحج: ٣٦]، أي:"فإذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة".

قال الطبري: يقول:"فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر.. وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت فسقطت للتغيب، ومنه قول أوس بن حجر:

ألم تكسف الشمس والبدر... والكواكب للجبل الواجب

يعني بـ «الواجب»: الواقع".

عن ابن عباس، قوله: " {فإذا وجبت جنوبها}، قال: إذا نحرت".

عن مجاهد: " {فإذا وجبت جنوبها}، سقطت إلى الأرض".

قال ابن إسحاق:"إذا فرغت ونحرت".

قال ابن زيد:"فإذا ماتت".

قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا} [الحج: ٣٦]، أي:"فقد حل لكم أكلها".

قال إبراهيم:"المشركون كانوا لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فأكلوا منها، فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل".

=

=

قال مجاهد:"إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، فهي بمنزلة: {وإذا حللتم فاصطادوا}".

قوله تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} [الحج: ٣٦]، أي:"وأطعموا القانع المستغنى بما تعطونه وهو فى بيته بلا مسألة، والمعتر الذى يتعرض لكم، ويأتى إليكم لتطعموه من لحمها".

وفي قوله تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ} [الحج: ٣٦]، أقوال:

أحدها: أن القانع: الذي يسأل، والمعتر السائل الذي يتعرض ولا يسأل، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، والكلبي، واختاره الفراء.

قال الفراء:"القانع: الَّذِي يَسْألك فما أعطيته من شيء قبله، والمعتر: ساكت يتعرض لك عند الذبيحة، ولا يسألك.

الثاني: أن القانع، المتعفف، والمعتر: السائل، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد-في رواية، وقتادة، وإبراهيم النخعي.

وروي عن الحسن كالقولين.

الثالث: أن القانع: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر: الذي يتعرض لك ويلم بك ولا يسأل، رواه العوفي عن ابن عباس.

وروي عن إبراهيم ومجاهد: "القانع: الجالس في بيته، والمعتر: الذي يتعرض لك".

وعن سعيد بن جبير:"القانع: الذي يقنع، والمعتر: الذي يعتريك".

وقال مجاهد: القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يتعرض لك ولا يسألك".

قال القرظي:"القانع: الذي يقنع بالشيء اليسير يرضى به، والمعتر: الذي يمر بجانبك لا يسأل شيئا؛ فذلك المعتر".

=

=

قال ابن الجوزي:"فعلى هذا يكون معنى القانع: أن يقنع بما أعطي، ومن قال: هو المتعفف، قال: هو القانع بما عنده".

الرابع: القانع: أهل مكة، والمعتر: الذي يعتر بهم من غير أهل مكة، رواه خصيف عن مجاهد.

الخامس: القانع: الجار وإن كان غنيا، والمعتر الذي يعتر بك، رواه ليث عن مجاهد.

قال مجاهد:"القانع: جارك الغني، والمعتر: من اعتراك من الناس".

وقال إبراهيم:"أحدهما السائل، والآخر الجار".

السادس: القانع: المسكين الذي يطوف، والمعتر: الصديق والضعيف الذي يزور، قاله زيد بن أسلم.

السابع: القانع: الطامع، والمعتر: الذي يعتر بالبدن. وهذا مروي عن مجاهد-في رواية-، وعطاء.

الثامن: القانع: المسكين، والمعتر: الذي يعتر القوم للحمهم وليس بمسكين، ولا تكون له ذبيحة، يجيء إلى القوم من أجل لحمهم، والبائس الفقير: هو القانع. وهذا مروي عن ابن زيد أيضا.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عني بالقانع: السائل؛ لأنه لو كان المعني بالقانع في هذا الموضع، المكتفي بما عنده والمستغني به لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: وأطعموا القانع والمعتر. وفي إتباع ذلك قوله: والمعتر، الدليل الواضح على أن القانع معني به السائل، من قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعا؛ ومنه قول لبيد:

وأعطاني المولى على حين فقره... إذا قال أبصر خلتي وقنوعي

وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قنعت بكسر النون أقنع قناعة وقنعا

=

=

وقنعانا. وأما المعتر: فإنه الذي يأتيك معترا بك لتعطيه وتطعمه".

قال ابن قتيبة: " {القانع} السائل، يقال: قنع يقنع قنوعا؛ ومن الرضا قنع يقنع قناعة، و {المعتر} الذي يعتريك: أي يلم بك لتعطيه ولا يسأل. يقال: اعترني وعرني، وعراني واعتراني"..

وقال الزجاج: "مذهب أهل اللغة أن «القانع»: السائل، يقال: قنع الرجل قنوعا إذا سأل، فهو قانع، وأنشدوا للشماخ:

لمال المرء يصلحه فيغني... مفاقره أعف من القنوع

أي: أعف من السؤال، وقنع قناعة إذا رضي فهو قنع، والمعتر: الذي يعتريك فيطلب ما عندك، سألك إذ سئلت عن السؤال وكذلك المعتري".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج: ٣٦]، أي:"هكذا سخَّر الله البُدْن لكم، لعلكم تشكرون الله على تسخيرها لكم".

قال الطبري:"يقول هكذا سخرنا البدن لكم أيها الناس. يقول: لتشكروني على تسخيرها لكم".

عطف على جملة ولكل أمة جعلنا منسكا [الحج: ٣٤] أي جعلنا منسكا للقربان والهدايا، وجعلنا البدن التي تهدى ويتقرب بها شعائر من شعائر الله.

والمعنى: أن الله أمر بقربان البدن في الحج من عهد إبراهيم عليه السلام وجعلها جزاء عما يترخص فيه من أعمال الحج. وأمر بالتطوع بها فوعد عليها بالثواب الجزيل فنالت بذلك الجعل الإلهي يمنا وبركة وحرمة ألحقتها بشعائر الله، وامتن بذلك على الناس بما اقتضته كلمة لكم.

والبدن: جمع بدنة. وهي الإبل خاصة التي تهدى إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله تعالى وقيل: وقيل: الإبل والبقر وقيل: هي الإبل والبقر والغنم وهو شاذ، حكاه الماورديّ عن ابن شجرة.

=

=

قال ابن الجوزي: قال القاضي أبو يعلى: البدنة: اسم يختص الإبل في اللغة، والبقرة تقوم مقامها في الحكم، لأن النبي ﷺ جعل البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة. ا.هـ

وسميت بهذا الاسم لبدانتها وضخامتها. يقال: بدن الرجل- بوزن كرم- إذا كثر لحمه، وضخم جسمه.

أى: وشرعنا لكم- أيها المؤمنون- التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص.

وقوله تعالى لَكُمْ فِيها خَيْرٌ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها. أى: لكم فيه خير في الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها.. ولكم فيها خير في الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذي تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما أرشدكم إليه.

وقوله تعالى: فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها.

وصواف: جمع صافة. أى: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعدادا للذبح!.

أى: إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح، فاذكروا اسم الله عليها، بأن تقولوا عند نحرها: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك.

وقوله سبحانه: (فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) بيان لما ينبغي عليهم فعله بعد ذبحها.

ووجبت بمعنى سقطت: وهو كناية عن موتها. يقال: وجب الجدار إذا سقط، ووجبت الشمس إذا غابت.

قال الزجاج: ({وجبت جنوبها} [الحج:٣٦] أي: سقطت إلى الأرض).

وقال الراغب: (وجبت الشمس: إذا غابت، كقولهم: سقطت ووقعت، ومنه قوله تعالى: {فإذا وجبت جنوبها} [الحج:٣٦]).

=

=

وقال البغوي: (يعني: سقطت بعد النحر؛ فوقعت جنوبها على الأرض).

وفي تفسير الوجوب هنا بالسقوط فائدتان:

الأولى: أن الإبل تنحر قائمة؛ لأن السقوط لا يكون إلا من قيام.

الثانية: أن فيه دليلا لمن قصر البدن في الإبل، وقال: لا تطلق على البقر لأن البقر تذبح مضجعة ولا تنحر من قيام. والله أعلم.

قال ابن قدامة في المغني (٥/ ٢٩٨): والسنة نحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى، فيضربها بالحربة في الوهدة التي بين أصل العنق والصدر. وممن استحب ذلك مالك، والشافعي وإسحاق، وابن المنذر. واستحب عطاء نحرها باركة. وجوّز الثوري وأصحاب الرأي كل ذلك. ولنا، ما روى زياد بن جبير، قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل أناخ بدنته لينحرها، فقال: ابعثها قياما مقيّدة، سنة محمد ﷺ. متفق عليه. وفي قوله تعالى: فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها دليل على أنها تنحر قائمة. وتجزئه كيفما نحر. قال أحمد: ينحر البدن معقولة على ثلاث توائم، وإن خشي عليها أن تنفر أناخها. وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» ٩/ ٦٩: يستحب نحر الإبل وهي قائمة معقولة اليد اليسرى. وأما البقر والغنم فيستحب أن تذبح مضطجعة على جنبها الأيسر، وتترك رجلها اليمنى، وتشد قوائمها الثلاث، وهو مذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور، وقال أبو حنيفة والثوري: يستوي نحرها قائمة وباركة، وحكى القاضي- عياض- عن طاوس أن نحرها باركة أفضل، وهذا مخالف للسنة، والله أعلم ا.هـ

ثم بين سبحانه مظاهر فضله عليهم، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال: كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

وقوله كَذلِكَ نعت لمصدر محذوف. أى: مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام، وذللناها لكم، وجعلناها منقادة لأمركم، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه

=

=

النعم، وانتفعتم بها، تكونون من الشاكرين لنا، والمستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا.

قال الزمخشري: منّ الله على عباده واستحمد إليهم، بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا. يأخذونها منقادة للأخذ طيعة، فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون في لباتها. ولولا تسخير الله لم تطعن، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما، وأقل قوة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا على ذلك ا.هـ.

ثم ختم سبحانه الحديث عن شعائر الحج، بتوجيه عباده إلى وجوب الإخلاص له، والاستجابة لأمره، وشكره على نعمه، فقال تعالى: لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ....

قوله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} [الحج: ٣٧]، أي:"لن ينال اللهَ مِن لحوم هذه الذبائح ولا من دمائها شيء، ولكن يناله الإخلاص فيها، وأن يكون القصد بها وجه الله وحده".

قال يحيى:"يقول: لا يصعد إلى الله لحومها ولا دماؤها، وقد كان المشركون يذبحون لآلهتهم ثم ينضحون دماءها حول البيت، قوله: {ولكن يناله التقوى منكم} يصعد إليه التقوى منكم، يعني من آمن".

قال الطبري: يقول:"لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه أن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه، وعملتم فيها بما ندبكم إليه وأمركم به في أمرها وعظمتم بها حرماته".

قال الواحدي:"أَيْ: لن يصل إلى اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا {وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى منكم} أَيْ: النِّيَّةُ والإخلاص وما أريد به وجه الله تعالى".

قال الزجاج:"كانوا إذا ذبحوا لطخوا البيت بالدم، فأعلم الله - ﷻ - أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به".

=

=

عن إبراهيم:"{ولكن يناله التقوى منكم}، قال: ما أريد به وجه الله".

قال ابن زيد:"إن اتقيت الله في هذه البدن، وعملت فيها لله، وطلبت ما قال الله تعظيما لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: {ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) قال (ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه} قال: وجعلته طيبا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال الله؟".

قال القشيري:"لا عبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة، أو مالية صرفة، أو بما له تعلق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص، فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاص القصود، وتجردت عن ملاحظة أصحابها للأغيار صلحت للقبول، ويقال التقوى شهود الحق بنعت التفرد فلا يشاب تقربك بملاحظة أحد، ولا تأخذ عوضا على عمل من بشر".

وقرئت: «لن تنال الله لحومها»، بالتاء.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [الحج: ٣٧]، أي:"كذلك ذللها لكم -أيها المتقربون-؛ لتعظموا الله، وتشكروا له على ما هداكم من الحق، فإنه أهلٌ لذلك".

قال الطبري: يقول:"يقول: هكذا سخر لكم البدن، كي تعظموا الله على ما هداكم، يعني على توفيقه إياكم لدينه وللنسك في حجكم".

عن ابن زيد: " {لتكبروا الله على ما هداكم}، قال: على ذبحها في تلك الأيام".

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧]، أي:"وبشِّر -أيها النبي- المحسنين بعبادة الله وحده والمحسنين إلى خلقه بكل خير وفلاح".

قال يحيى: أي:"بالجنة".

قال الطبري:"يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة".

=

=

قال مقاتل:"فمن فعل ما ذكر الله في هذه الآيات فقد أحسن".

قال القشيري:"«الإحسان» كما فى الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه.. »، وأمارة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه، فلا يستثقل شيئا، ولا يتبرم بشئ".

قال الرازي: لما كانت عادة الجاهلية على ما روي في القربان أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال: {لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ} فبين أن الذي يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدي من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم، ومعلوم أن شيئًا من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب} [فاطر: ١٠]. ا.هـ

أى: لن يصل إلى الله تعالى لحم هذه الأنعام ودماؤها، من حيث هي لحوم ودماء، ولكن الذي يصل إليه سبحانه ويثيبكم عليه، هو تقواكم ومراقبتكم له سبحانه وخوفكم منه، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له.

قالوا: وفي هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون، من تقطيعهم للحوم الأنعام، ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء، إذ رضا الله تعالى لا ينال بذلك، وإنما ينال بتقوى القلوب.

ثم كرر سبحانه تذكيره إياهم بنعمه، ليكون أدعى إلى شكره وطاعته فقال: كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ، لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ.

أى: كهذا التسخير العجيب الذي ترونه سخرنا لكم هذه الأنعام لكي تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان.

وبشر- أيها الرسول الكريم- المحسنين لأقوالهم وأفعالهم، بثوابنا الجزيل

=

=

وبعطائنا الواسع.

وبذلك ترى أن سورة الحج قد سبحت بنا سبحا طويلا في حديثها عن البيت الحرام، وعن آداب الحج ومناسكه وأحكامه، وعن الجزاء الحسن الذي أعده تعالى للمستجيبين لأمره.

** مسألة: قال العلامة العثيمين في تلخيص كتاب " أحكام الأضحية والذكاة".

الفصل الأول: في تعريف الأضحية وحكمها.

الأضحية: ما يذبح من بهيمة الأنعام أيام عيد الأضحى بسبب العيد تقربًا إلى الله ﷻ، وهي من شعائر الإسلام المشروعة بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}. والنسك الذبح، قاله سعيد بن جبير، وقيل جميع العبادات ومنها الذبح، وهو أشمل. وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الاَنْعَمِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين ذبحهما بيده وسمى وكبر، وضع رجله على صفاحهما». وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أقام النبي ﷺ بالمدينة عشر سنين يضحي». رواه أحمد والترمذي، وقال حديث حسن.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قسم بين أصحابه ضحايا فصارت لعقبة جذعة فقال: يا رسول الله صارت لي جذعة فقال: «ضح بها» رواه البخاري ومسلم.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه

=

=

وأصاب سنة المسلمين». رواه البخاري ومسلم.

فقد ضحى ﷺ وضحى أصحابه رضي الله عنهم، وأخبر أن الأضحية سنة المسلمين يعني طريقتهم، ولهذا أجمع المسلمون على مشروعيتها، كما نقله غير واحد من أهل العلم. واختلفوا هل هي سنة مؤكدة، أو واجبة لا يجوز تركها؟

فذهب جمهور العلماء إلى أنها سنة مؤكدة، وهو مذهب الشافعي، ومالك، وأحمد في المشهور عنهما.

وذهب آخرون إلى أنها واجبة، وهو مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: هو أحد القولين في مذهب مالك، أو ظاهر مذهب مالك.

وذبح الأضحية أفضل من الصدقة بثمنها؛ لأن ذلك عمل النبي ﷺ والمسلمين معه؛ ولأن الذبح من شعائر الله تعالى، فلو عدل الناس عنه إلى الصدقة لتعطلت تلك الشعيرة. ولو كانت الصدقة بثمن الأضحية أفضل من ذبح الأضحية لبينه النبي ﷺ لأمته بقوله أو فعله، لأنه لم يكن يدع بيان الخير للأمة، بل لو كانت الصدقة مساوية للأضحية لبينه أيضًا لأنه أسهل من عناء الأضحية ولم يكن ﷺ ليدع بيان الأسهل لأمته مع مساواته للأصعب، ولقد أصاب الناس مجاعة في عهد النبي ﷺ فقال: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة في بيته شيء». فلما كان العام المقبل قالوا يا رسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي فقال النبي ﷺ: «كلوا واطعموا وادخروا فإن ذلك العام كان في الناس جهد فأردت أن تعينوا فيها». متفق عليه.

قال ابن القيم رحمه الله: الذبح في موضعه أفضل من الصدقة بثمنه. قال: ولهذا لو تصدق عن دم المتعة والقِرَان بأضعاف أضعاف القيمة لم يقم مقامه وكذلك الأضحية. انتهى كلامه.

=

=

فصل.

والأصل في الأضحية أنها مشروعة في حق الأحياء كما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يضحون عن أنفسهم وأهليهم، وأما ما يظنه بعض العامة من اختصاص الأضحية بالأموات فلا أصل له.

والأضحية عن الأموات ثلاثة أقسام:

الأول: أن يضحي عنهم تبعًا للأحياء مثل أن يضحي الرجل عنه وعن أهل بيته وينوي بهم الأحياء والأموات، وأصل هذا تضحية النبي ﷺ عنه وعن أهل بيته وفيهم من قد مات من قبل.

الثاني: أن يضحي عن الأموات بمقتضى وصاياهم تنفيذًا لها وأصل هذا قوله تعالى: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

الثالث: أن يضحي عن الأموات تبرعًا مستقلين عن الأحياء فهذه جائزة، وقد نص فقهاء الحنابلة على أن ثوابها يصل إلى الميت وينتفع به قياسًا على الصدقة عنه، ولكن لا نرى أن تخصيص الميت بالأضحية من السنة؛ لأن النبي ﷺ لم يضح عن أحد من أمواته بخصوصه، فلم يضح عن عمه حمزة وهو من أعز أقاربه عنده، ولا عن أولاده الذين ماتوا في حياته، وهم ثلاث بنات متزوجات، وثلاثة أبناء صغار، ولا عن زوجته خديجة وهي من أحب نسائه إليه، ولم يرد عن أصحابه في عهده أن أحدًا منهم ضحى عن أحد من أمواته.

ونرى أيضًا من الخطأ ما يفعله بعض من الناس يضحون عن الميت أول سنة يموت أضحية يسمونها (أضحية الحفرة) ويعتقدون أنه لا يجوز أن يشرك معه في ثوابها أحد، أو يضحون عن أمواتهم تبرعًا، أو بمقتضى وصاياهم ولا يضحون عن أنفسهم وأهليهم، ولو علموا أن الرجل إذا ضحى من ماله عن نفسه وأهله شمل أهله الأحياء والأموات لما عدلوا عنه إلى عملهم ذلك.

=

=

الفصل الثاني: في شروط الأضحية

يشترط للأضحية ستة شروط:

أحدها: أن تكون من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ضأنها ومعزها لقوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} وبهيمة الأنعام هي الإبل، والبقر، والغنم هذا هو المعروف عند العرب، وقاله الحسن وقتادة وغير واحد.

الثاني: أن تبلغ السن المحدود شرعًا بأن تكون جذعة من الضأن، أو ثنية من غيره لقوله ﷺ: «لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن». رواه مسلم.

والمسنة: الثنية فما فوقها، والجذعة ما دون ذلك. فالثني من الإبل: ما تم له خمس سنين، والثني من البقر: ما تم له سنتان. والثني من الغنم ما تم له سنة، والجذع: ما تم له نصف سنة، فلا تصح التضحية بما دون الثني من الإبل والبقر والمعز، ولا بما دون الجذع من الضأن.

الثالث: أن تكون خالية من العيوب المانعة من الإجزاء وهي أربعة:

١ ـ العور البين: وهو الذي تنخسف به العين، أو تبرز حتى تكون كالزر، أو تبيض ابيضاضًا يدل دلالة بينة على عورها.

٢ ـ المرض البين: وهو الذي تظهر أعراضه على البهيمة كالحمى التي تقعدها عن المرعى وتمنع شهيتها، والجرب الظاهر المفسد للحمها أو المؤثر في صحته، والجرح العميق المؤثر عليها في صحتها ونحوه.

٣ ـ العرج البين: وهو الذي يمنع البهيمة من مسايرة السليمة في ممشاها.

٤ ـ الهزال المزيل للمخ: لقول النبي ﷺ حين سئل ماذا يتقي من الضحايا فأشار بيده وقال: «أربعًا: العرجاء البين ضلعها، والعوراء البين عورها، والمريضة البين

=

=

مرضها، والعجفاء التي لا تنقى». رواه مالك في الموطأ من حديث البراء بن عازب، وفي رواية في السنن عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «أربع لا تجوز في الأضاحي» وذكر نحوه.

فهذه العيوب الأربعة مانعة من إجزاء الأضحية بما تعيب بها، ويلحق بها ما كان مثلها أو أشد، فلا تجزئ الأضحية بما يأتي:

١ ـ العمياء التي لا تبصر بعينيها.

٢ ـ المبشومة حتى تنشط ويزول عنها الخطر.

٣ ـ المتولدة إذا تعسرت ولادتها حتى يزول عنها الخطر.

٤ ـ المصاب بما يميتها من خنق وسقوط من علو ونحوه حتى يزول عنها الخطر.

٥ ـ الزمنى وهي العاجزة عن المشي لعاهة.

٦ ـ مقطوعة إحدى اليدين أو الرجلين.

فإذا ضممت ذلك إلى العيوب الأربعة المنصوص عليها صار ما لا يضحى به عشرة. هذه الستة وما تعيب بالعيوب الأربعة السابقة.

الشرط الرابع: أن تكون ملكًا للمضحي، أو مأذونًا له فيها من قبل الشرع، أو من قبل المالك فلا تصح التضحية بما لا يملكه كالمغصوب والمسروق والمأخوذ بدعوى باطلة ونحوه؛ لأنه لا يصح التقرب إلى الله بمعصيته. وتصح تضحية ولي اليتيم له من ماله إذا جرت به العادة وكان ينكسر قلبه بعدم الأضحية.

وتصح تضحية الوكيل من مال موكله بإذنه.

الشرط الخامس: أن لا يتعلق بها حق للغير فلا تصح التضحية بالمرهون.

الشرط السادس: أن يضحى بها في الوقت المحدود شرعًا وهو من بعد صلاة العيد يوم النحر إلى غروب الشمس من آخر يوم من أيام التشريق وهو اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، فتكون أيام الذبح أربعة: يوم العيد بعد الصلاة، وثلاثة أيام بعده،

=

=

فمن ذبح قبل فراغ صلاة العيد، أو بعد غروب الشمس يوم الثالث عشر لم تصح أضحيته لما روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله وليس من النسك في شيء». وروى عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: شهدت النبي ﷺ قال: «من ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرى». وعن نبيشة الهذلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل». رواه مسلم. لكن لو حصل له عذر بالتأخير عن أيام التشريق مثل أن تهرب الأضحية بغير تفريط منه فلم يجدها إلا بعد فوات الوقت، أو يوكل من يذبحها فينسى الوكيل حتى يخرج الوقت فلا بأس أن تذبح بعد خروج الوقت للعذر، وقياسًا على من نام عن صلاة أو نسيها فإنه يصليها إذا استيقظ أو ذكرها.

ويجوز ذبح الأضحية في الوقت ليلًا ونهارًا، والذبح في النهار أولى، ويوم العيد بعد الخطبتين أفضل، وكل يوم أفضل مما يليه؛ لما فيه من المبادرة إلى فعل الخير.

الفصل الثالث: في الأفضل من الأضاحي جنسًا أو صفة والمكروه منها.

الأفضل من الأضاحي جنسًا: الإبل، ثم البقر إن ضحى بها كاملة، ثم الضأن، ثم المعز، ثم سبع البدنة ثم سبع البقرة.

والأفضل منها صفة: الأسمن الأكثر لحمًا الأكمل خلقة الأحسن منظرًا. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يضحي بكبشين أقرنين أملحين. والكبش: العظيم من الضأن. والأملح ما خالط بياضه سواد فهو أبيض في سواد. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ضحى النبي ﷺ بكبش أقرن فحيل يأكل في سواد، وينظر في سواد ويمشي في سواد. أخرجه الأربعة، وقال الترمذي: حسن صحيح. والفحيل: الفحل، ومعنى يأكل في سواد إلى آخره أن شعر فمه وعينيه وأطرافه أسود. وعن أبي رافع مولى النبي ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا

=

=

ضحى اشترى كبشين سمينين وفي لفظ: موجوءين. رواه أحمد.

السمين: كثير الشحم واللحم. والموجوء: الخصي وهو أكمل من الفحل من حيث طيب اللحم غالبًا. والفحل أكمل من حيث تمام الخلقة والأعضاء.

هذا هو الأفضل من الأضاحي جنسًا وصفة.

وأما المكروه منها فهي:

١ ـ العضباء: وهي ما قطع من أذنها أو قرنها النصف فأكثر.

٢ ـ المقابلة ـ بفتح الباء ـ: وهي التي شقت أذنها عرضًا من الأمام.

٣ ـ المدابرة ـ بفتح الباء ـ: وهي التي شقت أذنها عرضًا من الخلف.

٤ ـ الشرقاء: وهي التي شقت أذنها طولًا.

٥ ـ الخرقاء: وهي التي خرقت أذنها.

٦ ـ المصفرة ـ بضم الميم وسكون الصاد وفتح الفاء والراء ـ: وهي التي قطعت أذنها حتى ظهر صماخها، وقيل المهزولة إذا لم تصل إلى حد تفقد فيه المخ.

٧ ـ المستأصلة ـ بفتح الصاد ـ: وهي التي ذهب قرنها كله.

٨ ـ البخقاء: وهي التي بخقت عينها فذهب بصرها وبقيت العين بحالها.

٩ ـ المشيعة ـ بفتح الياء المشددة ـ: وهي التي لا تتبع الغنم لضعفها إلا بمن يشيعها فيسوقها لتلحق. ويصح كسر الياء المشددة. وهي التي تتأخر خلف الغنم لضعفها فتكون كالمشيعة لهن.

هذه هي المكروهات التي وردت الأحاديث بالنهي عن التضحية بما تعيب بها أو الأمر باجتنابها، وحمل ذلك على الكراهة للجمع بينها وبين حديث البراء بن عازب رضي الله عنه السابق في الشرط الثالث من شروط الأضحية.

ويلحق بهذه المكروهات ما كان مثلها فتكره التضحية بما يأتي:

١ ـ البتراء من الإبل والبقر والمعز وهي التي قطع نصف ذنبها فأكثر.

=

=

٢ ـ ما قطع من أليته أقل من النصف. فإن قطع النصف فأكثر فقال جمهور أهل العلم: لا تجزئ. فأما مفقودة الألية بأصل الخلقة فلا بأس بها.

٣ ـ ما قطع ذكره.

٤ ـ ما سقط بعض أسنانها ولو كانت الثنايا أو الرباعيات. فإن فقد بأصل الخلقة لم تكره.

٥ ـ ما قطع شيء من حلمات ثديها. فإن فقد بأصل الخلقة لم تكره. وإن توقف لبنها مع سلامة ثديها فلا بأس بها.

فإذا ضممت هذه المكروهات الخمس إلى التسع السابقة صارت المكروهات أربع عشرة.

الفصل الرابع: فيمن تجزئ عنه الأضحية.

تجزئ الأضحية الواحدة من الغنم عن الرجل وأهل بيته ومن شاء من المسلمين؛ لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أمر بكبش أقرن يطأ في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد فأتي به ليضحي به فقال لها: «يا عائشة هلمي المدية (أي أعطيني السكين) ففعلت ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه (أي أخذ يستعد لذبحه) ثم قال: بسم الله، اللهم تقبل من محمد، وآل محمد، ومن أمة محمد ثم ضحى به». رواه مسلم، وما بين القوسين تفسير وليس من أصل الحديث. وعن أبي رافع رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان يضحي بكبشين أحدهما عنه وعن آله، والاخر عن أمته جميعًا»، رواه أحمد. وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: «كان الرجل في عهد النبي ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون». رواه ابن ماجه والترمذي وصححه.

فإذا ضحى الرجل بالواحدة من الغنم الضأن أو المعز عنه وعن أهل بيته أجزأ عن كل من نواه من أهل بيته من حي وميت، فإن لم ينو شيئًا يعم أو يخص دخل في

=

=

أهل بيته كل من يشمله هذا اللفظ عرفًا أو لغة، وهو في العرف لمن يعولهم من زوجات وأولاد وأقارب، وفي اللغة: لكل قريب له من ذريته وذرية أبيه وذرية جده وذرية جد أبيه.

ويجزئ سبع البعير أو سبع البقر عما تجزئ عنه الواحدة من الغنم، فلو ضحى الرجل بسبع بعير أو بقرة عنه وعن أهل بيته أجزأه ذلك؛ لأن النبي ﷺ جعل سبع البدنة والبقرة قائمًا مقام الشاة في الهدي فكذلك يكون في الأضحية لعدم الفرق بينها وبين الهدي في هذا.

ولا تجزئ الواحدة من الغنم عن شخصين فأكثر يشتريانها فيضحيان بها؛ لعدم ورود ذلك في الكتاب والسنة، كما لا يجزئ أن يشترك ثمانية فأكثر في بعير أو بقرة؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز فيها تعدي المحدود كمية وكيفية، وهذا في غير الاشتراك في الثواب، فقد ورد التشريك فيه بدون حصر كما سبق.

وعلى هذا فإذا وجدت وصايا لجماعة كل واحد موص بأضحية من ريع وقف مثلًا، ولم يكف ريع كل وصية لها فإنه لا يجوز جمع هذه الوصايا في أضحية واحدة، لما عرفت من أن الواحدة من الغنم لا تجزئ عن شخصين فأكثر في غير الثواب، وعلى هذا فيجمع الريع حتى يبلغ ثمن الأضحية، فإن كان ضئيلًا لا يجتمع إلا بعد سنوات تصدق به في عشر ذي الحجة.

أما لو كان الموصي واحدًا أوصى بعدة ضحايا فلم يكف الريع لجميعها فإن شاء الوصي جمع الضحايا في أضحية واحدة لأن الموصي واحد، وإن شاء ضحى أضحية في سنة، وأضحية في سنى أخرى والأولى أولى.

(تنبيه هام): يقدر بعض الموصين قيمة الأضحية من الريع لقصد المبالغة في غلائها استبعادًا منه أن تبلغ ما قدر فيقول يضحي عني ولو بلغت الأضحية ريالًا؛ لأنها كانت في وقته أرخص بكثير فيعمد بعض الأوصياء الذين لا يخافون الله

=

=

فيعطل الأضحية بحجة أن الموصي قدر قيمتها بريال ولا توجد أضحية بريال، مع أن الريع كثير وهذا حرام عليه وهو آثم بذلك، وعليه أن يضحي ولو بلغت الأضحية آلاف الريالات مادام الريع يكفي لذلك؛ لأن مقصود الموصي من التقدير المبالغة في قيمة الأضحية لا تحديدها بهذا المقدار.

الفصل الخامس: فيما تتعين به الأضحية وأحكامه.

تتعين الأضحية بواحد من أمرين:

أحدهما: اللفظ بأن يقول: هذه أضحية. قاصدًا إنشاء تعيينها، فأما إن قصد الإخبار عما يريد بها في المستقبل فإنها لا تتعين بذلك؛ لأن المقصود به الإخبار عما سيفعل بها في المستقبل لا إنشاء تعيينها.

الثاني: الفعل وهو نوعان:

أحدهما: ذبحها بنية الأضحية، فمتى ذبحها بهذه النية ثبت لها حكم الأضحية.

ثانيهما: شراؤها بنية الأضحية إذا كانت بدلًا عن معينة، مثل أن يعين أضحية فتتلف بتفريط منه فيشتري أخرى بنية أنها بدل عن التي تلفت فهذه تكون أضحية بمجرد الشراء بهذه النية؛ لأنها بدل عن معينة، والبدل له حكم المبدل. أما إذا لم تكن بدلًا عن معينة فإنها لا تتعين بالشراء بنية الأضحية، كما لو اشترى عبدًا يريد أن يعتقه فإنه لا يصير عتيقًا بمجرد الشراء، أو اشترى شيئًا ليجعله وقفًا فإنه لا يصير وقفًا بمجرد الشراء، فكذلك إذا اشترى بهيمة بنية أنها أضحية فلا تكون أضحية بمجرد ذلك.

وإذا تعينت الأضحية تعلق بها أحكام:

الأول: أنه لا يجوز التصرف بها بما يمنع التضحية بها من بيع وهبة ورهن وغيرها إلا أن يبدلها بخير منها لمصلحة الأضحية، لا لغرض في نفسه، فلو عين شاة أضحية ثم تعلقت بها نفسه لغرض من الأغراض فندم وأبدلها بخير منها ليستبقيها

=

=

لم يجز له ذلك؛ لأنه رجوع فيما أخرجه لله تعالى لحظ نفسه لا لمصلحة الأضحية.

الثاني: أنه إذا مات بعد تعيينها لزم الورثة تنفيذها، وإن مات قبل التعيين فهي ملكهم يتصرفون فيها بما شاءوا.

الثالث: أنه لا يستغل شيئًا من منافعها فلا يستعملها في حرث ونحوه، ولا يركبها إلا إذا كان لحاجة وليس عليها ضرر، ولا يحلب من لبنها ما ينقصها أو يحتاجه ولدها المتعين معها، ولا يجز شيئًا من صوفها ونحوه إلا أن يكون أنفع لها فيجزه ويتصدق به أو يهديه أو ينتفع به ولا يبيعه.

الرابع: أنها إذا تعيبت عيبًا يمنع من الإجزاء مثل أن يشتري شاة فيعينها فتبخق عينها حتى تكون عوراء بينة العور فلها حالان:

إحداهما: أن يكون ذلك بفعله أو تفريطه فيجب عليه إبدالها بمثلها على صفتها أو أكمل؛ لأن تعيبها بسببه فلزمه ضمانها بمثلها يذبحه بدلًا عنها، وتكون المعيبة ملكًا له على القول الصحيح يصنع فيها ما شاء من بيع وغيره.

الثانية: أن يكون تعيبها بدون فعل منه ولا تفريط فيذبحها وتجزئه إلا أن تكون واجبة في ذمته قبل التعيين لأنها أمانة عنده وقد تعيبت بدون فعل منه ولا تفريط فلا حرج عليه ولا ضمان.

فإن كانت واجبة في ذمته قبل التعيين وجب عليه إبدالها بسليمة تجزئ عما في ذمته، مثل أن يقول لله علي نذر أن أضحي هذا العام فيشتري أضحية فيعينها عما نذر ثم تصاب بعيب يمنع من الإجزاء فيلزمه أن يبدلها بسليمة تجزئ في الأضحية، وتكون المعيبة له، لكن إن كانت أعلى من البدل لزمه أن يتصدق بالأرش وهو فرق ما بين القيمتين.

الخامس: أنها إذا ضاعت أو سرقت فلها حالان أيضًا:

=

=

إحداهما: أن يكون ذلك بتفريط منه مثل أن يضعها في مكان غير محرز فتهرب أو تسرق فيجب عليه إبدالها بمثلها على صفتها أو أكمل يذبحه بدلًا عنها، وتكون الضائعة أو المسروقة ملكًا له يصنع فيها إذا حصل عليها ما شاء من بيع وغيره.

الثانية: أن يكون ذلك بدون تفريط منه فلا ضمان عليه إلا أن تكون واجبة في ذمته قبل التعيين لأنها أمانة عنده ولا ضمان على الأمين إذا لم يفرط، لكن متى حصل عليها وجب عليه التضحية بها ولو بعد فوات وقت الذبح، وكذا لو غرمها السارق فيجب التضحية بما غرمه لصاحبها على صفتها بدون نقص.

فإن كانت واجبة في ذمته قبل التعيين وجب عليه أن يذبح بدلها ما يجزئ عما في ذمته، ومتى حصل عليها فهي له يصنع فيها ما شاء من بيع وغيره، لكن إن كان البدل الذي ذبحه عنها أنقص منها وجب عليه أن يتصدق بأرش النقص وهو فرق ما بين القيمتين.

السادس: أنها إذا أتلفت فلها ثلاث حالات:

إحداها: أن يكون تلفها بأمر لا صنع للادمي فيه كالمرض والافة السماوية والفعل الذي تفعله هي فتموت به فلا ضمان عليه، إلا أن تكون واجبة في ذمته قبل التعيين؛ لأنها أمانة عنده تلفت بسبب لا يمكن التضمين فيه فلم يكن عليه ضمان.

فإن كانت واجبة في ذمته قبل التعيين وجب عليه أن يذبح بدلها ما يجزئ عما في ذمته.

الثانية: أن يكون تلفها بفعل مالكها فيجب عليه أن يذبح بدلها على صفتها أو أكمل؛ لوجوب ضمانها حينئذ.

الحال الثالثة: أن يكون تلفها بفعل آدمي غير مالكها فإن كان لا يمكن تضمينه كقطاع الطرق فحكمها حكم ما تلفت بأمر لا صنع للادمي فيه على ما سبق في الحال الأولى. وإن كان يمكن تضمينه كشخص معين ذبحها فأكلها أو قتلها

=

=

ونحوه فإنه يجب عليه ضمانها بمثلها يدفعه إلى صاحبها ليضحي به إلا أن يبرئه صاحبها من ذلك ويقوم بما يجب من ضمانها.

الحكم السابع: أنها إذا ذبحت قبل وقت الذبح ولو بنية الأضحية فالحكم فيها كالحكم فيما كما إذا أتلفت على ما سبق. وإن ذبحت في وقت الذبح فإن كان الذابح صاحبها أو وكيله فقد وقعت موقعها وإن كان الذابح غير صاحبها ولا وكيله فلها ثلاث حالات:

إحداها: أن ينويها عن صاحبها فإن رضي صاحبها بذلك أجزأت، وإن لم يرض بذلك لم تجزئ على الصحيح، ويجب على الذابح ضمانها بمثله يدفعه إلى صاحبها ليضحي به إلا أن يبرئه صاحبها من ذلك ويقوم بما يجب من ضمانها. وقيل: تجزئ وإن لم يرض بذلك وهو المشهور من مذهب أحمد، والشافعي، وأبي حنيفة رحمهم الله.

الثانية: أن ينويها عن نفسه لا عن صاحبها. فإن كان يعلم أنها لغيره لم تجز عنه ولا عن غيره ويجب عليه ضمانها بمثلها يدفعه إلى صاحبها ليضحي به إلا أن يبرئه صاحبها من ذلك ويقوم بما يجب من ضمانها، وقيل: تجزئ عن صاحبها وعليه ضمان ما فرق من اللحم. وإن كان لا يعلم أنها لغيره أجزأت عن صاحبها فإن كان ذابحها قد فرق لحمها وجب عليه ضمانه بمثله لصاحبها إلا أن يرضى بتفريقه إياه.

الثالثة: أن لا ينويها عن أحد فلا تجزئ عن واحد منهما لعدم النية، وقيل: تجزئ عن صاحبها ومتى أجزأت عن صاحبها في حال من الأحوال السابقة فإن كان اللحم باقيًا أخذه صاحبها ليفرقه تفريق أضحية، وإن كان الذابح قد فرقه تفريق أضحية ورضي بذلك صاحبها فلا ضمان على الذابح وإلا ضمنه لصاحبها ليفرقه تفريق أضحية.

=

=

فائدتان:

الأولى: إذا تلفت الأضحية بعد الذبح أو سرقت أو أخذها من لا تمكن مطالبته ولم يفرط صاحبها فلا ضمان على صاحبها، وإن فرط ضمن ما يجب به الصدقة فتصدق به.

الثانية: إذا ولدت الأضحية بعد التعيين فحكم ولدها حكمها في جميع ما سبق، وإن ولدت قبل التعيين فهو مستقل في حكم نفسه فلا يتبع أمه في كونه أضحية لأنها لم تكن أضحية إلا بعد انفصاله منها.

الفصل السادس: فيما يؤكل ويفرق من الأضحية.

يشرع للمضحي أن يأكل من أضحيته، ويهدي، ويتصدق لقوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ}. وقوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَنِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْنَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}. فالقانع السائل المتذلل، والمعتر المتعرض للعطية بدون سؤال، وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كلوا وأطعموا وادخروا». رواه البخاري والإطعام يشمل الهدية للأغنياء والصدقة على الفقراء، وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «كلوا وادخروا وتصدقوا». رواه مسلم.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في مقدار ما يأكل ويهدي ويتصدق، والأمر في ذلك واسع، والمختار أن يأكل ثلثًا، ويهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث، وما جاز أكله منها جاز ادخاره ولو بقي مدة طويلة إذا لم يصل إلى حد يضر أكله إلا أن يكون عام مجاعة فلا يجوز الادخار فوق ثلاثة أيام لحديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء». فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي، فقال ﷺ: «كلوا واطعموا وادخروا فإن ذلك العام كان في الناس جهد فأردت أن تعينوا

=

=

فيها». متفق عليه.

ولا فرق في جواز الأكل والإهداء من الأضحية بين أن تكون تطوعًا أو واجبة، ولا بين أن تكون عن حي أو ميت أو عن وصية؛ لأن الوصي يقوم مقام الموصي، والموصى يأكل ويهدي ويتصدق؛ ولأن هذا هو العرف الجاري بين الناس، والجاري عرفًا كالمنطوق لفظًا.

فأما الوكيل فإن أذن له الموكل في الأكل والإهداء والصدقة أو دلت القرينة أو العرف على ذلك فله فعله وإلا سلمها للموكل وكان توزيعها إليه.

ويحرم أن يبيع شيئًا من الأضحية لا لحمًا ولا غيره حتى الجلد، ولا يعطي الجازر شيئًا منها في مقابلة الأجرة أو بعضها لأن ذلك بمعنى البيع.

فأما من أهدي إليه شيء منها أو تصدق به عليه فله التصرف فيه بما شاء من بيع وغيره، غير أنه لا يبيعه على من أهداه أو تصدق به.

الفصل السابع: فيما يجتنبه من أراد الأضحية.

إذا أراد أحد أن يضحي ودخل شهر ذي الحجة إما برؤية هلاله، أو إكمال ذي القعدة ثلاثين يومًا فإنه يحرم عليه أن يأخذ شيئًا من شعره، أو أظفاره أو جلده حتى يذبح أضحيته لحديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة، وفي لفظ: «إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره». رواه أحمد ومسلم، وفي لفظ: «فلا يأخذ من شعره وأظفاره شيئًا حتى يضحي»، وفي لفظ: «فلا يمس من شعره ولا بشره شيئًا». وإذا نوى الأضحية أثناء العشر أمسك عن ذلك من حين نيته ولا إثم عليه فيما أخذه قبل النية.

والحكمة في هذا النهي أن المضحي لما شارك الحاج في بعض أعمال النسك وهو التقرب إلى الله تعالى بذبح القربان شاركه في بعض خصائص الإحرام من الإمساك عن الشعر ونحوه.

=

=

وهذا حكم خاص بمن يضحي، أما من يضحى عنه فلا يتعلق به؛ لأن النبي ﷺ قال: «وأراد أحدكم أن يضحي» ولم يقل أو يضحى عنه؛ ولأن النبي ﷺ كان يضحي عن أهل بيته ولم ينقل عنه أنه أمرهم بالإمساك عن ذلك.

وعلى هذا فيجوز لأهل المضحي أن يأخذوا في أيام العشر من الشعر والظفر والبشرة.

وإذا أخذ من يريد الأضحية شيئًا من شعره أو ظفره أو بشرته فعليه أن يتوب إلى الله تعالى ولا يعود، ولا كفارة عليه، ولا يمنعه ذلك عن الأضحية كما يظن بعض العوام. وإذا أخذ شيئًا من ذلك ناسيًا أو جاهلًا، أو سقط الشعر بلا قصد فلا إثم عليه، وإن احتاج إلى أخذه فله أخذه ولا شيء عليه مثل أن ينكسر ظفره فيؤذيه فيقصه، أو ينزل الشعر في عينيه فيزيله، أو يحتاج إلى قصه لمداواة جرح ونحوه.

الفصل الثامن: في الذكاة وشروطها.

الذكاة: فعل ما يحل به الحيوان الذي لا يحل إلا بها من نحر، أو ذبح، أو جرح.

فالنحر للإبل: والذبح لغيرها. والجرح لما لا يقدر عليه إلا به.

ويشترط للذكاة شروط تسعة:

الشرط الأول: أن يكون المذكي عاقلًا مميزًا، فلا يحل ما ذكاه مجنون، أو سكران، أو صغير لم يميز، أو كبير ذهب تمييزه ونحوهم.

الشرط الثاني: أن يكون المذكي مسلمًا، أو كتابيًا وهو من ينتسب إلى دين اليهود أو النصارى. فأما المسلم فيحل ما ذكاه سواء كان ذكرًا أم أنثى، عدلًا أم فاسقًا، طاهرًا أم محدثًا. وأما الكتابي فيحل ما ذكاه سواء كان أبوه وأمه كتابيين أم لا. وقد أجمع المسلمون على حل ما ذكاه الكتابي لقوله تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا

=

=
مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ}.
ولأن النبي ﷺ أكل من شاة أهدتها له امرأة يهودية، وأكل من خبز شعير وإهالة سنخة دعاه إليهما يهودي.

وأما سائر الكفار غير أهل الكتاب فلا يحل ما ذكوه لمفهوم قوله تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ وَالْمُحْصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ} فإن (الذين أوتوا الكتاب) اسم موصول وصلته وهما بمنزلة المشتق المتضمن لصفة معنوية يثبت الحكم بوجودها وينتفي بعدمها، قال الإمام أحمد: لا أعلم أحدًا قال بخلافه إلا أن يكون صاحب بدعة، ونقل الإجماع عليه الخازن في تفسيره. وعلى هذا فلا يحل ما ذبحه الشيوعيون والمشركون سواء كان شركهم بالفعل كمن يسجدون للأصنام، أو بالقول كمن يدعون غير الله، ولا يحل ما ذبحه تارك الصلاة؛ لأنه كافر على القول الراجح سواء تركها تهاونًا، أو جحدًا لوجوبها. ولا يحل ما ذبحه جاحد وجوب الصلوات الخمس ولو صلى إلا أن يكون ممن يجهل ذلك لكونه حديث عهد بإسلام ونحوه.

ولا يلزم السؤال عما ذبحه المسلم أو الكتابي كيف ذبحه، وهل سمى عليه أو لا، بل ولا ينبغي لأن ذلك من التنطع في الدين، والنبي ﷺ أكل مما ذبحه اليهود ولم يسألهم. وفي صحيح البخاري وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إن قومًا يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا، فقال: «سموا عليه أنتم وكلوه» قالت: وكانوا حديثي عهد بكفر، فأمرهم النبي ﷺ بأكله دون أن يسألوا مع أن الآتين به قد تخفي عليهم أحكام الإسلام، لكونهم حديثي عهد بكفر.

الشرط الثالث: أن يقصد التذكية لقوله تعالى: {إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ
=

=

وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} والتذكية فعل خاص يحتاج إلى نية، فإن لم يقصد التذكية لم تحل الذبيحة، مثل أن تصول عليه بهيمة فيذبحها للدفاع عن نفسه فقط.

الشرط الرابع: أن لا يكون الذبح لغير الله، فإن كان لغير الله لم تحل الذبيحة، كالذي يذبح تعظيمًا لصنم، أو صاحب قبر، أو ملك، أو والد ونحوهم لقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} إلى قوله: {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

الشرط الخامس: أن لا يسمي عليها اسم غير الله مثل أن يقول باسم النبي، أو جبريل، أو فلان، فإن سمى عليها اسم غير الله لم تحل وإن ذكر اسم الله معه لقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ

=

=

الأَسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} إلى قوله: {وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأَسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وفي الحديث الصحيح القدسي قال الله تعالى: «من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

الشرط السادس: أن يذكر اسم الله تعالى عليها فيقول عند تذكيتها باسم الله لقوله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَتِهِ مُؤْمِنِينَ}. وقول النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا». رواه البخاري وغيره، فإن لم يذكر اسم الله تعالى عليها لم تحل لقوله تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}. ولا فرق بين أن يترك اسم الله عليها عمدًا مع العلم أو نسيانًا أو جهلًا لعموم هذه الاية، ولأن النبي ﷺ جعل التسمية شرطًا في الحل، والشرط لا يسقط بالنسيان والجهل، ولأنه لو أزهق روحها بغير إنهار الدم ناسيًا أو جاهلًا لم تحل فكذلك إذا ترك التسمية؛ لأن الكلام فيهما واحد من متكلم واحد فلا يتجه التفريق.

وإذا كان المذكي أخرس لا يستطيع النطق بالتسمية كفته الإشارة الدالة لقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

الشرط السابع: أن تكون الذكاة بمحدد ينهر الدم من حديد أو أحجار أو زجاج أو غيرها لقول النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا، ما لم يكن سنًّا أو

=

=

ظفرًا وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة». رواه الجماعة. وللبخاري في رواية «غير السن والظفر فإن السن عظم، والظفر مدى الحبشة»، وفي الصحيحين أن جارية لكعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانت ترعى غنمًا له بسلع فأبصرت بشاة من الغنم موتًا فكسرت حجرًا فذبحتها به فذكروا ذلك للنبي ﷺ فأمرهم بأكلها.

فإن أزهق روحها بغير محدد لم تحل مثل أن يخنقها أو يصعقها بالكهرباء ونحوه حتى تموت، فإن فعل بها ذلك حتى ذهب إحساسها ثم ذكاها تذكية شرعية وفيها حياة مستقرة حلت لقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} إلى قوله: {وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وللحياة المستقرة علامتان:

إحداهما: أن تتحرك.

الثانية: أن يجري منها الدم الأحمر بقوة.

الشرط الثامن: إنهار الدم أي إجراؤه بالتذكية، لقول النبي ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». ثم إن كان الحيوان غير مقدور عليه كالشارد والواقع في بئر

=

=

أو مغارة ونحوه كفى إنهار الدم في أي موضع كان في بدنه، والأولى أن يتحرى ما كان أسرع إزهاقًا لروحه؛ لأنه أريح للحيوان وأقل عذابًا.

وإن كان الحيوان مقدورًا عليه فلابد أن يكون إنهار الدم من الرقبة من أسفلها إلى اللحيين، بحيث يقطع الودجين وهما عرقان غليظان محيطان بالحلقوم وتمام ذلك أن يقطع معهما الحلقوم ـ وهو مجرى النفس ـ والمريء ـ وهو مجرى الطعام والشراب ـ ليذهب بذلك مادة بقاء الحيوان وهو الدم وطريق ذلك وهو الحلقوم والمريء، وإن اقتصر على قطع الودجين حلت الذكية.

الشرط التاسع: أن يكون المذكى مأذونًا في ذكاته شرعًا، فأما غير المأذون فيه فنوعان:

أحدهما: ما حرم لحق الله تعالى كصيد الحرم والإحرام فلا يحل وإن ذكي لقوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} . وقوله: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} .

النوع الثاني: ما حرم لحق المخلوق كالمغصوب والمسروق يذبحه الغاصب أو السارق ففي حله قولان لأهل العلم انظرهما ودليلهما في الأصل ص ٨٢ ـ ٨٥.

الفصل التاسع: في آداب الذكاة.

للذكاة آداب ينبغي مراعاتها ولا تشترط في حل الذكية بل تحل بدونها فمنها:

١ ـ استقبال القبلة بالذكية حين تذكيتها.

٢ ـ الإحسان في تذكيتها بحيث تكون بآلة حادة يمرها على محل الذكاة بقوة وسرعة.

وقيل: هذا من الاداب الواجبة لظاهر قول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم

=

=

شفرته، وليرح ذبيحته». رواه مسلم. وهذا القول هو الصحيح.

٣ ـ أن تكون الذكاة في الإبل نحرًا، وفي غيرها ذبحًا فينحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى، فإن صعب عليه ذلك نحرها باركة. ويذبح غيرها على جنبها الأيسر، فإن كان الذابح أعسر يعمل بيده اليسرى ذبحها على الجنب الأيمن إن كان أريح للذبيحة وأمكن له. ويسن أن يضع رجله على عنقها ليتمكن منها.

وأما البروك عليها والإمساك بقوائمها فلا أصل له من السنة، وقد ذكر بعض العلماء أن من فوائد ترك الإمساك بالقوائم زيادة إنهار الدم بالحركة والاضطراب.

٤ ـ قطع الحلقوم والمريء زيادة على قطع الودجين. وانظر الشرط الثامن من شروط الذكاة.

٥ ـ أن يستر السكين عن البهيمة عند حدها فلا تراها إلا عند الذبح.

٦ ـ أن يكبر الله تعالى بعد التسمية.

٧ ـ أن يسمي عن ذبح الأضحية أو العقيقة من هي له بعد التسمية والتكبير، ويسأل الله قبولها فيقول: بسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك عني إن كانت له، أو عن فلان إن كانت لغيره. اللهم تقبل مني إن كانت له، أو من فلان إن كانت لغيره.

الفصل العاشر: في مكروهات الذكاة

للذكاة مكروهات ينبغي اجتنابها فمنها:

١ ـ أن تكون بآلة كآلة، أي غير حادة، وقيل: يحرم ذلك، وهو الصحيح.

٢ ـ أن يحد آلة الذكاة والبهيمة تنظر.

٣ ـ أن يذكي البهيمة والأخرى تنظر إليها.

٤ ـ أن يفعل بعد التذكية ما يؤلمها قبل زهوق نفسها، مثل أن يكسر عنقها، أو يسلخها، أو يقطع شيئًا من أعضائها قبل أن تموت، وقيل: يحرم ذلك، وهو الصحيح.

=

=

وإلى هنا انتهى ما أردنا تلخيصه من كتاب (أحكام الأضحية والذكاة) نسأل الله تعالى أن ينفع به وبأصله، وكان الفراغ منه عصر يوم الأربعاء الموافق ١٣ من ذي الحجة سنة ١٤٠٠ هـ أربعمائة وألف.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

** مسألة: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في التذكية.

* أفتوا بأنه يشترط في المذكي أن يكون عاقلًا مسلمًا أو كتابيًا.

* وذكروا بأنه تجوز التذكية بكل محدد إلا السن والظفر لثبوت النهي عنهما في السنة.

* وذكروا بأن من شروط الذكاة قطع الحلقوم والمريء.

* وأفتوا باشتراط التسمية بقول: " بسم الله " لا يجزئه غيرها. وتسقط سهوًا فقط.

* وذكروا بأن للذكاة سنن منها: أن تكون الآلة حادة وأن يحمل عليها بقوة، وحدها وإخفاؤها عن الحيوان، ومواراة الذبيحة عن البهائم وقت الذبح، وأن توجه للقبلة، وأن تنحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى والغنم والبقر على جنبها الأيسر وتأخير كسر عنقها وسلخها حتى تخرج روحها.

* وأفتوا بحرمة الميتة والمنخنقة والمتردية والنطيحة والموقوذة وما أكل السبع وما أهل لغير الله للآية والإجماع.

* وأفتوا بأن الأصل إحسان الظن بالمسلمين بحمل ما ذبحوه على موافقة حكم الشريعة.

* وأفتوا بحل اللحوم المستوردة بشرط أن يكون ذابحها من أهل الكتاب ولم يتحقق فيها أنها ذبحت على غير الطريقة الشرعية.

* وأفتوا بعدم جواز ذبح الحيوان بالصعق الكهربائي فإن ذبح كذلك فهو ميتة.

=

=

* وقالوا: " الأصل في ذبيحة المسلم أنه يجوز الأكل منها حتى يثبت ما يوجب تحريمها " اهـ.

* وأفتوا بأن تارك الصلاة لا تحل ذكاته للحكم بردته.

* وأفتوا بأن من يعتقد جواز الذبح للأولياء والقبور فإنه لا تحل ذكاته للحكم بردته.

* وأفتوا بجواز تذكية الأبكم وتكون تسميته على حسب قدرته بالنية والإشارة.

* وأفتوا بجواز تذكية الأعمى إذا كان عارفا بموضع الذبح.

* وأفتوا بحل تذكية حالق اللحية.

* وأفتوا بحل تذكية غير المختون إذا كان مسلمًا.

* وأفتوا بحل تذكية الجنب.

* وأفتوا بجواز تذكية المرأة لعموم الأدلة.

* وأفتوا بأن الدجاج الذي يطعم لحوم الحيوانات الميتة أو طعاما فيه لحم خنزير بان له حكم الجلالة.

* وأفتوا بجواز تذكية المرأة حال حيضها.

* وأفتوا بأن الجنين إذا نزل من بطن أمه ميتا بعد ذكاة أمه فإنه حلال لأن ذكاته تابعة لذكاة أمه فهو تابع لها والتابع تابع.

* وأفتوا بجواز التذكية بالسكين الأوتوماتيكية مع استيفاء بقية شروط الذكاة.

* وذكروا بأنه لا أصل لغسل وجه الحيوان المذبوح قبل ذبحه.

* وأفتوا بأنه إذا أدرك الحيوان المدعوس وذكاه قبل خروج روحه فإنه يحل لقوله تعالى في سياق المحرمات من الأنعام: " إلا ما ذكيتم".

* وقال أصحاب الفضيلة: " لا حرج في ذبح الحيوان المأكول اللحم المصاب بضرر حدث له ليؤكل بعد التذكية الشرعية إذا لم يكن فيه ما يضر أكله " اهـ.

=

=

* وأفتوا بجواز ذبح الشاة الحامل عند الحاجة.

* وأفتوا بحرمة ذبح البقر في الهند إذا كان يؤدي ذبحها إلى فتنة المسلمين بالسجن والتعذيب والعقوبة الشديدة لعموم قوله تعالى: " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

* وقالوا: " لا تجزى التسمية بالشريط المسجل وقت الذبح عن تسمية الذابح نفسه لأنها عبارة تطلب من الذابح عند مباشرة الذبح لإحلال الذبيحة والعبادات توقيفية " اهـ.

* وأفتوا بجواز ذبح الحيوان بسكين قد استعملت في لحم نجس بعد غسلها.

* وأفتوا بحرمة أكل ما ذبحه أهل الكتاب إن أهلوه لعيسى وللعزيز.

* وذكروا بأن الضرورات تبيح المحظورات.

* وأفتوا بأن ما ذبح على طريقة الطلق الناري أو الصعق الكهربائي والخنق فإنه لا يحل إلا إذا أدرك وفيه حياة مستقرة وذكي الذكاة الشرعية.

* وأفتوا بجواز الأكل في آنية أهل الكتاب ما لم تعلم نجاستها.

* وأفتوا بأننا إذا شككنا هل سمى الذابح من أهل الكتاب على هذه الذبحة أم لا فالأصل الجواز.

* وقالوا: " لا يجوز للمسلم أن يأكل مما يصنعه اليهود أو النصارى أو المشركون من الأطعمة لأعيادهم ولا يجوز للمسلم أيضا أن يقبل منهم هدية من أجل عيدهم " اهـ.

* وأفتوا بأنه لا يجوز للمسلم أن يهدي لأهل الكتاب شيئا من أجل عيدهم.

* وذكروا بأن مجرد الإشاعات على بعض أنواع الأطعمة أنها مركبة من كذا وكذا من المحرمات لا تكفي للحكم بالتحريم، بل لابد أن يبنى الحكم الشرعي على أشياء واضحة متحققة.

=

=

* وقال أصحاب الفضيلة: " الدجاج الوارد من الخارج إن كان من بلاد أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وهو من ذبحهم فلا شيء فيه وإن كان من بلاد غير أهل الكتاب كالشيوعية و البوذية فيحرم تناوله " اهـ.
* وأفتوا بأن السكران الطافح لا تباح تذكيته.
* وأفتوا بأن المجوسي ليس من أهل الذكاة.
* وأفتوا بحرمة ما أهل للصليب.
* وقالوا: " الذبح على الأضرحة شرك أكبر ومن فعل ذلك فهو ملعون".
* وقالوا: " الذبائح التي تذبح من أجل أعياد المشركين أو في أماكن ذبحهم البدعية لا يجوز الأكل منها ولا شراؤها " اهـ واستدلوا بحديث ثابت بن الضحاك وسنده صحيح.
* وقالوا: " لا يجوز أكل ذبيحة الوثني ولو ذكر اسم الله عند الذبح " اهـ.
* وقالوا: " ذبيحة المرتد لا يحل أكلها " اهـ.
* وقالوا: " الذي يسب الدين يكون مرتدا عن دين الإسلام ولا تحل ذبيحته ولو صلى وصام حتى يتوب إلى الله تعالى " اهـ.
* وقالوا: " وأما غير أهل الكتاب من المجوس والوثنيين والشيوعيين فيبقون على المنع فلا تحل ذبائحهم ولا الزواج من نسائهم " اهـ.
* وأفتوا بحرمة ما ذبح عند المشعوذين والكهان لأنه أهل لغير الله.
* وأفتوا بحل ذبيحة تارك صلاة الجماعة إن كان يصلي منفردا لكنه آثم في ترك الصلاة مع الجماعة في المسجد.
* وأفتوا بأن ذبيحة التيجاني لا تحل لأنهم أهل بدع شركية.
* وأفتوا بعدم حل ما ذبحه الهندوسي.
* وقالوا: " تجزئ التسمية مرة واحدة ممن يحرك الماكينة حين تحريكه إياها

=

=

على عدة ذبائح بنية ذبحها على أن يكون من يحركها مسلما أو كتابيا يهوديًا أو نصرانيًا " اهـ.

* وأفتوا بجواز الذبح بالآلات الحديثة بشرط كونها حادة.

* وقالوا: " يجوز الذبح في الليل والنهار " اهـ.

* وقالوا: " إذا كان الشخص يذبح بيده فيجب أن يسمي تسمية مستقلة على كل دجاجة يذبحها لاستقلال كل دجاجة بنفسها " اهـ.

* وقالوا: " كل حيوان أبيح أكله جاز أكل جميع أعضائه بعد ذبحه أو نحره الشرعي " اهـ.

* وأفتوا بجواز الذبح باليد اليسرى لكن باليمنى أفضل.

* وقالوا: " وللذابح الاستعانة بمن شاء في ضبط الذبيحة " اهـ.

* وقالوا: " يجوز ذبح الذبيحة على أي جنبيها ولكن الأفضل أن تكون على جنبها الأيسر لأنه أيسر للذابح " اهـ.

* وقالوا: " إمرار اليد على ظهر الذبيحة قبل ذبحها وقول:- اللهم اجعلها صدقة عني تدفع البلاء عني وعن أبنائي، كل ذلك بدعة لا أصل لها من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ " اهـ.

* وأفتوا في مواضع متعددة بأكل الحيوان الناد يذكى بضربه في أي موضع من جسده فإن أدركناه حيا ذكيناه ذكاة الحيوان المقدور عليه وإن كان قد مات فهو حلال.

* وذكروا بأن ضرب الحيوان بالرصاص أو بالمطرقة قبل تذكيته لا يجوز لأنه من تعذيب الحيوان.

* وقالوا: " ترك سلخ الذبيحة بعد ذبحها لا يحرمها لأن السلخ ليس من شروط الذكاة " اهـ.

=

=

* وأفتوا بأن السنة في التسمية على الذبيحة أن يقول (بسم الله) فقط.

* وقالوا: " لا يجوز الأكل مما ذبح إحياء لذكرى مولد رسول الله ﷺ لأنه من جنس ما أهل به لغير الله " اهـ.

* وأفتوا بحرمة ما يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

* وأفتوا بحرمة ما يذبح عند مرور ملك أو وجيه بطيارة مثلا في سمائها تكريما لمروره.

* وأفتوا بأن قتل الحيوان المأكول بالماء الحار لا يبيحه بل هو ميتة.

* وقالوا: " لا يجوز أكل ما قطع من الحيوان المأكول وهي حية " اهـ.

* وأفتوا بحل ما صاده الكلب المعلم وإن قتل.

* وأفتوا بحل الصيد بالبندقية مع استيفاء شروط الذكاة الأخرى.

* وأفتوا بأن ما انقطع من الصيد حال حياته فإنه حرام لحديث " ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت".

* وأفتوا بحرمة اتخاذ ما فيه الروح غرضًا لتعلم الرماية.

* وأفتوا بحرمة قتل الحيوان إلا للانتفاع به وأما قتله لمجرد التسلية واللعب فحرام.

* وأفتوا بجواز أخذ الطيور الصغار من أعشاشها لتذبح وتؤكل.

* وأفتوا بحرمة صيد حمام الحرم وبحرمة تنفيره.

* وأفتوا بحرمة أكل الطيور التي ماتت بسبب سقوط حجارة المصيدة عليها إلا إذا أدركت حية فذكيت.

* وقالوا: " إذا مات الطائر في الفخ فإنه لا يحل لعدم وجود شروط الذكاة فيه " اهـ.

* وقالوا: " لا حرج عليك في صيد البر في شهر رجب وذي القعدة وذي الحجة

=

إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨).

{إِنَّ الله يُدَافِع عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا} غَوَائِل الْمُشْرِكِينَ {إِنَّ الله لَا يُحِبّ كُلّ خَوَّان} فِي أَمَانَته {كَفُور} لِنِعْمَتِهِ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ الْمَعْنَى أنه يعاقبهم.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩).

{أذن للذين يقاتلون} أي المؤمنين أَنْ يُقَاتِلُوا وَهَذِهِ أَوَّل آيَة نَزَلَتْ فِي الْجِهَاد {بِأَنَّهُمْ} أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ {ظُلِمُوا} لِظُلْمِ الكافرين إياهم {وإن الله على نصرهم لقدير}.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠).

هُمْ {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارهمْ بِغَيْرِ حَقّ} في الإخراج وما أُخرِجُوا {إِلَّا أَنْ يَقُولُوا} أَيْ بِقَوْلِهِمْ {رَبّنَا الله} وَحْده وَهَذَا الْقَوْل حَقّ فَالْإِخْرَاج بِهِ إِخْرَاج بِغَيْرِ حَقّ {وَلَوْلَا دَفْع الله النَّاس بَعْضَهْم} بَدَل بَعْض مِنْ النَّاس {بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ} بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ وَبِالتَّخْفِيفِ {صَوَامِع} لِلرُّهْبَانِ {وَبِيَع} كَنَائِس لِلنَّصَارَى {وَصَلَوَات} كَنَائِس لِلْيَهُودِ بِالْعبرانيّة {وَمَسَاجِد} لِلْمُسْلِمِينَ {يُذْكَر فِيهَا} أَيْ الْمَوَاضِع الْمَذْكُورَة {اسْم الله كَثِيرًا} وَتَنْقَطِع الْعِبَادَات بِخَرَابِهَا {وَلَيَنْصُرَن الله مَنْ يَنْصُرهُ} أَيْ يَنْصُر دِينه {إِنَّ الله لَقَوِيّ} عَلَى خَلْقه {عَزِيز} مَنِيع فِي سُلْطَانه وَقُدْرَته.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ

=

ومحرم لأنها وإن كانت من الأشهر الحرم فقد نسخ تحريم صيد البر فيها".

وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١).

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْض} بِنَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوّهُمْ {أَقَامُوا الصَّلَاة وَآتَوْا الزَّكَاة وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَر} جَوَاب الشَّرْط وَهُوَ وَجَوَابه صِلَة الْمَوْصُول وَيُقَدَّر قَبْله هُمْ مُبْتَدَأ {وَلِلَّهِ عاقبة الأمور} أي مرجعها إليه في الآخرة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة؛ قال أبو بكر أَخْرَجُوا نبيّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن؛ فنزلت: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)} فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال.

أخرجه أحمد (١/ ٢١٦) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٩)،والترمذي (٣١٧١)، والنسائي (٣٠٨٥)، والطبري في تفسيره (١٧/ ١٢٣)، والبزار (١/ ٦٩/ رقم ١٦)، وابن حبان (٤٧١٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣)، والحاكم (٢٣٧٦)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٧٩)، والضياء في المختارة (٣٨٤) والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب الإنجاد في أبواي الجهاد، وكذا صححه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٥١٠)، أما الشيخ مقبل فقال في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٥٧): رجاله رجال الصحيح، ثم ظهر أن الراجح إرساله، وكذا قال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (١٩٤).

وعن الزهري؛ قال: فكان أول آية نزلت في القتال كما أخبرني عُرْوَة عن عائشة:

=

=

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)} إلى قوله: {إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} ثم أُذن بالقتال في آي كثير.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٨٩ رقم ٣٦٦): أخبرني زكريا بن يحيى نا محمد بن عبد العزيز بن أبي رِزمة أخبرنا سلمويه أبو صالح ثنا عبد الله عن يونس عن الزهري. وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وهو شاهد قوي لسابقه.

وعن مجاهد؛ قال: خرج ناس مؤمنون مهاجرين من مكة إلى المدينة، فأتبعهم كفار قريش؛ فأذن الله لهم في قتالهم؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية فقاتلوهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٢٣)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٥٧٩) بسند صحيح إليه لكنه مرسل.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: محمد وأصحابه إذ أخرجوا من مكة إلى المدينة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٢٢، ١٢٣)، وابن أبي حاتم وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٥٨) من طريق العوفي عنه. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وأخرج عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "العلو" (١/ ٢٨٧ رقم ٢٠)، وابن شبة في "تاريخ المدينة" (٣/ ١٠٦٣، ١٠٦٤)، والخطابي في "غريب الحديث" (٢/ ١٣٠)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٨/ ٣٠٨) من طرق عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن عبد الله بن الحارث بن نوفل: أن صعصعة بن صوحان تكلم يومًا عند عثمان رضي الله عنه فقال: فيما تقولون: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)}؟ فقال عثمان: يا أيها الناس! ها إن البجباج النفاج لا يدري من الله ولا أين الله، والله ما نزلت هذه الآية إلا في أصحابي، أخرجنا من ديارنا بغير حق، فقال: أما قولك لا أدري من الله؛ فإن الله

=

=

ربنا ورب آبائنا الأولين، وقولك: لا أدري أين الله؛ فإن الله لبالمرصاد. وعلي بن زيد؛ ضعيف.

وعن قتادة؛ قال: أول آية نزلت في القتال فأذن لهم بالقتال.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٣٩)، والطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٢٣) عن معمر عن قتادة به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: رواية معمر عن البصريين فيها مقال، وهذا منها.

وعن أبي هريرة قال: كانت أول آية نزلت في القتال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٥٨) ونسبه لعبد الرزاق وابن المنذر.

وعن السدي؛ قال: أول آية أنزلت في القتال: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٥٨٠) بسند صحيح إليه، لكنه ضعيف لإعضاله.

وعن مقاتل بن حيان في قوله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة؛ فنهاهم؛ ليمتحن بذلك النبي ﷺ عن ذلك، فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"، كما في "الكافي الشاف" (..) من طريق بكير بن معروف عن مقاتل به. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن ثابت بن عوسجة الحضرمي؛ قال: ثني سبعة وعشرون من أصحاب علي وعبد الله؛ منهم: لاحق بن الأقمر والعيزار بن جرول وعطية القرظي: أن عليًا رضي الله عنه قال: إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} لولا دفاع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت صوامع وبيع.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٧/ ١٢٤) من طريق يعقوب بن إبراهيم بن سيف بن عمر عن أبي روق عن ثابت به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ سيف بن عمر متروك الحديث، وثابت لم نجد له ترجمة.

وعن عثمان بن عفان؛ قال: فينا نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ} والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا {بِغَيْرِ حَقٍّ} ثم مكنا في الأرض؛ فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا من المنكر، فهي لي ولأصحابي.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٥٩) ونسبه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

* قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: ٣٨]، أي:"إن الله تعالى يدفع عن المؤمنين عدوان الكفار، وكيد الأشرار".

قال الطبري: يقول:"إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله، وقيل: إنه عنى بذلك دفع الله كفار قريش عمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هجرتهم".

قال الزجاج:"هذا يدل على النصر من عنده، أي فإذا دفعتم، أي فإذا فعلتم هذا، وخالفتم الجاهلية فيما تفعلونه في نحرهم، وإشراكهم بالله، فإن الله يدفع عن حزبه".

قال الحسن:"يدافع عنهم فيعصمهم من الشيطان في دينهم".

قال قتادة:"والله ما يضيع الله رجلا قط حفظ له دينه".

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «إن الله يدفع»، بغير ألف.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: ٣٨]، أي:"إنه تعالى لا يحب كل خوَّان لأمانة ربه، جحود لنعمته".

قال الطبري: يقول:"إن الله لا يحب كل خوان يخون الله فيخالف أمره ونهيه

=

=

ويعصيه ويطيع الشيطان، جحود لنعمه عنده، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها".

قال الزجاج:" {خوان}، «فعال» من الخيانة، أي: من ذكر اسم غير الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو: «خوان كفور»".

عن سفيان قوله: " {إن الله لا يحب}، قال: لا يقرب".

قال مجاهد:"كل شيء في القرآن «كفور»، يعني به: «الكفار»".

عن الحسن في قوله: " {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا {٧٢} لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣]، قال: هما اللذان ظلماها، هما اللذان خاناها: المنافق والمشرك".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم في الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وما كان من صد الكفار عنه، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد. ويؤمن معه التمكن من الحج فقال تعالى إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.. ا.هـ.

ومفعول «يدافع» محذوف. وجاء التعبير بقوله تعالى يُدافِعُ بصيغة المفاعلة، للمبالغة في الدفاع والدفع، أو للدلالة على أن ذلك حاصل للمؤمنين كلما حصل من الكافرين عدوان عليهم.

أى: إن الله تعالى بفضله وكرمه يدافع عن المؤمنين أعداءهم وخصومهم، فيرد كيدهم في نحورهم.

ويصح أن يكون يُدافِعُ بمعنى يدفع، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو. أى: أن الله تعالى يدفع السوء عن عباده المؤمنين الصادقين، ويجعل العاقبة لهم على أعداءهم.

وهذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه،

=

=

ويدفع عنهم كل شر -بسبب إيمانهم- من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر.

فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا على ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم، بثبات لا تردد معه، وبأمل عظيم في نصر الله وتأييده.

وقوله سبحانه: إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ تعليل لوعده سبحانه للمؤمنين بالدفاع عنهم، وبجعل العاقبة لهم.

والخوان: هو الشديد الخيانة، والكفور: هو المبالغ في كفره وجحوده، فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة.

قال الآلوسى: وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك، لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر ... ا.هـ.

أى: إن الله تعالى يدافع عن المؤمنين لمحبته لهم، ويبغض هؤلاء الكافرين الذين بلغوا في الخيانة والكفر أقصى الدركات.

وأوثر التعبير بقوله تعالى لا يُحِبُّ على قوله: يبغض أو يكره، للإشعار بأن المؤمنين هم أحباء الله تعالى، وللتعريض بهؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد في كراهيتهم لأهل الحق.

ثم رخص سبحانه للمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيله فقال: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا....

جملة وقعت بدل اشتمال من جملة: إن الله يدافع [الحج: ٣٨] لأن دفاع الله عن الناس يكون تارة بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم فإنه إذا أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفلا لهم بالنصر.

=

=

وقوله تعالى أُذِنَ فعل ماض مبنى للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة والرخصة.

قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)} [الحج: ٣٩]

كان المسلمون في أول أمرهم ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على أذاهم، فلما بلغ أذى المشركين مداه وخرج النبي ﷺ من «مكة» مهاجرًا إلى «المدينة»، وأصبح للإسلام قوة أَذِنَ الله للمسلمين في القتال؛ بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، وإن الله تعالى قادر على نصرهم وإذلال عدوِّهم.

عن ابن عباس قال: "لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن القوم! فنزلت: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}، الأية. وكان ابن عباس يقرأها: «أذن»، قال أبو بكر: فعلمت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال".

قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج: ٣٩]، أي:"أَذِنَ الله للمسلمين في القتال؛ بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان".

قال الطبري: يقول:"أذن الله للمؤمنين الذين يقاتلون المشركين في سبيله بأن المشركين ظلموهم بقتالهم".

قال الزجاج:"أي: أذن لهم أن يقاتلوا بسبب ما ظلموا".

قال ابن عباس:"يعني محمدا وأصحابه إذا أخرجوا من مكة إلى المدينة".

عن سعيد بن جبير قوله: " {أذن للذين يقاتلون}، قال: النبي ﷺ وأصحابه بأنهم ظلموا يعني ظلمهم أهل مكة حين أخرجوهم من ديارهم".

قال ابن زيد:"أذن لهم في قتالهم، بعد ما عفى، عنهم عشر سنين".

وروي عن مجاهد، قوله:" {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}، قال: ناس من

=

=

المؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، وكانوا يمنعون، فأدركهم الكفار، فأذن للمؤمنين بقتال الكفار فقاتلوهم".

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم {أذن للذين يقاتلون} بضم الألف أي اذن الله للذين يقاتلون ثم رد إلى ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون {آذن} بفتح الألف".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩]، أي:"وإن الله تعالى قادر على نصرهم وإذلال عدوِّهم".

قال الطبري: يقول:"وإن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله لقادر، وقد نصرهم فأعزهم ورفعهم وأهلك عدوهم وأذلهم بأيديهم".

قال الزجاج:"وعدهم الله النصر".

قال ابن عباس:"وقد فعل".

والمقصود إباحة مشروعية القتال، وقد قالوا: بأن هذه الآيات أول ما نزل في شأن مشروعية القتال.

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن، فنزلت هذه الآيات.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي أُذِنَ بالبناء الفاعل. والمأذون لهم فيه هو القتال، وهو محذوف في قوة المذكور بدليل قوله يُقاتَلُونَ والباء في قوله بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا للسببية.

أى: أذن الله تعالى للمؤمنين، ورخص لهم، بأن يقاتلوا أعداءهم الذين ظلموهم، وآذوهم، واعتدوا عليه، بعد أن صبر هؤلاء المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا.

قال الآلوسى: والمراد بالموصول أصحاب النبي ﷺ الذين في مكة، فقد نقل الواحدي وغيره، أن المشركين كانوا يؤذونهم، وكانوا يأتون النبي ﷺ بين

=

=

مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر ﷺ فنزلت هذه الآية. وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية ا.هـ.

وقوله تعالى: وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ وعد منه سبحانه للمؤمنين بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد في سبيله بدون تردد أو وهن.

أى: وإن الله تعالى لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين. وعلى أن يمكن لهم في الأرض، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين.

قال ابن كثير ما ملخصه: قوله: وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكنه يريد من عباده أن يبلوا جهدهم في طاعته، كما قال تعالى: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ، حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها، ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ...

وإنما شرع سبحانه الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عددا. فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم ...

فلما استقروا بالمدينة. وصارت لهم دار إسلام، ومعقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك.. ا.هـ.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج/ ٣٩]. هذه الآية الكريمة تدل على أن قتال الكفار مأذون فيه لا واجب.

وقد جاءت آيات تدل على وجوبه، كقوله: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} الآية [التوبة/ ٥]، وقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} الآية [التوبة/ ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

=

=

والجواب ظاهر، وهو: أنه أذن فيه أولًا من غير إيجاب، ثم أوجب بعد ذلك كما تقدم في سورة البفرة.

ويدل لهذا ما قاله ابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد -كما نقله عنهم ابن كثير وغيره- من أن آية: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ} هي أول آية نزلت في الجهاد ا.هـ

وقوله سبحانه: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ.. بيان لبعض الأسباب التي من أجلها شرع الله الجهاد في سبيله.

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)} [الحج: ٤٠]

التفسير:

الذين أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم، لا لشيء فعلوه إلا لأنهم أسلموا وقالوا: ربنا الله وحده. ولولا ما شرعه الله من دَفْع الظلم الذي ينتفع به جميع أهل الأديان المنزلة، ورد الباطل بالقتال المأذون فيه لَهُزِم الحقُّ في كل أمة ولخربت الأرض، وهُدِّمت فيها أماكن العبادة من صوامع الرهبان، وكنائس النصارى، ومعابد اليهود، ومساجد المسلمين التي يصلُّون فيها، ويذكرون اسم الله فيها كثيرًا. ومن اجتهد في نصرة دين الله، فإن الله ناصره على عدوه. إن الله لَقوي لا يغالَب، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم.

يذكر عن عثمان بن عفان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "فينا نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ}، والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا بغير حق ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا، عن المنكر، فهي لي ولأصحابي".

=

=

قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ} [الحج: ٤٠]، أي:"الذين أُلجئوا إلى الخروج من ديارهم، لا لشيء فعلوه إلا لأنهم أسلموا وقالوا: ربنا الله وحده".

عن ابن عباس: " {الذين أخرجوا من ديارهم}، أي: من مكة إلى المدينة، {بغير حق}، يعني: محمدا ﷺ وأصحابه".

قال قتادة:": لما قال المسلمون: لا إله إلا الله، أنكرها المشركون وضاقها إبليس وجنوده".

قال الحسن: ما سفكوا لهم من دم، ولا أخذوا لهم من مال، ولا قطعوا لهم من رحم وإنما أخرجوهم لأنهم قالوا: ربنا الله كقوله: {وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} [البروج: ٨]".

قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠]، أي:"ولولا ما شرعه الله من دَفْع الظلم الذي ينتفع به جميع أهل الأديان المنزلة، ورد الباطل بالقتال المأذون فيه لَهُزِم الحقُّ في كل أمة ولخربت الأرض، وهُدِّمت فيها أماكن العبادة من صوامع الرهبان، وكنائس النصارى، ومعابد اليهود، ومساجد المسلمين التي يصلُّون فيها، ويذكرون اسم الله فيها كثيرًا".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الحج: ٤٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين، وهذا قول ابن جريج.

الثاني: ولولا دفع الله عن الدين بالمجاهدين، وهذا قول ابن زيد.

الثالث: ولولا دفع الله بالنبيين عن المؤمنين، وهذا قول الكلبي.

الرابع: ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله -ﷺ-عمن بعدهم من التابعين، وهذا

=

=

قول علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-.

وروي عن الضحاك، قال:"وهي صوامع الصغار يبنونها".

الثاني: أنها مصلى الصابئين، وهو قول قتادة، وابن قتيبة.

قال أبو الدرداء:"نعم صومعة الْمُؤمن بَيته يكف فِيهِ بَصَره وسَمعه وَقَلبه وَلسَانه وَيَده".

وقرئ: «لهدمت»، بالتشديد، بمعنى: تكرير الهدم فيها مرة بعد مرة.

قال الطبري:"والتشديد في ذلك أعجب القراءتين إلي. لأن ذلك من أفعال أهل الكفر بذلك".

وفي قوله تعالى: {وَبِيَعٌ} [الحج: ٤٠]، قولان:

أحدهما: أنها مصلّى النصارى، وهو قول قتادة، وأبي العالية، والضحاك، رفيع، والفراء، وابن قتيبة.

الثاني: أنها كنائس اليهود، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد.

والبيعة:"اسم أعجمي مُعَرَّب".

وفي قوله تعالى: {وَصَلَوَاتٌ} [الحج: ٤٠]، أربعة أقوال:

أحدها: أنها كنائس اليهود. وهذا قول ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والفراء، وابن قتيبة.

قال الضحاك:"كنائس اليهود، ويسمون الكنيسة: «صلوتا»".

قال الماوردي:"فعرب جمعها، فقيل: صلوات".

قال ابن قتيبة:"يريد بيوت صلوات، يعني كنائس اليهود".

قال عاصم الجحدري:"«الصلوات»: دون «الصوامع».قال: وكيف تهدم الصلاة!".

الثاني: أنها كنائس النصارى. قاله ابن عباس.

=

=

الثالث: أنها مسجد الصابئين، يسمونها «صلوات». قاله أبو العالية، ورفيع.
الرابع: أنها «صلوات» أهل الإسلام. ـ والمعنى: تنقطع الصلوات إذا دخل عليهم العدو فتنقطع العبادة من المساجد. كما صنع بختنصر. وهذا قول ابن زيد.
الخامس: أنها مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. قاله مجاهد.
وقال ابن عيسى: معناه: وتركت صلوات".
وقرئت: «صلاة».
وفي قوله تعالى: {وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠]، قولان:
احدهما: أنها مساجد المسلمين. قاله قتادة، ورفيع، والفراء.
الثاني: أنها: الصوامع والبيع والصلوات. وهذا قول الضحاك.
قال الضحاك:"يقول: في كل هذا يذكر اسم الله كثيرا، ولم يخصّ المساجد".
قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لهدِّمت صوامع الرهبان وبِيَع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القول وإن كان له وجه فغير مستعمل فيما وجهه إليه من وجهه إليه".
وفي قوله تعالى: {لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠]، وجهان من التفسير:
أحدهما: معناه: لهدمها الآن المشركون لولا دفع الله بالمسلمين، وهو معنى قول الضحاك.
عن الضحاك قوله: " {يذكر فيها اسم الله كثيرا}، يعني: في كل مما ذكر من: الصوامع والصلوات والمساجد، يقول: في كل هذا يذكر اسم الله ولم يخص المساجد".

=

=

الثاني: معناه: لولا أن الله – ﷻ – دفع بعض الناس ببعض لهدم في شريعة كل نبي المكان الذي كان يصلي فيه، فكان لولا الدفع لهدم في زمن موسى عليه السلام الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد – ﷺ – المساجد. قاله الزجاج.

وقال الفراء:"معنى «التهديم» أن الله قَالَ قبل ذَلِكَ {وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}، يدفع بأمره وأتباعه عَن دين كل نبيّ إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ".

قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: ٤٠]، أي:"ومن اجتهد في نصرة دين الله، فإن الله ناصره على عدوه".

قال الطبري: يقول:"وليعينَنّ الله من يقاتل في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوّه؛ فنصْر الله عبده: معونته إياه، ونصر العبد ربه: جهاده في سبيله، لتكون كلمته العليا".

قال الزجاج: " أي: من أقام شريعة من شرائعه، نصر على إقامة ذلك، إلا أنه لا يقام في شريعة نبي إلا ما أتي به ذلك النبي وينتهى عما نهى عنه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]، أي:"إن الله لَقوي لا يغالَب، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم".

قال الطبري: يقول:"إن الله لقوي على نصر من جاهد في سبيله من أهل ولايته وطاعته، عزيز في ملكه، يقول: منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب".

قال ابن كثير:"وَصَف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القويّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧١ – ١٧٣]، وقال الله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ

=

=

قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]".

أى: إن الله تعالى لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق، وبغير أى سبب من الأسباب، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله تعالى وحده، ولن نعبد من دونه إلها آخر.

أى: ليس هناك ما يوجب إخراجهم- في زعم المشركين- سوى قولهم ربنا الله.

قال ابن عاشور: وبغير حق حال من ضمير أخرجوا، أي أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم

الموجب إخراجهم، فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه، كما قال عمر بن الخطاب «إنها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام». ولا يزول ذلك الحق إلا بموجب قرره الشرع أو العوائد قبل الشرع. كما قال زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء

فمن ذلك في الشرائع التغريب والنفي، ومن ذلك في قوانين أهل الجاهلية الجلاء والخلع، وإنما يكون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكا من الردع غير ذلك.

ولذلك قال تعالى: بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله فإن إيمانهم بالله لا ينجر منه اعتداء على غيرهم إذ هو شيء قاصر على نفوسهم والإعلان به بالقول لا يضر بغيرهم.

فالاعتداء عليهم بالإخراج من ديارهم لأجل ذلك ظلم بواح واستخدام للقوة في تنفيذ الظلم.

=

=

والاستثناء في قوله: إلا أن يقولوا ربنا الله استثناء من عموم الحق، ولما كان المقصود من الحق حقا يوجب الإخراج، أي الحق عليهم، كان هذا الاستثناء مستعملا على طريقة الاستعارة التهكمية، أي إن كان عليهم حق فهو أن يقولوا ربنا الله، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ما قد يتخيل أنه حق عليهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه. ويسمى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم، وشاهده قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وهذه الآية لا محالة نزلت بالمدينة ا.هـ

ثم حرض سبحانه المؤمنين على القتال في سبيله، بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه، فقال تعالى: (وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا).

والمراد بالدفع: إذن الله المؤمنين في قتال المشركين. والمراد بقوله: بَعْضَهُمْ الكافرون. وبقوله: بِبَعْضٍ المؤمنون.

والصوامع: جمع صومعة، وهي بناء مرتفع يتخذه الرهبان معابد لهم.

والبيع: جمع بيعة- بكسر الباء- وهي كنائس النصارى التي لا تختص بالرهبان.

والصلوات: أماكن العبادة لليهود.

قال ابن الجوزي: فأما الصوامع، ففيها قولان: أحدهما: أنها صوامع الرهبان، قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن زيد. - وبه قال أكثر المفسرين وعلماء اللغة: كالفراء، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن منظور، والألوسي-.

والثاني: أنها صوامع الصابئين، قاله قتادة، وابن قتيبة. ا.هـ

وذكر بعض المفسرين قولا آخر في معنى الآية وهو أن المعنى: لتركت صلوات، أي صلوات المسلمين.

=

=

وهذا القول مروي عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم؛ يقول ابن زيد: ({وصلوات } أي صلوات أهل الإسلام، تنقطع إذا دخل عليهم العدو، وتنقطع العبادة من المساجد).

فأما البِيَع، فهي جمع بِيعة، وهي بِيَع النصارى. وفي المراد بالصلوات قولان: أحدهما: مواضع الصلوات. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كنائس اليهود، قاله قتادة، والضحاك، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي، قال: قوله تعالى: وَصَلَوَاتٌ هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية «صلوثا». والثاني: أنها مساجد الصابئين، قاله أبو العالية. والقول الثاني: أنها الصلوات حقيقة، والمعنى: لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين لانقطعت الصلوات في المساجد، قاله ابن زيد. فأما المساجد، فقال ابن عباس: هي مساجد المسلمين. وقال الزجاج: معنى الآية: لولا دفع بعض الناس ببعض لهدّمت في زمان موسى الكنائس، وفي زمان عيسى الصّوامع والبيع، وفي زمان محمّد المساجد ا.هـ

قال الطبري في تفسيره: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا. لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب.

ووافقه ابن كثير في تفسيره وقال: وقال بعض العلماء: هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمّارا وأكثر عبّادا، وهم ذوو القصد الصحيح ا.هـ

قال ابن عاشور: وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأن صوامع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها، وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى

=

=

مثل الصوامع. وأما ذكر الصلوات بعدهما فلأنه قد تهيأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالا للفائدة ا.هـ

أى: ولولا أن الله تعالى أباح للمؤمنين قتال المشركين، لعاث المشركون في الأرض فسادا، ولهدموا في زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما، ولهدموا في زمن الرسول ﷺ المساجد التي تقام فيها الصلاة.

قال القرطبي: قوله تعالى: وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ... أى: ولولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك.

وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم في الأمم. وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال: أذن في القتال فليقاتل المؤمنون. ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله: وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ ... الآية أى: لولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق في كل أمة ... ا.هـ

فالآية الكريمة تفيد أن الله تعالى قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل، ولولا ذلك لاختل هذا العالم، وانتشر فيه الفساد.

والتعبير بقوله تعالى: لَهُدِّمَتْ بالتشديد للإشعار بأن عدم مشروعية القتال، يؤدى إلى فساد ذريع، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة والطاعة لله- ﷻ.

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد، باعتبار أنها أقدم منها في الوجود، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف.

مسألة: أحكام الكنائس التي في بلاد المسلمين:

هذه المسألة فيها تفصيل خلاصته كالآتي:

أولا: من الكنائس ما لا يجوز هدمه، ولا التعرض له، ولا هدم شيء منه، وهي الكنائس القديمة التي أقروا عليها عند فتح بلادهم، وهذا مما أجمع عليه أهل

=

=

العلم.

ثانيا: ومنها ما يجب هدمه، وهي الكنائس التي أحدثت بعد استيلاء المسلمين للبلاد، وهذا باتفاق أهل العلم.

ثالثا: منها ما يجوز هدمه ويجوز إبقاؤه، وهي الكنائس التي تكون في أرض العنوة التي فتحها المسلمون، فإن الإمام يفعل فيها ما هو الأصلح للمسلمين، وهذا مجمع عليه عند أهل العلم أيضا.

رابعا: الكنائس التي تكون في الأرض التي فتحت صلحا، وهذا نوعان:

١ - أن يصالحهم على أن الأرض لهم، ولنا الخراج عليها، فلهم إحداث ما يختارون فيها.

٢ - أن يصالحهم على أن الدار للمسلمين ويؤدون الجزية إلينا، فالحكم في البيع والكنائس على ما يقع عليه الصلح معهم من تبقية وإحداث وعمارة.

مسألة: حكم الصلاة في الكنائس ونحوها:

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنه تكره الصلاة في الكنائس ومعابد الكفار إذا دخلها مختارا، أما إذا دخلها مضطرا فلا كراهة.

قال بهذا: جمهور العلماء.

واحتجوا: بأنها من مواطن الكفر والشرك، فهي أولى بالكراهة من الحمام والمقبرة والمزبلة، وأنها بيوت أعداء الله، ولا يتعبد الله في بيوت أعدائه.

القول الثاني: إن الصلاة تصح في الكنائس بلا كراهة.

قال بهذا: الإمام أحمد في رواية، وعمر بن عبد العزيز، والشعبي، والأوزاعي.

واحتجوا بالآتي:

١ - بأن الصحابة صلوا فيها، وهي طاهرة، وهي ملك من أملاك المسلمين، ولا

=

=

يضر المصلي شرك المشرك فيها، فذلك شرك فيها والمسلم موحد، فله غنمه وعلى المشرك غرمه.

٢- أنها داخلة في عموم حديث: (وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل.

نوقش هذا القول بالآتي:

أنه يمكن حمل صلاة الصحابة في الكنائس على كونهم يصلون في التي ليس فيها صور.

القول الثالث: أنها تصح الصلاة فيها بلا كراهة، إن لم يكن فيها صور، فإن كان فيها صور فتكره الصلاة فيها.

قال بهذا: ابن عباس - رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا -، وأحمد في رواية، وهي ظاهر مذهب الحنابلة، وابن تيمية، والشوكاني.

واحتجوا بالآتي:

١- أن الكنيسة التي فيها صور ستقابل الصور التي فيها المصلي وتواجهه، وهي كالأصنام إلا أنها غير مجسدة، فهي شعار الكفر ومأوى الشيطان(٧).

٢- وما ورد عن بعض الصحابة كما في قول عمر بن الخطاب - رَضِوَاللَّهُعَنْهُ -: "إنا لا ندخل كنائسكم، من أجل التماثيل التي فيها الصور"(٨).

وأن ابن عباس - رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا - كان يصلي في البيعة إلا بيعة فيها التماثيل.

قال الشوكاني: "والأثران يدلان على جواز دخول البيع والصلاة فيها، إلا إذا كان فيها تماثيل".

والراجح - والله أعلم - هو قول من قال بالتفريق بين الكنائس التي فيها صور فتكره الصلاة فيها، والكنائس التي ليس فيها صور فلا تكره الصلاة فيها.

وذلك لأسباب:

=

=

١ – لما ورد عن الصحابة كما في الأثرين السابقين.

٢ – لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة.

٣– لأن النبي – ﷺ – امتنع عن دخول الكعبة حتى محيت كل صورة فيها.

٤ – ولأن الكنيسة التي فيها صور بمنزلة المسجد المبني على القبر، ففي الصحيحينأن أم سلمة ذكرت للنبي – ﷺ – كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال:

" أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح – أو الرجل الصالح – بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله".

ثم ساق سبحانه بأسلوب مؤكد سنة من سننه التي لا تتخلف فقال: وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أى: والله لينصرن سبحانه من ينصر دينه وأولياءه، لأنه تعالى هو القوى على كل فعل يريده، العزيز الذي لا يغالبه مغالب، ولا ينازعه منازع.

وقد أنجز سبحانه وعده وسنته، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار، على أعدائه، فأذلوا الشرك والمشركين وحطموا دولتي الأكاسرة والقياصرة، وأورثهم أرضهم وديارهم.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات ليميزهم عن غيرهم فقال: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ، وَآتَوُا الزَّكاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ.

قوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ} [الحج: ٤١]، أي:"الذين وعدناهم بنصرنا هم الذين إنْ مكَّنَّاهم في الأرض، واستخلفناهم فيها بإظهارهم على عدوهم، أقاموا الصلاة بأدائها في أوقاتها بحدودها، وأخرجوا زكاة أموالهم إلى أهلها".

=

=

قال الطبري: يقول" [الذين] إن وطنا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها، وهم أصحاب رسول الله ﷺ. يقول: إن نصرناهم على أعدائهم وقهروا مشركي مكة، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة بحدودها، وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها الله له".

عن زيد بن أسلم قوله: " {الذين إن مكناهم في الأرض}، قال: أرض المدينة، {أقاموا الصلاة}، قال: المكتوبة، {وآتوا الزكاة}، قال: المفروضة".

عن أبي العالية قوله: " {الذين إن مكناهم في الأرض}، قال: أصحاب محمد ﷺ".

قال مقاتل:"يعني: أرض المدينة، وهم المؤمنون بعد القهر بمكة".

قال يحيى:"يعني: أصحاب النبي".

وقال محمد بن كعب:"هم الولاة".

عن قتادة قوله: " {الذين إن مكناهم في الأرض}، قال: هذا شرط الله على هذه الأمة".

قوله تعالى: {وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} [الحج: ٤١]، أي:"وأمروا بكل ما أمر الله به مِن حقوقه وحقوق عباده، ونَهَوْا عن كل ما نهى الله عنه ورسوله".

قال الطبري: يقول" ودعوا الناس إلى توحيد الله والعمل بطاعته وما يعرفه أهل الإيمان بالله، ونهوا عن الشرك بالله، والعمل بمعاصيه، الذي ينكره أهل الحق والإيمان بالله".

قال يحيى:"{وأمروا بالمعروف}، بعبادة الله، {ونهوا عن المنكر}، عن عبادة الأوثان".

عن زيد بن أسلم قوله: " {وأمروا بالمعروف}: بلا إله إلا الله، {ونهوا عن

=

=

المنكر}، قال: الشرك بالله".

قال أبو العالية: "كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الله وحده وعبادته لا شريك له، وكان نهيهم أنهم نهوا، عن عبادة الشيطان وعبادة الأوثان".

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١]، أي:"ولله وحده مصير الأمور كلها، والعاقبة للتقوى".

قال زيد بن أسلم:"وعند الله ثواب ما صنعوا".

قال يحيى:"إليه تصير الأمور كقوله: {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون} [مريم: ٤٠]".

قال الطبري:"يقول: ولله آخر أمور الخلق، يعني: أن إليه مصيرها في الثواب عليها، والعقاب في الدار الآخرة".

قال ابن الجوزي: التّمكين في الأرض: نصرهم على عدوّهم، والمعروف: لا إله إلا الله، والمنكر: الشِّرك. قال الأكثرون: وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وقال القرظي: هم الولاة ا.هـ

أي: ولينصرن الله تعالى هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكنا لهم في الأرض، ونصرناهم على أعدائهم، شكروا لنا ما أكرمناهم به، فأقاموا الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر، ولله تعالى وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها في الآخرة، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ...

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ

=

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢).

{وَإِنْ يُكَذِّبُوك} إلَى آخِره فِيهِ تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلهمْ قَوْم نُوح} تَأْنِيث قَوْم بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى {وَعَاد} قَوْم هُود {وَثَمُود} قَوْم صَالِح.

وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣).

{وقوم إبراهيم وقوم لوط}.

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤).

{وَأَصْحَاب مَدْيَنَ} قَوْم شُعَيْب {وَكُذِّبَ مُوسَى} كَذَّبَهُ الْقِبْط لَا قَوْمه بَنُو إسْرَائِيل أَيْ كَذَّبَ هَؤُلَاءِ رُسُلهمْ فَلَك أُسْوَة بِهِمْ {فَأَمْلَيْت لِلْكَافِرِينَ} أَمْهَلْتهمْ بِتَأْخِيرِ الْعِقَاب لَهُمْ {ثُمَّ أَخَذْتهمْ} بِالْعَذَابِ {فَكَيْفَ كَانَ نَكِير} أَيْ إنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ أَيْ هُوَ وَاقِع مَوْقِعه.

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥).

{فكأين} أي كم {من قرية أهلكتها} وفي قراءة أهلكناها {وَهِيَ ظَالِمَة} أَيْ أَهْلهَا بِكُفْرِهِمْ {فَهِيَ خَاوِيَة} سَاقِطَة {عَلَى عُرُوشهَا} سُقُوفهَا {وَ} كَمْ مِنْ {بِئْر مُعَطَّلَة} مَتْرُوكَة بِمَوْتِ أَهْلهَا {وَقَصْر مَشِيد رَفِيع خَالٍ بِمَوْتِ أَهْله.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦).

=
يَقُومُ الْأَشْهادُ.

وقوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ...

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {فِي الْأَرْض فَتَكُون لَهُمْ قُلُوب يَعْقِلُونَ بِهَا} مَا نَزَلَ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلهمْ {أَوْ آذَان يَسْمَعُونَ بِهَا} أَخْبَارهمْ بِالْإِهْلَاكِ وَخَرَاب الدِّيَار فَيَعْتَبِرُوا {فَإِنَّهَا} أَيْ الْقِصَّة {لَا تَعْمَى الْأَبْصَار وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصُّدُور} تَأْكِيد.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧).

{وَيَسْتَعْجِلُونَك بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِف الله وَعْده} بِإِنْزَالِ الْعَذَاب فَأَنْزَلَهُ يَوْم بَدْر {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْد رَبّك} مِنْ أَيَّام الْآخِرَة بِسَبَبِ الْعَذَاب {كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء فِي الدُّنْيَا.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨).

{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة أَمْلَيْت لَهَا وَهِيَ ظَالِمَة ثُمَّ أَخَذْتهَا} الْمُرَاد أَهْلهَا {وَإِلَيَّ الْمَصِير} الْمَرْجِع.

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩).

{قل يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار وَأَنَا بَشِير لِلْمُؤْمِنِينَ.

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠).

{فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَهُمْ مَغْفِرَة} مِنْ الذُّنُوب {وَرِزْق كَرِيم} هُوَ الْجَنَّة.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١).

{والذين سعوا في آياتنا} القرآن بإبطالها {معجزين} مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيّ أَيْ يَنْسُبُونَهُمْ إِلَى الْعَجْز وَيُثَبِّطُونَهُمْ عَنْ الْإِيمَان أَوْ مُقَدِّرِينَ عَجْزنَا عَنْهُمْ وَفِي قِرَاءَة

مُعَاجِزِينَ مُسَابِقِينَ لَنَا أَيْ يَظُنُّونَ أَنْ يَفُوتُونَا بِإِنْكَارِهِمْ الْبَعْث وَالْعِقَاب {أُولَئِكَ أَصْحَاب الجحيم} النار(١).

---

(١) لما نعى على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبيء ﷺ فقصد من ذلك تسلية الرسول ﷺ وتمثيلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم.

فقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها.

قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ (٤٤)} أي:"وإن يكذبك قومك -أيها الرسول- فقد سبقهم في تكذيب رسلهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب «مدين» الذين كذبوا شعيبًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمدا ﷺ عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السبّ والتكذيب: وإن يكذّبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتَهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذّبة رسل الله المشركة بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال. فقد كذبت قبلهم يعني مشركي قريش؛ قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وهم قوم شعيب. يقول: كذب كلّ هؤلاء رسلهم".

=

=

قوله تعالى: {وَكُذِّبَ مُوسَى} [الحج: ٤٤]، أي:"وكذّب فرعون وقومه موسى".

قال الطبري:"ولم يقل: وقوم موسى، لأن قوم موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذّبه، وإنما كذّبه فرعون وقومه من القبط، وقد قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنه ولد فيهم كما ولد في أهل مكة".

قوله تعالى: {فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} [الحج: ٤٤]، أي:"فأمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة".

قال الطبري:"يقول: فأمهلت لأهل الكفر بالله من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب، ثم أحللت بهم العقاب بعد الإملاء".

قال السمعاني:"أي: أمهلت للكافرين، والإمهال من الله هو الاستدراج والمكر".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [الحج: ٤٤]، أي:"فكيف كان إنكاري عليهم كفرهم وتكذيبهم، وتبديل ما كان بهم مِن نعمة بالعذاب والهلاك؟".

قال ابن عباس: يقول كيف رأيت ما صنعت بالمكذبين.

قال السمعاني:"أي: إنكاري، وإنكاره بالعقوبة".

قال الصابوني:"استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خرابًا؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة".

قال الطبري:"يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمة وتنكري لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم، ألم أبدلهم بالكثرة قلة وبالحياة موتا وهلاكا وبالعمارة خرابا؟ يقول: فكذلك فعلي بمكذّبيك من قريش، وإن أمليت لهم إلى آجالهم، فإني منجزك وعدي فيهم كما أنجزت غيرك من رسلي وعدي في أممهم، فأهلكناهم وأنجيتهم من بين أظهرهم".

قال ابن كثير:"أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!

=

=

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه، ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]» ".

والمعنى: لا تحزن- أيها الرسول الكريم- لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وأعرضوا عنه، فإن قوم نوح، وقوم هود. وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام، وما يقال لك من هؤلاء المشركين، قد قيل للرسل من قبلك.

قال تعالى: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ.

واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم، لاشتهارهم بهذا الاسم الذي يدل دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين.

وقال سبحانه: وَأَصْحابُ مَدْيَنَ ولم يقل وقوم شعيب، لأنهم هم الأسبق في التكذيب له- عليه السلام على أصحاب الأيكة، ولأنهم هم أهله أما أصحاب الأيكة فكانوا غرباء عنه على قول من قال أنهم أمتان.

وقال سبحانه: وَكُذِّبَ مُوسى لأنه لم يكذّب من جميع قومه وهم بنو إسرائيل.

وإنما كان المكذب له هو فرعون وملأه، وللإشارة إلى أن موسى- عليه السلام قد جاء إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه، ومع ذلك فقد قوبل بالتكذيب من فرعون وملئه.

قال ابن عاشور: وقوم إبراهيم هم الكلدان، وأصحاب مدين هم قوم شعيب،

=

=

وإنما لم يعبر عنهم بقوم شعيب لئلا يتكرر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات. وقال: وكذب موسى لأن مكذبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل ا.هـ
ثم بين سبحانه ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال: فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ.

والإملاء: الإمهال وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار، يقال: أنكرت على فلان فعله، إذا ردعته وزجرته عنه.

أي: هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، لم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم وأمليت لهم، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا. وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

وقال سبحانه فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ بالإظهار دون الإضمار، لزيادة التشنيع عليهم والاستفهام في قوله تعالى: فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ للتهويل والتعجيب. أى: لقد كان إنكارا فظيعا حول حياتهم إلى موت، وعمرانهم إلى خراب، وغرورهم إلى ذلة وهوان.. فعلى مشركي قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا.. وإلا فالعاقبة معروفة لهم.

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التي كذبت رسلها.. أتبع ذلك سبحانه ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال: (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ).
قوله تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ} [الحج: ٤٥]، أي:"فكثيرًا

=

=

من القرى الظالمة بكفرها أهلكنا أهلها".

قال الطبري: يقول: " وكم يا محمد من قرية أهلكت أهلها وهم ظالمون؛ يقول: وهم يعبدون غير من ينبغي أن يُعبد، ويعصون من لا ينبغي لهم أن يعصوه".

قوله تعالى: {فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [الحج: ٤٥]، أي:"خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة".

قال الطبري: " يقول: فباد أهلها وخلت، وخوت من سكانها، فخربت وتداعت، وتساقطت على عروشها؛ يعني على بنائها وسقوفها".

قال قتادة:"خربة ليس فيها أحد".

قال الضحاك:"خواؤها: خرابها، وعروشها: سقوفها".

قوله تعالى: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} [الحج: ٤٥]، أي:"وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها".

قال الطبري: يقول: "ومن بئر عطلناها، بإفناء أهلها وهلاك وارديها، فاندفنت وتعطلت، فلا واردة لها ولا شاربة منها".

قال ابن كثير:"أي: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها".

عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: " {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}، قال: التي قد تُرِكت. وقال غيره: لا أهل لها".

عن قَتادة: " {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}، قال: عطلها أهلها، تركوها".

عن الضحاك: " {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}، قال: لا أهل لها".

قوله تعالى: {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: ٤٥]، أي:"وكم من قصر مفرفوع البنيان أصبح خاليًا بلا ساكن".

قال الطبري: أي:"رفيع بالصخور والجصّ، قد خلا من سكانه، بما أذقنا أهله من

=

=

عذابنا بسوء فعالهم، فبادوا وبقي قصورهم المشيدة خالية منهم".

قال الماوردي:"وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره: وقصر مشيد مثلها معطل".

وفي قوله تعالى: {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: ٤٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن «المشيد»: الحصين. وهو قول الكلبي، ومنه قول امرئ القيس:

وتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ... وَلا أُطُما إلا مَشيدًا بِجَنْدَل

الثاني: أن «المشيد»: الرفيع، وهو قول قتادة، ومنه قول عدي بن زيد:

شادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْ... سا فللطَّيْر فِي ذُرَاهُ وُكُورُ

قال قتادة:"كان أهله شيَّدوه وحصَّنوه، فهلكوا وتركوه".

وعن الضحاك، قوله:"{وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}، يقول: طويل".

وقال مقاتل:"يعنى: طويلا في السماء ليس له أهل".

الثالث: أن «المشيد»: المجصص، و «الشيد»: الجص، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وعطاء، ومنه قول الطرماح:

كَحَبَّةِ المَاءِ بينَ الطَّيّ والشِّيد

قال جعفر بن برقان: "كنت أمشي مع عكرمة، فرأى حائط آجرّ مصهرج، فوضع يده عليه وقال: هذا المشيد الذي قال الله".

قال عكرمة:"الجصّ بالمدينة يسمى الشيد".

قال أبو عبيدة: {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}، معناه:"زيّنته بالشّيد وهو الجص والجيّار والملاط".

قال الزجاج:"أكثر ما جاء في مشيد من التفسير «مجصص»، و «الشيد»: الجص والكلس أيضا شيد، وقيل مشيد محصن مرتفع، والمشيد إذا قيل مجصص فهو مرتفع في قدره وإن لم يرتفع في سمكه، وأصل الشيد الجص والنورة، وكل ما بني بهما أو بأحدهما فهو مشيد".

=

قال ابن كثير:"وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لـم يَحْـمِ أهلـه شـدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨]".

قال الطبري: والصواب:"عني بالـ «مشيد»: المجصص، وذلك أن الشيد في كلام العرب هو الجصّ بعينه".

قال الفراء: {وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}،"يجوز فِيهِ التشديد لأن التشييد بناء فهو يتطاول ويتردد".

وروى أبو روق عن الضحاك:"أن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح، فلما حضروه مات صالح، فسمي حضرموت لأن صالحا لما حضره مات، فبنوا حاصورا وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا يقال له بلهنس بن جلاس بن سويد، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سواده، فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى نموا وكثروا، ثم أنهم عبدوا الأصنام فكفروا فأرسل الله إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان كان حمالا فيهم فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم".

وكلمة «كأين» مركبة من كاف التشبيه، ومن أى الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير، ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها. ومميزها غالبا ما يجر بمن كما في الآية وفي غيرها. قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ... ، وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ.

قال الآلوسي: وقوله: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى: أَهْلَكْناها أى: فأهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها.. أو مرفوع على الابتداء، وجملة

=

أَهْلَكْناها خبره.

أي: فكثير من القرى أهلكناها.. وقوله: وَهِيَ ظالِمَةٌ جملة حالية من مفعول أهلكنا.. ا.هـ.

ولفظ خاوِيَةٌ بمعنى ساقطة أو خالية. يقال خوى البيت يخوى إذا سقط أو خلا ممن يسكنه.

والعروش: جمع عرش وهو سقف البيت، ويسمى العريش: وكل ما يهيأ ليستظل به فهو عريش.

وبئر معطلة أي: مهجورة لهلاك أهلها، يقال: بأر فلان الأرض إذا حفرها ليستخرج منها الماء.

(والمشيد): المجصص بالشّيد وهو الجصّ. يقال: شاد فلان بيته يشيده، إذا طلاه بالشّيد.

قال أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٤٣٥: يقال: أشدت البنيان، فهو مشاد، وشيدته فهو مشيد – إذا رفعته وأطلته – فأما البناء المشيد فمن قوله تعالى: {وبئر معطلة وقصر مشيد} فإنه من غير المشيد، هذا هو الذي يبنى بالشيد وهو الجص. وهذا القول مروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء. وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، ورجحه الطبري، والنحاس. وذهب آخرون إلى أن المراد بالقصر المشيد: المرفوع البنيان. وهذا القول مروي عن قتادة، ومقاتل بن سليمان.

قال ابن كثير: (وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه، ولا ارتفاعه، ولا إحكامه، ولا حصانته عن حلول بأس الله فيهم، كما قال تعالى: {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة} [النساء: ٧٨]).

والمعنى: وكثير من القوى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم، فإذا ما نظرت إليها

=

=

وجدتها خالية من أهلها، وقد سقطت سقوفها على جدرانها. وكثير من الآبار التي كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة، وكثير- أيضا- من القصور المشيدة الفخمة أخليناها من أهلها.

وذلك لأنهم كذبوا رسلنا، وجحدوا نعمنا، فدمرناهم تدميرا. وجعلنا مساكنهم من بعدهم أثرا بعد عين.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِسابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْناها عَذابًا نُكْرًا فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْرًا).

ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها).

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} [الحج: ٤٦]، أي:"أفلم يَسِر المكذبون من قريش في الأرض ليشاهدوا آثار المهلكين".

قال ابن عباس: "أفلم يسر قومك في أرض اليمن والشام".

قال الواحدي:"حث على الاعتبار بحال من مضى من الأمم المكذبة".

قال ابن كثير: أي:"فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال".

قال الطبري: يقول:"أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوْا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكَّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم".

قوله تعالى: {فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} [الحج: ٤٦]، أي:"فيتفكروا بعقولهم، فيعتبروا".

=

=

قال الطبري: يقول:"ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ {قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيَّنا".

قال الواحدي: أي:"يعلمون بها ما يرون من العبر، والمعنى: فيعقلون بقلوبهم ما نزل بمن كذب قبلهم".

قوله تعالى: {أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الحج: ٤٦]، أي:"أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ والزواجر".

قال الواحدي: أي:"أخبار الأمم المكذبة".

قال الطبري:"يقول: أو آذان تصغي لسماع الحقّ فتعي ذلك وتميز بينه وبين الباطل".

قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]، أي:"فإن العمى ليس عمى البصر، وإنما العمى المُهْلِك هو عمى البصيرة عن إدراك الحق والاعتبار".

قال الطبري:"يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم؛ ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفته".

قال السمعاني:"معناه: أن العمى الضار هو عمى القلوب، وأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين، ومن المعروف في كلام الناس: ليس الأعمى من عمي بصره، وإنما الأعمى من عيت بصيرته".

قال ابن كثير:"أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى - وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الأندلسي الشَّنْتَريني، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

=

=

يا مَن يُصيخُ إلى دَاعي الشَقَاء، وقَد... نَادَى به الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى... في رَأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصَمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل... لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لا الدّهر يَبْقَى وَلا الدنيا، وَلا الفَلَك الـ... أعلى ولا النَّيّران: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وَإن كَرِها فرَاقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ".

وذكر الماوردي في قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]، وجهين:

أحدهما: أنها لا تعمى الأبصار عن الهدى ولكن تعمى القلوب عن الاهتداء.

والثاني: فإنها لا تعمى الأبصار عن الاعتبار ولكن تعمى القلوب عن الادّكار.

قال مجاهد:"لكل عين، يعني: لكل نفس أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه لم ينفعه شيئا".

قال قتادة:"ما هذه الأبصار التي في الرؤوس فإنها جعلها الله منفعة وبلغة، وأما البصر النافع فهو في القلب".

قال الزجاج:"«القلب» لا يكون إلا في الصدر - ولكن جرى على التوكيد كما قال ﷻ: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم} [آل عمران: ١٦٧]، وكما قال: {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْه} [الأنعام: ٣٨]، فالتوكيد جار في الكلام مبالغ في الإفهام".

وفي قراءة عبد الله: «فإنَّهُ لا تَعْمَى الأبْصَارُ».

والاستفهام للتوبيخ والإنكار، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام.

والمعنى: إن مصارع الغابرين وديارهم، يمر بها كفار قريش، ويعرفونها، فهم يرون في طريقهم إلى الشام قرى صالح وقرى قوم لوط.. قال تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

=

=

والشأن في هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه، أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون، ولا يعتبرون، ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة، والقصور الخالية من سكانها، والمنازل المهدمة، فلا يتعظون.

وقوله تعالى: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ بيان لسبب انطماس بصائرهم، وقسوة قلوبهم.

والضمير في قوله فَإِنَّها للقصة. أى: فإن الحال أنه لا يعتد بعمى الأبصار، ولكن الذي يعتد به هو عمى القلوب التي في الصدور، وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى الذي هو أشنع عمى وأقبحه. وهو عمى القلوب عن الفهم وقبول الحق.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ} [الحج/ ٤٦]. ظاهر هذه الآية أن الأبصار لا تعمى.

وقد جاءت آيات أخر تدل على عمى الأبصار، كقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد/ ٢٣]، وكقوله: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ} [النور/ ٦١].

والجواب: أن التمييز بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين القبيح والحسن، لمَّا كان كله بالبصائر لا بالأبصار، صار العمى الحقيقي هو عمى البصائر لا عمى الأبصار. ألا ترى أن صحة العينين لا تفيد مع عدم العقل، كما هو ضروري؟

وقوله: {فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} يعني: بصائرهم، أو أعمى أبصارهم عن الحق وإن رأت غيره ا.هـ

وذكر سبحانه أن مواضع القلوب في الصدور، لزيادة التأكيد، ولزيادة إثبات العمى لتلك القلوب التي حدد سبحانه موضعها تحديدا دقيقا.

=

قال الآلوسي: فالكلام تذييل لتهويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب، وأنه العمى الذي لا عمى بعده، بل لا عمى إلا هو، أو المعنى: إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها. وإن العمى بقلوبهم، فكأنه قيل: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم، وهي الآفة التي كل آفة دونها. كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها ا.هـ.

ثم أكد سبحانه انطماس بصائرهم، حيث بين أنهم بدل أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه، استعجلوا العذاب فقال: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} [الحج: ٤٧]، أي:"ويستعجلك- أيها الرسول- كفار قريش -لشدة جهلهم- بالعذاب الذي أنذرتهم به لمَّا أصروا على الكفر".

قال الطبري: يقول:"ويستعجلونك يا محمد مشركو قومك بما تعدهم من عذاب الله على شركهم به وتكذيبهم إياك فيما أتيتهم به من عند الله في الدنيا، ولن يخلف الله وعده الذي وعدك فيهم من إحلال عذابه ونقمته بهم في عاجل الدنيا. ففعل ذلك، ووفى لهم بما وعدهم، فقتلهم يوم بدر".

قال ابن كثير:"أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]، {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: ١٦]".

عن قتادة قوله: " {ويستعجلونك بالعذاب}، قال: قال ناس من جهلة هذه الأمة: اللهم إن كان هذا هو الحق من، عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم".

=

قوله تعالى: {وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ} [الحج: ٤٧]، أي:"ولن يخلف الله ما وعدهم به من العذاب فلا بدَّ من وقوعه".

قال الطبري: يقول:"ولن يخلف الله وعده الذي وعدك فيهم من إحلال عذابه ونقمته بهم في عاجل الدنيا. ففعل ذلك، ووفى لهم بما وعدهم، فقتلهم يوم بدر".

قال ابن كثير:"أي: الذي قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه".

قال الأصمعي: "كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمنالعجم أنت؟ إن العرب تَعدُ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أومَا سمعتَ قول الشاعر:

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى سَطْوَتي... ولا أَخْتَتِي من سَطْوة المُتَهَدّد

فإنّي وَإن أَوْعَدْتُه أَوْ وَعَدْتُه... لَمُخْلِفُ إيعَادي ومُنْجزُ مَوْعدي".

قوله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧]، أي:"وإن يومًا من الأيام عند الله -وهو يوم القيامة- كألف سنة مما تَعُدُّون من سني الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أَجَّلَ وأنظَر وأملى".

قال إبراهيم:"ما طول ذلك اليوم على المؤمن، إلا كما بين الأولى والعصر".

قال ابن عباس:"الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف".

عن محمد بن سيرين، عن رجل من اهل الكتاب أسلم قال: "إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وجعل

=

=

أجل الدنيا ستة أيام وجعل الساعة في اليوم السابع، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع، فمثل ذلك مثل الحامل إذا دخلت في شهرها، ففي أية ساعة ولدت كان تماما".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن يومًا من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة، قاله ابن عباس، ومجاهد.

الثاني: أن طول يوم من أيام الآخرة كطول ألف سنة من أيام الدنيا في المدة. وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد أيضا، وعكرمة.

عن سمير بن نهار، قال أبو هريرة: "يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أو ما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قال: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}".

وروي عن صفوان بن سليم إن رسول الله ﷺ قال: «فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء من المسلمين بنصف يوم. قيل: وما نصف اليوم؟ قال: خمسمائة عام» وتلا: {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون}".

فإن قيل: كيف انصرف الكلام من ذكر العذاب إلى قوله: {وإن يوما عند ربك}؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا، فقيل لهم: لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا. وإن يوما من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا، فكيف تستعجلون بالعذاب؟! فقد تضمنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة، هذا قول الفراء.

قال الزجاج:"ويدل على ذلك الحديث الذي يروى أن الفقراء يدخلون الجنة قبل

=

=

الأغنياء بنصف يوم، وجاء في حديث آخر تفسير هذا القول بخمسمائة عام".

والثاني: وإن يوما عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلونه وبين تأخيره في القدرة، إلا أن الله تفضل عليهم بالإمهال، وغفر بالتوبة. وهذا قول الزجاج.

أى: أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا في الأرض فيعتبروا ويتعظوا، أخذوا يطلبون منك- أيها الرسول الكريم- نزول العذاب عاجلا، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به، ويقولون لك: متى هو؟.

فالجملة الكريمة وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ خبرية في اللفظ، استفهامية في المعنى.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)} [الحج/ ٤٧].

هذه الآية الكريمة تدل على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة. وكذلك قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)} [السجدة/ ٥].

وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك، هي قوله تعالى في سورة سأل سائل: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)} الآية [المعارج/ ٤].

اعلم أولًا أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلًّا من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات، فلم يدر ما يقول فيها، ويقول: لا أدري.

وللجمع بينهما وجهان:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباسٍ من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات

=

=

والأرض، ويومُ الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويومُ الخمسين ألفًا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر.

ويدل لهذا قوله تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)} [المدثر/ ٩ - ١٠].

ذكر هذين الوجهين صاحب "الإتقان". والعلم عند الله تعالى ا.هـ

وقوله سبحانه: وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ جملة حالية جيء بها لتهديدهم على استعجالهم العذاب، أى: والحال أن الله تعالى لن يخلف ما وعدهم به من العذاب، بل هو منجزه في الوقت الذي يريده هو وليس الذي يريدونه هم.

وقوله سبحانه: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن حساب الأزمان في تقدير الله تعالى يخالف ما يقدره البشر.

أى: دعهم- أيها الرسول الكريم- يستعجلون العذاب، فذلك دأب الظالمين في كل حين، وسبيل الجاهلين في كل زمان، وأعلمهم أن الله تعالى لن يخلف وعده إياهم به في الوقت المحدد لذلك، وإن يوما عنده تعالى كألف سنة مما يعده هؤلاء في دنياهم، وسيأتيهم هذا اليوم الذي يطول عليهم طولا شديدا، لما يرون فيه من عذاب مهين.

قال القرطبي: قوله تعالى: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ قال ابن عباس ومجاهد: يعنى من الأيام التي خلق فيها السموات والأرض. وقال عكرمة: يعنى من أيام الآخرة، أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة.

وقال الفراء: هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة.

=

=

وقيل المعنى: وإن يوما في الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة.. ا.هـ.

ثم أكد سبحانه أن إملاءه للظالمين، سيعقبه العذاب الأليم، فقال: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ.

قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)} [الحج: ٤٨]

التفسير:

وكثير من القرى كانت ظالمة بإصرار أهلها على الكفر، فأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة فاغتروا، ثم أَخَذْتُهم بعذابي في الدنيا، وإليَّ مرجعهم بعد هلاكهم، فأعذبهم بما يستحقون.

قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ} [الحج: ٤٨]، أي:"وكثير من القرى كانت ظالمة بإصرار أهلها على الكفر، فأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة".

قال مقاتل:"يعني: أمهلت لها فلم أعجل عليها بالعذاب، {وهي ظالمة}".

قال يحيى:"{أَمْلَيْتُ لَهَا}، إلى الوقت الذي أخذتها فيه، {وهي ظالمة} مشركة، يعني: أهلها".

قال الطبري:"يقول: أمهلتهم وأخَّرت عذابهم، وهم بالله مشركون، ولأمره مخالفون، وذلك كان ظلمهم الذي وصفهم الله به جلّ ثناؤه، فلم أعجل بعذابهم".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَخَذْتُهَا} [الحج: ٤٨]، أي:"ثم أَخَذْتُهم بعذابي في الدنيا".

قال يحيى:"يعني: بالعذاب".

قال الطبري:"يقول: ثم أخذتها بالعذاب، فعذّبتها في الدنيا بإحلال عقوبتنا بهم".

=

=

قوله تعالى: {وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [الحج: ٤٨]، أي:"وإليَّ مرجعهم بعد هلاكهم، فأعذبهم بما يستحقون".

قال مقاتل:"يقول: إلى الله يصيرون".

قال يحيى:"في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: وإليّ مصيرهم أيضا بعد هلاكهم، فيلقون من العذاب حينئذ ما لا انقطاع له؛ يقول تعالى ذكره: فكذلك حال مستعجليك بالعذاب من مشركي قومك، وإن أمليت لهم إلى آجالهم التي أجلتها لهم، فإني آخذهم بالعذاب، فقاتلهم بالسيف، ثم إليّ مصيرهم بعد ذلك فموجعهم إذن عقوبة على ما قدّموا من آثامهم".

أى: وكثير من القرى الظالمة أمهلت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى، ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا، جعلهم في قراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها، وسيرجعون إلينا فيجدون عذابا أشد وأبقى، إذ أن مصيرهم إليّ لا إلى غيرى.

وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين وبيان سنة الله تعالى في المكذبين، يأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- للناس، إن وظيفتي أن أنذركم وأخوفكم من عذاب الله، بدون التباس أو غموض.

فَالَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة، ورزق كريم، لا انقطاع معه ولا امتناع.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أى: والذين بذلوا كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، وأسرعوا في تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروهم بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن

=

=

عقيدتهم.
أُولئِكَ الموصوفون بهذا السعى الأثيم أَصْحابُ الْجَحِيمِ أى: الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه.
قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الحج: ٤٩]، أي:"قل - أيها الرسول -: يا أيها الناس ما أنا إلا منذر لكم مبلِّغ عن الله رسالته".
قال الطبري:"قل يا محمد لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علم، اتباعا منهم لكل شيطان مريد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم في الدنيا، وعذابه في الآخرة أن تصلوه، أبين لكم إنذاري ذلك وأظهره، لتنيبوا من شرككم وتحذروا ما أنذركم من ذلك، لا أملك لكم غير ذلك، فأما تعجيل العقاب وتأخيره الذي تستعجلونني به، فإلى الله ليس ذلك إليّ، ولا أقدر عليه".
قال ابن كثير:"أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، و {لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد: ٤١]".
قال مقاتل:"يعني: كفار مكة، {إنما أنا لكم نذير مبين}، يعني: بين".
قوله تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الحج: ٥٠]، أي:"فالذين آمنوا بالله ورسوله، واستقر ذلك في قلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحة".
قال ابن كثير:"أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم".
قوله تعالى: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الحج: ٥٠]، أي:"لهم عند الله عفو عن ذنوبهم ومغفرة يستر بها ما صدر عنهم من معصية، ورزق حسن لا ينقطع وهو

=

=

الجنة".

قال الطبري:"يقول: لهم من الله ستر ذنوبهم التي سلفت منهم في الدنيا عليهم في الآخرة {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}، يقول: ورزق حسن في الجنة".

قال ابن كثير:"أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنةٌ على القليل من حسناتهم".

قال ابن جُرَيج، قوله: " {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}، قال: الجنة".

قال محمد بن كعب القرظي: "إذا سمعت الله يقول: رزق كريم فهي الجنة".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [الحج: ٥١]، أي:"والذين اجتهدوا في الكيد لإبطال آيات القرآن بالتكذيب مشاقين مغالبين".

قال الطبري:"يقول: والذين عملوا في حججنا فصدّوا عن اتباع رسولنا، والإقرار بكتابنا الذي أنزلناه".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: {مُعَجِزِينَ}، بغير ألف، وقرأ الباقون: «مُعَاجِزِينَ»، بالألف.

فمن قرأ: {مُعَجِزِينَ}، ففي تفسيره أربعة وجوه:

أحدها: مثبطين لمن أراد اتباع النبي-ﷺ-، وهو قول ابن الزبير، والسدي.

روي عروة بن الزبير:"أنه كان يعجب من الذين يقرءون هذه الآية: «والذين سعوا في آياتنا معاجزين»، قال: ليس «معاجزين» من كلام العرب، إنما هي: «معجزين»، يعني: مشبطين".

الثاني: معناه: مبطِّئين، يبطِّئون الناس عن اتباع النبيّ ﷺ، وهذا قول مجاهد.

الثالث: مكذبين، حكاه ابن شجرة.

الرابع: مَعَجِزِينَ لمن آمن بإظهار تعجيزة في إيمانه. حكاه الماوردي.

=

=

ومن قرأ «مُعَاجِزِينَ»، ففي تفسيره ستة وجوه:

أحدها: مشاقين. قاله ابن عباس.

الثاني: مراغمين. قاله ابن عباس أيضا.

الثالث: متسارعين. حكاه ابن شجرة.

الرابع: معاندين. قاله قطرب.

الخامس: معناه: كذبوا بآيات الله فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه. قاله قتادة. وقال الحسن:"يظنون أنهم يعجزونا فيسبقوننا في الأرض حتى لا نقدر عليهم فنعذبهم".

وقال السدي:"مُعَاجِزِينَ يظنون أنهم يُعْجِزُونَ الله هربًا".

السادس: مثبطين الناس عن الإيمان بالقرآن، يعني كفار مكة. وهذا قول مقاتل.

قال الطبري: "والقراءاتان متقاربتا المعنى؛ وذلك أن من عجز عن آيات الله، فقد عاجز الله، ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون الناس عن الإيمان بالله، واتباع رسوله، ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله. فإذ كان ذلك كذلك، فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [الحج: ٥١]، أي:"أولئك هم أهل النار الموقدة، يدخلونها ويبقون فيها أبدًا".

قال ابن كثير:"وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها".

قال يحيى:"«الجحيم»: اسم من أسماء جهنم".

(فائدة): في قوله تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها)

=

=

دليل على أن محل العقل القلب.

قال القاضي أبو يعلى في العدة (١/ ٨٩ - ٩٤): محل العقل القلب ذكره أبو الحسن التميمي في كتاب العقل فقال: الذي نقول به أن العقل في القلب يعلو نوره إلى الدماغ فيفيض منه إلى الحواس ما جرى في العقل. ومن الناس من قال هو في الدماغ. وقد نص أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ على مثل هذا القول فيما ذكره أبو حفص ابن شاهين في الجزء الثاني من أخبار أحمد بإسناده عن فضيل بن زياد وقد سأله رجل عن العقل أين منتهاه من البدن؟ فقال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: العقل في الرأس أما سمعت إلى قولهم: وافر الدماغ والعقل واحتج هذا القائل بأن الرأس إذا ضرب زال العقل. ولأن الناس يقولون: فلان خفيف الرأس وخفيف الدماغ ويريدون به العقل. وهذا غير صحيح لقوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وأراد به العقل فدل على أن القلب محله. لأن العرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاورًا له أو كان بسبب منه. واحتج أبو الحسن التميمي بقوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها) ا. هـ

وقال النووي في شرح مسلم: في شرح حديث (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) قال: واحتج بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس وفيه خلاف مشهور مذهب أصحابنا وجماهير المتكلمين أنه في القلب وقال أبو حنيفة هو في الدماغ وقد يقال في الرأس وحكوا الأول أيضًا عن الفلاسفة والثاني عن الأطباء. قال المازري واحتج القائلون بأنه في القلب بقوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وبهذا الحديث فإنه ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعًا للقلب مع أن الدماغ من

=

=

جملة الجسد فيكون صلاحه وفساده تابعًا للقلب فعلم أنه ليس محلًا للعقل. واحتج القائلون بأنه في الدماغ بأنه إذا فسد الدماغ فسد العقل ويكون من فساد الدماغ الصرع في زعمهم. ولا حجة لهم في ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بفساد العقل عند فساد الدماغ مع أن العقل ليس فيه ولا امتناع من ذلك. قال المازري لا سيما على أصولهم في الاشتراك الذي يذكرونه بين الدماغ والقلب وهم يجعلون بين رأس المعدة والدماغ اشتراكًا والله أعلم.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣): العقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل. وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقيل لابن عباس بماذا نلت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول. لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النبي - ﷺ - ((إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد)) وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقًا فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك. وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه أيضًا. ولهذا قيل إن العقل في الدماغ كما يقوله كثير من الأطباء. ونقل ذلك عن الإمام أحمد. ويقول طائفة من أصحابه إن أصل العقل في القلب فإذا كمل انتهى إلى الدماغ. والتحقيق أن الروح التي هي النفس لها تعلق بهذا وهذا وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ومبدأ الإرادة في القلب والعقل يراد به العلم ويراد به العمل فالعلم الاختياري أصله الإرادة وأصل الإرادة في القلب والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد. فلابد أن يكون القلب متصورًا فيكون منه هذا وهذا ويبتدئ ذلك من الدماغ وآثاره صاعدة إلى الدماغ فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء وكلا القولين له

=

=

وجه صحيح ا. هـ

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٧/ ٢٩٩): وهنا نسأل عن مسألة كثر السؤال عنها هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب؟ قال بعض الناس في القلب وقال بعض الناس: في الدماغ، وكل منهم له دليل، الذين قالوا: إنه في القلب قالوا: لأن الله تعالى يقول: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور). [سورة الحج، الآية: ٤٦]. قال: (قلوب يعقلون بها) ثم قال: (تعمى القلوب التي في الصدور). إذًا العقل في القلب، والقلب في الصدر فكان العقل في القلب، وقال بعضهم: بل العقل في الدماغ لأن الإنسان إذا اختل دماغه اختل تصرفه ولأننا نشاهد في الزمن الأخير نشاهد الرجل يزال قلبه ويزرع له قلب جديد ونجد عقله لا يختلف عقله وتفكيره هو الأول. نجد إنسانًا يزرع له قلب شخص مجنون لا يحسن يتصرف، ويبقى هذا الذي زرع فيه القلب عاقلًا فكيف يكون العقل في القلب؟ إذًا العقل في الدماغ لأنه إذا اختل الدماغ اختل التصرف، اختل العقل. ولكن بعض أهل العلم قال: إن العقل في القلب ولا يمكن أن نحيد عما قال الله ﷻ لأن الله تعالى وهو الخالق وهو أعلم بمخلوقه من غيره كما قال تعالى: ؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ولأن النبي ﷺ قال: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله)، فالعقل في القلب والقلب في الصدر لكن الدماغ يستقبل ويتصور ثم يرسل هذا التصور إلى القلب، لينظر أوامره ثم ترجع الأوامر من القلب إلى الدماغ ثم ينفذ الدماغ إذًا الدماغ بمنزلة السكرتير ينظم المعاملات ويرتبها ثم يرسلها إلى القلب، إلى المسؤول الذي فوقه هذا القلب يوقع، يمضي، أو يرد ثم يدفع المعاملة إلى الدماغ والدماغ يأمر الأعصاب وتتمشى، وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس وهو

=

=

الموافق للواقع وقد أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في كتبه، والإمام أحمد أشار إليه إشارة عامة فقال: محل العقل القلب وله اتصال بالدماغ. لكن التفصيل الأول واضح جدًا الذي يقبل الأشياء ويتصورها ويمحصها هو الدماغ ثم يرسل النتيجة إلى القلب ثم القلب يأمر إما بالتنفيذ وإما بالمنع لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله. ا. هـ

وقال صاحب كتاب نقض أصول العقلانيين: قد اكتشف العلماء حديثًا أن قلب الإنسان يحتوي على عقلٍ آخر! مصداقًا لما أخبر الله به في قوله: ؟أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها؟ فأثبت سبحانه أن القلب يعقل. فقد جاء في مجلة اليمامة (العدد ١٦٠٧) تحقيق طبي عن آخر اكتشافات العلم الحديث حول وجود عقل في القلب اقتطف منه ما يلي لعله يكون عبرة لنا، فلا نبادر بمعارضة نصوص الكتاب والسنة بالمعقولات الساذجة فنكون ممن قال تعالى فيهم ؟بل كذبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله؟. يقول الدكتور فهد العريفي: " سبحان الله القائل في محكم التنزيل: ؟إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؟ وصدق رسوله الكريم القائل (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب). كان للقرآن الكريم السبق في التدليل على أهمية هذه العضلة في تحديد شخصية الإنسان، بدءًا من دينه وانتهاءً بمعاملاته. وقد ساد عند كثير من العلماء فهمًا مفاده أن القلب عبارة عن مضخة ميكانيكية للدم وأن مصدر العاطفة والمشاعر هو العقل ولمراد به المخ وليس القلب. فكل الأفكار والتصرفات والسلوك مصدرها المخ وأوّل بعض المفسرين دلالة القلب الواردة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن المراد هو العقل. وأخيرًا جاء العلم الحديث ليؤكد على أن القلب هو العقل الثاني

=

=

المتحكم في المشاعر والسلوك".

قال الدكتور: "منذ قرون خالت، وعندما لم يكن متاحًا عن علم الأعصاب سوى النزر اليسير، فتن الغموض الذي أحاط بالقلب والعقل وكيفية عملهما الداخلي ولكن خلال العامين والنصف الماضيين ازدادت المعرفة حول علم الأعصاب، مما أدى إلى اكتشاف المزيد من التفسيرات عن الحافز للإنسان، إخلاصه وولائه، الثقة، الالتزام، التغير السلوكي، أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية، تشير بعض البحوث الرائدة التي أجراها بعض العلماء إلى أنه يوجد (مخ آخر) داخل الأمعاء والقلب يعرف بالجهاز العصبي الداخلي وهو مستقل عن المخ بيد أنه يتصل به في الجمجمة وذلك حسب رأي (مايكل فيرشون) رئيس قسم التشريح وعلم الأحياء الخلوية بكولمبيا. إن المكان الذي تذهب إليه كل تجربة أو خبرة هو القلب لا المخ. في التسعينات اكتشف علماء (علم القلب العصبي) الحقل الجديد الآخذ في الظهور، اكتشفوا عقلًا في القلب يتكون من ٤٠٠.٠٠٠ خلية عصبية من مختلف الأنواع إضافة إلى شبكة معقدة من المرسلات العصبية، البروتينات، الخلايا المساعدة وتؤدي عملًا مستقلًا عن الدماغ أو العقل. وهذا (المخ القلبي) كبير ومتسع تمامًا كما اتساع المناطق الرئيسية في المخ (الدماغ المفكر) ومعقد بالقدر الذي يجعله كالمخ تمامًا. وشبكة الاستقبال في القلب هي جهاز عصبي مستقل ولها طريق ذو اتجاهين يوصلها بالمخ. وهناك اكتشاف مدهش آخر هو أن دقات القلب ليست نبضات ميكانيكية لمضخة، بل لديها لغة ذكية تؤثر عن كيفية فهمنا وتفاعلنا مع العالم الخارجي. إن الدراسات الحديثة في علم الأعصاب توضح أن كل خفقة للقلب تحدث هناك. فمع كل خفقة للقلب يتدفق شلال عصبي يطلق خلايا عصبية من القلب لترسل فورًا إلى المخ عبر العصب الشوكي.

=

=

إن الإشارات العصبية الخارجة من القلب ذات تأثير وأثر على ضبط العديد من إشارات الجهاز العصبي، الأوعية الدموية، العضلات، الغدد والأعضاء المحيطة بالقلب كما أن الرسائل العصبية من القلب تؤثر أيضًا على قشرة المخ الجزء المختص بعمليات التفكير والاستنتاج كما تؤثر إشارات القلب العصبية على مواقع الإدراك والأفعال ومناطق العاطفة. يتصل القلب بالمخ بطريقة أخرى، من خلال رسول كيمائي في النظام الهرموني للجسد وهذا ما يرمز له بهرمون التوازن، ولهرمون التوازن تأثير مهم على الجسد، والأوعية الدموية، ومناطق ضبط وتحكم متعددة في المخ. ويعتبر هذا الهرمون من خلال الدراسات الحديثة بأنه الباعث الأساسي للسلوك التحريضي، كالإخلاص والولاء والقبول. مع كل نبضة قلب هنالك شكل آخر من أشكال الاتصال الفوري مع كل الجسم، وهي عبارة عن موجة تنتقل عبر الشرايين بسرعة تفوق بمرات كثيرة سرعة تدفق الدم. يخلق نوعًا من لغة الاتصال بين القلب والمخ لأن عينات موجة الضغط الدموي عينات قلبية إيقاعية معقدة وبهذه الطريقة تؤثر على مجمل الجسم وكذلك المخ.

ظهرت دراسات حديثة تبين أن الحقل الكهرومغناطيسي للقلب يعد تقريبًا الأقوى بين الحقول الكهرومغناطيسية التي ينتجها الجسم وفي الواقع إنه يفوق الحقل الكهرومغناطيسي للمخ بخمسة آلاف (٥٠٠٠) مرة وطبقًا لأبحاث نُشرت في مجلة (طب القلب) الأمريكية فإن التغيرات الكهربائية في الإحساس التي يرسلها القلب البشري يمكن أن تُحس وتقاس على بعد ٥ أقدام على الأقل، والحقل الكهرومغناطيسي للقلب ليس محصورًا على الجسم في التأثير ولكن أيضًا لديه إشعاع خارجي، وفي الأبحاث الحديثة يمكن قياس هذا الإشعاع من على بعد ٢ إلى ٣ أمتار بواسطة جهاز كشف حساس يسمى الماغنيتوميتر، وهذا أيضًا ما أكدته دراسات أجراها مجموعة من العلماء في جامعة أريزونا في الولايات

=

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢).

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك مِنْ رَسُول} هُوَ نَبِيّ أُمِرَ بِالتَّبْلِيغ {وَلَا نَبِيّ} أَيْ لَمْ يُؤْمَر بِالتَّبْلِيغ {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} قَرَأَ {أَلْقَى الشَّيْطَان فِي أُمْنِيَّته} قِرَاءَته مَا لَيْسَ مِنْ الْقُرْآن مِمَّا يَرْضَاهُ الْمُرْسَل إِلَيْهِمْ وَقَدْ قَرَأَ النَّبِيّ ﷺ فِي سُورَة النَّجْم بِمَجْلِسٍ مِنْ قُرَيْش بَعْد {أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاة الثَّالِثَة الْأُخْرَى} بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَان عَلَى لِسَانه مِنْ غَيْر عِلْمه ﷺ به تلك العرانيق الْعُلَا وَإِنَّ شَفَاعَتهنَّ لَتُرْتَجَى فَفَرِحُوا بِذَلِكَ ثُمَّ أَخْبَرَهُ جِبْرِيل بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَان عَلَى لِسَانه مِنْ ذَلِكَ فَحَزِنَ فَسُلِّيَ بِهَذِهِ الْآيَة لِيَطْمَئِنّ {فَيَنْسَخ الله} يُبْطِل {مَا يُلْقِي الشَّيْطَان ثُمَّ يُحْكِم الله آيَاته} يُثَبِّتهَا {وَالله عَلِيم} بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَان مَا ذُكِرَ {حَكِيم} فِي تَمْكِينه مِنْهُ بِفِعْلِ مَا يَشَاء.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣).

{لِيَجْعَل مَا يُلْقِي الشَّيْطَان فِتْنَة} مِحْنَة {لِلَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض} شِقَاق وَنِفَاق {وَالْقَاسِيَة قُلُوبهمْ} أَيْ الْمُشْرِكِينَ عَنْ قَبُول الْحَقّ {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {لَفِي شِقَاق بَعِيد} خِلَاف طَوِيل مَعَ النَّبِيّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ جَرَى عَلَى لِسَانه ذِكْر آلِهَتهمْ بِمَا يُرْضِيهِمْ ثُمَّ أُبْطِلَ ذَلِكَ.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤).

=

المتحدة والتي قدمت دلائل على اتصال طاقة بين الحقلين الكهرومغناطيسيين للقلب والمخ. ا. هـ بتصرف.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم} التَّوْحِيد وَالْقُرْآن {أَنَّهُ} أَيْ الْقُرْآن {الْحَقّ مِنْ رَبّك فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِت} تَطْمَئِنّ {لَهُ قُلُوبهمْ وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلَى صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} أَيْ دين الإسلام[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

ورد من عدة طرق ضعيفة إن رسول الله ﷺ قرأ بمكة (النجم)، فلما بلغ هذا الموضع: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)} [النجم: ١٩، ٢٠]؛ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى!!!. ففرح المشركون بذلك وقالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم؛ فسجد وسجدوا؛ فجاء جبريل، فقال: "اقرأ عليّ ما جئتك به"؛ فقرأ: " {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)} تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى"، فقال -أي: جبريل-: "ما أتيتك بهذا، هذا من الشيطان"؛ فأنزل الله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)} " وهو حديث باطل سيأتي تخريجه بتوسع في آخر البحث.

* قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢]، أي:"وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوساوس والشبهات؛ ليصدَّ الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلوه".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} [الحج: ٥٢]، قولان:

أحدهما: أن الرسول والنبي واحد، ولا فرق بين الرسول والنبي، وهذا قول المعتزلة، فقد صَرَّح القاضي عبدالجبار بأنه لا فرق بين الرسول والنبي من جهة الاصطلاح، وقال الرازي: " وقالت المعتزلة: كل رسول نبي، وكل نبي رسول، =

=

ولا فرق بينهما "، وقد خالف الزمخشري جمهور المعتزلة في هذا، وقال بالتفريق بينهما. والأشاعرة يوافقون أهل السنة في التفرقة بين الرسول والنبي، ثم ذكروا في الفرق بينهما أقوالًا.

والقول الثاني: أنهما مختلفان، وأن الرسول أعلى منزلة من النبي.

واختلف قائل هذا في الفرق بين الرسول والنبي على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرسول هو الذي تتنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبي يوحى إليه في نومه.

الثاني: أن النبي الرسول هو من أنزل عليه كتاب وشرع مستقل يدعو الناس إليه، والنبي المرسل -الذي هو غير الرسول- هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة كما قال تعالى: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} [المائدة: ٤٤].

الثالث: أن الرسول هو الذي أرسله الله تعالى، وهو مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه، والنبي هو المنبأ عن الله، فالله ينبئه بالغيب، وهو ينبئ الناس بالغيب. وقريب من هذا القول قول من قال: النبي هو من أوحي إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو النبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه.

وهذا الأخير أضعف الأقوال، قال الشنقيطي معللًا عدم صحة هذا القول-: "لأن قوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} الآيه يدل على أنكلًا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير".

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الطحاوية: وهذا يدل على أنَّ الفرق قائم ما بين النبي وما بين الرسول، وأنّ النبي إرساله خاص وأنَّ الرسول إرساله مطلق، فلهذا نقول دلّت آية سورة الحج {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

=

=

وَلَا نَبِيٍّ} على أنّ كلا من النبي والرسول يقع عليه إرسال. فما الفرق بينهما من جهة التعريف؟

الجواب: أنَّ العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب: وهو أنَّ تعريف النبي -وهي مسألة اجتهادية-: النبي هو من أَوْحَى الله إليه بشرعٍ لنفسه أو أَمرَه بالتبليغ إلى قوم موافقين؛ يعني موافقين له في التوحيد.

والرسول: هو من أَوْحى الله إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم مخالفين.

وتلحظ أنَّ هذا التعريف للنبي وللرسول أَنه لا مَدْخَلَ لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يعطى الرسول كتابًا، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٩]، وقد يكون له كتاب.

فإذًا من جَعَلَ الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو إيتاء الكتاب، وحي جاءه بكتاب مُنَزَّلْ من عند الله - ﷻ -، فهذا ليس بجيد، بل يقال كما ذكرت لك في التعريف أنَّ المدار على:

-النبي مُوحَى إليه، والرسول موحى إليه.

-النبي يوحى إليه بشرع أو بفصلٍ في قضية؛ شرع يشمل أشياء كثيرة، -وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع.

-النبي يُوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين أو ليعمل به في خاصة نفسه كما جاء في الحديث (ويأتي النبي وليس معه أحد)، الرسول يُبعث إلى قوم مخالفين له.

ولهذا جاء في الحديث أن (العلماء ورثة الأنبياء) ولم يجعلهم ورثة الرسل، وإنما قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)، وذلك لأنّ العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه، فيكون إذًا في إيضاح شريعته، في إيضاح الشريعة يكون

=

=

ثَمَّ شَبَه ما بين العالم والنبي، ولكن النبي يُوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا؛ لأنها من عند الله - ﷻ -، والعالم يوضِحُ الشريعة ويعرض لحُكْمِهِ الغلط.

يتعلق بهذه المسألة بحث أنَّ الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، كما أنَّ النبي يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ. فإذًا الفرق ما بين النبي والرسول في إتباع الشريعة - شريعة مَنْ قَبْلُ - أَنَّ النبي يكون متابعا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، والرسول قد يكون متابعًا -كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث به إبراهيم عليه السلام ويعقوب-، وقد يكون يُبْعَثُ بشريعة جديدة. وهذا الكلام؛ هذه الاحترازات لأجل أنَّ ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل مُحْتَرَزٍ من هذه الأشياء فرقا ما بين النبي والرسول.

فإذًا كما ذكرت لكم:

- الكتاب قد يُعطاهُ النبي وقد يُعطاهُ الرسول.

- بَعْثُهُ لقوم موافقين أو مخالفين هذا مدار فرق ما بين النبي والرسول.

- الرسول قد يبعث بشريعة مَنْ قَبْلَهْ بالتوحيد بالديانة التي جاء بها الرسول لمن قبله، لكن يُرْسل إلى قوم مخالفين، وإذا كانوا مخالفين فلا بد أن يكون منهم مَنْ يُصَدِّقُهُ ويكون منهم من يُكَذِّبُه؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب، كما جاء في ذلك الآيات الكثيرة. وانظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص ٢٥٥).

وفي تفسير قوله تعالى: {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢]، قولان:

أحدهما: أن يكون «تمنَّى» بمعنى: «قرأ»، و «الأمنية»: بمعنى: «القراءة». قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وهو قول الأكثرين.

وهو معنى قد يصح، وقد ورد استعمال اللفظ فيه؛ قال حسان بن ثابت في عثمان رضي الله عنهما:

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيلهِ... وآخِرَه لاقى حِمامَ المقادِرِ

=

=

وقال آخر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ آخرَ ليلِه... تَمَنَّى دَاوُدَ الزَّبُورَ علَى رِسْلِ

أي: تلا كتاب الله مترسلا فيه كما تلا داود الزبور مترسلا فيه.

قال القاسمي:"إن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكروه، بل على المعنى المفهوم من قولك: «ألقيتُ في حديث فلان»، إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه، ولا يكون قد أراده. أو نسبت إليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدى إليه. وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق، يتبعون الشبهة، ويسعون وراء الريبة، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه، مفسد القلوب بدسائسه، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه. ويكون المعنى: وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا حدث قومه عن ربه، أو تلا وحيًا أنزل إليه في هدى لهم، قام في وجهه مشاغبون، يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه. ويتقوّلون عليه ما لم يقله، وينشرون ذلك بين الناس، ليبعدوهم عنه، ويعدلوا بهم عن سبيله، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل.

وقال ابن عاشور:"وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة شك عظيم، فإنه وإن كان قد ورد تمنى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنى كتاب الله أول ليله... تمني داود الزبور على مهل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

ويجوز أن يكون المعنى: أن النبيء إذا تمنى هدي قومه أو حرص على ذلك فلقي منهم العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبيء خاطر اليأس من هداهم عسى أن يقصر النبيء من حرصه أو أن يضجره، وهي

=

خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه ملوحا إلى قوله تعالى: {وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِين} [الأنعام: ٣٥]".

والقول الثاني: أنه من الأمنية، وذلك أن رسول الله ﷺ تمنى يوما أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومه، فألقى الشيطان على لسانه لما كان قد تمناه، قاله قتادة، ومحمد بن كعب القرظي.

عن قتادة:"أن النبيّ ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين، فألقى الشيطان في أمنيته، فقال: إن الآلهة التي تدعي أن شفاعتها لترتجى وإنها للغرانيق العلى. فنسخ الله ذلك، وأحكم الله آياته".

قال الطبري:"" «التمني»، يعني: التلاوة والقراءة قاله الضحاك. وهذا القول أشبه بتأويل الكلام، بدلالة قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته على ذلك، لأن الآيات التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها، لا شك أنها آيات تنزيله، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه.

فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ، أو حدث وتكلم، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدث وتكلم فينسخ الله ما يلقي الشيطان يقول الله تعالى: فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله".

قوله تعالى: {فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ} [الحج: ٥٢]، أي:"لكن الله يبطل كيد الشيطان، فيزيل وساوسه، ويثبت آياته الواضحات".

=

قال الطبري:"يقول تعالى: فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله، ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان على لسان نبيه".

عن ابن عباس: " {فينسخ الله ما يلقي الشيطان} : فيبطل الله ما ألقى الشيطان".

عن الضحاك: {فينسخ الله ما يلقي الشيطان} :، قال: " نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي ﷺ، وأحكم الله آياته".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج: ٥٢]، أي:"والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وأمره".

قال الطبري:"{والله عليم} بما يحدث في خلقه من حدث، لا يخفى عليه منه شيء {حكيم} في تدبيره إياهم وصرفه لهم فيما شاء وأحب".

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات: قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا.

ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح.

والمعنى: وما أرسلنا من قبلك- يا محمد- من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذي جاءهم به من عند ربه، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات في طريق أمنيته لكي لا تتحقق هذه الأمنية، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبي ساحر أو مجنون، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التي برأ الله تعالى منها رسله وأنبياءه.

قال تعالى: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَواصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ.

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى، ويؤيدها الواقع، إذ أن كل رسول أو نبي بعثه الله تعالى كان حريصا على هداية قومه، وكان يتمنى أن يؤمنوا

=

جميعا، بل إن الرسول ﷺ كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر.

قال تعالى: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا.

إلا أن قوم كل رسول أو نبي منهم من آمن به. ومنهم من أعرض عنه بسبب إغراء الشيطان لهم، وإيهامهم بأن ما هم عليه من ضلال هو عين الهدى.

وإلى هذا التفسير أشار الزمخشري بقوله: «قوله تعالى: مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ دليل بين على تغاير الرسول والنبي. والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء: من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله.

والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه وشاقوه، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به: تمنى لفرط ضجره من إعراضهم، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم.

أما التفسير الثاني للفظ تَمَنَّى فهو أنه بمعنى قرأ وتلا. ومنه قول حسان بن ثابت، في رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنه: تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر

أى: قرأ وتلا كتاب الله في أول الليل. وفي آخر الليل وافاه أجله.

ومفعول أَلْقَى على هذا المعنى محذوف- أيضا- والمراد بما يلقيه الشيطان في قراءته: ما يلقيه في معناها من أكاذيب وأباطيل، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه، وليس المراد أنه يلقى فيها ما ليس منها بالزيادة أو بالنقص، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله تعالى الذي تكفل سبحانه بحفظه فقال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ.

=

والمعنى: وما أرسلنا من قبلك- أيها الرسول الكريم- من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه، ألقى الشيطان في معنى قراءته الشبه والأباطيل، ليصد الناس عن اتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبي.

قال الآلوسى- رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى: وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا، إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات، ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه، ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به، كما قال تعالى ... وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ .... وقال سبحانه: وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...

وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول ﷺ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ: إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله. وكقولهم عند سماع قراءته لقوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. حَصَبُ جَهَنَّمَ.. إن عيسى قد عبد من دون الله، وكذلك الملائكة قد عبدوا من دون الله..

والآية الكريمة لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ على هذا التفسير- أيضا- واضحة المعنى، إذ المراد بما يلقيه الشيطان في قراءة الرسول أو النبي، تلك الشبه والأباطيل التي يلقيها في عقول الضالين، فيجعلهم يؤولونها تأويلا سقيما ويفهمونها فهما خاطئا.

وقوله تعالى: فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ بيان لسنته سبحانه التي لا تتخلف في إحقاق الحق. وإبطال الباطل.

وقوله فَيَنْسَخُ من النسخ بمعنى الإزالة. يقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته.

أى: فيزيل سبحانه بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان في القلوب التي شاء الله تعالى لها الإيمان والثبات على الحق ثم يحكم سبحانه آياته بأن يجعلها متقنة، لا تقبل الرد، ولا تحتمل الشك في كونها من عنده- عَزَّ وَجَلَّ والله عليم بجميع شئون

=

خلقه، حكيم في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} الآية [الحج/ ٥٢].

هذه الآية الكريمة تدل على أن كل رسول وكل نبي يُلْقِي الشيطانُ في أمنيته؛ أي: تلاوته إذا تلا.

ومنه قول الشاعر في عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

تمنَّى كتابَ الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حِمام المقادر

وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليله ... تمنى داود الزبور على رسل

ومعنى "تمنى" في البيتين: قرأ وتلا.

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس أنه قال: {إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج/ ٥٢]: إذا حَدَّثَ ألقى الشيطانُ في حديثه.

وقال بعض العلماء: {إِذَا تَمَنَّى}: أَحَبَّ شيئًا وأراده. فكل نبي يتمنى إيمان أمته، والشيطان يلقي عليهم الوساوس والشبه، ليصدهم عن سبيل الله.

وعلى أن {تَمَنَّى} بمعنى قرأ وتلا، كما عليه الجمهور، فمعنى إلقاء الشيطان في تلاوته: إلقاؤه الشبه والوساوس فيما يتلوه النبي؛ ليصد الناس عن الإيمان به، أو إلقاؤه في المتلو ما ليس منه؛ ليظن الكفار أنه منه.

وهذه الآية لا تعارض بينها وبين الآية المصرحة بأن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المؤمنين المتوكلين، ومعلوم أن خيارهم الأنبياء، كقوله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)} [النحل/ ٩٩ - ١٠٠]، وقوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)} [الحجر/

=

٤٢]، وقوله: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)} [ص/ ٨٢، ٨٣]، وقوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم/ ٢٢].

ووجه كون الآيات لا تعارض بينها: أن سلطان الشيطان المنفي عن المؤمنين المتوكلين في معناه وجهان للعلماء:

الأول: أن معنى السلطان: الحجة الواضحة. وعليه فلا إشكال؛ إذ لا حجة مع الشيطان البتة، كما اعترف به فيما ذكر الله عنه في قوله: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}

الثاني: أن معناه: أنه لا تَسَلُّطَ له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه. فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء وغيرهما، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة منه.

فإلقاء الشيطان في أمنية النبي -سواء فسرناها بالقراءة أو التمني لإيمان أمته- لا يتضمن سلطانًا للشيطان على النبي، بل من جنس الوسوسة وإلقاء الشبه لصد الناس عن الحق، كقوله: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} الآية [النمل/ ٢٤].

فإن قيل: ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم بمكة، فلما بلغ: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)} ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإنَّ شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. وشاع في الناس أنَّ أهل مكة أسلموا، بسبب سجودهم مع النبي ﷺ، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظنًا منهم أن قومهم أسلموا، فوجدوهم على كفرهم.

وعلى هذا الذي ذكره كثير من المفسرين، فسلطان الشيطان بلغ إلى حَدٍّ أَدْخَلَ به

=

=

في القرآن على لسان النبي ﷺ الكفرَ البواح، حسبما يقتضيه ظاهر القصة المزعومة.
فالجواب: أن قصة الغرانيق -مع استحالتها شرعًا- لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من العلماء، كما بيناه بيانًا شافيًا في رحلتنا.....
ومن أصرح الأدلة القرآنية في بطلانها: أن النبي ﷺ قرأ بعد ذلك في سورة النجم قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم/ ٢٣].
فلو فرضنا أنه قال: تلك الغرانيق العلى، ثم أبطل ذلك بقوله: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا}، فكيف يفرح المشركون بعد هذا الإبطال والذم التام لأصنامهم بأنها أسماء بلا مسميات، وهذا هو الأخير؟!
وقراءتُه ﷺ سورة النجم بمكة وسجود المشركين ثابت في الصحيح، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق.
وعلى القول ببطلانها فلا إشكال.
وأما على القول بثبوت القصة، كما هو رأي الحافظ ابن حجر، فإنه قال في "فتح الباري": "إن هذه القصة ثبتت بثلاثة أسانيد كلها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به؛ لاعتضاد بعضها ببعض؛ لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلًا" = فللعلماء عن ذلك أجوبة كثيرة، من أحسنها وأقربها: أن النبي ﷺ كان يرتل السورة ترتيلًا تتخلله سكتات، فلما قرأ: {وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} [النجم/ ٢٠] قال الشيطان -لعنه الله- محاكيًا لصوته ﷺ: تلك الغرانيق العلى... الخ، فظن المشركون أن الصوت صوته ﷺ، وهو بريء من ذلك براءة الشمس من اللمس.

=

=

وقد بينا هذه المسألة بيانًا شافيًا في رحلتنا، فلذلك اختصرناها هنا.
فظهر أنه لا تعارض بين الآيات. والعلم عند الله تعالى. ا.هـ
ثم بين سبحانه بعد ذلك أن الحكمة في إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هي امتحان الناس فقال: لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ....
أى: فعل ما فعل سبحانه ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه في القلوب فتنة واختبارا وامتحانا، للذين في قلوبهم مرض، أى: شك وارتياب، وهم المنافقون، وللذين قست قلوبهم، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.
فقوله تعالى: لِيَجْعَلَ.. متعلق ب أَلْقَى أى: ألقى الشيطان في أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله تعالى ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض.
ومعنى كونه فتنة لهم: أنه سبب لتماديهم في الضلال، وفي إصرارهم على الفسوق والعصيان.
ثم بين سبحانه سوء عاقبة الفريقين فقال: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ، وهم من في قلوبهم مرض، ومن قست قلوبهم لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ أى لفي خلاف للحق شديد. بسبب نفاقهم وكفرهم.
ثم بين سبحانه حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس في القلوب فقال:
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ، والضمير في أَنَّهُ يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم.
قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [الحج: ٥٤]، أي:"وليعلم أهل العلم الذين يفرقون بعلمهم بين الحق والباطل أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله عليك أيها الرسول، لا شبهة فيه، ولا سبيل للشيطان

=

=

إليه".

قال مكي:"أي: نسخ ما ألقى الشيطان ليعلم الذين أتوا العلم بالله أنه الحق من ربك. أي: أن الذي أنزله إليه هو الحق، لا ما نسخ مما ألقى الشيطان".

قال الطبري: يقول:"وكي يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها لرسوله، ونسخ ما ألقى الشيطان فيه، أنه الحق من عند ربك يا محمد".

قال ابن كثير:"أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢]".

عن ابن جريج: " {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}، قال: يعني: القرآن".

قال القشيري:"إذا أراد الله بعبده خيرا أمده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل فلا يظله غمام الريب، وينجلى عنه غطاء الغفلة، فلا تأثير لضباب الغداة فى شعاع الشمس عند متوع النهار".

قوله تعالى: {فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} [الحج: ٥٤]، أي:"فيزداد به إيمانهم، وتخضع له قلوبهم".

قال الحسن: "فتخشع له قلوبهم".

قال الطبري: يقول:"يقول: فيصدّقوا به، فتخضع للقرآن قلوبهم، وتذعن بالتصديق به والإقرار بما فيه".

قال مكي:"أي: فيصدقوا بهف، تخضع للقرآن قلوبهم وتذعن بالتصديق به والإقرار بما فيه".

قال ابن كثير:"أي: يصدقوه وينقادوا له، {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}، أي: تخضع

=

=

وتذل".

قال سهل بن عبد الله:"صدق الإيمان وحقيقته يورث الإخبات في القلب، وهو الرقة والخشية والخشوع في القلب وطول التفكر وطول الصمت، وهذا من نتائج الإيمان، لأن الله تعالى يقول: {فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم}، والله سبحانه وتعالى أعلم".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤]، أي:"وإن الله لهادي الذين آمنوا به وبرسوله إلى طريق الحق الواضح، وهو الإسلام ينقذهم به من الضلال".

قال الطبري: يقول:"وإن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحقّ القاصد والحقِّ الواضح، بنسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسوله، فلا يضرّهم كيد الشيطان، وإلقاؤه الباطل على لسان نبيهم".

قال ابن كثير:"أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات".

قال مكي:"أي: المرشد المؤمنين إلى الطريق القاصد والحق الواضح، فينسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ، فلا يضرهم كيد الشيطان شيئًا.

وقيل: المعنى: لهاديهم إلى طريق الجنة في الآخرة.

وقيل: المعنى: لهاديهم إلى الثبات على الإيمان في بقية أعمارهم".

أى: وفعل ما فعل سبحانه أيضا، ليعلم العلماء من عباده، الذين حبب سبحانه إليهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك، فيزدادوا إيمانا به فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أى: فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم.

=

=

ووَ إِنَّ اللهَ تعالى لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا به وصدقوا أنبياءه ورسله إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يوصلهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

هذا، وقد أبطل العلماء- قديما وحديثا- قصة الغرانيق، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازي، فقد قال ما ملخصه: قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فمن وجوه منها قوله تعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ وقوله سبحانه: وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ، وقوله- ﷻ: قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ...

وأما السنة، فقد قال الإمام البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قرأ سورة «والنجم» وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرانيق. وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق.

وأما المعقول فمن وجوه منها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه ﷺ كان نفى الأوثان.

ومنها: أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه.. فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه.

فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة. أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكرها. لكنهم ما بلغوا حد التواتر. وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة.

وقال بعض العلماء ما ملخصه: اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعا،

=

=

ودلالة القرآن على بطلانها، لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به، وصرح بعد ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب.

والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ شرعا ولو على سبيل السهو.

والذي يظهر لنا أنه الصواب: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين..

والدليل على هذا المعنى: أن الله تعالى بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق، لأنه قال: لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ... ثم قال: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ... فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم، أن الذي يقرؤه النبي ليس بحق، فيصدقه الأشقياء، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب، كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه ... ».

(تتمة): تخريج حديث الغرانيق.

قال صاحب الأحاديثُ المُشْكِلَةُ الواردةُ في تفسير القرآنِ الكريم: رُوي هذا الحديث موصولًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومرسلًا عن عدد من التابعين.

أولًا: رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

وقد رُويتْ عنه من خمسة طرق:

الطريق الأول: رواية سعيد بن جبير، عن ابن عباس:

وله عن سعيد بن جبير طريقان:

١- عن أبي بشر، عن سعيد، به:

أخرجه البزار في مسنده [كما في كشف الأستار، للهيثمي (٣/ ٧٢)، وتخريج

=

=

الأحاديث والآثار، للزيلعي (٢/ ٣٩١)، وتفسير الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٤٠)]

قال البزار: حدثنا يوسف بن حماد، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - فيما أحسب، الشك في الحديث - أن النبي ﷺ ...، فذكره.

ثم قال البزار: «هذا حديث لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم أحدًا أسند هذا الحديث عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس، إلا أمية، ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد، وكان ثقة، وغير أمية يحدث به عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، مرسلًا، وإنما يُعرف هذا الحديث عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأمية ثقة مشهور». اهـ

ورواه ابن مردويه في تفسيره [كما في تخريج الأحاديث والآثار، للزيلعي (٢/ ٣٩٤)] من حديث يوسف بن حماد، به، عن سعيد بن جبير قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان بمكة فقرأ سورة النجم، حتى بلغ: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠]؛ فألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى) فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون، وأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)) [الحج: ٥٢]».

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٥٣)، عن الحسين بن إسحاق التستري، وعبدان بن أحمد، كلاهما عن يوسف بن حماد، به. وفيه: لا أعلمه إلا عن ابن عباس.

ومن طريق الطبراني أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٨٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٥): «رواه البزار والطبراني، ورجالهما

=

=

رجال الصحيح، إلا أن الطبراني قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس، عن النبي ﷺ». اهـ

قلت: لفظ رواية البزار هي المذكورة في المتن، والحديث من هذه الطريق فيه ثلاث علل:

الأولى: الاختلاف على شعبة في وصله وإرساله، حيث لم يصله عنه إلا أمية بن خالد، وهو وإن كان ثقة فقد خولف، خالفه - كما سيأتي - محمد بن جعفر، وعبد الصمد، وأبو داود، ثلاثتهم عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، مرسلًا. والقاعدة أن رواية الأكثر مقدمة على رواية الفرد، ونسبة الخطأ للواحد أقوى من نسبتها للجماعة.

العلة الثانية: التردد في وصل الحديث وإرساله، وهذه العلة وحدها تُعد كافية للقدح في الرواية الموصولة، وترجيح رواية الإرسال الصحيحة عليها، كما سيأتي.

العلة الثالثة: أن الحديث قد روي من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلًا، فقد رواه الواحدي في أسباب النزول، ص (٣١٠) من طريق سهل العسكري، حدثنا يحيى - هو القطان - عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، مرسلًا، وقد رُوي موصولًا؛ لكن لا يصح، كما سيأتي.

إلا أن الحافظ ابن حجر لم يعتد بهذه العلل، حيث قال: «أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلًا؛ فإن الجميع ثقات، وأما الشك فيه، فقد يجيء تأثيره ولو فردًا غريبًا، لكن غايته أن يصير مرسلًا....، وهو حجة إذا اعتضد عند من يَرُدّ المرسل، وهو إنما يعتضد بكثرة المتابعات». اهـ من الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٦١).

٢- عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، به:

أخرجه ابن مردويه في تفسيره [كما في تخريج الأحاديث والآثار، للزيلعي (٢/

=

=

٣٩٤)] قال: حدثني إبراهيم بن محمد، حدثني أبو بكر محمد بن علي المقرئ البغدادي، حدثنا جعفر بن محمد الطيالسي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله ﷺ قرأ: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠] (تلك الغرانيق العلى، وشفاعتهن ترتجى) ففرح المشركون بذلك وقالوا: قد ذكر آلهتنا؛ فجاءه جبريل فقال: اقرأ علي ما جئتك به. فقرأ له كذلك؛ فقال: ما أتيتك بهذا، وإن هذا لمن الشيطان؛ فأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

ومن طريق ابن مردويه أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٣٤).

قلت: الحديث من هذه الطريق معلول من أوجه:

الأول: جهالة حال أبي بكر محمد بن علي المقرئ:

وترجمته في تاريخ بغداد (٣/ ٦٨): «محمد بن علي بن الحسن، أبو بكر المقرئ، حدث عن محمود بن خداش، ومحمد بن عمرو، وابن أبي مذعور، روى عنه أحمد بن كامل القاضي، ومحمد بن أحمد بن يحيى العطشي، توفي سنة ثلاثمائة».

قال الألباني في نصب المجانيق، ص (١٧): «لم يذكر فيه الخطيب جرحًا ولا تعديلًا؛ فهو مجهول الحال، وهو علة هذا الإسناد الموصول». اهـ

الوجه الثاني: الاختلاف على أبي عاصم النبيل في وصله وإرساله، فقد رواه الواحدي في أسباب النزول، ص (٣١٠) من طريق سهل العسكري، عن يحيى القطان، عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، مرسلًا، ورواية الواحدي أصح، كما سيأتي.

=

=

الوجه الثالث: أن رواية الإرسال موافقة للرواية الصحيحة، من طريق شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، مرسلًا، وهي أصح ما في الباب، وقد رويت عن شعبة من ثلاثة طرق كلها صحيحة، كما سيأتي.

وقد أورد السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٦١) الحديث من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، بلا تردد، ونسبه للبزار، والطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة، وقال: «بسند رجاله ثقات». وأما المتن فقد ساق متن رواية عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، والتي أخرجها ابن مردويه بلا تردد.

وقد تعقب الألبانيُ السيوطيَ، وادعى أنه وهم في عزوه للضياء في المختارة، وأن قوله: «بسند رجاله ثقات» إيهام منه، حيث يوحي بصحة الحديث، وأنه ليس بمعلول، قال: «وهذا خلاف الواقع، فإنه معلول بتردد الراوي في وصله، كما نقلناه عن تفسير الحافظ ابن كثير، وكذلك هو في تخريج الكشاف وغيره، وهذا ما لم يَرِدْ ذِكرُه في سياق السيوطي، ولا أدري أذلك اختصار منه، أم من بعض مخرجي الحديث؟ وأيًا ما كان، فما كان يليق بالسيوطي أن يُغفل هذه العلة، لا سيما وقد صرح بما يشعر أن الإسناد صحيح، وفيه من التغرير ما لا يخفى، فإن الشك لا يوثق به، ولا حقيقة فيه». اهـ من نصب المجانيق، ص (١٢). وقد تبع الألبانيَ على ذلك: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، في كتابه دلائل التحقيق، ص (٨٩).

قلت: لم يهم السيوطي في عزو الحديث للضياء في المختارة، فهو مخرج عنده، كما ذكرته آنفًا في تخريج الحديث، وأما إغفال السيوطي لتردد الراوي فليس ذاك عن سهوٍ أو خطأ منه؛ لأنه إنما أورد رواية عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، والتي أخرجها ابن مردويه بلا تردد، وظاهر إسنادها الصحة، وكأن السيوطي لم يقف على علة هذه الرواية، والألبانيُ اعتقد أن السيوطي أراد رواية أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، بالتردد، وقد خطأ السيوطيَ أيضًا في

=

=

إيراده لمتن هذه الرواية، والحق أن السيوطي أوردها كما هي، وأن الوهم من الألباني، رحم الله الجميع.

وأما الحافظ ابن حجر فقد صحح الحديث من هذه الطريق فقال: «ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلًا، وأخرجه ابن مردويه من طريق أبي عاصم النبيل، عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، نحوه، ولم يشك في وصله، وهذا أصح طرق هذا الحديث». اهـ من الكافي الشاف، في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ١٦١).

إلا أن الألباني لم يرتضِ عبارة الحافظ هذه، واستبعد نسبتها إليه فقال: «وفي عبارة الحافظ شيء من التشويش، ولا أدري أذلك منه، أم من النساخ؟ وهو أغلب الظن، وذلك لأن قوله: «وهذا أصح طرق هذا الحديث» إن حملناه على أقرب مذكور، وهو طريق ابن مردويه الموصول كما هو المتبادر، منعنا من ذلك أمور:

الأول: قول الحافظ عقب ذلك: «فهذه مراسيل يقوي بعضها بعضًا» فإن فيه إشارة إلى أن ليس هناك إسناد صحيح موصول يعتمد عليه، وإلا لَعرَّج عليه وجعله أصلًا، وجعل الطريق المرسلة شاهدة ومُقَوية له، ويؤيده الأمر الآتي وهو:

الثاني: وهو أن الحافظ لما رَدَّ على القاضي عياض تضعيفه للحديث من طريق إسناد البزار الموصول بسبب الشك، قال الحافظ: «أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلًا (قلت: يعني في رواته)؛ فإن الجميع ثقات، وأما الشك فيه، فقد يجيء تأثيره ولو فردًا غريبًا ـ كذا ـ لكن غايته أن يصير مرسلًا، وهو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة، وهو حجة إذا اعتضد عند من يَرُدّ المرسل، وهو إنما يعتضد بكثرة المتابعات».

قال الألباني: فقد سلَّم الحافظ بأن الحديث مُرْسَلٌ، ولكن ذهب إلى تقويته بكثرة الطرق....، فلو كان إسناد ابن مردويه الموصول صحيحًا عند الحافظ، لرد به

=

=

على القاضي عياض، ولما جعل عمدته في الرد عليه هو كثرة الطرق، وهذا بيّن لا يخفى.

الثالث: أن الحافظ في كتابه فتح الباري لم يُشِرْ أدنى إشارة إلى هذه الطريق فلو كان هو أصح طرق الحديث، لذكره بصريح العبارة، ولجعله عمدته في هذا الباب كما سبق.

الرابع: أن من جاء بعده ـ كالسيوطي وغيره ـ لم يذكروا هذه الرواية.

فكل هذه الأمور تمنعنا من حمل اسم الإشارة (هذا) على أقرب مذكور، وتضطرنا إلى حمله على البعيد، وهو الطريق الذي قبل هذا، وهو طريق سعيد بن جبير المرسل. وهو الذي اعتمده الحافظ في الفتح وجعله أصلًا، وجعل الروايات الأخرى شاهدة له». اهـ كلام الألباني، من نصب المجانيق، ص (١٣ – ١٥).

قلت: يحتمل أن الحافظ ابن حجر لم يقف على رواية عثمان بن الأسود، وقت تعليقه على الحديث في فتح الباري، يقوي هذا الاحتمال أن هذه الرواية لم يُشرْ إليها الحافظ في الفتح أدنى إشارة، ولعله اطلع عليها بعد ذلك فدونها في تخريجه لأحاديث الكشاف، والله تعالى أعلم.

ثم وقفت على طريق أخرى لهذه الرواية؛ أخرجها أبو الليث السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٠٠) قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا إبراهيم بن محمد قال: حدثنا جعفر بن محمد [في أصل الكتاب: جعفر بن زيد] الطيالسي قال: حدثنا إبراهيم بن محمد قال: حدثنا أبو عاصم، عن عثمان بن الأسود [في أصل الكتاب: عمار بن الأسود]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «قرأ رسول الله ﷺ: (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ٢٠] ثم قال: (تلك الغرانيق العلى، وإن الشفاعة منها ترتجى)، فقال المشركون: قد ذكر آلهتنا في أحسن الذكر؛ فنزلت الآية».

=

=

قلت: هذا الإسناد فيه سقط، وصوابه ما جاء في تفسير ابن مردويه: حدثني إبراهيم بن محمد، حدثني أبو بكر محمد بن علي المقرئ البغدادي، حدثنا جعفر بن محمد الطيالسي....، والساقط في الإسناد هو آفة الحديث، وهو أبو بكر المقرئ، وقد تقدم الكلام فيه.

الطريق الثاني: رواية العوفي، عن ابن عباس، به:

أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٦)، قال: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: «قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)) وذلك أن نبي الله ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب، فجعل يتلوها، فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير، فدنوا منه، فبينما هو يتلوها وهو يقول: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠] ألقى الشيطان: (إن تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى)، فجعل يتلوها فنزل جبرائيل عليه السلام فنسخها، ثم قال له: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

وأخرجه ابن مردويه في تفسيره [كما في تخريج الأحاديث والآثار، للزيلعي (٢/ ٣٩٤)]، عن أحمد بن كامل، عن محمد بن سعد، به.

محمد بن سعد: هو العوفي، لين الحديث.

قوله: حدثني أبي: هو سعد بن محمد بن الحسن، ضعيف.

قوله: حدثني عمي: هو الحسين بن الحسن بن عطية بن سعد العوفي، ضعيف.

قوله: حدثني أبي: هو الحسن بن عطية، متفق على ضعفه.

=

=

قوله: عن أبيه: هو عطية بن سعد بن جنادة، شيعي ضعيف مدلس.

وهذا الإسناد: ضعيف جدًا؛ فإنه مسلسل بالعوفيين، وهي سلسلة واهية باتفاق النقاد من المحدثين.

الطريق الثالث: رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس:

أخرجها ابن مردويه في تفسيره [كما في فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٢٩٣)]، من طريق عباد بن صهيب، عن يحيى بن كثير، حدثنا الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم وهو بمكة فأتى على هذه الآية: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) فألقى الشيطان على لسانه: (إنهن الغرانيق العلى)؛ فأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه: عباد بن صهيب البصري، أحد المتروكين، قال ابن المديني: ذهب حديثه. وقال البخاري، والنسائي، وغيرهما: متروك. وقال ابن حبان: كان قدريًا داعية، ومع ذلك يروي أشياء إذا سمعها المبتدي في هذه الصناعة شهد لها بالوضع. وقال أبو حاتم: متروك الحديث، ضعيف الحديث، تركت حديثه.

انظر: لسان الميزان (٣/ ٢٣٠).

وفيه الكلبي متهم بالكذب، كما في التقريب (٢/ ١٧٣)، وقد روى ابن عدي، في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال (٦/ ١١٥) بسنده عن سفيان الثوري قال: «قال الكلبي: كل شيء أحدث عن أبي صالح فهو كذب».

الطريق الرابع: رواية سليمان التيمي، عمن حدثه، عن ابن عباس:

ذكرها السيوطي في الدر (٤/ ٦٦١) وعزاها لابن مردويه في تفسيره، وذكرها

=

=

الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٣)، من طريق عباد بن صهيب، المتقدم، ولفظها لفظ رواية الكلبي نفسه، عن أبي صالح.

وهذه الرواية كسابقتها فيها عباد بن صهيب، وفيها راوٍ لم يُسمَّ.

الطريق الخامس: رواية أبي بكر الهذلي، وأيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس: أخرجها ابن مردويه [كما في فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٢٩٣)]، من طريق عباد بن صهيب، عن يحيى بن كثير، حدثنا أبو بكر الهذلي، وأيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به. ولفظها لفظ رواية الكلبي نفسه، عن أبي صالح.

وهذه الرواية ضعيفة؛ فيها عباد بن صهيب، متروك كما تقدم.

ثانيًا: رواية سعيد بن جبير، مرسلة:

وقد روُيت عنه من طريقين:

الأول: طريق شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، به.

وله عن شعبة ثلاثة طرق:

١- طريق محمد بن جعفر:

أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٦)، قال: حدثنا ابن بشار قال: ثنا محمد بن جعفر قال: ثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: «لما نزلت هذه الآية: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)) [النجم: ١٩] قرأها رسول الله ﷺ فقال: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)، فسجد رسول الله ﷺ؛ فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير. فسجد المشركون معه فأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

٢- طريق عبد الصمد:

أخرجه ابن جرير في الموضع السابق قال: حدثنا ابن المثنى قال: ثني عبد الصمد

=

=

قال: ثنا شعبة قال: ثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩))....". قال ابن جرير: «ثم ذكر نحوه». يريد نحو رواية محمد بن جعفر السابقة.

٣- طريق أبي داود:

أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره [كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٩)] قال: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: «قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم فلما بلغ هذا الموضع: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠] قال: فألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن ترتجى) قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

وقد صحح إسناد هذه الرواية المرسلة عن سعيد بن جبير: الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٣)، والسيوطي في الدر (٤/ ٦٦١)، وفي لباب النقول، ص (٢٠١)، والألباني في نصب المجانيق، ص (١٠) و (٤٥).

قلت: وهو كما قالوا؛ إلا أن صحة إسنادها لا يعني قبولها؛ فهي ضعيفة لإرسالها.

الثاني: طريق عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، به.

أخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص (٣١٠) قال: أخبرنا أبو بكر الحارثي قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن حيان قال: أخبرنا أبو يحيى الرازي قال: أخبرنا سهل العسكري قال: أخبرنا يحيى، عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير قال: «قرأ رسول الله ﷺ: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠] فألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن

=

=

شفاعتهن ترتجى)؛ ففرح بذلك المشركون وقالوا: قد ذكر آلهتنا؛ فجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رسول الله ﷺ وقال: اعرض عليَّ كلام الله، فلما عرض عليه قال: أما هذا فلم آتك به، هذا من الشيطان، فأنزل الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

وإسناد هذه الرواية أصح من رواية ابن مردويه الموصولة.

قال الألباني في نصب المجانيق، ص (١٦) - بعد أن ساق رواية الواحدي هذه -: «فرجع الحديث إلى أنه عن عثمان بن الأسود، عن سعيد، مرسل، وهو الصحيح، لموافقة روايةِ عثمان هذه روايةَ أبي بشر، عن سعيد». اهـ

ثالثًا: رواية أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، مرسلة:

أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٧) قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب: أنه سُئِل عن قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)) قال ابن شهاب: ثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث: «أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم والنجم إذا هوى فلما بلغ: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) قال: (إن شفاعتهن ترتجى) وسها رسول الله ﷺ، فلقيه المشركون الذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا بذلك فقال لهم: إنما ذلك من الشيطان؛ فأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٣) عن هذه الرواية: مرسل رجاله على شرط الصحيحين. وقال السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٢): مرسل صحيح الإسناد.

=

=

ووافقهما الألباني في نصب المجانيق، ص (١٨) و (٤٥).

رابعًا: رواية ابن شهاب الزهري، مرسلة:

أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره [كما في تفسير الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٤٠)] قال: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: «لما أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنته ضلالتهم، فكان يتمنى كف أذاهم؛ فلما أنزل الله سورة النجم قال: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت فقال: (وإنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى) فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وذلقت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدًا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد، وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، فأنزل الله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)) فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين، واشتدوا عليه».

وإسناده صحيح؛ إلا أن محمد بن فليح لم يُتابع في روايته عن موسى بن عقبة؛ فقد رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٨٥)، من طريق إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبه....، فذكره بمثله سواء،

=

=

ولم يذكر ابن شهاب؛ فيكون معضلًا.

خامسًا: رواية عروة بن الزبير، مرسلة:

أخرجها الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٣٤)، قال: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحراني، ثنا أبي، ثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة قال: «حين أنزل الله ﷻ السورة التي يذكر فيها (والنجم إذا هوى) قال المشركون من قريش: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، فإنه لا يذكر أحدًا ممن خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر؛ فلما أنزل الله ﷻ السورة التي يذكر فيها والنجم وقرأ (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) ألقى الشيطان فيها عند ذلك ذكر الطواغيت فقال: (وإنهن لمن الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى) وذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك وذلقت بها ألسنتهم، واستبشروا بها وقالوا: إن محمدًا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة التي فيها النجم سجد وسجد معه كل من حضر من مسلم ومشرك، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلًا كبيرًا فرفع على كفه ترابًا فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ؛ فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين، وأما المشركون فاطمأنت أنفسهم إلى النبي ﷺ وأصحابه لما سمعوا الذي ألقى الشيطان في أمنية النبي ﷺ، وحدثهم الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السجدة؛ فسجدوا لتعظيم آلهتهم، ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت الحبشة ...، وكَبُرَ ذلك على رسول الله ﷺ، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فشكا إليه، فأمره فقرأ عليه، فلما بلغها تبرأ منها جبريل عليه السلام وقال: معاذ الله من هاتين، ما أنزلهما ربي ولا أمرني بهما

=

=

ربك، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ شق عليه وقال: أطعت الشيطان وتكلمت بكلامه، وشركني في أمر الله. فنسخ الله ﷻ ما ألقى الشيطان وأنزل عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾».

إسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٧٢): «رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة، ولا يحتمل هذا من ابن لهيعة».

سادسًا: رواية محمد بن كعب القرضي، ومحمد بن قيس:

أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٤)، قال: حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنا حجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس قالا: «جلس رسول الله ﷺ في نادٍ من أندية قريش، كثير أهله، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه؛ فأنزل الله عليه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١ - ٢] فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ: ﴿أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] ألقى عليه الشيطان كلمتين: (تلك الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن لترجى) فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها، فسجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعًا معه، ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود، فرضوا بما تكلم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيبًا، فنحن معك. قالا: فلما أمسى أتاه جبرائيل ؈ فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين. فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله، وقلت على الله ما لم يقل؛ فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ

=

=

إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)) [الإسراء: ٧٣ - ٧٥] فما زال مغمومًا مهمومًا حتى نزلت عليه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

إسناده ضعيف، فيه أبو معشر، واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف، كما في التقريب (٢/ ٣٠٣).

وأخرجه الطبري (٩/ ١٧٥) من طريق آخر عن محمد بن كعب القرضي فقال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن يزيد بن زياد المدني، عن محمد بن كعب القرظي قال: «لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم حين حدث بذلك نفسه، وتمنى وأحبه؛ فأنزل الله: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) [النجم: ١] فلما انتهى إلى قول الله: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن ترتضى)، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فأصاخوا له، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل، فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقًا لما جاء به، واتباعًا لأمره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم؛ لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد، إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخًا كبيرًا فلم يستطع؛ فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها....، وأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: يا

=

=

محمد، ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله، وقلت ما لم يقل لك....".

وهو ضعيف أيضًا، فيه ابن حميد، واسمه محمد بن حميد بن حيان الرازي، ضعيف، كما في التقريب (٢/ ١٦٥).

سابعًا: رواية الضحاك بن مزاحم:

أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٧)، قال: حُدِّثتُ عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول: في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ): «أن نبي الله ﷺ وهو بمكة أنزل الله عليه في آلهة العرب، فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها، فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يستمعون، فألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ: (تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى) فقرأها النبي ﷺ كذلك فأنزل الله عليه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

وهذه الرواية ضعيفة؛ لانقطاعها؛ حيث لم يصرح الطبري بمن حدثه.

ثامنًا: رواية أبي العالية الرياحي:

أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٦) قال: حدثنا ابن عبد الأعلى قال: ثنا المعتمر قال: سمعت داود، عن أبي العالية قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنما جلساؤك عبد بني فلان، ومولى بني فلان، فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك؛ فإنه يأتيك أشراف العرب، فإذا رأوا جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك. قال: فألقى الشيطان في أمنيته؛ فنزلت هذه الآية: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) قال: فأجرى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وشفاعتهن ترجى، مثلهن لا ينسى) قال فسجد النبي ﷺ حين قرأها،

=

=

وسجد معه المسلمون والمشركون، فلما علم الذي أجري على لسانه كبر ذلك عليه؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾».

وأخرجه من وجه آخر عن أبي العالية فقال: حدثنا ابن المثنى قال: ثنا أبو الوليد قال: ثنا حماد بن سلمة، عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية قال:....، فذكره بنحوه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٣): «مرسل رجاله على شرط الصحيحين». وصحح إسناده السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٣)، ووافقهما الألباني، في نصب المجانيق، ص (٢١) و (٤٥).

تاسعًا: رواية قتادة بن دعامة السدوسي:

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٠) قال: أنا معمر، عن قتادة: «أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين؛ فألقى الشيطان في أمنيته فقال: (إن الآلهة التي تدعى، إن شفاعتها لترتجى، وإنها للغرانيق العلى) فنسخ الله ذلك وأحكم الله آياته: ﴿أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)﴾، حتى بلغ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ قال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون: قد ذكر الله آلهتهم بخير، ففرحوا بذلك، فذكر قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾ [الحج: ٥٣]».

وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٧٨)، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، به.

=

=

وأخرجه أيضًا عن ابن عبد الأعلى قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، به.

وإسناده صحيح، صححه الألباني في نصب المجانيق، ص (٢٣) و (٤٥). لكنه مرسل.

عاشرًا: رواية مجاهد بن جبر:

ذكرها السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٣)، وعزاها لعبد بن حميد، عن مجاهد: أن رسول الله ﷺ قرأ النجم؛ فألقى الشيطان على فيه، ثم أحكم الله آياته.

ولم أقف على إسناد هذه الرواية.

حادي عشر: رواية عكرمة مولى ابن عباس:

ذكرها السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٣)، وعزاها لعبد بن حميد، عن عكرمة قال: «قرأ رسول الله ﷺ ذات يوم: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)) [النجم: ١٩ - ٢٢] فألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ: (تلك إذن في الغرانيق العلى، تلك إذن شفاعة ترتجى) ففزع رسول الله ﷺ وجزع؛ فأوحى الله إليه: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى) [النجم: ٢٦] ثم أوحى إليه، ففرج عنه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

ولم أقف على إسناد هذه الرواية.

ثاني عشر: رواية السدي:

ذكرها السيوطي في الدر (٤/ ٦٦٣)، وعزاها لابن أبي حاتم في تفسيره، عن السدي قال: «خرج النبي ﷺ إلى المسجد ليصلي، فبينما هو يقرأ إذ قال: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) فألقى الشيطان على لسانه

=

=

فقال: (تلك الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن ترتجى) حتى إذا بلغ آخر السورة سجد، وسجد أصحابه، وسجد المشركون لذكره آلهتهم، فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به بين قطري مكة يقولون: نبي بني عبد مناف، حتى إذا جاءه جبريل عرض عليه فقرأ ذينك الحرفين فقال جبريل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا، فاشتد عليه؛ فأنزل الله يطيب نفسه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢))».

ولم أقف على إسناد هذه الرواية.

ثالث عشر: رواية محمد بن فضالة الظفري، والمطلب بن عبد الله بن حنطب:

أخرجها ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٥) قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني يونس بن محمد بن فضالة الظفري، عن أبيه قال:....، وحدثني كثير بن زيد، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قالا: رأى رسول الله ﷺ من قومه كفًا عنه، فجلس خاليًا فتمنى فقال: ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني، وقارب رسول الله ﷺ قومه، ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يومًا مجلسًا في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)، (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) ألقى الشيطان كلمتين على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم رسول الله ﷺ بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها، وسجد وسجد القوم جميعًا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود....، فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذ جعلت لها نصيبًا فنحن معك، فَكَبُرَ ذلك على رسول الله ﷺ من قولهم حتى جلس في البيت، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة

=

=

فقال جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين. فقال رسول الله ﷺ: قلت على الله ما لم يقل؛ فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾ [الإسراء: ٧٣]».

إسناده ضعيف: فيه محمد بن عمر الواقدي، متروك، كما في التقريب (٢/ ٢٠٣).

قال النحاس، في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٥٢٩): «هذا حديث منكر منقطع، ولا سيما من حديث الواقدي».

أقوال العلماء في نقد أسانيد هذه القصة:

وبعد أن خلصنا من تخريج القصة، وبيان طرقها وعللها، نذكر الآن ما قاله النقاد من أهل الحديث في الحكم عليها:

قال ابن خزيمة: «هذه القصة من وضع الزنادقة». نقله عنه الفخر الرازي في تفسيره (٢٣/ ٤٤).

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل». نقله عنه الفخر الرازي في تفسيره (٢٣/ ٤٤).

وقال القاضي عياض، في الشفا (٢/ ٧٩): «هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل....، ومن حُكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة: عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: فيما أحسب ـ الشك في الحديث ـ أن النبي ﷺ كان بمكة....، وذكر القصة». اهـ

ثم نقل كلام البزار، وقال: «فقد بين لك أبو بكر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يُعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيه، كما ذكرناه، الذي لا يوثق به، ولا حقيقة معه.

=

=

قال: وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الراوية عنه، ولا ذكره؛ لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار رَحِمَهُ اللَّهُ.

والذي منه في الصحيح أن النبي ﷺ قرأ: والنجم - وهو بمكة - فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٩): «قد ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم». اهـ

وأما الحافظ ابن حجر فيرى ثبوت القصة لكثرة طرقها، لكنه مع ذلك يوجب تأويلها، وعدم حملها على ظاهرها؛ لما فيها من القدح بعصمة النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٩٣) - بعد أن ساق بعضًا من روايات القصة وطرقها -: «وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلًا، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين، رجالهما على شرط الصحيحين، أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام....، فذكره. والثاني: ما أخرجه أيضًا من طريق المعتمر بن سليمان، وحماد بن سلمة، فرقهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية.

قال: وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض:....، ثم ساق كلامه وقال: وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلًا، وقد ذكرتُ أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به؛

=

=

لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: «ألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)» فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد؛ لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك....". اهـ. ثم ذكر هذه المسالك، وسيأتي ذكرها في أصل المسألة عند ذكر مذاهب العلماء تجاه الإشكال الوارد في الحديث.

الخلاصة: وبعد هذا الاستطراد في تخريج الحديث يحسن بنا تلخيصه في النقاط الآتية:

أولًا: طُرق الحديث:

١- رُوي مسندًا عن ابن عباس رضي الله عنهما، من عدة طرق، ولا يصح منها شيء.

٢- رُوي عن سعيد بن جبير، مرسلًا، وموصولًا إلى ابن عباس، ولا يصح إلا المرسل فقط.

٣- رُوي مرسلًا عن أربعة عشر تابعيًا، ولا يصح إلا رواية سعيد بن جبير، وأبي العالية، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وقتادة؛ وهي وإن صحت إليهم فإن ذلك لا يعني قبولها؛ لأنها مراسيل، والمُرسَل في عداد الحديث الضعيف.

ثانيًا: ألفاظ الحديث:

رُوي بثلاثة ألفاظ:

الأول: أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ قوله: «تلك الغرانيق العلى ...".

جاء ذلك في رواية ابن عباس، من طريق سعيد بن جبير، عنه.

ومن طريق الكلبي، وسليمان التيمي، وأبي بكر الهذلي، وأيوب، عنه.

ورُوي هذا اللفظ عن: سعيد بن جبير، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرضي،

=

=

ومجاهد، وعكرمة، والسدي، ومحمد بن فضالة الظفري، والمطلب بن عبد الله بن حنطب.
اللفظ الثاني: أن الشيطان هو الذي تكلم بتلك الكلمات.
جاء ذلك في رواية ابن عباس، من طريق العوفي، عنه.
ورُوي هذا اللفظ عن: ابن شهاب الزهري، وعروة بن الزبير، ومحمد بن كعب القرضي ـ في رواية أخرى عنه ـ ومحمد بن قيس، والضحاك، وقتادة.
اللفظ الثالث: أن النبي ﷺ سها فقال تلك الكلمات.
جاء ذلك في رواية أبي بكر بن عبد الرحمن.
* المبحث الثالث: بيان وجه الإشكال في الحديث:
ظاهر الحديث الوارد في سبب نزول الآية أنَّ الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ تلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين، وهي قوله: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)، وهذا مشكل؛ لما فيه من القدح بعصمة النبي ﷺ؛ إذ قد أجمعت الأمة على عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يَشْتَبِهَ عليه ما يُلقِيهِ الملَكُ بما يلقي الشيطان، أو أن يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يَتَقَوَّلَ على الله ما لم يَقُلْ، لا عمدًا ولا سهوًا.
قال الآلوسي: «يلزم على القول بأنَّ الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان المُلَبّسِ بالملك - أمور منها: تسلط الشيطان عليه ﷺ، وهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان، لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)﴾ [النحل: ٩٩]، إلى غير ذلك. ومنها: زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه ﷺ؛ لمكان العصمة. ومنها: اعتقاد النبي ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن، مع كونه

=

=

بعيد الالتئام، متناقضًا، ممتزج المدح بالذم، وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يُتساهل في نسبته إليه ﷺ. ومنها: أنه إما أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نطقه بذلك معتقدًا ما اعتقده المشركون، من مدح آلهتهم بتلك الكلمات؛ وهو كفر محال في حقه ﷺ، وإما أن يكون معتقدًا معنى آخر، مخالفًا لما اعتقدوه، ومباينًا لظاهر العبارة، ولم يبينه لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم؛ فيكون مقرًا لهم على الباطل، وحاشاه ﷺ أن يُقرَّ على ذلك. ومنها: كونه ﷺ اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك، وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه، ويقتضي أيضًا جواز تَصَوّر الشيطان بصورة الملك، ملبسًا على النبي ﷺ ولا يصح ذلك.

ومنها: التقوّل على الله تعالى إما عمدًا أو خطأ أو سهوًا، وكل ذلك محال في حقه عليه الصلاة والسلام، وقد أجمعت الأمة على ما قال القاضي عياض على عصمته ﷺ فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال، عن الإخبار بخلاف الواقع، لا قصدًا ولا سهوًا. ومنها: الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يُؤمن فيه التبديل والتغيير ولا يندفع». اهـ

المبحث الرابع: مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

للعلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث أربعة مسالك، نجملها أولًا ثم نتكلم عنها بالتفصيل:

الأول: مسلك رد الحديث وإنكاره، مع توجيهه على التسليم بثبوته.

الثاني: مسلك رد الحديث وإنكاره مطلقًا.

الثالث: مسلك قبول الحديث، مع تأويله وصرفه عن ظاهره.

الرابع: مسلك قبول الحديث مطلقًا، وإعماله على ظاهره من دون تأويل.

=

=

وفيما يلي تفصيل هذه المسالك:

الأول: مسلك رد الحديث وإنكاره، مع توجيهه على التسليم بثبوته.

وهذا مسلك جمع من المفسرين والمحدثين، وممن ذهب إليه: النحاس، وأبو بكر الباقلاني، وابن العربي، والقاضي عياض، وابن الجوزي، وأبو عبد الله القرطبي، وابن كثير، والتفتازاني، والشوكاني، والطاهر ابن عاشور، والشنقيطي، والألباني.

حيث ذهب هؤلاء إلى تضعيف الحديث الوارد في سبب نزول الآية، والإجابة عنه على التسليم بثبوته.

قال القاضي عياض: «اعلم -أكرمك الله- أنَّ لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله، والثاني: على تسليمه؛ أما المأخذ الأول.... »، ثم ذكر هذا المأخذ مبينًا فيه علل الحديث، وقد نقلتُ لك كلامه عند تخريجي للحديث.

ثم قال: «فأما من جهة المعنى؛ فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهةٍ غير الله، وهو كفر، أو أن يَتَسَوَّرَ عليه الشيطان، ويشبِّهَ عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أنَّ من القرآن ما ليس منه، حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قِبَلِ نفسه عمدًا؛ وذلك كفر، أو سهوًا؛ وهو معصوم من هذا كله. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوَّلَ على الله، لا عمدًا ولا سهوًا، ما لم يُنْزِلْ عليه، وقد قال الله تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦))

=

=

[الحاقة: ٤٤ – ٤٦]، وقال تعالى: (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)) [الإسراء: ٧٣-٧٥]....".

ثم قال: «فلم يبق في الآية إلا أنَّ الله تعالى امتنَّ على رسوله بعصمته وتثبيته مما كاده به الكفار، وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ، وهو مفهوم الآية». اهـ

أجوبة أصحاب هذا المسلك عن الحديث على التسليم بثبوته:

أصحاب هذا المسلك ينكرون ثبوت القصة مطلقًا؛ إلا أنهم أجابوا عنها بأجوبة، وذلك على التسليم بصحتها، ومن أجوبتهم:

الجواب الأول: أنَّ النبي ﷺ كان يرتل القرآن بمحضر من مشركي قريش، فارتصده الشيطان في سكتة من سكتاته، فنطق بتلك الكلمات محاكيًا نغمة النبي ﷺ؛ فسمعها من دنا إليه من المشركين، وظنها من قراءة النبي ﷺ؛ فأشاعوها وتناقلوها على أنها من قوله ﷺ.

وممن قال بهذا الجواب: ابن العربي، والقاضي عياض، وابن الجوزي، وأبو عبد الله القرطبي، وابن كثير، والتفتازاني، والشوكاني، والشنقيطي، والألباني.

قال ابن العربي: «أخبر الله تعالى أنَّ من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولًا زاد الشيطان فيه من قِبَلِ نفسه؛ كما يفعل سائر المعاصي....، فهذا نص في أنَّ الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أنَّ النبي ﷺ قاله. وذلك أنَّ النبي ﷺ كان إذا قرأ تلا قرآنًا مقطعًا، وسكت في مقاطع الآي سكوتًا محصلًا، وكذلك كان حديثه مترسلًا متأنيًا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ٢٠]، وبين قوله تعالى: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

=

الْأُنثَى (٢١)) [النجم: ٢١] فقال يحاكي صوت النبي ﷺ: (وإنهن الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)». اهـ

وقال القاضي عياض: «والذي يظهر ويترجح في تأويله ـ على تسليمه ـ أنَّ النبي ﷺ كان ـ كما أمره ربه ـ يرتل القرآن ترتيلًا، ويفصِّلُ الآي تفصيلًا في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُد الشيطان لتلك السكتات، ودسِّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، محاكيًا نغمة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها على ما عُرِفَ منه». اهـ

وتعقب هذا الجواب الفخر الرازي فقال: «وهذا ضعيف؛ فإنك إذا جوزت أن يتكلم الشيطان في أثناء كلام الرسول ﷺ بما يشتبه على كل السامعين كونه كلامًا للرسول ﷺ، بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول ﷺ، فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع». اهـ

الجواب الثاني: أنَّ النبي ﷺ قال ذلك ـ في أثناء تلاوته ـ على جهة التقريع والتوبيخ للكفار. وهذا جواب أبي بكر الباقلاني.

قال القاضي عياض: «وهذا ممكن، مع بيان الفصلِ، وقرينةٍ تدل على المراد، وأنه ليس من المتلوِ، ولا يُعترضُ على هذا بما رُوي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلام قبلُ فيها غير ممنوع». اهـ

الجواب الثالث: أنَّ النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذكر اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفارُ أن يأتي بشيء من ذمِّها؛ فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين؛ ليُخَلِّطوا في تلاوة النبي ﷺ، ويشنِّعوا عليه على عادتهم وقولهم: (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) [فصلت: ٢٦]، ونُسِبَ هذا الفعل =

=

إلى الشيطان لحمله لهم عليه.

وهذا جواب الطاهر ابن عاشور.

وذكره القاضي عياض، والفخر الرازي، ولم ينسباه لأحد.

إلا أنَّ الفخر الرازي تعقبه فقال: «هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول ﷺ إزالة الشبهة، وتصريح الحق، وتبكيت ذلك القائل، وإظهار أنَّ هذه الكلمة منه صدرت. وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل». اهـ

الجواب الرابع: أنَّ المراد بالغرانيق العلى: الملائكة، وكان الكفار يقولون: الملائكة بنات الله، ويعبدونها، فَسِيقَ ذِكْرُ الكلِّ لِيَرُدَّ عليهم بقوله: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١))؛ فلما سمعه المشركون حملوه على الجميع، وقالوا: قد عظَّم آلهتنا، ورضوا بذلك، فنسخ الله تلك الكلمتين وأحكم آياته.

وهذا جواب أبي جعفر النحاس.

وذكره القاضي عياض جوابًا آخر، على تسليم القصة.

وتعقبه القشيري فقال: «وهذا غير سديد؛ لقوله: (فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) أي يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة». اهـ

الجواب الخامس: أنَّ النبي ﷺ لم يتكلم بقوله: (تلك الغرانيق العلى)، ولا الشيطان تكلم به، ولا أحد تكلم به، لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه مما رووه من قولهم: (تلك الغرانيق العلى) وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال.

ذكر هذا الجواب الفخر الرازي وتعقبه فقال: «وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أنَّ التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه، فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه. وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون

=

=

البعض؛ فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات. وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافًا إلى الشيطان». اهـ

الثاني: مسلك رد الحديث وإنكاره مطلقًا.

وهذا مسلك الأكثر من المفسرين والمحدثين، وممن ذهب إليه: ابن خزيمة، والجصاص، وابن حزم، والبيهقي، والقاضي ابن عطية، والسهيلي، والفخر الرازي، وأبو العباس القرطبي، وعبد العظيم المنذري، والبيضاوي، والطيبي، وأبو حيان، والعيني، وأبو السعود، والآلوسي، والقاسمي، والمباركفوري، وسيد قطب، والأستاذ محمد عبده، وابن باز.

قال ابن خزيمة: «هذه القصة من وضع الزنادقة».

وقال ابن حزم: «وأما الحديث الذي فيه: (وأنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى) فكذب بحت موضوع؛ لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد». اهـ

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل».

وقال ابن عطية: «وهذا الحديث الذي فيه (هن الغرانقة) وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور، بل يقتضي مذهب أهل الحديث أنَّ الشيطان ألقى، ولا يعينون هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أنَّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة». اهـ

أدلة القائلين بضعف الحديث وبطلانه، وهم أصحاب المسلك الأول والثاني:

استدل هؤلاء على بطلان القصة بأدلة منها:

الأول: أنَّ في سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم

=

=

بقليل قوله تعالى – في اللات والعزى –: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وليس من المعقول أنَّ النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخرًا عن ذكره لها بالخير المزعوم، إلا وغضبوا ولم يسجدوا؛ لأن العبرة بالكلام الأخير.

الدليل الثاني: أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول وهي الآيات الدالة على أنَّ الله لم يجعل للشيطان سلطانًا على النبي ﷺ وإخوانه من الرسل وأتباعهم المخلصين؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: ٩٩ – ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى القول المزعوم أنَّ الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك.

الدليل الثالث: قوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ – ٤]، وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ [الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٦]، وقوله – في القرآن العظيم –: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤١ – ٤٢]، فقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ فعلٌ في سياق النفي، والفعل في ساق النفي من صيغ العموم، وهو في الآية يعم نفي كل باطل يأتي القرآن، وقد أكد هذا العموم بقوله:

=

=

﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، فلو قدَّرْنا أنَّ الشيطان أدخل في القرآن على لسان النبي ﷺ قوله: (تلك الغرانيق العلى) لكان قد أتى القرآنَ أعظمُ باطلٍ بين يديه ومن خلفه؛ فيكون تصريحًا بتكذيب الله جل وعلا في قوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾، وكلُّ خبرٍ ناقضَ القرآنَ العظيم فهو كاذب؛ للقطع بصدق القرآن العظيم، ونقيضُ الصادقِ كاذبٌ ضرورة.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٤]، وهاتان الآيتان تردان الخبر المروي في سبب نزول الآية؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم؛ فمضمون هذا ومفهومه أنَّ الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلًا، فكيف كثيرًا! وفي هذا الخبر الواهي أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه ﷺ قال: افتريت على الله، وقلت ما لم يقل، وهذا ضد مفهوم الآية، وهو يدل على ضعف الحديث وبطلانه.

الدليل الخامس: الإجماع على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن، حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أنَّ من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمدًا، وذلك كفر، أو سهوًا، وهو معصوم من هذا كله.

الدليل السادس: أنَّ الحديث قد رُوي من طرق صحيحة متعددة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ بِهَا، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ». وليس في هذه الطرق ذكر لقصة الغرانيق، ولو كانت صحيحة لنقلت عبر هذه

=

=

الأسانيد، وهذا يدل على بطلانها ووضعها.

الدليل السابع: أنَّ إثبات مثل هذه القصة يرفع الأمان والوثوق بالوحي، ويُجوِّزُ إدخال الشيطان فيه ما ليس منه، وهذا محال وباطل.

الثالث: مسلك قبول الحديث، مع تأويله وصرفه عن ظاهره.

وهذا مذهب: الواحدي، وأبي المظفر السمعاني، والزمخشري، والنسفي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن جزي الكلبي، والحافظ ابن حجر، والملا علي القاري.

وممن ذهب إليه من المتأخرين: إبراهيم الكوراني، وقد نقل كلامه الآلوسي في تفسيره، وذكر عنه أنه تحصل له بعد كلام طويل: «أنَّ الحديث أخرجه غير واحد من أهل الصحة، وأنه رواه ثقات بسند سليم متصل عن ابن عباس، وبثلاث أسانيد صحيحة عن ثلاث من التابعين من أئمة الآخذين عن الصحابة، وهم سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية، وقد قال السيوطي في (لباب النقول في أسباب النزول): قال الحاكم (في علوم الحديث): «إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند. ومشى عليه ابن الصلاح وغيره.

ثم قال: ما جعلناه من قبيل المسند من الصحابي إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضًا لكنه مرسل، فقد يُقبل إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة؛ كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل ونحو ذلك، فعلى هذا يكون الخبر في القصة مسندًا من الطريق المتصلة بابن عباس، مرسلًا مرفوعًا من الطرق الثلاثة، والزيادة فيه -التي رواها الثقات عن ابن عباس في غير رواية البخاري - ليست مخالفة لما في البخاري عنه؛ فلا تكون شاذة؛ فإطلاق الطعن فيه من حيث النقل ليس في محله». اهـ

هذا وقد ذكر أصحاب هذا المسلك عدة تأويلات للحديث دفعوا بها ما فيه من

=

=

إشكال:

الأول: أنَّ النبي ﷺ كان يرتل القرآن بمحضر من مشركي قريش، فارتصده الشيطان في سكتة من سكتاته، فنطق بتلك الكلمات محاكيًا نغمة النبي ﷺ؛ فسمعها من دنا إليه من المشركين، وظنها من قراءة النبي ﷺ؛ فأشاعوها وتناقلوها على أنها من قوله ﷺ.

وهذا التأويل ذكره أصحاب المسلك الأول في أجوبتهم عن الحديث على التسليم بثبوته، وقد تقدم.

وذكره أيضًا بعض أصحاب هذا المسلك، وهم القائلون بثبوت الحديث، ومن القائلين بهذا التأويل:

أبو المظفر السمعاني، والنسفي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن جزي، والحافظ ابن حجر، والملا علي القاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التمني في الآية فيه قولان: الأول: أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول. وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه. والثاني - وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم -: أن الإلقاء في نفس التلاوة، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه، وكما وردت به الآثار المتعددة، ولا محذور في ذلك، إلا إذا أقر عليه، فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك، وليس هو خطأ وغلطا في تبليغ الرسالة إلا إذا أقر عليه. ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ، كما قال: «فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به فإني لن أكذب على الله»، ولولا ذلك لما قامت الحجة به، فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن الله، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه. (فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقر عليه لم يكن كلما يخبر به عن الله).

=

=

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا وقصدوا خيرا وأحسنوا في ذلك؛ لكن يقال لهم: ألقى ثم أحكم فلا محذور في ذلك. فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذا موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من إخباره برفعه». اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن قرر صحة الحديث: «وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: «ألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)»؛ فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا، إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد، لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك....".

ثم ذكر هذه المسالك، وقد نقلها من كتاب الشفا، للقاضي عياض، ثم قال بعد أن أورد التوجيه المذكور: «قال: وهذا أحسن الوجوه، ويؤيده ما تقدم في صدر الكلام عن ابن عباس: من تفسيره (تمنى) بـ: (تلا)». اهـ

التأويل الثاني: أنَّ ذلك جرى على لسان النبي ﷺ حين أصابته سِنَةٌ وهو لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته.

ذكره القاضي عياض، ونسبه لقتادة، ومقاتل.

وهو الظاهر من كلام الواحدي.

وتعقب هذا التأويل القاضي عياض فقال: «وهذا لا يصح، إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة؛ لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو». اهـ.

وتعقبه أيضًا الفخر الرازي فقال: «وهذا ضعيف لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع، وحينئذ تزول الثقة عن الشرع. وثانيها: أنَّ الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها،

=

=

فإنا نعلم بالضرورة أنَّ واحدًا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها. وثالثها: هب أنه تكلم بذلك سهوًا، فكيف لم ينتبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام، وذلك ظاهر». اهـ

التأويل الثالث: أنَّ الشيطان ألجأ النبي ﷺ إلى أن قال ذلك بغير اختيار منه ﷺ.

ذكره الحافظ ابن حجر دون نسبة.

وتعقبه الفخر الرازي فقال: «وهذا فاسد لوجوه: أحدها: أنَّ الشيطان لو قَدِرَ على ذلك في حق النبي ﷺ لكان اقتداره علينا أكثر، فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين، ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين. وثانيها: أنَّ الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال. وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيًا عن الشيطان: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم) [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)) [النحل: ٩٩ – ١٠٠] وقال: (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)) [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين». اهـ

التأويل الرابع: أنَّ ذلك جرى على لسان النبي ﷺ على سبيل السهو والغلط.

جاء ذلك في رواية أبي بكر بن عبد الرحمن.

وهو رأي الزمخشري، قال: «ولم يفطن له النبي ﷺ حتى أدركته العصمة فتنبه عليه». اهـ

وتعقبه القاضي عياض فقال: «وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغيير المعاني، وتبديل الألفاظ، وزيادة ما ليس من القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يُقرُّ على هذا السهو، بل يُنَبَّهُ عليه، ويُذَكَّرُ به للحين». اهـ

=

=

التأويل الخامس: أنَّ ذلك جرى على لسان النبي ﷺ حقيقة لكنه أراد بالغرانيق: الملائكة.

وهذا رأي عمر بن رسلان البلقيني، حيث قال: «التحقيق أنَّ النبي ﷺ تكلم بهذا اللفظ - يعني: (تلك الغرانيق العلى) بطوعه، وأنه آية من القرآن نُسِخَ تلاوتُها، قال: والمشار إليه بتلك الغرانيق: الملائكة، قال: وأتى العيني والحافظ بروايتين صحيحتين مرفوعتين على هذا القول الصحيح». اهـ

نقله عنه المباركفوري، وتعقبه فقال: «وكلامه هذا مردود عليه؛ فإنه لم يثبت برواية مرفوعة صحيحة أنَّ النبي ﷺ تكلم بهذا اللفظ بطوعه، وأنه آية من القرآن نسخ تلاوتها، وأما قوله: وأتى العيني والحافظ بروايتين صحيحتين مرفوعتين على هذا القول الصحيح. فخطأ فاحش ووهم قبيح؛ فإنه لم يأتِ العيني ولا الحافظ برواية مرفوعة صحيحة على هذا القول، فضلًا عن روايتين مرفوعتين صحيحتين». اهـ

التأويل السادس: أنَّ النبي ﷺ نطق بذلك على فهم أنه استفهام إنكاري حُذِفَ منه الهمزة، أو نطق به وقصده حكاية قولهم.

قاله إبراهيم الكوراني.

الرابع: مسلك قبول الحديث مطلقًا، وإعماله على ظاهره من دون تأويل.

وهذا مذهب ابن قتيبة، وابن بطال، ومرعي بن يوسف الكرمي، وعبد الرحمن السعدي.

قال السعدي: «وهذه الآيات فيها بيان أنَّ للرسول ﷺ أسوةً بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ (وَالنَّجْمِ) فلما بلغ: (أفرأيتم اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠)) [النجم: ١٩ - ٢٠] ألقى الشيطان في قراءته: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)، فحصل بذلك للرسول ﷺ حزن، وللناس

=

=

فتنة، كما ذكر الله؛ فأنزل الله هذه الآيات».

قال: «وقد عصم الله الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره، ولكن هذا إلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام». اهـ

والحق أنَّ هذه القصة ضعيفة بل باطلة، لأنَّ كل الروايات الواردة فيها مُعَلَّةٌ؛ إما بالإرسال، أو الضعف، أو الجهالة، وليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، لا سيّما في مثل هذا الأمر الخطير، الذي يمس مقام نبينا الكريم ﷺ.

والحق أنَّ الآية لا يصح في سبب نزولها شيء، وغاية ما في الآية الإخبار من الله تعالى أنَّ الشيطان يُلقي شيئًا ما عند تلاوة نبي من الأنبياء، إلا أننا لا نستطيع الجزم بتعيين ذلك الشيء، ولا يَحِلُّ لنا تعيينه بناء على روايات ضعيفة لا يعتمد عليها؛ فإن ذلك من التفسير المذموم الذي حَذَّرَ منه النبيُّ ﷺ.

والأقرب في معنى الآية: أنَّ الله تعالى يُذَكِّرُ نبيه بأنه ما أرسل من قبله من رسول ولا نبي إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئًا من الآيات - على المعنى الذي أراد الله تعالى - ألقى الشيطان في قلوب أوليائه وأتباعه معنىً غير المعنى الذي أراد الله تعالى، من الشُّبَه والوساوس والمعاني الباطلة، فينسخ الله تلك الشُّبَه التي ألقاها الشيطان، بمعنى أنه يبطلها ويذهبها، ثم يحكم آياته فلا يبقى إلا الحق الذي أراده سبحانه، وهذا الإلقاء إنما هو من الشيطان، وهو على صورة إيحاء، وهو كائن في قلوب الذين كفروا، وليس هو إلقاء من الشيطان، في قراءة نبي من الأنبياء؛ بصوت مسموع، فهو لا يستطيع ذلك.

وقد قدَّر الله تعالى إيقاع هذه الإيحاءات من الشيطان، ابتلاءً منه وامتحانًا؛ ليجعل ذلك فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

«والمراد بالنسخ في الآية هو النسخ اللغوي، الذي هو بمعنى الإزالة والإبطال، لا

=

=

النسخ الشرعي الذي هو: رفع حكم شرعي بخطاب جديد؛ لأن ما ألقاه الشيطان ليس بحكم، حتى يكون رفعه نسخًا شرعيًا؛ بل هو باطل أبطله الله وأزاله».

إذا علمت هذا فإن الآية تدل على أنَّ الله ينسخ شيئًا ألقاه الشيطان، ليس مما يقرؤه الرسول أو النبي، وأن ما يلقيه الشيطان: هي الشكوك والوساوس المانعة من تصديق القرآن وقبوله؛ كإلقائه عليهم أنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين، وأنه مفترى على الله وليس منزل من عنده، والدليل على هذا المعنى: أنَّ الله بين أنَّ الحكمة - في الإلقاء المذكور - هي امتحان الخلق؛ لأنه قال: (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) [الحج: ٥٣]، ثم قال: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) [الحج: ٥٤]، فقوله: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ) يدل على أنَّ الشيطان يلقي عليهم: أنَّ الذي يقرؤه النبي ليس بحق؛ فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق، لا الكذب، كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه، فهذا الامتحان لا يناسب شيئًا زاده الشيطان من نفسه في القراءة.

«هذا هو المعنى المراد من هذه الآية الكريمة، وهي كما ترى ليس فيها إلا أنَّ الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ﷺ ما يفتتن به الذين في قلوبهم مرض، ولكن أعداء الدين الذين قعدوا له في كل طريق، وترصدوا له كل مرصد، لا يرضيهم إلا أن يدسوا فيه ما ليس منه، ولم يقله رسوله، فذكروا ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة وذلك دَيْدَنهم منذ القديم، كما فعلوا في غير ما آية وردت في غيره ﷺ من الأنبياء، كداود، وسليمان، ويوسف عليهم الصلاة والسلام، فرووا في تفسيرها من الإسرائيليات ما لا يجوز نسبته إلى رجل مسلم فضلًا عن نبي مُكَرَّم، كما هو مبين في محله من كتب التفاسير والقصص».

=

=

وهذا المعنى الذي قلناه في تفسير الآية يشهد له آيات من كتاب الله ﷻ؛ كقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)) [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]، وقوله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) [الأنعام: ١٢١].

وأما ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر من تصحيح الحديث وقبوله، فهو اجتهاد منه رَحِمَهُ اللهُ، وقد خالفه جمع من العلماء المحققين، كما تقدم، وردَّ عليه آخرون وبيّنوا أنَّ الصواب هو ضعف الحديث وبطلانه، وأجود من ناقش هذه المسألة مع الحافظ ابن حجر هو الألباني في كتابه «نصب المجانيق»، وقد آثرتُ أن أنقل كلامه بطوله؛ لجودته ونفاسته، ولكن بعد نقل كلام الحافظ بتمامه، حتى يلتئم الكلام بعضه مع بعض:

قال الحافظ ابن حجر - بعد أن ساق بعضًا من روايات الحديث -: «وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف أو منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أنَّ للقصة أصلًا، مع أنَّ لها طريقين آخرين مرسلين، رجالهما على شرط الصحيحين، أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام....، فذكره. والثاني: ما أخرجه أيضًا من طريق المعتمر بن سليمان، وحماد بن سلمة، فرقهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية.

قال: وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول عياض: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته،

=

=

واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده. وكذا قوله: ومن حُمِلَتْ عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهية. قال: وقد بين البزار أنه لا يُعرف من طريق يجوز ذكره؛ إلا طريق أبي بشر، عن سعيد بن جبير، مع الشك الذي وقع في وصله، وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه؛ لقوة ضعفه. ثم رده من طريق النظر: بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم. قال: ولم ينقل ذلك. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد؛ فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أنَّ لها أصلًا، وقد ذكرتُ أنَّ ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به؛ لاعتضاد بعضها ببعض ...". اهـ

مناقشة الألباني لابن حجر:

قال الألباني - بعد أن أورد كلام الحافظ السابق -: «والجواب عن ذلك من وجوه:

أولًا: أنَّ القاعدة التي أشار إليها، وهي تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، وقد نبّه على ذلك غير واحد من علماء الحديث المحققين، منهم الحافظ أبو عمر بن الصلاح حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ في (مقدمة علوم الحديث): «لعل الباحث الفهم يقول: إنا نجد أحاديث محكومًا بضعفها، مع كونها قد رُويَت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة، مثل حديث: «الأذنان من الرأس» ونحوه، فهلاّ جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن؛ لأن بعض ذلك عضد بعضًا كما قلتم في نوع الحسن على ما سبق آنفًا؟!

وجواب ذلك: أنه ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل ذلك يتفاوت، فمنه ما يزيله ذلك بأن يكون ضعفه ناشئًا من ضعف حفظ راويه، ولم

=

=

يختلّ فيه ضبطه له، وكذلك إذا كان ضَعفه من حيث الإرسال زال بنحو ذلك، كما في المرسل الذي يرسله إمام حافظ، إذ فيه ضعف قليل يزول بروايته من وجه آخر، ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف، وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته، وذلك كالضعيف الذي ينشأ من كون الراوي متهمًا بالكذب، أو كون الحديث شاذًا. وهذه جملة تفاصيلها تُدرَك بالمباشرة والبحث، فاعلم ذلك فإنه من النفائس العزيزة».

قال الألباني: ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإن الغَفْلَةَ عن هذه النفيسة قد أوقعت كثيرًا من العلماء، لا سيّما المشتغلين منهم بالفقه في خطأ فاضح، ألا وهو تصحيح كثير من الأحاديث الضعيفة اغترارًا بكَثرة طُرقها، وذهولًا منهم عن كون ضعفها من النوع الذي لا ينجبر الحديث بضعفها، بل لا تزيده إلا وَهنًا على وهن، ومن هذا القبيل حديث ابن عباس في هذه القصة، فإن طرقه كلها ضعيفة جدًا كما تقدم، فلا يتقوى بها أصلًا.

لكن يبقى النظر في طرق الحديث الأخرى، هل يَتَقَوّى الحديث بها، أم لا؟

فاعلم أنها كلها مرسلة، وهي على إرسالها مُعَلَّةٌ بالضعف والجهالة، سوى الطرق الأربعة الأولى منها، فهي التي تستحق النظر؛ لأن الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلها عمدته في تصحيحه هذه القصة، وتقويته لها بها، وهذا مما نخالفه فيه، ولا نوافقه عليه، وبيان ذلك يحتاج إلى مقدمة وجيزة مفيدة إن شاء الله تعالى، وهي:

الوجه الثاني: وهو يحتوي على تحقيق أمرين أساسيين:

الأول: أنَّ الحديث المُرسَل، ولو كان المُرسِل ثقة، لا يُحتج به عند أئمة الحديث، كما بيّنه ابن الصلاح في (علوم الحديث) وجزم هو به فقال: «ثم اعلم أنَّ حكم المُرسَل حكم الحديث الضعيف، إلا أن يصح مخرجه بمجيئه من وجه آخر كما سبق بيانه ...، وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضَعفه، هو

=

=

المذهب الذي استقرَّ عليه آراء جماهير حفّاظ الحديث، ونقاد الأثر، وقد تداولوه في تصانيفهم». اهـ

قال الألباني: الأمر الثاني: معرفة سبب عدم احتجاج المحدثين بالمُرسَل من الحديث، فاعلم أنَّ سبب ذلك إنما هو جَهالة الوساطة التي روى عنها المُرسِلُ الحديثَ، وقد بيّن ذلك الخطيب البغدادي في (الكفاية في علم الرواية) حيث قال - بعد أن حكى الخلاف بالعمل بالمرسل-: «والذي نختاره سقوط فرض العمل بالمراسيل، وأن المرسل غير مقبول، والذي يدل على ذلك: أنَّ إرسال الحديث يؤدي إلى الجهل بعين راويه، ويستحيل العلم بعدالته مع الجهل بعينه، وقد بيّنا من قبل أنه لا يجوز قبول الخبر إلا ممن عُرِفَتْ عدالته، فوجب كذلك كونه غير مقبول، وأيضًا فإن العدل لو سُئِلَ عمن أرسل عنه؟ فلم يُعدّله، لم يجب العمل بخبره، إذا لم يكن معروفَ العدالةِ من جهة غيره، وكذلك حاله إذا ابتدأ الإمساك عن ذكره وتعديله، لأنه مع الإمساك عن ذكره غير مُعدّل له، فوجب أن لا يُقبل الخبر عنه». اهـ

وقال الحافظ ابن حجر في (شرح نخبة الفكر) - بعد أن ذكر الحديث المرسل في أنواع الحديث المردود: «وإنما ذكر في قسم المردود للجهل بحال المحذوف، لأنه يحتمل أن يكون صحابيًا، ويحتمل أن يكون تابعيًا، وعلى الثاني يحتمل أن يكون ضعيفًا، ويحتمل أن يكون ثقة، وعلى الثاني يحتمل أن يكون حُمل عن صحابي، ويحتمل أن يكون حمل عن تابعي آخر، وعلى الثاني فيعود الاحتمال السابق ويتعدد، أما بالتجويز العقلي، فإلى مالا نهاية، وأما بالاستقراء، فإلى ستة أو سبعة، وهو أكثر ما وُجِدَ من رواية بعض التابعين عن بعض، فإن عُرِفَ من عادة التابعي أنه لا يرسل إلا عن ثقة، فذهب جمهور المحدثين إلى التوقف، لبقاء الاحتمال، وهو أحد قولي أحمد، وثانيهما: يُقبلُ مطلقًا، وقال الشافعي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:

=

=

يُقبل إن اعتضد بمجيئه من وجه آخر يباين الطريق الأولى مسندًا كان أو مرسلًا؛ ليترجّح احتمال كون المحذوف ثقة في نفس الأمر». اهـ

قال الألباني: فإذا عُرِفَ أنَّ الحديث المُرسَل لا يقبل، وأن السبب هو الجهل بحال المحذوف فيرد عليه أنَّ القول بأنه يقوى بمرسل آخر غير قوي لاحتمال أن يكون كل من أرسله إنما أخذه عن راوٍ واحد، وحينئذ ترد الاحتمالات الذي ذكرها الحافظ، وكأن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قد لاحظ ورود هذا الاحتمال وقوته، فاشترط في المرسل الآخر أن يكون مُرسِله أخذ العلم عن غير رجال التابعي الأول، كما حكاه ابن الصلاح، وكأن ذلك لَيغلب على الظن أنَّ المحذوف في أحد المرسَلين هو غيره في المرسَل الآخر.

وهذه فائدة دقيقة لم أجدها في غير كلام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فاحفظها وراعِها فيما يمر بك من المرسَلات التي يذهب البعض إلى تقويتها لمجرد مجيئها من وجهين مرسَلين، دون أن يراعوا هذا الشرط المهم.

ثم رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قد نصّ أيضًا على هذا الشرط في كلام له مفيد في أصول التفسير، نقله عنه الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب له مخطوط في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، حديث (٤٠٥/ ٢٢١)، فقال ابن تيمية رحمة الله تعالى: «وأما أسباب النزول، فغالبها مرسل، ليس بمسند، لهذا قال الإمام أحمد: «ثلاث علوم لا إسناد لها. وفي لفظ: ليس لها أصل: التفسير، والمغازي، والملاحم». يعني أنَّ أحاديثها مرسلة، ليست مسندة.

والمراسيل قد تنازع الناس في قَبولها وردها. وأصح الأقوال: أنَّ منها المقبول، ومنها المردود، ومنها الموقوف، فمن عُلم من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة قُبل مُرسَلُه، ومن عُرف أنه يُرسِل عن الثقة وغير الثقة، كان إرساله رواية عمن لا يُعرف حاله، فهو موقوف. وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات، كان مردودًا،

=

=

وإن جاء المرسَل من وجهين، كل من الراويين أخذ العلم عن غير شيوخ الآخر، فهذا يدل على صدقه فإن مثل ذلك لا يُتصور في العادة تماثل الخطأ فيه وتعمد الكذب ...". اهـ

قال الألباني: ومع أنَّ التحقق من وجود هذا الشرط في كل مرسَل من هذا النوع، ليس بالأمر الهيِّن، فإنه لو تحققنا من وجوده، فقد يَردُ إشكال آخر، وهو أنه يحتمل أن يكون كل من الواسطتين أو أكثر ضعيفًا، وعليه يحتمل أن يكون ضعفهم من النوع الأول الذي ينجبر بمثله الحديث على ما سبق نقله عن ابن الصلاح، ويحتمل أن يكون من النوع الآخر الذي لا يقوى الحديث بكثرة طرقه، ومع ورود هذه الاحتمالات يسقط الاستدلال بالحديث المرسل وإن تعددت طرقه. وهذا التحقيق مما لم أجد مَن سبقني إليه، فإن أصبت فمن الله تعالى وله الشكر، وإن أخطأت فمن نفسي، وأستغفر الله من ذنبي.

وبالجملة فالمانع من الاستدلال بالحديث المرسل الذي تعدد مرسِلوه أحد الاحتمالين: الأول: أن يكون مصدر المرسلين واحدًا.

الثاني: أن يكونوا جمعًا، ولكنهم جميعًا ضعفاء ضعفًا شديدًا.

وبعد هذه المقدمة نستطيع أن نقول:

إننا لو ألقينا النظر على روايات هذه القصة، لألفيناها كلها مرسَلة، حاشا حديث ابن عباس، ولكن طرقه كلها واهية شديدة الضعف لا تنجبر بها تلك المراسيل، فيبقى النظر في هذه المراسيل، وهي كما علمت سبعة، صح إسناد أربعة منها، وهي مرسل سعيد بن جبير، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وأبي العالية، ومرسل قتادة، وهي مراسيل يرد عليها أحد الاحتمالين السابقين، لأنهم من طبقة واحدة: فوفاة سعيد بن جبير سنة (٩٥) وأبي بكر بن عبد الرحمن سنة (٩٤)، وأبي العالية - واسمه رفيع مصغرًا - سنة (٩٠) وقتادة سنة بضع عشرة ومائة،

=

=

والأول كوفي، والثاني مدني، والأخيران بصريان.

فجائز أن يكون مصدرهم - الذي أخذوا منه هذه القصة ورووها عنه - واحدًا لا غير، وهو مجهول، وجائز أن يكون جمعًا، ولكنهم ضعفاء جميعًا، فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئن النفس لقَبول حديثهم هذا، لا سيّما في مثل هذا الحدث العظيم الذي يمسّ المقام الكريم، فلا جَرَم تتابع العلماء على إنكارها، بل التنديد ببطلانها، ولا وجه لذلك من جهة الرواية إلا ما ذكرنا....". اهـ

وقال الألباني: «وأما قول الحافظ في (الفتح) بعد أن نقل خلاصة عن الوجوه التي تقدمت عن الإمامين المذكورَيْن في إعلال القصة وتوهينها: «وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها، دلّ ذلك على أنَّ لها أصلًا، وقد ذكرت أنَّ ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض». اهـ

فأقول: إن هذا الجواب ليس بالقوي على إطلاقه لما بيَّنّا فيما تقدم أنَّ تقوية الحديث بكثرة الطرق ليس قاعدة مضطردة، نعم من ذهب إلى الاحتجاج بالمرسل مطلقًا أو عند اعتضاده، ففي الجواب رد قوي عليه، كالقاضي عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة، أما نحن فهو غير وارد علينا لما أوردنا من الاحتمالات التي تمنع الاحتجاج بالحديث المرسل، ولو من غير وجه، ولعل هذا مذهب الحافظ ابن كثير حيث قال عند تفسيره للآية السابقة: «قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنًا منهم أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح». اهـ

فإن ابن كثير يعلم أنَّ بعض هذه المراسيل التي أشار إليها أسانيدها صحيحة إلى

=

=

مُرْسِلها، فلو كان بعضها يعضد بعضًا عنده وتقوى القصة بذلك، لما ضعفها بحجة أنه لم يرها مسندة من وجه صحيح، وهذا بيِّن لا يخفى.

ثم إن من الغريب أنَّ الحافظ ابن حجر مع ذهابه إلى تقوية القصة يرى أنَّ فيها ما يُستنكر وأنه يجب تأويله فيقول - بعد كلامه الذي نقلته آنفًا-: «وإذا تقرر ذلك تعيَّن تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)؛ فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدًا ما ليس منه، وكذا سهوًا إذا كان مغايرًا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته». اهـ

ثم ذكر الحافظ مسالك العلماء في تأويل ذلك، ثم اعتمد على الوجه الأخير منها، وهو الذي نقلناه عن القاضي عياض قُبَيْلَ هذا الفصل، وقلنا إنه رجَّحه، ثم قال الحافظ: «وهذا أحسن الوجوه، ويؤيِّده ما تقدم في صدر الكلام عن ابن عباس من تفسير تمنَّى بـ (تلا)».

فينتج من ذلك أنَّ الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد سلَّم أنَّ الشيطان لم يتكلم على لسان النبي ﷺ بتلك الجملة، وإنما ألقاها الشيطان بلسانه في سكتة النبي ﷺ، فهذا لا يتفق ألبتة مع القول بصحة القصة، أو أنَّ لها أصلًا، فإن كان يريد بذلك أنَّ لها أصلًا في الجملة، أعني بدون هذه الزيادة، فهذا ليس هو موضع خلاف بينه وبين العلماء الذين ردّ عليهم قولهم ببطلان القصة، وإنما الخلاف في الجملة التي تزعم الروايات أنَّ الشيطان ألقاها على لسانه ﷺ؛ فإذ قد صرح الحافظ بإنكارها وتنزيه النبي ﷺ عنها فنستطيع أن نقول: إن الحافظ متفق مع ابن كثير وغيره ممن سبقه ولحقه على إنكار القصة على ما وردت في الروايات، حتى التي صحَّحها الحافظ، وأما ما بقي منها مما لا يتنافى مع عصمة النبي ﷺ، فلا خلاف في إمكان وقوعها، بل الظاهر أنَّ هذا القدر هو الذي وقع بدليل ظاهر آية الحج حسبما تقدم تفسيرها

=

=

في أوائل الرسالة.

نعم يرد على الحافظ هنا اعتراضان:

الأول: تليينه العبارة في إنكار تلك الزيادة، لأنه إنما أنكرها بطريق تأويلها! وحقه أن ينكرها من أصلها، لأن التأويل الذي زعمه ليست تفيده تلك الزيادة أصلًا.

الثاني: تشنيعه القول على ابن العربي والقاضي عياض لإنكارهما القصة، ومع أنه يعلم أنهما أنكراها لِمَ فيها من البواطيل التي لا تتفق مع القول بعصمة الرسول الكريم، منها هذه الزيادة التي وافقهما الحافظ على استنكارها، مع فارق شكلي وهو أنهما كانا صريحين في إنكارها من أساسها، بينما الحافظ إنما أنكرها بطريق تأويلها ـ زعم ـ.

ومن هنا يتبين لك ضعف ما قاله الحافظ ابن حجر في رده على القاضي في (تخريج الكشاف): «وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الواهية في الرواية القوية، فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة، أي: يُعتمد على الرواية المتابعة، وليس فيها وفيما تابعها اضطراب والاضطراب في غيرها، وأما طعنه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصِّحاح التي لا يؤخذ بظاهرها، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين». اهـ

قال الألباني: إن هذا الرد ضعيف؛ لأن الرواية الصحيحة التي أشار إليها هي رواية ابن جُبير، وفيها كما في غيرها من الروايات المتابعة الأمر المستنكر باعترافه، بل في بعض الروايات عن سعيد ما هو أنكر من ذلك وهو قوله: ثم جاءه جبريل بعد ذلك فقال: اعرض علي ما جئتك به، فلما بلغ: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) قال له جبريل: لم آتك بهذا، وهذا من الشيطان!! وقد جاء هذا في غير رواية سعيد كما تقدم، ولازمه أنَّ النبي ﷺ قد انطلى عليه وحي الشيطان واختلط عنده بوحي الرحمن، حتى لم يميِّز بينهما، وبقي على هذه الحالة ما بقي،

=

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥).

{وَلَا يَزَال الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَة} شَكّ {مِنْهُ} أَيْ الْقُرْآن بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَان عَلَى لِسَان النَّبِيّ ثُمَّ أُبْطِلَ {حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَة بَغْتَة} أَيْ سَاعَة مَوْتهمْ أَوْ الْقِيَامَة فَجْأَةً {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَاب يَوْم عَقِيم} هُوَ يَوْم بَدْر لَا خَيْر فِيهِ لِلْكُفَّارِ كَالرِّيحِ الْعَقِيم الَّتِي لَا تَأْتِي بِخَيْرٍ أَوْ هُوَ يَوْم الْقِيَامَة لَا لَيْل بَعْده.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦).

{الْمُلْك يَوْمئِذٍ} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {لِلَّهِ} وَحْده وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ الِاسْتِقْرَار

=

إلى أن جاءه جبريل في المساء! سبحانك هذا بهتان عظيم، وافتراء جسيم.

فاتضح أن ليس هناك رواية معتمدة صحيحة بالمعنى العلمي الصحيح، وأن الرواية التي صححها الحافظ قد أنكر بعضها هو نفسه فأين الاعتماد.

وأما قوله: «إن حديث الغرانيق له أسوة بكثير من الأحاديث الصحيحة»، فصحيح لو صح إسناده، وأمكن تأويله، وكلا الأمرين لا نسلِّم به. أما الأول فلما علمت من إرساله من جميع الوجوه حاشا ما اشتد ضعفه من الموصول، وإنها على كثرتها لا تعضده. وأما الأمر الآخر فلأن التأويل الذي ذهب إليه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو في الحقيقة ليس تأويلًا، بل هو تعطيل لحقيقة الجملة المستنكرة، وهو أشبه ما يكون بتأويلات بل تعطيلات القرامطة والرافضة للآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية. تأييدًا لمذاهبهم الهدّامة وآرائهم الباطلة، خلافًا للحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه إنما فعل ذلك دفاعًا عن مقام الحضرة النبوية والعصمة المحمدية، فهو مشكور على ذلك ومأجور، وإن كان مخطئًا عندنا في ذلك التأويل مع تصحيح القصة».

نَاصِب لِلظَّرْفِ {يَحْكُم بَيْنهمْ} بَيْن الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِمَا بَيَّنَ بَعْده {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فِي جَنَّات النَّعِيم} فَضْلًا مِنْ الله.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧).

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَاب مُهِين} شَدِيد بِسَبَبِ كُفْرهمْ.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨).

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيل الله} أَيْ طَاعَته مِنْ مَكَّة إلَى الْمَدِينَة {ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنهُمْ الله رِزْقًا حَسَنًا} هُوَ رِزْق الْجَنَّة {وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْر الرَّازِقِينَ} أَفْضَل المعطين.

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩).

{لَيُدْخِلَنهُمْ مُدْخَلًا} بِضَمِّ الْمِيم وَفَتْحهَا أَيْ إدْخَالًا أَوْ مَوْضِعًا {يَرْضَوْنَهُ} وَهُوَ الْجَنَّة {وَإِنَّ الله لَعَلِيم} بِنِيَّاتِهِمْ {حَلِيم} عَنْ عِقَابهمْ(١).

(١) قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الحج: ٥٥]، أي:"ولا يزال الكافرون المكذبون في شك مما جئتهم به من القرآن إلى أن تأتيهم الساعة فجأة، وهم على تكذيبهم".

قال الطبري: يقول:"يقول: لا يزال هؤلاء الكفار في شك من أمر هذا القرآن إلى أن تأتيهم ساعة حشر الناس لموقف الحساب فجأة".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك وريب من هذا القرآن".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} [الحج: ٥٥] أقوال:

=

=

أحدها: أي: في شك من ذكر قول النبيّ ﷺ: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. وهذا قول سعيد بن جبير.

قال ابن زيد:"مما جاء به إبليس لا يخرج من قلوبهم زادهم ضلالة".

الثاني: أي: في شك من ذكر سجود النبيّ ﷺ في النجم. وهذا قول سعيد بن جبير أيضا.

الثالث: في شك من القرآن. قاله ابن جريج.

والرابع: أنها ترجع إلى الدِّين، حكاه الثعلبي.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أقرب منه من ذكر قوله: {فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} والهاء من قوله «أنه» من ذكر القرآن، فإلحاق الهاء في قوله: {ففِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} بالهاء من قوله: {أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} أولى من إلحاقها بما التي في قوله {مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}، مع بُعد ما بينهما".

قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} [الحج: ٥٥]، أي:"أو يأتيهم عذاب يوم لا خير فيه، وهو يوم القيامة".

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} [الحج: ٥٥]، قولان:

أحدهما: يوم القيامة، قاله الحسن، وعكرمة، والضحاك.

عن ساسان، قال: "سألت الضحاك، عن قوله: {عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}، قال: عذاب يوم لا ليلة بعده".

عن عكرمة: "أن يوم القيامة لا ليلة له".

وقال الحسن:"يعني: الذين تقوم عليهم الساعة، الدائنين بدين أبي جهل وأصحابه".

=

=

قال ابن كثير:"وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد".

الثاني: يوم بدر، قاله أبيّ بن كعب، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة.

قال الثعلبي:"وهو الصواب لأن الساعة هي القيامة، ولا وجه لأن يقال: حتى تأتيهم القيامة وإنما سمي يوم بدر عقيما لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل، بل قتلوا قبل المساء".

قال الطبري:"وهذا القول الثاني أولى بتأويل الآية، لأنه لا وجه لأن يقال: لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو تأتيهم الساعة؛ وذلك أن الساعة هي يوم القيامة، فإن كان اليوم العقيم أيضا هو يوم القيامة فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكر الساعة مرّتين باختلاف الألفاظ، وذلك ما لا معنى له. فإذ كان ذلك كذلك، فأولى التأويلين به أصحهما معنى وأشبههما بالمعروف في الخطاب، وهو ما ذكرنا. في معناه.

فتأويل الكلام إذن: ولا يزال الذين كفروا في مرية منه، حتى تأتيهم الساعة بغتة فيصيروا إلى العذاب العقيم، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم له، فلا ينظرون فيه إلى الليل ولا يؤخروا فيه إلى المساء، لكنهم يقتلون قبل المساء".

وفي «العقيم»، ثلاثة وجوه:

أحدها: الشديد، قاله الحسن.

وروي عن مجاهد، في قوله: {يَوْمٍ عَقِيمٍ}، قال:"يوم عظيم".

ذكر الثعلبي:"لأنه لم يكن فيه رأفة ولا رحمة".

الثاني: أنه الذي ليس له مثيل ولا عديل لعظم امره، لقتال الملائكة فيه. حكاه الثعلبي.

الثالث: أن يكون «العقيم» هو الذي يجدب الأرض ويقطع النسل. أفاده

=

=

الماوردي.

يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً.

قال الجمل: «لما ذكر سبحانه حال الكافرين أولا، ثم حال المؤمنين ثانيا، عاد إلى شرح حال الكافرين، فهو رجوع لقوله: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ والمرية بالكسر والضم. لغتان مشهورتان.

والمعنى ولا يزال الذين كفروا في شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن، بسبب قسوة قلوبهم، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم.

وسيستمرون على هذه الحال حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أي: القيامة بَغْتَةً أي: فجأة أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ أي: لا مثل له في هوله وشدة عذابه ولا يوم بعده، إذ كل يوم يلد ما بعده عن الأيام إلا هذا اليوم وهو يوم القيامة فإنه لا يوم بعده.

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم، لأنها لا تأتي بالسحاب الممطر، فقيل لهذا اليوم: عقيم، لأنه لم يأت بخير.

قال ابن كثير: «وقوله: أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر.

وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير حيث قال: والقول الأول: أنه يوم بدر أولى بتأويل الآية، لأنه لا وجه لأن يقال: لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو تأتيهم الساعة، وذلك أن الساعة هي يوم القيامة، فإن كان اليوم العقيم أيضا هو يوم القيامة، فإنما معناه تكرير الساعة مرتين، باختلاف الألفاظ، وذلك لا معنى له فأولى التأولين أصحهما معنى، وهو ما ذكرنا. فتأويل الكلام: أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لهم، فلا ينظر وافيه إلى الليل،

=

=

ولا يؤخروا فيه إلى المساء لكنهم يقتلون قبل المساء.

وفي رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له، وكذا قال الضحاك والحسن.

قال ابن كثير: وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أو عدوا به، لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ كقوله: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ا.هـ.

فعلى قول من قال: هو يوم بدر في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير، قاله الضحاك. والثاني: لأنهم لم يُنْظَروا فيه إلى الليل، بل قُتلوا قبل المساء، قاله ابن جريج. والثالث: لأنه لا مثْل له في عِظَم أمره، لقتال الملائكة فيه، قاله يحيى بن سلام. وعلى قول من قال: هو يوم القيامة، في تسميته بذلك قولان: أحدهما: لأنه لا ليلة له، قاله عكرمة. والثاني: لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج، ذكره بعض المفسّرين.

قال ابن عاشور: لما حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أن ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة. خص في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصهم بأنهم يستمر شكهم فيما جاء به محمد ﷺ ويترددون في الإقدام على الإسلام إلى أن يحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة أو بحلول عذاب بهم قبل الساعة، فالذين كفروا هنا هم مشركوا العرب بقرينة المضارع في فعل لا يزال وفعل حتى تأتيهم الدالين على استمرار ذلك في المستقبل.

ولأجل ذلك قال جمع من المفسرين: إن ضمير في مرية منه عائد إلى القرآن المفهوم من المقام، والأظهر أنه عائد إلى ما عاد عليه ضمير أنه الحق من ربك فيؤمنوا به [الحج: ٥٤].

=

=

والساعة علم بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن، واليوم: يوم الحرب، وقد شاع إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب. ومنه دعيت حروب العرب المشهورة «أيام العرب».

والعقيم: المرأة التي لا تلد استعير العقيم للمشؤوم لأنهم يعدون المرأة التي لا تلد مشؤومة.

فالمعنى: يأتيهم يوم يستأصلون فيه قتلا: وهذا إنذار بيوم بدر ا.هـ

ثم بين سبحانه مظاهر قدرته، وشمول قهره لغيره فقال: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..

قوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الحج: ٥٦]، أي:"المُلك والسلطان في هذا اليوم لله وحده".

قال مقاتل: "يعني: يوم القيامة لا ينازعه فيه أحد واليوم في الدنيا ينازعه غيره في ملكه".

قال الطبري: يقول:"السلطان والمُلك إذا جاءت الساعة لله وحده لا شريك له ولا ينازعه يومئذ منازع".

قال البغوي:"يعني: يوم القيامة، {لله} وحده من غير منازع".

قال القاسمي:" {يَوْمَئِذٍ} ، أي: يوم تزول مريتهم لله وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف لا حقيقة ولا صورة".

قال الثعلبي:"الملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور، والله سبحانه وتعالى هو الذي يملك الأمور كلها، وكل ملك سواه فهو مملك بحكمه وإذنه".

قوله تعالى: {يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ} [الحج: ٥٦]، أي:"وهو سبحانه يقضي بين المؤمنين والكافرين".

قال الطبري: يقول:"يفصل بين خلقه المشركين به والمؤمنين".

=

=

قال السمعاني:"أي: يقضي بينهم".

قال السعدي:"بحكمه العدل، وقضائه الفصل".

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الحج: ٥٦]، أي:"فالذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة، لهم النعيم الدائم في الجنات".

قال الطبري: يقول:"فالذين آمنوا بهذا القرآن، وبمن أنزله، ومن جاء به، وعملوا بما فيه من حلاله وحرامه وحدوده وفرائضه في جنات النعيم يومئذ منازع، وقد كان في الدنيا ملوك يُدعون بهذا الاسم ولا أحد يومئذ يدعي ملكا سواه".

قال ابن كثير:"أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم، {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}، أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد".

قال السعدي:"نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الحج: ٥٦]، أي:"والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأنكروا آيات القرآن".

قال مقاتل: يعني:"بالقرآن بأنه ليس من الله ﷻ".

قال الطبري: يقول:"والذين كفروا بالله ورسوله، وكذبوا بآيات كتابه وتنزيله، وقالوا: ليس ذلك من عند الله، إنما هو إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون".

قال ابن كثير:"أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم".

قال السعدي:"{وَالَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب

=

=

فأعرضوا عنها، أو عاندوها".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [الحج: ٥٧]، أي:"فأولئك لهم عذاب يخزيهم ويهينهم في جهنم".

قال مقاتل: "يعني: الهوان".

قال الطبري: يقول:"يقول: فالذين هذه صفتهم لهم عند الله يوم القيامة عذاب مهين، يعني عذاب مذلّ في جهنم".

قال ابن كثير:"أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين".

قال السعدي:"لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب".

قال ابن عاشور: آذنت الغاية التي في قوله: حتى تأتيهم الساعة بغتة [الحج: ٥٥] أن ذلك وقت زوال مرية الذين كفروا، فكان ذلك منشأ سؤال سائل عن صورة زوال المرية: وعن ماذا يلقونه عند زوالها، فكان المقام أن يجاب السؤال بجملة الملك يومئذ لله يحكم بينهم إلى آخر ما فيها من التفصيل، فهي استئناف بياني.
فقوله يومئذ تقدير مضافه الذي عوض عنه التنوين: يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة وظهور أن ما وعدهم الله هو الحق، أو يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة.
وجملة يحكم بينهم اشتمال من جملة الملك يومئذ لله ا.هـ

فالتنوين في قوله يَوْمَئِذٍ عوض عن جملة.

أى: السلطان القاهر، والتصرف الكامل، يوم تأتيهم الساعة بغتة، أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله تعالى وحده، كما أن الحكم بين الناس جميعا يكون له وحده سبحانه فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ يكونون في هذا اليوم فِي جَنَّاتِ

=

=

النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا التي جاءتهم بها رسلنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أي: لهم عذاب ينالون بسببه ما ينالون من هوان وذل.

وَالَّذِينَ هاجَرُوا من ديارهم فِي سَبِيلِ إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ثُمَّ قُتِلُوا أي: قتلهم الكفار في الجهاد أَوْ ماتُوا أي: على فراشهم.

هؤلاء وهؤلاء لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ تعالى بفضله وكرمه رِزْقًا حَسَنًا يرضيهم ويسرهم يوم يلقونه. حيث يبوئهم جنته.

قال تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...

وقال سبحانه وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ.

وقوله- ﷻ: وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ تذييل قصد به بيان أن عطاءه سبحانه فوق كل عطاء، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب، ويعطى من يشاء دون أن ينازعه منازع، أو يعارضه معارض، أو ينقص مما عنده شيء.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ} [الحج: ٥٨]، أي:"والذين خرجوا من ديارهم طلبًا لرضا الله، ونصرة لدينه".

قال الطبري: يقول:"والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم فتركوا ذلك في رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عمن خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخِلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله".

قوله تعالى: {ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا} [الحج: ٥٨]، أي:"قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم".

=

=

قال ابن كثير:"{ثُمَّ قُتِلُوا} أي: في الجهاد {أَوْ مَاتُوا} أي: حتف أنفهم، أي: من غير قتال على فرشهم".

عن سلمان الفارسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن الفتانين، واقرءوا إن شئتم»: {والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا} إلى قوله: {حليم}".

عن سلامان بن عامر قال: "كان فضالة برودس أميرا على الأرباع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل والآخر متوفى؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته، فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه على أخيه المتوفى؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله. فقال فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بُعثت! اقرءوا قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا}... إلى قوله: {وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}".

وقرأ ابن عامر: «قتّلوا»، مشددة التاء.

قوله تعالى: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا} [الحج: ٥٨]، أي:"ليعطينهم نعيمًا خالدًا لا ينقطع أبدًا وهو نعيم الجنة".

قال مقاتل:"يعني: كريما".

قال الطبري: " يعني بـ«الرزق الحسن»: الثواب الجزيل".

قال ابن كثير:"أي: ليُجْرِيَن عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: ٥٨]، أي:"وإنه تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب".

قال السمعاني:"أي: أفضل الرازقين".

قال البيضاوي:"فإنه يرزق بغير حساب".

قال الطبري: يقول: وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم".

=

=

قال الرازي: اختلفوا في معنى قوله: وإن الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه: أحدها: التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره وثانيها: أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى وثالثها: أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق ورابعها: أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به، إما لأجل أن يخرج عن الواجب، وإما لأجل أن يستحق به حمدا أو ثناء، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية، فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالا زائدا فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان وخامسها: أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل، وتلك الإرادة من الله، فالرازق في الحقيقة هو الله تعالى وسادسها: أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير، فكان هو خير الرازقين وسابعها: أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به، ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع. وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره، فثبت أنه سبحانه خير الرازقين ا.هـ

وقوله تعالى: لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ.. استئناف مقرر لما قبله.

قوله تعالى: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ} [الحج: ٥٩]، أي:"ليُدخلنَّهم الله المُدْخل الذي يحبونه وهو الجنة".

قال السدي:"الجنة".

قال ابن عباس: "يريد الجنة".

قال الطبري:"ليدخلنّ الله المقتول في سبيله من المهاجرين والميت منهم {مُدْخَلا

=

=

يَرْضَوْنَهُ}، وذلك المُدخل هو الجنة".

قال البغوي:"لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين".

قال الواحدي:"«المدخل»: يجوز أن يكون بمعنى المصدر وبمعنى المكان، فإذا كان بمعنى المصدر فالمراد به: إدخالا يكرمون به فيرضونه".

قرأ نافع وحده: «مدخلا»، بفتح الميم، وقرأ الباقون: {مدخلا}، مرفوعة الميم".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [الحج: ٥٩]، أي:"وإن الله لعليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم".

قال الواحدي:"{لعليم} بنياتهم، {حليم} عن عقابهم".

قال الطبري:"{لَعَلِيمٌ}، بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج من داره طلب الغنيمة أو عرض من عروض الدنيا، {حَلِيمٌ}، عن عصاة خلقه، بتركه معاجلتهم بالعقوبة والعذاب".

قال محمد بن إسحاق: " {عليم}، أي: عليم بما يخفون".

قال الحسن:"الحليم: الرحيم".

عن قتادة:"{إنه كان حليما} عن خلقه، فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض".

قال ابن كثير:"{لَعَلِيمٌ}، أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، {حَلِيمٌ}، أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدم وأما من تُوُفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه".

و «مدخلا» أي: إدخالا، من أدخل يدخل- بضم الياء- وهو مصدر ميمي للفعل

=

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠).

الْأَمْر {ذَلِكَ الَّذِي} قَصَصْنَاهُ عَلَيْك {وَمَنْ عَاقَبَ} جَازَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} ظُلْمًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَيْ قَاتَلَهُمْ كَمَا قَاتَلُوهُ فِي الشَّهْر الْحَرَام {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ} مِنْهُمْ أَيْ ظُلِمَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَنْزِله {لَيَنْصُرَنهُ الله إنَّ الله لَعَفُوّ} عَنْ الْمُؤْمِنِينَ {غَفُور} لَهُمْ عَنْ قِتَالهمْ فِي الشَّهْر الْحَرَام.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١).

{ذَلِكَ} النَّصْر {بِأَنَّ الله يُولِج اللَّيْل فِي النَّهَار وَيُولِج النَّهَار فِي اللَّيْل} أَيْ يُدْخِل كُلًّا مِنْهُمَا فِي الْآخَر بِأَنْ يَزِيد بِهِ وَذَلِكَ مِنْ أَثَر قُدْرَته تَعَالَى الَّتِي بِهَا النصر {وأن الله سميع} دعاء للمؤمنين {بَصِير} بِهِمْ حَيْثُ جَعَلَ فِيهِمْ الْإِيمَان فَأَجَابَ دعاءهم.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢).

{ذَلِكَ} النَّصْر أَيْضًا {بِأَنَّ الله هُوَ الْحَقّ} الثَّابِت {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ} بِالْيَاءِ

=

الذي قبله، والمفعول محذوف. أى: ليدخلنهم الجنة إدخالا يرضونه.

وقرأ نافع مُدْخَلًا- بفتح الميم- على أنه اسم مكان أريد به الجنة، أى: ليدخلنهم مكانا يرضونه وهو الجنة.

وَإِنَّ اللهَ تعالى لَعَلِيمٌ بالذي يرضيهم، وبالذي يستحقه كل إنسان من خير أو شر حَلِيمٌ فلا يعاجل بالعقوبة، بل يستر ويعفو عن كثير.

وَالتَّاء يَعْبُدُونَ {مِنْ دُونه} وَهُوَ الْأَصْنَام {هُوَ الْبَاطِل} الزَّائِل {وَأَنَّ الله هُوَ الْعَلِيّ} أَيْ الْعَالِي عَلَى كُلّ شَيْء بِقُدْرَتِهِ {الْكَبِير} الَّذِي يَصْغُر كُلّ شيء سواه(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن مقاتل في قوله: {ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)} الآية، قال: نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ، فلقوا المشركون لليلتين بقيتا من المحرم، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد؛ فإنهم يحرّمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة وذكروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم؛ فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوهم وبغوا عليهم؛ فقاتلهم المسلمون ونصروا عليهم؛ فنزلت هذه الآية.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٥١)، و"الدر المنثور" (٦/ ٧١) ونسبه لابن أبي حاتم.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} [الحج: ٦٠]، أي:"ذلك الأمر الذي قصصنا عليك من إدخال المهاجرين الجنة، ومن جازى الظالم بمثل ما ظلمه".

قال مكي: أي:"الأمر ذلك وعن عاقب. وقيل: معناه: هذا لهؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ولهم مع ذلك القضاء على المشركين الذين بغوا عليهم، وآخرجوهم من ديارهم".

قال السعدي: أي:"ذلك بأن من جني عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم".

=

=

قال الألوسي:"أي: من جازى الجاني مثل ما جني به عليه".

قال الحسن:"بمعنى: قاتل المشركين كما قاتلوه".

قال النحاس:"الأول ليس بعقوبة، فسمي الأول باسم الثاني لأنهما من جنس واحد على الازدواج كما يسمى الثاني باسم الأول".

قال الزمخشري:"تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة".

قال يحيى:"يعني: بذلك مشركي العرب أنهم عوقبوا، فقتلهم الله بجحودهم النبي وظلمهم إياه وأصحابه، وبغيهم عليهم".

قوله تعالى: {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ} [الحج: ٦٠]، أي:"ثم اعتدى الظالم عليه ثانيًا لينصرن الله ذلك المظلوم".

قال السعدي: أي:"فإن بغي عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يبغي عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم وجني عليه، فالنصر إليه أقرب".

قال يحيى:"النصر في الدنيا: الظهور على المشركين، والحجة عليهم في الآخرة كقوله: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: ٥١] يوم القيامة".

قال مقاتل:"هذا جزاء من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه، لينصرنه الله".

قال الطبري: أي:"لهذا لهؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله، ثم قُتلوا أو ماتوا، ولهم مع ذلك أيضا أن الله يعدهم النصر على المشركين الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم".

عن ابن جُرَيج: " {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ} قال: هم المشركون بغَوْا

=

=

على النبي ﷺ، فوعده الله أن ينصره..".

عن مقاتل في قوله: " {ذلك ومن عاقب}، الآية، قال: النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم، فلقوا المشركين، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، وأن أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله إن يعرضوا لقتالهم، فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من بادءهم وإن المشركين بدءوا وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم عند ذلك، فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج: ٦٠]، أي:"وإن الله يعفو عن المذنبين فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم".

قال الطبري: يقول:"إن الله لذو عفو وصفح لمن انتصر ممن ظلمه من بعد ما ظلمه الظالم بحقّ، غفور لما فعل ببادئه بالظلم مثل الذي فعل به غير معاقبه عليه".

قال السعدي: " أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها
المظلومون المجني عليهم، أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [الشورى: ٤٠]".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع؟ قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله ﷻ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني- على طريق التنزيه لا التحريم- ومندوب إليه، ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وملك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب، ولم ينظر في قوله تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [الشورى: ٤٠]، {وَأَنْ تَعْفُوا

=

=

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة: ٢٣٧]، {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣]،: فإن {اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج: ٦٠]، أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه. ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي، ويعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوح به بذكر هاتين الصفتين. أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة. لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده".

قال ابن عاشور: اسم الإشارة للفصل بين الكلامين لفتا لأذهان السامعين إلى ما سيجيء من الكلام لأن ما بعده غير صالح لأن يكون خبرا عن اسم الإشارة..

وجملة ومن عاقب إلخ، معطوفة على جملة والذين هاجروا في سبيل الله [الحج: ٥٨] الآية والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقا بقوله تعالى: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير إلى قوله: ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز [الحج: ٣٩- ٤٠]، فإنه قد جاء معترضا في خلال النعي على تكذيب المكذبين وكفرهم النعم، فأكمل الغرض الأول بما فيه من انتقالات، ثم عطف الكلام إلى الغرض الذي جرت منه لمحة فعاد الكلام هنا إلى الوعد بنصر الله القوم المعتدى عليهم كما وعدهم بأن يدخلهم في الآخرة مدخلا يرضونه.

وجيء بإشارة الفصل للتنبيه على أهمية ما بعده ا.هـ

واسم الإشارة ذلك، في قوله تعالى ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ.

يعود إلى ما ذكره سبحانه قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة، ومن الرزق الحسن الذي منحه للمهاجرين في سبيله ثم قتلوا أو ماتوا.

والعقاب: مأخوذ من التعاقب، وهو مجيء الشيء بعد غيره. والمراد به هنا: مجازاة الظالم بمثل ظلمه.

=

=

قال القرطبي: قال مقاتل: نزلت هذه الآية في قوم من مشركي مكة. لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم: فقالوا: إن أصحاب محمد ﷺ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام. فأبى المشركون إلا القتال، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله الآية.

فمعنى مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ أى: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة فهي مثل: وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ا.هـ.

وقوله ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أى: أن الظالم المبتدئ بالظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه.

وقوله لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ وعد مؤكد منه سبحانه بنصرة المظلوم، والجملة جواب قسم محذوف. أى والله لينصرن سبحانه المظلوم على الظالم في الحال أو المآل.

قوله: إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ تعليل للنصرة، وبيان بأن المظلوم عند ما ترك العفو عن الظالم، لا يؤاخذه سبحانه على ذلك، مادام لم يتجاوز في رد العدوان الحدود المشروعة، وهي الانتصار على القصاص بالمثل.

أى: إن الله تعالى لكثير العفو عن عباده، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم.

ثم بين سبحانه أن نصره للمظلوم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شيء، فقال تعالى: ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [الحج: ٦١]، أي:"ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام العادلة هو الحق، وهو القادر على ما يشاء، ومِن قدرته أنه يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار،

=

=

ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل".

قال الطبري: يقول:"هذا النصر الذي أنصره على من بغى عليه على الباغي، لأني القادر على ما أشاء، فمن قُدرته أن الله يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا، ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقص من طول هذا زاد في طول هذا، وبالقُدرة التي تفعل ذلك ينصر محمدا ﷺ وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم".

قال الزمخشري:"{ذلك}، أى: ذلك النصر بسبب أنه قادر. ومن آيات قدرته البالغة أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف، وأنه سميع لما يقولون بصير بما يفعلون. فإن قلت: ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر؟ قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس. وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء السرب بالسراج ويظلم بفقده. وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات".

قال ابن كثير:"معنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف".

عن قتادة قوله: " {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل}، قال: نقصان الليل في زيادة النهار، ونقصان النهار في زيادة الليل".

قال القرظي:"يدخل من ليل الشتاء في نهار الصيف، ويدخل من نهار الصيف في ليالي الشتاء".

=

=

قال مجاهد:"هو أخذ أحدهما من صاحبه".

قال يحيى:"هو آخذ كل واحد منهما من صاحبه".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج: ٦١]، أي:"وأن الله سميع لكل صوت، بصير بكل فعل، لا يخفى عليه شيء".

قال الطبري: " يقول: وفعل ذلك أيضا بأنه ذو سمع لما يقولون من قول؛ لا يخفى عليه منه شيء، بصير بما يعملون، لا يغيب عنه منه شيء، كل ذلك معه بمرأى ومسمع، وهو الحافظ لكل ذلك، حتى يجازى جميعهم على ما قالوا وعملوا من قول وعمل جزاءه".

قال ابن كثير:"أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم".

قال محمد بن إسحاق:"أي: سميع لما يقولون، عليم بما يخفون".

ومعنى: يولج: يدخل. يقال: ولج فلان منزله، إذا دخله.

أى: ذلك الذين فعلناه من نصرة المبغى عليه على الباغي، كائن بسبب أن قدرتنا لا يعجزها شيء، ومن مظاهر ذلك أننا ندخل جزءا من الليل في النهار فيقصر الليل ويزيد النهار، وندخل جزءا من النهار في الليل فيحصل العكس. وأنتم ترون ذلك بأعينكم، وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع.

وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أى: وأن الله تعالى سميع لكل المسموعات، بصير بكل المبصرات، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقوله سبحانه: ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ.. بيان لحقيته- ﷻ للعبادة والطاعة والخضوع التام.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢]، أي:"ذلك بأن الله هو الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأن ما يعبده

=

=

المشركون من دونه من الأصنام والأنداد هو الباطل الذي لا ينفع ولا يضرُّ".

قال الطبري: يقول: " هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل، لأني أنا الحقّ الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ندّ، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلها من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع، يقول لهم تعالى ذكره: أفتتركون أيها الجهال عبادة من منه النفع وبيده الضر وهو القادر على كل شيء وكلّ شيء دونه، وتعبدون الباطل الذي لا تنفعكم عبادته".

قال ابن كثير:"لما بين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ} أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا".

قال الزمخشري:"أى: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول وفعل، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته، وأن كل ما يدعى إلها دونه باطل الدعوة".

قال يحيى:"«الحق»: اسم من أسماء الله".

عن مجاهد، وابن جريج، قوله: " {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}، قال: الشيطان".

قال الحسن: "الأوثان".

وقال قتادة: إبليس".

وقرئ: «ما تدعون»، بالتاء.

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢]، أي:"وأن الله هو العليُّ

=

=

على خلقه ذاتًا وقدرًا وقهرًا، المتعالي عن الأشباه والأنداد، الكبير في ذاته وأسمائه فهو أكبر من كلِّ شيء".

قال الطبري:"يعني بقوله: {العَلِي} : ذو العلو على كل شيء، هو فوق كل شيء وكل شيء دونه. {الكَبِيرُ}، يعني: العظيم، الذي كل شيء دونه ولا شيء أعظم منه".

قال الزمخشري:"وأنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا".

قال يحيى:"لا شيء أكبر منه".

قال السمعاني:"أي: المتعالي المتعظم، ويقال: إن العلي هاهنا ينصرف إلى الدين أي: دينه يعلو الأديان، والكبير صفته تبارك وتعالى".

قال ابن كثير:"فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعَجَلَّ عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا".

واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام.

أي: ذلك الذي تراه- أيها العاقل- في هذا الكون من مخلوقات، ومن نصر للمظلوم، ومن إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل، سببه أن الله تعالى هو الإله الحق الذي يجب أن تعنو له الوجوه. وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

وَأَنَّ اللهَ تعالى وحده هُوَ الْعَلِيُّ أى: العالي على جميع الكائنات بقدرته، وكل شيء دونه الْكَبِيرُ أى: العظيم الذي لا يدانيه في عظمته أحد.

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة، قد وصفت الله تعالى بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال.

=

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء} مَطَرًا {فَتُصْبِح الْأَرْض مُخْضَرَّة} بِالنَّبَاتِ وَهَذَا مِنْ أَثَر قُدْرَته {إِنَّ الله لَطِيف} بِعِبَادِهِ فِي إِخْرَاج النَّبَات بِالْمَاءِ {خَبِير} بِمَا فِي قُلُوبهمْ عِنْد تَأْخِير الْمَطَر.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤).

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} عَلَى جِهَة الْمِلْك {وَإِنَّ الله لَهُوَ الْغَنِيّ} عَنْ عِبَاده {الْحَمِيد} لِأَوْلِيَائِهِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْض} مِنْ الْبَهَائِم {وَالْفُلْك}

=

(تنبيه) قول المصنف {وَأَنَّ الله هُوَ الْعَلِيّ} أَيْ الْعَالِي عَلَى كُلّ شَيْء بِقُدْرَتِهِ. تأويل لصفة العلو.

وتأويل المصنف لصفة العلو، خلاف ما عليه أهل الحق، أهل السنة والجماعة.

وعلو الله تعالى: من صفاته الذاتية، وينقسم إلى قسمين: علو ذات، وعلو صفات

فأما علو الصفات فمعناه: أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى: أعلاها وأكملها سواء كانت من صفات المجد والقهر، أم من صفات الجمال والقدر.

وأما علو الذات فمعناه: أن الله بذاته فوق جميع خلقه، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة. وقد تقدم بيان الحق في صفة العلو تحت الآية رقم (٥) من سورة طه.

السُّفُن {تَجْرِي فِي الْبَحْر} لِلرُّكُوبِ وَالْحَمْل {بِأَمْرِهِ} بِإِذْنِهِ {وَيُمْسِك السَّمَاء} مِنْ {أَنْ} أَوْ لِئَلَّا {تَقَع عَلَى الْأَرْض إلَّا بِإِذْنِهِ} فَتَهْلِكُوا {إنَّ الله بِالنَّاسِ لَرَءُوف رَحِيم} فِي التَّسْخِير وَالْإِمْسَاك.

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦).

{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ} بِالْإِنْشَاءِ {ثُمَّ يُمِيتكُمْ} عِنْد انْتِهَاء آجَالكُمْ {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} عِنْد الْبَعْث {إنَّ الْإِنْسَان} أَيْ الْمُشْرِك {لَكَفُور} لِنِعَمِ الله بِتَرْكِهِ توحيده[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [الحج: ٦٣]، أي:"ألم ترَ -أيها الرسول- أن الله أنزل من السماء مطرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ألم تر} يا محمد، {أن الله أنزل من السماء} مطرا".

قوله تعالى: {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [الحج: ٦٣]، أي:"فتصبح الأرض مخضرة بما ينبت فيها من النبات؟".

قال يحيى:"يعني: نباتها".

قال الطبري:"بما ينبت فيها من النبات".

قال ابن كثير:"«الفاء» -هاهنا- للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال: {خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت في الصحيحين: "أن بين كل شيئين أربعين يوما" ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا هاهنا قال: {فَتُصْبِحُ الأرْضُ مُخْضَرَّةً}، أي: خضراء بعد يبسها ومُحُولها، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [الحج: ٦٣]، أي:"إن الله لطيف بعباده =

=

باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء، خبير بمصالحهم".

قال يحيى:"{لطيف} بخلقه فيما رزقهم، {خبير} بأعمالهم".

قال الطبري:"{لَطِيفٌ} باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء وغير ذلك من ابتداع ما شاء أن يبتدعه، {خَبِيرٌ} بما يحدث عن ذلك النبت من الحب".

قال ابن كثير:"أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦]، وقال: {أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، وقال {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ} الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن أبي الصلت – أو: زيد بن عمرو بن نُفيل – في قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنْبِتُ الحبَّ في الثَّرَى... فَيُصبحَ منْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابيَا؟

ويُخْرجُ منْهُ حَبَّه في رُؤُوسه... فَفي ذَاك آيات لمَنْ كَانَ وَاعيا".

والآية فيهاحث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على وحدانيته، وكماله.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة....

وذكروا في قوله: ألم تر وجوها ثلاثة: أحدها: أن المراد هو الرؤية الحقيقية، قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا

=

=

أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى وثانيها: أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام، وثالثها: المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف لأن الماء وإن كان مرئيا إلا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم، لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم، لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل ا.هـ

والاستفهام في قوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً.. للتقرير.

وقوله: مُخْضَرَّةً أى: ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبته الله فيها بعد نزول المطر عليها.

والمعنى: لقد رأيت ببصرك وعلمت ببصيرتك أيها المخاطب أن الله تعالى قد أنزل من السماء ماء، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة، وفي ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته، وعظيم رحمته بعباده.

وقال سبحانه فَتُصْبِحُ بصيغة المضارع، لاستحضار صورة الاخضرار، الذي اتصفت به الأرض بعد نزول المطر عليها، وصيغة الماضي لا تفيد دوام استحضارها، لأن الفعل الماضي يفيد انقطاع الشيء.

ولم ينصب هذا الفعل المضارع في جواب الاستفهام، لأن الاستفهام تقريرى فهو في معنى الخبر، والخبر لا جواب له، فكأنه قيل: لقد رأيت، ولأن السببية هنا غير متحققة، إذ الرؤية لا يتسبب عنها اخضرار الأرض، وإنما اخضرارها يكون بسبب نزول المطر.

وقد أشار الزمخشري إلى ذلك فقال: فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟.

قلت: لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ

=

=

فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرا له. ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع. فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟.

قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار. مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر. إن نصبته فأنت ناف لشكره. شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله. ا.هـ.

وقال بعض العلماء ما ملخصه: فإن قيل: كيف قال فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر.

فالجواب: أن تصبح هنا بمعنى تصير، والعرب تقول: فلان أصبح غنيا، أى: صار غنيا، أو أن الفاء للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا ... مع أن بين كل شيئين أربعين يوما، كما جاء في الحديث الصحيح...

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ أى: إن الله تعالى لطيف بعباده.

ومن مظاهر لطفه بهم، إنزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبته من كل زوج بهيج، وهو تعالى خبير بأحوال عباده، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من هذه الأحوال.

فإنه سبحانه لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا وتصرفا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ عن كل ما سواه الْحَمِيدُ أى: المستوجب للحمد من كل خلقه.

قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الحج: ٦٤]، أي:"لله سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وعبودية، كلٌّ محتاج إلى تدبيره وإفضاله".

=

=

قال الطبري:"يقول: له مُلك ما في السموات وما في الأرض من شيء هم عبيده ومماليكه وخلقه، لا شريك له في ذلك، ولا في شيء منه".

عن ابن عباس:"قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحج: ٦٤]، أي:"وإن الله لهو الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، المحمود في كل حال".

قال مقاتل:"{الغني} من عبادة خلقه، {الحميد} عند خلقه في سلطانه".

قال يحيى:"{الغني} عن خلقه، {الحميد} المستحمد إلى خلقه، استوجب عليهم أن يحمدوه".

قال الطبري:"وإن الله هو الغنيّ عن كل ما في السموات وما في الأرض من خلقه وهم المحتاجون إليه، الحميد عند عباده في إفضاله عليهم وأياديه عندهم".

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... بيان لألوان أخرى من النعم التي أنعم بها على بنى آدم.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ} [الحج: ٦٥]، أي:"ألم تر أن الله تعالى ذلَّل لكم ما في الأرض من الدواب والبهائم والزروع والثمار والجماد لركوبكم وطعامكم وكل منافعكم".

قال يحيى:"خلق لكم ما في الأرض".

قال الطبري:"يقول: ألم تر أن الله سخر لكم أيها الناس ما في الأرض من الدّوابّ والبهائم، فذلك كله لكم تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم".

قال ابن كثير:"أي: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا

=

=

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية: ١٣] أي: من إحسانه وفضله وامتنانه".

قوله تعالى: {وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [الحج: ٦٥]، أي:"ذلَّل لكم السفن تجري في البحر بقدرته وأمره فتحملكم مع أمتعتكم إلى حيث تشاؤون من البلاد والأماكن".

عن عطاء الخراساني، قال: {الفلك}: السفن".

قال الطبري:"يقول: وسخر لكم السفن تجري في البحر بأمره، يعني بقُدرته، وتذليله إياها لكم كذلك".

قال ابن كثير:"أي: بتسخيره وتسييره، أي: في البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه".

قوله تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥]، أي:"وهو الذي يمسك السماء فيحفظها؛ حتى لا تقع على الأرض فيهلك مَن عليها إلا بإذنه سبحانه بذلك؟".

قال مقاتل:"وحبس عنهم السماء فلا تقع عليهم فيهلكوا".

قال يحيى:"يعني: لئلا تقع على الأرض".

قال الطبري:"يقول: ويمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض إلا بإذنه".

قال ابن كثير:"أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحج: ٦٥]، أي:"إن الله ليرحم

=

=

الناس رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم ومن رحمته به ما سخره لهم من هذه الأشياء وغيرها؛ تفضلا منه عليهم".

قال الطبري:"بمعنى: أنه بهم لذو رأفة ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تفضلا منه عليكم بذلك".

قال ابن كثير:"أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦]".

أى: لقد علمت- أيضا- أيها العاقل، أن الله تعالى سخر لكم يا بنى آدم- ما في الأرض من دواب وشجر وأنهار، وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم، وسخر لمنفعتكم السفن التي تجرى في البحر بتقديره وإرادته وإذنه.

وهو سبحانه الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض، فتهلك من فيها، ولو شاء لأذن لها في الوقوع فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها.

قال الجمل: وقوله: إِلَّا بِإِذْنِهِ: الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو لا يقع إلا في الكلام الموجب إلا أن قوله: وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ في قوة النفي. أى: لا يتركها تقع في حالة من الأحوال إلا في حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله تعالى فالباء للملابسة ا.هـ.

وقوله سبحانه: إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أى: لكثير الرأفة والرحمة بهم، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما في الأرض وسخر لهم الفلك، وأمسك السماء عنهم، ولم يسقطها عليهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا.

ثم ختم سبحانه هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال: وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ أى:

=

=

بعد أن كنتم أمواتا في بطون أمهاتكم، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم. ثُمَّ يُمِيتُكُمْ أى: بعد انقضاء آجالكم في هذه الحياة ثُمَّ يُحْيِيكُمْ أى: عند البعث والحساب.

إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ أى: لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التي لا تحصى.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ} [الحج: ٦٦]، أي:"وهو الله تعالى الذي أحياكم بأن أوجدكم من العدم".

قال يحيى:"من النطف".

قال مقاتل:"يعني: خلقكم ولم تكونوا شيئا".

قال ابن كثير:"أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يذكر، فأوجدكم".

قال الطبري:"يقول: والله الذي أنعم عليكم هذه النعم، هو الذي جعل لكم أجساما أحياء بحياة أحدثها فيكم، ولم تكونوا شيئا".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} [الحج: ٦٦]، أي:"ثم يميتكم عند انقضاء أعماركم".

قال مقاتل:"عند آجالكم".

قال الطبري:"بعد حياتكم فيفنيكم عند مجيء آجالكم".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [الحج: ٦٦]، أي:"ثم يحييكم بالبعث لمحاسبتكم على أعمالكم".

قال مقاتل:"بعد موتكم في الآخرة".

قال الطبري:"بعد مماتكم عند بعثكم لقيام الساعة".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة".

قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [الحج: ٦٦]، أي:"إن الإنسان لَجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته".

قال مقاتل:"لنعم الله ﷻ في حسن خلقه حين لا يوحده".

=

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧).

{لِكُلِّ أُمَّة جَعَلْنَا مَنْسَكًا} بِفَتْحِ السِّين وَكَسْرهَا شَرِيعَة {هُمْ نَاسِكُوهُ} عَامِلُونَ بِهِ {فَلَا يُنَازِعُنَّك} يُرَاد بِهِ لَا تُنَازِعهُمْ {فِي الْأَمْر} أَيْ أَمْر الذَّبِيحَة إذْ قَالُوا مَا قَتَلَ الله أَحَقّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ {وَادْعُ إلَى رَبّك} إلَى دِينه {إنَّك لَعَلَى هُدًى} دِين مستقيم.

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨).

{وَإِنْ جَادَلُوك} فِي أَمْر الدِّين {فَقُلْ الله أَعْلَم بِمَا تَعْمَلُونَ} فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ وَهَذَا قَبْل الأمر بالقتال.

اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩).

{الله يَحْكُم بَيْنكُمْ} أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ {يَوْم الْقِيَامَة فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} بِأَنْ يَقُول كُلّ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ خِلَاف قَوْل الْآخَر.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

=

قال ابن كثير: "أي: جحود".

قال الطبري: "يقول: إن ابن آدم لجحود لنعم الله التي أنعم بها عليه من حُسن خلقه إياه، وتسخيره له ما سخر مما في الأرض والبرّ والبحر، وتركه إهلاكه بإمساكه السماء أن تقع على الأرض بعبادته غيره من الآلهة والأنداد، وتركه إفراده بالعبادة وإخلاص التوحيد له".

عن الحسن قوله: " {إن الإنسان لكفور}، قال: بعد المصيبات، وينسى النعم".

قال مجاهد: "كل شيء في القرآن: {إن الإنسان لكفور}، يعني: به الكفار".

اللهِ يَسِيرٌ (٧٠).

{أَلَـمْ تَعْلَـم} الِاسْتِفْهَام فِيـهِ لِلتَّقْرِيـرِ {أَنَّ الله يعلـم مـا في السماء وَالْأَرْض إنَّ ذَلِكَ} أَيْ مَا ذُكِرَ {فِي كِتَاب} هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ {إنَّ ذَلِكَ} أَيْ عِلْـم مَـا ذُكِـرَ {عَلَى الله يَسِير} سَهْل[1].

---

(١) قوله تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} [الحج: ٦٧]، أي:"لكل أمة من الأمم الماضية جعلنا شريعة وعبادة أمرناهم بها، فهم عاملون بها".

قال الطبري:"يقول: لكل جماعة قوم هي خلت من قبلك، جعلنا مألفا يألفونه ومكانا يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملا يلزمونه. وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شرّ؛ يقال: إن لفلان منسكا يعتاده: يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وإنما سميت مناسك الحجّ بذلك، لتردّد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة".

عن أبي المليح قال: الأمة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعدا".

وفي قوله تعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ} [الحج: ٦٧]، وجوه:

أحدها: أن «المنسك»: العيد، قاله ابن عباس، وبه قال ابن قتيبة.

الثاني: معناه: ذبح يذبحونه، ودم يهريقونه، قاله مجاهد، وقتادة، وعكرمة، ومقاتل.

قال مجاهد:"إهراق دماء الهدي".

قال قتادة:"ذبحا وحجا".

وروي عن ابن عباس، قوله:"{هم ناسكوه}، يعني: هم ذابحوه".

الثالث: أنها المواضع المعتادة لمناسك الحج والعمرة، قاله الفراء.

الرابع: إنه مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها. قاله زيد بم أسلم.

الخامس: المنسك الْمُتَعَبد والنسك العِبَادَة ومنه سمي العَابِدُ ناسكًا، قاله الحسن.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام =

=

النحر بمِنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام. غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك فإنما هي هدايا أو ضحايا".

قوله تعالى: {فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ} [الحج: ٦٧]، أي:"فلا ينازعنك -أيها الرسول- مشركو قريش في شريعتك، وما أمرك الله به في المناسك وأنواع العبادات كلها".

قال ابن عباس:"يعني: في أمر الذبائح".

قال قتادة:"فلا تتحام لحمك".

قال مقاتل:"يعني: في أمر الذبائح، فإنك أولى بالأمر منهم «أى: من كفار خزاعة وغيرهم»".

قال يحيى:"أي: لا يحولنك المشركون عن هذا الدين الذي انت عليه، يقوله للنبي".

قال الطبري: يقول:"فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتقولون ما قتلتم، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فأنك أولى بالحقّ منهم، لأنك محقّ وهم مبطلون".

قال الزجاج:"أي: لا يجادلنك فيه، ومعناه: لا تنازعهم، والدليل عنى أن المعنى لا يجادلنك ولا تجادلنهم قوله: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحج: ٦٨]، هذا قبل القتال.

قال الزجاج: فإن قال قائل: فهم قد جادلوه فلم قيل: {فلا ينازعنك في الأمر}، وهم قد نازعوه؟ فالمعنى أنه نهي له - ﷺ - عن منازعتهم كما يقول: لا يخاصمنك فلان في هذا أبدا، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين لأن

=

=

المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا قلت لا يجادلنك فلان فهو بمنزلة لا تجادلنه، ولا يجوز هذا في قوله: لا يضربنك فلان، وأنت تريد لا تضربه".

قال الزمخشري:"هو نهى لرسول الله ﷺ، أى: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك. أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله ﷺ بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة. روى أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله! يعنون الميتة".

وقرئ: «فلا ينزعنك»، أى: اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه. والمراد: زيادة التثبيت للنبي ﷺ بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه.

قوله تعالى: {وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ} [الحج: ٦٧]، أي:"وادع إلى توحيد ربك وإخلاص العبادة له واتباع أمره".

قال مقاتل بن حيان:"يعني: إلى دين ربك".

قال مقاتل:"يعني: إلى معرفة ربك وهو التوحيد".

قال يحيى:"أي: إلى الإخلاص له".

قال الطبري: يقول:"وادع يا محمد منازعيك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك وبعد التصديق بما جئْتهم به من عند الله، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان وتبرّءوا منها".

عن جابر، عن النبي -عليه الصلاة والسّلام- قال: «أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله».

قوله تعالى: {إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٦٧]، أي:"إنك لعلى دين قويم، لا اعوجاج فيه".

=

=

قال مقاتل بن حيان:"دين مستقيم".

قال مقاتل:"يعني: لعلى دين مستقيم".

قال الطبري: يقول:"إنك لعلى طريق مستقيم غير زائل عن محجة الحقّ والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك، وهم الضلال على قصد السبيل، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم وعبادتهم الآلهة".

قال ابن كثير:"أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود".

يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة {مَنْسَكًا} أي: معبدا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة.

قال الآلوسى: قوله تعالى: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكًا هُمْ ناسِكُوهُ ... كلام مستأنف جيء به لزجر معاصريه ﷺ من أهل الأديان السماوية عن منازعته، ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع، وإظهار خطئهم ا.هـ.

قال ابن عاشور: هذا متصل في المعنى بقوله: ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما

رزقهم

[الحج: ٣٤] الآية. وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله: وبشر المحسنين إن الله يدافع عن الذين آمنوا [الحج: ٣٧- ٣٨] إلى هنا، فعاد الكلام إلى الغرض الذي في قوله: ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله [الحج: ٣٤] الآية ليبنى عليه قوله: فلا ينازعنك في الأمر. فهذا استدلال على توحيد الله تعالى بما سبق من الشرائع لقصد إبطال تعدد الآلهة، بأن الله ما جعل لأهل كل ملة سبقت إلا منسكا واحدا يتقربون فيه إلى الله لأن المتقرب إليه واحد. وقد جعل المشركون مناسك كثيرة فلكل صنم بيت يذبح فيه مثل الغبغب للعزى، قال النابغة: وما هريق على الأنصاب من جسد ...

=

=

(أي دم). وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا [الحج: ٣٤] كما تقدم آنفا.

فالجملة استئناف. والمناسبة ظاهرة ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف كما عطفت نظيرتها المتقدمة ا.هـ

والمراد بالأمة هنا: القوم الذين يدينون بشريعة معينة. والمراد بالمنسك المنهج والشريعة التي يتبعونها في عقيدتهم وفي معاملاتهم ...

أى: شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة منهجا يسيرون عليه في اعتقادهم وفي طريقة حياتهم، فالأمة التي وجدت من مبعث موسى الى مبعث عيسى- عليهما السلام شريعتها التوراة، والأمة التي وجدت من مبعث عيسى حتى مبعث محمد ﷺ شريعتها الإنجيل، والأمة التي وجدت منذ مبعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة شريعتها القرآن.

وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد ﷺ أن تتبعه فيما جاء به من عند ربه، لأن شريعته هي الشريعة الناسخة لما قبلها، والمهيمنة عليها.

ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا: المكان الذي يذبحون فيه ذبائحهم تقربا إلى الله تعالى.

وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه: وأصل المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر. يقال: إن لفلان منسكا يعتاده، يراد مكانا يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل في معنى المنسك هنا، فقيل: عيد، وقيل: إراقة الدم.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام ... ولذلك قلنا: عنى بالمنسك

=

=

في هذا الموضع: الذبح.. ا.هـ.

والضمير في قوله: هُمْ ناسِكُوهُ يعود لكل أمة.

أى: جعلنا لكل أمة شريعة تسير على تعاليمها، وتنهج على نهجها..

والفاء في قوله تعالى: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ لترتيب النهى على ما قبلها.

والمنازعة: المجادلة والمخاصمة. والمراد بالأمر: ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه تعالى من تشريعات وأحكام.

أى: قد جعلنا لكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها، وما دام الأمر كذلك، فاسلك أنت وأتباعك- أيها الرسول الكريم- الشريعة التي أوحيناها إليك، وأمرناك باتباعها، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك في ذلك من اليهود أو النصارى أو غيرهم، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك، يدل على جهلهم وسوء تفكيرهم، لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم، ومهيمن عليها وناسخ لها.

قال السعدي: {فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمْرِ} أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به، بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: " تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله " وكقولهم {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالاقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك {على هُدًى مُسْتَقِيمٍ} ... ا.هـ

=

=

ثم أرشده سبحانه إلى ما يجب عليه نحو دينه فقال: وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ.

أى: وادع هؤلاء الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق، وأدع غيرهم معهم إلى ترك التنازع والتخاصم، وإلى الدخول في دين الإسلام: فإنك أنت على الصراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا التباس.

ثم بين له سبحانه ما يفعله إذا ما لجّوا في منازعتهم له فقال: وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الأولى: قوله تعالى: {وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون} . اختلفوا في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت قبل الأمر بالقتال ثم نسخت بآية السيف.

والثاني: أنها نزلت في حق المنافقين كانت تظهر منهم فلتات ثم يجادلون عليها فأمر أن يكل أمورهم إلى الله تعالى، فالآية على هذا محكمة. ا.هـ

ولم يتعرض الطبري وابن كثير للنسخ في هذه الآية بل فسراها بما يؤيد الإحكام.

قوله تعالى: {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨)} [الحج: ٦٨]

قال مقاتل:"وإن جادلوك في أمر الذبائح يعني هؤلاء النفر {فقل الله أعلم بما تعملون} وبما نعمل، وذلك حين اختلفوا في أمر الذبائح".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن جادلك يا محمد هؤلاء المشركون بالله في نسكك، فقل: الله أعلم بما تعملون ونعمل".

عن مجاهد: " {وَإِنْ جَادَلُوكَ} ، قال: قول أهل الشرك: أما ما ذبح الله بيمينه {فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم".

قال ابن كثير:"قوله: {اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأحقاف: ٨]".

=

=

حكم الآية الكريمة:

وفي حكم الآية قولان:

أحدهما: أنها نزلت قبل الأمر بالقتال ثم نسخت بآية السيف. ذكره هبة الله.

والثاني: أنها نزلت في حق المنافقين كانت تظهر منهم فلتات ثم يجادلون عليها فأمر أن يكل أمورهم إلى الله تعالى، فالآية على هذا محكمة. ذكره ابن الجوزي.

أى: وإن أبوا إلا مجادلتك بعد أن ظهر الحق، ولزمتهم الحجة، فقل لهم- أيها الرسول الكريم- أمرى وأمركم إلى الله تعالى، فهو الذي يتولى الحكم بيني وبينكم يوم القيامة، لأنه سبحانه هو العليم بحالي وحالكم.

وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم في جدالهم بعد أن تبين لهم الحق، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول ﷺ عنهم.

ثم أكد سبحانه هذا التهديد والإعراض فقال: اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ في الدنيا تَخْتَلِفُونَ من أمرنا هذا الدين، وحينئذ يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل، وسيجازى سبحانه كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى: {اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)} [الحج: ٦٩]

قال الطبري:"والله يقضي بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه من أمر دينكم تختلفون، فتعلمون حينئذ أيها المشركون المحقّ من المبطل".

قال مقاتل:"يعني: يقضي بينكم، نسختها آية السيف".

قال يحيى:"يقوله للمشركين، يعني: ما اختلف فيه المؤمنون والكافرون فيكون حكمه فيهم أن يدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار".

قال الثعلبي: أي:"فتعرفون حينئذ المحق من المبطل والاختلاف ذهاب كل واحد

=

=

من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهذا أدب حسن علم الله سبحانه فيمن جادل على سبيل التعنت والمراء كفعل السفهاء أن لا يجادل ولا يناظر، ويدفع بهذا القول الذي علمه الله سبحانه لنبيه -عليه السلام-".

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بتأكيد علمه بكل شيء فقال: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ...

قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحج: ٧٠]، أي:"لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم".

قال يحيى:"أي: قد علمت أن الله يعلم ما في السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كلّ ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة، على علم منه بجميع ما عملوه في الدنيا، فمجازي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها".

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} [الحج: ٧٠]، أي:"إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن علمه بذلك في كتاب، وهو أم الكتاب الذي كتب فيه ربنا جلّ ثناؤه قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة".

قال ابن كثير:"وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ".

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل

=

=
خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء".
وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة".
عن عبدة بن أبي لبابة، قال: "علم الله ما هو خالق وما الخلق عاملون، ثم كتبه، ثم قال لنبيه: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}".
عن أرطأة بن المنذر، قال: "سمعت ضمرة بن حبيب يقول: إن الله كان على عرشه على الماء، وخلق السموات والأرض بالحقّ، وخلق القلم فكتب به ما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام، قبل أن يبدأ شيئا من الخلق".
عن ابن عباس، "أنه سأل كعب الأحبار عن «أمّ الكتاب»، فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابا".
قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠]، أي:"إن ذلك العلم أمر سهل على الله، الذي لا يعجزه شيء".
وفي قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠]، وجهان:
أحدهما: معناه: إن الحكم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على الله يسير. قاله ابن جريج.
الثاني: معناه: أن كتاب القلم الذي أمره الله أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن على الله يسير يعني هين. حكاه الطبري.
قال الطبري:"القول الثاني أولى بتأويل ذلك، وذلك أن قوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}... إلى قوله: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} أقرب وهو له مجاور، ومن قوله: {اللهُ
=

=

يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متباعد مع دخول قوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} بينهما، فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وجد للكلام، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح".

قال ابن عباس:"خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب: قال: ما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}، يعني: ما في السموات السبع والأرضين السبع، {إن ذلك} العلم {في كتاب}، يعني: في اللوح المحفوظ مكتوب قبل إن يخلق السموات والأرضين، {إن ذلك على الله يسير}، يعني: هين".

قال ابن كثير:"وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضًا، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}".

أى: لقد علمت- أيها الرسول الكريم- وتيقنت، أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة مما يحصل في السموات والأرض من أقوال أو أفعال.

إِنَّ ذلِكَ الذي يجرى في السموات والأرض كائن وثابت فِي كِتابٍ هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق.

إِنَّ ذلِكَ الذي ذكرناه لك من الحكم بين الناس، ومن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم عَلَى اللهِ تعالى يَسِيرٌ وهين، لأنه سبحانه له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

=

=

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة [الحج: ٦٩] أتبعه بما به يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله: ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ألم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى.

المسألة الثانية: الخطاب مع الرسول ﷺ والمراد سائر العباد ولأن الرسالة لا تثبت إلا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات إذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق، فحينئذ لا يكون إظهار المعجز دليلا على الصدق، وإذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالما بذلك. فثبت أن المراد أن يكون خطابا مع الغير.

أما قوله: إن ذلك في كتاب ففيه قولان: أحدهما: وهو قول أبي مسلم أن معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة أكتبها إذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها، ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به، فالمراد من قوله: إن ذلك في كتاب أنه محفوظ عنده والتالي وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السموات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى، لأن القول الأول وإن كان صحيحا نظرا إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى. فإن قيل فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب وأيضا فأي فائدة في ذلك الكتاب والجواب عن الأول: أن كتبه تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غني في علمه عن ذلك

=

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١).

{وَيَعْبُدُونَ} أَيْ الْمُشْرِكُونَ {مِنْ دُون الله مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ} هُوَ الْأَصْنَام {سُلْطَانًا} حُجَّة {وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْم} أَنَّهَا آلِهَة {وَمَا لِلظَّالِمِينَ} بِالْإِشْرَاكِ {مِنْ نَصِير} يَمْنَع عَنْهُمْ عذاب الله.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا} مِنْ الْقُرْآن {بَيِّنَات} ظَاهِرَات حَال {تَعْرِف فِي وُجُوه الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَر} أَيْ الْإِنْكَار لَهَا أَيْ أَثَره مِنْ الْكَرَاهَة وَالْعُبُوس {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتنَا} أَيْ يَقَعُونَ فِيهِمْ بِالْبَطْشِ {قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ} بِأَكْرَه إلَيْكُمْ مِنْ الْقُرْآن الْمَتْلُوّ عَلَيْكُمْ هُوَ {النَّار وَعَدَهَا الله الَّذِينَ كفروا} بأن مصيرهم إليها {وبئس المصير} هي[1].

=

الكتاب وعن الثاني: أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات.

(١) قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ} [الحج: ٧١]، أي:"ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه ما لم ينزل بجواز عبادته حجة وبرهانا من السماء فى كتاب من كتبه التي أنزلها

إلى رسله وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بغير حجة ولا برهان".

=

=

قال الطبري: يقول:"ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه ما لم ينزل به جلّ ثناؤه لهم حجة من السماء في كتاب من كتبه التي أنزلها إلى رسله، بأنها آلهة تصلح عبادتها، فيعبدوها بأن الله أذن لهم في عبادتها، وما ليس لهم به علم أنها آلهة".

قال الزجاج:"أي: ما لم ينزل به حجة وما ليس لهم به علم".

قال الزمخشري: أي:"ويعبدون ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحى والسمع، ولا ألجأهم إليها علم ضروري، ولا حملهم عليها دليل عقلى".

قال يحيى:"{سلطانا}: حجة بعبادتهم، {وما ليس لهم به علم} أن الأوثان خلقت مع الله شيئا ولا رزقت معه شيئا".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: {مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ} أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم".

قوله تعالى: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [الحج: ٧١]، أي:"وليس للظالمين من ينصرهم يوم القيامة فينقذهم من عذاب الله ويدفع عنهم عقابه إذا أراد ذلك".

قال مقاتل:"يقول: وما للمشركين من مانع من العذاب".

قال الطبري:"يقول: وما للكافرين بالله الذين يعبدون هذه الأوثان من ناصر ينصرهم يوم القيامة، فينقذهم من عذاب الله ويدفع عنهم عقابه إذا أراد عقابهم".

قال الزمخشري: أي:"وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال".

يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو -في نفس الأمر- له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطانا، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه.

ومعنى الآية الأولى: أن هؤلاء المشركين الذين ينازعونك فيما جئتهم به من عند ربك، يتركون ما تدعوهم إليه- أيها الرسول الكريم- من إخلاص للعبادة لله تعالى ويعبدون من دونه سبحانه آلهة أخرى لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل.

إذ قوله سبحانه: ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا نفى لأن يكون لهم دليل سمعي على عبادتها وقوله تعالى: وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ نفى لأن يكون لهم دليل عقلي على عبادتها.

والتنكير في قوله: «سلطانا، وعلم» للتقليل. أى: لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع، ولا من جهة العقل، ومع ذلك يتمسكون بهذه العبادة الباطلة.

وقوله تعالى: وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ تهديد بسوء المصير لهؤلاء المشركين.

أى: وما للظالمين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله تعالى، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة.

ثم بين سبحانه أنهم بجانب ضلالهم، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما نصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ، يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا ...

=

قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [الحج: ٧٢]، أي:"وإذا تتلى آيات القرآن الواضحة على هؤلاء المشركين".

قال الطبري: يقول: " وإذا تُتلى على مشركي قريش العابدين من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، آيات القرآن واضحات حججها وأدلتها فيما أنزلت فيه".

قال ابن كثير:"أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق".

قوله تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ} [الحج: ٧٢]، أي:"ترى الكراهة ظاهرة على وجوه المشركين".

قال الطبري: يقول: " تتبين في وجوههم ما ينكره أهل الإيمان بالله من تغيرها، لسماعهم بالقرآن".

قال الزمخشري:"«المنكر»: الفظيع من التجهم والبسور،أو الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام".

قال القشيري:"لسماع الخطاب أثر في القلوب من الاستبشار والبهجة، أو الإنكار والوحشة، ثم ما تخامره السرائر يلوح على الأسرة فى الظاهر فكانت الآيات عند نزولها إذا تليت على الكفار يلوح على رجوههم دخان ما تنطوى عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب، فما كان يقع عليهم طرف إلا نبأ عن جحودهم، وعادت إلى القلوب النبوءة عن إقلاعهم".

قوله تعالى: {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [الحج: ٧٢]، أي:"يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يدعونهم إلى الله تعالى، ويتلون عليهم آياته".

قال الطبري: " يقول: يكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آيات كتاب الله من أصحاب النبي ﷺ، لشدّة تكرّههم أن يسمعوا القرآن ويتلى عليهم".

=

قال الواحدي: اي:"يكادون يبسطون إليهم أيديهم بالسوء".

قال ابن كثير:"أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء!".

قال الضحاك:"يقول: يكادون يأخذونهم بأيديهم أخذا".

قال ابن عباس:"يقول: يقعون بمن ذكرهم".

قال مجاهد:"يكادون يقعون بهم".

عن ابن عباس، قوله: " {يَكَادُونَ يَسْطُونَ}، يقول: يبطشون". وفي رواية:"يبطئون".

عن مجاهد، قوله: " {يَكَادُونَ يَسْطُونَ}، قال: يبطشون كفار قريش".

قوله تعالى: {قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ} [الحج: ٧٢]، أي:"قل لهم -أيها الرسول-: أفلا أخبركم بما هو أشد كراهة إليكم من سماع الحق ورؤية الداعين إليه؟".

قال الطبري:"يقول: أفأنبئكم أيها المشركون بأكره إليكم من هؤلاء الذين تتكرّهون قراءتهم القرآن عليكم".

وقال يحيى:"يعني: بشر من قتل أنبيائهم".

قوله تعالى: {النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحج: ٧٢]، أي:"النار أعدَّها الله للكافرين في الآخرة".

قال الطبري: يقول:"هي {النَّارُ}، وعدها الله الذين كفروا، وقد ذُكر عن بعضهم أنه كان يقول: إن المشركين قالوا: والله إن محمدا وأصحابه لشرّ خلق الله! فقال الله لهم: قل أفأنبئكم أيها القائلون هذا القول بشر من محمد ﷺ، أنتم أيها المشركون الذين وعدهم الله النار".

قال ابن كثير:"أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به

=

=

أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم".

وقال يحيى:"في تفسير الحسن: هي شر مما صنعوا بأنبيائهم، من قتلهم أنبياءهم أنهم يخلدون في النار أبدا".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحج: ٧٢]، أي:"وبئس النار موئلا ومقاما لهؤلاء المشركين بالله".

قال الطبري:"يقول: وبئس المكان الذي يصير إليه هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: ٦٦]".

وقوله يَسْطُونَ من السطو، بمعنى الوثب والبطش بالغير. يقال: سطا فلان على فلان، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك.

أى: وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، من قبل عبادنا المؤمنين تَعْرِفُ- أيها الرسول الكريم- فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بهذه الآيات البينات الْمُنْكَرَ أى: ترى في وجوههم الإنكار لها، والغضب منها ومن قارئها، والكراهية والعبوس عند سماعها.

بل ويكادون فوق ذلك، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا، ويعتدون عليهم بالسب تارة، وبالضرب تارة أخرى.

وذلك لأن هؤلاء الظالمين، حين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجئوا إلى السطو والعدوان، وهذا شأن الطغاة الجاهلين في كل زمان ومكان.

قال الرازي: أما قوله تعالى: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعني من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن، ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان

=

=

الأحكام، فبين أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب، قال صاحب «الكشاف» المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله، وللمفسرين في المنكر عبارات: أحدها: قال الكلبي تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن ثانيها: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: التجبر والترفع وثالثها: قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى.

أما قوله تعالى: يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج: السطو شدة البطش والوثوب، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لإنكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال: قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب «الكشاف» قوله: من ذلكم أي من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم، فقوله: من ذلكم فيه وجهان: أحدهما: المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم والثاني: أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها، وأما النار فقال صاحب «الكشاف» قرئ النار بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ما شر من ذلك؟ فقيل النار أي هو النار. وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر. ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير، قال صاحب «الكشاف» وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ا.هـ

وقال القاسمي: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات أي حال كونها واضحة الدلالة على

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣).

{يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {ضُرِبَ مَثَل فَاسْتَمِعُوا لَهُ} وَهُوَ {إِنَّ الَّذِينَ

=

حقيقتها وما تضمنته تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر أي الإنكار أو الفظيع من التهجم والبسور. أو الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا أي يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب. قال في (فتح البيان): وكذلك أهل البدع المضلة، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليه، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة، مخالفا لما اعتقده من الباطل، رأيت في وجهه من المنكر، ما لو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به ما لا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق قل أفأنبئكم بشر من ذلكم، النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ا.هـ

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال: قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد ألما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته، ومن همكم بالسطو عليه؟.

أشد من كل ذلك النَّارُ التي وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى: وعدهم بدخولها، وبالاصطلاء بسعيرها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ مصير هؤلاء الكافرين.

قال الجمل: وقوله: النَّارُ خبر مبتدأ محذوف، كأن سائلا سأل فقال: وما الأشر؟ فقيل: النار، أى: هو النار. وحينئذ فالوقف على ذلكم، أو على النار.

ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ، والخبر: وعدها الله. وعلى هذا فالوقف على: كفروا..

تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره وَهُمْ الْأَصْنَام {لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا} اسْم جِنْس وَاحِده ذُبَابَة يَقَع عَلَى الْمُذَكَّر وَالْمُؤَنَّث {وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} لِخَلْقِهِ {وَإِنْ يَسْلُبهُمْ الذُّبَاب شَيْئًا} مِمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ الطِّيب وَالزَّعْفَرَان الْمُلَطَّخِينَ بِهِ {لَا يَسْتَنْقِذُوهُ} لَا يَسْتَرِدُّوهُ {مِنْهُ} لِعَجْزِهِمْ فَكَيْفَ يَعْبُدُونَ شُرَكَاء الله تعالى هذا أَمْر مُسْتَغْرَب عَبَّرَ عَنْهُ بِضَرْبِ مَثَل {ضَعُفَ الطَّالِب} الْعَابِد {وَالْمَطْلُوب} الْمَعْبُود.

مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤).

{مَا قَدَرُوا الله} عَظَّمُوهُ {حَقّ قَدْره} عَظَمَته إذْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يَمْتَنِع مِنْ الذُّبَاب وَلَا يَنْتَصِف مِنْهُ {إنَّ الله لَقَوِيّ عزيز} غالب.

اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥).

{الله يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَة رُسُلًا وَمِنْ النَّاس} رسلا نزل لَمَّا قَالَ الْمُشْرِكُونَ {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْر مِنْ بَيْننَا} {إنَّ الله سَمِيع} لِمَقَالَتِهِمْ {بَصِير} بِمَنْ يَتَّخِذهُ رَسُولًا كَجِبْرِيل وَمِيكَائِيلَ وَإِبْرَاهِيم وَمُحَمَّد وَغَيْرهمْ ﷺ.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦).

{يَعْلَم مَا بَيْن أَيْدِيهمْ وَمَا خَلْفهمْ} أَيْ مَا قَدَّمُوا وَمَا خَلَّفُوا وَمَا عَمِلُوا وَمَا هم عاملون بعد {وإلى الله ترجع الأمور[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} [الحج: ٧٣]، أي:"يا أيها الناس ضُرِب مثل فاستمعوا له وتدبروه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ} أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، {فَاسْتَمِعُوا لَهُ} أي: أنصتوا وتفهموا".

قال السعدي:"هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، =

=

والكافرون تقوم عليهم الحجة، {ضرب مثل فاستمعوا له}، أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية، وأسماعا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع".

قال البغوي:"معنى {ضرب}: جعل، كقولهم: ضرب السلطان البعث على الناس، وضرب الجزية على أهل الذمة، أي جعل ذلك عليهم. ومعنى الآية: جعل لي شبه، وشبه بي الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها ومعنى {فاستمعوا له} أي: فاستمعوا حالها وصفتها".

قال الزمخشري:"فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل، فكيف سماه مثلا؟ قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلا، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} [الحج: ٧٣]، أي:"إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله".

قال السدي:"يعني: الصنم لا يخلق ذبابا".

قال الزجاج:"يعنى: الأصنام، وكل من دعي من دون الله إلها لا إله إلا الله وحده".

قال ابن كثير:"أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك".

قال القرطبي:"وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله ﷻ على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين. وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان".

=

=

قال الزمخشري:"{لن} أخت «لا» في نفي المستقبل، إلا أن «لن» تنفيه نفيا مؤكدا، وتأكيده هاهنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم، كأنه قال: محال أن يخلقوا. فإن قلت: ما محل ولو اجتمعوا له؟ قلت: النصب على الحال، كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية- التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها- صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا".

عن أبي هريرة - رفع الحديث - قال: "ومن أظلم ممن خلق خلقا كخلقي؟ فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبَّة".

قرأ يعقوب: «يدعون» بالياء، والباقون بالتاء.

قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} [الحج: ٧٣]، أي:"لو اختطف الذباب وسلب شيئًا من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته".

قال الطبري:"يقول: وإن يسلب الآلهة والأوثان الذبابُ شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه من شيء لا يستنقذوه منه: يقول: لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه".

قال ابن كثير:"أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها".

قال السعدي:"وهذا غاية ما يصير من العجز".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} [الحج: ٧٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها: إفساده لثمارهم وطعامهم حتى يسلبهم إياها. وهذا قول السدي.

قال السدي:"يقول: يجعل للأصنام طعام، فيقع عليه الذباب، فيأكل منه فلا يستطيع إن يستنقذه منه".

والثاني: أَلَمُهُ في قرض أبدانهم، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يكونون آلهة معبودين وأربابًا مُطَاعين وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان. ذكره الماوردي.

قال القرطبي:"قيل: {وإن يسلبهم الذباب شيئا}، راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لهم والوقار معها".

الثالث: يعني: أن الذباب يقع على تلك الأوثان فتنقر أعينها ووجوهها، فيسلبها ما أخذ من وجوهها وأعينها. وهذا قول يحيى بن سلام.

قال يحيى:"وسمعت بعضهم يقول: إنهم كانوا يطلونها بخلوق".

قال ابن زيد:"هذا مثل ضربه الله لآلهتهم، وقرأ: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}".

قال الزجاج:"أعلم الله - جل ثناؤه - أنه الخالق، ودل على وحدانيته بجميع ما خلق، ثم أعلم أن الذين عبدوا من دونه لا يقدرون على خلق واحد قليل ضعيف من خلقه، ولا على استنقاذ تافه حقير منه".

قال الزمخشري:"وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا".

قوله تعالى: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣]، أي:"ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف".

عن ابن عباس، قوله:"{ضَعُفَ الطَّالِبُ}، قال: آلهتهم {والمَطْلُوبُ}: الذباب".

=

=

قال السعدي:"{ضعف الطالب} الذي هو المعبود من دون الله، {والمطلوب} الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين".

قال السدي:"ثم رجع إلى الناس وإلى الأصنام: {ضعف الطالب والمطلوب}، الذي يطلب إلى هذا الصنم، الذي لا يخلق ذبابا، ولا يستطيع إن يستنقذ ما سلب منه، وضعف المطلوب إليه الذي لا يخلق ذبابا ولا يستنقذ ما سلب منه".

قال يحيى:"الطالب هو الوثن والمطلوب الذباب".

قال الطبري: معناه:"وعجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب، وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: {ضَعُفَ الطَّالِبُ} من بني آدم إلى الصنم حاجته، {والمَطْلُوبُ} إليه الصنم أن يعطي سائله من بني آدم ما سأله، يقول: ضعف عن ذلك وعجز".

قال القرطبي:"قيل: الطالب الآلهة والمطلوب الذباب. وقيل بالعكس. وقيل: الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم، فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه".

قال الزمخشري:"قوله: {ضعف الطالب والمطلوب} كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف، لأن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب وذاك مغلوب".

وعن ابن عباس: «أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورءوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله»".

فهذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع.

والمثل: الشبيه والنظير، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربه-

=

=

وهو الذي يضرب فيه- بمورده- وهو الذي ورد فيه أولا- ولا يكون إلا لما فيه غرابة.

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس، وعرض الغائب في صورة المشاهد، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس.

وسمى الله تعالى ما ساقه في هذه الآية الكريمة مثلا، لأن ما يفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة، يشبه المثل في غرابته وفي التعجب من فعله.

قال ابن عاشور: أعقبت تضاعيف الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورة مما فيه مقنع للعلم بأن إله الناس واحد وأن ما يعبد من دونه باطل، أعقبت تلك كلها بمثل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها. والخطاب يا أيها الناس للمشركين لأنهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله:

إن الذين تدعون على قراءة الجمهور تدعون بتاء الخطاب. فالمراد ب الناس هنا المشركون على ما هو المصطلح الغالب في القرآن. ويجوز أن يكون المراد ب الناس جميع الناس من مسلمين ومشركين.

وفي افتتاح السورة ب يا أيها الناس وتنهيتها بمثل ذلك شبه برد العجز على الصدر. ومما يزيده حسنا أن يكون العجز جامعا لما في الصدر وما بعده، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال والخلاصة للخطبة والحوصلة للدرس. وضرب المثل: ذكره وبيانه استعير الضرب للقول والذكر تشبيها بوضع الشيء بشدة، أي ألقي إليكم مثل.... ا.هـ

وقال الزمخشري: فإن قلت: الذي جاء به سبحانه ليس بمثل فكيف سماه مثلا؟.

قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستغراب مثلا، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم ا.هـ.

=

=

والمعنى: يا أيها الناس لقد بينا لكم قصة مستغربة وحالا عجيبة. لما يعبد من دون الله تعالى فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل.

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ.. بيان للمثل وتفسير له.

والذباب: اسم جنس واحده ذبابة- وهي حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها.

أى: إن المعبودات الباطلة التي تعبدونها أيها المشركون، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، حتى لو اشتركت جميعها في محاولة خلق هذه الذبابة.

قال الزمخشري: وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركاك عقولهم. والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه- أى قد ربطهم برباطه، حيث وصفوا بالإلهية- التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها- صورا وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا.. ا.هـ.

وقوله سبحانه: وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة من أمر آخر سوى الخلق.

أى: وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استرداده منه لعجزها عن ذلك.

قال ابن الجوزي: وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ يعني: الأصنام. قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجفّ، فيأتي الذباب فيختلسه. وقال ابن جريج: كانوا إذا طيَّبوا أصنامهم عجنوا طيبهم بشيء من الحلواء، كالعسل ونحوه، فيقع عليها الذباب فيسلبها إياه، فلا تستطيع الآلهة ولا مَنْ عبَدها أن يمنعه ذلك. وقال السدي: كانوا يجعلون للآلهة طعامًا، فيقع الذباب عليه فيأكل منه ا.هـ

=

=

قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه، ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره، لا يقدر من عبدوه من دون الله تعالى على خلق مثله، ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابا مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان ا.هـ.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بما يدل على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال: ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ.

قال ابن الجوزي: وَالْمَطْلُوبُ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: الطالب: الذباب يطلب ما يسلبُه من الطيِّب الذي على الصنم، والمطلوب: الصنم يطلب الذباب منه سَلْبَ ما عليه، روي عن ابن عباس أيضًا.

والثالث: الطالب: عابد الصنم يطلب التقرُّب بعبادته، والمطلوب: الصنم، هذا معنى قول الضحاك، والسدي ا.هـ

وقال الآلوسى: والطالب: عابد غير الله تعالى والمطلوب: الآلهة، وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه، واعتقاده نفعه، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه.

وقيل: «الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة، والمطلوب: الآلهة، على معنى المطلوب منه ما يسلب..» ا.هـ.

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب وهو الآلهة. أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه، والمطلوب: الذباب.

ووافقه ابن كثيروقال: اختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق ا.هـ

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل، وأنه

=

قد تساوى في عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها.
ثم بين سبحانه بعد ذلك أن هؤلاء المشركين، قد وضعوا الأمور في غير موضعها، لجهلهم وغبائهم فقال: ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ....
قوله تعالى: {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الحج: ٧٤]، أي:"هؤلاء المشركون لم يعظِّموا الله حق تعظيمه، إذ جعلوا له شركاء".
قال الطبري:"يقول: ما عظم هؤلاء الذين جعلوا الآلهة لله شريكا في العبادة حق عظمته حين أشركوا به غيره، فلم يخلصوا له العبادة ولا عرفوه حق معرفته".
قال ابن زيد:"حين يعبدون مع الله ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه".
قال السعدي:"حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف".
وفي قوله تعالى: {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الحج: ٧٤]، وجهان:
أحدهما: ما عظموه حق عظمته، قاله يحيى بن سلام، والفراء، والزجاج.
قال يحيى: أي:"ما عظموا الله حق عظمته أن عبدوا الأوثان من دونه التي إن سلبها الذباب الضعيف لم تستطع أن تمتنع منه".
قال الفراء:"هو كما تَقُولُ فِي الكلام: ما عرفت لفلان قَدْره، أي: عظمته وقصَّر بِهِ صاحبه".
الثاني: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا وصفوه مبلغ صفته. قاله أبو عبيدة.
وقال ابن قتيبة:"أي: ما وصفوه حق صفته ولا عرفوه حق معرفته. يقال: قدرت الشيء وقدرته. وقدرت فيك كذا وكذا، وقدرته".
قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٧٤]، أي:"وهو القوي الذي خلق كل

=

شيء، العزيز الذي لا يغالَب".

قال الطبري:"يقول: إن الله لقويّ على خلق ما يشاء من صغير ما يشاء من خلقه وكبيره عزيز: يقول: منيع في مُلكه لا يقدر شيء دونه أن يسلبه من مُلكه شيئا، وليس كآلهتكم أيها المشركون الذين تدعون من دونه الذين لا يقدرون على خلق ذباب، ولا على الامتناع من الذباب، إذا استلبها شيئا ضعفا ومهانة".

قال الزجاج:"ثم أعلم بعد ذكره ضعف قوة المعبودين قوته فقال: {إن الله لقوي عزيز}".

قال يحيى:"فبقوته وعزته ذل من دونه".

قال السعدي:"أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه".

أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، حيث تركوا عبادة الواحد القهار، وعبدوا ما يعجز عن رد ما سلبه الذباب منه.

إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ على خلق كل شيء عَزِيزٌ لا يغالبه مغالب، ولا يدافعه مدافع.

قال الرازي: أما قوله: ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية، وهذه الكلمة مفسرة في سورة الأنعام، وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته، فأي حاجة إلى القول بالشريك... ا.هـ

ثم بين سبحانه أن له مطلق التصرف في اختيار رسله فقال: اللهُ يَصْطَفِي مِنَ

=

=

الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ....

قوله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]، أي:"الله سبحانه وتعالى يختار من الملائكة رسلا إلى أنبيائه، ويختار من الناس رسلا لتبليغ رسالاته إلى الخلق".

قال الطبري: يقول:"الله يختار من الملائكة رسلا كجبرئيل وميكائيل اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده ومن الناس، كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم".

قال السدي:"الذي يصطفي من الناس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام".

قال الفراء:"اصطفى منهم جبريل وميكائيل وملك الموت وأشباههم. ويصطفى من الناس الأنبياء".

قال السمعاني:"أما من الملائكة فهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وغيرهم، وأما من الناس فهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وغيرهم صلوات الله عليهم".

قال السعدي:"لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقا، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} أي: يختار ويجتبي من الملائكة

رسلا ومن الناس رسلا يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق".

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج: ٧٥]، أي:"إن الله سميع لأقوال عباده، بصير بجميع الأشياء، وبمن يختاره للرسالة مِن خلقه".

قال الطبري: " يقول: إن الله سميع لما يقول المشركون في محمد ﷺ، وما جاء به من عند ربه، بصير بمن يختاره لرسالته من خلقه".

=

=

قال السمعاني: أي:"سميع لأقوال العباد، بصير بهم".

قال السعدي:"الذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلا بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئا دون شيء، وإنما المصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه} [الأنعام: ١٢٤]".

أي: الله تعالى وحده هو الذي يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى أنبيائه، كما اختار جبريل- عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذه الوظيفة، وهو الذي يختار من بين الناس رسلا، كما اختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة، فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

إِنَّ اللهَ تعالى سَمِيعٌ لأقوال عباده بَصِيرٌ بأحوالهم، لا تخفى عليه خافية من شئونهم.

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ أى: يعلم ما قدموا من أعمال، وما يعملون الآن، وما سيعملونه في المستقبل إذ أن علمه سبحانه ليس مقيدا بزمان أو مكان وَإِلَى اللهِ تعالى وحده تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها لا إلى غيره.

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [الحج: ٧٦]، أي:"وهو سبحانه يعلم ما بين أيدي

قال الطبري: يقول: " الله يعلم ما كان بين أيدي ملائكته ورسله، من قبل أن يخلقهم، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم".

قال السمعاني: ويقال:"{ما بين أيديهم}: ما قدموا من العمل، {وما خلفهم}: ما أخروها فلم يعملوها".

قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الحج: ٧٦]، أي:"وإلى الله وحده ترجع

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} أَيْ صَلُّوا {وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ} وَحِّدُوهُ {وَافْعَلُوا الْخَيْر} كَصِلَةِ الرَّحِم وَمَكَارِم الْأَخْلَاق {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} تَفُوزُونَ بِالْبَقَاءِ فِي الْجَنَّة.

وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨).

{وَجَاهَدُوا فِي الله} لِإِقَامَةِ دِينه {حَقّ جِهَاده} بِاسْتِفْرَاغِ الطَّاقَة فِيهِ وَنُصِبَ حَقّ عَلَى الْمَصْدَر {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّين مِنْ حَرَج} أَيْ ضِيق بِأَنْ سَهَّلَهُ عِنْد الضَّرُورَات كَالْقَصْرِ وَالتَّيَمُّم وَأَكْل الْمَيْتَة وَالْفِطْر لِلْمَرَضِ وَالسَّفَر {مِلَّة أَبِيكُمْ} مَنْصُوب بِنَزْعِ الْخَافِض الْكَاف {إِبْرَاهِيم}

=

الأمور".

قال السمعاني: أي:"تصير الأمور".

قال الطبري: " يقول: إلى الله في الآخرة تصير إليه أمور الدنيا، وإليه تعود كما كان منه البدء".

قال السعدي:"أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى الله، فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيرها إلى الله، فلا تعدم منه فضلا أو عدلا".

عَطْف بَيَان {هُوَ} أَيْ الله {سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل هَذَا الْكِتَاب {وَفِي هَذَا} أَيْ الْقُرْآن {لِيَكُونَ الرَّسُول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ} يَوْم الْقِيَامَة أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ {وَتَكُونُوا} أَنْتُمْ {شُهَدَاء عَلَى النَّاس} أَنَّ رُسُلهمْ بَلَّغُوهُمْ {فَأَقِيمُوا الصَّلَاة} دَاوِمُوا عَلَيْهَا {وَآتُوا الزَّكَاة وَاعْتَصِمُوا بِاَللهِ} ثِقُوا بِهِ {هُوَ مَوْلَاكُمْ} نَاصِركُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُوركُمْ {فَنِعْمَ الْمَوْلَى} هُوَ {وَنِعْمَ النَّصِير} النَّاصِر لَكُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: ٧٧]، أي:"يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ".

قال ابن عباس: "ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قال خيثمة: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا} فإنه في التوراة: يا أيها المساكين".

قال ابن مسعود:"إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنه خير يأمره أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} [الحج: ٧٧]، أي:"اركعوا واسجدوا في صلاتكم".

عن مجاهد، قوله: " {يا أيها الذين آمنوا اركعوا}، قال: إنما هي أدب وموعظة".

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: المراد: صلوا، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود".

قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ} [الحج: ٧٧]، أي:"واعبدوا ربكم وحده لا شريك له".

قال ابن الجوزي:"أي: وحدوه".

قوله تعالى: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ} [الحج: ٧٧]، أي:"افعلوا ما يقربكم من الله من =

=

أنواع الخيرات".

قال ابن الجوزي:"يريد: أبواب المعروف".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧]، أي:"لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة".

قال ابن الجوزي:"أي: لكي تسعدوا وتبقوا في الجنة".

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربع أوجه أولها: تعيين المأمور وثانيها: أقسام المأمور به وثالثها: ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر ورابعها: تأكيد ذلك التكليف.

أما النوع الأول: وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان: أحدهما: المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا أو كافرا، لأن التكليف بهذه الأشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك والثاني: أن المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولا: فلأن اللفظ صريح فيه، وأما ثانيا: فلأن قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله: هو سماكم المسلمين وقوله: وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين. أقصى ما في الباب أن يقال لما كان ذلك واجبا على الكل فأي فائدة في تخصيص المؤمنين؟

لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها. ويمكن أن يقال فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الإقرار والتخصيص.

أما النوع الثاني: وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورا أربعة: الأول: الصلاة وهو

=

=

المراد من قوله: اركعوا واسجدوا وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية الثاني: قوله: واعبدوا ربكم وذكروا فيه وجوها: أحدها: اعبدوه ولا تعبدوا غيره وثانيها: واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات وثالثها: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود الثالث: قوله تعالى: وافعلوا الخير قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات ا.هـ

فالمراد بالركوع والسجود هنا: الصلاة، وعبر عنها بهما، لأنهما أهم أركانها، وناداهم سبحانه بصفة الإيمان، لحضهم على الامتثال لما أمروا به.

أى: يا من آمنتم بالله تعالى وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة في مواقيتها بخشوع وإخلاص، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر، وأن ترفع درجاتكم عند خالقكم.

وقوله تعالى: وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ أى: واعبدوا ربكم الذي تولاكم برعايته وتربيته في كل مراحل حياتكم، عبادة خالصة لوجهه الكريم.

=

=

وقوله: وَافْعَلُوا الْخَيْرَ تعميم بعد التخصيص، إذ فعل الخير يشمل كل قول وعمل يرضى الله تعالى: كإنفاق المال في وجوه البر، وكصلة الرحم وكالإحسان إلى الجار وكغير ذلك من الأفعال التي حضت عليها تعاليم الإسلام.

وقوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تذييل قصد به التحريض على امتثال ما أمرهم الله تعالى به، والفلاح: الظفر بالمطلوب.

أي: أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة، واعبدوا ربكم عبادة خالصة، وافعلوا الخير الذي يقربكم من خالقكم، لكي تنالوا رضاه وثوابه- ﷻ.

فكلمة «لعل» للتعليل، ويصح أن تكون على معناها الحقيقي وهو الرجاء، ولكن على تقدير صدوره من العباد، فيكون المعنى: وافعلوا الخير حالة كونكم راجين الفلاح، ومتوقعين الفوز والنجاح.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها أنها قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية، وأحاطت بها من كل جوانبها.

وبعد أن أمر سبحانه بالصلاة وبالعبادة وبفعل الخير، أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال تعالى: وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ذكر الآية الثانية: قوله تعالى: {وجاهدوا في الله حق جهاده} فيها قولان:

أحدهما: أنها منسوخة، لأن فعل ما فيه وفاء لحق الله لا يتصور من أحد، واختلف هؤلاء في ناسخها على قولين:

أحدهما: أنه قوله: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}.

والثاني: {فاتقوا الله ما استطعتم}.

والقول الثاني: أنها محكمة، لأن حق الجهاد الجد في المجاهدة، وبذل الإمكان مع صحة القصد. فعلى هذا هي محكمة ويوضحه أن الله تعالى لم يؤمر بما لا

=

=

يتصور، فبان أن قوله: {ما استطعتم} تفسير لحق الجهاد فلا يصح نسخ، كما بينا في قوله تعالى في آل عمران: {اتقوا الله حق تقاته} ٣. ا.هـ وقد ذهب إلى إحكام الآية النحاس ومكي به أبي طالب.

قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج: ٧٨]، أي:"جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة".

قال ابن كثير:"أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢]".

قال ابن عباس:"لا تخافوا في الله لومة لائم".

قال مقاتل بن حيان:"يعني: العمل إن يجتهدوا فيه".

قال السدي: يطاع فلا يعصى"

قال يحيى:"يعني: اعملوا لله حقَّ عمله".

قال يحيى:"وهي مثل قوله: {اتقوا الله حق تقاته} [آل عمران: ١٠٢]، وهما منسوختان نسختهما الآية التي في التغابن: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦]".

قال الحسن:"إن الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضرب بسيف".

وقال الضحاك:"جاهدوا عدو الله حتى يدخلوا في الإسلام".

قال القرطبي:"قيل: عنى به جهاد الكفار. وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم".

قال الطبري:"عُني به الجهاد في سبيل الله، لأن المعروف من الجهاد ذلك، وهو الأغلب على قول القائل: جاهدت في الله، وحقّ الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه".

=

قال السعدي:"الجهاد: بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك".

وفي حكم قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج: ٧٨]، قولان:

القول الأول: أنها منسوخة، لأن فعل ما فيه وفاء لحق الله لا يتصور من أحد، واختلف هؤلاء في ناسخها على قولين:

الأول: أنه قوله: لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها [البقرة: ٢٨٦].

والثاني: فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن: ١٦].

القول الثاني: أنها محكمة. به قال النحاس، ومكي بن ابي طالب، وابن الجوزي.

قال ابن الجوزي:"لأن حق الجهاد الجد في المجاهدة وبذل الإمكان مع صحة القصد فعلى هذا هي محكمة، ويوضحه أن الله تعالى لم يأمر بما لا يتصور، فبان أن قوله: مَا اسْتَطَعْتُمْ تفسير لحق الجهاد فلا يصح نسخ، كما بينا في قوله تعالى في آل عمران: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢]".

قوله تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} [الحج: ٧٨]، أي:"هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول".

قال يحيى:"اصطفاكم، ويقال: اختاركم لدينه. وهو واحد".

قال الطبري:"يقول: هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله".

قال ابن كثير:"أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع".

قال الزجاج:"معناه: اختاركم".

قال السعدي:"أي: اختاركم -يا معشر المسلمين- من بين الناس، واختار لكم

=

الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل".

وقال ابن زيد:"هو هداكم".

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، أي:"وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة".

قال الطبري: يقول:"وما جعل عليكم ربكم في الدين الذي تعبَّدكم به من ضيق، لا مخرج لكم مما ابتليتم به فيه، بل وسَّع عليكم، فجعل التوبة من بعض مخرجا، والكفَّارة من بعض، والقصاص من بعض، فلا ذنب يذنب المؤمن إلا وله منه في دين الإسلام مخرج".

قال ابن كثير:"أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فَشَقَ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحَضَر أربعًا وفي السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلى رجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام: «بُعِثْتُ بالحنِيفيَّة السَّمحة». وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا». والأحاديث في هذا كثيرة".

قال السعدي:"ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام".

عن عائشة، قالت: "سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

=

=

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، قال: هُوَ الضيق".

عن أبي خلدة، قال: "قال لي أبو العالية: أتدري ما الحرج؟ قلت: لا أدري، قال: الضيق، وقرأ هذه الآية: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}".

قال الحسن، وقتادة، ويحي بن سلام:"من ضيق".

قال الضحاك:"جعل الدين واسعا ولم يجعله ضيقا".

قال ابن عباس:"إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربيّ، ثم دعا ابن عباس أعرابيا، فقال: ما الحَرَج؟ قال: الضيق. قال: صدقت".

وفي قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه الخلاص من المعاصي بالتوبة.

الثاني: المخرج من الأيمان بالكفارة.

الثالث: أنه تقديم الأهلة وتأخيرها في الصوم والفطر والأضحى، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"هذا في هلال شهر رمضان إذا شكّ فيه الناس، وفي الحجّ إذا شكوا في الهلال، وفي الفطر والأضحى إذا التبس عليهم وأشباهه".

الرابع: أنه رخص السفر من القصر والفطر.

الخامس: أنه عام لأنه ليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من المأثم فيه.

قال ابن عباس:"إنما ذلك سعة الإسلام ما جعل الله من التوبة والكفارات".

قال ابن عباس:"الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع، عنكم".

قال ابن عباس:"يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق، هو واسع، وهو مثل قوله في الأنعام: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}، يقول: من أراد أن يضله يضيق عليه صدره حتى

=

=

يجعل عليه الإسلام ضيقا، والإسلام واسع".

وقال مقاتل بن حيان:"يقول: لم يضيق الدين عليكم، ولكن جعله واسعا لمن دخله، وذلك أنه ليس مما فرض عليهم فيه، إلا ساق إليهم، عند الاضطرار رخصة، والرخصة في الدنيا فيها وسع عليهم رحمة منه، إذ فرض عليهم الصلاة في المقام اربع ركعات، وجعلها في السفر ركعتين، وعند الخوف من العدو ركعة، ثم جعل في وجهه رخصة أن يومئ إيماء إن لم يستطع السجود، في أي نحو كان وجهه، لمن تجاوز، عن السيئات منه والخطأ، وجعل في الوضوء والغسل رخصة، إذا لم يجدوا الماء إن يتيمموا الصعيد، وجعل الصيام على المقيم واجبا، ورخص فيه للمريض، والمسافر عدة من أيام أخر، فمن لم يطق فإطعام مسكين مكان كل يوم، وجعل في الحج رخصة، إن لم يجد زادا أو حملانا أو حبس دونه، وجعل في الجهاد رخصة، إن لم يجد حملانا أو نفقة، وجعل، عند الجهد والاضطرار من الجوع: إن رخص في الميتة والدم ولحم الخنزير قدر ما يرد نفسه، لا يموت جوعا، في أشباه هذا في القرآن، وسعه الله على هذه الأمة رخصة منه ساقها إليهم".

قوله تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨]، أي:"دينكم الذي لا حرج فيه هو دين ابراهيم فالزموه لأنه الدين القيم".

قال السدي:"دين أبيكم".

قال السعدي:"أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المزبورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها".

وفي قوله تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه وسع عليكم في الدين كما وسع ملة أبيكم إبراهيم. قاله الطبري.

الثاني: والزموا ملة أبيكم إبراهيم. ذكره الطبري.

قال الأخفش:"نصب على الأمر".

=

قال ابن كثير:"يحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم".
الثالث: أن ملة إبراهيم وهي دينه لازمة لأمة محمد -ﷺ-، وداخلة في دينه.
الرابع: أن علينا ولاية إبراهيم وليس يلزمنا أحكام دينه.
قوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨]، أي:"الله سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة".
قال الطبري: يقول:"سماكم يا معشر من آمن بمحمد ﷺ المسلمين من قبل".
قال الزجاج:"المعنى: الله سماكم المسلمين من قبل أن ينزل القرآن".
قال السعدي:"أي: في الكتب السابقة، مذكورون ومشهورون".
وفي قوله تعالى: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨]، وجهان:
أحدهما: أن الله سماكم المسلمين من قبل هذا القرآن وفي هذا القرآن، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك.
قال الضحاك:"الله سماكم المسلمين".
الثاني: أن إبراهيم سماكم المسلمين، لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} [البقرة: ١٢٨]، وهذا قول ابن زيد.
قال ابن زيد:"لم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة، ذكرت بهما جميعا، ولم يسمع بأمة ذكرت بالإسلام والإيمان غيرها".
قوله تعالى: {وَفِي هَذَا} [الحج: ٧٨]، أي:"وفي هذا القرآن سماكم المسلمين، ورضي لكم الإسلام دينا".
قال ابن قتيبة:"يعني: القرآن".
قال السعدي:"أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثا".
قوله تعالى: {لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [الحج:

=

٧٨]، أي:"وقد اختصَّكم بهذا الاختيار؛ ليكون خاتم الرسل محمد ﷺ شاهدًا عليكم بأنه بلَّغكم رسالة ربه، وتكونوا شهداء على الأمم أن رسلهم قد بلَّغتهم بما أخبركم الله به في كتابه".

قال ابن كثير:"أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [الحج: ٧٨]، وجهان:

أحدهما: ليكون الرسول شهيدًا عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم، وتكونوا شهداء على الناس تُبَلِغُونَهُم رسالة ربهم كما بلغتم إليهم ما بلغه الرسول إليكم. حكاه الماوردي.

الثاني: ليكون الرسول شهيدًا عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم، وتكونوا شهداء على الناس بأن رُسُلَهُم قد بَلَّغُوهم. قاله قتادة، وابن قتيبة.

عن قتادة أن كعبا قال: "إن الله تبارك وتعالى أعطى هذه الأمة ثلاثا لم يعطهن قبلهم إلا نبيا مرسلا: كان يبعث النبي فيقول: أنت شاهدي على أمتك، وإن الله جعلكم شهداء على الناس، ويبعث النبي فيقول: ادعني استجب لك وقال: {ادعوني أستجب لكم}، ويبعث النبي فيقول: ليس عليك في الدين من حرج، وقال: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}".

قوله تعالى: {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [الحج: ٧٨]، أي:"وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة".

=

=

قال الطبري:"يقول: فأدّوا الصلاة المفروضة لله عليكم بحدودها، وآتوا الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم".

قال ابن كثير:"أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب، للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج".

قال الماتريدي:"فإذا أراد الصلاة المعروفة والزكاة المعروفة، ففي الأمر بإقامة الصلاة أمر لإصلاح ما بينهم وبين ربهم، وفي الزكاة إصلاح ما بينهم وبين الخلق".

قال الشوكاني:"ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: {فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}، وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما".

قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ} [الحج: ٧٨]، أي:"والجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى، وتوكلوا عليه".

قال الكلبي: أي: "بتوحيد الله".

قال الحسن:"بدين الله، فهو اعتصامكم بالله".

قال مقاتل:"يقول: وثقوا بالله".

قال الربيع بن انس:"الاعتصام: هو الثقة بالله".

قال ابن عباس:"سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يسخط ويكره".

قال الطبري:"يقول: وثقوا بالله، وتوكلوا عليه في أموركم".

قال ابن كثير:"أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتَأَيَّدوا به".

قال الشوكاني:"أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا منه".

=

=

قال السمعاني: أي: "تمسكوا بدين الله، ويقال معناه: ادعوا الله، قول ثالث: أن الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة"، و «الاعتصام»: هو الامتناع بالشيء مما يخاف، فالاعتصام بالله: هو الامتناع بطاعته من كل ما يخاف عاجلا، وآجلا".

قال القشيري:"«الاعتصام بالله»: التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الاعتصام بالله التمسك بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصام بالله حسن الاستقامة بدوام الاستعانة".

قوله تعالى: {هُوَ مَوْلَاكُمْ} [الحج: ٧٨]، أي:"فهو تعالى وليكم وناصركم وحافظكم".

قال يحيى:"وليكم".

قال السمعاني:"أي: حافظكم".

قال القشيري:"سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه".

قال الشوكاني:"أي: ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها".

قال الحسن: "هو مولى كل من تولاه بالطاعة".

قوله تعالى: {فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]، أي:"فهو تعالى نِعْمَ المولى لمن تولاه، ونعم النصير لمن استنصره".

قال الماوردي:"أي: فنعم المولى حين لم يمنعكم الرزق لما عصيتموه، ونعم النصير حين أعانكم لما أطعتموه".

قال أبو الليث:"يعني: نعم الحافظ، ونعم المانع لكم برحمته".

قال ابن كثير:"أي: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء".

قال الشوكاني:"أي: لا مماثل له في الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم".

قال يحيى:"وعدهم النصر على أعدائه المشركين".

=

=

والجهاد مأخوذ من الجهد، وهو بذل أقصى الطاقة في مدافعة العدو.
وهي أنواع، أعظمها: جهاد أعداء الله تعالى من الكفار والمنافقين والظالمين والمبتدعين في دين الله تعالى ما ليس منه.
كذلك من أنواع الجهاد: جهاد النفس الأمارة بالسوء، وجهاد الشيطان.
وإضافة «حق» إلى «جهاد» في قوله: حَقَّ جِهادِهِ من إضافة الصفة الى الموصوف أى: وجاهدوا- أيها المؤمنون- في سبيل الله تعالى ومن أجل إعلاء كلمته، ونصر شريعته، جهادا كاملا صادقا لا تردد معه ولا تراجع.
قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وَجاهِدُوا فِي اللهِ في هذا الجهاد ثلاثة أقوال: أحدها: أنه فِعل جميع الطاعات، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنه جهاد الكفار، قاله الضحاك. والثالث: أنه جهاد النفس والهوى، قاله عبد الله بن المبارك. فأما حق الجهاد، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّه الجِدُّ في المجاهدة، واستيفاء الإمكان فيها. والثاني: أنه إخلاص النّيّة لله ﷻ. والثالث: أنه فِعل ما فيه وفاء لحق الله ﷻ ا.هـ
قال الطبري: والصواب من القول في ذلك: عني به الجهاد في سبيل الله لأن المعروف من الجهاد ذلك، وهو الأغلب على قول القائل: جاهدت في الله، وحق الجهاد: استفراغ الطاقة فيه ا.هـ
وقال الرازي: الرابع: قوله تعالى: وجاهدوا في الله حق جهاده قال صاحب «الكشاف» في الله أي في ذات الله، ومن أجله. يقال هو حق عالم وجد عالم أي عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وهاهنا سؤالات:
السؤال الأول: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: وجاهدوا في الله حق جهاده؟ والجواب: الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الإضافة إليه.

=

=

السؤال الثاني: ما هذا الجهاد؟ الجواب: فيه وجوه: أحدها: أن المراد قتال الكفار خاصة، ومعنى حق جهاده أن لا يفعل إلا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة والثاني: أن يجاهدوا آخرا كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم في الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر.... ا.هـ

وجملة «هو اجتباكم» مستأنفة، لبيان علة الأمر بالجهاد، والاجتباء: الاختيار والاصطفاء.

أى: جاهدوا- أيها المؤمنون- من أجل إعلاء كلمة الله، لأنه سبحانه هو الذي اختاركم للذب عن دينه، واصطفاكم لحرب أعدائه، وجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكون مطيعا له.

ثم بين سبحانه بعض مظاهر لطفه بعباده فقال: وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.

أى: ومن مظاهر رحمته بكم- أيها المؤمنون- أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم، أو ضيق عليكم: وإنما جعل أمر هذا الدين، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج، ومن قواعده التي تدل على ذلك: أن الضرر يزال. وأن المشقة تجلب التيسير: وأن اليقين لا يرفع بالشك، وأن الأمور تتبع مقاصدها، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب.

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله تعالى:

لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها ... وقوله سبحانه: ... يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.

وفي الحديث الشريف: «بعثت بالحنيفية السمحاء».

قال بعض العلماء: وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا، بين المشقة في الأحكام

=

=

الشرعية، وبين الحرج والعسر فيها، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج، فهي المرفوعة عن المكلفين.

فقد فرض الله الصلاة على المكلف، وأوجب عليه أداءها، وهذا شيء لا حرج فيه. ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء.. وهكذا جميع التكاليف الشرعية.

والخلاصة: أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد ﷺ من عند ربه - ﷻ مبنى على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا، هم الناكبون عن هديه، الخارجون على تعاليمه.

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال: «رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين..» ا.هـ.

والمراد بالملة في قوله تعالى: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ الدين والشريعة، ولفظ «ملة» هنا منصوب بنزع الخافض.

أى: ما جعل عليكم - أيها المؤمنون - في دينكم من حرج، كما لم يجعل ذلك - أيضا - في ملة أبيكم إبراهيم.

ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أى: وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

ووصف سبحانه إبراهيم - عليه السلام بالأبوة لهذه الأمة، لأن رسول هذه الأمة ﷺ ينتهى نسبه إلى إبراهيم، ورسول هذه الأمة ﷺ كالأب لها، من حيث إنه ﷺ جاءها من عند ربه - ﷻ بما يحييها ويسعدها.

=

=

والضمير «هو» في قوله تعالى: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا.. يعود إلى الله تعالى أى: هو سبحانه الذي سماكم المسلمين من قبل نزول هذا القرآن. وسماكم- أيضا- بهذا الإسلام في هذا القرآن.

وقيل: الضمير «هو» يعود إلى إبراهيم أى: إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين.

ومن وجوه ضعف هذا القول: أن الله تعالى قال: وَفِي هذا أى سماكم المسلمين. في هذا القرآن، وإبراهيم- عليه السلام- لحق بربه قبل نزول هذا القرآن بأزمان طويلة، وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير «هو» يعود إلى الله تعالى لأن الأفعال السابقة كقوله هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ تعود إليه- عز وجل.

ثم بين سبحانه أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ.

والمراد بشهادة الرسول على أمته: الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه.

والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس: الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هؤلاء الناس، قد بلغوهم رسالة ربهم، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده.

ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدعى نوح- عليه السلام- يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ».

وشبيه بهذه الجملة قوله تعالى: وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.

والمعنى: فعلنا ما فعلنا من اجتبائكم، والتيسير عليكم، وتسميتكم بالمسلمين، ليكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم،

=

=

ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم.

وما دام الأمر كذلك فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أيها المؤمنون بأن تؤدوها في أوقاتها بإخلاص وخشوع وَآتُوا الزَّكاةَ التي كلفكم الله تعالى بإيتائها إلى مستحقيها وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ أي: التجئوا إليه، واستعينوا به في كل أموركم فإنه سبحانه هُوَ مَوْلاكُمْ أي: ناصركم ومتولى شئونكم، ومالك أمركم، وهو تعالى فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ أي: هو- ﷻ نعم المالك لأمركم، ونعم النصير القوى لشأنكم.

(تنبيه): لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة. واختلفوا في السجدة الثانية.

القول الأول: أنها في مواضع السجود: وقد ذهب إليه مالك في رواية عنه، والشافعية، وأحمد في رواية عنه وهي المذهب، وهو قول إسحاق، وأبي ثور، وابن المنذر وداود.

الأدلة:

١- حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (أقرأني رسول الله ﷺ خمس عشرة سجدة؛ منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان) أخرجه أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجه (١٠٥٧)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٢٧)، وابن عبد الحكم في فتوح مصر (٩٧، ٢٤٩)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ٢٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣١٤ رقم ٣٥٢٥) والحديث ضعفهابن حزم في المحلى (٥/ ١٥٧)، وابن الجوزي في التحقيق (١/ ٤٣٠)، والذهبي في تنقيحه (١/ ١٩١)، وكذا ضعفه ابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٢٥٨ - ٢٦٠)، وقال الحافظ في التلخيص (٢/ ٩ رقم ٤٨٨): حسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وابن القطان وفيه عبد الله بن منين وهو مجهول والراوي عنه الحارث بن سعيد العتقي وهو لا يعرف أيضا وقال بن

=

=

ماكولا ليس له غير هذا الحديث، وضعفه الشيخ ناصر في المشكاة (١٠٢٩) وتمام المنة (ص ٢٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٥٩٥): إسناده ضعيف، وضعفه الشيخ مشهور في تعليقه على إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٣).

ووجه الدلالة: واضح، ونوقش: من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: ضعف الحديث؛ لأن في سنده جهالة.

الوجه الثاني: على فرض التسليم بصحة الحديث؛ فالمراد بإحدى السجدتين سجدة التلاوة، وبالأخرى سجدة الصلاة.

يدل عليه: أنه قرنها بالركوع؛ فقال: «.. اركعوا واسجدوا» والسجدة المقرونة بالركوع سجدة الصلاة.

وأجيب: بأن ذكر الركوع لا يقتضي ترك السجود كما ذكر البكاء في قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

الوجه الثالث: أنه محمول على النسخ لإجماع قُرّاء المدينة وفقهائها على ترك ذلك مع تكرار القراءة ليلًا ونهارًا.

٢- حديث عقبة بن عامر؛ قال: (قلت لرسول الله ﷺ: في سورة الحج سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، وأبو داود (١٤٠٢)، والترمذى (٥٧٨)، والطبرانى (١٧/ ٣٠٧)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ٣٤٣)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٠٤) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: إسناده ليس بالقوى، وضعفه أبو داود، وقال المنذري في تهذيب السنن: وفي إسناده عبد الله بن لهيعة ومشرح بن هاعان ولا يحتج بحديثهما، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٢٥٢): في إسناده ضعيفان، وقال الحافظ في بلوغ المرام (١/ ٧٠): سنده ضعيف، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع

=

=

(٣٩٨٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي (٢/ ٤٧١)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: حسن بطرقه وشواهده دون قوله: " فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما".

ونوقش: بمثل ما نوقش به سابقه.

٣- أنه روي عن جمع من فقهاء الصحابة ولم يعلم لهم مخالف؛ ومن ذلك:

أ- ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين، ثم قال: إن هذه السورة فضلت بسجدتين. ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: ضعف الأثر؛ لأن راويه رجل من أهل مصر، ولو كان معروفًا مشهورًا، من فعل عمر لعرفه من كان مع عمر بالمدينة، ومن أتى بها من الآفاق، ولكان هذا مشهورًا معروفًا من فعله.

الوجه الثاني: أنه لو صح عن عمر فلا حجة فيه، وإنما الحجة فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثالث: أن الآثار لا يحتج بها الخصم على قاعدته، وهو إيراد على الشافعية.

وأجيب: بأن هذا غير لازم لمن يحتج بها كالحنابلة.

ب- ما روي عن علي وأبي موسى وأبي الدرداء، وابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم؛ أنهم سجدوا في الحج سجدتين.

أما أثر علي: فأخرجه ابن أبي شيبة في الصلاة، باب من قال: في الحج سجدتان (٢/ ١١) والبيهقي في الصلاة، باب سجدتي سورة الحج (٢/ ٣١٧) وابن حزم في المحلى (٥/ ١٥٨) وسكت عنه كالمصحح له.

وأما أثر أبي موسى: فأخرجه الطحاوي في الصلاة، باب المفصل هل فيه سجود أم لا؟ (١/ ٣٦٢) والبيهقي في الموضع السابق (٢/ ٣١٨) وابن حزم في المحلى

=

=

(٥/ ١٥٨) والحاكم (٢/ ٣٩١).

وأما أثر أبي الدرداء: فأخرجه البيهقي في الموضع السابق (٢/ ٣١٨) والحاكم (٢/ ٣٩١) وابن حزم (٥/ ١٥٨) والطحاوي في الموضع السابق (١/ ٣٦٢) وابن أبي شيبة (٢/ ١١).

وأما أثر ابن عمر: فأخرجه البيهقي في الموضع السابق (٢/ ٣١٧) والحاكم (٢/ ٣٩٠) وابن حزم في المحلى (٥/ ١٥٨).

وأما أثر ابن عباس: فأخرجه البيهقي في الموضع السابق (٢/ ٣١٨) وعبد الرزاق في فضائل القرآن، باب كم في القرآن من سجدة؟ (٣/ ٣٤٢) وابن أبي شيبة في الصلاة باب من قال: في الحج سجدتان (٢/ ١١).

قال ابن قدامة: ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم فكان إجماعًا.

قال أبو إسحاق السبيعي: أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في الحج سجدتين.

من المعقول:

٤- ولأن السجدة الثانية أوكد من الأولى، لورودها بلفظ الأمر، وورود الأولى بلفظ الإخبار، فكان السجود لها أولى.

القول الثاني: أنها ليست من مواضع السجود:

ذهب إليه الحنفية، ومالك في رواية عنه، وهي المذهب وأحمد في رواية عنه، وابن حزم.

وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، وجابر بن زيد.

الأدلة:

١- لأن الله جمع بينها وبين الركوع؛ فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} [الحج: ٧٧] فلم تكن سجدة كقوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي

=

=

وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣].

ونوقش: بأن ذكر الركوع لا يقتضي ترك السجود كما ذكر البكاء في قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨] وقوله: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩].

٢- أن سجود العزائم في القرآن إنما ورد بلفظ الإخبار، أو على سبيل الذم، والسجدة الثانية في الحج وردت بلفظ الأمر فخالفت سجود العزائم.

ونوقش: بأن هذا لا يصح؛ لأن قوله تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢] أمر وكل ذلك سجود العزائم، وقد ورد لفظ الإخبار فيما ليس بعزيمة وهو قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: ٣٠] فعلم فساده.

٣- ولأن إثبات السجود طريقه الشرع، والأصل براءة الذمة، ولم يثبت من طريق صحيح فمن ادعى ذلك فعليه بيانه.

ويمكن أن يناقش: بأن البيان قد حصل بما أوردناه من أدلة، وهي كافية في إثبات مثل هذا.

الترجيح:

ولعل الراجح هو القول الأول لقوة أدلته، فقد ثبت عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبد اللّه بن عمر، وأبي الدرداء، وأبي موسى، وابن عباس. مما يجعل النفس تطمئن إلى أن سجودهم في هاتين السجدتين لم يكن عن اجتهاد منهم، وإنما كان عن توقيف، لا سيما مع مجيء النص النبوي في وجوب اتباع سنة الخلفاء الراشدين: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي"، وقد أُمرنا بالاقتداء بهم: "اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر"، ثم علق حصول الرشد بطاعتهم: "إن يطع الناسُ أبا بكر وعمر يرشدوا" والله أعلم.

° قال ابن المنذر في الأوسط (٥/ ٢٦٣): "كل من نحفظ عنه من أهل العلم يرى

=

=

أن السجدة الأولى من سورة الحج ثابتة، وممن ثبت ذلك عنه: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عمر، وابن عباس، ... "، ثم قال: "واختلفوا في السجدة الثانية في الحج، [...]، أنه كان يرى أن يسجد في الحج سجدتين: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عمرو، وقال أبو إسحاق: أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في الحج سجدتين، وهذا قول أبي عبد الرحمن السلمي، وأبي العالية، وزر بن حبيش، وبه قال الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، ...".

وقال ابن حزم في المحلى (٥/ ١٠٧): "أين المهولون من أصحاب مالك وأبي حنيفة بتعظيم خلاف الصاحب الذي لا يعرف له مخالف من الصحابة؟

وقد خالفوا هاهنا فعل عمر بحضرة الصحابة لا يعرف له منهم مخالف، ومعه طوائف ممن ذكرنا، ومعهم حديث مرسل بمثل ذلك، وطوائف من التابعين ومن بعدهم؟ وبه يقول الشافعي. وأما نحن فلا حجة عندنا إلا فيما صح عن رسول الله ﷺ، ... " إلى آخر ما قال.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ...) (الحج: ٥)، وفي سورة المؤمن: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (غافر: ٦٧)، ففي الأولى: (ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) ولم يقع التعريف بهذه الأحوال من الانتقال عن العلقة،

=

وهو الدم المتعقد المتغير عن النظفة، وهو هنا المني المنفصل يصير (هنا) دمًا جامدًا، ثم يصير مضغة، والمضغة قطعة لحم قدر ما يمضغ مثله، ثم قد يتم سبحانه خلق تلك النطفة وتخطيطها وتصويرها على ما يشاء من هيئة وصورة ولونية كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) (آل عمران: ٦)، وقد لا يتم، فينقص من خلقها ما يشاء من الأعضاء والحواشي، وإلى هاتين الحالتين الإشارة، والله أعلم، بقوله: (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)، أي تامة الخلق وغير تامة، فأشار تضعيف لفظ مخلقة إلى هذا فقيل مخلقة وغير مخلقة، أما السقط المولود لغير التمام فحصل من مفهوم قوله تعالى بعد: (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (الحج: ٥)، إذ مفهوم هذه - والله أعلم - أن بعض ذلك لا يقره تعالى وهو السقط، هذا - والله أعلم - إلى ما قدمنا، قوله: (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي الأجل الذي يشاء تعالى إبراز الموجود فيه وولادته، فهذه الانتقالات والأحوال قد اختصت بها هذه الآية، ولم ترد في آية سورة المؤمن مع البادي في اتحاد المقصود في الموضوعين، فلسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في الآيتين؟

والجواب، والله أعلم: أن آية سورة الحج مقصود فيها إقامة البرهان على البعث الأخراوي وبسط الدلالات على كيفية وإرغام منكرية، ألا ترى أن هذه الأحوال والانتقالات على ما وضح من التدريج لا تكون إلا من فاعل قادر مختار عليم حكيم، وقد فسر مقصود هذه الآية وزاده إيضاحًا قوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ....) (يس: ٧٨)، وقال تعالى: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ....) (الأنبياء: ١٠٤)، ويزيد هذا المقصود أيضًا بيانًا تعقيب آية الحج بقوله: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج: ٥)، فهذا إحياء بعد الموت، ثم قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحج: ٦)، فتأمل هذا التعقيب وافتتاح

=

الآية بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) (الحج: ٥)، واعتبر ما انطوت عليه هذه الآي يلح لك ما تقدم من مقصودها.

أما آية سورة المؤمن فلم تتجرد لهذا الغرض وإن تضمنت ذلك بالإيجاز، وإنما بناؤها على تذكير الخلق وتنبيههم على وحدانيته سبحانه وانفراده بالخلق والأمر وتنزيهه عن الشركاء والأنداد ونفي ما عبد من دونه تعالى، وتأمل ما تقدم من لدن قوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (غافر: ٥٧) الآية المذكورة وما بعدها يبن لك ما قصد بهذه الآية، وإنما اختصت عن آية سورة الحج بما ذكرنا، واختصت تلك بما تقدم، فلذلك زيد فيها من التفصيل ما تقدم، ولم يكن العكس ليناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية قوله تعالى: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (الحج: ٢٢)، وفي سورة السجدة: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة: ٢٠)، هنا سؤالان: الأول قوله في آية الحج: (منغم) ولم يرد ذلك في سورة السجدة؟ والثاني ما أعقبت به كل من الآيتين؟

الجواب عن الأول: أن زيادة قوله: (من غم) في الآية الأولى مناسب لما ورد قبله وبعده من تفصيل الجزاء في الطرفين بعد ذكر الحالين من نعيم أو عذاب لما قال تعالى: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) (الحج: ١٩) إلى قوله تعالى: (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) (الحج: ٢١)، وقال في الطرف الآخر: (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...) (الحج: ٢٣) إلى قوله: (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (الحج: ٢٣)، ففصل حال هؤلاء، فناسب هذا زيادة: (من غم)، ونظير هذا التفصيل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) (النساء: ٥٧) إلى قوله:

=

=

(ظِلًّا ظَلِيلًا) (النساء: ٥٧)، والإطناب يناسب الإطناب، ولما قال في سورة السجدة: (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) (السجدة: ١٩ - ٢٠)، فلم يقع تفصيل في الطرفين، وأوجز الكلام ناسبة الإيجاز، فلم يرد هنا قوله: (منغم)، ونظير هذا في إيجاز الجزاء قوله تعالى جزاء من الطرفين: (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات: ٤١)، فلم يقع وصف الجزاء ولا تفصيل هذه كآية السجدة من غير فرق، وللإطناب في التفصيل زيد في آية الحج ما حذف للإيجاز في آية السجدة، وورد كل على ما يجب ويناسب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب على ما تمهد.

والجواب عن الثاني: أن آية السجدة لما قيل فيها: (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا)، والفسق الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الاخراوي، فقيل لهم: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة: ٢٠)، أما آية الحج فتقدم قبل ذكر الإفصاح بكفرهم في قوله: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) (الحج: ١٩)، فلم يحتج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ونظير الواقع في آية السجدة وصف النار واتباعها بصفة المعذب بها قوله تعالى في سورة سبأ: (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سبأ: ٤٢)، لما تنزل عذابهم على الظلم، والظلم يقع على الكفر وعلى ما دونه، فاتبع الوعيد بما يبين أن المراد ظلم التكذيب والكفر لا ظلم معصية دون الكفر، كما بين في سورة السجدة أن المراد بالفسق الكفر لا فسق معصية دونه، فوضح ما قلته. والحمد لله.

فأما ما وقع في هاتين الآيتين من التذكير والتأنيث في الموصول والضمير في قوله:

=

=

(الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة: ٢٠)، وقوله في الآية الأخرى: (الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سبأ: ٤٢)، مع التساوي فيما جرى عليه الوصف، فإن ذلك لرجوع الوصف في آية السجدة إلى العذاب وهو مذكر، ورجوعه في آية سبأ إلى النار وهي مؤنثة، ويذكر وجه التخصيص في سورة سجدة لقمان إن شاء الله تعالى.

الآية الثالثة – قوله تعالى: (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) (الحج: ٤٥)، وقال تعالى بعد هذا: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) (الحج: ٤٨)، يسأل عن الفرق الموجب لاختلاف الواقع في الآيتين؟

والجواب: أن الآية الأولى تنزلت على ما ذكر قبلها ممن أهلك من القرون والأمم السالفة بتكذيبهم للرسل، ممن قال فيهم بعد تفصيل ذكرهم: (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) (الحج: ٤٤)، وأما الآية الثانية فوقع قبلها ذكر اسنعجالهم العذاب تكذيبًا واستبعادًا في قوله: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) (الحج: ٤٧)، فعرفوا بأن تأخيره عنهم إملاء للمكذبين به: (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) (آل عمران: ١٧٨)، وقيل في حالهم في التكذيب واستبعاد وقوع العذاب، قد جرى لمن قبلهم من المكذبين ثم جاءهم ما كذبوا به وحل بهم ما استبعدوه فقال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا) (الحج: ٤٨)، فاستعجالهم العذاب أوجب تعريفهم بحال غيرهم ممن ناسب حالهم لعلهم يتذكرون، يزيد ذلك بيانًا قوله: (وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (الحج: ٤٨)، وكأن الكلام في قوة أن لو قيل لهم: إنما يعجل من يخاف الفوت، أمّا إذا كان مرجع الكل ومصيرهم إليه فيأخذ المكذب متى شاء، وإن أخره فإملاه لزيادة مِحنِهَ، فوضح ما بين الآيتين، وأنه لا يمكن على ما تمهد وقوع واحدة منهما في موضع الأخرى، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الحج قوله تعالى: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا

=

=

تَعُدُّونَ) (الحج: ٤٧)، وفي سورة السجدة: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (السجدة: ٥)، وفي سورة المعارج: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج: ٤)، يسأل عن وجه الفرق؟ وما معنى تقدير اليوم بما ذكر تعالى؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن المراد تبيين أفعال سبحانه، وأنه لا تكلف فيها ولا معالجة: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)، فكأن قد قيل لهم: إذا شاء هذابكم كان، فإنه سبحانه المتعالي عن التعاون والمعالجة والافتقار، فإذا قدر الشيء وأراد إنفاذه كان وتحصل في الوقت الوجيز القريب، منه ما تصدرون حصوله ومعالجة وقوعه في ألف سنة من أيامكم أو ما تقدرون تهيئة ونفوذه بألف سنة من أيامكم على مألوفكم، وإذا أراد سبحانه وقوع ذلك كان (عن أمره كن) أعجل من كل عاجل، إذ ليست أفعاله كأفعال خلقه التي يحتاجون فيها إلى العون والعلاج والآلات، تعالى الله عن شبه خلقه، فَلِمَ يستعجلون ما لا تكلف في وقوعه وحلوله؟ فإنما يمنع من استعجاله ربطه بأجل، إذا بلغ الأجل كان وقوعه، وهو يوم القيامة، وهو الأجل المسمى، ومن شاء تعجيل عذابه في دنياه أو ما شاء من امتحانه حل به إذا آن وقته، وتوقفه عمن قدره عليه إملاء وزيادة في امتحانه، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا) (الحج: ٤٨)، (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف: ٣٤)، وعلى هذا قوله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ....) (السجدة: ٥)، المراد أن بعد هذه المسافة لا تحول دون استعجال نفوذه تدبيره وإمضاء مقاديره، وأنه سبحانه ليديرها ثم ترجع إليه في وقت لو وُكل ذلك إليكم وكان من مقدوراتكم لفعلتموه في ألف سنة على نحو ما تقدم في الآية الأخرى.

وأما آية المعارج فالمراد باليوم المذكور فيها يوم القيامة، الواقع فيها حساب

=

=

الخلائق، ووزن أعمالهم، وفصل ما بينهم، إلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ففيه من الأعمال المتعلقة بالخلق ما يتقدر وقوعه وتخلصه من أيام الدنيا على متعارفها، مع عظيم أهواله وشدة كروبه، وأيام الأهوال والشدائد توصف بالطول لعظيم أهوالها، مع ما يقتضي فيه. مقدر من أيامنا بخمسين ألف سنه، وهو على مؤمن التقي كصلاة صلاها، قال تعالى: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) (المدثر: ٨ - ١٠)، ويدل على أن المراد به يوم القيامة ما ذكره الله سبحانه عقب تقديره من وصفه بقوله: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) (المعارج: ٨) إلى قوله: (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ) (المعارج: ١٤).

الآية الخامسة من سورة الحج قوله تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الحج: ٥٠)، وبعد هذه الآية قوله تعالى: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (الحج: ٥٦)، يسأل عن وجه الاختلاف فيما ذكر من الجزاء مع اتفاق وصفهم بالإيمان وعمل الصالحات؟

والجواب عنه أن الآية الأولى إخبار لهم عند دعائهم قبل: أن ((آمنوا))، ألا ترى أن قبله أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بما يقول لهعم في قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الحج: ٤٩)، ثم أخبرهم بمآلهم إن آمنوا من غفران ما تقدم لهم من أعمال المخالفات والمجترخحات، والرزق الكريم، ولما ذكر في الآية الأولى حالهم في الدار الأخرى بعد انصرام الدنيا، وحصول اتصافهم بالإيمان وأعمال الطاعات، أخبروا فيها بالحاصل من المغفرة، وبين لهم الرزق الكريم وأنه نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، فالآية الأولى تضمنت وعدهم إن آمنوا، وذلك عند دعائهم إلى الإيمان، ويزيدك في ذلك بيانًا نداؤهم في دعائهم إلى

=

الاستجابة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (الحج: ٤٩)، ولو كانوا قد حصل لهم الإيمان لوسموا بذلك في خطابهم، فكأن يقال: يا أيها الذين آمنوا، فإنما دعوا بما به (يدعى) من لم يحصل له الإيمان ولا اتصف به، وبشروا إن آمنوا، ثم أخبروا ثانيًا بالحاصل لهم بيانًا لمضمن البشارة الأولى وإخبارًا لهم بغاية الجزاء، فالآية الثانية بيان وتفصيل لما أجمل في الآولى، مرتب عليه وآت بعده بما يجب فيما يأتي فيه الإجمال والتفصيل، فكأنهم قالوا: ما الرزق الكريم؟ فقيل لهم: جنات النعيم، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب، ولا يلائم ما ورد من الجزاء في الآية الثانية - على تمهيد - ما وقع دعاء أو خطابًا في الأولى، ولا ما بني على الآية الأولى أن وقع إخبارًا في الثانية، بل ورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الحج قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج: ٦٢)، وفي سورة لقمان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (لقمان: ٣٠)، للسائل أن يسأل عن التأكيد بزيادة ((هو)) في سورة الحج وسقوطه من سورة لقمان؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه، وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرهم تعريفًا بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم، وأوضح هذا المتكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعد فصلًا أو مبتدأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١)، وقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ (الحج: ٧٣)، فهذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج: ٦٢)، فورد قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الآية بناء على قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾،

=

وتمهيدًا وتوطئه لما وبخوا به بعدها وقرعوا مما لا يجدون عليه جوابًا من قوله: (لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) (الحج: ٧٣) إلى قوله: (مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الحج: ٧٤). (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج٦٢)، فتأمل عظيم هذه المناسبة والتئام هذه الآية العظيمة، ولو لم تتقدم الآية المتقدمة من قوله: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ) (الحج: ٣١) الآية لكانت الأخيرة وهي قوله: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) (الج: ٧٣) والتقديم والتأخير مما يرتكبه العرب كثيرًا، ويوجد في فصيح كلامهم، ومن نحو هذه الآية التي بنينا مفهومها على تقدير التقديم والتأخير قوله تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) (البقرة: ٧٢)، فتأخر هذا في الترتيب والتلاوة عن قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) (البقرة: ٦٧). وفعلهم متقدم من جهة معناه لأنهم إنما أمروا بذبح البقرة عند تشاجرهم في أمر القتيل المشار إليه، فالآيتان في قوة أن لو قيل: وإذ قتلتم نفسًا فادرأتم فيها فأمرتم بذبح البقرة فأوضح لكم ذلك حكم القتيل، فعلى هذا كانت تكون آية سورة الحج لو لم يرد قوله أولًا: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ....) الآية، فكان ترتيب الآية على قصور أفهامنا وما عليه ترتيب الكتاب العزيز أعلى نظمًا وأجل، ولكن أفهامنا قاصرة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الحج: ٧٣ - ٧٤) (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج: ٦٢)، فقدم وأخر لعامل أيضًا على التقديم والتأخير لسنا الآن له، فهذه كأية البقرة سواء، ولما لم يقع في سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد، وذلك أبين شيء وأنسبه، وإعراب هذا الضمير مبتدأ أو فصلًا، وثمرته

=

سُورَةَ الْمُؤْمِنُونَ(١)

=

التأكيد لما ذكر، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة الحج: (قوله تعالى: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الحج: ٦٤)، وفي سورة لقمان: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (لقمان: ٢٦)، للسائل أن يسأل عن زيادة (ما) في قوله في الآية الأولى: (وَمَا فِي الْأَرْضِ)؟ وزيادة لام الابتداء المؤكد في الجملة التي هي خبر إن وسقوط الحرفين في آية لقمان؟

والجواب: أن الزيادتين معًا للتأكيد، لا تدخل اللام الخبرَ لغير ذلك، وتكرار الموصول أيضًا لذلك فدخلتا في آية الحج لما قدرت الآية قبلها من السورة من بنائها على مقصود التأكيد فجواب هذين السؤالين حاصل مما تقدم. والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣٥٧-٣٦٣).

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها نزلت بمكة. وهذا قول ابن عباس، ومقاتل، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، وابن ابي زمنين، والثعلبي، ومكي بن أبي طالب، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وغيرهم.

قال ابن الجوزي والقرطبي:"سورة المؤمنين مكية في قول الجميع".

قال الفيروزآبادي: "السورة مكّيّة إجماعا".

الثاني: أنها مكية، إلا قوله: {حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ} [المؤمنون: ٦٤] إلى قوله سبحانه: {مُبْلِسُونَ} [المؤمنون: ٧٧]. ذكره في الإتقان.

قال الألوسي:"واستشكل الحكم على ما عداه بكونه مكيا لما فيه من ذكر الزكاة وهي إنما فرضت بالمدينة، وأجيب بأنه بعد تسليم أن ما ذكر فيه يدل على

=

=

فرضيتها يقال: إن الزكاة كانت واجبة بمكة والمفروض بالمدينة ذات النصب".
* عدد آياتها مائة وثمانية عشر عند الكوفيّين، وتسعة عشر عند الباقين. وكلماتها ألف ومائتان وأربعون. وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وواحد. المختلف فيها {وَأَخَاهُ هَارُوْنَ}.
مجموع فواصل آياتها (من).
* أسماء السورة:
تسمى «سورة المؤمنون» اشتهرت تسميتها باسم «سورة المؤمنون»، وكتبت في المصاحف وكتب التفسير، وكتب السنة. سميت «سورة المؤمنون» على اعتبارين:
أحدهما: إضافة السورة إلى «المؤمنين»، لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا.
الثاني: سميّت بذلك، على حكاية لفظ «المؤمنون» الواقع أولها في قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة.
وتسمى سورة «قد أفلح» سميت بسورة «قد افلح»، من باب تسمية السورة بأول جملة افتتحت بها"، وقد وردت هذه التسمية عند بعض أهل العلم، منها:
- قال ابن القاسم: «أخرج لنا مالك مصحفا لجده فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا.. » إلى أن قال: «وفي:"قد أفلح" كلها الثلاث لله»، أي: خلافا لقراءة: {سَيَقُولُونَ لِله} [المؤمنون: ٨٥]".
- قال أبو بكر النيسابوري: «قرأ حفص عن عاصم {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [٤٠] وفي سورة: «قد أفلح» مثله. وقرأ الباقون {مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ} غير منون في السورتين».
- قال أبو أحمد السامري: «ومن سورة: "قد أفلح": {خَرْجًا} [المؤمنون: ٧٢]، يعني: جُعلا، بيئ بغير ألف بلغة حمير، وخراجا بلغة قريش».

=

=

وكذا سماها بعض المفسرين، مثل الزمخشري، والفخر الرازي، وابن المختار الرازي،وأبي الشامة، والسمين الحلبي، وابن عرفة.

وتسمى «قد أفلح المؤمنون» وردت بسورة «قد أفلح المؤمنون»، وهي تسمية للسورة بأول آية افتتحت بها.

وقد وردت هذه التسمية عند بعض العلماء، مثل: الواحدي، والفخر الرازي، والسخاوي، وأبي الشامة، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، وغيرهم.

وتسمى سورة «الفلاح» جاء في "التحرير" تسميتها بسورة: «الفلاح»، وذلك دون نسبتها إلى قائل.

قال ابن عاشور:"ويسمونها أيضا: سورة «الفلاح»".

كما وردت هذه التسمية عند الشنقيطي.

* مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه: الفتوى بفلاح المؤمنين، والدّلالة على أَخلاق أَهل الإِسلام، وذكر العجائب فى تخليق الأَولاد فى الأَرحام، والإِشارة إِلى الموت والبعث، ومِنَّة الحق على الخلق بإِنبات الأَشجار، وإِظهار الأَنهار، وذكر المراكب، والإِشارة إِلى هلاك قوم نوح، ومَذَمّة الكفَّار، وأَهل الإِنكار، وذكر عيسى ومريم، وإِيوائهما إِلى رَبْوة ذات قرار، وإِمهال الكُفَّار فى المعاصى، والمخالفات، وبيان حال المؤمنين فى العبادات، والطَّاعات، وبيان حُجّة التَّوحيد وبرهان النبوّات، وذلّ الكفَّار بعد الممات، وعجْزهم فى جهنَّم حال العقوبات، ومكافأَتهم فى العقبى على حسب المعاملات، فى الدّنيا فى جميع الحالات، وتهديد أَهل اللَّهو، واللَّغو، والغَفَلات، وأَمر الرّسول بدعاءِ الأَمّة، وسؤال المغفرة لهم والرّحمات، فى قوله: {رَّبِّ اغفر وارحم وَأنتَ خَيْرُ الراحمين}.

* المتشابهات: قوله: {لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (فواكه) بالجمع و (منها) بالواو، وفى الزّخرف {فَاكِهَةٌ} على التوحيد {مِنْهَا تَأْكُلُونَ} بغير واو.

=

=

راعى فى السّورتين لفظ الجَنَّة. وكانت فى هذه (جنَّات) بالجمع فقال: (فواكه) بالجمع، وفى الزخرف: {وَتِلْكَ الجَنَّةُ} بلفظ التوحيد، وإن كانت هذه جنَّة الخُلْد لكن راعى اللَّفظ فقال {فِيهَا فَاكِهَةٌ} وقال فى هذه السّورة {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} بزيادة الواو؛ لأَنَّ تقدير الآية: منا تَدَّخِرون، ومنها تأكلون، ومنها تبيعون، وليست كذلك فاكهة الجنَّة، فإنها للأكل فقط. فذلك قال: {مِنْهَا تَأْكُلُونَ} ووافق هذه السورة ما بعدها أَيضًا، وهو قوله: {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ} فهذا للقرآن معجزة وبرهان.

قوله: {فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ} وبعده {وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُوا} فقُدِّم (مِن قومه) فى الآية الأُخرى، وأُخِّر فى الأُولى؛ لأَنَّ صلة (الذين) فى الأُولى اقتصرتْ على الفعل وضمير الفاعل، ثمَّ ذكر بعده الجارّ والمجرور ثم ذكر المفعول وهو المَقُول، وليس كذلك فى الأُخرى، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مَرّة بعد أُخرى، فقدّم الجارّ والمجرور؛ لأَنَّ تأخيره يلتبس، وتوسيطه ركيك، فخُصَّ بالتقدم.

قوله: {وَلَوْ شَآءَ الله لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً} (وفى حم السجدة: ({وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً}) لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم ذكر الله، وليس فيه ذكر الرّب، وفى السّجدة تقدّم ذكر (ربّ العالمين) سابقا على ذكر لفظ الله، فصرّح فى هذه السورة بذكر الله، وهناك بذكر الرَّب؛ لإضافته إلى العالمين وهم مِن جملتهم، فقالوا إِمَّا اعتقادًا وإِمَّا استهزاءً: لو شاءَ ربنا لأَنزل ملائكة، فأَضافوا الربّ إِليهم.

قوله: {واعملوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، وفى سبأ {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} كلاهما من وصف الله سبحانه. وخصّ كلّ سورة بما وافق فواصل الآى.

قوله: {فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظالمين} بالأَلف واللاَّم، وبعده: {لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ}؛ لأَنَّ الأَوّل لقوم صالح، فعرّفهم بدليل قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة}، والثانى نكرة، وقبله

=

مَكِّيَّة وَآيَاتهَا ١١٨ أَوْ ١١٩ نزلت بعد الأنبياء.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

{قُرُونًا آخَرِينَ} وكانوا منكَّرين، ولم يكن معهم قرينة عُرِفوا بها، فخُصّوا بالنَّكرة.

قوله: {لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هاذا مِن قَبْلُ}، وفى النمل {لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ} لأَنَّ ما فى [هذه] السّورة على القياس؛ فإِنَّ الضَّمير المرفوع المتَّصل لا يجوز العطفُ عليه، حتى يؤكَّد بالضمير المنفصل، فأَكَّد (وعدنا نحن) ثم عُطِف عليه (آباؤنا)، ثم ذكر المفعول، وهو (هذا) وقُدِّمَ فى النمل المفعول موافقة لقوله (ترابًا) لأَنَّ القياس فيه أَيضًا: كنَّا نحن وآباؤنا ترابًا (فقدّم "ترابًا") ليسُدّ مسدّ نحن وكانا متوافقين.

قوله: {سَيَقُوْلُوْنَ للهِ}، وبعده: {سَيَقُوْلُوْنَ للهِ} وبعدهُ: {سَيَقُوْلُوْنَ للهِ} الأَوّل جواب لقوله {قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ} جواب مطابق لفظًا ومعنًى لأَنَّه قال فى السّؤال: (قل لمن) فقال فى الجواب: (لله) وأَمّا الثانى والثالث فالمطابقة فيهما فى المعنى؛ لأَنَّ القائل إِذا قال لك: مَنْ مالِك هذا الغلام؟ فلك أَن تقول: زيدٌ، فيكون مطابقًا لفظًا ومعنى. ولك أَن تقول لزيد، فيكون مطابقًا للمعنى. ولهذا قرأَ أَبو عمرو الثَّانى والثَّالث: (الله) (الله)؛ مراعاة للمطابقة.

قوله {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ} وقبله: {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ} ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوَّل فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الجَدْب عند بعضهم، ويومُ بدر عند البعض، والثانى فى القيامة، وهم فى الجحيم؛ بدليل قوله: {رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا}. بصائر ذوي التمييز.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١).

{قد} للتحقيق {أفلح} فاز {المؤمنون}.

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢).

{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتهمْ خَاشِعُونَ} مُتَوَاضِعُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣).

{وَالَّذِينَ هم عن اللغو} من الكلام وغيره {معرضون}.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} مُؤَدُّونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥).

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} عَنْ الْحَرَام.

إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦).

{إلَّا عَلَى أَزْوَاجهمْ} أَيْ مِنْ زَوْجَاتهمْ {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانهمْ} أَيْ السَّرَارِي {فَإِنَّهُمْ غَيْر مَلُومِينَ} في إتيانهن.

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧).

{فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ} مِنْ الزَّوْجَات وَالسَّرَارِي كَالِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ فِي إتْيَانهنَّ {فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ} الْمُتَجَاوِزُونَ إلَى مَا لَا يَحِلّ لَهُمْ.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨).

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ} جَمْعًا وَمُفْرَدًا {وَعَهْدهمْ} فِيمَا بَيْنهمْ أَوْ فِيمَا بَيْنهمْ وَبَيْن الله مِنْ صَلَاة وَغَيْرهَا {رَاعُونَ} حَافِظُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩).

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتهمْ} جَمْعًا وَمُفْرَدًا {يُحَافِظُونَ} يُقِيمُونَهَا فِي أَوْقَاتهَا.

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠).

{أُولَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ} لَا غَيْرهمْ.

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١).

{الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْس} هُوَ جَنَّة أَعْلَى الْجِنَان {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} فِي ذَلِكَ إشَارَة إلَى الْمَعَاد وَيُنَاسِبهُ ذِكْر الْمَبْدَأ بَعْده[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال (كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي، نسمع عند وجهه كدوي النحل، فأنزل عليه يوما، فمكثنا ساعة فسرى عنه، فاستقبل القبلة، فرفع يديه فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا» ثم قال: لقد أنزلت على عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ إلى قوله: هُمْ فِيها خالِدُونَ) أخرجه أحمد (١/ ٣٤)، وعبد الرزاق (٦٠٣٨)، والترمذي (٣١٧٣)، والحاكم (١/ ٧١٧)، والنسائي في الكبرى (١٤٤٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١٥)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٧٧) والعقيلي (٤/ ٤٦٠)، والضياء في المختارة (٢٣٤) والحديث ضعفه الترمذي، وكذا ضعفه أبو حاتم الرازي في العلل لابنه (٣/ ٧٥) بقوله: يونس بن سليم لا أعرفه ولا يعرف هذا من حديث الزهري، وقال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم، وأقره المزي في تهذيب الكمال (٢٠/ ٥٧٣)، وابن كثير في البداية والنهاية، وقال العقيلي: وقال العقيلي: يونس بن سليم لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك متعقبا الحاكم في تصحيحه قلت: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا؟ فقال: أظنه لا شيء، ونقل الزيلعي في تخريج الكشاف (٤/ ٤٠٩): قول أبو حاتم والنسائي =

=

وأقرهما، وقال الألباني في الضعيفة (١٢٤٢): منكر، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف.

وعن ابن سيرين؛ قال: كان رسول الله ﷺ مما ينظر إلى الشيء في الصلاة فيرفع بصره؛ حتى نزلت آية: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)}، قال: فوضع رسول الله ﷺ رأسه.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ إذا صلى رفع رأسه إلى السماء تدور عيناه ينظر ههنا وههنا؛ فأنزل الله: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)}؛ فطاطأ ابن عون - الراوي- ونكس في الأرض.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٢٤٠)، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٢/ ٢٥٤ رقم ٣٢٦١، ٣٢٦٢)، وأبو داود في "المراسيل" (ص ٩٦ رقم ٤٥)، والطبري في "جامع البيان" (١٨/ ٣)، والحازمي في "الاعتبار في الناسخ والمنسوخ" (ص ٦٥)، وسعيد بن منصور في "سننه" -ومن طريقه البيهقي في "الكبرى" (٢/ ٢٨٣) - من طريق ابن عون وأيوب السختياني وخالد الحذاء ثلاثتهم عن ابن سيرين به مرسلًا. وهذا مرسل صحيح الإسناد، وقد روي عنه عن أبي هريرة به موصولًا؛ لكنه لا يصح كما سيأتي، لكن ما يفهم من الحديث من النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة قد صح من حديث عدد من الصحابة -والله أعلم-.

ووصله الحاكم (٢/ ٣٩٣) -وعنه البيهقي (٢/ ٢٨٣) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢١٠)، والحازمي في "الاعتبار" (ص ٦٥) من طريق أبي شعيب الحراني عن أبيه عن إسماعيل بن علية عن أيوب السختيانى عن ابن سيرين عن أبي هريرة به موصولًا.

قلنا: أبو شعيب الحراني ثقة؛ لكنه كان يخطئ ويهم؛ كما قال ابن حبان في

=

=

"الثقات" (٨/ ٣٦٩)، وانظر: "لسان الميزان" (٣/ ٢٧١).

وقد رواه سعيد بن منصور ويعقوب بن إبراهيم كلاهما عن إسماعيل بن عُليّة به مرسلًا، وهما أوثق بكثير منه؛ ولذلك قال البيهقي عقبه: "هذا هو المحفوظ: مرسل".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، لولا خلاف فيه على محمد -يعني: ابن سيرين-، فقد قيل عنه مرسلًا"؛ فتعقبه الذهبي بقوله: "الصحيح مرسل".

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "إرواء الغليل" (٢/ ٧٣): "وقد تبين لي أخيرًا أنّ هذا القول هو الصواب" وذكر نحو ما ذكرنا.

وأخرجه البيهقي (٢/ ٢٨٣) من طريق محمد بن يونس الكديمي عن أبي زيد سعيد بن أوس عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة به موصولًا. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه الكديمي، اتهم بالكذب؛ كما في "التهذيب" (٩/ ٤٧٦ - ٤٧٨). قال البيهقي عقبه: "والصحيح هو المرسل"، وتعقبه ابن التركماني بقوله: "ابن أوس -وهو سعيد أبو زيد الأنصاري- ثقة، وقد زاد الرفع، كيف وقد شهد له رواية ابن علية لهذا الحديث موصولًا عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة".

قلنا: لكن الراوي عن ابن أوس كذاب لا يحتج به، والرواية الأخرى تقدم الكلام عليها وذكرنا أن الراجح فيها الإرسال.

وعليه، فقد تبين لنا من هذا التخريج أن الصواب في الحديث الإرسال.

وقد أخرج الطبري في "جامع البيان" (١٨/ ٣) من طريق الحجاح الصواف عن ابن سيرين؛ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء، حتى نزلت: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)}؛ فقالوا بعد ذلك برؤوسهم هكذا.

=

=

وفي هذا مخالفة لما رواه ابن عون وأيوب وخالد الحذاء، من أن فاعل ذلك كان النبي ﷺ، والظاهر أن الخطأ من محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري؛ فإنه ضعيف؛ كما في "التقريب"؛ بل إنه اتهم، وضعفه بعضهم جدًا، وقال ابن حبان في "المجروحين" (٢/ ٣٠٣): "كان ممن ينفرد عن الثقات بالأشياء المقلوبات".

بل قال ابن العربي المالكي في "الناسخ والمنسوخ" (٢/ ٣٠٩): "وحديث ابن سيرين باطل! وما روى غيره لا أصل له، إنما روى في "الصحيحين": "إنا كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}؛ فأمرنا بالسكوت". وألمح في كتابه "أحكام القرآن" (٣/ ١٢٩٥) لضعفه.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٨٣، ٨٤) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأخرج سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٨/ ٣) -: ثني حجاج عن ابن جريج؛ قال: قال لي غير عطاء: كان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة نظر عن يمينه ويساره ووجاهه، حتى نزلت: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)}؛ فما رؤي بعد ذلك ينظر إلى الأرض. وهذا إسناد واه؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف. والثانية: حجاج بن محمد، اختلط بآخره.

والثالثة: ابن جريج من اتباع التابعين؛ فعلى ذلك إما أن يكون روى عن تابعي أو تابع تابعي مثله؛ فهو إما معضل، أو مرسل، مع جهالة هذا المعضل أو المرسل -والله أعلم-.

* افتتاح السورة افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام

=

=

الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

ولما كانت همة المؤمنين منصرفة إلى تمكن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاما بأنهم نجحوا فيما تعلقت به هممهم من خير الآخرة وللحق من خير الدنيا، ويتضمن بشارة برضى الله عنهم ووعدا بأن الله مكمل لهم ما يتطلبونه من خير.

قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون: ١].

قال الطبري: يعني: " قد أدرك الذين صدّقوا الله ورسوله محمدًا ﷺ، وأقرّوا بما جاءهم به من عند الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سمى في هذه الآيات، الخلود في جنَّات ربهم وفازوا بطلبتهم لديه".

قال ابن كثير:"أي: قد فازوا وسُعِدُوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف".

قال مقاتل:"يعني سعد المصدقين بتوحيد الله ﷻ".

قال يحيى:"قد سعد المؤمنون، والسعداء أهل الجنة".

قال ابن عباس:"قد فاز المؤمنون وسعدوا يوم القيامة".

عن مجاهد، قال: " إن الله ﷻ غرس جنات عدن بيده، فلما تكاملت أغلقت فهي تفتح في كل سحر فينظر الله ﷻ إليها فيقول: {قد أفلح المؤمنون} [المؤمنون: ١]".

عن قتادة، قال كعب: "لم يخلق الله بيده إلا ثلاثة: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، ثم قال لها: تكلمي! فقالت: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}، لما علمت فيها من الكرامة".

وأكد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي

=

=

التوكيد، فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إن واللام) في الجملة الاسمية، أي يفيد توكيدا قويا.

ووجه التوكيد هنا أن المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء

فلاحهم كالذي في قوله: وافعلوا الخير لعلكم تفلحون [الحج: ٧٧]، فكانوا لا يعرفون تحقق أنهم أتوا بما أرضى ربهم ويخافون أن يكونوا فرطوا في أسبابه وما علق عليه وعده إياهم، بله أن يعرفوا اقتراب ذلك فلما أخبروا بأن ما ترجوه قد حصل حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقق. فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله، ولعل منه: قد قامت الصلاة، إشارة إلى رغبة المصلين في حلول وقت الصلاة، وقد قال النبيء ﷺ: «أرحنا بها يا بلال»

وشأن المؤمنين التشوق إلى عبادتهم كما يشاهد في تشوق كثير إلى قيام رمضان.

وحذف المتعلق للإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحا كاملا.

وقد أخرج النسائي عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: (كان خلقه القرآن، ثم قرأت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ حتى انتهت إلى قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ وقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٢)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٠٩) وأبو الشيخ في أخلاق النبي (ص ٣٩) وإسناده ضعيف فيه يزيد بن بابنوس البصرى قال عنه الحافظ في التقريب: مقبول، لذا ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الأدب المفرد، لكن قولها (كان خلقه القرآن) أخرجه مسلم (٧٤٦).

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى حاط حائط

=

=

الجنّة لَبِنَة من ذهب ولَبِنَة من فضة، وغرس غرسها بيده فقال لها: تكلَّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال لها: طوبى لكِ منزل الملوك) أخرجه البزار مرفوعا (٣٥٠٧ - كشف)، وموقوفا (٣٥٠٨ - كشف) والحديث قال عنه البزار: لا نعلم أحدا رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت، وقال الهيثمي في المجمع (١٠٠/ ٤٠٠): روي مرفوعا وموقوفا ورجال الموقوف رجال الصحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٦٢) لأنه وإن كان الصحيح فيه الوقف ولكنه لا يقال من قبل الرأي وأبو سعيد رضي الله عنه غير مشهور بالرواية عن أهل الكتاب.

قال ابن الجوزي: قال الفرّاء: «قد» ها هنا يجوز أن تكون تأكيدًا لفلاح المؤمنين. ويجوز أن تكون تقريبًا للماضي من الحال، لأن «قد» تقرِّب الماضي من الحال حتى تُلحقَه بحكمه، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة، قبل حال قيامها، فيكون معنى الآية: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال ا.هـ

والفلاح: الظفر بالمراد، وإدراك المأمول من الخير والبر مع البقاء فيه.

والخشوع: السكون والطمأنينة، ومعناه شرعا: خشية في القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله سبحانه.

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: ٢].

قال مقاتل:"يقول: متواضعون، يعني: إذا صلى لم يعرف من عن يمينه ومن عن شماله".

قال الطبري: يقول: " الذين هم في صَلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته، وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها".

عن أبي عبيدة أن عبد الله بن مسعود:"كان إذا قام في الصلاة خفض فيها بصره، ويديه وصوته".

=

=

وفي المراد بالخشوع في الصلاة خمسة أقوال:

أحدها: أنه النظر إلى موضع السجود.

يذكر عن أبي هريرة،:"أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزل: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}". وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار، وقتادة.

الثاني: أنه ترك الالتفات في الصلاة، وأن تلين كنفك للرجل المسلم، قاله علي بن أبي طالب.

الثالث: أنه السكون في الصلاة، قاله مجاهد، وإبراهيم، والزهري.

وقال مجاهد: "كان أهل العلم يكرهون إذا قام الرجل في صلاته أن يعبث بشيء من هكذا يديه، أو يلتفت، أو يهتم بشيء من أمر الدنيا".

الرابع: خاضعون، وهو قول ابن عيسى.

الخامس: أنه الخوف، قاله الحسن.

وقال ابن عباس:"خائفون ساكنون".

قال الحسن:"الخشوع: الخوف الثابت في القلب".

قال الحسن:"كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك البصر وخفضوا به الجناح".

قال الزجاج:"أصل الخشوع في اللغة: الخضوع والتواضع، ودليل ذلك قوله: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٨]".

قال الطبري:"الخشوع: التذلل والخضوع، ولم يكن الله تعالى ذكره دل على أن مراده من ذلك معنى دون معنى في عقل ولا خبر، فكان معلوما أن معنى مراده من ذلك العموم، وتأويل الكلام على ذلك أنه: والذين هم

في صلاتهم متذللون لله بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته، وإذا تذلل لله فيها العبد

=

=

رؤيت ذلة خضوعه في سكون أطرافه، وشغله بفرضه وتركه ما أمر بتركه فيها".

قال ابن كثير:"«الخشوع» في الصلاة إنما يحصل بمن فَرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليّ الطِّيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» ".

عن سالم ابن أبي الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: "دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار، فحَضَرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتني بوَضُوء لعلي أصلي فأستريح. فرآنا أنكرنا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة".

والمعنى: قد فاز وظفر بالمطلوب، أولئك المؤمنون الصادقون، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم. وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة.

ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده، فقد أبصر النبي ﷺ رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

قال القرطبي: «اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين، والصحيح الأول ومحله القلب، وهو أول عمل يرفع من الناس ... » ا.هـ.

(فائدة): قدم الله الخشوع في الصلاة على سائر صفات المؤمنين؛ لأن قوة إيمان الإنسان بمقدار خشوعه في صلاته، وكأن ما يلي من صفات هي تبع لهذه الصفة؛ فكامل الخشوع في الصلاة حاضر القلب فيها: لا بد أن يكون محققا لغير ذلك من صفات الخير منها؛ كالإعراض عن اللغو، وأداء الزكاة، وحفظ الفروج، ومراعاة

=

=

الأمانة والعهد.

والخشوع هو السكون والذل عند أوامر الله وكلامه هيبة ورهبة وتعظيما؛ كما قال تعالى في حال الظالمين: {وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل} [الشورى: ٤٥]، ومن ذلك سميت الأرض خاشعة: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} [فصلت: ٣٩]، فحركة الجسم تنافي خشوعه، ومثلها الحركة في الصلاة، فخشوع الشيء ثباته وسكونه مع انكساره؛ كقوله: {خاشعة أبصارهم} [القلم: ٤٣، والمعارج: ٤٤].

وبين الصلاة والخشوع تلازم، فلا تكتمل الصلاة إلا بخشوع، ولا يكتمل الخشوع إلا مع الصلاة؛ كما قال تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} [البقرة: ٤٥]؛ يعني: أن الصلاة ثقيلة وكبيرة على من لم يخشع فيها.

ومما يعين العبد على الخشوع كثرة ذكر الله، وقراءة القرآن بتدبر وتأمل؛ كما قال تعالى: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} [الحديد: ١٦]، وبين أن قسوة القلب بسبب قراءته بلا تدبر: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤)} [محمد: ٢٤]، وكذلك فإن الذكر كله والسجود مع حضور القلب يزيد في الخشوع ويقويه، كما قال تعالى: {ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٩)} [الإسراء: ١٠٩].

وقدم الله الخشوع في سورة (المؤمنون) على الحفاظ على الصلاة، مع أنه لا يخشع في صلاته إلا من حافظ عليها؛ لأن الخشوع هو المقصود من الصلاة، وليس حركة البدن بقيام وركوع وسجود مجرد.

❊ حكم الخشوع في الصلاة:

والخشوع في الصلاة عظيم القدر؛ به رفعة العبد وبه وضعه، وهو قلب الصلاة

=

=
ولبها، وهو مناط استحقاق الأجر فيها؛ فإنه ليس للإنسان إلا ما عقل من صلاته، وقد روى أحمد؛ من حديث عبد الله بن عنمة؛ قال: رأيت عمار بن ياسر دخل المسجد فصلى، فأخف الصلاة، قال: فلما خرج، قمت إليه، فقلت: يا أبا اليقظان، لقد خففت! قال: فهل رأيتني انتقصت من حدودها شيئا؟ قلت: لا، قال: فإني بادرت بها سهوة الشيطان؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها).

فجعل النبي ﷺ أجر الصلاة بمقدار خشوع المصلي فيها، وفهم عمار بن ياسر أن العبرة بحضور القلب، لا بمجرد طولها.

وعند الكلام على حكم الخشوع في الشرع، فلا بد من الكلام عليه من جهتين:

الجهة الأولى: حكمه من جهه أصله: فأما أصله، فمختلف فيه، وفي ذلك روايتان عن أحمد، والأرجح: أن أصله مستحب لا واجب، وحكى النووي الإجماع على عدم وجوبه، وفيه نظر؛ فقد قال بوجوبه جماعة؛ فهو رواية عن أحمد، قال بها الغزالي من الشافعية، ورجحها ابن حامد وابن تيمية من الحنابلة، وجعله الرازي شرط صحة.

والصواب سنيته مع جلالة فضله؛ وذلك أن الخشوع لو قيل بوجوبه، لكان في ذلك مشقة؛ إذ لا يسلم أحد حينها من إثم، إذ لا يسلم أحد من سهو يتبعه استرسال عن عمد بمقدار إيمان الإنسان، منهم من يقطعه من أوله، ومنهم من يأخذ منه لحظة ومنهم لحظات، والقول بتأثيم أولئك أمر دقيق، لو كان، لم تترك الشريعة التشديد فيه.

ويظهر أن نصوص الكتاب والسنة جاءت ببيان فضل الخشوع، ولم تأت بألفاظ الوعيد لتاركه؛ فدل على قصد الفضل، ووجود الحرج بالإيجاب، ويعضد ذلك
=

=

قول عمر بن الخطاب: "إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة"؛ أخرجه ابن أبي شيبة ؛ وهو صحيح عنه، وعلقه البخاري فى كتاب الصلاة من "صحيحه"، في باب تفكر الرجل الشيء في الصلاة.

وهذا من عمر لا يكون إلا مع شيء ولو يسيرا من الاسترسال المقصود، ولو كان يغالب أصله، ومنه ما لا يقوى عليه ولا يشعر به، وقد روي: "أن عمر صلى المغرب فلم يقرأ، فلما انصرف، قالوا: يا أمير المؤمنين، إنك لم تقرأ؟ ! قال: إني حدثت نفسي وأنا في الصلاة بعير وجهتها من المدينة، فلم أزل أجهزها حتى دخلت الشام! ثم أعاد الصلاة والقراءة".

وروى مالك بلاغا عن عمر؛ قال: "إني لأضطجع على فراشي، فما يأتيني النوم، وأقوم إلى الصلاة فما تتوجه إلي القراءة؛ من اهتمامي بأمر الناس".

وروي عنه: "إني لأحسب جزية البحرين وأنا في الصلاة".

وحكاية عمر ذلك عن نفسه ليست في سياق ارتكاب المحرم والتحدث به؛ وإنما لبيان ما يغلب عليه وهو معذور به ولو كان منه استرسال فيه.

بل إن بعض الأئمة يرى أن الخاطرة التي تغلب صاحبها ولو كانت تطول لو فكر بها، وتركها يشوش عليه: لا يجب عليه الخروج منها، كما نص على ذلك الشاطبي، فقال: "لا يجب على من ابتلي بالخاطر الخروج منه، إذا كان خروجه يشوش خاطره أكثر". ويبقى بعد هذا النظر في وجوب إعادة الصلاة أو استحبابها أو سقوطها.

ومن قرائن الفضل والاستحباب وعدم الوجوب: ما جاء في حديث عمار بن ياسر السابق: "إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها... "، فذكر نقصان الأجر، ولم يذكر لحاق الوزر، ولو كان الفعل محرما، لذكر الإثم، ولكنه بين نقصان الأجر؛ لعدم التمام فيها، لا لارتكاب محرم.

=

=

الجهة الثانية: حكمه من جهة أثره؛ فإن أثر الخشوع عظيم على الإيمان، وأثر فقده كبير عليه كذلك على ما تقدم؛ فإن الله لم يقدم الخشوع على بقية أوصاف المؤمنين إلا لأثره عليه، وأن تفويته سبب لإطلاق اللسان باللغو، وعدم حفظ الفروج، وتضييع الزكاة، وتضييع الأمانات، وخرم العهود، فترك الخشوع المتسبب في ذلك يأثم به صاحبه، وإن لم نقل بوجوب أصل الخشوع، ولكن القدر الذي يفحش حتى يفضي إلى ضعف الإيمان، والابتلاء بالمحرمات، وتضييع الأمانات والعهود: محرم، فيجب من الخشوع القدر الذى يحفظ للعبد خشية الله، ويحول بينه وبين ما حرم، وهذا القدر -وإن تعسر على كثير من الناس تمييزه في الكتابة وتحرير العلم- إلا أنهم يستطيعون تمييزه في العمل والعبادة؛ فللصلاة أثر على صاحبها بمقدار خشوعه فيها، والله أعلم.

وقوله سبحانه: وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ بيان لصفة ثانية من صفات هؤلاء المؤمنين.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٣]

قال الطبري: يقول:"والذين هم عن الباطل وما يكرهه الله من خلقه معرضون".

قال ابن كثير:"أي: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصي - كما قاله آخرون - وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]".

قال السعدي:"وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: " «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ " قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا» "، فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات".

=

=

وفي معنى «اللغو» هنا، أقوال:

أحدها: أن اللغو الباطل، قاله ابن عباس، والسدي.

الثاني: أنه الكذب، حكاه يحيى بن سلام.

الثالث: أنه الشرك بالله. رواه عطاء عن ابن عباس.

الرابع: أنه الحلف، قاله الكلبي.

الخامس: أنه الشتم لأن كفار مكة كانوا يشتمون المسلمين فهو عن الإجابة، قاله مقاتل.

قال مقاتل:"يعني اللغو: الشتم والأذى إذا سمعوه من كفار مكة لإسلامهم، وفيهم نزلت {مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]، يعني: معرضين عنه".

قال السمعاني:"وهذا قول حسن؛ لأن الله تعالى قال: {وإذا مروا باللغو مروا كراما}، أي: إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه".

السادس: أنها المعاصي كلها، قاله الحسن.

قال الزجاج:"اللغو: كل لعب وهزل، وكل معصية فمطرحة ملغاة، وهم الذين قد شغلهم الجد فيما أمرهم الله به عن اللغو".

قال ابن قتيبة:"{اللغو}: باطل الكلام والمزاح".

قال السعدي:"هو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة".

واللغو: ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال. فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام.

أى: أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل، ويعرضون عن ذلك في كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله تعالى اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها: لا بحقيرها وسفسافها، وهم كما وصفهم الله سبحانه في آية أخرى: وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ «٤» وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

=

=

كِرامًا «٥».

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقد بينها سبحانه بقوله: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [المؤمنون: ٤].

قال الطبري: يقول:"والذين هم لزكاة أموالهم التي فرضها الله عليهم فيها مؤدّون".

قال السعدي:"أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة".

قال الزجاج:"معنى: {فاعلون}، مؤتون".

وذكر الأزهري في تفسير الآية، قولان:

أحدهما: معناه: الذين هم للعمل الصالح عاملون.

الثاني: أن «الزكاة»،: زكاة الأموال، والمعنى: الذين هم للزكاة مؤتون.

قال ابن كثير:"الأكثرون على أن المراد بالزكاة -هاهنا- زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصَب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين في تفسيرها.

=

=

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم".

ويرى أكثر العلماء: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة الأموال. قالوا: لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة، وما فرض بعد ذلك في السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها، ومصارفها، وتفاصيل أحكامها أى: أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يخرجون زكاة أموالهم عن طيب نفس.

ويرى بعض العلماء: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس. أى: تطهيرها من الآثام والمعاصي. فهي كقوله تعالى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها.

أى: أن من صفات هؤلاء المؤمنين، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها.

قال ابن كثير: وقوله: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة.

والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة. والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ها هنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها وكقوله وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ فصلت: ٦ على أحد القولين في تفسيرها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا، وهذا، والله أعلم ا.هـ.

ثم بين سبحانه الصفة الرابعة من صفاتهم فقال: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إِلَّا

=

=

عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} [المؤمنون: ٥]

والذين هم لفروجهم حافظون مما حرَّم الله من الزنى واللواط وكل الفواحش.

قال يحيى:"من الزنا".

قال الزجاج:"أي: حافظون فروجهم عن المعاصي".

قال ابن كثير:"والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط".

قال القشيري:"ابتغاء نسل يقوم بحق الله، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعفف والتصاون عن مخالفات الإثم".

قال أهل العلم:"ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن التفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع، فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها".

قوله تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [المؤمنون: ٦]، أي:"هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات".

قال ابن عباس:"يقول: رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم، وما ملكت أيمانهم".

قال ابن كثير: أي:"ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري".

قال الزجاج:"فإنهم لا يلامون على ما أحل لهم من تزوج أربع، ومن ملك اليمين، والمعنى أنهم يلامون على ما سوى أزواجهم وملك أيمانهم".

قال يحيى:"إن شاء تزوج واحدة، وإن شاء تزوج اثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، لا يحل له ما فوق ذلك، يطأ بملك يمينه كم شاء".

قال الشافعي:"فأطلق الله - ﷻ - ما ملكت الأيمان فلم يحد فيهم حدا ينتهي إليه،

=

=

فللرجل أن يتسرى كم شاء، ولا اختلاف علمته بين أحد في هذا، وانتهى ما أحل الله بالنكاح إلى أربع".

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المؤمنون: ٦]، أي:"فإنهم غير مؤاخذين".

قال يحيى:"في أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، لا لوم عليهم في ذلك، أي لا إثم عليهم".

قال ابن كثير:"ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج".

قال الطبري:"يقول: فإن من لم يحفظ فرجه عن زوجه، وملك يمينه، وحفظه عن غيره من الخلق، فإنه غير مُوَبَّخٍ على ذلك، ولا مذمومٍ، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنبا يلام عليه".

أى: أن من صفات هؤلاء المؤمنين- أيضا- أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التي أحلها الله تعالى لهم، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسراري، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيمانا حقّا، أن تصان فيها الأعراض، وأن يحافظ فيها على الأنساب، وأن توضع فيها الشهوات في مواضعها التي شرعها الله تعالى وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح..

وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة، كالزنا واللواط وما يشبههما، إلا وكان أمرها فرطا، وعاقبتها خسرا، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب، وانتشار الأمراض، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة.

وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة في الأمة، وإلى تحول من يأتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة، تؤثر الرذيلة على الفضيلة.

وجملة: فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ تعليل للاستثناء.

أى: هم حافظون لفروجهم، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت

=

=

أيمانهم، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك، لأن معاشرة الأزواج أو ما ملكت الأيمان، مما أحله الله تعالى.

وقوله فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ أى: فمن طلب خلاف ذلك الذي أحله الله تعالى فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ أى: المعتدون المتجاوزون حدوده سبحانه، الوالغون في الحرام الذي نهى الله تعالى عنه. يقال: عدا فلان الشيء يعدوه عدوا، إذا جاوزه وتركه.

قوله تعالى: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } [المؤمنون: ٧]

التفسير:

فمن طلب التمتع بغير زوجته أو أَمَتِه فهو من المجاوزين الحلال إلى الحرام، وقد عرَّض نفسه لعقاب الله وسخطه.

قوله تعالى: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} [المؤمنون: ٧]، أي:"فمن طلب غير الزوجات والمملوكات".

قال مقاتل:"يقول: فمن ابتغى الفواحش بعد الحلال".

قال يحيى:"وراء أزواجه أو ما ملكت يمينه".

قال ابن كثير:"أي: غير الأزواج والإماء".

قال الطبري:"يقول: فمن التمس لفرجه مَنكَحًا سوى زوجته، وملك يمينه".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: ٧]، أي: "فأولئك هم المعتدون المجاوزون احدَّ في البغي والفساد".

قال مقاتل:"فهو معتد".

قال ابن كثير:"أي: المعتدون".

قال الطبري:"يقول: فهم العادون حدود الله، المجاوزون ما أحل الله لهم إلى ما حَرّم عليهم".

=

=

قال يحيى:"الزناة، تعدوا الحلال إلى الحرام".

عن ابن زيد، قوله: " {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، قال: الذين يتعدّون الحلال إلى الحرام".

قال أبو عبدالرحمن:"من زنى فهو عاد".

قال ابن عباس:"نهاهم الله نهيا شديدا، فقال: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، فسمى الزاني من العادين".

مسألة: اختلف العلما في حكم الإستنماء على أقوال هي:

القول الأول: التحريم وعليه جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

القول الثاني الكراهة وهو قول ابن حزم ورواية عن أحمد.

القول الثالث: الإباحة للحاجة وهو قول للحنفية ورواية ضعيفة عند الحنابلة.

قال ابن كثير: والذين حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلّها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، وقد استدل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة، قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال: (فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ) ا.هـ

واستدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) النور ٣٣ على أن الأمر بالعفاف يقتضي الصبر عما سواه.

واستدل بعض أهل العلم بحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا فقال لنا رسول الله صلى اللهم عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع الباءة (تكاليف الزواج والقدرة عليه) فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن

=

=

للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) رواه البخاري رقم (٥٠٦٦).

فارشد الشارع عند العجز عن النكاح إلى الصوم مع مشقته ولم يرشد إلى الاستمناء مع قوة الدافع إليه وهو أسهل من الصوم ومع ذلك لم يسمح به.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٣٩): أما الاستمناء فالأصل فيه التحريم عند جمهور العلماء ، وعلى فاعله التعزير ؛ وليس مثل الزنا. والله أعلم ا. هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠): أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء وهو أصح القولين في مذهب أحمد وكذلك يعزر من فعله. وفي القول الآخر هو مكروه غير محرم وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره ونقل عن طائفة من الصحابة والتابعين أنهم رخصوا فيه للضرورة: مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه إلا به ومثل أن يخاف إن لم يفعله أن يمرض وهذا قول أحمد وغيره. وأما بدون الضرورة فما علمت أحدا رخص فيه. والله أعلم.

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠/ ١/ ٤٢٦ - ٤٢٨): [روي عن النبي - ﷺ - أنه قال]: «ناكح اليد ملعون». وهو حديث ضعيف، ويغني عنه في الاستدلال على تحريم نكاح اليد؛ عموم قوله تعالى: «والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون». وقد استدل بها الإمام الشافعي ومن وافقه على التحريم، كما قال ابن كثير، وهو قول أكثر العلماء؛ كما قال البغوي في «تفسيره»، وحكاه العلامة الآلوسي «٥/ ٤٨٦» عن جمهور الأئمة، وقال: «وهو عندهم داخل في ما «وراء ذلك»». وانتصر له بكلام قوي متين.

وأما ما رواه عبد الرزاق في «المصنف» «٧/ ٣٩١/ ١٣٥٩٠»، وابن أبي شيبة «٤/ ٣٧٩» عن أبي يحيى قال: سئل ابن عباس عن رجل يعبث بذكره حتى ينزل؟

=

=

فقال ابن عباس: إن نكاح الأمة خير من هذا، وهذا خير من الزنى! فهذا لا يصح.
واعلم أنه لو صح ما تقدم عن ابن عباس؛ فإنه لا ينبغي أن يؤخذ منه إلا إباحة الاستمناء عند خشية الزنى لغلبة الشهوة. وأنا أنصح من أصيب بها من الشباب أن يعالجوها بالصوم؛ فإنه له وجاء. كما صح عنه ﷺ ا.هـ
وقال الشنقيطي: اعلم أنه لا شك في أن آية {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)} هذه التي هي {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)} تدل بعمومها على منع الاستمناء باليد المعروف بجلد عميرة، ويقال له: الخضخضة؛ لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منيه بذلك قد ابتغى وراء ما أحله الله، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا، وفي سورة (سأل سائل) وقد ذكر ابن كثير: أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية على منع الاستمناء باليد. وقال القرطبي: قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز، قال: سألت مالكًا عن الرجل يجلد عميرة، فتلا هذه الآية {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} إلى قوله {الْعَادُونَ}.
قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة.
وما روي عن الإمام أحمد مع علمه، وجلالته وورعه من إباحة جلد عميرة مستدلًا على ذلك بالقياس قائلًا: هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاز، قياسًا على الفصد والحجامة، كما قال في ذلك بعض الشعراء:
إذا حللت بواد لا أنيس به ... فاجلد عميرة لا عار ولا حرج
فهو خلاف الصواب وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها، لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن. والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد
=

=

الاعتبار، كما أوضحناه في هذا الكتاب المبارك مرارًا، وذكرنا فيه قول صاحب مراقي السعود:

والخلف للنص أو إجماع دعا ... فساد الاعتبار كل من وعى

فالله جل وعلا قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)} ولم يستثن من ذلك البتة إلَّا النوعين المذكورين في قوله تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} وصرح برفع الملامة في عدم حفظ الفرج عن الزوجة، والمملوكة فقط، ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين دالة على المنع هي قوله: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)} وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره ناكح يده. وظاهر عموم القرآن لا يجوز العدول عنه إلَّا لدليل من كتاب أو سنَّة يجب الرجوع إليه. أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار، كما أوضحنا. والعلم عند الله تعالى... وإنما قيل للاستمناء باليد: جلد عميرة؛ لأنهم يكنون بعميرة عن الذكر ا.هـ

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠/ ١/ ٤٢٦ - ٤٢٨): [روي عن النبي - ﷺ - أنه قال]: «ناكح اليد ملعون». وهو حديث ضعيف، ويغني عنه في الاستدلال على تحريم نكاح اليد؛ عموم قوله تعالى: «والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون». وقد استدل بها الإمام الشافعي ومن وافقه على التحريم، كما قال ابن كثير، وهو قول أكثر العلماء؛ كما قال البغوي في «تفسيره»، وحكاه العلامة الآلوسي «٥/ ٤٨٦» عن جمهور الأئمة، وقال: «وهو عندهم داخل في ما «وراء ذلك»». وانتصر له بكلام قوي متين.

وأما ما رواه عبد الرزاق في «المصنف» «٧/ ٣٩١/ ١٣٥٩٠»، وابن أبي شيبة «٤/ ٣٧٩» عن أبي يحيى قال: سئل ابن عباس عن رجل يعبث بذكره حتى ينزل؟

=

=

فقال ابن عباس: إن نكاح الأمة خير من هذا، وهذا خير من الزنى! فهذا لا يصح.
واعلم أنه لو صح ما تقدم عن ابن عباس؛ فإنه لا ينبغي أن يؤخذ منه إلا إباحة الاستمناء عند خشية الزنى لغلبة الشهوة. وأنا أنصح من أصيب بها من الشباب أن يعالجوها بالصوم؛ فإنه له وجاء. كما صح عنه ﷺ ا. هـ
وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٩/ ١٨٩): يجب على الإنسان أن يصبر عن الاستمناء؛ لأنه حرام لقول الله تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى ورآء ذلك فأولئك هم العادون)، ولأن النبي ﷺ قال: " يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم".
ولو كان الاستمناء جائزا لأرشد إليه النبي ﷺ؛ لأنه أيسر على المكلف، ولأن الإنسان يجد فيه متعة، بخلاف الصوم ففيه مشقة، فلما عدل النبي ﷺ إلى الصوم: دل هذا على أن الاستمناء ليس بجائز ا. هـ
أما الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المفلحين، فقد عبر عنها سبحانه بقوله: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ.
قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } [المؤمنون: ٨]
التفسير:
والذين هم حافظون لكل ما اؤتمنوا عليه، موفُّون بكل عهودهم.
قال مقاتل:"يقول: يحافظون على أداء الأمانة ووفاء العهد".
قال يحيى:"يؤدون الأمانة ويوفون بالعهد".
قال الطبري: يقول:"{وَالَّذِينَ هُمْ لأمَانَاتِهِمْ} التي ائتمنوا عليها {وَعَهْدِهِمْ} وهو عقودهم التي عاقدوا الناس {رَاعُونَ}، يقول: حافظون لا يضيعون، ولكنهم
=

=

يوفون بذلك كله".

قال الزجاج:"أي: يرعون العهد والأمانة ويحافظون عليها. وكل محافظ على شيء فهو مراع له. والإمام راع لرعيته".

قال ابن كثير:"أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» ".

وقال سهل بن عبد الله:"باطنها أمانة النفس، لأنها سر الله عند عباده، يسارهم بمعلومه فيها خواطرا وهمما، ويسارونه بالافتقار واللجأ إليه، فإذا سكن القلب إلى ما خطر عليه من وسوسة العبد وبأدنى شيء ظهر إلى الصدر، ومن الصدر إلى الجسد، فيكون قد خان في أمانة الله، وعهده والإيمان".

والأمانات: جمع أمانة، وتشمل كل ما استودعك الله تعالى إياه، وأمرك بحفظه. فتشمل جميع التكاليف التي كلفنا الله بأدائها كما تشمل الأموال المودعة، والأيمان والنذور والعقود وما يشبه ذلك.

والعهود: جمع عهد. ويتناول كل ما طلب منك الوفاء به من حقوق الله تعالى وحقوق الناس.

قال القرطبي: والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولا وفعلا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك. وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد» ا.هـ.

وقال ابن عاشور: هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحل إلى فضيلتين هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد. فالأمانة تكون غالبا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند

=

=

من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها وبأن يجحدها ربها، ولكون دفعها في الغالب عريا عن الإشهاد تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها، فلذلك جعل الله ردها من شعب الإيمان... وجمع الأمانات باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصا على العموم.....

والعهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به. وسمي عهدا لأنهما يتحالفان بعد الله، أي بأن يكون الله رقيبا عليهما في ذلك لا يفيتهم المؤاخذة على تخلفه، وتقدم عند قوله تعالى: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه

في سورة البقرة [٢٧].

والوفاء بالعهد من أعظم الخلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، فإن المرأين قد يلتزم كل منهما للآخر عملا عظيما فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو فتسول له نفسه الختر بالعهد شحا أو خورا في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى: وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا [الإسراء: ٣٤]... ا.هـ

وراعون: من الرعي بمعنى الحفظ يقال: رعى الأمير رعيته رعاية، إذا حفظها واهتم بشئونها.

أى: أن من صفات هؤلاء المفلحين. أنهم يقومون بحفظ ما ائتمنوا عليه من أمانات، ويوفون بعهودهم مع الله تعالى ومع الناس، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس.

وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم. إلا إذا أديت فيها الأمانات، وحفظت

=

فيها العهود، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه.

أما الصفة السادسة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، فهي قوله تعالى وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ.

قوله تعاللى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المؤمنون: ٩]

قال مسلم بن صبيح:"أقام الصلاة لوقتها".

قال مسروق:"على ميقاتها".

قال مقاتل:"على المواقيت".

قال الطبري:"يقول: والذين هم على أوقات صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يؤدوها فيها".

وروي عن إبراهيم: " {عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}، قال: دائمون، قال: يعني بها المكتوبة".

قال ابن كثير:"أي: يواظبون عليها في مواقيتها.. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها".

كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

قال ابن مسعود: «سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: "الصلاة على وقتها". قلت: ثم أيّ؟ قال: "بِرُّ الوالدين". قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"».

أى: أن من صفاتهم أنهم يحافظون على الصلوات التي أمرهم الله بأدائها محافظة تامة، بأن يؤدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع، ولقد بدأ سبحانه صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع في الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها، وسمو منزلتها.

=

وبعد أن بين سبحانه تلك الصفات الكريمة التي تحلى بها أولئك المؤمنون المفلحون، وهي صفات تمثل الكمال الإنساني في أنقى صوره.

بعد ذلك بين سبحانه ما أعد لهم من حسن الثواب فقال: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

والفردوس: أعلى الجنات وأفضلها وهو لفظ عربي يجمع على فراديس.

وقيل: هو لفظ معرب معناه: الذي يجمع ما في البساتين من ثمرات.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلى الجنات وأفضلها، وهم فيها خالدون خلودا أبديًا لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب.

قال ابن كثير:"فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترَكَ أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له - أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ، بل أبلغ من هذا أيضًا، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بُردَةَ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضَعُها على اليهود والنصارى».

قلت حديث أبي هريرة رضي الله عنه رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن البخاري أعله في "التاريخ الكبير" بالاختلاف فيه على أبي بردة، وأشار إلى ذلك البيهقي في "الشعب" ١/ ٣٤٢. لكن لفظه هذا رواه عن أبي بردة سبعة رواة لم يختلفوا عليه فيه، كما سيرد. عبد الصمد: هو ابن عبد الوارث، وهمام: هو ابن يحيى العوذي، وقتادة: هو ابن دعامة السدوسي.. قال البيهقي في الشعب (١/ ٢٦٦ - ٢٦٧) بعد

=

=

أن ساق الحديث: "فهذا حديث شك فيه بعض رواته، وشداد أبو طلحة ممن تكلم أهل العلم بالحديث فيه، وإن كان مسلم استشهد به في كتابه؛ فليس هو ممن يقبل منه ما يخالف فيه، والذين خالفوه في لفظ الحديث عدد، وهو واحد، وكل واحد ممن خالفه أحفظ منه، فلا معنى للاشتغال بتأويل ما رواه، مع خلاف ظاهر ما رواه الأصول الصحيحة الممهدة في أن لا تزر وازرة وزر أخرى والله أعلم" ا. هـ وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٨): وفي حديث الباب وما بعده دلالة على ضعف الحديث الذي أخرجه مسلم من رواية غيلان بن جرير عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رفعه " يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى "فقد ضعفه البيهقي وقال: تفرد به شداد أبو طلحة، والكافر لا يعاقب بذنب غيره لقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقد أخرج أصل الحديث مسلم من وجه آخر عن أبي بردة بلفظ "إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فداؤك من النار" قال البيهقي: ومع ذلك فضعفه البخاري وقال: الحديث في الشفاعة أصح. قال البيهقي: ويحتمل أن يكون الفداء في قوم كانت ذنوبهم كفرت عنهم في حياتهم، وحديث الشفاعة في قوم لم تكفر ذنوبهم، ويحتمل أن يكون هذا القول لهم في الفداء بعد خروجهم من النار بالشفاعة. وقال غيره: يحتمل أن يكون الفداء مجازا عما يدل عليه حديث أبي هريرة الآتي في أواخر "باب صفة الجنة والنار" قريبا بلفظ " لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا " الحديث وفيه في مقابله "ليكون عليه حسرة" فيكون المراد بالفداء إنزال المؤمن في مقعد الكافر من الجنة الذي كان أعد له وإنزال الكافر في مقعد المؤمن الذي كان أعد له، وقد يلاحظ في ذلك قوله تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها) وبذلك أجاب النووي تبعا لغيره. وأما رواية غيلان بن جرير فأولها النووي أيضا تبعا لغيره

=

=

بـأن الله يغفـر تلـك الـذنوب للمسلمين، فـإذا سـقطت عـنهم وضـعت علـى اليهـود والنصارى مثلها بكفرهم فيعـاقبون بـذنوبهم لا بـذنوب المسلمين ويكـون قولـه " ويضعها " أي يضع مثلها لأنه لما أسقط عن المسلمين سيئاتهم وأبقى على الكفـار سيئاتهم صاروا في معنى من حمل إثم الفريقين لكونهم انفردوا بحمل الإثـم البـاقي وهو إثمهم، ويحتمل أن يكون المراد آثاما كانت الكفار سببا فيها بـأن سـنوها فلمـا غفرت سيئات المـؤمنين بقيـت سـيئات الـذي سـن تلـك الـسنة الـسيئة باقيـة لكـون الكافر لا يغفر له، فيكون الوضع كناية عن إبقاء الذنب الذي لحق الكـافر بمـا سـنه من عمله السيئ، ووضـعه عـن المـؤمن الـذي فعلـه بمـا مـن الله بـه عليـه مـن العفـو والشفاعة سواء كان ذلك قبل دخول النار أو بعد دخولها والخروج منهـا بالـشفاعة وهذا الثاني أقوى والله أعلم ا. هـ وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٣١٦): منكر بهذا اللفظ تفرد به حرمي بن عمارة: حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي عن غيلان بـن جرير عن أبي بردة عن أبيه (يعني أبا موس الأشعري) عن النبي ﷺ قال: فـذكره و زاد آخره: " فيما أحسب أنا. قال أبو روح: لا أدري ممـن الـشك". أخرجـه مـسلم (٨/ ١٠٥) من هذا الوجه، و أخرجه من طريق طلحة بن يحيى و عون بـن عتبـة و سعيد بن أبي بـردة نحـوه دون قولـه: " و يـضعها.. " و كـذلك أخرجـه أحمـد (٤/ ٣٩١) عن عون و سعيد، و (٤/ ٤٠٢) عن بريد و هو ابن عبد الله بن أبـي بـردة، و (٤/ ٤٠٧) عـن عمـارة و محمـد بـن المنكـدر، و (٤/ ٤٠٨) عـن معاويـة بـن إسحاق، و (٤/ ٤١٠) عن طلحة بـن يحيـى أيـضا، كلهـم قـالوا: عـن أبـي بـردة بـه نحوه دون قوله: " و يضعها.. " و مـن ألفـاظهم عنـد مـسلم: "إذا كـان يـوم القيامـة دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فكاكك مـن النـار"، هكـذا رواه الجماعة عن أبي بردة دون تلك الزيادة، فهي عندي شـاذة بـل منكـرة لوجـوه: أولا: أن الراوي شك فيها، و هو عندي شداد أبـو طلحـة الراسـبي، أو الـراوي عنـه

=

=

حرمي بن عمارة، و لكن هذا قد قال - و هو أبو روح -: " لا أدري ممن الشك " فتعين أنه الراسبي، لأنه متكلم فيه من قبل حفظه، و إن كان ثقة في ذات نفسه، ولذلك أورده الذهبي في الضعفاء وقال: " قال ابن عدي: لم أر له حديثا منكرا. وقال العقيلي: له أحاديث لا يتابع عليها". وقال الحافظ في التقريب: "صدوق يخطئ". وليس له في مسلم إلا هذا الحديث. قال الحافظ في التهذيب: " لكنه في الشواهد".

ثانيا: و لما كان قد تفرد بهذه الزيادة التي ليس لها شاهد في الطرق السابقة، وكان فيه ما ذكرنا من الضعف في الحفظ، فالقواعد الحديثية تعطينا أنها زيادة منكرة، كما لا يخفى على المهرة.

ثالثا: أن هذه الزيادة مخالفة للقرآن القائل في غير ما آية: * (و لا تزر وازرة وزر أخرى) ولذلك اضطر النووي إلى تأويلها بقوله: "معناه: أن الله يغفر تلك الذنوب للمسلمين و يسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها بكفرهم و ذنوبهم، فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين، ولابد من هذا التأويل لقوله تعالى: (و لا تزر وازرة وزر أخرى)، و قوله: "ويضعها" مجاز، و المراد يضع عليهم مثلها بذنوبهم.. "! وأقول: لكن التأويل فرع التصحيح، و قد أثبتنا بهذا التخريج و التحقيق أن الحديث بهذه الزيادة منكر، فلا مسوغ لمثل هذا التأويل. وليس كذلك أصل الحديث فإنه صحيح قطعا، و معناه كما قال النووي: " ما جاء في حديث أبي هريرة: لكل أحد منزل في الجنة، و منزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار، لاستحقاقه ذلك بكفره، و معنى (فكاكك من النار) أنك كنت معرضا لدخول النار، وهذا فكاكك، لأن الله تعالى قدر عددا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم و ذنوبهم صاروا في معنى الفكاك للمسلمين". والله أعلم. وانظر أيضا الضعيفة (٥٣٩٩).

=

=

وعبر سبحانه عن حلولهم في الجنة بقوله يَرِثُونَ للإشعار بأن هذا النعيم الذي نزلوا به، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة، كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره. ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب الملك.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وقوله سبحانه: وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الْوارِثُونَ لدلالة قوله: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ عليه.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١١]

التفسير:

الذين يرثون أعلى منازل الجنة وأوسطها، وهي أفضلها منزلًا، هم فيها خالدون، لا ينقطع نعيمهم ولا يزول.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ} [المؤمنون: ١١]، أي:"الذين يرثون أعلى منازل الجنة وأوسطها، وهي أفضلها منزلًا".

وفي تفسير: «الْفِرْدَوْسِ»، أقوال:

أحدها: أن «الفردوس»: أفضل الجنة وأوسطها، قاله قتادة.

قال قتادة:"الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها".

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: " الفردوس: هي سرة الجنة".

الثاني: أن «الفردوس»: ربوة الجنة العليا التي هي أوسطها وأحسنها. رواه سمرة بن جندب مرفوعا.

عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: " الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة عام والفردوس أعلاها درجة، ومنها الأنهار الأربعة، والفردوس من فوقها،

=

=

فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن".

عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال " إن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنه، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس".

وقال كعب:"ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر".

الثالث: أنه «البستان» باللغة الرومية، قاله مجاهد.

وقال مقاتل:"يعنى البستان عليه الحيطان، بالرومية".

الرابع: أنه «البستان» الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قاله الزجاج.

الخامس: أنه «البستان» الذي فيه الأعناب، قاله كعب.

قال ابن كثير:"وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوسًا إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم".

قوله تعالى: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١١]، أي:"هم فيها خالدون، لا ينقطع نعيمهم ولا يزول".

قال مقاتل:"يعنى: في الجنة لا يموتون".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين يرثون الفردوس خالدون، يعني ماكثون فيها أبدًا، لا يتحوّلون عنها".

وفي معنى «أورثتموها» أربعة أقوال:

أحدها: ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في

=

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢).

{وَ} اللهْ {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان} آدَم {مِنْ سُلَالَة} هِيَ مِنْ سَلَلْت الشَّيْء مِنْ الشَّيْء أَيْ اسْتَخْرَجْته مِنْهُ وَهُوَ خُلَاصَته {مِنْ طِين} متعلق بسلالة.

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣).

{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ} أَيْ الْإِنْسَان نَسْل آدَم {نُطْفَة} مَنِيًّا {فِي قَرَار مَكِين} هُوَ الرَّحِم.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤).

{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَة عَلَقَة} دَمًا جَامِدًا {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَة مُضْغَة} لَحْمَة قَدْر مَا يُمْضَغ {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَة عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَام لَحْمًا} وَفِي قِرَاءَة عَظْمًا فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَخَلَقْنَا فِي الْمَوَاضِع الثَّلَاث بِمَعْنَى صَيَّرْنَا {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَر} بِنَفْخِ الرُّوح فِيهِ {فَتَبَارَكَ الله أَحْسَن الْخَالِقِينَ} أَيْ الْمُقَدِّرِينَ وَمُمَيِّز أَحْسَن

=

الجنّة ومنزل في النار، فأما الكافر فانه يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» فذلك قوله: أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وقال بعضهم: لما سمي الكفار أمواتًا بقوله: أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ. وسمّى المؤمنين أحياء بقوله: لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا. أورث الأحياء الموتى.

والثاني: أنهم أورثوها عن الأعمال، لأنها جُعلت جزاءً لأعمالهم، وثوابًا عليها، إذ هي عواقبها، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، واقتسامَ الدرجات بالأعمال. فلما كان يفسَّر نيلها لا عن عوض، سميت ميراثًا. والميراث: ما أخذته عن غير عوض.

والرابع: أن معنى الميراث ها هنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث.

مَحْذُوف لِلْعِلْمِ بِهِ أَيْ خلقا

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥).

{ثم إنكم بعد ذلك لميتون}.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦).

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْم الْقِيَامَة تُبْعَثُونَ} لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاء[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس؛ قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله! لو صلينا خلف المقام؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}، وقلت: يا رسول الله! لو خرجت على نسائك حجابًا؛ فإنه يدخل عليك البر والفاجر؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣]، وقلت لأزواج النبي ﷺ: لتنتهن أو ليبدلنه أزواجًا خيرًا منكن؛ فأنزل الله -تعالى-: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)} الآية [التحريم: ٥]، ونزلت: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)} إلى قوله -تعالى-: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}؛ فقلت: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

أخرجه الطيالسي (٤١)، وعنه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢)، وابن أبي داود في المصاحف (٣٠٥)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢١٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ١١٣) والحديث قال عنه ابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٥٩٨): لبعضه شاهد في الصحاح ولكن علي بن زيد بن جدعان في سياقته للأحاديث غرابة ونكارة، قلت وهذه علة أخرى وهي تفرد علي بن زيد بن جدعان بذكر الموافقة في هذه الآية وإلا فالحديث مشهور في صحيح =

=

البخاري وغيره عن عمر بدون ذكر هذه الموافقة، ولذا ضعفه صاحبا الإستيعاب (٢/ ٥٣٦).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما نزلت: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}؛ قال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

تقدم تخريجه في سورة التوبة عند قول الله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} وهو صحيح.

وعن زيد بن ثابت؛ قال: كنت أكتب هذه الآية ورسول الله ﷺ يصلي: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)} حتى بلغ: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}؛ فقال معاذ بن جبل: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}؛ فضحك رسول الله ﷺ، فقال له: لم ضحكت؟ فقال: "إن هذه الآية ختمت بما تقول: فتبارك الله أحسن الخالقين".

أخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٦٣١، ٦٣٢ رقم ٤٠٤٩)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٢٨ رقم ٧٧٥٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٢٥٢)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (٥/ ٥٦ رقم ٤٦٥٧) من طريق أبي حمزة السكري وشيبان النحوي كلاهما عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد به.

قال الحافظ ابن حجر: "جابر -هو الجعفي- ضعيف". وقال البوصيري: "هذا إسناد فيه جابر الجعفي - وهو ضعيف". وقال الحافظ ابن كثير: "وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي؛ ضعيف جدًا، وفي خبره هذا نكارة شديدة؛ وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة -أيضًا-، والله أعلم". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٧٢): "رواه الطبراني في "الأوسط"؛ وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف وقد

=

=

وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح".

* بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أطوار خلقه الإنسان ونقله له، من حال إلى حال، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته، واستحقاقه للعبادة وحده جل وعلا.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون: ١٢]

ولقد خلقنا آدم من طين مأخوذ من جميع الأرض.

قال الزجاج:"يعني: ولد آدم".

وفي تفسير الآية قولان:

أحدهما: آدم استل من طين، وهذا قول قتادة.

قال قتادة:"استلّ آدم من طين، وخُلقت ذرّيته من ماء مهين".

قال يحيى:"السلالة: النطفة تنسل من الرجل، وكان بدء ذلك من طين، خلق الله آدم من طين، ثم جعل نسله بعد من سلالة من ماء مهين، ضعيف، يعني: النطفة".

قال الطبري:"السلالة: هي المستلة من كلّ تربة، ولذلك كان آدم خلق من تربة أخذت من أديم الأرض".

قال الماوردي:"وقيل: لانه اسْتُلَ من قِبَل ربه".

الثاني: أن المعني به: كل إنسان، لأنه يرجع إلى آدم الذي خلق من سلالة من طين، قاله ابن عباس، ومجاهد.

عن ابن عباس: " {مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ}، قال: صفوة الماء".

قال مجاهد:"من منيّ آدم".

وقال عكرمة: "هو الماء يسل من الظهر سلا".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ولقد خلقنا ابن آدم من سُلالة آدم، وهي صفة مائه، وآدم هو الطين؛ لأنه خُلق منه، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية؛ لدلالة قوله: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} على أن

=

=

ذلك كذلك؛ لأنه معلوم أنه لم يصر في قرار مكين إلا بعد خلقه في صلب الفحل، ومن بعد تحوّله من صلبه صار في قرار مكين؛ والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته. لأنهما مسلولان منه، ومن السُّلالة قول بعضهم:

حَمَلَتْ بِهِ عَضْبَ الأدِيمِ غَضَنفرًا... سُلالَةَ فَرجٍ كان غيرَ حَصِين

وقول الآخر:

وَهَلْ كُنْتُ إلا مُهْرَةً عَرَبِيَّةً... سُلالَةَ أَفْراسٍ تجَللها بَغْلُ

فمن قال: سلالة جمعها سلالات، وربما جمعوها سلائل، وليس بالكثير. لأن السلائل جمع للسليل، ومنه قول بعضهم:

إذا أُنْتِجَتْ مِنْها المَهارَى تَشابَهَتْ... عَلى القَوْد إلا بالأُنُوفِ سَلائلُه

وقول الراجز:

يَقْذِفْنَ فِي أَسْلابِها بالسَّلائِل".

قال مقاتل:""السلالة: إذا عصر الطين انسل الطين والماء من بين أصابعه". وحكي عن الكلبي نحوه.

وقال ابن الجوزي: قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فيه قولان: أحدهما: أنه آدم عليه السلام. وإنما قيل: «مِنْ سُلالة» لأنه استُلَّ من كل الأرض، هذا مذهب سلمان الفارسي، وابن عباس في رواية، وقتادة.

والثاني: أنه ابن آدم، والسُّلالة: النطفة استُلَّت من الطين، والطين: آدم عليه السلام، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال الزجاج: والسُّلالة: فُعالة، وهي القليل مما يُنْسَل، وكل مبنيٍّ على «فُعالة» يراد به القليل، من ذلك: الفُضالة، والنُّخَالة، والقُلامة ا.هـ

وقال السمعاني:"قال أهل اللغة: السلالة صفوة الماء المسلول من الصلب، وقوله: {من طين} الطين ها هنا هو آدم، وعليه الأكثرون، والمراد من الإنسان ولده".

=

=

قال الزجاج الـ" «سلالة»: القليل فيما ينسل. وكل مبنى على فعالة، يراد به القليل، فمن ذلك الفضالة والنخالة والقلامة. فعلى هذا قياسه".

قال الزمخشري:"السلالة: الخلاصة، لأنها تسل من بين الكدر، و «فعالة» بناء للقلة كالقلامة والقمامة".

قال الواحدي:"السلالة: ما يسل من الشيء، أي ينزع ويستخرج، يقال للنطفة سلالة، وللولد سليل، والمراد بالإنسان ولد آدم، وهو اسم الجنس يقع على الجميع، وقوله: {من طين}، يعني: طين آدم، و «السلالة»: إنما تولدت من طين خلق آدم".

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} [المؤمنون: ١٣]، أي:"ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منيًّا ينطف من أصلاب الرجال".

قال مقاتل:"يعنى: ذرية آدم".

قال ابن كثير:"هذا الضمير عائد على جنس الإنسان".

قال ابن عطية:"«النطفة»: تقع في اللغة على قليل الماء وعلى كثيره، وهي هنا لمني ابن آدم".

قوله تعالى: {فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [المؤمنون: ١٣]، أي:"في مستقر متمكن هو الرحم".

قال مجاهد:""يعني: في الرحم".

قال مقاتل:"يعني: الرحم، تمكن النطفة في الرحم".

قال السمعاني:"أي: في مكان استقر فيه".

قال ابن كثير:"يعني: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له".

قال الواحدي:"يعني: الرحم، مكن فيه الماء بأن هيئ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له".

=

=

قال الزمخشري:"القرار: المستقر، والمراد الرحم. وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها، كقولك. طريق سائر. أو بمكانتها في نفسها، لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت".

قال ابن عطية:"«القرار المكين» من المرأة هو موضع الولد، و «المكين» المتمكن فكأن القرار هو المتمكن في الرحم".

والسلالة: اسم لما سلّ من الشيء واستخرج منه. تقول: سللت الشعرة من العجين، إذا استخرجتها منه. ويقال: الولد سلالة أبيه. أى كأنه انسل من ظهر أبيه.

والمعنى: ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين.

والتعبير بسلالة يشعر بالقلة، إذ لفظ الفعالة يدل على ذلك، كقلامة الظفر، ونحاتة الحجر، وهي ما يتساقط عند النحت.

و «من» في الموضعين: ابتدائية إلا أن الأولى متعلقة «بخلقنا» والثانية متعلقة بسلالة بمعنى مسلولة من الطين.

والضمير المنصوب في قوله ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ يعود على النوع الإنسانى المتناسل من آدم- عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأصل النطفة: الماء الصافي. أو القليل من الماء الذي يبقى في الدلو أو القربة، وجمعها نطف ونطاف. يقال: نطفت القربة، إذا تقاطر ماؤها بقلة.

والمراد بها هنا: المنى الذي يخرج من الرجل، ويصب في رحم المرأة.

والمعنى: لقد خلقنا أباكم آدم بقدرتنا من سلالة من طين، ثم خلقنا ذريته بقدرتنا- أيضا- من منى يخرج من الرجل فيصب في قرار مكين، أى: في مستقر ثابت ثبوتا مكينا، وهو رحم المرأة.

قال القرطبي: «قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ: الإنسان هو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه استل من الطين. ويجيء الضمير في قوله ثُمَّ جَعَلْناهُ عائدا على ابن آدم، وإن كان لم يذكر

=

=

لشهرة الأمر، فإن المعنى لا يصلح إلا له ... » ا.هـ.

وشبيه بهاتين الآيتين قوله تعالى: ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ...

وقوله سبحانه: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ. إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.

ثم بين سبحانه أطوارا أخرى لخلق الإنسان تدل على كمال قدرته تعالى فقال: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً.

قوله تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً} [المؤمنون: ١٤]، أي:"ثم صيَّرنا هذه النطفة - وهي الماء الدافق - دمًا جامدًا يشبه العلقة".

قال مقاتل:"يقول: تحول الماء فصار دما".

قال ابن كثير:"أي: ثم صَيَّرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة - فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة".

قال ابن عطية:"العلقة: الدم الغريض".

قال عكرمة:"العلقة: الدم".

قوله تعالى: {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [المؤمنون: ١٤]، أي:"فجعلنا ذلك الدم الجامد قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط".

قال عكرمة:"المضغة: اللحم".

قال مقاتل:"يعني: فتحول الدم فصار لحما مثل المضغة".

قال ابن كثير:"{مُضْغَةً}: هي قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط".

=

=

قال ابن عطية:"المضغة: بضعة اللحم قدر ما يمضغ".

قرأ الجمهور: {عظاما}، في الموضعين، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «عظما» بالإفراد في الموضعين، وقرأ السلمي وقتادة والأعرج والأعمش بالإفراد أولا وبالجمع في الثاني، وقرأ مجاهد وأبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكير بعكس ذلك.

قوله تعالى: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [المؤمنون: ١٤]، أي:"فصيَّرنا قطعة اللحم عظامًا صلبة لتكون عمودًا للبدن".

قال الطبري:"يقول: فجعلنا تلك المضغة اللحم عظاما".

قال ابن كثير:"يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق ومنه يركب".

وفي قراءة ابن مسعود، «ثم جعلنا المضغة عظاما وعصبا فكسوناه لحما».

قوله تعالى: {فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [المؤمنون: ١٤]، أي:"فسترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها".

قال الطبري:"يقول: فألبسنا العظام لحما".

قال ابن كثير:"أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون: ١٤]، أي:"ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقًا آخر في أحسن تقويم".

قال الطبري:"يقول: ثم أنشأنا هذا الإنسان خلقا آخر".

قال ابن كثير:"أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار {خَلْقًا آخَرَ} ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب".

=

=

قال الزمخشري:"أي: خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعله حيوانا وكان جمادا، وناطقا وكان أبكم، وسميعا وكان أصم، وبصيرا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره- بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه- عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح: وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ، لأنه خلق آخر سوى البيضة".

عن علي بن أبي طالب، ﷺ، قال: "إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعِث إليها مَلك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يعني: نفخنا فيه الروح".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون: ١٤]، وجوه:

أحدها: يعني: بنفخ الروح فيه، وهذا قول ابن عباس، والحسن، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وأبي العالية، وابن زيد، والكلبي.

قال ابن قتيبة:"أي: خلقناه بنفخ الروح فيه خلقا آخر".

وقال الكلبي: "الروح وهو في بطن أمه".

الثاني: بنبات الشعر، قاله قتادة.

الثالث: بسنه وشعره. ذكره الضحاك.

الرابع: أنه ذكر وأنثى، رواه عمرو عن الحسن.

الخامس: حين استوى به شبابه، وهذا قول مجاهد.

السادس: أنه بالعقل والتمييز. أفاده الماوردي.

وقال ابن عباس:"خرج من بطن أمه بعد ما خلق، فكان من بدء خلقه الآخر أن استهل، ثم كان من خلقه أن دل على ثدي أمه، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه إلى أن قعد، إلى أن حبا، إلى أن قام على رجليه، إلى أن مشى، إلى أن

=

=

فطم، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام، إلى أن بلغ الحلم، إلى أن بلغ أن يتقلب في البلاد".

قال ابن عطية: "وهذا التخصيص كله لا وجه له وإنما هو عام في هذا وغيره من وجوه من النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخر هي نفخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخر تحصيله المعقولات".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول خلقا آخر إنسانا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها، من نطفة وعلقة ومضغة وعظم وبنفخ الروح فيه، يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحول أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنسانا، وخلقا آخر غير الطين الذي خلق منه".

قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]، أي: "فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعًا".

قال الزمخشري: "أى: أحسن المقدرين تقديرا، فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه".

قال يحيى: "قال: {فتبارك الله}، وهو من باب البركة كقوله: {فتعالى الله} [المؤمنون: ١١٦]، قوله: {أحسن الخالقين} إن العباد قد يخلقون، يشبهون بخلق الله، ولا يستطيعون أن ينفخوا فيه الروح".

عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: " إن أشدّ الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون".

روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: " المصورون يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم".

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: " كل مصور في

=

=

النار، يجعل له بكل صورة صورها نفسًا، فتعذبه في جهنم".

وعن عائشة أيضًا، عن النبي - ﷺ - قال: " أشدّ الناس عذابًا الذين يضاهون بخلق الله".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: " قال عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة".

وفي قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه فتبارك الله أحسن الصانعين. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين".

الثاني: إنه إخبار من الله تعالى بأنه يخلق أحسن مما كان يخلق عيسى ابن مريم. وهذا قول ابن جريج.

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد؛ لأن العرب تسمي كل صانع خالقا، ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبع... ض القوم يخلق ثم لا يفري".

أى: ثم صيرنا النطفة البيضاء، علقة حمراء إذ العلقة عبارة عن الدم الجامد.

فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً أى: جعلنا بقدرتنا هذه العلقة قطعة من اللحم، تشبه في صغرها قطعة اللحم التي يمضغها الإنسان في فمه.

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا أى: حولنا هذه المضغة من اللحم التي لم تظهر معالمها بعد، إلى عظم صغير دقيق، على حسب ما اقتضته حكمتنا في خلقنا.

فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْمًا أى: فكسونا هذه المضغة التي تحولت بقدرتنا إلى عظام دقيقة باللحم، بحيث صار هذا اللحم ساترا للعظام ومحيطا بها.

=

=

قال بعض العلماء: «وهنا يقف الإنسان مدهوشا، أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين، لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا، بعد تقدم علم الأجنة التشريحى».

ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تكون أولا من الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا الهيكل العظمى للجنين.

وهي التي يسجلها النص القرآنى في قوله تعالى: فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْمًا فسبحانه العليم الخبير.

وقوله تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان.

أى: ثم صيرنا هذا الإنسان بشرا سويّا، بعد أن كان نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاما، فلحما يكسو هذه العظام، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أنه حق، إذ قدرته سبحانه لا يعجزها شيء.

قال الزمخشري: «قوله تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ، أى: خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعله حيوانا بعد أن كان جمادا، وناطقا وكان أبكم، وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره- بل كل عضو من أعضائه بل كل جزء من أجزائه- عجائب فطرته، وغرائب حكمته، لا تدرك بوصف الواصف، ولا تبلغ بشرح الشارح ... ».

فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ أى: فكثر خيره سبحانه ودام إحسانه وتقدس شأنه، فهو- ﷻ أحسن الخالقين على الإطلاق، فقد أتقن كل شيء خلقه، وأحكم كل شيء صنعه.

ولفظ «تبارك» فعل ماض لا ينصرف، والأكثر إسناده إلى غير مؤنث.

وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير، أو بمعنى الثبات والدوام وكل

=

=

شيء دام وثبت فقد برك.

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن يكونوا خلقا آخر فقال: ثُـمَّ إِنَّكُـمْ بَعْـدَ ذلِكَ لَمَيِّتُـونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} [المؤمنون: ١٥]

قال الطبري:"ثم إنكم أيها الناس من بعد إنشائكم خلقا آخر وتصييرناكم إنسانا سويا ميتون وعائدون ترابا كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وعودكم رفاتا باليا، مبعوثون من التراب خلقا جديدا، كما بدأناكم أول مرة".

قال مكي:"أي: ثم إنكم يا بني آدم بعد إنشاء الله لكم خلقًا آخر تموتون تصيرون رفاتًا".

قال ابن كثير:"يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت".

قال يحيى:"بعدما ينفخ فيه الروح. {لميتون} إذا جاء أجله".

قال الواحدي:"بعد ما ذكر من تمام الخلق، لميتون عند آجالكم".

قرأ ابن أبى عبلة وابن محيصن: «لمائتون».

قال الزمخشري:"والفرق بين الميت والمائت: أن الميت كالحي صفة ثابتة. وأما المائت، فيدل على الحدوث. تقول: زيد مائت الآن، ومائت غدا، كقولك يموت".

قال السمعاني:"قال بعضهم: «الميت» و «الميّت»، واحد، وقال بعضهم: «الميت» هو الذي قد مات، و «الميّت»: هو الذي يموت في المستقبل، ومثله المائت، وهذا كما قالوا: سيد وسائد هو الذي يسود في المستقبل".

أى: ثم إنكم بعد ذلك الذي ذكره سبحانه لكم من أطوار خلقكم تصيرون أطفالا، فصبيانا فغلمانا، فشبانا، فكهولا، فشيوخا.. ثم مصيركم بعد ذلك كله، أو خلال ذلك كله، إلى الموت المحتوم الذي لا مفر لكم منه، ولا مهرب لكم عنه. ثم

=

=

إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } [المؤمنون: ١٦]

قال مكي:"أي: ثم إنكم بعد موتكم وتصييركم رفاتًا تبعثون فتحيون للحساب والجزاء في القيامة".

قال ابن كثير:"يعني: النشأة الآخرة، {ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ} [العنكبوت: ٢٠] يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

قال السمعاني:"البعث: هو الإطلاق فكأنهم حبسوا مدة ثم أطلقوا".

قال ابن عطية:"{تبعثون} : معناه: من قبوركم أحياء، وهذا خبر بالبعث والنشور".

قال القشيري:"يوم القيامة يوم خوف به العالم حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ لقالت من القيامة، وفى القيامة ترى الناس سكارى حيارى لا يعرفون أحوالهم ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم، إلى أن يتبين لكل واحد أمره خيره وشره: فيثقل بالخيرات ميزانه، أو يخف عن الطاعات أو يخلو ديوانه. وما بين الموت والقيامة: فإما راحات متصلة، أو آلام وآفات غير منفصلة".

قال الزمخشري:"جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه: دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع. فإن قلت: فإذا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث. قلت: ليس في ذكر الحياتين نفى الثالثة وهي حياة القبر، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلا على أن الثلث ليس عندك. وأيضا فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء والإماتة والإعادة، والمطوى ذكرها من جنس الإعادة".

(منبهة): قال الرازي: قالت المعتزلة الآية تدل على أن كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين، وإذا كان كذلك وجب أن لا

=

=

يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما؟ والجواب: من الناس من حمل الحسن على الإحكام والإتقان في التركيب والتأليف، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الأشياء لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعا له عن فعل شيء ا.هـ

قلت الصلاح: ضد الفساد، وكل ما عرى من الفساد؛ فهو صلاح؛ وهو الفعل المتوجه إلى الخير من قوام العالم وبقاء النوع في العاجلة، والمؤدي إلى السعادة السرمدية في الآخرة. أما الأصلح: فهو ما إذا كان هناك صلاحان وخيران، وكان أحدهما أقرب إلى الخير المطلق، فإنه يكون الأصلح.

الفرع الأول: رأي المعتزلة في الصلاح والأصلح:

لمعرفة رأي المعتزلة في الصلاح والأصلح؛ لابد أن نسوق شيئا من أقوالهم أو أقوال من نقل عنهم، فنقول وبالله التوفيق. يقول النظام: "إن الله لا يقدر على أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم، ولا يقدر أن ينقص من نعيم أهل الجنة ذرة، لأن نعيمهم صلاح لهم، ونقصان ما فيه صلاحهم ظلم". ويقول الشهرستاني – وهو يبين رأي المعتزلة في الصلاح والأصلح-: "واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، وأما الأصلح... ففي وجوبه خلاف عندهم". ويقول في موضع آخر: "وقالت المعتزلة: الحكيم لا يفعل فعلا إلا لحكمة وغرض، والفعل من غير غرض سفه وعبث، والحكيم من يفعل لأحد أمرين؛ إما أن ينتفع أو ينتفع غيره، ولما تقدس الرب تعالى عن الانتفاع تعين أنه إنما يفعل لينفع غيره، فلا يخلو فعل من أفعاله من صلاح، ثم الأصلح هل تجب رعايته، قال بعضهم: تجب كرعاية الصلاح، وقال بعضهم: لا تجب؛ إذا الأصلح لا نهاية له، فلا أصلح إلا وفوقه ما هو أصلح منه...". ويقول في موضع ثالث – وهو يحكي رأي جمهور المعتزلة في الأصلح –

=

=
: "وقال جمهور المعتزلة... إن الله لا يفعل بالعباد كلهم إلا ما هو أصلح لهم في دينهم وأدعى لهم إلى العمل بما أمرهم به، وأنه لا يدخر عنهم شيئا يعلم أنهم يحتاجون إليه في أداء ما كلفهم به... ثم يقول: وقالوا في الجواب عن مسألة من سألهم "هل يقدر الله تعالى أن يفعل بعباده أصلح مما فعله بهم؟". قالوا: إن أردت أنه يقدر على أمثال الذي هو أصلح، فالله يقدر على أمثاله إلى ما لا غاية له ولا نهاية، وإن أردت يقدر على شيء أصلح من هذا، أي: يفوقه في الصلاح قد ادخره عن عباده، فلم يفعله بهم؛ مع علمه بحاجتهم إليه في أداء ما كلفهم به، فإن أصلح الأشياء هو الغاية، ولا شيء يتوهم وراء الغاية فيقدر عليه أو يعجز عنه".

من هذه النصوص؛ يظهر لنا أن المعتزلة قد اتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير؛ بل ويجب عليه ذلك.

وأما الأصلح: فقد اختلفوا فيه. فجمهورهم: يرون وجوبه على الله لأن أصلح الأشياء – عندهم – هو الغاية، وقد فعله الله بعباده، ولا شيء يتوهم وراء الغاية، فيجب أو لا يجب. وبعضهم: ذهب إلى أنه لا يجب على الله رعاية الأصلح لعباده، كبشر ابن المعتمر، لأن الأصلح لا غاية ولا نهاية له.

والخلاصة: أن المعتزلة يقولون بوجوب الصلاح والأصلح؛ ما عدا بشر بن المعتمر ومن تابعه، فإنهم خالفوا في وجوب الأصلح فقط.

الفرع الثاني: مناقشة رأي المعتزلة في الصلاح والأصلح: ذكرت عند عرضي لرأي المعتزلة في الصلاح والأصلح؛ أن المعتزلة يرون وجوب الصلاح والأصلح على الله لعباده. ونقول: إن الله تعالى أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وأنه تعالى يفعل بالعباد ما فيه صلاحهم؛ لكن لا على سبيل الوجوب، وذلك لأن الوجوب منفي عن الله تعالى؛ إذ المفهوم منه ما ينال تاركه ضرر عاجلا أو آجلا أو ما يكون نقيضه محال. وهذا كلها يتنزه الله عنها، فإنه تعالى لا ينتفع
=

=

بعمل ولا يتضرر بتركه، ولا يلزم من ذلك محال. بل إن الواجب على الله محال، لاستحالة موجب فوقه، يوجب عليه شيئا. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض رده على من يقول بالوجوب على الله: "وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول، وصريح المعقول. وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئا؛ ولهذا كان من قال أهل السنة بالوجوب قال: إنه كتب على نفسه الرحمة وحرم الظلم على نفسه، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق. فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وهو الخالق لهم، وهو المرسل إليهم الرسل، وهو الميسر لهم بالإيمان والعمل الصالح، ومن توهم من القدرية والمعتزلة، ونحوهم: أنهم يستحقون عليه من جنس ما يستحقه الأجير على المستأجر، فهو جاهل في ذلك. وإذا كان كذلك لم تكن الوسيلة إليه إلا بما من به من فضله وإحسانه، والحق الذي لعباده: هو من فضله وإحسانه ليس من باب المعاوضة، ولا من باب ما أوجبه غيره عليه، فإنه سبحانه يتعالى عن ذلك".

من كلام ابن تيمية وما قبله يظهر أنه لا واجب على الله، فكل نعمة من الله على خلقه تعتبر من باب التفضل حتى ما أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه من باب التفضل؛ لأنه لم يوجبه أحد عليه. وبذلك يبطل الوجوب على الله؛ وإذا بطل الوجوب عليه سبحانه وتعالى؛ بطل قول المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح على الله لعباده. كذلك رد الغزالي على المعتزلة قولهم: وجوب الصلاح والأصلح على الله، فقال: "ومما يدل على بطلان قول المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح المشاهدة والوجود، ثم قال: فإننا نريهم من أفعال الله تعالى ما يلزمهم الاعتراف بأنه لا صلاح فيها للعبد؛ فإنا نفرض ثلاثة أطفال مات أحدهم وهو

=

=

مسلم في الصبا، وبلغ الآخر وأسلم ومات مسلما بالغا، وبلغ الثالث كافرا ومات على الكفر، فإن العدل عندهم أن يخلد الكافر البالغ في النار، وأن يكون للبالغ المسلم في الجنة رتبة فوق رتبة الصبي المسلم، فإذا قال الصبي: يا رب: لم حططت رتبتي عن رتبته؟ فيقول: لأنه بلغ فأطاعني، وأنت لم تطعني بالعبادات بعد البلوغ، فيقول: يا رب لأنك أمتني قبل البلوغ فكان صلاحي في أن تمدني بالحياة حتى أبلغ فأطيع فأنال رتبته، فلم حرمتني هذه الرتبة أبد الآبدين وكنت قادرا على أن تؤهلني لها؟ فلا يكون له جوابا إلا أن يقول: علمت أنك لو بلغت لعصيت، وما أطعت وتعرضت لعقابي وسخطي، فرأيت هذه الرتبة النازلة أولى بك وأصلح لك من العقوبة، فينادي الكافر البالغ من الهاوية، ويقول: يا رب أو ما علمت أني إذا بلغت كفرت؟ فلو أمتني في الصبا وأنزلتني في تلك المنزلة النازلة لكان أحب إلي من التخليد في النار وأصلح لي، فلم أحييتني؟... ثم قال ومعلوم أن هذه الأقسام موجودة وبها يظهر على القطع لأن الأصلح ليس بواجب. كذلك رد عليهم الإسفراييني فقال - في جملة رده-: " وكل عاقل يعلم أن الكافر لا صلاح له في كفره ولا ما يحل به من تبعات فعله، فعلى هذا يجب أن تكون حجة الله منقطعة حتى لا يكون له على عبيده حجة، ويصور ذلك في ثلاثة ولدوا دفعة واحدة أمات الله أحدهم في حال الطفولة وبلغ الاثنان، أسلم أحدهما، وبقي الآخر كافرا..". ثم أتى برد الغزالي. وبما ذكرت يتضح بطلان قول المعتزلة يجب على الله أن يفعل بالعباد ما فيه صلاحهم. والله أعلم.

قال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص ٢٧٦): تحت البيت: فلم يجب عليه فعل الأصلح * ولا الصلاح ويح من لم يفلح.

يعني بذلك أنه لا يجب على الله أن يفعل الأصلح، ولا يجيب عليه أن يفعل الصلاح.

=

=

وهنا خمسة أقسام: الأصلح، والصلاح، والأسوأ، والسيئ، وما لا صلاح فيه ولا سوء، فالأصلح أعلى من الصلاح، والأسوأ أدنى من السيئ، وما لا صلاح فيه ولا سوء فهو مستوي الطرفين، ولله ﷻ أن يفعل ما شاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: الآية ١٨)، لكن ما كان من مقتضى حكمته وكماله فلابد أن يكون، وما خالف مقتضى الحكمة والكمال فإنه مستحيل، فمثلًا تعذيب المطيع هذا مستحيل؛ لأن مقتضى الحكمة أن يثاب المحسن على إحسانه، لأنه لو عذب المحسن لكان فيه إخلاف لوعده والله ﷻ لا يخلف الميعاد؛ لأنه ليس عاجزًا وليس كاذبًا سبحانه وتعالى، بل هو الصادق القادر فلا يخلف الميعاد.

إذًا هذا الذي عمل صالحًا يجازيه الله تعالى بالأصلح وجوبًا بمقتضى الحكمة والكمال؛ لأنه ﷻ وعد بأنه يثيب الطائع، فيجب عليه ليس بإيجابنا بل بإيجابه هو على نفسه.

فمثلًا لو قال قائل: هل الجدب الذي يصيب الناس صلاح؟ في الحقيقة أنه غير صلاح، والله تعالى يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الروم: الآية ٤١) ومنه الجدب، وهو غير صلاح في حد ذاته، لكنه صلاح لغيره، بدليل ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: الآية ٤١).

ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله؛ هل يجب على الله فعل الأصلح أو لا يجب؟ وهل يجب عليه فعل الصلاح أو لا يجب؟ ونحن نقول إنه يمتنع عليه ﷻ فعل الأسوأ وفعل السيئ لأن هذا نقص والله سبحانه منزه عن النقص، وكذلك فعل ما ليس فيه صلاح ولا سوء فهو أيضًا منزه عنه؛ لأن مثل هذا الفعل سفه ولعب، والله تعالى منزه عن ذلك، وبذلك يبقى عندنا الصلاح والأصلح. ولكن ما ميزان الصلاح والأصلح؟ إن كان عقولنا؛ فربما نتوهم أن الله تعالى فعل الأسوأ أو السيئ، وإن كان الميزان الواقع فإنه ﷻ لا يفعل إلا الصلاح أو الأصلح، بل

=

=

مقتضى الكمال أنه إذا كان صلاح وأصلح فإنه يفعل الأصلح.

فإن قال قائل: إذا قلنا: إنه يجب عليه فعل الأصلح أو الصلاح، ورد علينا خلق إبليس، وأنه لو سلم الناس من إبليس لكانوا في خير وكان أصلح لهم، والله تعالى قد خلقه؟

فالجواب على هذا الإشكال أن نقول: إن خلق إبليس لا شك أنه شر، لكن وجود شر يصارع بخير هذا أصلح، لأن الناس لو كانوا على طريقة واحدة وليس هناك ما يضلهم لم يتبين الصادق من غير الصادق؛ لأنه ليس هناك سبيل إلى أن يكون الإنسان فاجرًا.

فلو لم يوجد إبليس ولا نفس أمارة بالسوء ما كان هناك طريق يمكن أن يسلكه الإنسان فيكون فاجرًا حتى يعرف حسن نيته من سوء نيته، فالحكمة إذًا أن يخلق إبليس، بل والأصلح أن يخلق إبليس؛ لأنه لا يمكن امتحان العبد ومعرفة كونه عبدًا خالصًا لله أو عابدًا لهواه إلا بوجود إبليس والشر والنفس الإمارة بالسوء، إذًا هذا ليس صلاحًا في نفسه ولا أصلح في نفسه ولكن لغيره.

وكذلك الجدب - وهو متعلق بالكون - فإنه ولا شك فساد للناس، وتعطل مصالح، وهلاك مواش، وربما هلاك أنفس أيضًا، والله ﷻ يقدر الجدب. فإذا قال قائل: كيف يستقيم هذا مع قولنا: إن الله لا يفعل إلا الأصلح أو الصلاح؟

ويجاب على ذلك بأن هذا سيئ من وجه وصالح من وجه، فالجدب مثلًا سيئ، لكن الله يقدره لأمر أعظم وأنفع للعباد من الخصب، فالله تعالى يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ((الروم: ٤١)) فهذا صلاح لغيره، والله بين الحكمة منه فقال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولو بقي الناس قد بسط لهم الرزق لكان الأمر كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ

=

=

بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) (الشورى: ٢٧) ومعلوم أن بقاء الناس على فسوقهم وعتوهم وضلالهم مفسدة عظيمة أعظم من مفسدة الجدب، فإذا جاءت مفسدة الجدب من أجل استقامة الناس على دين الله صار وجود الجدب صلاحًا عظيمًا.

ونضرب مثلًا لذلك بإنسان أراد أن يعطي شخصًا ألف درهم، لكن يعلم أنه لو أعطاه ألف درهم لذهب يشتري بها أشياء لا تنفع ويتمرد بها، لكن لو أعطاه كل يوم درهمًا أو منعه في بعض الأيام لكان ذلك صلاحًا أو أصلح له. لأنه في هذه الحال - التي لا يعطيه فيها إلا درهمًا وربما منعه في بعض الأحيان -، إصلاحه للمعطى أحسن من إصلاح الحال الأولى التي يعطيه فيها ألف درهم ويذهب ينفقها في أشياء ليس فيها نفع أو في أشياء فيها ضرر.

أرأيت لو كان عندك صبي مريض بمرض يشفى منه بالكي، فأنت تكويه رغم أن الكي إساءة، رجاء مصلحة أعظم؛ لأن الكي لا يقتله لكن المرض الذي أصابه ربما يقتله، ولا أظن أن أحدًا من الناس يقول: إنك أسأت التصرف؛ بل يقولون: أحسنت التصرف، أما لو كويته من أجل أنك رأيته يلعب في السوق، فإن هذا لا يجوز، لأنه لا يعذب بالنار، ثم إن النار هنا ليست هي السبب في صلاحه، فقد يكوى ولا ينتهي، ولهذا جاز الكي للاستشفاء من المرض، ولم يجز الكي من أجل تأديب الصبي ليصلي أو لئلا يلعب في السوق.

وقوله: (فلم يجب عليه فعل الأصلح ولا الصلاح)، أي: إذا كان هناك فعل فيه صلاح، وفعل فيه أصلح، وفعل ليس فيه صلاح ولا أصلح، وفعل فيه سوء، وفعل فيه أسوا، فهذه خمسة أقسام، وفعل الله ﷻ - وحاشاه من ذلك سبحانه وتعالى - الأسوأ، فإن ذلك في نظر المؤلف رحمه الله جائز على الله.

ولكن كلام المؤلف هذا أيضًا فيه نظر ظاهر؛ لأن فعل الأسوأ مع إمكان الصلاح

=

=

منافٍ للحكمة، لكن قد يخطئ الإنسان في الفهم فيظن أن الأصلح خلاف كذا، ولكن الأمر خلاف ما ظن، فيظن في هذه الحال أن الله فعل الأسوأ وليس كذلك، لكن لو كان الأسوأ حقيقة وتقديرا وتصورا فإننا نقول: إن الله لا يمكن أن يفعله؛ لأنه مناف للحكمة، والله سبحانه وتعالى حكيم لا يمكن أن يفعل إلا ما فيه الخير إما بذاته وإما بغيره.

والحاصل أن هذه المسالة فيها نزاع طويل بين أهل السنة وأهل الاعتزال، فالمعتزلة يرون أن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح والصلاح، وأهل السنة يقولون: لا يجب، والصحيح التفصيل وأن نقول: إن الله تعالى يفعل ما كان من مقتضى كماله، ولكن الميزان في الأصلح والصلاح هو الواقع الذي يتبين به أن هذا الفعل الذي أجراه الله ﷻ هو الأصلح.

قال تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) (الأنعام: الآية ٦٥)، فكل هذه في ظاهرها مفاسد ومساوئ، فالعذاب من فوقنا حاصب من السماء أو من تحت أرجلنا: كالزلازل والبراكين: (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) يعني القتال والنزاع فيما بينكم، وكل هذه في ظاهرها سيئة، ولكن فيها مصلحة عظيمة، وهي أن نتوب إلى الله ونرجع إليه حتى نتقي هذه العقوبات.

والنبي ﷺ لما نزلت هذه الآية: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)، قال: ((أعوذ بوجهك))، وفي الثانية: (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)، قال: ((أعوذ بوجهك))، وفي الثالثة: (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)، قال: ((هذه أهون، أو هذا أيسر) ولهذا وقعت - في الأمة - الثالثة، أما الأولى والثانية فلم تقع في الأمة على سبيل العموم، وربما يوجد في أجزاء من الأرض زلزال أو ما أشبه ذلك، ولكنها ليست عامة.

=

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧).

=

وبذلك يكون المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد وافق أهل السنة من جهة، وخالف المعتزلة من جهة أخرى، فالمعتزلة يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح بجانب الصلاح وفعل الصلاح بجانب الفساد، ولكننا قلنا: إنه إن كان المراد بالصلاح، والفساد، والأصلح ما يناط بالعقل فقول المعتزلة خطأ، وذلك لأن عقولنا تقتصر عن إدراك الصلاح والفساد، فقد نظن هذا الشيء فسادا ويكون صلاحا، وقد نظنه صلاحا ويكون فسادًا.

وإن أرادوا بالأصلح ما تقتضيه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ - وإن كان بالنسبة لنا سيئًا - فإن هذا هو ما تقتضيه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله لا يفعل شيئًا يكون فسادًا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: (وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة: الآية ٢٠٥)، ولكننا نحن قد نظن هذا الشيء فسادًا وهو صلاح.

فخلق إبليس مثلًا، يقول أهل السنة للمعتزلة: إنه فساد وشر، وهو ينقض عليكم قولكم: إنه يجب على الله فعل الأصلح؛ لأن المعتزلة يقولون: يجب على الله فعل الأصلح، وأهل السنة - كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ - يقولون: لا يجب، لكن سبق أن الصواب التفصيل في ذلك وهو أن يقال: إن خلق إبليس شر من وجه وخير من وجه آخر، فلولا خلق إبليس ما وجد الكفر ولا الفسوق والعصيان، ووجود الكفر والفسوق والعصيان هو مقتضى حكمة الله عَزَّوَجَلَّ الذي به تتم كلمته ويصدق وعده. قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (هود: ١١٨) (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَئَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: ١١٩))، فلو كان الناس كلهم على الصلاح فلن تتم كلمة الله بملء النار. إذا فوجود إبليس - وإن كان فيه الشر والفساد - ففيه مصلحة؛ لأن ذلك مقتضى الحكمة الذي يتم به غايات حميدة أرادها الله عَزَّوَجَلَّ.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقكُمْ سَبْع طَرَائِق} أَيْ سَمَاوَات جَمْع طَرِيقَة لِأَنَّهَا طُرُق الْمَلَائِكَة {وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْق} الَّتِي تَحْتهَا {غَافِلِينَ} أَنْ تَسْقُط عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكهُمْ بَلْ نُمْسِكهَا كَآيَةِ {وَيُمْسِك السَّمَاء أَنْ تَقَع عَلَى الْأَرْض}.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨).

{وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ} مِنْ كِفَايَتهمْ {فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْض وَإِنَّا عَلَى ذَهَاب بِهِ لَقَادِرُونَ} فَيَمُوتُونَ مَعَ دَوَابّهمْ عَطَشًا.

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩).

{فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّات مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب} هُمَا أَكْثَر فَوَاكِه الْعَرَب {لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِه كَثِيرَة وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} صَيْفًا وَشِتَاء.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠).

{وَ} أَنْشَأْنَا {شَجَرَة تَخْرُج مِنْ طُور سَيْنَاء} جَبَل بِكَسْرِ السِّين وَفَتْحهَا وَمَنْع الصَّرْف لِلْعِلْمِيَّةِ وَالتَّأْنِيث لِلْبُقْعَةِ {تَنْبُت} مِنْ الرُّبَاعِيّ وَالثُّلَاثِيّ {بِالدُّهْنِ} الْبَاء زَائِدَة عَلَى الْأَوَّل وَمُعَدِّيَة عَلَى الثَّانِي وَهِيَ شَجَرَة الزَّيْتُون {وَصِبْغ لِلْآكِلِينَ} عَطْف عَلَى الدُّهْن أَيْ إدَام يَصْبُغ اللُّقْمَةَ بِغَمْسِهَا فِيهِ وهو الزيت.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١).

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَام} الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم {لَعِبْرَة} عِظَة تَعْتَبِرُونَ بِهَا {نُسْقِيكُمْ} بِفَتْحِ النُّون وَضَمّهَا {مِمَّا فِي بُطُونهَا} اللَّبَن {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِع كَثِيرَة} مِنْ الْأَصْوَاف وَالْأَوْبَار وَالْأَشْعَار وَغَيْر ذلك {ومنها} تأكلون.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢).

{وعليها} الإبل {وعلى الفلك} السفن {تحملون}[(١)].

---

(١) لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ} سقفا للبلاد، ومصلحة للعباد {سَبْعَ طَرَائِقَ} أي: سبع سماوات طباقا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ} [المؤمنون: ١٧]، أي:"ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات بعضها فوق بعض".

قال الفراء:"يعني: السموات كل سماء طريقة".

قال الزجاج:"يعنى به: سبع سموات، فكل واحدة طريقة".

قال الطبري: يقول:"ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سموات، بعضهن فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، لأن بعضهن فوق بعض، فكل سماء منهن طريقة".

قال مجاهد: يعني: «سبع سموات».

قال ابن زيد:"الطرائق: السموات".

وفي تسمية السماء: «طرائق»، ثلاثة وجوه:

أحدها: لأن كل طبقة على طريقة من الصنعة والهيئة.

الثاني: لأن كل طبقة منها طريق الملائكة، قاله ابن عيسى.

الثالث: لأنها طباق بعضها فوق بعض، ومنه أخذ طراق الفحل إذا أطبق عليها ما يمسكها، قاله ابن شجرة، والطبري.

قال الماوردي:"فيكون على الوجه الأول مأخوذًا من التطرق، وعلى الوجه الثاني مأخوذًا من التطارق".

=

=

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيرًا ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول {الم} السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد".

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [المؤمنون: ١٧]، أي:"وما كنا عن الخلق غافلين، فلا نُغْفِلُ مخلوقًا، ولا ننساه".

قال الفراء:"يقول: كنا له حافظين".

قال الطبري:"يقول: وما كنا في خلقنا السموات السبع فوقكم، عن خلقنا الذي تحتها غافلين، بل كنا لهم حافظين من أن تسقط عليهم فتهلكهم".

قال الزجاج:"أي لم نكن لنغفل عن حفظهن، كما قال: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢].وجائز أن يكون {وما كنا عن الخلق غافلين}، أي: إنا لحفظنا إياهم خلقنا هذا الخلق".

قال ابن كثير:"أي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يَحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا جبل إلا يعلم ما في وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما في قَعْره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]".

قال ابن عاشور: -هذه الآيات- انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأن أمرها أعجب، وإن كان خلق الإنسان إلى

=

=

نظره أقرب، فالجملة عطف على جملة ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [المؤمنون: ١٢] وإنما ذكر هذا عقب قوله: ثم إنكم يوم القيامة تبعثون [المؤمنون: ١٦] للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلا لحكمة، وأن الحكيم لا يهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيئاتهم، وأن جعله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا لأن عالم الجزاء كائن فيها ومخلوقاته مستقرة فيها، فالإشارة بهذا الترتيب مثل الإشارة بعكسه في قوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين [الدخان: ٣٨- ٤٠] ا.هـ

والطرائق: جمع طريقة، والمراد بها السموات السبع. وسميت طرائق لأن كل سماء فوق الأخرى، والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة بمعنى مطروقة.

وهو مأخوذ من قولهم: فلان طرق النعل، إذا ركب بعضها فوق بعض.

فالآية الكريمة في معنى قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقًا.

وقيل: سميت طرائق، لأنها طرق الملائكة في النزول والعروج.

أى: ولقد خلقنا فوقكم- أيها الناس- سبع سموات بعضها فوق بعض وَما كُنَّا في وقت من الأوقات عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ بل نحن معهم بقدرتنا ورعايتنا وحفظنا، ندبر لهم أمور معاشهم، ونيسر لهم شئون حياتهم دون أن نغفل عن شيء- مهما صغر- من أحوالهم، لأننا لا تأخذنا سنة ولا نوم، ولا يعترينا ما يعترى البشر من سهو أو غفلة.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما غفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماءً أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب.

والثاني: ما كنا تاركين لهم بغير رزق، فأنزلنا المطر.

=

=

والثالث: لم نغفُل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم ا.هـ

ثم بين سبحانه بعض النعم التي تأتينا من جهة هذه الطرائق فقال: وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ...

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ} [المؤمنون: ١٨]، أي:"وأنزلنا من السماء ماء بقدر حاجة الخلائق".

قال ابن جريج:"ماء هو من السماء".

قال الكلبي: "يعني: الأنهار، والعيون، والركي، يعني: الآبار".

قال ابن كثير:"{بِقَدَرٍ}، أي: بحسب الحاجة، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيرًا لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: "الأرض الجرُز"، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طينًا أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور".

قال الزجاج:"يروى أن أربعة أنهار من الجنة، دجلة والفرات وسيحان وجيحان".

قوله تعالى: {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ} [المؤمنون: ١٨]، أي:"وجعلنا الأرض مستقرًا لهذا الماء".

قال الزجاج:"جعلناه ثابتا فيها لا يزول".

قال ابن كثير:"أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى".

قوله تعالى: {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [المؤمنون: ١٨]، أي:"وإنا على

=

=

ذَهاب بالماء المستقر لَقادرون".

قال الطبري:"وإنا على الماء الذي أسكناه في الأرض لقادرون أن نذهب به، فتهلكوا أيها الناس عطشا، وتخرب أرضوكم، فلا تنبت زرعا ولا غرسا، وتهلك مواشيكم، يقول: فمن نعمتي عليكم تركي ذلك لكم في الأرض جاريا".

قال ابن كثير:"أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا لا ينتفع به لشُرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجَرّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مَدَى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا فراتًا زلالا فيسكنه في الأرض ويَسْلُكُه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون وتتنظفون، فله الحمد والمنة".

وعن ابن عباس، قوله: {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}، قال: "يريد أنه سيغيض ويذهب. يعني النيل".

أي: وأنزلنا لكم- أيها الناس- بقدرتنا ورحمتنا، ماء بقدر. أى: أنزلناه بمقدار معين، بحيث لا يكون طوفانا فيغرقكم، ولا يكون قليلا فيحصل لكم الجدب والجوع والعطش.

وإنما أنزلناه بتقدير مناسب لجلب المنافع، ودفع المضار، كما قال سبحانه في آية أخرى: ... وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ.

وقوله: فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ أى: هذا الماء النازل من السماء بتقدير معين منا تقتضيه حكمتنا، جعلناه ساكنا مستقرا في الأرض، لتنعموا به عن طريق استخراجه من الآبار والعيون وغيرها.

=

=

وفي هذه الجملة الكريمة إشارة إلى أن المياه الجوفية الموجودة في باطن الأرض، مستمدة من المياه النازلة من السحاب عن طريق المطر.
وهذا ما قررته النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم. وبعد أن بقي العلماء دهورا طويلة، يظنون أن المياه التي في جوف الأرض، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر.
وقوله سبحانه: وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ بيان لمظهر من مظاهر قدرته ورأفته ورحمته تعالى بعباده.
أى: وإنا على إذهاب هذا الماء الذي أسكناه في باطن الأرض لقادرون، بأن نجعله يتسرب إلى أسفل طبقات الأرض فلا تستطيعون الوصول إليه، أو بأن نزيله من الأرض إزالة تامة، لأن القادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم، وشفقة عليكم، فاشكرونا على نعمنا وضعوها في مواضعها الصحيحة.
قال الزمخشري: «قوله: عَلى ذَهابٍ بِهِ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل.
والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإبعاد، من قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ.
فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء. ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.
وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ. ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ.
ثم بين سبحانه الآثار الجليلة المترتبة على إنزال الماء من السماء فقال: فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ...

=

=

قوله تعالى: {فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [المؤمنون: ١٩]، أي:"فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين فيها النخيل والأعناب".

قال الطبري:"يقول: فأحدثنا لكم بالماء الذي أنزلناه من السماء بساتين من نخيل وأعناب".

قال ابن كثير:"يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء {جَنَّاتٍ} أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات منظر حسن {مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} أي: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق

بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعْجِزُون عن القيام بشكره".

قوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ} [المؤمنون: ١٩]، أي:"لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها".

قال ابن كثير:"أي: من جميع الثمار، كما قال: {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [النحل: ١١]".

قوله تعالى: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [المؤمنون: ١٩]، أي:"ومن ثمر الجنات تأكلون صيفًا وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب".

قال الطبري:"يقول: ومن الفواكه تأكلون".

قال ابن كثير:"معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون".

قال الصابوني:"وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطبًا ويابسًا وهما أكثر فواكه العرب".

أي: فأوجدنا لكم بسبب نزول الماء على الأرض بساتين متنوعة، بعضها من نخيل، وبعضها من أعناب، وبعضها منهما معا، وبعضها من غيرهما.

=

=

وخص النخيل والأعناب بالذكر، لكثرة منافعهما، وانتشارهما في الجزيرة العربية، أكثر من غيرهما.

لَكُمْ فِيها أى: في تلك الجنات فَواكِهُ كَثِيرَةٌ تتلذذون بها في مأكلكم وَمِنْها. أى: ومن هذه البساتين والجنات تَأْكُلُونَ ما تريدون أكله منها في كل الأوقات.

والمراد بالشجرة في قوله تعالى بعد ذلك: وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ ...، شجرة الزيتون. وهي معطوفة على «جنات» من عطف الخاص على العام.

قوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ} [المؤمنون: ٢٠]، أي:"وممَّا أنشأنا لكم بالماء أيضًا شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور".

قال الطبري:"وأنشأنا لكم أيضا شجرة تخرج من جبل ينبت الأشجار، ويعني بها: شجرة الزيتون".

قال الفراء:"هي شجرة الزيتون".

قال ابن كثير:"يعني: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر، فإن عَرى عنها سمي جَبَلا لا طورًا، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كَلَّم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون".

وفي: «طور سيناء» ستة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه سيناء البركة، فكأنه قال: جبل البركة، قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن عباس:"هو جبل بالشام مبارك".

الثاني: أنه الحسن المنظر، قاله قتادة، والضحاك.

قال الضحاك:"الطور: الجبل بالنبطية، وسيناء، حسنة بالنبطية".

الثالث: أنه الكثير الشجر، قاله ابن عيسى، وحكاه معمر.

الرابع: أنه اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى، قاله ابن عباس، وابن زيد، وأبو

=

=

عبيدة.

وقال ابن زيد:"هو جبل الطور الذي بالشام، جبل ببيت المقدس، قال: ممدود، هو بين مصر وبين أيلة".

الخامس: أن «سيناء»: حجارة. حكاه الزجاج.

السادس: أنه المرتفع مأخوذ من: النساء، وهو: الارتفاع. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن سيناء اسم أضيف إليه الطور يعرف به، كما قيل: جبلا طيئ، فأضيفا إلى طيئ، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال من قال: معناه حسن، لكان الطور منونا، وكان قوله سيناء من نعته، على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن، غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله كما قال ابن عباس، من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الحبل الذي نودي منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مبارك، لا أن معنى سيناء: معنى مبارك".

ويقرأ: «من طور سيناء»، بفتح السين، وبكسر السين.

قوله تعالى: {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون: ٢٠]، أي:"يعصر منها الزيت".

قال الطبري: يقول:"تنبت هذه الشجرة بثمر الدهن".

عن مجاهد: " {تنبت بالدهن}، قال: بثمره".

قال ابن عباس:"يقول: هو الزيت يوكل، ويدهن به".

قوله تعالى: {وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ} [المؤمنون: ٢٠]، أي:"وإِدام للآكلين".

قال الفراء:"الآكلون يصطبغون بالزيت".

قال ابن كثير:"أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ.

قال الطبري:"يقول: تنبت بالدهن وبصبغ للآكلين، يصطبغ بالزيت الذين يأكلونه".

=

=

قال ابن زيد: "هذا الزيتون صبغ للآكلين، يأتدمون به، ويصطبغون به".

قال الزمخشري: "الصبغ: الغمس للائتدام. وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: {يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ}".

وقال محمد بن درستويه: "أن «الدهن» -هنا-: المطر اللين".

قال الصابوني: "سمي صبغًا لأنه يلون الخبز إذا غُمس فيه، جمع الله في هذه الشجرة بين الأُدم والدهن، وفي الحديث: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرةٍ مباركة» ".

عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: "ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة".

عن الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضِفْت عمرَ بن الخطاب ليلة عاشوراء، فأطعمني من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتًا، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ".

أى: فأنشأنا لكم بسبب هذا الماء النازل من السماء، جنات، وأنشأنا لكم بسببه- أيضا- شجرة مباركة تخرج من هذا الوادي المقدس الذي كلم الله تعالى عليه موسى- عليه السلام وهو المعروف بطور سيناء. أى: بالجبل المسمى بهذا الاسم في منطقة سيناء، ومكانها معروف.

وخصت شجرة الزيتون بالذكر: لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، ومن أقل الأشجار- أيضا- تكلفة لزارعها.

وخص طور سيناء بإنباتها فيه، مع أنها تنبت منه ومن غيره، لأنها أكثر ما تكون انتشارا في تلك الأماكن، أو لأن منبتها الأصلى كان في هذا المكان، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن.

وقوله: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ بيان لمنافع هذه الشجرة على سبيل المدح،

=

=

والتعليل لإفرادها بالذكر.

والدهن: عصارة كل شيء ذي دسم. والمراد به هنا: زيت الزيتون.

وقراءة الجمهور: تَنْبُتُ- بفتح التاء وضم الباء- على أنه مضارع نبت الثلاثي.

فيكون المعنى: هذه الشجرة من مزاياها أنها تنبت مصحوبة وملتبسة بالدهن الذي يستخرج من زيتونها. فالباء في قوله بِالدُّهْنِ للمصاحبة والملابسة، كما تقول: خرج فلان بسلاحه. أي: مصاحبا له.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: تنبت- بضم التاء وكسر الباء- من أنبت بمعنى نبت. أو: من أنبت المتعدى بالهمزة، كأنبت الله الزرع. والتقدير: تنبت ثمارها مصحوبة بالدهن.

والصبغ في الأصل: يطلق على الشيء الذي يصبغ به الثوب. والمراد به هنا: الإدام لأنه يصبغ الخبز، ويجعله كأنه مصبوغ به.

أى: أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها يتخذ منها الزيت الذي ينتفع به، والإدام الذي يحلو معه أكل الخبز والطعام.

روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة».

وبعد أن بين سبحانه جانبا من مظاهر نعمه في الماء والنبات أتبع ذلك ببيان جانب آخر من نعمه في الأنعام والحيوان. فقال: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً ...

قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً} [المؤمنون: ٢١]، أي:"وإن لكم -أيها الناس- في الإبل والبقر والغنم لَعبرة تعتبرون بخلقها".

قال الطبري:"تعتبرون بها، فتعرفون بها أيادي الله عندكم، وقدرته على ما يشاء، وأنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يعجزه شيء شاءه".

قال الزمخشري:"القصد بـ «الأنعام» إلى الإبل، لأنها هي المحمول عليها في

=

=

العادة".

قوله تعالى: {نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا} [المؤمنون: ٢١]، أي:"نسقيكم مما في بطونها من اللبن".

قال يحيى:"يعني: اللبن".

قال الطبري:"من اللبن الخارج من بين الفرث والدم".

وقرئ: «تسقيكم»، بتاء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ} [المؤمنون: ٢١]، أي:"ولكم فيها منافع أخرى كثيرة كالصوف والجلود، ونحوهما".

قال يحيى:"في ألبانها، وظهورها، وكل ما ينتفع به منها".

قال الطبري:"وذلك كالإبل التي يحمل عليها، ويركب ظهرها، ويشرب درها".

قوله تعالى: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [المؤمنون: ٢١]، أي:"وتأكلون لحومها كذلك".

قال يحيى:"يعني: لحومها".

قال الطبري:"يعني: من لحومها تأكلون".

قال ابن كثير في الآية:"يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرْث ودم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٧]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ} [يس: ٧١ - ٧٣]".

والأنعام: تطلق على الإبل والبقر والغنم. وقد تطلق على الإبل خاصة.

=

=

والعبرة: اسم من الاعتبار، وهو الحالة التي تجعل الإنسان يعتبر ويتعظ بما يراه ويسمعه.

أى: وإن لكم- أيها الناس- فيما خلق الله لكم من الأنعام لعبرة وعظة، تجعلكم تخلصون العبادة لله تعالى وتشكرونه على آلائه.

وقوله سبحانه: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها، وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ.... بيان لمواطن العبرة، وتعريف بأوجه النعمة.

أى: نسقيكم مما في بطونها من ألبان خالصة، تخرج من بين فرث ودم، ولكم في هذه الأنعام منافع كثيرة، كأصوافها وأوبارها وأشعارها، ومنها تأكلون من لحومها، ومما يستخرج من ألبانها.

قوله تعالى: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [المؤمنون: ٢٢].

قال يحيى:"أي: وعلى الإبل. {وعلى الفلك}: السفن، {تحملون}. وقد يقال إنها سفن البر".

قال الطبري:"يقول: وعلى الأنعام، وعلى السفن تحملون على هذه في البر، وعلى هذه في البحر".

قال مكي:"أي على الإبل. وما شابهها من الأنعام في البر، وعلى السفن في البحر تحملون".

قال البغوي:"أي: على الإبل في البر، وعلى الفلك في البحر".

قال الزمخشري:"قرن «الأنعام» -التي هي الإبل- بالفلك- التي هي السفائن- لأنها سفائن البرّ. قال ذو الرمة: سفينة بَرٍّ تحْت خدِّي زمَامُها.

يريد: صيدحه".

أى: وعلى هذه الأنعام، والمراد بها هنا: الإبل خاصة عَلَى الْفُلْكِ

أى: السفن التي تجرى في البحرتحْمَلُونَ بقدرتنا ومنتنا، حيث تحمل هذه الإبل

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمه فَقَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله} أَطِيعُوا الله وَوَحِّدُوهُ {مَا لكم من إله غيره} وَهُوَ اسْم مَا وَمَا قَبْله الْخَبَر وَمِنْ زَائِدَة {أَفَلَا تَتَّقُونَ} تَخَافُونَ عُقُوبَته بِعِبَادَتِكُمْ غَيْره.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤).

{فَقَالَ الْمَلَأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه} لِأَتْبَاعِهِمْ {مَا هَذَا إِلَّا بَشَر مِثْلكُمْ يُرِيد أَنْ يَتَفَضَّل} يَتَشَرَّف {عَلَيْكُمْ} بِأَنْ يَكُون مَتْبُوعًا وَأَنْتُمْ أَتْبَاعه {وَلَوْ شَاءَ الله} أَنْ لَا يُعْبَد غَيْره {لَأَنْزَلَ مَلَائِكَة} بِذَلِكَ لَا بَشَرًا {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا} الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ نُوح مِنْ التَّوْحِيد {فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} الْأُمَم الْمَاضِيَة.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥).

{إنْ هُوَ} مَا نُوح {إلَّا رَجُل بِهِ جِنَّة} حَالَة جُنُون {فَتَرَبَّصُوا بِهِ} انْتَظِرُوهُ

=

وتلك لسفن أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ...

وقريب من هاتين الآيتين في المعنى قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعامًا فَهُمْ لَها مالِكُونَ وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ.

وقوله سبحانه: وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعام ما تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا، وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ.

{حَتَّى حِين} إِلَى زَمَن مَوْته.

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦).

{قَالَ} نُوح {رَبّ أُنْصُرْنِي} عَلَيْهِمْ {بِمَا كَذَّبُونِ} بِسَبَبِ تَكْذِيبهمْ إِيَّايَ بِأَنْ تُهْلِكهُمْ قَالَ تَعَالَى مجيبا دعاءه.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧).

{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْك} السَّفِينَة {بِأَعْيُنِنَا} بِمَرْأَى مِنَّا وَحِفْظنَا {وَوَحْينَا} أَمْرنَا {فَإِذَا جَاءَ أَمْرنَا} بِإِهْلَاكِهِمْ {وَفَارَ التَّنُّور} لِلْخَبَّازِ بِالْمَاءِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَة لِنُوحٍ {فَاسْلُكْ فِيهَا} أَيْ أَدْخِلْ فِي السَّفِينَة {مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ} ذَكَر وَأُنْثَى أَيْ مِنْ كُلّ أَنْوَاعهمَا {اثْنَيْنِ} ذَكَرًا وَأُنْثَى وَهُوَ مَفْعُول وَمِنْ مُتَعَلِّقَة بِاسْلُكْ وَفِي الْقِصَّة أَنَّ الله تَعَالَى حَشَرَ لِنُوحٍ السِّبَاع وَالطَّيْر وَغَيْرهمَا فَجَعَلَ يَضْرِب بِيَدَيْهِ فِي كُلّ نَوْع فَتَقَع يَده الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَر وَالْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى فَيَحْمِلهُمَا فِي السَّفِينَة وَفِي قِرَاءَة كُلّ بِالتَّنْوِينِ فَزَوْجَيْنِ مَفْعُول وَاثْنَيْنِ تَأْكِيد لَهُ {وَأَهْلك} زَوْجَته وَأَوْلَاده {إلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْل مِنْهُمْ} بِالْإِهْلَاكِ وَهُوَ زَوْجَته وَوَلَده كَنْعَان بِخِلَافِ سَام وَحَام وَيَافِث فَحَمَلَهُمْ وَزَوْجَاتهمْ ثَلَاثَة وَفِي سُورَة هُود {وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيل} قِيلَ كَانُوا سِتَّة رِجَال وَنِسَاؤُهُمْ وَقِيلَ جَمِيع مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَة ثَمَانِيَة وَسَبْعُونَ نِصْفهمْ رِجَال وَنِصْفهمْ نِسَاء {وَلَا تُخَاطِبنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا} كَفَرُوا بِتَرْكِ إهلاكهم {إنهم مغرقون}.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨).

{فَإِذَا اسْتَوَيْت} اعْتَدَلْت {أَنْتَ وَمَنْ مَعَك عَلَى الْفُلْك فَقُلْ الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْم الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ وَإِهْلَاكهمْ.

وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩).

{وقل} عند نزولك في الْفُلْك {رَبّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا} بِضَمِّ الْمِيم وَفَتْح الزَّاي مَصْدَرًا وَاسْم مَكَان وَبِفَتْحِ الْمِيم وَكَسْر الزَّاي مَكَان النُّزُول {مُبَارَكًا} ذَلِكَ الْإِنْزَال أَوْ الْمَكَان {وَأَنْتَ خَيْر الْمُنْزِلِينَ} مَا ذُكِرَ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ أَمْر نُوح وَالسَّفِينَة وَإِهْلَاك الْكُفَّار {لَآيَات} دَلَالَات عَلَى قُدْرَة الله تَعَالَى {وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا ضَمِير الشَّأْن {كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} مُخْتَبِرِينَ قَوْم نُوح بِإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ وَوَعْظه[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [المؤمنون: ٢٣]، أي:"ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، بدعوة التوحيد".

قال الطبري: أي:"داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدنا، والبراءة من كل معبود سوانا".

قوله تعالى: {فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [المؤمنون: ٢٣]، أي:"فقال لهم: اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة".

قال الطبري:"يقول: قال لهم: ذلوا يا قوم لله بالطاعة، ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون: ٢٣]، أي:"أفلا تخشون عذابه؟".

=

=

قال الطبري:"يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم".

قال ابن كثير:"أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟!".

قال الزمخشري: أي:"أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التي لا تحصونها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء".

قال ابن عاشور: لما كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدما موجهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبيء ﷺ واعتلوا لذلك بأنهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلما شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب

أن يضرب لهم بقوم نوح مثل تحذيرا مما أصاب قوم نوح من العذاب، وقد جرى في أثناء الاستدلال والامتنان ذكر الحمل في الفلك فكان ذلك مناسبة للانتقال فحصل بذلك حسن التخلص، فيعتبر ذكر قصص الرسل إما استطرادا في خلال الاستدلال على الوحدانية، وإما انتقالا كما سيأتي عند قوله تعالى: وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار [المؤمنون: ٧٨].

وتصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، فالمعنى تأكيد الإرسال إلى نوح وما عقب به ذلك. وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال ا.هـ

قال الجمل: وقدمت قصته هنا على غيره، لتتصل بقصة آدم المذكورة في قوله: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ للمناسبة بينهما من حيث إن نوحا يعتبر آدم الثاني، لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله ا.هـ.

وقوم الرجل: أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد. وقد يقيم الرجل بين قوم ليس منهم في نسبه، فيسميهم قومه على سبيل المجاز، لمجاورته لهم.

=

=

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام. فأرسل الله تعالى إليهم نوحا لينهاهم عن ذلك، وليأمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى.

واللام في قوله سبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلى قَوْمِهِ ... واقعة في جواب قسم محذوف.

أي: والله لقد أرسلنا نبينا نوحا- عليه السلام إلى قومه، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقوله سبحانه فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ... حكاية لما وجهه إليهم من نصائح وإرشادات.

أي: أرسلنا نوحا إلى قومه، فقال لهم ما قاله كل نبي: يا قوم اعبدوا الله وحده، فإنكم ليس لكم إله سواه، فهو الذي خلقكم، وهو الذي رزقكم. وهو الذي يحييكم وهو الذي يميتكم، وكل معبود غيره سبحانه فهو باطل.

وأمره قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) حتى أهملوا عبادة الله ونسوها.

وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله: ما لكم من إله غيره.

ويدل على هذا قولهم: ولو شاء الله لأنزل ملائكة فهم مثبتون لوجود الله، فجملة ما لكم من إله غيره في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.

=

=

وفي ندائهم بقوله: يا قَوْمِ تلطف في الخطاب، ليستميلهم إلى دعوته، فكأنه يقول لهم: أنتم أهلي وعشيرتي يسرني ما يسركم، ويؤذيني ما يؤذيكم، فاقبلوا دعوتي، لأني لكم ناصح أمين.

وقوله: أَفَلا تَتَّقُونَ تحذير لهم من الإصرار على شركهم، بعد ترغيبهم في عبادة الله تعالى وحده بألطف أسلوب.

أي: أفلا تتقون الله تعالى وتخافون عقوبته، بسبب عبادتكم لغيره، مع أنه سبحانه هو الذي خلقكم فالاستفهام للإنكار والتوبيخ.

ثم حكى سبحانه ما رد به قوم نوح عليه فقال: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ...

قوله تعالى: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [المؤمنون: ٢٤]، أي:"فقال أشراف قومه ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال لعامتهم: إنه إنسان مثلكم لا يتميَّز عنكم بشيء".

قال الطبري: يقول:"فقالت جماعة أشراف قوم نوح، الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوه لقومهم: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم، إنما هو إنسان مثلكم وكبعضكم".

قال يحيى:"يقوله بعضهم لبعض".

قال ابن كثير:"الملأ - وهم السادة والأكابر منهم".

قوله تعالى: {يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} [المؤمنون: ٢٤]، أي:"ولا يريد بقوله إلا رئاسة وفضلا عليكم".

قال الزمخشري:"أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم، كقوله تعالى: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} [يونس: ٧٨]".

قال يحيى:"بالرسالة وما له عليكم من فضل".

=

=

قال الطبري: " يقول: يريد أن يصير له الفضل عليكم، فيكون متبوعا وأنتم له تبع".

قال ابن كثير:"يعنون: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحي إليه دونكم؟".

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} [المؤمنون: ٢٤]، أي:"لو أراد ال له أن يبعث رسولًا لبعث ملكًا".

قال الطبري: " يقول: ولو شاء الله أن لا نعبد شيئا سواه؛ لأنزل ملائكة، يقول: لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدي إليكم رسالته".

قال ابن كثير:"أي: لو أراد أن يبعث نبيًّا، لبعث مَلَكًا من عنده ولم يكن بشرًا!".

قال يحيى:"ولو أنزل ملائكة لآمنا".

قوله تعالى: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٢٤]، أي:"ما سمعنا بمثل هذاكللام في الأمم الماضية، والدهور الخالية".

قال يحيى:"أن رجلا ادعى النبوة".

قال الطبري: يقول: " {ما سمعنا بهذا} الذي يدعونا إليه نوح، من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية، وهي آباؤهم الأولون".

قال ابن كثير:"أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية".

قال الزمخشري: قوله:"{بِهذا} إشارة إلى نوح عليه السلام، أو إلى ما كلهم به من الحث على عبادة الله، أى: ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله. وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر: وقولهم: {ما سَمِعْنا بِهذا} يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة. أو تكذبوا في ذلك لانهماكهم في الغى، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم

=

=

وبما عنّ لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب. ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم قول".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ} [المؤمنون: ٢٥]، أي:"ما هو إلا رجلٌ به جنون".

قال يحيى:"جنون".

قال الطبري: أي:"ما نوح إلا رجل به جنون".

قال ابن كثير:"أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي".

قال الزمخشري:"أى: به جنّ يخبلونه".

قوله تعالى: {فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ} [المؤمنون: ٢٥]، أي:"فانتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت".

قال الطبري:"يقول: فتلبثوا به، وتنظروا به حتى حين، يقول: إلى وقت ما، ولم يعنوا بذلك وقتا معلوما، إنما هو كقول القائل: دعه إلى يوم ما، أو إلى وقت ما".

قال مقاتل:"يعنون: الموت".

قال يحيى:"قال بعضهم: حتى يموت، وقال بعضهم: حتى يستبين جنونه".

قال الزمخشري:"أى احتملوه واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه".

قال ابن كثير:"أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه".

والمراد بالملإ: أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح. وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه- كرهط- وهو مأخوذ من قولهم: فلان ملئ بكذا، إذا كان قادرا عليه. أو لأنهم متمالئون أى: متظاهرون متعاونون، أو لأنهم يملؤون القلوب

=

=

والعيون مهابة ...

وفي وصفهم بالكفر: تشنيع عليهم وذم لهم، وإشعار بأنهم عريقون فيه. أي: فقال الأغنياء وأصحاب النفوذ الذين مردوا على الكفر، في الرد على نبيهم نوح عليه السلام: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

أي: قالوا لأتباعهم على سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم، ما هذا، أي: نوح عليه السلام إلا بشر مثلكم، ومن جنسكم، ولا فرق بينكم وبينه فكيف يكون نبيّا؟

ولم يقولوا: ما نوح إلا بشر مثلكم، بل أشاروا إليه بدون ذكر اسمه، لأنهم لجهلهم وغرورهم يقصدون تهوين شأنه- عليه الصلاة والسلام في أعين قومه.

وقولهم: يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أى: أن نوحا جاء بما جاء به بقصد الرياسة عليكم.

ومرادهم بهذا القول: تنفير الناس منه، وحضهم على عداوته.

وقولهم: وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً استبعاد منهم لكون الرسول من البشر أي: ولو شاء الله أن يرسل رسولا ليأمرنا بعبادته وحده. لأرسل ملائكة ليفعلوا ذلك، فهم- لانطماس بصائرهم وسوء تفكيرهم- يتوهمون أن الرسول لا يكون من البشر، وإنما يكون من الملائكة.

ومفعول المشيئة محذوف. أي: ولو شاء الله عبادته وحده لأرسل ملائكة ليأمرونا بذلك، فلما لم يفعل علمنا أنه ما أرسل رسولا، فنوح- في زعمهم- كاذب في دعواه.

وقولهم: ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أى ما سمعنا بهذا الكلام الذي جاءنا به نوح في آباءنا الأولين، الذين ندين باتباعهم، ونقتدي بهم في عبادتهم لهذه الأصنام.

ثم هم لا يكتفون بهذا الجمود والتحجر، بل يصفون نبيهم بما هو برىء منه فيقولون:

=

=

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ.

والجنّة: الجنون، يقال جنّ: فلان إذا أصيب بالجنون، أو إذا مسه الجن فصار في حالة خبل وجنون.

والتربص: الانتظار والترقب، أى: ما نوح- عليه السلام الذي يدعى النبوة، إلا رجل به حالة من الجنون والخبل، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه من هذا الجنون أو إلى وقت موته، وعندئذ تستريحون منه، ومن دعوته التي ما سمعنا بها في آبائنا الأولين.

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا- عليه السلام بأقبح مواجهة حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم، وأنه ليس نبيّا لأن الأنبياء لا يكونون من البشر- في زعمهم- وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه، وأنه مصاب بالجنون وأنه عما قريب سيأخذه الموت، أو يشفى مما هو فيه.

وهكذا الجهل والغرور والجحود ... عند ما يستولى على الناس، يحول في نظرهم الإصلاح إلى إفساد، والإخلاص إلى حب للرياسة، والشيء المعقول المقبول. إلى أى شيء غير معقول وغير مقبول، وكمال العقل ورجحانه، إلى جنونه ونقصانه.

وصدق الله إذ يقول: سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ...

ثم يحكى القرآن بعد ذلك أن نوحا- عليه السلام بعد أن استمع إلى ما قاله قومه في شأنه من ضلالات وسفاهات، لجأ إلى ربه- عز وجل يشكو إليه ما أصابه منهم ويلتمس منه النصر عليهم. فقال: كما حكى القرآن عنه: رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)} [المؤمنون: ٢٦]

=

قال مقاتل:"يقول: انصرني بتحقيق قولي في العذاب بأنه نازل بهم في الدنيا".
قال الطبري:"يقول: قال نوح داعيا ربه، مستنصرا به على قومه؛ لما طال أمره وأمرهم، وتمادوا في غيهم: {رب انصرني} على قومي {بما كذبون}، يعني: بتكذيبهم إياي، فيما بلغتهم من رسالتك، ودعوتهم إليه من توحيدك".
قال السمعاني:"يعني: أهلكهم نصرة لي جزاء تكذيبهم".
قال البغوي:"أي: أعني بإهلاكهم لتكذيبهم إياي".
قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن نوح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا عنه في الآية الأخرى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: {قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ}".
قال الزمخشري:"كأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى، أو انصرني بدل ما كذبوني، كما تقول: هذا بذاك، أى بدل ذاك ومكانه. والمعنى: أبدلنى من غمّ تكذيبهم، سلوة النصرة عليهم".
قال ابن عباس:"بعث نوح لأربعين سنة، (لبث) في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا".
أى: قال نوح في مناجاته لربه: يا رب انصرني على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لي وتطاولهم على. وسخريتهم منى، وإصرارهم على عبادة غيرك.
وقد أجاب الله تعالى دعاء عبده نوح فقال: فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أى: فأوحينا إليه في أعقاب دعائه وتضرعه.
أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا أى: أوحينا إليه أن ابتدئ يا نوح في صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا، وسنرسل إليك وحينا ليرشدك إلى ما أنت في حاجة إليه من إتقان صنع السفينة، ومن غير ذلك من شئون.
قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [المؤمنون: ٢٧]،

=

أي:"فأوحينا إليه أن اصنع السفينة بمرأى منا وبأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا".

قال الطبري:"يقول: فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه: اصنع الفلك، وهي السفينة؛ بأعيننا، يقول: بمرأى منا، ومنظر، ووحينا، يقول: وبتعليمنا إياك صنعتها".

قال الزمخشري:"{بِأَعْيُنِنا} بحفظنا وكلاءتنا، كأن معه من الله حفاظا يكلئونه بعيونهم، لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله. ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة، {وَوَحْيِنا}، أى: نأمرك كيف تصنع ونعلمك، روى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر".

عن قتادة:"{بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}، قال: بعين الله تعالى ووحيه".

قال سليمان القراسي: "عمل نوح السفينة في أربع مائة سنة، وأنبت الساج أربعين سنة، حتى كان طوله أربع مائة ذراع، والذراع إلى المنكب".

عن زيد بن أسلم:"أن نوحا عَلَيْهِ السَّلَامُ مكث يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ثم مائة يعملها".

عن كعب الأحبار:"أنه قال لما استنفذ الله من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين والكافرين أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك، قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: بلى فإن ذلك بعيني خذ القادوم فجعلت يده لا تخطئ فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا فعملها أربعين سنة".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا} [المؤمنون: ٢٧]، أي:"فإذا جاء أمرنا بعذاب قومك بالغرق".

قال الطبري:"يقول: فإذا جاء قضاؤنا في قومك، بعذابهم وهلاكهم".

=

=

قوله تعالى: {وَفَارَ التَّنُّورُ} [المؤمنون: ٢٧]، أي:"ونبع الماء بقوة من التنور".
قال مطرف بن عبد الله بن الشخير:"كانت علامة بينه وبين ربه إذا رأيت التنور يفور بالماء فـ {احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}".
قال الضحاك:"كان آية لنوح، إذا خرج منه الماء فقد أتى الناس الهلاك والغرق".
عن ابن عباس قوله: " {وفار التنور}، قال: نبع".
وفي تفسير قوله تعالى: {وَفَارَ التَّنُّورُ} [المؤمنون: ٢٧]، وجوه:
أحدها: أن المراد: وجه الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة.
قال ابن عباس:"العرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض".
الثاني: أن «التنور»: العين التي بالجزيرة «عين وردة»، رواه عكرمة عن ابن عباس.
وروي عن ابن عباس في قوله:"{وفار التنور}، قال: بالهند".
الثالث: أنه مسجد بالكوفة من قبل أبواب كندة، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن علي، وحذيفة، والشعبي، ومجاهد.
وعن الشعبي: "أنه كان يحلف بالله، ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة".
الرابع: أن «التنور» ما زاد على وجه الأرض فأشرف منها، قاله قتادة.
الخامس: أنه التنور الذي يخبز فيه، قيل له: إذا رأيت الماء يفور منه فاركب أنت ومن معك، قاله مجاهد، ومقاتل، والفراء.
قال الفراء:"هو تنور الخابر: إذا فار الماء من أحر مكان في دارك فهي آية العذاب فأسر بأهلك".
قال مقاتل:"وكان في الشام بعين وردة".
قال الحسن:"كان تنورا من حجارة كان لحواء حتى صار إلى نوح. قال: فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك".
قال القرطبي:"وكان فوران الماء منه علما لنوح، ودليلا على هلاك قومه. قال
=

=

الشاعر وهو أمية:

فار تنورهم وجاش بماء... صار فوق الجبال حتى علاها".

قال مجاهد:"نبع الماء في التنور، فعلمت به امرأته فأخبرته قال، وكان ذلك في ناحية الكوفة".

وروي عن ابن عباس قوله: " {وفار التنور}، قال: إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فإنه هلاك قومك".

قال عطاء:"بلغني أن نوحا عليه السلام قال لجاريته: إذا فار تنورك ماء فأخبريني قال عطاء: بلغني أنها لما فرغت من آخر خبزها فار التنور فذهبت إلى سيدها فأخبرته فركب هو ومن معه في أعلى السفينة وفتح الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا".

السادس: أن التنور هو تنوير الصبح، من قولهم: نور الصبح تنويرًا، وهو مروي عن علي -رضي الله عنه-.

قال أبو بكر الانباري: "والقول الذي يذهب إليه: هو أن التنور تنور الخبز؛ لأن الحمل على الظاهر الذي هو حقيقة أولى من العمل على المجاز، والتمثيل".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: {التنور}، قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه»، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به".

قال ابن كثير:"وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف".

قوله تعالى: {فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [المؤمنون: ٢٧]، أي:"فأدخل في السفينة من كل الأحياء ذكرًا وأنثى؛ ليبقى النسل".

=

=

قال مجاهد:"ذكر وأنثى من كل صنف".

قال ابن عباس:"يقول لنوح: اجعل في السفينة من كل زوجين اثنين".

قال ابن عباس، قال " كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا، منهم أهلوهم وأنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما".

قال الحسن: "لم يحمل نوح عليه السلام في السفينة إلا من يلد ويبيض، وأما ما يتولد من الطير من حشرات الأرض والبعوض والبق فلم يحمل فيها شيئًا.

قال مبارك: "سمعت بكرا يقول: لما حمل نوح الأسد في السفينة اشتهى اللحم فزاد مخافة أهل السفينة، فشكوا ذلك إلى نوح، فدعا عليه فألقيت عليه الحمى فمر به نوح".

قال مسلم بن يسار: "أمر نوح عليه السلام أن يحمل معه من كل زوجين اثنين وملك معه، فجعل يقبض زوجا زوجا وبقي العنب، فجاء إبليس فقال: هذا كله لي، فنظر نوح إلى الملك، فقال: إنه شريكك فأحسن شركته، فقال: لي النصف وله النصف، قال إبليس: هذا كله لي، فنظر إلى الملك، فقال: إنه شريكك فأحسن شركته، قال: نعم، لي الثلث وله الثلثان، قال أخفت وأنت بحساب أنك تأكله عنبا وتأكله ذبيبا وتشربه عصيرا ثلاثة أيام، قال: مسلم: فكانوا يرون أنه إذا شربه كذلك فليس للشيطان فيه نصيب".

قوله تعالى: {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ} [المؤمنون: ٢٧]، أي:"واحمل أهلك أيضًا إلاّ من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه".

قوله تعالى: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [المؤمنون: ٢٧]، أي:"ولا تسألني نجاة قومك الظالمين، فإنهم مغرقون لا محالة".

قال يحيى:"أي: ولا تراجعني".

=

=

قال الطبري:"يقول: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أن أنجيهم، فإني قد حتمت عليهم أن أغرق جميعهم".

قال الزجاج:"المعنى: لا تخاطبني في إمهال الذين كفروا إنهم مغرقون".

قال مقاتل:"يقول ولا تراجعني في الذين أشركوا، يقول الله: ولا تراجعني في ابنك كنعان، فإنه من الذين ظلموا".

قال ابن إسحاق:"فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله ﷻ واستنصر عليهم أوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا {ولا تخاطبني في الذين ظلموا}، أي: بعد اليوم، {إنهم مغرقون}".

قال قتادة:"نهى الله ﷻ نوحا عليه السلام أن يراجعه في أحد".

وفي التعبير بقوله سبحانه أَنِ اصْنَعِ إشارة إلى أن نوحا- عليه السلام قد باشر بنفسه صنع السفينة التي هي وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه.

وفي قوله تعالى: بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا إشارة إلى أن نوحا بجانب مباشرته للصنع بنفسه، كان مزودا من الله تعالى بالعناية والرعاية وبحسن التوجيه والإرشاد عن طريق الوحى الأمين.

وذلك لأن سنة الله تعالى قد اقتضت أن لا يضيع عمل عباده المخلصين، الذين يبذلون أقصى جهدهم في الوصول إلى غاياتهم الشريفة.

والباء في قوله بِأَعْيُنِنا للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير «اصنع».

والفاء في قوله سبحانه فَإِذا جاءَ أَمْرُنا لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع السفينة.

والمراد بالأمر هنا: العذاب الذي أعده الله تعالى لهؤلاء الظالمين من قوم نوح- عليه السلام. ويشهد لذلك قوله سبحانه في آية أخرى: لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ أى: من

=

=
عذابه إِلَّا مَنْ رَحِمَ.
والمراد بمجيء هذا الأمر: اقتراب وقته، ودنو ساعته، وظهور علاماته وقوله تعالى:
وَفارَ التَّنُّورُ بيان وتفسير لمجيء هذا الأمر، وحلول وقت إهلاكهم.
وقوله: فارَ من الفوران. بمعنى شدة الغليان للماء وغيره. يقال للماء فار إذا اشتد غليانه. ويقال للنار فارت إذا عظم هيجانها. ومنه قوله تعالى إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ.
وللمفسرين في المراد بلفظ التَّنُّورُ أقوال منها: أن المراد به الشيء الذي يخبز فيه الخبز، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن.
ومنها أن المراد به وجه الأرض. أو موضع اجتماع الماء في السفينة، أو طلوع الفجر.. وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: وهو التنور الذي يخبز فيه، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب...
ويبدو أن فوران التنور كان علامة لنوح على أن موعد إهلاك الكافرين من قومه قد اقترب.
أى: فإذا اقترب موعد إهلاك قومك الظالمين يا نوح، ومن علامة ذلك أن ينبع الماء من التنور ويفور فورانا شديدا فَاسْلُكْ فِيها فأدخل في السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ولفظ زَوْجَيْنِ تثنية زوج. والمراد به هنا: الذكر والأنثى من كل نوع.
وقراءة الجمهور: مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ بدون تنوين للفظ كل، وبإضافته إلى زوجين....
وقرأ حفص مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ تنوين كل، وهو تنوين عوض عن مضاف إليه.
والتقدير: فأدخل في السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التي أنت في حاجة
=

=

إليها ذكرا وأنثى، ويكون لفظ زَوْجَيْنِ مفعولا لقوله فَاسْلُكْ ولفظ اثنين: صفة له.

والمراد بأهله في قوله تعالى وَأَهْلَكَ: أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين، ويدخل فيهم كل من آمن به- عليه السلام سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم، بدليل قوله تعالى في سورة هود: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ، وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ.

وجملة: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ استثناء من الأهل. والمراد بمن سبق عليه القول منهم: من بقي على كفره ولم يؤمن برسالة نوح- عليه السلام كزوجته وابنه كنعان.

أى: أدخل في السفينة ذكرا وأنثى من أنواع المخلوقات، وأدخل فيها- أيضا- المؤمنين من أهلك ومن غيرهم، إلا الذين سبق منا القول بهلاكهم بسبب إصرارهم على الكفر.

فلا تدخلهم في السفينة، بل اتركهم خارجها ليغرقوا مع المغرقين.

قال الآلوسى: وجيء بعلى في قوله: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ لكون السابق ضارا، كما جيء باللام في قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى لكون السابق نافعا.

وقوله تعالى: وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ نهى منه سبحانه لنوح- عليه السلام عن الشفاعة لهؤلاء الكافرين، أو عن طلب تأخير العذاب المهلك لهم.

أى: اترك يا نوح هؤلاء الظالمين، ولا تكلمني في شأنهم، كأن تطلب الشفاعة لهم أو تأخير العذاب عنهم، فإنهم مقضي عليهم بالإغراق لا محالة. ولا مبدل لحكمي أو إرادتى.

ويبدو- والله أعلم- أن هذه الجملة الكريمة، كانت نهيا من الله تعالى لنوح عن الشفاعة في ابنه الذي غرق مع المغرقين، والذي حكى القرآن في سورة هود أن

=

=

نوحا قد قال في شأنه: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ.

ثم أرشد الله تعالى نبيه نوحا إلى ما يقوله بعد أن يستقر في السفينة فقال سبحانه: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ من أهلك وأتباعك المؤمنين عَلَى الْفُلْكِ.

قوله تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} [المؤمنون: ٢٨]، أي:"فإذا علوت السفينة مستقرًا عليها أنت ومن معك آمنين من الغرق".

قال أبو عبيدة: معناه:"إذا علوت على السفينة".

قال ابن قتيبة:"أي: استقررت في الفلك".

قال الطبري: يقول:"فإذا اعتدلت في السفينة أنت ومن معك، ممن حملته معك من أهلك، راكبا فيها عاليا فوقها".

قال السمعاني:"أي: استقررت وجلست، وقد يكون الاستواء بمعنى الارتفاع، قال الخليل: دخلنا على أبي ربيعة الأعرابي، فقال لنا: استووا، أي: ارتفعوا".

قال يحيى:"كان معه امرأته وثلاث هكذا بنين له: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم. فجميع من كان في السفينة ثمانية".

قوله تعالى: {فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون: ٢٨]، أي:"فقل: الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الكافرين".

قال الطبري: يقول:"يعني: من المشركين".

قال كعب:"«الحمد لله»: ثناء على الله".

قال الضحاك:"«الحمد لله»: رداء الرحمن".

وفي بعض الأخبار عن النبي -ﷺ- أنه قال: «إن مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك».

أى: السفينة التي علمناك عن طريق وحينا كيفية صنعها بإحكام وإتقان فَقُلِ يا نوح

=

=

على سبيل الشكر لنا، والتقدير لذاتنا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا بفضله وكرمه مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الضلالة على الهداية، وتطاولوا على نبيهم الذي جاء لسعادتهم.

وَقُلْ- أيضا- يا نوح رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكًا أى: أنزلنى إنزالا، أو مكان إنزال مباركا- أى مليئا بالخيرات والبركات، خاليا مما حل بالظالمين من إغراق وإهلاك.

قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا} [المؤمنون: ٢٩]، أي:"أنزلني إِنزالًا مباركًا يحفظني من كل سوء".

قال مجاهد:"يقول الرب ﷻ لنوح عليه السلام حين نزل من السفينة".

قال الطبري: يقول:"وقل إذا سلمك الله، وأخرجك من الفلك، فنزلت عنها: {رب أنزلني منزلا} من الأرض {مباركا}".

قال مقاتل:"يعنى بالبركة: أنهم توالدوا وكثروا".

قال السمعاني:"البركة بعد النزول هو كثرة النسل من أولاده الثلاثة، والبركة قبل النزول هو النجاة".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون: ٢٩]، أي:"وأنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك".

قال الطبري: يقول:"{وأنت خير} من أنزل عباده المنازل".

قال ابن زيد:"هبطوا والله عنهم راض هبطوا بسلام من الله كانوا أهل رحمته من أهل ذلك الدهر".

قال قتادة:"هبط إلى الأرض يوم عاشوراء وصام نوح ومن معه من المغرب إلى المغرب".

وفي بعض أخبار النبي: «من نزل منزلا فقال: رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير

=

=

المنزلين، كان ضمانا على الله أن يحفظه من كل شيء يهوله، وإن توفي في ذلك المنزل دخل الجنة».

قال ابن الجوزي: " وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذاك قولان: أحدهما: عند نزوله في السفينة، والثاني: عند نزوله من السفينة".

وَأَنْتَ يا إلهى خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ بفضلك وكرمك في المكان الطيب المبارك.

ثم عقب سبحانه على ما اشتملت عليه قصة نوح من حكم وآداب بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ} [المؤمنون: ٣٠]، أي:"إن في إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لَدلالات واضحات على صدق رسل الله فيما جاؤوا به من الله".

قال الطبري: " من أمر قوم نوح وغرقهم {لآيات} لمن بعدهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} [المؤمنون: ٣٠]، أي:"وإن كنا لمختبرين الأمم بإرسال الرسل إليهم قبل وقوع العقوبة بهم".

قال الواحدي: أي:"وما كنا إلا مختبرين إياهم بإرسال نوح ، ووعظه وتذكيره".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وكنا مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا، لننظر ما هم عاملون قبل نزول عقوبتنا بهم".

ذكر يحيى عن الحسن، قوله:" {لَمُبْتَلِينَ} " بالدين، يعني: ما أرسل به الرسل من عبادته".

=

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١).

{ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدهمْ قَرْنًا} قَوْمًا {آخَرِينَ} هم عاد.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢).

{فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} هُودًا {أَنْ} بِأَنْ {أُعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إلَه غَيْره أَفَلَا تَتَّقُونَ} عِقَابه فَتُؤْمِنُونَ.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣).

{وَقَالَ الْمَلَأ مِنْ قَوْمه الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بلقاء الآخرة} بالمصير إليها {وأترفناهم} نعمناهم {في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون}.

وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤).

=

أى: إن في ذلك الذي ذكرناه لك- أيها الرسول الكريم- عن نوح وقومه لَآياتٍ بينات، ودلالات واضحات، على أن هذا القرآن من عندنا لا من عند غيرنا، وعلى أن العاقبة للمؤمنين، وسوء المنقلب للكافرين.

و «إن» في قوله وَإِنْ كُنَّا هي المخففة من الثقيلة، واللام في قوله لَمُبْتَلِينَ هي الفارقة بينها وبين إن النافية، والجملة حالية، والابتلاء: الاختبار والامتحان ...

أى: إن في ذلك الذي ذكرناه عن نوح وقومه لآيات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا، والحال والشأن أن من سنتنا أن نبتلى الناس بالنعم وبالنقم، وبالخير وبالشر. ليتبين من يعتبر ويتعظ، وليتميز الخبيث من الطيب، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

{وَ} اللهِ {لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ} فِيهِ قَسَم وَشَرْط وَالْجَوَاب لِأَوَّلِهِمَا وَهُوَ مُغْنٍ عَنْ جَوَاب الثَّانِي {إِنَّكُمْ إِذًا} أَيْ إِذَا أَطَعْتُمُوهُ {لَخَاسِرُونَ} أَيْ مَغْبُونُونَ.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥).

{أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ} هُوَ خَبَر أَنَّكُمْ الْأُولَى وَأَنَّكُمْ الثَّانِيَة تَأْكِيد لَهَا لَمَّا طَالَ الْفَصْل.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦).

{هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ} اسْم فِعْل مَاضٍ بِمَعْنَى مَصْدَر أَيْ بَعُدَ بَعُدَ {لِمَا تُوعَدُونَ} مِنْ الْإِخْرَاج مِنْ الْقُبُور وَاللَّام زَائِدَة لِلْبَيَانِ.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧).

{إِنْ هِيَ} أَيْ مَا الْحَيَاة {إِلَّا حَيَاتنَا الدنيا نموت ونحيا} بحياة أبنائنا {وما نحن بمبعوثين}.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨).

{إِنْ هُوَ} مَا الرَّسُول {إِلَّا رَجُل افْتَرَى على الله كذبا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ} مُصَدِّقِينَ بِالْبَعْثِ بَعْد الموت.

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩).

{قال رب انصرني بما كذبون.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠).

{قَالَ عَمَّا قَلِيل} مِنْ الزَّمَان وَمَا زَائِدَة {لَيُصْبِحُنَّ} لَيَصِيرُنَّ {نَادِمِينَ} عَلَى كُفْرهمْ وَتَكْذِيبهمْ.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١).

{فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَة} صَيْحَة الْعَذَاب وَالْهَلَاك كَائِنَة {بِالْحَقِّ} فَمَاتُوا

{فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء} وَهُوَ نَبْت يَبِسَ أَيْ صَيَّرْنَاهُمْ مِثْله فِي الْيَبَس {فَبُعْدًا} مِنْ الرَّحْمَة {لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} الْمُكَذِّبِينَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١)} [المؤمنون: ٣١]

قال الطبري: يقول:"ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح، قرنا آخرين، فأوجدناهم".

قال مكي:"أي: ثم أحدثنا من بعد إهلاك قوم نوح قومًا آخرين".

قال السمعاني:"أي: قوما آخرين".

قال البغوي:"من بعد إهلاكهم، {قرنا آخرين}".

قال الواحدي:"يعني: عادا قوم هود".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنًا آخرين قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ}".

قال الزمخشري:"{قَرْنًا آخَرِينَ}، هم عاد قوم هود: عن ابن عباس رضى الله عنهما. وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}، ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء".

قال السعدي: " الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم".

قال أبو مالك:"القرن: أمد".

قال قتادة: "القرن سبعون سنة".

قال الرازي: اعلم أن هذه القصة هي قصة هود عليه السلام في قول ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام: واذكروا إذ جعلكم =

=

خلفاء من بعد قوم نوح [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء. وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة ا.هـ

وقال ابن الجوزي: هو هود، هذا قول الأكثرين وقال أبو سليمان الدمشقي: هم ثمود، والرسول صالح ا.هـ

وقال السعدي: لما ذكر نوحا وقومه، وكيف أهلكهم قال: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} الظاهر أنهم " ثمود " قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

وقال ابن عاشور: والأظهر أن المراد به هنا ثمود لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة فأخذتهم الصيحة بالحق [المؤمنون: ٤١]، لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة ولقوله قال عما قليل ليصبحن نادمين [المؤمنون: ٤٠] مع قوله في سورة الحجر [٨٣] فأخذتهم الصيحة مصبحين فكان هلاكهم في الصباح. ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] ا.هـ

وعلى أية حال فإن سورة «المؤمنون» في عرضها لقصص الأنبياء تحرص على بيان أن استقبال المكذبين لأنبيائهم كان متشابها في القبح والتكذيب.

وقال سبحانه قَرْنًا آخَرِينَ للإشعار بأنهم كانوا يعيشون في زمان واحد مع نبيهم، وأنهم كانوا معاصرين له، ومشاهدين لأحواله قبل البعثة وبعدها.

ثم بين سبحانه أنه امتن عليهم بإرسال رسول فيهم فقال: فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ...

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} [المؤمنون: ٣٢]، أي:"فأرسلنا فيهم

=

=

رسولا منهم هو هود عليه السلام".

قال الطبري: " داعيا لهم".

قال مكي:"أي: فأرسلنا فيهم رسولًا منهم أن يدعوهم إلى الإيمان".

قال السمعاني:"في التفسير: أن القرن هم قوم هود، وهم عاد، والرسول هو هود، ويقال: قوم صالح وصالح، والأول أصح وأظهر".

قال القرطبي:"يعني هودا، لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد. وقيل: هم قوم ثمود {فأرسلنا فيهم رسولا} يعني: صالحا. قالوا: والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية: {فأخذتهم الصيحة} [المؤمنون: ٤١]، نظيرها: {وأخذ الذين ظلموا الصيحة} [هود: ٦٧].

قلت-القرطبي-: وممن أخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قوم شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم".

قال القرطبي-:"{منهم}، أي: من عشيرتهم، يعرفون مولده ومنشؤه ليكون سكونهم إلى قوله أكثر".

قال السعدي: {منهم}، أي:"من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم".

قوله تعالى: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [المؤمنون: ٣٢]، أي:"، فقال لهم: اعبدوا الله وحده ليس لكم معبود بحق غيره".

قال الطبري: " أطيعوه دون الآلهة والأصنام، فإن العبادة لا تنبغي إلا له، ما لكم من معبود يصلح أن تعبدوا سواه".

قال السعدي:"فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه،

=

=

والإخبار ببطلان ذلك وفساده".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون: ٣٢]، أي:"أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره؟".

قال الطبري: " أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه".

قال مكي:"أي: أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم الأصنام من دون الله".

أي: كان من مظاهر رحمتنا ومنتنا على هؤلاء القوم الآخرين الذين جاءوا بعد إهلاك قوم نوح، أن أرسلنا فيهم رسولا منهم نشأ بين أظهرهم وعرفوا حسبه ونسبه، فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه: اعبدوا الله وحده، فإنكم ليس لكم من إله سواه، لأنه سبحانه هو الذي أوجدكم في هذه الحياة.. أَفَلا تَتَّقُونَ بأسه وعقابه إذا ما عبدتم غيره؟!.

ثم بين سبحانه بعد ذلك ما رد به هؤلاء المشركون الجاحدون على نبيهم فقال: وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ، وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ...

قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ} [المؤمنون: ٣٣]، أي:"وقال الأشراف والوجهاء من قومه الذين كفروا بالله، وأنكروا الحياة الآخرة".

قال الطبري: يقول:"وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحا، وبقومه: ثمود".

قال مكي:"أي: قال أشراف قومه المكذبون، الكفار بالبعث، يعني قوم هود عليه السلام".

قال أبو مالك:"{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

=

=

قوله تعالى: {وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [المؤمنون: ٣٣]، أي:"وأطغاهم ما أُنعم به عليهم في الدنيا من ترف العيش".

قال الطبري: يقول:"يقول: ونعمناهم في حياتهم الدنيا بما وسعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق، حتى بطروا وعتوا على ربهم، وكفروا، ومنه قول الراجز:

وقد أراني بالديار مترفا".

قال مكي:"أي: ونعمناهم في الدنيا بسعة الرزق حتى بطروا وعتوا، فكفروا وكذبوا الرسل".

قال السمعاني:"أي: وأغنياهم في الحياة الدنيا، ويقال: وسعنا عليهم المعيشة في الحياة الدنيا حتى أترفوا، والإتراف هو التنعم بملاذ العيش".

قال القرطبي-:"أي: وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا وصاروا يؤتون بالترفة".

قال يحيى بن سلام:"وسعنا الدنيا عليهم، أي في الرزق".

قال أبو عبيدة: أي:"وسعنا عليهم، فأترفوا فيها وبغوا وبطروا فكفروا وأعجبوا قال العجّاج:

وقد أرانى بالديار مترفا".

قوله تعالى: {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [المؤمنون: ٣٣]، أي:"قالوا لأتباعهم مضلين لهم: ما هذا الذي يزعم أنه رسول إِلا إِنسان مثلكم".

قال السعدي:"أي: من جنسكم".

قال الطبري:"يقول: قالوا: بعث الله صالحا إلينا رسولا من بيننا، وخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا".

قوله تعالى: {يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} [المؤمنون: ٣٣]، أي:"يأكل من جنس طعامكم، ويشرب من جنس شرابكم".

=

=

قال الطبري: يقول:"يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، وكيف لم يرسل ملكا من عنده يبلغنا رسالته".

قال القرطبي-:"أي: فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم".

قال السعدي:"فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب".

أي: وقال الأغنياء والزعماء من قوم هذا النبي، الذين كفروا بالحق لما جاءهم، وكذبوا بالبعث والجزاء الذي يكون في الآخرة، والذين أبطرتهم النعمة التي أنعمنا عليهم بها في دنياهم ...

قالوا لنبيهم بجفاء وسوء أدب لكي يصرفوا غيرهم عن الإيمان به: ما هذا الذي يدعى النبوة إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وكأنهم يرون- لغبائهم وانطماس عقولهم- أن الرسول لا يكون من البشر، أو يرون جواز كونه من البشر، إلا أنهم قالوا ذلك على سبيل المكر ليصدوا أتباعهم وعامة الناس عن دعوته.

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ما يؤكده في نفوس الناس فقالوا: يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ من طعام، وغذاء، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ من ماء وما يشبه الماء.

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ أيها الناس بَشَرًا مِثْلَكُمْ في المأكل والمشرب والملبس والعادات.. أَنَّكُمْ إِذًا بسبب هذه الطاعة لَخاسِرُونَ خسارة ليس بعدها خسارة.

قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ} [المؤمنون: ٣٤]، أي:"ولئن اتبعتم فردًا مثلكم".

قال الطبري: أي:"فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول وصدقتمو".

قال البيضاوي: أي:"فيما يأمركم به".

قال السعدي:"أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسا، وهو مثلكم".

=

=

قال السمعاني:"{بشرا مثلكم}، أي: من لحم ودم مثلكم".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [المؤمنون: ٣٤]، أي:"إنكم إذًا لخاسرون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه".

قال الطبري: أي:"إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا، باتباعكم إياه".

قال السمعاني:"أي: المغبونون، ويقال: تاركون طريقة العقلاء، فتكونون بمنزلة من خسر عقله".

قال القرطبي-:"يريد لمغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم".

قال النسفي:"{لخاسرون} بالانقياد لمثلكم ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم".

قال البيضاوي:"حيث أذللتم أنفسكم، و «إذا» جزاء للشرط وجواب للذين قاولوهم من قومه".

قال السعدي:"إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينقد له. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر. وهذا نظير قولهم: {فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} [القمر: ٢٤ - ٢٥][القمر: ٢٤]".

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن الله تعالى وصف هؤلاء الجاحدين بالغنى والجاه، وأنهم من قوم هذا النبي فازداد حسدهم له وحقدهم عليه، وأنهم أصلاء في الكفر، وفي التكذيب باليوم الآخر، وأنهم- فوق كل ذلك- من المترفين الذين

=

=

عاشوا حياتهم في اللهو واللعب والتقلب في ألوان الملذات.. ولا شيء يفسد الفطرة، ويطمس القلوب، ويعمى النفوس والمشاعر عن سماع كلمة الحق. كالترف والتمرغ في شهوات الحياة.

لذا تراهم في شبهتهم الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبي، بزعمهم أنه بشر، يأكل مما يأكل منه الناس، ويشرب مما يشربون منه، والعقلاء في زعمهم- لا يتبعون نبيّا من البشر، لأن اتباعه يؤدى إلى الخسران المبين.

ولقد نهجوا في قولهم الباطل هذا، نهج قوم نوح من قبلهم، فقد قالوا في شأنه: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ...

أما شبهتهم الثانية التي أثاروها لصرف الناس عن الحق. فقد حكاها القرآن في قوله عنهم: أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرابًا وَعِظامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ...

قوله تعالى: {أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥)} [المؤمنون: ٣٥]

التفسير:

قال الطبري: " قالوا لهم: أيعدكم صالح أنكم إذا متم وكنتم ترابا في قبوركم، وعظاما قد ذهبت لحوم أجسادكم، وبقيت عظامها - أنكم مخرجون من قبوركم أحياء، كما كنتم قبل مماتكم؟".

قال السمعاني:"تحصيل المعنى: أيعدكم أنكم إذا متم وقبرتم ثم خرجتم من قبوركم".

قال ابن كثير:"أنكروا المعاد الجثماني".

وفي قراءة ابن مسعود: «أيعدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخروجون».

أى: أيعدكم هذا الذي يدعى النبوة- وهو بشر مثلكم- أنكم إذا فارقتم هذه الحياة وصرتم أمواتا، وصارت بعض أجزاء أجسامكم ترابا وبعضها عظاما نخرة، أنكم

=

=

مخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء؟.

والاستفهام في قوله أَيَعِدُكُمْ للإنكار والتحذير من اتباع هذا النبي، والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من الصد عن الاستماع إلى ما جاءهم به نبيهم، لأنه- في زعمهم- يؤدى إلى الخسران.

وكرر سبحانه لفظ أَنَّكُمْ لبيان حرصهم على تأكيد أقوالهم الباطلة في نفوس الناس، حتى يفروا من وجه نبيهم.

ثم حكى سبحانه أنهم لم يكتفوا بكل ما أثاروه من شبه لصرف أتباعهم عن الحق بل أضافوا إلى ذلك. أن ما يقوله هذا النبي مستبعد في العقول، وأنه رجل افترى على الله كذبا..

فقال تعالى: هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ.

قوله تعالى: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)} [المؤمنون: ٣٦]

قال الطبري:"هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول الملأ من ثمود أنهم قالوا: هيهات هيهات: أي بعيد ما توعدون أيه القوم، من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما مخرجون أحياء من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن".

قال ابن كثير:"أي: بعيد بعيد ذلك".

قال مقاتل:"يقول: هذا حديث قد درس فلا يذكر".

قال الفراء:"معنى: «هيهات» بعيد، كأنه قال: بعيد {لما توعدون}".

عن ابن عباس، قوله: " {هيهات هيهات}، يقول: بعيد بعيد".

قال قتادة:"يعني: البعث".

قال قتادة:"تباعد البعث في أنفس القوم، أي: لا يبعثون".

قال الكلبي: "يقولون: بعيد بعيد ما وعدكم ليوم البعث".

=

=

قال الواحدي:"استبعد أعداء الله إخراجهم ونشرهم لما كانت العدة به بعد الموت إغفالا منهم للتفكير في قوله: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} [يس: ٧٩]".

قال السعدي:"فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقالوا: {أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون}، أي:

بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم ترابا وعظاما فنظروا نظرا قاصرا ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم تعالى الله فأنكروا قدرته على إحياء الموتى وعجزوه غاية التعجيز ونسوا خلقهم أول مرة وأن الذي أنشأهم من العدم فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه وكلاهما هين لديه فلم لا ينكرون أول خلقهم ويكابرون المحسوسات ويقولون إننا لم نزل موجودين حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير وثم دليل آخر وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٢ - ٣]، فقال في جوابهم {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} [ق: ٤] أي: في البلى {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [ق: ٤]".

ولفظ «هيهات» اسم فعل ماض، معناه: بعد بعدا شديدا، والغالب في استعمال هذا اللفظ مكررا، ويكون اللفظ الثاني مؤكدا تأكيدا لفظيا للأول.

أى: قال الملأ من قوم هذا النبي لغيرهم، على سبيل التحذير من اتباعه: بعد بعدا كبيرا ما يعدكم به هذا الرجل من أن هناك بعثا وحسابا وجزاء بعد الموت، وأن هناك جنة ونارا يوم القيامة.

=

=

قال الآلوسي: " «وقوله سبحانه: هَيْهاتَ اسم بمعنى بعد. وهو في الأصل اسم صوت، وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو للصحة أو للوقوع أو نحو ذلك مما يفهم من السياق. والغالب في هذه الكلمة مجيئها مكررة.. وقوله لِما تُوعَدُونَ بيان لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلقة بمقدر، كما في قولهم: سقيا له. أى: التصديق أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما توعدون..".

وقوله سبحانه إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا.. بيان لتماديهم في جحودهم وجهلهم وغرورهم.

قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [المؤمنون: ٣٧]، أي:"ما حياتنا إلا في هذه الدنيا، يموت الآباء منا ويحيا الأبناء".

قال يحيى:"أي: نموت ونولد".

قال السعدي:"أي: يموت أناس ويحيا أناس".

قال الطبري:"يقول: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا فيولدون أحياء".

قال الزمخشري:"أى: يموت بعض ويولد بعض، ينقرض قرن ويأتى قرن آخر".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [المؤمنون: ٣٧]، أي:"وما نحن بمخرجين أحياء مرة أخرى".

قال الطبري:"يقول: قالوا: وما نحن بمبعوثين بعد الممات".

قال ابن زيد:"يقول ليس آخرة ولا بعث، يكفرون بالبعث، يقولون: إنما هي حياتنا هذه ثم نموت ولا نحيا، يموت هؤلاء ويحيا هؤلاء، يقولون: إنما الناس كالزرع يحصد هذا، وينبت هذا، يقولون: يموت هؤلاء، ويأتي آخرون".

أى: إنهم لم يكتفوا باستبعاد حصول البعث والجزاء يوم القيامة بل أضافوا إلى ذلك الإنكار الشديد لحصولهما فقالوا: ما الحياة الحقيقية التي لا حياة بعدها إلا

=

=

حياتنا الدنيا التي نحياها، ولا وجود لحياة أخرى، كما يقول هذا النبي- فنحن نموت كما مات آباؤنا، ونحيا كما يولد أبناؤنا. وهكذا الدنيا فيها موت لبعض الناس، وفيها حياة لغيرهم وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت على الإطلاق.

ثم أضافوا إلى إنكارهم هذا للدار الآخرة، تطاولا على نبيهم، واتهاما له بما هو بريء منه، فقالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِبًا ...

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [المؤمنون: ٣٨]، أي:"وما هذا الداعي لكم إلى الإيمان إلا رجل اختلق على الله كذبًا".

قال يحيى:"يزعم أن الله أرسله".

قال الطبري:"قالوا ما صالح إلا رجل اختلق على الله كذبا في قوله: {ما لكم من إله غيره}، وفي وعده إياكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ} [المؤمنون: ٣٨]، أي:"ولسنا بمصدقين ما قاله لنا".

قال يحيى:"أي: بمصدقين".

قال الطبري:"يقول: وما نحن له بمصدقين فيما يقول: إنه لا إله لنا غير الله، وفيما يعدنا من البعث بعد الممات".

أى ما هذا النبي الذي أمركم بترك عبادة آلهتكم، وأخبركم بأن هناك بعثا وحسابا، إلا رجل اختلق على الله الكذب فيما يقوله ويدعو إليه وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ في يوم من الأيام، فكونوا مثلنا- أيها الناس- في عدم الإيمان به، وفي الانصراف عنه.

وهكذا يصور لنا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ، موقف الطغاة من دعوة الحق، وكيف أنهم لا يكتفون بالانصراف عنها وحدهم، بل يؤلبون غيرهم بكل وسيلة على الانقياد لهم، وعلى محاربة من جاء بهذه الدعوة بمختلف السبل وشتى الطرق.

=

=

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف النبي الذي أرسله الله تعالى لهؤلاء القوم الظالمين فيقول: قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)} [المؤمنون: ٣٩]

فدعا رسولهم ربه قائلا رب انصرني عليهم بسبب تكذيبهم لي.

قال الطبري:"يقول: قال صالح لما أيس من إيمان قومه بالله، ومن تصديقهم إياه بقولهم: {وما نحن له بمؤمنين} رب انصرني على هؤلاء بما كذبون يقول: بتكذيبهم إياي فيما دعوتهم إليه من الحق، فاستغاث صلوات الله عليه بربه من أذاهم إياه، وتكذيبهم له".

قال البيضاوي: أي:"انصرني عليهم وانتقم لي منهم، بسبب تكذيبهم إياي".

قال الواحدي: {بِمَا كَذَّبُونِ}، أي:"بتكذيبهم إياي".

قال ابن كثير:"أي: استفتح عليهم الرسول واستنصَرَ ربَّه عليهم".

أي: قال ما قاله أخوه نوح من قبله: رب انصرني على هؤلاء الجاحدين، فأنت تعلم- يا إلهى- أنهم كذبوا ما جئتهم به من عندك.

وجاءت الاستجابة من الله تعالى لهذا النبي، كما جاءت لأخيه نوح من قبله، ويحكى القرآن ذلك فيقول: قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ.

قوله تعالى: {قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)} [المؤمنون: ٤٠]

قال الطبري:"فقال الله له مجيبا في مسألته إياه ما سأله: عن قليل يا صالح ليصبحن مكذبوك من قومك على تكذيبهم إياك نادمين، وذلك حين تنزل بهم فتنتنا فلا ينفعهم الندم".

قال الزجاج:"معناه: عن قليل، و {ما}، زائدة بمعنى التوكيد، كأن معناه: عن قليل ليصبحن نادمين حقا".

قال البيضاوي: أي:"عن زمان قليل ليصبحن نادمين على التكذيب إذا عاينوا

=

=

العذاب، و «ما» صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة".

قال الواحدي:" {نَادِمِينَ} ، "على الكفر والتكذيب".

أى: قال الله- ﷻ لنبيه: لقد أجبنا دعاءك أيها النبي الكريم، وبعد وقت قليل من الزمان. ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه جاء في غير أوانه.

والجار والمجرور في قوله عَمَّا قَلِيلٍ متعلق بقوله: لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ أى: ليصبحن عن زمن قليل نادمين، و «عن» هنا بمعنى بعد، و «ما» جيء بها لتأكيد معنى القلة.

وأكد سبحانه قوله لَيُصْبِحُنَّ بلام القسم ونون التوكيد، لبيان أن هذا الوعيد آت لا ريب فيه، وفي وقت قريب.

وجاء الوعيد فعلا. وأخبر سبحانه عن ذلك فقال: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ...

أى: فأهلكناهم إهلاكا تامّا، بالصيحة التي صاحها بهم جبريل- عليه السلام حيث صاح بهم مع الريح العاتية التي أرسلها الله عليهم فدمروا تدميرا.

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ} [المؤمنون: ٤١]، أي:"فأخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلًا من الله لا ظلمًا".

قال الحسن:"الصيحة: العذاب".

قال الطبري:"فانتقمنا منهم، فأرسلنا عليهم الصيحة، فأخذتهم بالحق، وذلك أن الله عاقبهم باستحقاقهم العقاب منه بكفرهم به، وتكذيبهم رسوله".

قال مقاتل:"يعني: صيحة جبريل عليه السلام فصاح صيحة واحدة فماتوا أجمعين فلم يبق منهم أحد".

قال السمعاني:"في القصة: أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فتصدعت قلوبهم، ويقال: إن المراد من الصيحة الهلاك. قال امرؤ القيس:

=

=

فدع عنك نهيا صيح في حجراته... ولكن حديث ما حديث الرواحل

وتمثل بهذا البيت علي رضي الله عنه في بعض حروبه".

قال الواحدي:"قوله: {بالحق}، أي: باستحقاقهم العذاب بكفرهم".

قال البيضاوي:"{بالحق}: بالوجه الثابت الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله كقولك فلان يقضي بالحق. أو بالوعد الصدق، واستدل به على أن القرن قوم صالح".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً} [المؤمنون: ٤١]، أي:"وأصبحوا كغثاء السيل الذي يطفو على الماء".

قال الطبري:"يقول: فصيرناهم بمنزلة الغثاء، وهو ما ارتفع على السيل ونحوه، كما لا ينتفع به في شيء فإنما هذا مثل، والمعنى: فأهلكناهم فجعلناهم كالشيء الذي لا منفعة فيه".

قال ابو عبيدة:"وهو ما أشبه الزبد وما ارتفع على السيل وما أشبه ذلك مما لا ينتفع به فى شئ".

قال ابن قتيبة:"أي: هلكى كالغثاء، وهو ما علا السيل من الزبد والقمش، لأنه يذهب ويتفرق".

قال الزجاج:"الغثاء: الهالك والبالي من ورق الشجر الذي إذا جرى السيل رأيته مخالطا زبده".

قال ابن عباس:"يقول: جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر".

قال قتادة: "هو الشيء البالي".

قال مجاهد:"كالرميم الهامد، الذي يحتمل السيل".

قال ابن زيد:"هذا مثل ضربه الله".

قوله تعالى: {فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون: ٤١]، أي:"فهلاكًا لهؤلاء

=

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢).

{ثم أنشأنا من بعدهم قرونا} أقواما {آخرين}.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣).

{مَا تَسْبِق مِنْ أُمَّة أَجَلهَا} بِأَنْ تَمُوت قَبْله {وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} عَنْهُ ذُكِرَ الضَّمِير بَعْد تأنيثه رعاية للمعنى.

=

الظالمين وبُعْدًا لهم من رحمة الله".

قال الطبري:"يقول: فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم؛ إذ كفروا بربهم، وعصوا رسله، وظلموا أنفسهم".

قال مجاهد:"أولئك ثمود".

وذكر سبحانه هنا الصيحة فقط مع أن قوم هود قد أهلكوا بها وبالريح الصرصر العاتية للإشعار بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت كافية لإهلاكهم، فقد قال سبحانه في شأن الريح التي أرسلها عليهم: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ.

وقوله بِالْحَقِّ حال من الصيحة، وهو متعلق بمحذوف، والتقدير، فأخذتهم الصيحة حالة كونها بالعدل الذي لا ظلم معه، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم لنبيهم.

وقوله سبحانه-: فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بيان لمصيرهم الأليم.

والغثاء: الرميم الهامد الذي يحمله السيل من ورق الشجر وغيره، يقال: غثا الوادي يغثو إذا كثر غثاؤه.

أى: فصيرناهم هلكى هامدين كغثاء السيل البالي، الذي اختلط بزبده، فهلاكا وبعدا لهؤلاء القوم الظالمين، كما هلك وبعد من قبلهم قوم نوح- عليه السلام.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤).

{ثم أرسلنا رسلنا تترا} بِالتَّنْوِينِ وَعَدَمه مُتَتَابِعِينَ بَيْن كُلّ اثْنَيْنِ زَمَان طويل {كلما جَاءَ أُمَّة} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة بَيْنَهَا وَبَيْن الْوَاو {رَسُولهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضهمْ بَعْضًا} فِي الهلاك {وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون}.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥).

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين} حُجَّة بَيِّنَة وَهِيَ الْيَد وَالْعَصَا وَغَيْرهمَا من الآيات.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦).

{إِلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا} عَنْ الْإِيمَان بِهَا وَبِاَللَّهِ {وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ} قَاهِرِينَ بَنِي إِسْرَائِيل بالظلم.

فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧).

{فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلنَا وَقَوْمهمَا لَنَا عَابِدُونَ} مطيعون خاضعون.

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨).

{فكذبوهما فكانوا من المهلكين}.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب} التَّوْرَاة {لَعَلَّهُمْ} قَوْمه بَنِي إِسْرَائِيل {يَهْتَدُونَ} بِهِ مِنْ الضَّلَالَة وَأُوتِيَهَا بَعْد هَلَاك فِرْعَوْن وَقَوْمه جُمْلَة وَاحِدَة.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠).

{وجعلنا بن مَرْيَم} عِيسَى {وَأُمّه آيَة} لَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ لِأَنَّ الْآيَة فِيهِمَا وَاحِدَة

وِلَادَته مِنْ غَيْر فَحْل {وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَة} مَكَان مُرْتَفِع وَهُوَ بَيْت الْمَقْدِس أَوْ دِمَشْق أَوْ فِلَسْطِين أَقْوَال {ذَات قَرَار} أَيْ مُسْتَوِيَة يَسْتَقِرّ عَلَيْهَا سَاكِنُوهَا {وَمَعِين} وَمَاء جَارٍ ظَاهِر تَرَاهُ الْعُيُون.

يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١).

{يَأَيُّهَا الرُّسُل كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَات} الْحَلَالَاتِ {وَاعْمَلُوا صَالِحًا} مِنْ فَرْض وَنَفْل {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم} فَأُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ.

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢).

{وَ} اعْلَمُوا {إِنَّ هَذِهِ} أَيْ مِلَّة الْإِسْلَام {أُمَّتكُمْ} دِينكُمْ أَيّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَيْ يَجِب أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا {أُمَّة وَاحِدَة} حَال لَازِمَة وَفِي قِرَاءَة بِتَخْفِيفِ النُّون وَفِي أُخْرَى بِكَسْرِهَا مُشَدَّدَة اسْتِئْنَافًا {وَأَنَا رَبّكُمْ فَاتَّقُونِ} فَاحْذَرُونِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢)} [المؤمنون: ٤٢]

أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين أممًا وخلائق آخرين كأقوام: لوط وشعيب وأيوب ويونس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال الطبري: يقول:"ثم أحدثنا من بعد هلاك ثمود قوما آخرين".

قال يحيى:"من بعد الهالكين".

قال السمعاني:"أي: قوما آخرين".

قال البيضاوي:"هي قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم".

قال الرازي: " اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الإجمال كهاهنا، وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام.

فأما قوله: ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى أنه ما أخلى الديار من =

=

مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا".

وقوله ﷻ: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وإحكامه لشئون خلقه.

قوله تعالى: {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣)} [المؤمنون: ٤٣]

أي: ما تتقدم أي أمة من هذه الأمم المكذبة الوقت المحدد لهلاكها، ولا تتأخر عنه.

قال يحيى:"{ما تسبق من أمة أجلها} ،يعني: الوقت الذي يهلكها فيه، {وما يستأخرون} عن الوقت ساعة ولا يستقدمون من قبل الوقت".

قال السمعاني:"{ما تسبق من أمة أجلها} أي: وقت هلاكهم. {وما يستأخرون}، أي: يتأخرون عن وقت هلاكها".

قال البيضاوي:"{ما تسبق من أمة أجلها} الوقت الذي حد لهلاكها، و «من» مزيدة للاستغراق. {وما يستأخرون} الأجل".

قال الطبري:"يقول: ما يتقدم هلاك أمة من تلك الأمم التي أنشأناها بعد ثمود قبل الأجل الذي أجلنا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي أجلنا لهلاكها، والوقت الذي وقتنا لفنائها، ولكنها تهلك لمجيئه. وهذا وعيد من الله لمشركي قوم نبينا محمد ﷺ، وإعلام منه لهم أن تأخيره في آجالهم، مع كفرهم به وتكذيبهم رسوله، ليبلغوا الأجل الذي أجل لهم، فيحل بهم نقمته، كسنته فيمن قبلهم من الأمم السالفة".

عن مجاهد، في الآية، قال:"لا مستأجر بعده".

أي: ما تسبق أمة من الأمم أجلها الذي قدرناه لها ساعة من الزمان، ولا تستأخر عنه ساعة، بل الكل نهلكه ونميته في الوقت الذي حددناه بقدرتنا وحكمتنا.

=

=

و «من» في قوله مِنْ أُمَّةٍ مزيدة للتأكيد: وفي هذا المعنى قوله تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ.

ثم بين سبحانه على سبيل الإجمال، أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسلا آخرين، متتابعين في إرسالهم. كل واحد يأتي في أعقاب أخيه. ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا ...

قوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى} [المؤمنون: ٤٤]، أي:"ثم أرسلنا رسلنا إلى تلك الأمم يتبع بعضهم بعضًا".

قال الطبري: يقول:"{ثم أرسلنا} إلى الأمم التي أنشأنا بعد ثمود {رسلنا تترى}، يعني: يتبع بعضها بعضا، وبعضها في أثر بعض، وهي من المواترة".

قال السمعاني:"المعنى: متواترين بعضهم على إثر بعض، ويقال: بين كل نبيين قطعة من الزمان".

قال ابن عباس:"يقول: يتبع بعضها بعضا".

عن مجاهد:"{تترى}، قال: اتباع بعضها بعضا".

وقرء: «تترا»، بالتنوين.

قوله تعالى: {كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ} [المؤمنون: ٤٤]، أي:"كلما دعا رسول أمته كذبوه".

قال الطبري:"يقول: كلما جاء أمة من تلك الأمم، التي أنشأناها بعد ثمود، رسولها الذي نرسله إليهم، كذبوه فيما جاءهم به من الحق من عندنا".

قال السمعاني:"أي: جحدوه وأنكروه".

قوله تعالى: {فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا} [المؤمنون: ٤٤]، أي:"فأتبعنا بعضهم بعضًا بالهلاك والدمار".

قال السمعاني:"أي: في الهلاك".

=

=

قال الطبري:"يقول: فأتبعنا بعض تلك الأمم بعضا بالهلاك، فأهلكنا بعضهم في إثر بعض".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} [المؤمنون: ٤٤]، أي:"وجعلناها أحاديث لمن بعدهم، يتخذونها عبرة".

قال ابن عباس: "يريد لمن بعدهم من الناس يتحدثون بأمرهم وشأنهم".

قال مقاتل:"لمن بعدهم من الناس يتحدثون بأمرهم وشأنهم".

قال الطبري: يعني:"مثلا يتحدث بهم في الناس".

قال ابو عبيدة:"أي: يتمثّل بهم فى الشر، ولا يقال فى الخير: جعلته حديثا".

قال ابن قتيبة:"أخبارا وعبرا".

قال الصابوني: أي:"أخبارًا تُروى وأحاديث تُذكر، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجبًا وتسلية".

قال السمعاني:"أي: سمرا وقصصا، قال بعضهم شعرا:

فكن حديثا حسنا ذكره... فإنما الناس أحاديث".

قوله تعالى: {فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: ٤٤]، أي:"فهلاكًا وسُحْقًا لقوم لا يصدقون الرسل ولا يطيعونهم".

قال الطبري:"يقول: فأبعد الله قوما لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون برسوله".

قال الطبري:"يقول: فأبعد الله قوما لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون برسوله".

ولفظ تَتْرا مصدر كدعوى، وألفه للتأنيث وأصله: وترى فقلبت الواو تاء، وهو منصوب على الحال من رسلنا.

أى: ثم أرسلنا بعد ذلك رسلنا متواترين متتابعين واحدا بعد الآخر، مع فترة ومهلة من الزمان بينهما.

قال القرطبي: ومعنى «تترى»: تتواتر، ويتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا..

=

=

قال الأصمعي: واترت كتبي عليه، أتبعت بعضها بعضا إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة.. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تَتْرا بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء، كقولك: حمدا وشكرا..ا.هـ.

ثم بين سبحانه موقف كل أمة من رسولها فقال: كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ....

أي: كلما جاء رسول كل أمة إليها ليبلغها رسالة الله تعالى وليدعوها إلى عبادته وحده سبحانه كذب أهل هذه الأمة هذا الرسول المرسل إليهم. وأعرضوا عنه وآذوه ...

قال ابن كثير: «وقوله: كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ يعنى جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ا.هـ.

وأضاف سبحانه الرسول إلى الأمة، للإشارة إلى أن كل رسول قد جاء إلى الأمة المرسل إليها. وفي التعبير بقوله: كُلَّ ما جاءَ ... إشعار بأنهم قابلوه بالتكذيب. بمجرد مجيئه إليهم، أى: إنهم بادروه بذلك بدون تريث أو تفكر.

فماذا كانت عاقبتهم؟ كانت عاقبتهم كما بينها سبحانه في قوله: فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ.

أي: فأتبعنا بعضهم بعضا في الهلاك والتدمير، وجعلناهم بسبب تكذيبهم لرسلهم أحاديث يتحدث الناس بها على سبيل التعجب والتلهي، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم السيئة.

وذكرهم القبيح فَبُعْدًا وهلاكا لقوم لا يؤمنون بالحق، ولا يستجيبون للهدى.

قال الزمخشري: «وقوله وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ أى: أخبارا يسمر بها، ويتعجب منها. والأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ وتكون جمعا للأحدوثة: التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة. وهي: مما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا، وهو المراد هنا» ا.هـ.

=

=

ثم ساق سبحانه بعد ذلك جانبا من قصة موسى وهارون- عليهما السلام فقال: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْمًا عالِينَ.

قوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا} [المؤمنون: ٤٥]، أي:"ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بحججنا".

قال الطبري: يقول:"ثم أرسلنا بعد الرسل الذين وصف صفتهم قبل هذه الآية - موسى وأخاه هارون- إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بحججنا".

قال مقاتل:"بآياتنا: اليد والعصا".

قوله تعالى: {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [المؤمنون: ٤٥]، أي:"وحجة واضحة ملزمة للخصم".

قال مقاتل ويحيى بن سلام:"يعني: حجة بينة".

قال السمعاني:"أي: بحجة بينة، وهي الآيات التسع".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين؟ قلت: يجوز أن تراد العصا، لأنها كانت أمّ آيات موسى وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارسا، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلوا ورشاء. جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى: {وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ}، ويجوز أن تراد الآيات أنفسها، أى: هي آيات وحجة بينة".

قال الرازي: اختلفوا في (الآيات) فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون والنقص من الثمرات، وقال الحسن قوله: بآياتنا أي بديننا واحتج بأن المراد بالآيات لو

=

=

كانت هي المعجزات والسلطات المبين أيضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول لأن لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات، وأما الذي احتجوا به فالجواب: عنه من وجوه: أحدها: أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال وثانيها: يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام وثالثها: أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هارون عليه السلام أيضا، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ا.هـ

أي: ثم أرسلنا من بعد أولئك الأقوام المهلكين الذين جعلناهم أحاديث مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا الدالة على قدرتنا، وهي الآيات التسع وهي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وزودناه مع هذه الآيات العظيمة بسلطان مبين، أي: بحجة قوية واضحة، تحمل كل عاقل على الإيمان به، وعلى الاستجابة له.

وكان هذا الإرسال منا لموسى وهارون إلى فرعون وملئه، أي: وجهاء قومه وزعمائهم الذين يتبعهم غيرهم.

قوله تعالى: {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} [المؤمنون: ٤٦]، أي:"أرسلناهما إلى فرعون

=

=

الطاغية وأشراف قومه المتكبرين".

قال يحيى:"{وملئه}، يعني: قومه".

قال مقاتل:"{وَمَلَئِهِ}، يعني: الأشراف، اسم فرعون قيطوس".

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرُوا} [المؤمنون: ٤٦]، أي:"فاستكبروا عن الإيمان بالله وعبادته".

قال مقاتل:"يعني: فتكبروا عن الإيمان بالله ﷻ".

قال يحيى:"عن عبادة الله".

قال الطبري:"عن اتباع حججنا، والإيمان بما جاءهم به من عند الله".

قال القاسمي:"أي عن الانقياد وإرسال بني إسرائيل مع موسى لأرض كنعان، وتحريرهم من تلك العبودية لهم".

قال السمعاني:"الاستكبار: طلب التكبر".

قوله تعالى: {وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ} [المؤمنون: ٤٦]، أي:"وكانوا قومًا متكبرين متمردين، قاهرين لغيرهم بالظلم".

قال مقاتل:"يعني: متكبرين عن توحيد الله".

قال يحيى:"مشركين".

قال الطبري:"يقول: وكانوا قوما عالين على أهل ناحيتهم، ومن في بلادهم من بنى إسرائيل وغيرهم بالظلم، قاهرين لهم".

قال السمعاني:"أي: طالبين للعلو بغير الحق، ويقال: {عالين} قاهرين (لمن) تحتهم بالظلم".

قال الزمخشري:"متكبرين أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم".

قال القاسمي:"أي: متمردين".

فَاسْتَكْبَرُوا جميعا عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون- عليهما السلام، وَكانُوا

=

=

قَوْمًا عالِينَ أى مغرورين متكبرين، مسرفين في البغي والعدوان.
ثم بين سبحانه مظاهر هذا الغرور والتكبر من فرعون وملئه فقال: فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وهما موسى وهارون وَقَوْمُهُما أى: بنو إسرائيل الذين منهم موسى وهارون لَنا عابِدُونَ أى: مسخرون خاضعون منقادون لنا كما ينقاد الخادم لمخدومه.

قوله تعالى: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [المؤمنون: ٤٧]، أي:"أنصدق رجلين مثلنا ونتَّبعهما؟".

قال يحيى:"أي: أنصدق بشرين مثلنا، فلو كانا ملكين لآمنا بهما. يعنون موسى وهارون".

قال الطبري:"فقال فرعون وملؤه: {أنؤمن لبشرين مثلنا} فنتبعهما".

قال ابن زيد:"قال فرعون: {أنؤمن لبشرين مثلنا}... الآية، نذهب نرفعهم فوقنا ونكون تحتهم، ونحن اليوم فوقهم وهم تحتنا، كيف نصنع ذلك، وذلك حين أتوهم بالرسالة، وقرأ: {وتكون لكما الكبرياء في الأرض}، قال: العلو في الأرض".

قوله تعالى: {وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون: ٤٧]، أي:"والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد؟".

قال الحسن:"كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون وكان فرعون يعبد الأصنام".

قال يحيى:"يعنون بني إسرائيل، وكانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، ووضعوا عليهم الجزية. وليس يعني: أنهم يعبدوننا".

قال أبو عبيدة:"أي: داينون مطيعون، وكل من دان الملك فهو عابد له، ومنه سمى أهل الخيرة: العبّاد".

قال الطبري:"يعنون: أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم، ويدينون لهم،
=

=

والعرب تسمي كل من دان لملك: عابدا له. ومن ذلك قيل لأهل الحيرة: العباد؛ لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم".

قال البيضاوي:"يعني: بني إسرائيل. {لنا} خادمون منقادون كالعباد".

قال الزمخشري:"يعنى: بنى إسرائيل، كأنهم يعبدوننا خضوعا وتذللا. أو لأنه كان يدعى الإلهية فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة".

فأنت ترى أن فرعون وملأه، قد أعرضوا عن دعوة موسى وهارون، لأنهما- أولا- بشر مثلهم، والبشرية- في زعمهم الفاسد- تتنافى مع الرسالة والنبوة، ولأنهما- ثانيا- من قوم بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيته، ولا يليق- في طبعهم المغرور- أن يتبع فرعون وحاشيته من كان من هؤلاء القوم المستضعفين.

قال الآلوسى: «وقوله: فَقالُوا عطف على فَاسْتَكْبَرُوا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار، والمراد: فقالوا فيما بينهم.. وثنى البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله تعالى بَشَرًا سَوِيًّا

وعلى الجمع، كما في قوله: تعالى فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا.. ولم يثن مثل نظرا إلى كونه في حكم المصدر، ولو أفرد البشر لصح، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، وكذا لو ثنى المثل، فإنه جاء مثنى في قوله: يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ومجموعا كما في قوله: ... ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ ا.هـ.

وهذه القصص- كما ترى- تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة، قياس حال الأنبياء على أحوالهم، بناء على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشرية، وتباين طبقات أفرادها في مراقى الكمال.. ومن عجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر، وقد رضى أكثرهم للإلهية بحجر..».

ثم بين سبحانه سوء عاقبة فرعون وملئه فقال: فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ.

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُمَا} [المؤمنون: ٤٨]، أي:"فكذبوهما فيما جاءا به".

=

=

قال الطبري:"يقول: فكذب فرعون وملؤه موسى وهارون".

قوله تعالى: {فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ} [المؤمنون: ٤٨]، أي:"فكانوا من المهلكين بالغرق في البحر".

قال مقاتل:"بالغرق".

قال يحيى:"فأهلكهم الله بالغرق".

قال البيضاوي:"بالغرق في بحر قلزم".

قال الطبري:"فكانوا ممن أهلكهم الله كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبها رسلها".

أي: فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون- عليهما السلام فيما جاءا به من عند ربهما- ﷻ فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعا.

ثم بين سبحانه ما أعطاه لموسى بعد هلاك فرعون وقومه فقال: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [المؤمنون: ٤٩]، أي:"ولقد آتينا موسى التوراة".

قال يحيى:"التوراة".

قال الواحدي: أي:"التوراة جملة واحدة".

عن زياد بن أبي مريم، قوله:"{آتينا}، قال: أعطينا".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [المؤمنون: ٤٩]، أي:"ليهتدي بها قومه إلى الحق".

قال يحيى:"لكي يهتدوا".

قال الطبري: يقول:"ليهتدي بها قومه من بني إسرائيل، ويعملوا بما فيها".

قال الواحدي:"لكي يهتدوا به من الضلالة".

=

=

قال البيضاوي:"يهتدون إلى المعارف والأحكام".

قال مقاتل:"يعني: بني إسرائيل، لأن التوراة نزلت بعد هلاك فرعون وقومه".

والضمير في قوله تعالى لَعَلَّهُمْ يعود إلى قوم موسى من بنى إسرائيل. لأنه من المعروف أن التوراة أنزلت على موسى بعد هلاك فرعون وملئه..

أى: ولقد آتينا موسى- بفضلنا وكرمنا- الكتاب المشتمل على الهداية والإرشاد، وهو التوراة، لَعَلَّهُمْ أى: بنى إسرائيل يَهْتَدُونَ إلى الصراط المستقيم، بسبب اتباعهم لتعاليمه، وتمسكهم بأحكامه. فالترجى في قوله لَعَلَّهُمْ إنما هو بالنسبة لهم.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

ثم ساق سبحانه ما يدل على كمال قدرته، حيث أوجد عيسى من غير أب وجعل أمه مريم تلده من غير أن يمسها بشر. فقال تعالى وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً....

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً} [المؤمنون: ٥٠]، أي:"وجعلنا عيسى بن مريم وأمه علامة دالة على قدرتنا؛ إذ خلقناه من غير أب".

قال الطبري:"يقول: وجعلنا ابن مريم وأمه حجة لنا على من كان بينهم، وعلى قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أصل، كما أنشأنا خلق عيسى من غير أب".

قال ابن قتيبة: {آية}، "أي: علما ودليلا".

قال مقاتل:"يعني: عبرة لبني إسرائيل، لأن مريم حملت من غير بشر وخلق ابنها من غير أب".

قال قتادة:"ولدته من غير أب هو له".

قال الفراء:"لم يقل: آيتين، لأن شأنهما واحد".

قوله تعالى: {وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ} [المؤمنون: ٥٠]، أي:"وجعلنا لهما مأوى في

=

=

مكان مرتفع من الأرض".

قال أبو عبيدة:"معناه: ضممنا، و {ربوة} -يضمّ أولها ويكسر- وهى النّجوة من الأرض ومنها قولهم: فلان فى ربوة من قومه، أي: عزّ وشرف وعدد".

قال الطبري:"يقول: وضممناهما وصيرناهما إلى إلى مكان مرتفع من الأرض على ما حوله".

قال الفراء:"الربوة: ما ارتفع من الأرض".

قال ابن قتيبة:"الارتفاع. وكل شيء ارتفع أو زاد، فقد ربا، ومنه: الربا في البيع".

قال الزجاج:"«الربوة»،عند أهل اللغة: المكان المرتفع".

قال ابن عباس:"«الربوة»: المستوية". وروي عن مجاهد مثله.

وقال مجاهد:"بقعة في مكان مرتفع يقر فيه الماء".

وفي مكان بـ «الربوة» هنا، أربعة أقوال:

أحدها: هي الرملة في فلسطين، قاله أبو هريرة.

عن بشر بن رافع، قال: حدثني ابن عم لأبي هريرة، يقال له: أبو عبد الله، قال: "قال لنا أبو هريرة: الزموا هذه الرملة من فلسطين، فإنها الربوة التي قال الله: {وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين}".

قال كريب:"ما أدري ما حدثنا مرة البهزي، أنه سمع رسول الله ﷺ، وذكر أن الربوة: هي الرملة".

الثاني: دمشق، قاله الحسن، وسعيد بن المسيب.

وقال مقاتل:"يعني: الغوطة من أرض الشام بدمشق".

الثالث: مصر، سعيد بن المسيب أيضا.

الرابع: بيت المقدس. قاله قتادة.

قال قتادة:"كان كعب يقول: بيت المقدس أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا".

=

=

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة؛ لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين".

قوله تعالى: {ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} [المؤمنون: ٥٠]، أي:"مستوٍ للاستقرار عليه، فيه خصوبة وماء جار ظاهر للعيون".

قال الفراء:"{ذَاتِ قَرَارٍ}: منبسطة، {وَمَعِينٍ}: الماء الظاهر والجاري".

قال ابو عبيدة: {ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ} " أي: تلك الربوة لها ساحة وسعة أسفل منها، وذات {معين} أي: ماء جار طاهر بينهم".

قال الطبري: يقول:"من صفة الربوة التي آوينا إليها مريم وابنها عيسى، أنها أرض منبسطة وساحة، وذات ماء ظاهر، لغير الباطن، جار".

قال الرازي:"«القرار»: المستقر من كل أرض مستوية مبسوطة، و «المعين»: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. فنبه سبحانه على كمال نعمه عليها بهذا اللفظ على اختصاره".

وفي قوله تعالى: {ذَاتِ قَرَارٍ} [المؤمنون: ٥٠]، وجوه:

أحدها: ذات استواء، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل.

الثاني: ذات ثمار، قاله قتادة.

قال الطبري:"وهذا القول الذي قاله قتادة في معنى: {ذات قرار} وإن لم يكن أراد بقوله: إنها إنما وصفت بأنها ذات قرار لما فيها من الثمار، ومن أجل ذلك، يستقر فيها ساكنوها، فلا وجه له نعرفه".

الثالث: ذات معيشة تقرهم، قاله الحسن.

الرابع: ذات منازل تستقرون فيها، قاله يحيى بن سلام.

قال ابن قتيبة:"يستقر بها للعمارة".

=

=

قال الزجاج:"أي: ذات مستقر".

وفي قوله تعالى: {وَمَعِينٍ} [المؤمنون: ٥٠]، وجهان:

أحدهما: أنه الماء الجاري، قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، والزجاج.

قال ابن عباس:"المعين: الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله: {قد جعل ربك تحتك سريا}".

وقال مجاهد:"المعين: الماء".

قال يحيى:"المعين: الماء الذي أصله من العيون، الظاهر الجاري".

وقال الكلبي: "المعين، الجاري وغير الجاري، إذا نالته الدلاء".

الثاني: أنه الماء الطاهر، قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، وابن قتيبة، ومنه قول جرير:

إن الذين غروا بلبك غادروا... وشلًا بعينك ما يزال معينا

أي: ظاهرًا.

وفي اشتقاق «المعين»، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه مفعول من: العيون. قاله الفراء، وابن قتيبة، والزجاج.

الثاني: أنه مشتق من: المعونة. ذكره الطبري.

الثالث: أنه فعيل، من: الماعون، ذكره الفراء، والطبري، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

واهية أو معين ممعن... أو هضبة دونها لهوب

قال الفراء: يجوز" أن تجعله: فعيلا، من «الماعون»، ويكون أصله: المعن. و «المعن»: الاستقامة".

قال الزجاج:"وهذا بعيد لأن «المعن» في اللغة الشيء: القليل، و «الماعون» هو الزكاة، وهو فاعول من «المعن»، وإنما سميت الزكاة بالشيء القليل، لأنه يؤخذ

=

=

من المال ربع عشره، فهو قليل من كثير. قال الراعي:

قوم على التنزيل لما يمنعوا... ماعونهم ويبدلوا التنزيلا".

أي: وجعلنا نبينا عيسى- عليه السلام، كما جعلنا أمه مريم، آية واضحة وحجة عظيمة، في الدلالة على قدرتنا النافذة التي لا يعجزها شيء.

قال أبو حيان: «قوله: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً أي: جعلنا قصتهما، وهي آية عظمى بمجموعها، وهي آيات مع التفصيل، ويحتمل أن يكون حذف من الأول «آية» لدلالة الثاني، أي: وجعلنا ابن مريم آية، وأمه آية» ا.هـ.

وقوله تعالى وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ بيان لجانب مما أنعم به سبحانه- على عيسى وأمه.

والربوة: المكان المرتفع من الأرض. وأصلها من قولهم: ربا الشيء يربو، إذا ازداد وارتفع، ومنه الربا لأنه زيادة أخذت على أصل المال.

ومعين اسم مفعول من عانه إذا أدركه وأبصره بعينه، فالميم زائدة، وأصله معيون كمبيوع ثم دخله الإعلال. والكلام على حذف مضاف. أي: وماء معين.

أي: ومن مظاهر رعايتنا وإحساننا إلى عيسى وأمه أننا آويناهما وأسكناهما، وأنزلناهما في جهة مرتفعة من الأرض، وهذه الجهة ذات قرار، أي: ذات استقرار لاستوائها وصلاحيتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار، وهي في الوقت ذاته ينساب الماء الظاهر للعيون في ربوعها.

قالوا: والمراد بهذه الربوة: بيت المقدس بفلسطين، أو دمشق، أو مصر.

والمقصود من الآية الكريمة: الإشارة إلى إيواء الله تعالى لهما، في مكان طيب، ينضر فيه الزرع، وتطيب فيه الثمار، ويسيل فيه الماء ويجدان خلال عيشهما به الأمان والراحة.

ثم ختم سبحانه الحديث عن هؤلاء الأنبياء، بتوجيه خطاب إلى الرسل جميعا،

=

=

أمرهم فيه بالأكل من الطيبات، وبالتزود من العمل الصالح، فقال تعالى: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحًا، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)} [المؤمنون: ٥١]

أي: يا أيها الرسل كلوا من طيب الرزق الحلال، واعملوا الأعمال الصالحة، إني بما تعملون عليم، لا يخفى عليَّ شيء من أعمالكم.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ} [المؤمنون: ٥١]، أي:"قلنا يا أيها الرسل".

قال مقاتل:"يعني: محمدا- ﷺ-".

قال ابن قتيبة:"خوطب به النبي، صلى الله عليه؛ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجمع".

قال الفراء:"أراد النبي، فجمع كما يقال في الكلام للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عنا أذاكم. ومثله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُم} [آل عمران: ١٧٣]، {الناس}: واحد، معروف كان رجلا من أشجع يقال له: نعيم ابن مسعود".

وقال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقلنا لعيسى: يا أيها الرسل".

قوله تعالى: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [المؤمنون: ٥١]، أي:"كلوا من طيب الرزق الحلال".

قال مقاتل:"الحلال من الرزق".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: كلوا من الحلال قواما مع حفظ الأدب. والقوام ما يمسك به النفس، ويحفظ فيه القلب والأدب فيه شكر المنعم، وأدنى الشكر أن لا تعصيه بنعمة".

قال الطبري: أي:"من الحلال الذي طيبه الله لكم دون الحرام".

=

=

عن عمرو بن شرحبيل: " {ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا}، قال: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه".

عن الضحاك، في قوله: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، قال: "أمرهم ألا يأكلوا إلا حلالا طيبا".

وقال الحسن: أما والله ما عنى به أصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكنه قال انتهوا إلى الحلال منه".

وفي الصحيح: "ما من نبي إلا رعى الغنم". قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة".

وفي الصحيح: "أن داود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان يأكل من كسب يده.

وفي الصحيحين: "إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يَفر إذا لاقى".

عن ضَمْرَة بن حبيب، "أن أم عبد الله، أخت شداد بن أوس بعثت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت شداد فقالت: يا رسول الله، بعثتُ إليك بلبن مَرثيةً لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إليَّ الرسول فيه؟. فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا»".

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا أيها الناس، إنَّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر

=

=

أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك".

قوله تعالى: {وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: ٥١]، أي:"واعملوا الأعمال الصالحة".

قال الواحدي:"أي: بما أمركم الله به، وأطيعوه في أمره ونهيه".

قوله تعالى: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١]، أي:"إني بما تعملون عليم، لا يخفى عليَّ شيء من أعمالكم".

قال الطبري:"يقول: إني بأعمالكم ذو علم، لا يخفى علي منها شيء، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا في صالحات الأعمال واجتهدوا".

قال الواحدي:"لا يخفى علي شيء من أعمالكم".

قال ابن كثير في تفسير الآية:"يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا".

قال المراغي في تفسير الآية:"أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال مالذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال، ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة. وهذا الأمر وإن كان موجها إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا: أيها المسلمون فى جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام- الحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل- واعملوا صالح الأعمال".

قال اهل العلم:"الخطاب في الآية عام للرسل -عليهم السلام- وأتباعهم، وفي

=

=

الآية دليل على أن أكل الحلال عون على العمل الصالح، وأن عاقبة الحرام وخيمة، ومنها رد الدعاء".

ووجه سبحانه الخطاب إلى الرسل جميعا، مع أن الموجود منهم عند نزول الآية واحد فقط، وهو الرسول ﷺ للدلالة على أن كل رسول أمر في زمنه بالأكل من الطيبات التي أحلها تعالى وبالعمل الصالح.

وفي الآية إشارة إلى أن المداومة على الأكل من الطيبات التي أحلها الله، والتي لا شبهة فيها، له أثره في مواظبة الإنسان على العمل الصالح.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يأمر الله تعالى عباده المرسلين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بهذا أتم قيام، وجمعوا بين كل خير. قولا وعملا ودلالة ونصحا.

ثم ساق- رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددا من الأحاديث في هذا المعنى منها: أن أم عبد الله- بنت شداد بن أوس- بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك مع طول النهار وشدة الحر. فرد إليهما رسولها: أنّى كانت لك الشاة؟ - أى: على أية حال تملكينها- فقالت: اشتريتها من مالي، فشرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله فقالت له: يا رسول الله. بعثت إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إليّ الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أمرت الرسل. أن لا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا».

ومنها: ما ثبت في صحيح مسلم. عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحًا ... وقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث

=

=

أغبر، ومطعمه من حرام. ومشربه من حرام، وملبسه من حرام، وغذى بالحرام. يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك».

وقوله سبحانه: إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ تحذير من مخالفة ما أمر به تعالى.

أى: إنى: بما تعملون- أيها الرسل وأيها الناس- عليم فأجازيكم على هذا العمل بما تستحقون.

وقوله سبحانه وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً.. جملة مستأنفة.

قوله تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)} [المؤمنون: ٥٢]

أي: وإنَّ دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري.

قوله تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المؤمنون: ٥٢]، أي:"وإنَّ دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد وهو الإسلام".

قال الطبري: يقول" وقلنا: وإن هذه أمتكم أمة واحدة".

قال ابن قتيبة والزجاج:"أي: دينكم دين واحد، وهو الإسلام".

قال السمعاني:"أي: دينكم دين واحد، وقيل: شريعتكم شريعة واحدة، ويقال: أمرتكم بما أمرت به من قبلكم من الأنبياء والمرسلين، فأمركم واحد".

قال القرطبي:"المعنى: هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالتزموه. والأمة هنا الدين".

قال ابن كثير: أي:"دينكم - يا معشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له".

قال السعدي:"أي: جماعتكم -يا معشر الرسل- جماعة {واحدة} متفقة على دين واحد".

=

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣).

{فَتَقَطَّعُوا} أَيْ الْأَتْبَاع {أَمْرهمْ} دِينهمْ {بَيْنهمْ زُبُرًا} حَال مِنْ فَاعِل تَقَطَّعُوا أَيْ أَحْزَابًا مُتَخَالِفِينَ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرهمْ {كُلّ حِزْب بِمَا لَدَيْهِمْ} أَيْ

=

قال مقاتل:"يقول: هذه ملتكم التي أنتم عليها- يعني: ملة الإسلام- ملة واحدة، عليها كانت الأنبياء- عليهم السلام- والمؤمنون الذين نجوا من العذاب، الذين ذكرهم الله ﷻ في هذه السورة".

عن ابن جريج، قوله: " {وإن هذه أمتكم أمة واحدة}، قال: الملة والدين".

قرئ: «وإن هذه» بكسر «إن»، على القطع، وبفتحها وتشديد النون.

قوله تعالى: {وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: ٥٢]، أي:"وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري".

قال الطبري:"يقول: وأنا مولاكم فاتقون بطاعتي تأمنوا عقابي".

قال السعدي:"{فاتقون} بامتثال أوامري، واجتناب زواجري".

قال السمعاني:"أي: فاحذروني".

والمراد بالأمة هنا: الشريعة والدين الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه ورسله، أى: وإن شريعتكم- أيها الرسل- جميعا هي شريعة واحدة لا تختلف في أصولها التي تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات، وإن اختلفت في الأحكام الفرعية.

وقرأ بعض القراء السبعة: وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ.. بفتح الهمزة، على أن الآية من جملة ما خوطب به الرسل.

والتقدير: واعلموا- أيها الرسل- أن ملتكم وشريعتكم، ملة واحدة، وشريعة واحدة في عقائدها وأصول أحكامها.

وَأَنَا رَبُّكُمْ لا شريك لي في الربوبية فَاتَّقُونِ أى: فخافوا عقابي، واحذروا مخالفة أمرى، وصونوا أنفسكم من كل ما نهيتكم عنه.

عِنْدهمْ مِنْ الدِّين {فَرِحُونَ} مَسْرُورُونَ.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤).

{فَذَرْهُمْ} اُتْرُكْ كُفَّار مَكَّة {فِي غَمْرَتهمْ} ضَلَالَتهمْ {حَتَّى حِين} إلَى حِين مَوْتهمْ.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥).

{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدّهُمْ بِهِ} نُعْطِيهِمْ {مِنْ مَال وَبَنِينَ} فِي الدُّنْيَا.

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦).

{نُسَارِع} نُعَجِّل {لَهُمْ فِي الْخَيْرَات} لَا {بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاج لَهُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٣]

أي: فتفرَّق الأتباع في الدين إلى أحزاب وشيع، جعلوا دينهم أديانًا بعدما أُمروا بالاجتماع، كل حزب معجب برأيه زاعم أنه على الحق وغيره على الباطل.

قوله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا} [المؤمنون: ٥٣]، أي:"فتفرَّق الأتباع في الدين إلى أحزاب وشيع، جعلوا دينهم أديانًا بعدما أُمروا بالاجتماع".

قال الطبري: المعنى:"فتفرقوا أمرهم بينهم قطعا كزبر الحديد، فصار بعضهم يهودا، ويعضهم نصارى".

قال السمعاني:"أي: تفرقوا هودا ونصارى وصابئين ومجوسا. {زبرا} أي: قطعا".

قال القرطبي:"أي: افترقوا، يعني الأمم، أي: جعلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع".

=

=

قال ابن كثير:"أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء".

قال ابن قتيبة:"أي: اختلفوا في دينهم، {زبرا} بفتح الباء جمع زبرة، وهي القطعة. ومن قرأ {زبرا} فإنه جمع: زبور، أي: كتبا".

عن قتادة:"{زبرا}، قال: كتبا".

وقال ابن زيد:"هذا ما اختلفوا فيه من الأديان والكتب".

عن مجاهد: " {بينهم زبرا}، قال: كتب الله فرقوها قطعا"، وفي رواية:"كتب الله فرقوها قطعا".

قال السمعاني:"معناه: آمنوا بالبعض، وكفروا بالبعض، وحرفوا البعض، ولم يحرفوا البعض".

قوله تعالى: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٣]، أي:"كل حزب معجب برأيه زاعم أنه على الحق وغيره على الباطل".

قال الطبري: " يقول: كل فريق من تلك الأمم، بما اختاروه لأنفسهم من الدين والكتب، فرحون معجبون به، لا يرون أن الحق سواه".

قال السمعاني:"يعني: أن كل فريق مسرورون بما عندهم: فأهل الإيمان مسرورون بالإيمان وبمتابعة النبي، والكفار مسرورون بكفرهم وبمخالفة النبي".

قال ابن كثير:"أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون".

قال السعدي:"أي: بما عندهم من العلم والدين {فرحون} يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون".

وقال ابن زيد:"كل معجبون برأيهم، ليس أهل هواء إلا وهم معجبون برأيهم وهواهم وصاحبهم الذي اخترق ذلك لهم".

=

عن مجاهد: " {كل حزب}، قطعة أهل الكتاب".
قال مجاهد:"هؤلاء هم أهل الكتاب".
قال أهل العلم:"وفي هذا تحذير من التحزب والتفرق في الدين".
والفاء في قوله تعالى: فَتَقَطَّعُوا لترتيب حالهم وما هم عليه من تفرق وتنازع واختلاف، على ما سبق من أمرهم بالتقوى، واتباع ما جاءهم به الرسل.
وضمير الجمع يعود إلى الأقوام السابقين الذين خالفوا رسلهم، وتفرقوا شيعا وأحزابا.
وقوله زُبُرًا حال من هذا الضمير. ومفردة زبرة- كغرفة- بمعنى: قطعة. والمراد به هنا: طائفة من الناس. والمراد بأمرهم: أمر دينهم الذي هو واحد في الأصل.
أى: أن هؤلاء الأقوام الذين جاء الرسل لهدايتهم، لم يتبعوا دين رسلهم بل تفرقوا في شأنه شيعا وأحزابا، فمنهم أهل الكتاب الذين قال بعضهم: عزير ابن الله، وقال بعضهم: المسيح ابن الله، ومنهم المشركون الذين عبدوا من دون الله تعالى أصناما لا تضر ولا تنفع، وصار كل حزب من هؤلاء المعرضين عن الحق، مسرورا بما هو عليه من باطل، وفرحا بما هو فيه من ضلال.
قال ابن عاشور: جيء بفاء التعقيب لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون [المؤمنون: ٥٢] أن تقطعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار دينهم متقطعا قطعا لكل فريق صنم وعبادة خاصة به. فضمير فتقطعوا عائد إلى الأمم المفهوم من السياق الذين هم المقصود من قوله وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون [المؤمنون: ٥٢]. وضمير الجمع عائد إلى أمم الرسل يدل عليه السياق، فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجيبا من حالهم.

=

ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله كل حزب بما لديهم فرحون أي وهم ليسوا بحال من يفرح ا.هـ

والآية القرآنية بأسلوبها البديع، تسوق هذا التنازع من هؤلاء الجاهلين في شأن الدين الواحد، في صورة حسية، يرى المتدبر من خلالها، أنهم تجاذبوه فيما بينهم، حتى قطعوه في أيديهم قطعا، ثم مضى كل فريق منهم بقطعته وهو فرح مسرور، مع أنه- لو كان يعقل- لما انحدر إلى هذا الفعل القبيح، ولما فرح بعمل شيء من شأنه أن يحزن له كل عاقل.

والخطاب في قوله تعالى: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ للرسول ﷺ والضمير المنصوب «هم» للمشركين.

قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: قوله تعالى: {فذرهم في غمرتهم حتى حين} أي: في (عمايتهم) وحيرتهم إلى أن يأتيهم ما وعدوا به من العذاب، واختلفوا هل هذه منسوخة أم لا، على قولين:

أحدهما: أنها منسوخة بآية السيف لأنها اقتضت ترك الكفار على ما هم عليه.

والثاني: أن معناها الوعيد والتهديد، فهي محكمة. ا.هـ

وقد فسر الطبري وابن كثير الآية بما يؤيد إحكامها.

قوله تعالى: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ} [المؤمنون: ٥٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فدع يا محمد هؤلاء الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، في ضلالتهم وغيهم إلى أجل سيأتيهم عند مجيئه عذابي".

قال الزجاج:"معناه: في عمايتهم وحيرتهم، إلى حين يأتيهم ما وعدوا به من العذاب".

قال السمعاني:"أي: في ضلالتهم، وقيل: في عمايتهم. وقوله: {حتى حين} معناه:

=

=

إلى أن يموتوا، والآية للتهديد".

قال ابن كثير:"أي: في غيهم وضلالهم إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣]".\

قال السعدي:"أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم المحقون. {حتى حين} أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟".

عن مجاهد: " {فذرهم في غمرتهم حتى حين}، قال: في ضلالهم".

قال الفراء:"في جهالتهم".

قال ابن زيد:"الغمرة: الغمر".

والغمرة في الأصل: الماء الذي يغمر القامة ويسترها، إذ المادة تدل على التغطية والستر.

يقال: غمر الماء الأرض إذا غطاها وسترها. ويقال: هذا رجل غمر- بضم الغين وإسكان الميم- إذا غطاه الجهل وجعله لا تجربة له بالأمور. ويقال: هذا رجل غمر- بكسر الغين- إذا غطى الحقد قلبه والمراد بالغمرة هنا: الجهالة والضلالة، والمعنى: لقد أديت- أيها الرسول- الرسالة، ونصحت لقومك. وبلغتهم ما أمرك الله تعالى بتبليغه، وعليك الآن أن تترك هؤلاء الجاحدين المعاندين في جهالاتهم وغفلتهم وحيرتهم حَتَّى حِينٍ أى:

حتى يأتى الوقت الذي حددناه للفصل في أمرهم بما تقتضيه حكمتنا.

وجاء لفظ «حين» بالتنكير، لتهويل الأمر وتفظيعه.

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك في السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم، الذي سيفاجئهم بما لا يتوقعون. فيقول: أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ

=

=

مالٍ وَبَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ.

قوله تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ} [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، أي:"أيظن هؤلاء الكفار أن ما نمدُّهم به من أموال وأولاد في الدنيا هو تعجيلُ خيرٍ لهم يستحقونه؟".

قال الطبري: يقول: " أيحسب هؤلاء الأحزاب الذين فرقوا دينهم زبرا، أن الذي نعطيهم في عاجل الدنيا من مال وبنين، نسابق لهم في خيرات الآخرة، ونبادر لهم فيها؟".

قال الزجاج:"أيحسبون أن إمداد الله لهم بالمال والبنين مجازاة لهم".

قال السمعاني:"معناه: أيحسبون أن الذي نجعله مددا لهم من المال والبنين، نعجل لهم في الخيرات، ونقدمها ثوابا لهم رضا بأعمالهم؟".

قال ابن كثير:"يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟!".

قال ابن قتيبة:"{نسارع لهم في الخيرات}، أي: نسرع. يقال: سارعت إلى حاجتك وأسرعت".

عن مجاهد، قوله:"{أنما نمدهم}، قال: نعطيهم، {نسارع لهم}، قال: نزيدهم في الخير، نملي لهم، قال: هذا لقريش".

قال السعدي:"أي: أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك".

قوله تعالى: {بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٦]، أي:"كلاَّ ليس الأمر كما يظنون بل هو فتنة لهم واستدراجً، ولكنهم لا يُحِسُّون بذلك".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره تكذيبا لهم: ما ذلك كذلك، بل لا يعلمون أن

=

=

إمدادي إياهم بما أمدهم به من ذلك إنما هو إملاء واستدراج لهم".

قال الزجاج:"وإنما هو استدراج من الله لهم".

قال السمعاني:"وحقيقة المعنى أن: ليس الأمر على ما يظنون أن المال والبنين خير لهم، بل هو استدراج لهم، ومكر بهم".

قال السعدي:"أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثما، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة}".

قال ابن كثير:"كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء؛ ولهذا قال: {بَل لا يَشْعُرُونَ}، كما قال تعالى: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا} [المدثر: ١١ - ١٦] وقال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: ٣٧] والآيات في هذا كثيرة".

وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة: «يسارع لهم في الخيرات»، والمعنى: يسارع لهم إمدادنا إياهم بالمال والبنين في الخيرات.

والهمزة في قوله أَيَحْسَبُونَ للاستفهام الإنكارى. و «ما» موصولة، وهي اسم «أن»

=

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧).

{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَة رَبّهمْ} خَوْفهمْ مِنْهُ {مُشْفِقُونَ} خَائِفُونَ مِنْ عَذَابه.

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨).

{وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبّهمْ} الْقُرْآن {يُؤْمِنُونَ} يُصَدِّقُونَ.

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩).

{وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ} مَعَهُ غَيْره.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠).

=

وخبرها جملة «نسارع لهم ... » والرابط مقدر أى: به.

أى: أيظن هؤلاء الجاهلون. أن ما نعطيهم إياه من مال وبنين، هو من باب المسارعة منا في إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم وإكرامنا لهم؟ كلا: ما فعلنا معهم ذلك لتكريمهم، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم وامتحانهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك. ولا يحسون به لانطماس بصائرهم ولاستيلاء الجهل والغرور على نفوسهم.

فقوله سبحانه بَلْ لا يَشْعُرُونَ إضراب انتقالي عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام.

أى: ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون، بل فعلنا ما فعلنا استدراجا لهم، ولكنهم لا شعور لهم ولا إحساس، وما هم إلا كالأنعام بل هم أضل.

لذا قال بعض الصالحين: من يعص الله تعالى ولم ير نقصانا فيما أعطاه سبحانه من الدنيا. فليعلم أنه مستدرج قد مكر به.

وشبيه بهاتين الآيتين قوله تعالى: فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.

{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ} يُعْطُونَ {مَا آتَوْا} أَعْطَوْا مِنْ الصَّدَقَة وَالْأَعْمَال الصَّالِحَة {وَقُلُوبهمْ وَجِلَة} خَائِفَة أَنْ لَا تُقْبَل مِنْهُمْ {أَنَّهُمْ} يُقَدَّر قَبْله لَام الجر {إلى ربهم راجعون}.

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١).

{أولئك يسارعون في الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} فِي عِلْم الله.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢).

{وَلَا نُكَلِّف نَفْسًا إلَّا وُسْعهَا} طَاقَتهَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّي قَائِمًا فَلْيُصَلِّ جَالِسًا وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصُوم فَلْيَأْكُلْ {وَلَدَيْنَا} عِنْدنَا {كِتَاب يَنْطِق بِالْحَقِّ} بِمَا عَمِلْته وَهُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ تُسْطَر فِيهِ الْأَعْمَال {وَهُمْ} أَيْ النُّفُوس الْعَامِلَة {لَا يُظْلَمُونَ} شَيْئًا مِنْهَا فَلَا يُنْقَص مِنْ ثَوَاب أَعْمَال الْخَيْرَات وَلَا يُزَاد في السيئات[1].

(١) لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف.

قال ابن عاشور: هذا الكلام مقابل ما تضمنته الغمرة من قوله فذرهم في غمرتهم [المؤمنون: ٥٤] من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كل ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم، ألا ترى إلى قوله بعد هذا بل قلوبهم في غمرة من هذا [المؤمنون: ٦٣] فكانت هذه الجملة كالتفصيل لإجمال الغمرة مع إفادة المقابلة بأحوال المؤمنين ا.هـ

=

=

فقوله سبحانه إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ بيان للصفة الأولى من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧)} [المؤمنون: ٥٧]

قال البيضاوي:"من خوف عذابه حذرون".

قال مقاتل:"يعني: من عذابه".

قال يحيى:"خائفون".

قال الطبري: يقول:"إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادون في طلب مرضاته".

قال ابن كثير:"أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا".

قال القرطبي:"لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين في الخيرات ووعدهم، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم. و {مشفقون}: خائفون وجلون مما خوفهم الله تعالى".

والإشفاق: هو الخوف من الله تعالى والخشية منه سبحانه مع شدة الرقة في القلب وكثرة الخوف من عقابه.

أى: أنهم من خشية عقابه- ﷻ حذرون خائفون، وهذا شأن المؤمنين الصادقين، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا.

وقوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ بيان للصفة الثانية.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)} [المؤمنون: ٥٨]

قال مقاتل:"يعني: هم يصدقون بالقرآن أنه من الله ﷻ".

=

=

قال الطبري:"يقول: والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدقون".

قال البيضاوي: أي: الآيات "المنصوبة والمنزلة. يؤمنون بتصديق مدلولها".

قال مكي:"أي بكتابه يصدقون".

قال ابن عباس:"يصدقون بالقرآن أنه من عند الله".

قال ابن كثير:"أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخبارًا عن مريم، عليها السلام: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [التحريم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمرًا فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيرًا فهو حق".

أى: أنهم يؤمنون إيمانا راسخا بجميع آيات الله سبحانه الدالة على وحدانيته وقدرته، سواء أكانت تلك الآيات تنزيلية أم كونية.

وقوله- ﷻ: وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ صفة ثالثة لهم.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)} [المؤمنون: ٥٩].

قال الطبري:"يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركا لوثن، ولا لصنم، ولا يراءون بها أحدا من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصا، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه".

قال مكي:"أي: يخلصون عبادتهم لربهم، لا يشركون به فيها أحدا".

قال الواحدي: أي:"لا يعبدون معه غيره".

قال ابن كثير:"أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لا نظير له ولا كفء له".

قال القشيري:"يذرون جلى الشرك وخفيه والشرك الخفى ملاحظة الخلق فى أوان الطاعات، والاستبشار بمدح الخلق وقبولهم، والانكسار والذبول عند انقطاع رؤية الخلق. ويقال: الشرك الخفى إحالة النادر من الحالات-

=

=

فى المسار والمضار- على الأسباب كقول القائل. «لولا دعاء أبيك لهلكت» و «لولا همة فلان لما أفلحت»... وأمثال هذا قال الله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]. وكذلك توهم حصول الشفاء من شرب الدواء. فاذا أيقن العبد بسره ألا شئ من الحدثان، ولم يتوهم ذلك، وأيقن ألا شئ إلا من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشرك".

أى: أنهم يخلصون العبادة لله تعالى وحده، ويقصدون بأقوالهم وأعمالهم وجهه الكريم، فهم بعيدون عن الرياء والمباهاة بطاعاتهم.

ثم بين سبحانه صفتهم الرابعة فقال: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)} [المؤمنون: ٦٠]

قال الطبري:"يقول: والذين يعطون أهل سهمان الصدقة ما فرض الله لهم في أموالهم. {ما آتوا}، يعني: ما أعطوهم إياه من صدقة، ويؤدون حقوق الله عليهم في أموالهم إلى أهلها، {وَقُلُوبُهُمْ} خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله".

قال ابن كثير:"أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط".

عن ابن عمر: " {يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة}، قال: الزكاة".

قال عكرمة:"يعطون ما أعطوا. {وقلوبهم وجلة}، يقول: خائفة".

عن الضحاك:"{يؤتون ما آتوا}، ينفقون ما أنفقوا".

قال ابن عباس: " {يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة}،، قال: المؤمن ينفق ماله ويتصدق، وقلبه وجل أنه إلى ربه راجع".

=

=

قال ابن عباس: "يعطون ما أعطوا؛ فرقا من الله ووجلا من الله".
قال ابن عباس: "يقول: يعملون خائفين".
قال سعيد بن جبير: "يفعلون ما يفعلون وهم يعلمون أنهم صائرون إلى الموت، وهي من المبشرات".
قال قتادة: "يعطون ما أعطوا ويعملون ما عملوا من خير، وقلوبهم وجلة خائفة".
عن مجاهد: " {وقلوبهم وجلة}، قال: المؤمن ينفق ماله وقلبه وجل".
قال مجاهد: "يعملون ما عملوا من الخير وهم يخافون ألا يقبل منهم".
قال ابن زيد: "يعطون ما أعطوا وينفقون ما أنفقوا ويتصدقون بما تصدقوا وقلوبهم وجلة؛ اتقاء لسخط الله والنار".
قال الحسن: "كانوا يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم".
قال الحسن: "إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا، ثم تلا الحسن: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون إلى وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} وقال المنافق: إنما أوتيته على علم عندي".
عن أبي هريرة، قال: قالت عائشة: "يا رسول الله {والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة}، هو الذي يذنب الذنب وهو وجل منه؟ فقال: لا ولكن من يصوم ويصلي ويتصدق وهو وجل".
وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا} [المؤمنون: ٦٠]، قراءتان:
إحدهما: قراءة الجمهور: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}، والمعنى: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم.
الثانية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة»، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قرأ كذلك.

=

=

قال ابن كثير ما ملخصه: أي: يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط.

كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله- ﷻ؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله تعالى» أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٣، ٣٤٩)، والطبري (١٨/ ٢٦)، والبيهقي في الشعب الإيمان (١/ ٤٧٧)، والبغوي في تفسيره (٦/ ٢٥) وغيرهم والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ٢٥٨)، ونقل العراقي في المغني تصحيح الحاكم ثم قال: قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب، وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٢): فيه علة، وهي الانقطاع بين عبد الرحمن وعائشة فإنه لم يدركها كما في التهذيب، لكن يقويه حديث أبي هريرة الذي أشار إليه الترمذي فإنه موصول وقد وصله ابن جرير حدثنا ابن حميد قال: حدثنا الحكم بن بشير قال: حدثنا عمر بن قيس عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قالت عائشة: الحديث نحوه، وهذا سند رجاله ثقات غير ابن حميد، وهو محمد بن حميد بن حيان الرازي وهو ضعيف مع حفظه، لكن لعله توبع، فقد أخرج الحديث ابن أبي الدنيا وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ١١) وابن أبي الدنيا من طبقة شيوخ ابن جرير، فاستبعد أن يكون رواه عن شيخه هذا، والله أعلم ا. هـ وانظر علل الدارقطني (١١/ ١٩٣ رقم ٢٢١٦).

=

=

ثم قال- رَحِمَهُ اللَّهُ وقد قرأ آخرون: والذين يأتون ما أتوا.. من الإتيان.
أي: يفعلون ما فعلوا وهم خائفون ...
والمعنى على القراءة الأولى- وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم- أظهر لأنه قال- بعد ذلك-: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقتصرين ا.هـ.
وجملة وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ حال من الفاعل في قوله تعالى يُؤْتُونَ.
وجملة أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ تعليلية بتقدير اللام، وهي متعلقة بقوله: وَجِلَةٌ.
أي: وقلوبهم خائفة من عدم القبول لأنهم إلى ربهم راجعون، فيحاسبهم على بواعث أقوالهم وأعمالهم، وهم- لقوة إيمانهم- يخشون التقصير في أى جانب من جوانب طاعتهم له- عَزَّ وَجَلَّ.
وقد جاءت هذه الصفات الكريمة- كما يقول الرازي- في نهاية الحسن، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والثانية: دلت على قوة إيمانهم بآيات ربهم، والثالثة دلت على شدة إخلاصهم، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها.
قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} [المؤمنون: ٦١]، أي:"أولئك المجتهدون في الطاعة، دأبهم المسارعة إلى كل عمل صالح".
قال الطبري: يقول:"هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم، يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته".
قال ابن زيد: " الخيرات: المخافة والوجل والإيمان، والكف عن الشرك بالله،
=

=

فذلك المسابقة إلى هذه الخيرات".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦١]، أي:"وهم إلى الخيرات سابقون".

قال الطبري: معناه: أنه سبقت لهم من الله السعادة قبل مسارعتهم في الخيرات، ولما سبق لهم من ذلك سارعوا فيها".

وفي قوله تعالى: {وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦١]، وجوه:

أحدها: سبقت لهم السعادة. قاله ابن عباس.

قال الطبري:"فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها".

الثاني: وهم إلى فعل الخيرات سابقون. قاله يحيى بن سلام، ومقاتل، والفراء.

قال مقاتل:"الخيرات التي يسارعون إليها".

الثالث: من أجلها سابقون. قاله الاخفش.

قال الزجاج:"يجوز: {وهم لها سابقون}، أي: من أجل اكتسابها، كما تقول: أنا أكرم فلانا لك، أي من أجلك".

الرابع: معناه: وهم لمن تقدمهم من الأمم سابقون، قاله الكلبي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب القول الذي قاله ابن عباس، من أنه سبقت لهم من الله السعادة قبل مسارعتهم في الخيرات، ولما سبق لهم من ذلك سارعوا فيها؛ لأن ذلك أظهر معنييه، وأنه لا حاجة بنا إذا وجهنا تأويل الكلام إلى ذلك، إلى تحويل معنى "اللام" التي في قوله: {لها سابقون} إلى غير معناها الأغلب عليها".

واسم الإشارة في قوله تعالى: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ يعود إلى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات الجليلة.

وهذه الجملة خبر عن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وما

=

=

عطف عليه، فاسم «إن»: أربع موصولات، وخبرها جملة أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ...

أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات، يبادرون برغبة وسرعة إلى فعل الخيرات، وإلى الوصول إلى ما يرضى الله تعالى وَهُمْ لَها أى: لهذه الخيرات وما يترتب عليها من فوز وفلاح سابِقُونَ لغيرهم.

ثم ختم سبحانه هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات المؤمنين الصادقين، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلف أصحابها فوق طاقتهم، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يجعلها لا تحس بالمشقة عند فعل الطاعات، وإنما يجعلها تحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل الخير بدون تردد، فقال تعالى وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها ...

قوله تعالى: {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [المؤمنون: ٦٢]، أي:"ولا نكلف عبدًا من عبادنا إلا بما يسعه العمل به".

قال يحيى:"إلا طاقتها".

قال مقاتل:"يقول: لا نكلف نفسا من العمل إلا ما أطاقت".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا نكلف نفسا إلا ما يسعها ويصلح لها من العبادة؛ ولذلك كلفناها ما كلفناها من معرفة وحدانية الله، وشرعنا لها ما شرعنا من الشرائع".

قال النسفي:"يعني: أن الذي وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به".

قال الزمخشري:"يعنى: أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ

=

=

الوسع والطاقة، أو أراد: إن الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته فلا عليه".

قال القرطبي: "قوله تعالى: {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}: ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق".

قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ} [المؤمنون: ٦٢]، أي:"وعندنا صحائف أعمال العباد التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها".

قال ابن كثير:"يعني: كتاب الأعمال".

قال الطبري:"يقول: وعندنا كتاب أعمال الخلق بما عملوا من خير وشر، {ينطق بالحق}، يقول: يبين بالصدق عما عملوا من عمل في الدنيا، لا زيادة عليه ولا نقصان، ونحن موفو جميعهم أجورهم، المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته".

قال الزمخشري: يعنى: "كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده، بل هو مثبت لديه في كتاب، يريد اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان، أو المعنى: ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد".

قال القرطبي:"أظهر ما قيل فيه: أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة، وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره، فهو ينطق بالحق. وفي هذا تهديد وتأييس من الحيف والظلم. ولفظ النطق يجوز في الكتاب، والمراد أن النبيين تنطق بما فيه. والله أعلم. وقيل: عنى اللوح المحفوظ، وقد أثبت فيه كل شي، فهم لا يجاوزون ذلك. وقيل: الإشارة بقوله: {ولدينا كتاب}: القرآن، فالله أعلم، وكل محتمل والأول أظهر".

أخرج يحيى بن سلام بسنده عن ابن عباس قال: "أول ما خلق الله القلم فقال:

=

=

اكتب. قال: رب ما أكتب قال: ما هو كائن. قال: فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: فأعمال العباد تعرض كل يوم اثنين وخميس، فيجدونه على ما في الكتاب.

قال يحيى: وسمعت بعضهم يزيد فيه: تلا ابن عباس هذه الآية: {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} [الجاثية: ٢٩] ثم قال: ألستم قوما عربا؟ هل تكون النسخة إلا من كتاب؟".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [المؤمنون: ٦٢]، أي:"لا يظلمون من أعمالهم شيئًا بنقص الثواب أو زيادة العقاب".

قال الطبري:"يقول: وهم لا يظلمون، بأن يزاد على سيئات المسيء منهم ما لم يعمله فيعاقب على غير جرمه، وينقص المحسن عما عمل من إحسانه فينقص عما له من الثواب".

قال النسفي:"ولا يظلم منهم أحد بزيارة عقاب أو نقصان ثواب أو بتكليف ما لا وسع له به".

قال ابن كثير:"أي: لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين".

قال الزمخشري:"لا نظلم أحدا من حقه ولا نحطه دون درجته".

أي: وقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات، أننا لا نكلف نفسا من النفوس إلا في حدود طاقتها وقدرتها. كما قال تعالى: لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها.

والمراد بالكتاب في قوله تعالى: وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ.. كتاب الأعمال الذي يحصيها الله تعالى فيه ويشهد لذلك قوله سبحانه: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ. إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وقوله تعالى وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ

=

=

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...

والمراد بنطق الكتاب بالحق: أن كل ما فيه حق وصدق. أي: ولدينا صحائف أعمالكم، التي سجلها عليكم الكرام الكاتبون، وفيها جميع أقوالكم وأفعالكم في الدنيا، بدون زيادة أو نقصان، بل هي مشتملة على كل حق وصدق فقد اقتضت حكمتنا وعدالتنا أننا لا نظلم أحدا وإنما نعطى كل إنسان ما يستحقه من خير، ونعفو عن كثير من الهفوات.

مسألة: قوله: (ولا نكلف نفسا إلا وسعها) استدل به في نفي تكليف ما لا يطاق.

المتقرر عند أهل السنة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى لا يكلف عباده إلا بالذي يطيقونه وأما مسألة التكليف بما لا يطاق فإنها مسألة كلامية منطقية فلسفية غريبة على العلماء الربانيين، لأنها مما أدخله المتكلمون كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهم، ولا عبرة بما قالوا فيها، ولا خير في عقل لا يهتدي بنور الشرع، فالحق الحقيق بالقبول هو مذهب السلف الصالح وعليه تدل أدلة الشريعة وهو المتوافق مع أصولها ومقاصدها هو أن الله تعالى لا يكلف العبد إلا بما يطيق.

والطاقة هي الاستطاعة، والخلاف بين الطوائف قائم حول تحديد المقصود بما لا يطاق، هل هو الممتنع عادة، أم المستحيل كالجمع بين الضدين، أو هو كتكليف الكافر وهو لا يؤمن.

وشيخ الإسلام بين أن هذا الخلاف ناتج عن عدم التفريق بين أمرين متعلقين بالنزاع في هذه المسألة.

١- ما يرجع إلى الفعل المأمور به، وهذا فيما يتعلق بالقضاء والقدر.

٢- وما يرجع إلى جواز الأمر، وهذا فيما يتعلق بمسائل الأمر والنهي.

والذين خلطوا بين هذين القسمين وقعوا في المحذور، مثل قياس بعضهم أمر الله الكافر بالإيمان مع علمه تعالى أنه لا يفعل، بمسألة العاجز الذي لو أراد الفعل لم

=

=

يقدر عليه، وجعلهم القسمين قسما واحدًا وأنه تكليف بما لا يطاق. فهذا جمع مخالف لما يعلم بالاضطرار من الفرق بينهما، وهو من مثارات الأهواء بين القدرية والجبرية. درء التعارض (١/ ٦٤ - ٦٥).

ولذا يرى شيخ الإسلام أن إطلاق القول بتكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام. كما في درء التعارض (١/ ٦٥).

وقد وقع الخلاف في تكليف ما لا يطاق على أقوال:

١- جواز تكليف ما لا يطاق مطلقا، ومنه تكليف الأعمى البصر، والزمن أن يسير إلى مكة. وهذا قول جهم بين صفوان.

٢- عدم جواز تكليف ما لا يطاق، وقد منعوه لقبحه عقلا، وهذا مبني على مذهبهم في أن القدرة تكون قبل الفعل فقط، حتى يتحقق التكليف، ومن ثم يترتب عليه الثواب والعقاب، ولذلك منعوا أن تكون القدرة مقارنة لمقدورها، لأن معنى ذلك أن يكون تكليف الكافر بالإيمان تكليفا بما لا يطاق؛ إذ لو أطاقه لوقع منه، فلما لم يقع منه دل على أنه غير قادر عليه، وتكليف ما لا يطاق قبيح، والله لا يفعل القبيح، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم.

٣- أن تكليف ما لا يطاق جائز، وهذا مذهب الأشاعرة، وبنوا ذلك على ما في مذهبهم من أنه لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء. لكن الأشاعرة يقولون، إن ما لا يطاق أقسام:

أ- أن يمتنع الفعل لعلم الله بعدم وقوعه، كتكليف الكافر الإيمان في حالة كفره، وهذا جائز عند جميع الأشاعرة، وهذا النوع هو ما لا يستطيعه المكلف لاشتغاله بضده فقط وهو الذي منعه المعتزلة.

ب- أن يمتنع الفعل لنفسه، بكونه محالا كالجمع بين الضدين، وهذا اختلف فيه الأشاعرة، منهم من أجازه كالرازي ومنهم من منعه.

=

=

ج- ألا تتعلق به القدرة الحادثة عادة، كحمل الجبل، والطيران، فهذا يجوزه بعض الأشاعرة وإن لم يقع من خلال الاستقراء، وبعض المجوزين يحتج لذلك بتكليف أبي لهب الإيمان مع ورود الخبر أنه لا يؤمن.

٤- مذهب السلف، التفصيل، وذلك أن يقال: تكليف مالا يطاق على وجهين:

أحدهما: ما لا يقدر على فعله لاستحالته، وهو نوعان:

أ- ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران، وكالمقعد الذي لا يقدر على القيام، والأخرس الذي لا يقدر على الكلام.

ب- وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، وجعل المحدث قديما، والقديم محدثا، ونحو ذلك. فهذان النوعان قد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع، وأنه لا يجوز تكليفه. مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠١).

والثاني: ما لا يقدر عليه لا لاستحالته، ولا للعجز عنه، لكن لتركه والاشتغال بضده، مثل تكليف الكافر الإيمان في حال كفره، فهذا جائز خلافا للمعتزلة، لأنه من التكليف الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة. ولكن إطلاق تكليف ما لا يطاق على هذا مما منعه جمهور أهل العلم، وإن كان بعض المنتسبين إلى السنة قد أطلقه في ردهم على القدرية.

بقي الكلام في ما احتج به بعض الأشاعرة من جواز تكليف الممتنع عادة، بقصة أبي لهب، فشيخ الإسلام يرى أن هذا خطأ، لأن من أخبر الله أنه لا يؤمن وأنه يصلى النار، بعد دعاء النبي ﷺ له إلى الإيمان، فهذا قد حقت عليه كلمة العذاب، فهو كالذي يعاين الملائكة وقت الموت، فلم يبق هذا مخاطبا من جهة الرسول بالأمرين المتناقضين. وهو أيضا كقوم نوح حين أخبر الله نوحا عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فلم يكن بعد هذا يأمرهم بالإيمان بهذا الخطاب. مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٢)، ودرء التعارض (١/ ٦٣).

=

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣).

{بَلْ قُلُوبهمْ} أَيْ الْكُفَّار {فِي غَمْرَة} جَهَالَة {مِنْ هَذَا} الْقُرْآن {وَلَهُمْ أَعْمَال مِنْ دُون ذَلِكَ} الْمَذْكُور لِلْمُؤْمِنِينَ {هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} فَيُعَذَّبُونَ عليها.

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤).

{حَتَّى} ابْتِدَائِيَّة {إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ} أَغْنِيَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ {بِالْعَذَابِ} أَيْ السَّيْف يَوْم بَدْر {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} يَضِجُّونَ يُقَال لَهُمْ.

لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥).

{لَا تَجْأَرُوا الْيَوْم إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ} لا تمنعون.

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦).

{قَدْ كَانَتْ آيَاتِي} مِنْ الْقُرْآن {تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ تَنْكِصُونَ} تَرْجِعُونَ الْقَهْقَرَى.

=

"بل إذا قدر أنه أخبر بصليه النار المستلزم لموته على الكفر وأنه سمع هذا الخطاب، ففي هذا الحال انقطع تكليفه، ولم ينفعه إيمانه حينئذ، كإيمان من يؤمن بعد معاينة العذاب، قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا [غافر: ٨٥] درء التعارض (١/ ٦٣ - ٦٤).

فأبو لهب قد حقت عليه كلمة العذاب، فلا ينفعه الإيمان. مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٨، ٤٧٣ - ٤٧٤).

وهكذا فالقول الراجح هو التفصيل فيها. ومن ذلك يتبين خطأ المعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة. علما أن من الأشاعرة من ذكر القول الحق بتفصيله في هذه المسألة.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧).

{مُسْتَكْبِرِينَ} عَنْ الْإِيمَان {بِهِ} أَيْ بِالْبَيْتِ أَوْ الْحَرَم بِأَنَّهُمْ أَهْله فِي أَمْن بِخِلَافِ سَائِر النَّاس فِي مَوَاطِنهمْ {سَامِرًا} حَال أَيْ جَمَاعَة يَتَحَدَّثُونَ بِاللَّيْلِ حَوْل الْبَيْت {تَهْجُرُونَ} مِنْ الثُّلَاثِيّ تَتْرُكُونَ الْقُرْآن وَمِنْ الرُّبَاعِيّ أَيْ تَقُولُونَ غَيْر الحق في النبي والقرآن قال تعالى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ): هم أهل بدر.

أخرجه النسائي في "التفسير" (٢/ ١٠٠ رقم ٣٧٣)، وحمزة بن محمد في "زياداته على سنن النسائي" (رقم ٣٧٤)، والخطيب في "تلخيص المتشابه" (١/ ٥١٢) عن محمد بن جعفر بن محمد ثنا علي بن المديني ثنا بشار بن عيسى عن ابن المبارك ثني موسى بن عقبة؛ قال: سمعت عكرمة عن ابن عباس به. وهذا إسناد ضعيف؛ بشار بن عيسى الأزرق؛ قال الذهبي: "لا أدري من هو ذا؟ "، وفي "التقريب": "مقبول"؛ حيث يتابع، وإلا؛ فلين، ولم يتابع.

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٤٧): ثنا معمر عن قتادة. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، ورواية معمر عن أهل البصرة فيها مقال، وقتادة بصري.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به، ويفتخرون به؛ فأنزل الله: {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ١٠٩) ونسبه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم.

وهو مرسل.

=

=

* قوله تعالى: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} [المؤمنون: ٦٣]، أي:"لكن قلوب الكفار في ضلال غامر عن هذا القرآن وما فيه".

قال ابن قتيبة:"أي: في غطاء وغفلة".

قال السمعاني:"أي: في غطاء، يقال: فلان غمره الماء، أي: غطاه".

قال مجاهد:"يعني: في عمى من هذا القرآن".

قال ابن كثير:"أي: غفلة وضلالة {مِنْ هَذَا} أي: القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ".

قال قتادة: "يقول في غفلة من هذا، مما ذكر من أعمال المؤمنين في الآية الأولى".

قال الطبري: يقول:"ما الأمر كما يحسب هؤلاء المشركون، من أن إمدادناهم بما نمدّهم به من مال وبنين، بخير نسوقه بذلك إليهم والرضا منا عنهم، ولكن قلوبهم في غمرة عمى عن هذا القرآن. وعنى بالغمرة: ما غمر قلوبهم فغطاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج".

قال الزجاج:"يجوز أن يكون «هذا» إشارة إلى ما وصف من أعمال البر في قوله: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون}، إلى قوله: {يسارعون في الخيرات}، أي: قلوب هؤلاء في عماية من هذا، ويجوز أن يكون «هذا» إشارة إلى «الكتاب»، المعنى: بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحق. وأعمالهم محصاة فيه".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} [المؤمنون: ٦٣]، أي:"ولهم مع شركهم أعمال سيئة، يُمْهلهم الله ليعملوها، فينالوا غضب الله وعقابه".

قال الطبري: يقول: "ولهؤلاء الكفار أعمال لا يرضاها الله من المعاصي من دون أعمال أهل الإيمان بالله، وأهل التقوى والخشية له".

=

=

قال الزجاج:"أخبر الله - ﷻ - بما سيكون فيهم، فأعلم أنهم سيعملون أعمالا تباعد من الله غير الأعمال التي ذكروا بها".

وفي قوله تعالى: {وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} [المؤمنون: ٦٣]، أقوال:

أحدها: خطايا يعملونها من دون الحق، وهو قول مجاهد، وقتادة، وأبي العالية.

الثاني: أعمال رديئة لم يعملوها وسيعملونها، قاله الحسن.

وقال مجاهد:"أعمال لا بد لهم من أن يعملوها".

قال مقاتل:"يقول لهم أعمال خبيثة دون الأعمال الصالحة يعني غير الأعمال الصالحة التي ذكرت عن المؤمنين في هذه الآية وفي الآية الأولى {هم لها عاملون}، يقول: هم لتلك الأعمال الخبيثة، عاملون، التي هي فى اللوح المحفوظ أنهم سيعلمونها لا بد لهم من أن يعملوها".

قال ابن كثير:"وقال آخرون: قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. ورُوِي نَحو هذا عن مقاتل بن حيَّان والسُّدِّيّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها» ".

الثالث: أنه ظلم المخلوقين مع الكفر بالخالق. أفاده الماوردي.

الرابع: أن الآية تنصرف إلى أصحاب الطاعات، ومعناه: أن المؤمنين لهم أعمال سوى ما عملوا من الخير {هم لها عاملون}. وهذا قول قتادة أيضا.

يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به،

=

=

ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء. {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} فلما كانت قلوبهم في غمرة منه عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم.

قال الجمل: قوله تعالى: بَلْ قُلُوبُهُمْ ... هذا رجوع لأحوال الكفار المحكية فيما سبق بقوله: أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ ... والجمل التي بينهما وهي قوله: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ إلى قوله وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ اعتراض في خلال الكلام المتعلق بالكفار ا.هـ.

وقال ابن عاشور: هذا إضراب انتقال إلى ما هو أغرب مما سبق وهو وصف غمرة أخرى انغمس فيها المشركون فهم في غمرة غمرت قلوبهم وأبعدتها عن أن تتخلق بخلق الذين هم من خشية ربهم مشفقون كيف وأعمالهم على الضد من أعمال المؤمنين تناسب كفرهم، فكل يعمل على شاكلته.

فحرف (من) في قوله: من هذا يوهم البدلية، أي في غمرة تباعدهم عن هذا.

والإشارة ب هذا إلى ما ذكر آنفا من صفات المؤمنين في قوله: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون إلى قوله: وهم لها سابقون [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

ودون تدل على المخالفة لأحوال المؤمنين، أي ليسوا أهلا للتحلي بمثل تلك المكارم ا.هـ

وقال ابن الجوزي: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا قال مقاتل: في غفلة عن الإيمان بالقرآن. وقال ابن جرير: في عمىً عن هذا القرآن. قال الزجاج: يجوز أن يكون إشارة إلى ما وصف من أعمال البِرِّ في قوله: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ، فيكون المعنى: بل قلوب هؤلاء في عماية من هذا ويجوز أن يكو إشارة إلى الكتاب، فيكون المعنى: بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحقّ وأعمالُهم

=

=

مُحْصَاةٌ فيه. فخرج في المشار إِليه ب «هذا» ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن. والثاني: أعمال البِرِّ. والثالث: اللوح المحفوظ ا.هـ

أى: هذه هي أوصاف المؤمنين الصادقين، أما الكافرون فقلوبهم فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا أى: في جهالة وغفلة مما عليه هؤلاء المؤمنون من صفات حميدة، ومن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وهؤلاء الكافرون لَهُمْ أَعْمالٌ سيئة كثيرة مِنْ دُونِ ذلِكَ أى من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم في غمرة وجهالة عن الحق هُمْ لَها عامِلُونَ أى: هم مستمرون عليها، ومعتادون لفعلها مندفعون في ارتكابها بدون وعى أو تدبر.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ فيه أربعة أقوال: أحدها: أعمال سيِّئة دون الشِّرك، رواه عكرمة عن ابن عباس: والثاني: خطايا من دون ذلك الحق، قاله مجاهد. وقال ابن جرير: من دون أعمال المؤمنين وأهل التقوى والخشية. والثالث: أعمالٌ غير الأعمال التي ذُكِروا بها سيعملونها، قاله الزجاج. والرابع: أعمال- من قبل الحين الذي قدَّر الله تعالى أنه يعذِّبهم عند مجيئه- من المعاصي، قاله أبو سليمان الدمشقي. قوله تعالى: هُمْ لَها عامِلُونَ إِخبار بما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كُتبت عليهم لا بدَّ لهم من عملها ا.هـ

ثم بين سبحانه عند ما ينزل بهم العذاب فقال: حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ} [المؤمنون: ٦٤]، أي:"حتى إذا أخذنا المترفين وأهل البطر منهم بعذابنا".

قال الطبري:"ولهؤلاء الكفار من قريش أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، إلى أن يؤخذ أهل النَّعمة والبطر منهم بالعذاب".

قال ابن كثير:"أي: حتى إذا جاء مترفيهم - وهم السعداء المنعمون في الدنيا -

=

=

عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم".

قال الزجاج:"العذاب الذي أخذوا به السيف".

عن ابن جُرَيج: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)، قال: عذاب يوم بدر".

قال مجاهد:"بالسيوف يوم بدر".

قال الضحاك:"يعني أهل بدر، أخذهم الله بالعذاب يوم بدر".

عن ابن زيد، " {إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ}، قال: المُتْرَفُون: العظماء".

قال يحيى:"يعني: أبا جهل وأصحابه الذين قتلوا يوم بدر. نزلت هذه الآية قبل ذلك بمكة".

قوله تعالى: {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} [المؤمنون: ٦٤]، أي:"إذا هم يرفعون أصواتهم يتضرعون مستغيثين".

قال الفراء:"يضجّون. وهو الْجُؤار".

قال الزجاج:"أي: يضجون، يقال: جأر يجأر جؤارا، إذا ضج".

قال ابن كثير:"أي: يصرخون ويستغيثون".

قال الطبري:"يقول: فإذا أخذناهم به جأروا، يقول: ضجُّوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذابنا، ولعلّ الجُؤار: رفع الصوت، كما يجأر الثور؛ ومنه قول الأعشى:

يرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِي... كِ طَوْرًا سجُودًا وَطَوْرًا جؤارا".

عن ابن عباس: " {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ}، يقول: يستغيثون".

قال الربيع بن أنس وابن زيد:"يجزعون".

وقال الحسن:"يصرخون إلى الله بالتوبة فلا يقبل منهم".

وفي المراد «بالعذاب» قولان:

أحدهما: ضرب السيوف يوم بدر، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك.

والثاني: الجوع الذي عُذِّبوا به سبع سنين، قاله ابن السّائب.

=

=

وحتى هنا: ابتدائية، أي: حرف تبتدئ بعده الجمل، وجملة إِذا أَخَذْنا شرطية.

وجوابها إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ.

والجؤار: الصراخ مطلقا، أو باستغاثة. يقال: جأر الثور يجأر إذا صاح.

وجأر الداعي إلى الله، إذا ضج ورفع صوته بالتضرع إلى الله ﷻ.

أي: حتى إذا عاقبنا هؤلاء المترفين الذين أبطرتهم النعمة. بالعذاب الذي يردعهم ويخزيهم ويذلهم، إذا هم يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة.

وعبر عن عقابهم، بالأخذ، للإشعار بسرعة هذا العقاب وشدته، كما في قوله تعالى ... أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ.

وخص المترفين بالذكر، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من التنعم والتمتع والتطاول في الدنيا، لن ينفعهم شيئا عند نزول هذا العذاب بهم.

وقوله سبحانه لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ تأنيب وزجر لهم على جؤارهم وصراخهم. والمراد باليوم. الوقت الذي فيه نزل العذاب بهم.

قوله تعالى: {لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ} [المؤمنون: ٦٥]

أي: فيقال لهم: لا تصرخوا، ولا تستغيثوا اليوم، إنكم لا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا ينصركم أحد من عذاب الله.

قوله تعالى: {لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ} [المؤمنون: ٦٥]، أي:"فيقال لهم: لا تصرخوا، ولا تستغيثوا اليوم من العذاب".

قال الربيع بن أنس:"لا تجزعوا اليوم".

قال الربيع بن أنس:"لا تجزعوا الآن حين نزل بكم العذاب، إنه لا ينفعكم، فلو كان هذا الجزع قبلُ نفعكم".

قال الطبري:"يقول: لا تضجوا وتستغيثوا اليوم وقد نزل بكم العذاب الذي لا يدفع عن الذين ظلموا أنفسهم، فإن ضجيجكم غير نافعكم ولا دافع عنكم شيئا

=

=

مما قد نزل بكم من سخط الله".

قال قتادة: "ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ} [المؤمنون: ٦٥]، أي:"إنكم لا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا ينصركم أحد من عذاب الله".

قال يحيى:"أي: لا يمنعكم منا أحد".

قال الطبري:"يقول: إنكم من عذابنا الذي قد حل بكم لا تستنقذون، ولا يخلصكم منه شيء".

قال ابن كثير:"أي: لا نجيركم مما حل بكم، سواء جأرتم أو سكتُّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ لزم الأمر ووجب العذاب".

أي: عند ما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجئ، وضجوا بالاستغاثة والجؤار، قلنا لهم على سبيل التقريع والزجر: لا تجأروا ولا تصرخوا في هذا الوقت الذي أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب. فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا، أو من يدفع عنكم هذا العذاب..

ثم بين سبحانه الأسباب التي أفضت بهم إلى هذا العذاب المهين، فقال تعالى: قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ....

قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} [المؤمنون: ٦٦]، أي:"قد كانت آيات القرآن تُقرأ عليكم؛ لتؤمنوا بها".

قال يحيى:"يعني: القرآن".

قال القرطبي:"«الآيات»: يريد بها القرآن. {تتلى عليكم}، أي: تقرأ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: لا تضجوا اليوم وقد نزل بكم سخط الله وعذابه، بما كسبت أيديكم واستوجبتموه بكفركم بآيات ربكم: {قد كانت آياتي تتلى عليكم}، يعني: آيات كتاب الله، يقول: كانت آيات

=

=

كتابي تقرأ عليكم".

قوله تعالى: {فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} [المؤمنون: ٦٦]، أي:"فكنتم تنفرون من سماعها والتصديق بها، والعمل بها كما يفعل الناكص على عقبيه برجوعه إلى الوراء".

قال ابن قتيبة:"أي: ترجعون القهقرى".

قال ابن الجوزي:"أي: ترجعون وتتأخرون عن الإيمان بها".

قال الطبري: يقول:"فتكذبون بها وترجعون مولين عنها إذا سمعتموها، كراهية منكم لسماعها. وكذلك يقال لكل من رجع من حيث جاء: نكص فلان على عقبه".

قال القرطبي: أي:"ترجعون وراءكم، وأصله: أن ترجع القهقرى. قال الشاعر:

زعموا بأنهم على سبل النجا... ة وإنما نكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للاعراض عن الحق".

عن مجاهد:"{فكنتم على أعقابكم تنكصون}، قال: تستأخرون".

قال ابن عباس:"يقول: تدبرون".

قال ابن عباس:"يعني: أهل مكة".

وَفِي قراءة عبد الله: «عَلَى أدباركم تنكصُون».

والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخر القدم وتَنْكِصُونَ من النكوص، وهو الرجوع إلى الخلف. يقال: فلان نكص على عقبيه، إذا رجع إلى الوراء، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات.

أى: لا تجأروا ولا تصرخوا، فإن ذلك لن يفيدكم شيئا، بسبب إصراركم على كفركم في حياتكم الدنيا، فقد كانت آياتي الدالة على وحدانيتي تتلى على مسامعكم من نبينا ﷺ ومن المؤمنين به، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد

=

الإعراض، وكنتم تستهزءون بها، وتكادون تسطون بالذين يتلونها عليكم.

وقوله تعالى مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِرًا تَهْجُرُونَ مقرر لمضمون ما قبله، من إعراضهم عن آيات الله. ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها.

قوله تعالى: {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)} [المؤمنون: ٦٧].

أي: تفعلون ذلك مستكبرين على الناس بغير الحق بسبب بيت الله الحرام، تقولون: نحن أهله لا نُغْلَب فيه، وتتسامرون حوله بالسيِّئ من القول.

قوله تعالى: {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ} [المؤمنون: ٦٧]، أي:"مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان".

قال الطبري:"يقول: مستكبرين بحرم الله، يقولون: لا يظهر علينا فيه أحد، لأنا أهل الحرم".

وفي تفسير قوله تعالى: {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ} [المؤمنون: ٦٧]، ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه: مستكبرين بالبيت الحرام، تقولون: البيت لنا. يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه. وهذا قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال الفراء، وابن قتيبة.

قال الفراء:"«الهاء» للبيت العتيق، تقولون: نحن أهله، وإذا كان الليل وسمرتم هجرتم القرآن والنبي فهذا من الهجران، أي: تتركونه وترفضونه".

قال ابن الجوزي:"المعنى: إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم، لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم. تقولون: نحن أهل الحرم فلا نخاف أحدا، ونحن أهل بيت الله وولاته".

قال ابن عباس:"مستكبرين بحرم البيت أنه لا يظهر علينا فيه أحد".

قال ابن عباس:"إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: {مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ}، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، {سَامِرًا} قال: يتكبرون =

=

ويسمرون فيه، ولا يعمرونه، ويهجرونه".

الثاني: معناه: مستكبرين بالقرآن، على معنى أنهم استكبروا فلم يؤمنوا به.

قال ابن كثير:"كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: "إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة" إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة".

الثالث: أنه الرسول-ﷺ-، على معنى أنهم استكبروا فلم يؤمنوا به.

قال ابن كثير:"كانوا يذكرونه [أي النبي-ﷺ-] في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون، وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء".

قال السمعاني:"أظهر الأقاويل: أن المراد منه: «الحرم»، ويقال: «البيت»، أي: متعظمين بالبيت الحرام، وتعظيمهم أنهم كانوا يقولون: نحن أهل الله وجيران بيته، وكان سائر العرب في خوف، وهم في أمن".

قوله تعالى: {سَامِرًا تَهْجُرُونَ} [المؤمنون: ٦٧]، أي:"متحدثين ليلًا تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن، وسبّ النبي عليه السلام".

وفي معنى: «السمر»، قولان:

أحدهما: أنه الحديث ليلًا، قاله الكلبي، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"«السمر»: حديث الليل. وأصل السمر: الليل. قال ابن أحمر:

من دونهم إن جئتهم سمرا

أي: ليلا ويقال: هو جمع سامر. كما يقال: طالب وطلب وحارس وحرس. ويقال: هذا سامر الحي يراد المتحدثون منهم ليلا. وسمر الحي".

قال الزجاج: السامر: الجماعة الذين يتحدثون ليلا".

=

=

عن مجاهد: " {سامرا}، قال: مجلسا بالليل".

قال الضحاك:"يعني: سمر الليل".

قال سعيد بن جبير:"تسمرون بالليل".

قال ابن عباس:"يسمرون حول البيت".

قال ابن زيد:"كانوا يسمرون ليلتهم ويلعبون: يتكلمون بالشعر والكهانة وبما لا يدرون".

وقال قتادة:"سامرا من أهل الحرم آمنا لا يخاف، كانوا يقولون: نحن أهل الحرم، لا يخافون".

قال الحسن:"يقول: قد بلغ من أمانكم أن سامركم يسمر بالبطحاء، يعني: سمر الليل، والعرب تقتل بعضها بعضا، وتسيء بعضها بعضا، وأنتم في ذلك تهجرون كتابي ورسولي".

والثاني: أنه ظل القمر، حكاه ابن عيسى.

وقال الزجاج: إنما سموا: سمارا من: «السمر»، وهو ظل القمر، وكذلك السمرة مشتقة من هذا".

قال الماوردي:"والعرب تقول: حلف بالسمر والقمر أي بالظلمة والضياء، لأنهم يسمرون في ظلمة الليل وضوء القمر، والعرب تقول أيضًا: لا أكلمه السمر والقمر، أي الليل والنهار.

وفي {تَهْجُرُونَ} [المؤمنون: ٦٧]، قولان:

أحدهما: تهجرون ذكر الله والحق، قاله ابن عباس، وبه قال الزجاج.

الثاني: تقولون الباطل والسيئ من القول. وهذا قول سعيد بن جبير، وابن زيد.

قال مجاهد:"بالقول السيئ في القرآن".

قال أبو صالح:"السب".

=

=

قال ابن قتيبة:"تقولون هجرا من القول. وهو اللغو منه والهذيان".

قال الجهضمي: وهو:"التخليط من الكلام كما يقول: هجر المريض، اذا هذى".

قال يحيى بن سلام:"تتكلمون بالشرك والبهتان في حرم الله".

قال ابن زيد:"الهذيان؛ الذي يتكلم بما لا يريد، ولا يعقل كالمريض الذي يتكلم بما لا يدري. قال: كان أبي يقرؤها: «سَامِرًا تَهْجُرُونَ»".

وقرأ ابن عباس، ونافع: «تُهْجِرُونَ»،" -بضم التاء وكسر الجيم- وهذا من الهجر وهو السب والإفحاش في المنطق. يريد سبهم النبي صلى الله عليه ومن اتبعه".

عن ابن عباس: " {تُهْجِرُونَ}، قال: تقولون هجرا".

عن قتادة: " {تُهْجِرُونَ}، يقول: يقولون سوءا".

قال الحسن: " {تُهْجِرُونَ} رسول الله ﷺ".

قال الحسن: " {تُهْجِرُونَ} كتاب الله ورسوله".

قال الفراء:"الهجر: أنهم كانوا يسبون النبي ﷺ إذا خلوا حول البيت ليل".

وفي مخرج هذا الكلام قولان:

أحدهما: إنكار تسامرهم بالإزراء على الحق مع ظهوره لهم.

الثاني: إنكارًا منهم حتى تسامروا في ليلهم والخوف أحق بهم.

وقرئ في الشاذ: «سمارا».

والضمير في بِهِ يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى البيت الحرام، والباء للسببية.

وقوله: «سامرا» اسم جمع كحاج وحاضر وراكب، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك لسمرته، ثم أطلق على الحديث بالليل. يقال: سمر فلان يسمر- ككرم يكرم- إذا تحدث ليلا مع غيره بقصد المسامرة والتسلية.

وقوله: تَهْجُرُونَ قرأه الجمهور- بفتح التاء وضم الجيم- مأخوذ من الهجر- بإسكان الجيم- بمعنى الصد والقطيعة، أو من الهجر- بفتح الجيم- بمعنى

=

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨).

{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا} أَصْله يَتَدَبَّرُوا فَأُدْغِمَتْ التَّاء فِي الدَّال {الْقَوْل} أَيْ الْقُرْآن الدَّالّ عَلَى صِدْق النبي {أم جاءهم ما لم يآت آباءهم الأولين}.

=

الهذيان والنطق بالكلام الساقط، بسبب المرض أو الجنون.

وقرأ نافع تَهْجُرُونَ بضم التاء وكسر الجيم- مأخوذ من هجر هجارا إذا نطق بالكلام القبيح.

والمعنى: قد كانت آياتي تتلى عليكم- أيها المستغيثون من العذاب- فكنتم تعرضون عنها، ولم تكتفوا بهذا الإعراض، بل كنتم متكبرين على المسلمين بالبيت الحرام، وكنتم تتسامرون بالليل حوله، فتستهزئون بالقرآن، وبالرسول ﷺ وبتعاليم الإسلام وتنطقون خلال سمركم بالقول الباطل، الذي يدل على مرض قلوبكم، وفساد عقولكم، وسوء أدبكم.

وقوله: مُسْتَكْبِرِينَ وسامِرًا وتَهْجُرُونَ أحوال ثلاثة مترادفة على واو الفاعل في تَنْكِصُونَ أو متداخلة، بمعنى أن كل كلمة منها حال مما قبلها.

قال القرطبي: مُسْتَكْبِرِينَ حال، والضمير في بِهِ قال الجمهور: هو عائد على الحرم، أو المسجد، أو البلد الذي هو مكة. وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر.

أى: يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف. وقيل: المعنى أنهم يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل فيستكبرون لذلك.

وقالت فرقة: الضمير عائد على القرآن، من حيث ذكرت الآيات.

والمعنى: يحدث لكم سماع آياتي كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا بي ...".

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها تصور حسرة المشركين وجؤارهم يوم ينزل بهم العذاب تصويرا بديعا، كما تبين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب، مما جعلهم أهلا لهذا المصير الأليم.

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩).

{أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون}.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠).

{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّة} الِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ بِالْحَقِّ مِنْ صِدْق النَّبِيّ وَمَجِيء الرُّسُل لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَة وَمَعْرِفَة رَسُولهمْ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَة وَأَنْ لَا جُنُون بِهِ {بَلْ} لِلِانْتِقَالِ {جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} أَيْ الْقُرْآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام {وأكثرهم للحق كارهون}.

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١).

{وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقّ} أَيْ الْقُرْآن {أَهْوَاءَهُمْ} بِأَنْ جَاءَ بِمَا يَهْوَوْنَهُ مِنْ الشَّرِيك وَالْوَلَد لِلَّهِ تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ {لَفَسَدَتْ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَنْ فِيهِنَّ} خَرَجَتْ عَنْ نِظَامهَا الْمُشَاهَد لِوُجُودِ التَّمَانُع فِي الشَّيْء عَادَة عِنْد تَعَدُّد الْحَاكِم {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ} أَيْ الْقُرْآن الَّذِي فِيهِ ذكرهم وشرفهم {فهم عن ذكرهم معرضون}.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢).

{أَمْ تَسْأَلهُمْ خَرْجًا} أَجْرًا عَلَى مَا جِئْتهمْ به من الإيمان {فخراج ربك} أجره وثوابه ورزقه {خير} وفي قراءة خرجا في الموضعين وفي قراءة أُخْرَى خَرَاجًا فِيهِمَا {وَهُوَ خَيْر الرَّازِقِينَ} أَفْضَل مَنْ أَعْطَى وَآجَرَ.

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣).

{وَإِنَّك لَتَدْعُوهُمْ إلَى صِرَاط} طَرِيق {مُسْتَقِيم} أَيْ دين الإسلام.

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤).

{وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} بِالْبَعْثِ وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب {عَنْ الصِّرَاط} أَيْ الطَّرِيق {لَنَاكِبُونَ} عَادِلُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)} [المؤمنون: ٦٨]

أي: أفلم يتفكروا في القرآن فيعرفوا صدقه، أم منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب لم يأت أباءهم الأولين مثله، فأنكروه وأعرضوا عنه؟

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون: ٦٨]، أي:"أفلم يتفكروا في القرآن فيعرفوا صدقه".

قال مقاتل:"يعني: أفلم يستمعوا القرآن".

قال ابن قتيبة:"أي: يتدبروا القرآن".

قال السمعاني:"يعني: ما جاءهم من القول، وهو القرآن".

قال الزمخشري:"يقول: أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به".

قال الطبري: يقول:"أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليه فيه؟".

قال القرطبي:"يعني القرآن، وهو كقوله تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن} [النساء: ٨٢]. وسمي القرآن قولا لأنهم خوطبوا به".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف =

=

النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم".

قال القشيري:"يعنى: أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا فى الحال، ولا نتفى عن قلوبهم الاستعجام والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل، وعرجوا فى أوطان التغافل، فتعودوا الجهل، وأيسوا من الاستبصار".

قوله تعالى: {أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨]، أي:"أم منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب لم يأت أباءهم الأولين مثله، فأنكروه وأعرضوا عنه؟".

قال الزمخشري: أي:"أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ وآباؤهم: إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان".

قال السمعاني:"يعني: أيظنون أنه جاءهم ما لم يأت من قبلهم، ومعناه: أنا بعثنا إليهم رسولا كما بعثنا إلى الأولين".

قال الطبري" يقول: أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم، فاستكبروا ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسل من قبلهم، وأنزلت معهم الكتب".

قال يحيى:"أي: لم يأتهم إلا ما أتى آباءهم الأولين".

قال مقاتل:"يقول: قد جاء أهل مكة النذر كما جاء آباءهم وأجدادهم الأولين".

قال القرطبي:"وقيل: «أم» بمعنى «بل»، أي: بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له".

قال ابن عباس:"لعمري لقد جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين، ولكن أو لم يأتهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين".

قال ابن عاشور: قوله (أفلم يدبروا القول) الفاء لتفريع الكلام على الكلام السابق

=

=

وهو قوله بل قلوبهم في غمرة من هذا إلى قوله سامرا تهجرون [المؤمنون: ٦٣-٦٧]. وهذا التفريع معترض بين جملة بل قلوبهم في غمرة من هذا وجملة ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون [المؤمنون: ٧٥].

والمفرع استفهامات عن سبب إعراضهم واستمرار قلوبهم في غمرة إلى أن يحل بهم العذاب الموعود له.

وهذه الاستفهامات مستعملة في التخطئة على طريقة المجاز المرسل لأن اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره عن العقلاء فيقتضي ذلك الشك السؤال عن وقوعه من العقلاء.

ومآل معاني هذه الاستفهامات أنها إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم ولذلك خصت بذكر أمور من هذا القبيل. وكذلك احتجاج عليهم وقطع لمعذرتهم وإيقاظ لهم بأن صفات الرسول كلها دالة على صدقه.

فالاستفهام الأول: عن عدم تدبرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول أي الكلام، قال تعالى: أفلا يتدبرون القرآن [النساء: ٨٢]. والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له. وأصله أنه من النظر في دبر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادىء ذي بدء. وقد تقدم عند قوله تعالى: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا في سورة النساء

والمعنى: أنهم لو تدبروا قول القرآن لعلموا أنه الحق بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يدبروا القول. وهذا أحد العلل التي غمرت بهم في الكفر.

والاستفهام الثاني: هو المقدر بعد (أم) وقوله: أم لم يعرفوا رسولهم. ف (أم) حرف إضراب انتقالي من استفهام إلى غيره وهي (أم) المنقطعة بمعنى (بل) ويلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة. فقوله جاءهم ما لم يأت آباءهم تقديره:

=

=

بل أجاءهم ا.هـ

والهمزة لإنكار ما هم فيه من عدم التدبر واستقباحه، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام: والمراد بالقول: القرآن الكريم وما اشتمل عليه من هدايات.

والمعنى: أفعلوا ما فعلوا من النكوص على الأعقاب، ومن الغرور ومن الهذيان بالباطل من القول، فلم يتدبروا هذا القرآن، ولم يتفكروا فيما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة..

إنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات والآداب والأحكام، والقصص، والعقائد، والتشريعات.. ما يسعدهم ويهد بهم إلى الصراط المستقيم.

فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن، لأنهم إن تدبروه تدبرا صادقا. لعلموا أنه الحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وشبيه بهذه الجملة قوله تعالى أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا.

وقوله سبحانه: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها.

وبعد أن وبخهم سبحانه على تركهم الانتفاع بالقرآن. أتبع ذلك بتقريعهم على أن ما جاءهم به الرسول ﷺ يتفق في أصوله مع ما جاء به الرسل السابقون لآبائهم الأولين.

أى: أكذبوا رسولهم لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل لآبائهم؟ كلا، فإن ما جاءهم به الرسول ﷺ يطابق- في جوهره- ما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما، من آبائهم الأولين.

قال تعالى شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...

وقال سبحانه: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ....

=

=

ويجوز أن يكون المعنى: أكذب هؤلاء الجاهلون رسولهم ﷺ لأنهم في أمان من العذاب، وهذا الأمان لم يكن فيه آباؤهم الأولون؟

كلا، وإن من شأن العقلاء أنهم لا يأمنون مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قال الآلوسى: وأم في قوله تعالى أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ منقطعة، وما فيها من معنى بل، للإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر. والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع. أى: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، بمعنى أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة له تعالى وأن مجيء القرآن جار على هذه السنة فلماذا ينكرونه؟

وقيل المعنى: أفلم يدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته، ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين، حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله، فالمراد بآبائهم: «المؤمنون» منهم كإسماعيل- عليه السلام ... ا.هـ.

ثم انتقلت السورة إلى توبيخهم- ثالثا- على كفرهم مع علمهم بصدق الرسول وأمانته، فقال تعالى أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ.

قوله تعالى: {أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩)} [المؤمنون: ٦٩]

أي: أم منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

قال يحيى:"أي: الذي أرسلهم إليهم، يعني محمدا".

قال قتادة:"بل يعرفون وجهه ونسبه".

قال الطبري" يقول: أم لم يعرف هؤلاء المكذّبون محمدًا، وأنه من أهل الصدق

=

=

والأمانة فهم له منكرون، يقول: فينكروا قوله، أو لم يعرفوه بالصدق، ويحتجوا بأنهم لا يعرفونه. يقول جلّ ثناؤه: فكيف يكذّبونه وهم يعرفونه فيهم بالصدق والأمانة؟!".

قال البيضاوي:"{أم لم يعرفوا رسولهم} بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فهم له منكرون دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له

غيرها، فإن إنكار الشيء قطعا أو ظنا إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد".

قال السمعاني:"يعني: أنهم عرفوه صغيرا وكبيرا، وعرفوا نسبه، وعرفوا وفاءه بالعهد، وأداءه للأمانات، وصدقه في الأقوال، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب".

قال ابن كثير:"أي: أَفَهُمْ لا يعرفون محمدًا وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم، أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفارًا لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك".

أي: أيكون سبب كفرهم أنهم لم يعرفوا رسولهم محمدا ﷺ؟ كلا فإن هذا لا يصلح سببا، إذ هم يعرفون حسبه ونسبه، وأمانته، وصدقه، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته، وأبو سفيان- قبل أن يدخل في الإسلام- شهد أمام هرقل ملك الروم، بأن الرسول ﷺ كان معروفا بصدقه وأمانته قبل البعثة.

=

=

ثم انتقلت السورة- للمرة الرابعة- إلى توبيخهم على أمر آخر، فقال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ....

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)} [المؤمنون: ٧٠]

أي: بل أحسبوه مجنونًا؟ لقد كذَبوا؛ فإنما جاءهم بالقرآن والتوحيد والدين الحق، وأكثرهم كارهون للحق حسدًا وبغيًا.

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ} [المؤمنون: ٧٠]، أي:"أم يقولون إن محمدًا مجنون".

قال يحيى:"أي: بمحمد جنون، أي: قد قالوا ذلك".

قال الطبري" يقول: أيقولون بمحمد جنون، فهو يتكلم بما لا معنى له ولا يفهم ولا يدري ما يقول؟!".

قال القرطبي:"أي: أم يحتجون في ترك الإيمان به بأنه مجنون، فليس هو هكذا! لزوال أمارات الجنون عنه".

قال البيضاوي:"{أم يقولون به جنة} فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلا وأدقهم نظرا".

قال الصابوني:"وهذا توبيخ آخر وتعجيبٌ من تفننهم في العناد، وتلونهم في الجحود".

قال ابن كثير:"قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوَّل القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين".

=

=

قوله تعالى: {بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} [المؤمنون: ٧٠]، أي:"ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحقِّ الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام".

قال السمعاني:"أي: بالصدق".

قال يحيى:"القرآن".

قال القرطبي:"يعني: القرآن والتوحيد الحق والدين الحق".

قال الطبري: يقول:"فإن يقولوا ذلك فكذبهم في قيلهم ذلك واضح بَيِّن، وذلك أن المجنون يهذي فيأتي من الكلام بما لا معنى له، ولا يعقل ولا يفهم، والذي جاءهم به محمد هو الحكمة التي لا أحكم منها والحقّ الذي لا تخفى صحته على ذي فطرة صحيحة، فكيف يجوز أن يقال: هو كلام مجنون؟".

قوله تعالى: {وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [المؤمنون: ٧٠]، أي:"ومع وضوح الدعوة فإنَّ أكثر المشركين يكرهون الحقّ لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف".

قال السمعاني: اي:"ساخطون".

قال يحيى:"يعني: جماعة من لم يؤمن منهم".

قال القرطبي:"أي كلهم {للحق كارهون} حسدا وبغيا وتقليدا".

قال الطبري: يقول:"ما بهؤلاء الكفرة أنهم لم يعرفوا محمدا بالصدق ولا أن محمدا عندهم مجنون، بل قد علموه صادقا محقا فيما يقول وفيما يدعوهم إليه، ولكن أكثرهم للإذعان للحقّ كارهون ولأتباع محمد ساخطون؛ حسدا منهم له وبغيا عليه واستكبارا في الأرض".

قال البيضاوي: {وأكثرهم للحق كارهون}، " لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافا من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم فكرته لا كراهة للحق".

=

=

أي: أيكون سبب إصرارهم على كفرهم اتهامهم للرسول ﷺ بالجنون؟ كلا، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول ﷺ هو أكمل الناس عقلا، وأرجحهم فكرا، وأثقبهم رأيا، وأوفرهم رزانة.

وقوله تعالى بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ إضراب عما يدل عليه ما سبق من اتهامات باطلة دارت على ألسنة المشركين.

أي: ليس الأمر كما زعموا من أنه ﷺ به جنة أو أنه أتاهم بما لم يأت آباءهم الأولين، بل الأمر الصدق، أن الرسول ﷺ جاءهم بالحق الثابت الذي لا يحوم حوله باطل ولكن هؤلاء القوم أكثرهم كارهون للحق، لأنه يتعارض مع أنانيتهم وشهواتهم، وأهوائهم..

وقال سبحانه: وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ لأن قلة من هؤلاء المشركين كانت تعرف أن الرسول ﷺ قد جاءهم بالحق، وتحب أن تدخل في الإسلام، ولكن حال بينهم وبين ذلك، الخوف من تعيير أقوامهم لهم بأنهم فارقوا دين آبائهم وأجدادهم، كأبى طالب- مثلا- فإنه مع دفاعه عن الرسول ﷺ بقي على كفره.

قال الزمخشري: فإن قلت: قوله وَأَكْثَرُهُمْ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق؟ قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه، وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبى طالب.

فإن قلت: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه؟ قلت: يا سبحان الله. كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ﷺ حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس- رضى الله عنهما- ويخفى إسلام أبى طالب» ا.هـ.

ثم بين سبحانه بعد ذلك ما كان سينزل بالعالم من فساد. فيما لو اتبع الحق- على سبيل الفرض- أهواء هؤلاء المشركين، فقال تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ....

=

=

قوله تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)} [المؤمنون: ٧١]

أي: ولو شرع الله لهم ما يوافق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومَن فيهن، بل أتيناهم بما فيه عزهم وشرفهم، وهو القرآن، فهم عنه معرضون.

قوله تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ} [المؤمنون: ٧١]، أي:"ولو شرع الله لهم ما يوافق أهواءهم".

قال الطبري:"يقول: ولو عمل الربّ تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون".

قال مقاتل:"يعني: لو اتبع الله أهواء كفار مكة فجعل مع نفسه شريكا".

قال أبو صالح:"الحق: هو الله".

قال الفراء:"يقال: إن الحق هو الله. ويقال: إنه التنزيل، لو نزل بما يريدون".

قال الحسن:"لو كان الحق في أهوائهم".

قوله تعالى: {لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: ٧١]، أي:"لفسدت السموات والأرض ومَن فيهن".

قال مقاتل:"يعني: لهلكت {السماوات والأرض ومن فيهن} من الخلق".

قال الطبري:"وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحقّ، لم تقرّ السموات والأرض ومن فيهنّ من خلق الله، لأن ذلك قام بالحق".

قال الحسن:"لوقعت أهواؤهم على هلاك السموات والأرض ومن فيهن".

قوله تعالى: {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ} [المؤمنون: ٧١]، أي:"بل أتيناهم بما فيه عزهم وشرفهم، وهو القرآن".

=

=

وفي قوله تعالى: {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ} [المؤمنون: ٧١]، أقوال:
أحدها: عنى ببيان الحق لهم، قاله ابن عباس.
قال قتادة: القرآن".
الثاني: بشرفهم، لأن الرسول -ﷺ- منهم. والقرآن بلسانهم، قاله السدي، وسفيان، ويحي بن سلام، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج.
قال مقاتل:"يعنى: بشرفهم، يعنى: القرآن".
قال يحيى:"بشرفهم، شرف لمن آمن به".
قال القاسم بن سلام:"يعني: بشرفهم بلغة قريش".
قال الزجاج:"أي: بما فيه فخرهم وشرفهم".
قال الطبري:"وهذان القولان متقاربا المعنى؛ وذلك أن الله جل ثناؤه أنزل هذا القرآن بيانا بين فيه ما لخلقه إليه الحاجة من أمر دينهم، وهو مع ذلك ذكر لرسوله ﷺ وقومه وشرف لهم".
الثالث: بالذكر الذي فيه حظ لهم لو اتبعوه. ذكره الزجاج.
الرابع: بذكر ما عليهم من طاعة ولهم من جزاء. أفاده الماوردي.
قوله تعالى: {فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٧١]، أي:"فهم عن القرآن معرضون".
قال الصابوني:"أي: فهم معرضون عن هذا القرآن العظيم وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزُّهم، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيمًا للقرآن".
والمراد بالحق هنا- عند كثير من المفسرين- هو الله- ﷻ إذ أن هذا اللفظ من أسمائه تعالى.
والمعنى: ولو أجاب الله تعالى هؤلاء المشركين إلى ما يهوونه ويشتهونه من باطل وقبيح. لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لأن أهواءهم الفاسدة من شرك.
=

=

وظلم، وحقد، وعناد ...، لا يمكن أن يقوم عليها نظام هذا الكون البديع، الذي أقمناه على الحق والعدل ...

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحق هنا ما يقابل الباطل ويدل على ذلك قوله تعالى: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ.

فيكون المعنى: ولو اتبع الحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ أهواء المشركين، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك لأن الرسول ﷺ جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك، وجاءهم بمكارم الأخلاق، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات، وجاءهم بالتشريعات العادلة الحكيمة، وهم يريدون التشريعات التي ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة، والتي منها تفضيل الناس بحسب أحسابهم وغناهم، لا بحسب إيمانهم وتقواهم ...

قال ابن عاشور: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) عطف هذا الشرط الامتناعي على جملة وأكثرهم للحق كارهون [المؤمنون: ٧٠] زيادة في التشنيع على أهوائهم فإنها مفضية إلى فساد العالم ومن فيه وكفى بذلك فظاعة وشناعة، والحق هنا هو الحق المتقدم في قوله: بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون [المؤمنون: ٧٠] وهو الشيء الموافق للوجود الواقعي ولحقائق الأشياء. وعلم من قوله ولو اتبع الحق أهواءهم أن كراهة أكثرهم للحق ناشئة عن كون الحق مخالفا أهواءهم فسجل عليهم أنهم أهل هوى والهوى شهوة ومحبة لما يلائم غرض صاحبه، وهو مصدر بمعنى المفعول. وإنما يجري الهوى على شهوة دواعي النفوس أعني شهوات الأفعال غير التي تقتضيها الجبلة، فشهوة الطعام والشراب ونحوهما مما تدعو إليه الجبلة ليست من الهوى وإنما الهوى شهوة ما لا تقتضيه الفطرة كشهوة الظلم وإهانة الناس، أو شهوة ما تقتضيه الجبلة لكن يشتهى على كيفية وحالة لا تقتضيها الجبلة لما يترتب

=

=

على تلك الحالة من فساد وضر مثل شهوة الطعام المغصوب وشهوة الزنا، فمرجع معنى الهوى إلى المشتهى الذي لا تقتضيه الجبلة.
والاتباع: مجاز شائع في الموافقة، أي لو وافق الحق ما يشتهونه.
ومعنى موافقة الحق الأهواء أن تكون ماهية الحق موافقة لأهواء النفوس. فإن حقائق الأشياء لها تقرر في الخارج سواء كانت موافقة لما يشتهيه الناس أم لم تكن موافقة له فمنها الحقائق الوجودية وهي الأصل فهي متقررة في نفس الأمر مثل كون الإله واحدا، وكونه لا يلد، وكون البعث واقعا للجزاء، فكونها حقا هو عين تقررها في الخارج.
ومنها الحقائق المعنوية وهي الموجودة في الاعتبار فهي متقررة في الاعتبارات.
وكونها حقا هو كونها جارية على ما يقتضيه نظام العالم مثل كون الوأد ظلما، وكون القتل عدوانا، وكون القمار أخذ مال بلا حق لآخذه في أخذه، فلو فرض أن يكون الحق في أضداد هذه المذكورات لفسدت السماوات والأرض وفسد من فيهن، أي من في السماوات والأرض من الناس.
ووجه الملازمة بين فساد السماوات والأرض وفساد الناس وبين كون الحق جاريا على أهواء المشركين في الحقائق هو أن أهواءهم شتى فمنها المتفق، وأكثرها مختلف، وأكثر اتفاق أهوائهم حاصل بالشرك، فلو كان الحق الثابت في الواقع موافقا لمزاعمهم لاختلت أصول انتظام العوالم.
فإن مبدأ الحقائق هو حقيقة الخالق تعالى، فلو كانت الحقيقة هي تعدد الآلهة لفسدت العوالم بحكم قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] وقد تقدم تفصيله في سورة الأنبياء. وذلك أصل الحق وقوامه وانتقاضه انتقاض لنظام السموات والأرض كما تقدم. وقد قال الله تعالى في هذه السورة ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله [المؤمنون: ٩١] الآية، فمن هواهم الباطل أن جعلوا

=

=

من كمال الله أن يكون له ولد.

ثم ننتقل بالبحث إلى بقية حقائق ما جاء به الرسول ﷺ من الحق لو فرض أن يكون الثابت نقيض ذلك لتسرب الفساد إلى السموات والأرض ومن فيهن. فلو فرض عدم البعث للجزاء لكان الثابت أن لا جزاء على العمل فلم يعمل أحد خيرا إذ لا رجاء في ثواب. ولم يترك أحد شرا إلا إذ لا خوف من عقاب فيغمر الشر الخير والباطل الحق وذلك فساد لمن في السموات والأرض قال تعالى: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥].

وكذا لو كان الحق حسن الاعتداء والباطل قبح العدل لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع فهلك الضرع والزرع قال تعالى: وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد [البقرة: ٢٠٥]، وهكذا الحال في أهوائهم المختلفة. ويزيد أمرها فسادا بأن يتبع الحق كل ساعة هوى مخالفا للهوى الذي اتبعه قبل ذلك فلا يستقر نظام ولا قانون.

وهذا المعنى ناظر إلى معنى قوله تعالى: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقوله سبحانه: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ انتقال من توبيخهم على كراهيتهم للحق، إلى توبيخهم على نفورهم مما فيه عزهم وفخرهم.

والمراد بذكرهم: القرآن الذي هو شرف لهم، كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ.

أي: كيف يكرهون الحق الذي جاءهم به رسولهم ﷺ مع أنه قد أتاهم بالقرآن الكريم الذي فيه شرفهم ومجدهم؟ إن إعراضهم عن هذا القرآن ليدل دلالة قاطعة، على غبائهم، وجهلهم، لأن العاقل لا يعرض عن شيء يرفع منزلته، ويكرم ذاته.

=

=

ثم انتقلت السورة الكريمة- للمرة الخامسة- إلى توبيخهم على كفرهم، مع أن الرسول ﷺ لم يسألهم أجرا على ما ينقذهم من ظلمات هذا الكفر إلى نور الإيمان. فقال تعالى: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا.. أى: أجرا وجعلا وجزاء ...

قوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا} [المؤمنون: ٧٢]، أي:"أم تسألهم يا محمد أجرًا على تبيلغ الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون".

قال الحسن: "أجرا".

قال مقاتل:"أجرا على الإيمان بالقرآن".

قال الفراء:"يقول: على ما جئت به، يريد: أجرا".

قال ابن قتيبة:"أي: خراجا، فهم يستثقلون ذلك".

قال أبو عبيدة:"أي: إتاوة وغلّة كخرج العبد إلى مولاه، أو الرعية إلى الوالي. والخرج أيضا من السحاب، ومنه يرى اشتقّ هذا أجمع، قال أبو ذؤيب:

إذا همّ بالإقلاع هبّت له الصّبا... وأعقب نوء بعدها وخروج

قال ابو عمرو الهذلي: إنما سمى خروجا الماء الذي يخرج منه".

قال الطبري: المعنى:"أم تسأل هؤلاء المشركين يا محمد من قومك أجرا على ما جئتهم به من عند الله من النصيحة والحقّ".

قال الصابوني:"وفي هذا تشنيعٌ عليهم لعدم الإيمان فمحمد لا يطلب منهم أجرًا فيلماذا إِذًا يكذبونه ويعادونه؟".

قوله تعالى: {فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ} [المؤمنون: ٧٢]، أي:"رزق الله وعطاؤه خيرٌ لك يا محمد".

قال ابن قتيبة:"أي: رزقه".

قال الطبري: يقول:"فأجر ربك على نفاذك لأمره، وابتغاء مرضاته خير لك من ذلك، ولم يسألهم ﷺ على ما أتاهم به من عند الله أجرا، قال لهم كما قال الله له،

=

=

وأمره بقيله لهم: {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}".

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [المؤمنون: ٧٢]، أي:"وهو تعالى أفضلُ من أعطى ورزق".

قال الطبري:"يقول: والله خير من أعطى عوضا على عمل ورزق رزقا".

قال السدي:"{وهو خير} أفضل {الرازقين}".

عن عثمان بن حيان، عن أم الدرداء قالت: ما بال أحدكم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء دنانير ولا دراهم، وإنما يرزق بعضكم من بعض، فمن ساق الله إليه رزقا فليقبله، وإن لم يكن إليه محتاجا فليعطه في أهل الحاجة من إخوانه، وإن كان محتاجا استعان به على حاجته، ولا يرد على الله رزقه الذي رزقه".

عن عمران القصير، قال: "لقيت مكحولا بمكة، فأعطاني شيئا فانقبضت عنه فقال: خذه فإني سأحدثك فيه بحديث. فقلت: حدثني به فإنه أحب إلي منه. فقال: أعطى رسول الله عمر شيئا، فكأنه انقبض عن أخذه، فقال له رسول الله: «إذا أتاك الله بشيء لم تطلبه ولم تعرض له فخذه، فإن كنت محتاجا إليه فأنفقه، وإن لم تكن إليه محتاجا فضعه في أهل الحاجة»".

عن قبيصة بن ذؤيب:"أن عمر بن الخطاب دفع إلى عبد الله بن سعد، رجل من قريش، ألف دينار، فقال: لا إرب لي بها يا أمير المؤمنين، ستجد من هو أحوج إليها مني. فقال خذها، فإنما قلت لي كما قلت لرسول الله ﷺ فقال: «يا عمر، ما أتاك من عطاء غير مشرفة له نفسك ولا سائلة فاقبله»".

أى: أيكون السبب في عدم إيمانهم بك- أيها الرسول الكريم- أنك تسألهم أجرا على دعوتك لهم إلى إخلاص العبادة لنا؟.

لا: ليس الأمر كما يتوهمون، فإنك لم تسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى

=

=

الدخول في الإسلام.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله تعالى قبل ذلك أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ..

وما بينهما اعتراض وقوله سبحانه: فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ تعليل لنفى سؤاله إياهم الأجر على دعوتهم إلى الحق.

أى: أنت- أيها الرسول الكريم- ما طالبتهم بأجر على دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده، لأن ما أعطاك الله تعالى من خير وفضل أكبر وأعظم من عطاء هؤلاء الضعفاء الذين لا يستغنون أبدا عن عطائنا. والله تعالى هو خير الرازقين، لأن رزقه دائم ورزق غيره مقطوع، ولأنه هو المالك لجميع الأرزاق، وغيره لا يملك معه شيئا.

قال بعض العلماء: المراد بالخرج والخراج هنا. الأجر والجزاء والمعنى: أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيرى الدنيا والآخرة أجرا وأصل الخرج والخراج: هو ما تخرجه إلى كل عامل في مقابلة أجرة أو جعل.

وقرأ ابن عامر: أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير- بإسكان الراء فيهما معا وحذف الألف-.

وقرأ حمزة والكسائي: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ- بفتح الراء بعدها ألف فيهما معا وقرأ الباقون: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ بإسكان الراء وحذف الألف في الأول وفتح الراء وإثبات الألف في الثاني.

والتحقيق: أن معنى اللفظين واحد، وأنهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، خلافا لمن زعم أن بين معناهما فرقا زاعما أن الخرج ما تبرعت به، وأن الخراج ما لزمك أداؤه».

ثم ختم سبحانه هذه الآيات الكريمة، ببيان أن الرسول ﷺ لا يدعو إلا إلى الحق، وأن المعرضين عن دعوته عن طريق الحق خارجون، فقال تعالى وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ

=

=

إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ....

قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)} [المؤمنون: ٧٣]

أي: وإنك - أيها الرسول - لتدعو قومك وغيرهم إلى دينٍ قويم، وهو دين الإسلام.

عن مجاهد، {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: " يعني: الإسلام: الدين الحق".

قال يحيى:"إلى دين مستقيم، وهو الطريق إلى الجنة".

قال السمعاني:"أي: إلى دين الحق".

قال البغوي: "وهو الإسلام".

قال القرطبي:"أي: إلى دين قويم. والصراط في اللغة الطريق، فسمي الدين طريقا لأنه يؤدي إلى الجنة فهو طريق إليها".

قال الطبري: يقول:"وإنك يا محمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى دين الإسلام، وهو الطريق القاصد والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه".

عن ابن عباس؛:"أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أمته، كمثل قوم سُفْر انتهوا إلى رأس مَفَازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينا هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق، فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه، فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لنتبعه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه" وفي إسناده

=

=

ضعف.

أى: وإنك- أيها الرسول الكريم- لتدعو هؤلاء المشركين إلى طريق واضح قويم، تشهد العقول باستقامته وسلامته من أى عوج.

وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ككفار قريش ومن لف لفهم عَنِ الصِّراطِ المستقيم لَناكِبُونَ أى: لمائلون وخارجون.

قوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [المؤمنون: ٧٤]، أي:"وإن الذين لا يُصَدِّقون بالبعث والحساب، ولا يعملون لهما".

قال السدي:"يعني: بالبعث يوم القيامة".

قال الواحدي:"بالبعث والثواب والعقاب".

قال الطبري: يقول:"والذين لا يصدّقون بالبعث بعد الممات، وقيام الساعة، ومجازاة الله عباده في الدار الآخرة".

قوله تعالى: {عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ} [المؤمنون: ٧٤]، أي:"هؤلاء عن طريق الدين القويم لمائلون إلى غيره".

قال ابن قتيبة:"أي: عادلون، يقال: نكب عن الحق: أي عدل عنه".

قال الزجاج:"معناه: لعادلون عن القصد".

قال الطبري: " يقول: عن محجة الحق وقصد السبيل، وذلك دين الله الذي ارتضاه لعباده العادلون. يقال منه: قد نكب فلان عن كذا: إذا عدل عنه، ونكب عنه: أي عدل عنه".

عن ابن عباس في قوله: " {عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}، قال: العادلون".

قال ابن عباس:"يقول: عن الحقّ عادلون".

عن قتادة: {عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}، قال: " لجائرون".

وقال الحسن: "تاركون له".

=

قال السعدي: أي:"متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات. وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفا في جميع أموره، قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ} [القصص: ٥٠]".

قال الزمخشري: يعني:"أن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب".

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إني ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم على الحوض، فتردون علي معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أي رب، قومي، أي رب أمتي. فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رُغَاء، ينادي: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة، فينادي: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من أدم، ينادي: يا محمد، يا محمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت".

يقال: نكب فلان عن الطريق ينكب نكوبا- من باب دخل-، إذا عدل عنه. ومال إلى غيره.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة. قد شهدت للرسول ﷺ بالبراءة من كل تهمة تفوه بها المشركون، وقطعت معاذيرهم، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم، حيث

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥).

{وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرّ} أَيْ جُوع أَصَابَهُمْ بِمَكَّة سَبْع سِنِينَ {لَلَجُّوا} تَمَادَوْا {فِي طُغْيَانهمْ} ضَلَالَتهمْ {يَعْمَهُونَ} يَتَرَدَّدُونَ.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦).

{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ} الْجُوع {فَمَا اسْتَكَانُوا} تَوَاضَعُوا {لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} يَرْغَبُونَ إِلَى الله بِالدُّعَاءِ.

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧).

{حَتَّى} ابْتِدَائِيَّة {إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا} صَاحِب {عَذَاب شَدِيد} هُوَ يَوْم بَدْر بِالْقَتْلِ {إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} آيِسُونَ مِنْ كُلّ خَيْر[1].

=

حكت شبهاتهم بأمانة ثم كرت عليها بالإبطال، وأثبتت أن الرسول ﷺ إنما جاءهم ليدعوهم إلى الصراط المستقيم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أنشدك الله والرحم؛ فقد أكلنا العلهز؛ يعني: الوبر والدم؛ فأنزل الله عز وجل: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)}.

وفي لفظ: قال ابن عباس: لما أتى ثمامة بن أثال الحنفي إلى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير، فخلى سبيله، فلحق باليمامة، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من يمامة، وأخذ الله -تعالى- قريشًا بسني الجدب؛ حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، فقال: أنشدكم الله والرحم إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؛ قال: "بلى"، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

=

=

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٩٨، ٩٩ رقم ٣٧٢)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ رقم ١٢٠٣٨)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٥٣ - موارد)، والطبري في "جامع البيان" (١٨/ ٣٤)، والحربي في "غريب الحديث" (٢/ ٧٢٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٢٦٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢١٠، ٢١١)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٩٤) جميعهم من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس.

وهذا إسناد صحيح. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في "المجمع" (٧/ ٧٣): "رواه الطبراني؛ وفيه علي بن الحسين بن واقد، وثقه النسائي، وضعفه أبو حاتم". لكنه قد توبع. وحسّنه الحافظ في "الفتح" (٦/ ٥١٠).

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٨/ ٣٤)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ٢٩١، ٢٩٣ رقم ١٣٩٢)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ٨١) من طريق ابن حميد عن يحيى بن واضح عن عبد المؤمن بن خالد الحنفي عن علباء بن أحمر عن عكرمة به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ ابن حميد متروك متهم، وباقي رجاله موثقون.

* قوله تعالى: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ} [المؤمنون: ٧٥]، أي:"ولو رحمناهم وكشفنا عنهم ما بهم مِن قحط وجوع".

قال الطبري: " يقول تعالى: ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب وضرّ الجوع والهزال".

قال الزمخشري:"المعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب".

=

=

عن ابن جُرَيج، قوله: " {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ}، قال: الجوع".
وقال القرطبي:"أي لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم".
قوله تعالى: {لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [المؤمنون: ٧٥]، أي:"لَتمادوا في الكفر والعناد، يتحيَّرون ويتخبطون".
قال الطبري: " يعني: في عتوّهم وجرأتهم على ربهم يتردّدون".
قال السمعاني:"أي: مضوا في طغيانهم يعمهون، ولم ينزعوا عنه".
قال الزمخشري:"لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه".
قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أراح عللهم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٧ - ٢٩]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون".
قال السعدي:"هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين. كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعون مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بالشرك وغيره".
وفي الآية بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن

=

=

يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

أى: ولو رحمنا هؤلاء المشركين الذين تنكبوا الصراط المستقيم وكشفنا ما بهم من ضر.

أى: من سوء حال بسبب ما نزل بهم من قحط وجدب وفقر لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أى: لتمادوا في طغيانهم، وتجاوزوا الحدود في كفرهم وضلالهم، وفي تحيرهم وترددهم بدون تمييز بين الحق والباطل.

قوله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)} [المؤمنون: ٧٦]

عن ابن عباس: "أن ابن أثال الحنفي، لما أتى النبيّ ﷺ وهو أسير، فخلى سبيله، فلحق بمكة، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة، حتى أكلت قريش العِلْهِز، فجاء أبو سفيان إلى النبيّ ﷺ، فقال: أليس تزعم بأنك بُعثت رحمة للعالمين؟ فقال: "بلى! " فقال: قد قتلتَ الآباء بالسيف والأبناء بالجوع! فأنزل الله: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ... }، الآية". أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٣٤)، والنسائي في تفسيره (٣٧٢)، وفي سننه الكبرى (١١٣٥٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٠ رقم ١٢٠٣٨)، وابن حبان (٩٦٧) والحاكم (٢/ ٤٢٨)، والحربي في غريب الحديث (٢/ ٧٢٧) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٥١٠)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الموارد (١٤٦٩)، وقال الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٥٩): رجاله ثقات إلا شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي فإنه ضعيف لكن الحديث قد جاء من طرق غير هذا الطريق وهو بمجموع طرقه إلى الحسين

=

=

بن واقد صحيح لغيره، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٥٣٩): إسناده صحيح.

وأصل هذا الحديث في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ} [المؤمنون: ٧٦]، أي:"ولقد ابتليناهم بصنوف المصائب".

قال الطبري: يقول:"ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا، وسخطنا وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف".

قال ابن كثير:"أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد".

قال الزجاج:"الذي أخذوا به: الجوع".

عن ابن جُرَيج، قوله: " {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ} ، قال: الجوع والجدب".

قال الزمخشري: يعني:"بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم".

قوله تعالى: {فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ} [المؤمنون: ٧٦]، أي:"فما خضعوا لربهم".

قال الطبري:"يقول: فما خضعوا لربهم فينقادوا لأمره ونهيه، وينيبوا إلى طاعته".

قال السمعاني:"أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، والاستكانة طلب السكون".

قال ابن كثير:"أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. {فَمَا اسْتَكَانُوا} أي: ما خشعوا".

قوله تعالى: {وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} [المؤمنون: ٧٦]، أي:"وما دعوه خاشعين عند نزول المصائب".

قال الطبري:"يقول: وما يتذللون له".

قال الزجاج:"أي: ما تواضعوا".

=

=

قال السمعاني:"أي: لم يتضرعوا إلى ربهم، بل مضوا إلى عتوهم وتمردهم".

قال ابن كثير:"أي: ما دعوا، كما قال تعالى: {فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٣]".

قال الحسن: إذا أصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار، وتضرعوا إلى الله، وقرأ هذه الآية: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}".

عن وهب بن عمر بن كيسان قال: "حُبِس وهب بن مُنَبِّه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحَدَث لنا فأحدثنا. يعني: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة".

وقال البغوي: " وذلك أن النبي ﷺ دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وقال: أنشدك الله والرحم، ألستَ تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ) أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) أي لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم".

وقال ابن عطية: " هذا إخبار من الله تعالى عن استكبارهم وطغيانهم بعد ما نالهم من الجوع هذا قول روي عن ابن عبَّاسٍ وابن جريج أن العذاب هو الجوع والجدب المشهور نزوله بهم حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها".

قال السعدي: قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم ولا نجح منهم

=

=

أحد، فما خضعوا وذلوا بل مر عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يصبهم لم يزالوا في غيهم وكفرهم) اهـ بتصرف يسير.

وقال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أخذ الكفار بالعذاب والظاهر أنه هنا العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب والأمراض والشدائد فما خضعوا له ولا ذلوا (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) أي ما يبتهلون إليه بالدعاء متضرعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب لشدة قسوة قلوبهم وبعدهم من الاتعاظ، ولو كانوا متصفين بما يستوجب ذلك من إصابة عذاب الله لهم ا.هـ

والتعبير بقوله تعالى لَلَجُّوا يشعر بأنهم لقسوة قلوبهم، صاروا لا تؤثر فيهم المصائب بل يزدادون بسببها طغيانا وكفرا، إذ الفعل «لجوا» مأخوذ من اللجاج. هو التمادي والعناد في ارتكاب المنهي عن ارتكابه.

يقال: لج فلان في الأمر يلج لجا ولجاجة. إذا لازمه وواظب عليه. ومنه «اللّجة» - بفتح اللام- لكثرة الأصوات. ولجة البحر - بضم اللام- لتردد أمواجه..

وقوله: يَعْمَهُونَ من العمه، بمعنى التردد والتحير، وهو للقلوب بمنزلة العمى للعيون.

وهو مأخوذ من قولهم: أرض عمهاء، إذا لم يكن فيها علامات ترشد إلى الخروج منها.

وقوله سبحانه: وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ مؤكد لما قبله من وصف هؤلاء المشركين بالجحود والعناد.

والمراد بالعذاب هنا: العذاب الدنيوي كالجوع والقحط والمصائب.

والاستكانة: الانتقال من كون إلى كون ومن حال إلى حال. ثم غلب استعمال هذه الكلمة في الانتقال من حال التكبر والغرور إلى حال التذلل والخضوع.

أى: ولقد أخذنا هؤلاء الطغاة، بالعذاب الشديد، كالفقر، والمصائب والأمراض

=

=

فما خضعوا لربهم- ﷻ وما انقادوا له وأطاعوه، وما تضرعوا إليه سبحانه بالدعاء الخالص لوجهه الكريم، لكي يكشف عنهم- ﷻ ما نزل بهم من ضر.

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ} [المؤمنون: ٧٧]، أي:"حتى إذا فتحنا عليهم بابًا من العذاب الشديد في الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ} [المؤمنون: ٧٧]، أربعة أقوال:

أحدها: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم باب المجاعة والضر، وهو الباب ذو العذاب الشديد. وهذا قول مجاهد، وابن قتيبة.

الثاني: أنه قتلهم بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس، وابن جريج.

الثالث: أنه فتح مكة. قاله السدي.

الرابع: يعني: بابًا من عذاب جهنم في الآخرة، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

قال الطبري:"وقول الذي قاله مجاهد: أولى بتأويل الآية، لصحة الخبر الذي ذكرناه قبل عن ابن عباس، أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في قصة المجاعة التي أصابت قريشا؛ بدعاء رسول الله ﷺ عليهم، وأمر ثمامة بن أثال، وذلك لا شك أنه كان بعد وقعة بدر".

قوله تعالى: {إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} [المؤمنون: ٧٧]، أي:"إذا هم فيه آيسون من كل خير، متحيرون لا يدرون ما يصنعون".

قال مقاتل:"يعني: آيسين من الخير والرزق".

قال ابن قتيبة:"أي: يائسون من كل خير".

=

=

قال السمعاني:"أي: متحيرون آيسون".

قال ابن كثير:"فعند ذلك أبْلَسُوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم".

قال القرطبي:"أي: يأيسون متحيرون لا يدرون ما يصنعون، كالآئس من الفرج ومن كل خير".

قال الطبري:"يقول: إذا هؤلاء المشركون فيما فتحنا عليهم من العذاب حزنى نادمون على ما سلف منهم، في تكذيبهم بآيات الله، في حين لا ينفعهم الندم والحزن".

ولفظ «حتى» في قوله تعالى حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بابًا ذا عَذابٍ شَدِيدٍ ...

يقصد به ابتداء الكلام، وإذا الأولى شرطية، والثانية وهي قوله إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ رابطة للجواب.

أى: هم مستمرون على جحودهم وعنادهم، حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد، من أبواب عذاب الآخرة المعد لهم إذا هم فيه مبلسون، أى: ساكتون من شدة الحيرة، وآيسون من كل نجاء. يقال: أبلس فلان إبلاسا، إذا سكت في حيرة ويأس من الخلاص مما هو فيه من عذاب وبلاء.

وقريب من هذه الآيات في المعنى قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ.

وقوله- ﷻ: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ.

وقوله سبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا، وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ

=

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨).

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ} خَلَقَ {لَكُمْ السَّمْع} بِمَعْنَى الْأَسْمَاع {وَالْأَبْصَار وَالْأَفْئِدَة} الْقُلُوب {قَلِيلًا مَا} تَأْكِيد لِلْقِلَّةِ {تشكرون}.

وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩).

{وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ} خَلَقَكُمْ {فِي الْأَرْض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} تبعثون.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠).

{وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي} بِنَفْخِ الرُّوح فِي الْمُضْغَة {وَيُمِيت وَلَهُ اخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار} بِالسَّوَادِ وَالْبَيَاض وَالزِّيَادَة وَالنُّقْصَان {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} صُنْعه تَعَالَى فَتَعْتَبِرُونَ(١).

=

الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [المؤمنون: ٧٨]، أي:"وهو الذي أنشأ لكم السمع لإدراك المسموعات، والأبصار لإدراك المرئيات، والأفئدة لتفقهوا بها".

قال الطبري: يقول:"والله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يوجد ذلك كله إذا شاء، ويفنيه إذا أراد".

قال السمعاني:"{السمع} أي: الأسماع لتسمعوا، وهذا واحد بمعنى الجمع. وقوله: {والأبصار} أي: لتبصروا. وقوله: {والأفئدة} لتعقلوا".

قال ابن كثير:"ثم ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم، التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون

=

=

من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء".

قال الزمخشري:"إنما خصّ السمع والأبصار والأفئدة، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها. ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم. ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله تعالى: {فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ} إذ كانوا يجحدون بآيات الله".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [المؤمنون: ٧٨]، أي:"ومع ذلك فشكركم لهذه النعم المتوالية عليكم قليل لا يُذْكَر".

قال الطبري: " يقول: تشكرون أيها المكذّبون خير الله من عطائكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا".

قال ابن كثير:"أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]".

قال السمعاني:"أي: لم تشكروا هذه النعم".

قال القرطبي:"أي: ما تشكرون إلا شكرا قليلا. وقيل: أي لا تشكرون البتة".

قال يحيى:"أقلكم من يشكر، أي يؤمن".

قال الزمخشري:"مقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك، أي: تشكرون شكرا قليلا، و «ما» مزيدة للتأكيد، بمعنى: حقا".

قال السعدي: " يخبر تعالى بمننه على عباده الداعية لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ} لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، {وَالأبْصَارَ} لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم، {وَالأفْئِدَةَ} أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم؟

=

=

وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟. ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم".

ولو تدبر الإنسان هذه النعم حق التدبر: لاهتدى إلى الحق. ولآمن بأن الخالق لهذه الحواس وغيرها. هو الله الواحد القهار.

ولكن الإنسان- إلا من عصم الله- قليل الشكر لله تعالى ولذا قال سبحانه: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أى: شكرا قليلا ما تشكرون هذه النعم الجليلة، بدليل أن أكثر الناس في هذه الحياة، كافرون بوحدانية الله تعالى.

فلفظ «قليلا» صفة لموصوف محذوف، و «ما» لتأكيد هذه القلة وتقريرها.

قال ابن عاشور: هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة، وذلك قد انتقل عنه من قوله عليها وعلى الفلك تحملون

[المؤمنون: ٢٢] فانتقل إلى الاعتبار بآية فلك نوح عليه السلام فأتبع بالاعتبار بقصص أقوام الرسل عقب قوله تعالى: عليها وعلى الفلك تحملون

[المؤمنون: ٢٢] فالجملة إما معطوفة على جملة وإن لكم في الأنعام لعبرة

[المؤمنون: ٢١] والغرض واحد وما بينهما انتقالات.

وإما مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه [المؤمنون: ٢٣].

وفي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطوالهم.

وسماه السكاكي: قرى الأرواح. وجعله من آثار كرم العرب.

=

=

وقوله: وهو الذي أنشأ لكم السمع تذكير بوحدانية الله تعالى.
والأظهر أن يكون ضمير الجلالة مسندا واسم الموصول مسندا إليه لأنهم علموا أن منشئا أنشأ لهم السمع والأبصار، فصاحب الصلة هو الأولى بأن يعتبر مسندا إليه وهم لما عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنه الذي أنشأ لهم السمع فأتى لهم بكلام مفيد لقصر القلب أو الإفراد، أي الله الذي أنشأ ذلك دون أصنامكم. والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات، أو لجميع الناس، أو للمسلمين، والمقصود منه التعريض بالمشركين. والإنشاء: الإحداث، أي الإيجاد.
وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد أصحابها. وأما إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأن أصل السمع أنه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلقات فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفرد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات.
وانتصب قليلا على الحال من ضمير لكم. وما مصدرية. والتقدير: في حال كونكم قليلا شكركم. فإن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة. وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كل شكر نعمة وهو قليل بالنسبة لقلة عدد الشاكرين، لأن أكثر الناس مشركون كما قال تعالى: ولا تجد أكثرهم شاكرين [الأعراف: ١٧]. وإن كان الخطاب للمسلمين والمقصود التعريض بالمشركين فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك ا.هـ
وقوله سبحانه: وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ بيان لنعمة أخرى من نعمه التي لا تحصى.
قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ} [المؤمنون: ٧٩]، أي:"وهو الذي
=

=

خلق جميع الناس في الأرض".

قال يحيى:"خلقكم في الأرض".

قال الطبري: يقول: " والله الذي خلقكم في الأرض".

قال السمعاني:"أي: خلقكم وأنشركم وكثركم في الأرض".

قال الزمخشري: أي: "خلقكم وبثكم بالتناسل".

قال ابن كثير:"ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في بَرْئة الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [المؤمنون: ٧٩]، أي:"وإليه تُحشرون بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم من خير أو شر".

قال السمعاني:"أي: تبعثون".

قال يحيى:"يوم القيامة".

قال الزمخشري: " {وَإِلَيْهِ} تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم".

قال القرطبي:"أي: تجمعون للجزاء".

قال الطبري: يقول:"وإليه تُحْشَرونَ من بعد مماتكم، ثم تبعثون من قبوركم إلى موقف الحساب".

قال ابن كثير:"ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما بدأه".

أى: وهو سبحانه الذي أوجدكم من الأرض، ونشركم فيها عن طريق التناسل، وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته فقال: وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ بدون أن يشاركه في ذلك مشارك، وَلَهُ وحده التأثير في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وزيادة

=

=

أحدهما ونقص الآخر، أَفَلا تَعْقِلُونَ وتدركون ما في هذا كله من دلائل واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} [المؤمنون: ٨٠]، أي:"وهو وحده الذي يحيي من العدم، ويميت بعد الحياة".

قال الطبري: يقول:"والله الذي يحيي خلقه، يقول: يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفا أمواتا، بنفخ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها، ويميتهم بعد أن أحياهم".

قال الواحدي:"يحيي الولد في الرحم فيولد حيا، ثم يميته".

قال ابن كثير:"أي: يحيي الرمم ويميت الأمم".

قوله تعالى: {وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [المؤمنون: ٨٠]، أي:"وله تعاقب الليل والنهار وتفاوتهما".

قال مقاتل:"توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون".

قال الفراء:"يقول: هو الذي جعلهما مختلفين، كما تقول في الكلام: لك الأجر والصلة، أي: إنك تؤجر وتصل".

قال الطبري: "يقول: وهو الذي جعل الليل والنهار مختلفين".

قال أبو الليث:"أي: ذهاب الليل ومجيء النهار".

قال السمعاني:"أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، ويقال: ومنه اختلاف الليل والنهار".

قال الزمخشري: " أي: هو مختص به وهو متوليه، ولا يقدر على تصريفهما غيره".

قال ابن كثير:"أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: {لا الشَّمْسُ

=

=

يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠]".

قال ابن فورك: أي:"مرورهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم كما يقال إذا أتى الرجل المكرام مرة بعد مرة هو يختلف إلى هذه الدار. وقيل: وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان".

قال القرطبي:"قيل: اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر. وقيل: اختلافهما في النور والظلمة. وقيل: تكررهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم. ويحتمل: اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى".

قال البيضاوي:"ويختص به تعاقبهما لا يقدر عليه غيره فيكون ردا لنسبته إلى الشمس حقيقة أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [المؤمنون: ٨٠]، أي:"أفلا تعقلون قدرته ووحدانيته؟".

قال مقاتل:"توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون".

قال الطبري: " يقول: أفلا تعقلون أيها الناس، أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه".

قال أبو الليث:"أفلا تعقلون أمر الله؟".

قال السمعاني:"معناه: أفلا تعقلون الآيات التي وضعتها فيها".

قال القرطبي:"كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه، وأنه قادر على البعث".

قال البيضاوي:"بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها".

=

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١).

{بل قالوا مثل ما قال الأولون} .

قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢).

=

قال ابن كثير:"أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء".

قال يحيى:"يقوله للمشركين يذكر نعمته عليهم، يقول: فالذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، ويحيي ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، قادر على أن يحيي الموتى".

وقرئ: «يعقلون»، بالياء، عن أبي عمرو، على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

قال ابن عاشور: هو على شاكلة قوله: وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار [المؤمنون: ٧٨].

والذرء: البث. وتقدم في سورة الأنعام [١٣٦]. وهذا امتنان بنعمة الإيجاد والحياة وتيسير التمكن من الأرض وإكثار النوع لأن الذرء يستلزم ذلك كله. وهذا استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالإلهية إذ قد علموا أنه لا شريك له في الخلق فكيف يشركون معه في الإلهية أصنافا هم يعلمون أنها لا تخلق شيئا. وهو أيضا استدلال على البعث لأن الذي أحيا الناس عن عدم قادر على إعادة إحيائهم بعد تقطع أوصالهم.

وقوبل الذرء بضده وهو الحشر والجمع، فإن الحشر يجمع كل من كان على الأرض من البشر. وفيه محسن الطباق.

والمقصود من هذه المقابلة الرد على منكري البعث، فتقديم المجرور في إليه تحشرون تعريض بالتهديد بأنهم محشورون إلى الله فهو يجازيهم.

{قالوا} أي الأولون {أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَبْعُوثُونَ} لَا وَفِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيق وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣).

{لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا} أَيْ الْبَعْث بَعْد الْمَوْت {مِنْ قَبْل إنْ} مَا {هَذَا إلَّا أَسَاطِير} أَكَاذِيب {الْأَوَّلِينَ} كَالْأَضَاحِيكِ وَالْأَعَاجِيب جَمْع أسطورة بالضم.

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤).

{قُلْ} لَهُمْ {لِمَنْ الْأَرْض وَمَنْ فِيهَا} مِنْ الْخَلْق {إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} خالِقهَا وَمَالِكهَا.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥).

{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ} لَهُمْ {أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ} بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الذَّال تَتَّعِظُونَ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى الْخَلْق ابْتِدَاء قَادِر عَلَى الْإِحْيَاء بعد الموت.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦).

{قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم} الكرسي.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧).

{سيقولون الله قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} تَحْذَرُونَ عِبَادَة غَيْره.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨).

{قل من بيده ملكوت} ملك {كل شيء} وَالتَّاء لِلْمُبَالَغَةِ {وَهُوَ يُجِير وَلَا يُجَار عَلَيْهِ} يحمي ولا يحمى عليه {إن كنتم تعلمون}.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩).

{سيقولون الله} وَفِي قِرَاءَة لِلَّهِ بِلَامِ الْجَرّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ نَظَرًا إلَى أَنَّ الْمَعْنَى مَنْ لَهُ مَا ذُكِرَ {قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} تُخْدَعُونَ وَتُصْرَفُونَ عَنْ الحق عبادة الله وَحْده أَيْ كَيْفَ تَخَيَّلَ لَكُمْ أَنَّهُ باطل[1].

---

(١) اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول في دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال: بل قالوا مثل ما قال الأولون في إنكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على أنهم إنما أنكروا ذلك تقليدا للأولين.

قال ابن عاشور: هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت. و (بل) للإضراب الإبطالي إبطالا لكونهم يعقلون. وإثبات لإنكارهم البعث مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد الآباء. والمعنى: أنهم لا يعقلون الأدلة لكنهم يتبعون أقوال آبائهم.

والكلام جرى على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لأن الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد فالضمير عائد إلى المخاطبين ا.هـ

قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١)} [المؤمنون: ٨١]

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة قالوا مثل قول الأمم الخالية".

قال الزمخشري: " أي: قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم".

قال الطبري: يقول: " ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله، ولا تدبروا ما احتجّ عليهم من الحجج والدلالة على قدرته، على فعل كلّ ما يشاء، ولكن قالوا مثل ما قال أسلافهم من الأمم المكذّبة رسلها قبلهم".

قال السمعاني:"معناه: كذبوا كما كذب الأولون".

قال الكلبي: "كذبت قريش بالبعث مثل ما كذب الأولون".

=

=

قال البيضاوي:"مثل ما قال الأولون آباؤهم ومن دان بدينهم".

قال القشيري:"سلكوا فى التكذيب مسلك سلفهم، وأسرفوا فى العناد مثل سرفهم، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم".

ولفظ «بل» في قوله تعالى: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ للإضراب الانتقالى. وهو معطوف على مضمر يقتضيه المقام.

أى: لقد سقنا لهم ألوانا من النعم، وسقنا لهم ما يدل على قدرتنا ومع ذلك فلم يؤمنوا.

بل قالوا مثل ما قال من هم على شاكلتهم في الكفر من الأقوام الأولين.

ثم حكى سبحانه ما قالوه فقال: قالُوا على سبيل التعجب والإنكار أَإِذا مِتْنا، وَكُنَّا تُرابًا وَعِظامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.

قوله تعالى: {قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)} [المؤمنون: ٨٢]

قال الطبري: يقول: أئذا متنا وعدنا ترابا قد بليت أجسامنا، وبرأت عظامنا من لحومنا إنا لمبعوثون من قبورنا أحياء، كهيئتنا قبل الممات؟ إن هذا لشيء غير كائن".

قال السمعاني:"أي: محشورون، وقالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب".

قال يحيى:"أي: وعدنا أن نبعث نحن وآباؤنا فلم نبعث، كقوله: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} [الدخان: ٣٦]".

قال البيضاوي:"[قالوا ذلك] استبعادا ولم يتأملوا إنهم كانوا قبل ذلك أيضا ترابا فخلقوا".

قال مقاتل:"قالوا ذلك تعجبا وجحدا وليس باستفهام".

قال ابن كثير:"يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى".

=

=

فهم يرون- لجهلهم وغبائهم- أنه من المستحيل أن يعادوا إلى الحياة بعد أن يموتوا ويصيروا ترابا وعظاما نخرة.

وهذا الذي قالوه هنا. قد حكى القرآن عنهم مثله في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

وقوله سبحانه: يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ أَإِذا كُنَّا عِظامًا نَخِرَةً قالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ.

ثم بين سبحانه أنهم لم يكتفوا بإنكارهم للبعث، بل أضافوا إلى ذلك سوء الأدب، والسخرية ممن يؤمن به فقال: لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ....

قوله تعالى: {لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ} [المؤمنون: ٨٣]، أي:"لقد قيل هذا الكلام لآبائنا من قبل، كما تقوله لنا يا محمد، فلم نره حقيقة".

قال الطبري: يقول: " قالوا: لقد وعدنا هذا الوعد الذي تعدنا يا محمد، وَوَعَد آباءنا من قبلنا قومٌ ذكروا أنهم لله رسل من قبلك، فلم نره حقيقة".

قال القشيري:"لما طال عليهم وقت الحشر، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنشر زاد ذلك فى ارتيابهم، وجعلوا ذلك حجة فى لبسهم واضطرابهم، فقالوا: لقد وعدنا مثل هذا نحن وآباؤنا، ثم لم يكن لذلك تحقيق، فما نحن إلا أمثالهم".

قوله تعالى: {إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٨٣]، أي:"ما هذا إلا أباطيل الأولين".

عن السدي، قوله: {إن هذا إلا أساطير الأولين}: أساجيع الأولين".

عن قتادة، قوله: " {أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم". وروي عن الضحاك نحو ذلك.

قال مقاتل:"إن هذا الذي يقول محمد- ﷺ إلا أحاديث الأولين وكذبهم".

=

=

قال يحيى:"كذب الأولين وباطلهم".

قال الطبري: " يقول: ما هذا الذي تعدنا من البعث بعد الممات {إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} يقول: ما سطره الأولون في كتبهم من الأحاديث والأخبار، التي لا صحة لها ولا حقيقة".

قال السمعاني:"أي: أكاذيب الأولين، ويقال: أسمار الأولين وأقاصيصهم، وقيل: ما سطره الأولون في كتبهم ولا حقيقة له".

قال ابن كثير:"يعنون: أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ. فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١١ – ١٤]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٧ – ٧٩]".

أى: لقد وعدنا على لسان هذا الرسول ﷺ بأن البعث حق، كما وعد آباؤنا قبل ذلك على ألسنة الرسل السابقين، ونحن لا نصدق هذا الرسول، ولا أولئك الرسل.

إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما هذا البعث الذي وعدنا جميعا به، إلا أساطير الأولين. أى: أكاذيبهم التي سطروها من عند أنفسهم في كتبهم.

والأساطير: جمع أسطورة، كأحدوثة، وأعجوبة، وأكذوبة.

وهكذا الجهلاء المغرورون، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب، بل يضيفون إلى ذلك سوء الأدب، وقبح المنطق، والقول بغير علم.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يرد على أباطيلهم، وأن يلزمهم بثلاث حجج، تدل على أن الله تعالى قادر على إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم.

=

=

أما الحجة الأولى فتتجلى في قوله سبحانه: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

قوله تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا} [المؤمنون: ٨٤]، أي:"قل لهم: لمن هذه الأرض ومَن فيها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المكذّبين بالآخرة من قومك: لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق".

قال القرطبي:"قال الله تعالى: {قل} يا محمد جوابا لهم عما قالوه {لمن الأرض ومن فيها}، يخبر بربوبيته ووحدانيته وملكه الذي لا يزول، وقدرته التي لا تحول".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ٨٤]، أي:"فيها إن كان لديكم علم؟".

قال مقاتل:"خلقهما".

قال الواحدي:"خالقها ومالكها".

قال الطبري:"إن كنتم تعلمون من مالكها؟".

قال الزمخشري:"أى: أجيبونى عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين".

أى: قل لهم- أيها الرسول الكريم- لمن هذه الأرض ملكا وتصرفا، ولمن هذه المخلوقات التي عليها، خلقا وتدبيرا، إن كنتم من أهل العلم والفهم؟ أو كنتم عالمين بذلك فأخبرونى من خالقهم؟ فجواب الشرط محذوف لدلالة الاستفهام عليه.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك، لأن بداهة العقل تضطرهم إلى أن يعترفوا بأن الأرض ومن فيها لله تعالى.

=

=
قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أى: قل لهم في الجواب على اعترافهم هذا، أتعلمون ذلك، فلا تتذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الناس بعد موتهم.

قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)} [المؤمنون: ٨٥]

أي: سيعترفون حتمًا بأنها لله، هو خالقها ومالكها، قل لهم: ألا يكون لكم في ذلك تذكُّر بأنه قادر على البعث والنشور؟

قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٥]، أي:"سيعترفون حتمًا بأنها لله، هو خالقها ومالكها".

قال الطبري:"ثم أعلمه أنهم سيقرّون بأنها لله ملكا، دون سائر الأشياء غيره".

قال الواحدي:"أي: يقرون بأنها مخلوقة له".

قال السمعاني:"يعني: هو ملك لله وملكه".

قال القرطبي:"ف {سيقولون لله}، ولا بد لهم من ذلك".

قوله تعالى: {قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [المؤمنون: ٨٥]، أي:"قل لهم: ألا يكون لكم في ذلك تذكُّر بأنه قادر على البعث والنشور؟".

قال السمعاني:"أي: تتعظون".

قال مقاتل:"في توحيد الله ﷻ فتوحدونه".

قال الواحدي: أي: "تتفكرون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الموتى".

قال الطبري:"يقول: فقل لهم إذا أجابوك بذلك كذلك أفلا تذكرون، فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم وإعادتهم خلقا سويا بعد فنائهم".

قال الزمخشري:"معناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعا، كان قادرا على إعادة الخلق، وكان حقيقا بأن لا يشرك به بعض خلقه في
=

=

الربوبية".

قال القرطبي:"أي: أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر".

وأما الحجة الثانية فهي قوله سبحانه: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ} وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت {وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله. قل لهم حين يقرون بذلك: {أَفَلا تَتَّقُونَ} عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان.

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦)} [المؤمنون: ٨٦]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد: من ربّ السماوات السبع، وربّ العرش المحيط بذلك؟".

قال السمعاني:"{الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، أي: السرير الضخم".

قال كعب:"إن السموات في العرش كالقنديل معلق بين السماء والأرض".

قال مجاهد:"السماوات والأرض عند العرش إلا كحلقة في أرض فلاة".

قال ابن عباس:"العرش لا يقدر أحد قدره".

قال ابن عباس:"إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه".

قال سعد الطائي:"العرش ياقوتة حمراء".

قال وهب بن منبه:"إن الله خلق العرش من نوره".

قوله: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)} [المؤمنون: ٨٧]

قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٧]، أي:"سيقولون حتمًا: هي ملك

=

=

لله".

قال الطبري:"سيقولون: ذلك كله لله، وهو ربه".

وقرأ ابو عمرو: «سَيَقُولُونَ الله».

قال السمعاني:"أما قوله تعالى: «سيقولون الله» هذا راجع إلى اللفظ، فالمعنى كالرجل يقول لغيره: من مالك هذا الدار؟ فيقول: زيد.

وأما قوله: {سيقولون لله} يرجع إلى المعنى دون اللفظ، كما يقول القائل لغيره: من مالك هذه الدار؟ فيقول: هي لزيد".

قوله تعالى: {قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [المؤمنون: ٨٧]، أي:"فقل لهم: أفلا تخافون عذابه إذا عبدتم غيره؟".

قال الطبري:"فقل لهم: أفلا تتقون عقابه على كفركم به وتكذيبكم خبره وخبر رسوله؟".

قال الواحدي: أي: " عبادة غيره".

قال الزمخشري:"أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله".

قال مقاتل:"يعني: أفلا تعبدون الله ﷻ".

قال السمعاني:"أي: أفلا تحذرون".

قال القرطبي:"يريد أفلا تخافون حيث تجعلون لي ما تكرهون، زعمتم أن الملائكة بناتي، وكرهتم لأنفسكم البنات".

وأما الحجة الثالثة، فتتجلى في قوله ﷻ: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ..

أى: قل لهم من بيده ملك كل شيء كائنا ما كان.

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [المؤمنون: ٨٨]، أي:"قل: مَن مالك كل شيء ومَن بيده خزائن كل شيء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: من بيده خزائن كلّ

=

=

شيء؟".

عن مجاهد: " {مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}، قال: خزائن كل شيء".

قال الضحاك:"ملك كل شيء".

قال الواحدي: " «الملكوت»: الملك، والتاء زيادة للمبالغة، نحو جبروت ورهبوت".

قال السمعاني:"«الملكوت»: أي: مالك كل شيء، والتاء للمبالغة، وكذلك فعلوت تذكر للمبالغة مثل قولهم: جبروت ورهبوت، من كلامهم: رهبوت خير من رحموت، ومعناه: أن ترهب خير من أن ترحم".

قال القرطبي:"يريد السموات وما فوقها وما بينهن، والأرضين وما تحتهن وما بينهن، وما لا يعلمه أحد إلا هو".

قوله تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ} [المؤمنون: ٨٨]، أي:"ومَن يجير مَنِ استجار به، ولا يقدر أحد أن يُجير ويحمي مَن أراد الله إهلاكه، ولا يدفع الشر الذي قدَّره الله".

قال الطبري: أي:"{وَهُوَ يُجِيرُ} من أراد ممن قصده بسوء، {وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ} يقول: ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء، فيدفع عنه عذابه وعقابه".

قال الزجاج:"أي: هو يجير من عذابه ولا يجير عليه أحد من عذابه. وكذلك هو يجير من خلقه ولا يجير عليه أحد".

قال السمعاني:"أن يؤمن على كل الناس، ولا يؤمن عليه أحد، ومعناه: أن من أمنه الله لا يقدر عليه أحد، ومن لم يؤمنه الله لم يؤمنه أحد، وقيل: من أراد الله عذابه لا يقدر أحد على منع العذاب عنه، ومن أراد أن يعذب غيره من الخلق قدر الله على منعه منه".

قال الزمخشري:"يقال: أجرت فلانا على فلان: إذا أغثته منه ومنعته، يعني: وهو

=

=

يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدا".

قال القرطبي:"أي: يمنع ولا يمنع منه. وقيل: {يجير} يؤمن من شاء. {ولا يجار عليه} أي لا يؤمن من أخافه. ثم قيل: هذا في الدنيا، أي من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع. وقيل: هذا في الآخرة، أي لا يمنعه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعه عن مستوجب العذاب دافع".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ٨٨]، أي:"إن كنتم تعلمون ذلك؟".

قال الطبري: أي:"من ذلك صفته".

فالملكوت من الملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في هذا الملك.

وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ أى: وهو سبحانه يغيث من يشاء من خلقه فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء، أما من يريد الله تعالى أن ينزل به عقابه، فلن يستطيع أحد أن يمنع هذا العقاب عنه.

يقال: أجرت فلانا على فلان، إذا أغثته وأنقذته منه. وعدى بعلى لتضمينه معنى النصر.

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى: إن كنتم- أيضا- من أهل العلم والفهم.

قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٩]، أي:"سيجيبون: بأن ذلك كلَّه لله".

قال الطبري: أي:"فإنهم يقولون: إن ملكوت كلّ شيء والقدرة على الأشياء كلها لله".

قال ابن كثير:"أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون: ٨٩]، أي:"قل لهم: كيف تذهب عقولكم وتُخْدَعون وتُصْرفون عن توحيد الله وطاعته، وتصديق أمر البعث

=

=

والنشور؟".

قال الطبري:"فقل لهم يا محمد: فمن أيّ وجه تصرفون عن التصديق بآيات الله، والإقرار بأخباره وأخبار رسوله، والإيمان بأن الله القادر على كل ما يشاء، وعلى بعثكم أحياء بعد مماتكم، مع علمكم بما تقولون من عظيم سلطانه وقدرته؟!، والسِّحْر: تخييل الشيء إلى الناظر أنه على خلاف ما هو به من هيئته".

قال ابن كثير:"أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك".

قال الزمخشري:" {تسحرون} : تخدعون عن توحيده وطاعته. والخادع: هو الشيطان والهوى".

قال السمعاني:"أي: تخدعون، وقيل: تصرفون عن الحق".

قال الزجاج:"معنى: «تسحرون»، و «تؤفكون»: تصرفون عن القصد والحق".

قال القرطبي:"أي: فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده. أو كيف يخيل إليكم أن تشركوا به مالا يضر ولا ينفع! والسحر هو التخييل. وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع".

عن ابن عباس، قوله: " {فأنى تُسْحَرُونَ} ، يقول: تكذبون".

قال الحسن: "معناه: أين ذهبت عقولكم؟".

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أي: سيقولون ملك كل شيء لله، والقدرة على كل شيء لله.

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أي: قل لهم في الجواب عليهم، ما دمتم قد اعترفتم بأن كل شيء تحت قدرة الله وسيطرته، فكيف تخدعون وتصرفون عن الحق وعن الرشد مع علمكم بهما، إلى ما أنتم عليه من باطل وغي!! يقال: سحر فلان غيره، بمعنى خدعه، أو أتى عمل السحر. والمسحور هو الشخص المخدوع أو من تأثر بما عمل له من سحر.

=

=

وبهذه الحجج الدامغة، أخرس الله تعالى ألسنة المنكرين للبعث، وأثبت لهم أنه سبحانه لا يعجزه شيء.

مسألة في قوله تعالى (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

المسألة الأولى: تعريف العرش.

المبحث الأول: المعنى اللغوي لكلمة العرش.

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": (٤/ ٢٦٤): ""عرش " العين والراء والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، ثم يستعار في غير ذلك" ا. هـ والعرش في كلام العرب يطلق على عدة معان منها:

١- سرير الملك: قال الخليلفي العين": (٤/ ٢٩١): "العرش: السرير للملك".

وقال الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ٤١٣): "والعرش في كلام العرب: سرير الملك، يدلك على ذلك سرير ملكة سبا، سماه الله- جل وعز- عرشا فقال: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل، آية: ٢١].

وقال ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٢٨٨٠): بعد أن نقل كلام الأزهري: "وقد يستعار لغيره... والجمع أعراش، وعروش، وعرشة، وفي حديث بدء الوحي: "فرفعت رأسي فإذا هو قاعد على عرش في الهواء"، وفي رواية: "بين السماء والأرض" يعني: جبريل على سرير".

٢- سقف البيت: قال الخليل في "العين": (٤/ ٢٩١): "عرش البيت: سقفه".

وقال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "والعرش من البيت سقفه ومنه الحديث: "أو كالقنديل المعلق بالعرش"، يعني: السقف، وفي حديث آخر: "كنت أسمع قراءة رسول الله ﷺ على عرشي" أي: سقف بيتي، وبه فسر قوله تعالى: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [البقرة، آية: ٢٥٩]، أي: صارت على سقوفها، كما قال عز من قائل: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدمت

=

=

سقوفها، فصارت في قرارها، وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد، وهي: المنقلعة من أصولها".

٣- ركن الشيء: قال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "والعرش: ركن الشيء، قاله الزجاج والكسائي، وبه فسر قوله تعالى: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} أي: وخرت على أركانها".

٤- الملك: قال الأزهري في "تهذيب اللغة": (٤/ ٤١٤): "والعرش: الملك، يقال: ثل عرشه، أي: زال ملكه وعزه".

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها * وذبيان إذ زلت باقدامها النعل.

وقال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "قال ابن الأعرابي: العرش: الملك بضم الميم، وهو كناية....".

٥- قوام أمر الرجل: قال ابن فارس "معجم مقاييس اللغة": (٤/ ٢٦٤) بتصرف: "استعيرت كلمة عرش هنا، فقيل لأمر الرجل وقوامه: عرش، وإذا زال ذلك عنه قيل: ثل عرشه، قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها * وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل".

قال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "قولهم: ثل عرشه أي: عدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وهى أمره، وقيل: ذهب عزه، ومنه حديث عمر- رضي الله عنه - أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل بك ربك، قال: لولا أن تداركني لثل عرشي".

٦- عرش السماك: قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": (٢٦٧/ ٤): "ويقال: إن عرش السماك: أربعة كواكب أسفل من العواء على صورة النعش،

=

=

ويقال: هي عجز الأسد، قال ابن أحمر:
باتت عليه ليلة عرشية * شربت وبات إلى نقا متهدم".
٧- عرش البئر: قال الأزهري في "العين" (١/ ٢٩٣): "وقال أبو عبيد: قال أبو زيد: بئر معروشة: وهي التي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة، ثم يطوى سائرها بالخشب، فذلك الخشب هو العرش، يقال: منه عرشت البئر أعرشها، فإذا كانت كلها بالحجارة فهي مطوية وليست بمعروشة.
وقال غيره: المثاب: مقام الساقي فوق العروش، ومنه قول الشاعر:
وما لمثابات العروش بقية * إذا استل من تحت العروش الدعائم
وقال ابن الأعرابي: العرش: بناء، فوق البئر يقوم عليه الساقي، وأنشد:
أكل يوم عرشها مقيلي".
٨- عرش القدم: قال الخليل كما في "لسان العرب": (٤/ ٢٨٨٢): "العرش في القدم كل ما بين الحمار والأصابع من ظهر القدم، والحمار: المرتفع من ظهر القدم، وجمعه: عرشة وأعراش".
وقال بن الأعرابي كما في "تهذيب اللغة" (١/ ٤١٦): "ظهر القدم: العرش، وباطنه: الأخمص".
قلت: من المعلوم أن معرفة كل معنى من تلك المعاني إنما يتحدد بحسب ما أضيف إلى الكلمة، والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني السابقة، هو سرير الملك، ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قد جاءت معينة لهذا المعنى وحده دون غيره من المعاني، وهذا ما سياتي بيانه.
أما زعم الجهمي بان معنى العرش في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، يحتمل عدة معاني، فلا يعرف أي هذه المعاني هو المراد، فقد أجاب عنه الإمام ابن القيم في "مختصر الصواعق المرسلة" (١/ ١٧، ١٨) بقوله: "هذا
=

=

تلبيس منك على الجهال، وكذب ظاهر، فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معاني، فاللام: للعهد، وقد صار بها العرش معينا، وهو عرش الرب تعالى الذي هو سرير ملكه الذي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا من نابذ الرسل...".

المبحث الثاني: المذاهب في تعريف العرش.

أولا: مذهب السلف: قال الطبري (٢٤/ ٣٧، ٤٩) - عند تفسير قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} -: يعني بالعرش: السرير. ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: "محدقين حول العرش، قال العرش: السرير". وقال الطبري في موضع آخر: {ذُو الْعَرْش} يقول: ذو السرير المحيط بما دونه".

وقال البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص٤٩٧): "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش: هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتا، وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة،. وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه".

وقال- أيضا- في "الاعتقاد" (ص١١٢): "العرش: هو السرير المشهور فيها بين العقلاء".

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ١٢): "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات".

وقال الذهبي في "العلو" (ص٥٧): - بعد أن ذكر سرر أهل الجنة-: "فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته، وقوائمه وماهيته وحملته، والكروبيين الحافين من حوله وحسنه ورونقه وقيمته: فقد ورد أنه من ياقوته حمراء" ا. هـ

=

=

قلت: وهذا الذي ذكره الطبري والبيهقي وابن كثير والذهبي في تعريف العرش، هو الذي جاءت به الآيات والأحاديث والآثار، وهو ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها في عرش الله، فهم يعتقدون أن عرش الرحمن هو:

سرير: قال ابن قتيبة في "الاختلاف في اللفظ": (ص٢٤): "وطلبوا للعرش معنى غير السرير، والعلماء في اللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير، وما عرش من السقوف وأشباهها قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل * ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس * وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا لا يناله بصر العين * ترى دونه الملائك صورا".

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية": (١/ ١١، ١٢).: "العرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم...

وأنه ذو قوائم: قال شارح "الطحاوية" (ص٣١٠، ٣١١): "قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: (فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور).

وأنه مخلوق: قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٥): "قوله: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} ٥ إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق...، وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق" ا. هـ.

وقد جاء ذكر خلق العرش في حديث أبي رزين العقيلي قال: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم

=

=

خلق عرشه على الماء".

وأن الله سبحانه قد أمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه:

تال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

وهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم، وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٥١): "وأما العرش فإنه مقبب، لما روي في "السنن" لأبي داود عن جبير بن مطعم قال (أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال،- وذكر الحديث- إلى أن قال رسول الله ﷺ: "إن الله على عرشه، وإن عرشه على سمواته وأرضه، كهكذا" وقال بأصابعه مثل القبة...).

وفي علوه قوله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعالاها، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة) (٢).

فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلى المخلوقات وسقفها، وأنه مقبب... "ا. هـ من مجموع الفتاوى.

وفي حديث أبي ذر المشهور قال (قلت يا رسول الله، أي ما أنزل عليك أعظم، قال: "آية الكرسي"- ثم قال: " يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة).

فهذا القول للسلف في عرش الله هو ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة،

=

=

وقد كان سلف الأمة وأئمتها- دائما- يصرحون بذلك في كتبهم عند الحديث عن هذه المسألة، وقد وافقهم- في هذا القول في عرش الله- الكلابية، والكرامية، ومتقدمو الأشاعرة، وبعض الجهمية، والمعتزلة.

ثانيا: أقوال المخالفين:

القول الأول: ما زعمه طائفة من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية، وعامة متأخري الأشاعرة، من أن معنى العرش في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} هو الملك.

قال الدارمي في كتابه "الرد على الجهمية" (ص١٢): "باب: الإيمان بالعرش، وهو أحد ما أنكرته المعطلة، فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون به، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان {الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بافْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، وكالذين: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، أتقرون أن لله عرشا معلوما موصوفا فوق السماء السابعة تحمله الملائكة، والله فوقه كما وصف نفسه، بائن من خلقه، فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب، وخلط ولم يصرح. قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن، سمى ذلك كله عرشا له، واستوى على جميع ذلك كله" ا. هـ

وقال ابن تيمية في "نقض تأسيس الجهمية" (١/ ٥٧٦) - في سياق كلامه على حمله العرش-: "ثم إن قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ} يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية" ا. هـاعلم أن العرش خلق عظيم جدًا كما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولذلك أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: [ذو العرش] وفيه آيات أخر تجدها في " الشرح " [أي:

=

=

شرح الطحاوية].وهو لغةً سرير الملك، ومن أوصافه في القرآن: {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} (الحاقة: ١٧) وأنه على الماء، وفي السنة أن أحد حملة العرش ما بين شحمة إذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وأن له قوائم وأنه سقف جنة الفردوس. جاء ذلك في أحاديث صحيحة مذكورة في "الشرح". وذلك كله مما يبطل تأويل العرش بأنه عبارة عن الملك وسعة السلطان ا.هـ

وما ذهب إليه هؤلاء المخالفون من تفسير معنى العرش الوارد في الآيات بمعنى الملك، إنما هو تاويل باطل، وصرف للفظ عن معناه إلى معنى آخر لا يحتمله.

والمتامل لهذا القول يرى ما فيه من التلبيس والمخالفة، فقد سبق أن ذكرنا في المبحث اللغوي لكلمة عرش، أن لهذه الكلمة عدة معاني في اللغة العربية، ومن المعلوم أن معرفة المعنى المراد من تلك المعاني لهذه الكلمة أو غيرها، إنما يتحدد بحسب السياق، وبحسب ما أضيفت إليه، وليس في سياق الآيات ما يثبت صحة ما ذهبوا إليه، كما أن ما استدل به هؤلاء المخالفون من الأبيات الشعرية ليس إلا دليلا على أن الملك هو من المعاني اللغوية لكلمة عرش، وهذا أمر لا خلاف عليه، وهذا الاستدلال يماثل ما لو استدللنا على أن من معاني كلمة العرش السقف بقوله: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، فليس في هذه الأبيات -التي فيها أن العرش من معانيه الملك- أي إشارة، لا من قريب ولا من بعيد على أن الملك هو المعنى المراد في الآيات الواردة في العرش، بل إن المتأمل للآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة، يرى أنها تدل دلالة واضحة وصريحة على أن المراد بالعرش هو ذلك المخلوق العظيم الذي خلقه الله تعالى فوق العالم كله، ثم استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وكذلك ترد على هؤلاء المخالفين زعمهم الباطل الذي هو في الحقيقة تحريف لكلام الله.

فيا ترى ماذا يصنع ذلك المخالف الذي يزعم أن العرش إنما هو كناية عن الملك

=

=

والسلطان بقوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ} هل يزعم أن الملك كان على الماء، وكذلك ماذا يصنع بقوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ}، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية، وبقوله ﷺ: "فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش"، أيقول: آخذ بقائمة من قوائم الملك، وكذا قوله ﷺ: "اهتز عرش الرحمن"، أيقول: اهتز ملكه وسلطانه، فخلاصة القول:

إن هذا التأويل إنما هو تأويل باطل، ترده الآيات، والأحاديث، ولا يمكن أن يقول به من له أدنى ذوق أو فهم، بل هو في الحقيقة تحريف لكلام الله تعالى.

القول الثاني: زعم طائفة من أهل الكلام أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدود الجهات، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، أو الأثير، أو الفلك الأعلى.

وفي ذلك يقول ابن سينا في رسالتة، "إثبات النبوات وتاويل رموزهم وأمثالهم": "ومن السهل عليك أن تفهم كيف أن العرش بنص القرآن يحمله ثمانية، فهذه الثمانية هي: الثمانية أفلاك التي تحت هذا الفلك المحيط".

وإن المتامل لكلام أصحاب هذا المذهب كابن سينا وأمثاله يرى مدى تأثرهم بالفلاسفة وكلامهم، حتى أنهم وصلوا إلى درجة اعتقادهم أنه لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، صاروا حائرين ومتأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه وعلى ما تعلموه، وإن كان هذا التأويل لا دليل لهم عليه سوى ظنهم الفاسد بأنه لا موجود إلا ما عرفوه هم والفلاسفة، فقالوا العرش: هو الفلك التاسع، والكرسي: هو الفلك الثامن، فنفوا ما ليس لهم به علم"، فانطبق عليهم قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَما ياتِهِمْ تاوِيلُهُ}.

=

=

وقد ثبت أنه ليس لهؤلاء دليل يتمسكون به لا من الشرع ولا من العقل، وأن الذي دفعهم إلى هذا القول هو أنهم نظروا في عالم الهيئة وعلوم الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع وهو: الأطلس محيط بها، ومستدير كاستدارتها، وهو الذي يحركها الحركة الشوقية، وأن لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء- صلوات الله وسلام عليهم- ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السموات السبع، فقالوا- بطريق الظن-: إن العرش: هو الفلك التاسع لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقا، وإما أنه ليس وراءه مخلوق".

وهم معترفون بانه لم يقم لديهم دليل عقلي على صحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بان السفلي يكسف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أن الأفلاك مختلفة حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك الدوير وغيره، فأما ما كان موجودا فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم... وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بان ما أخبرت به الرسل من أن العرش: هو الفلك التاسع- رجما بالغيب وقولا بلا علم".

ومع عدم وجود الدليل العقلي عند هؤلاء على صحة زعمهم، فكذلك الأدلة الشرعية ترد زعمهم هذا وتبطله. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده

=

=

على هؤلاء المتكلمين في رسالته "العرشية" أن الآيات والأحاديث قد دلت على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات، وأن الله قد اختصه وميزه بأمور كثيرة، منها أن له حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن الله قد أخبر بوجوده قبل خلق السموات والأرض، وقبل وجود الأفلاك، وأن الله سبحانه تمدح نفسه بانه ذو العرش، ووصف العرش بأنه مجيد وعظيم وكريم، فكل هذه الميز والخصائص تبطل قول المنازع، لأنه يقول بان نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، ذلك، لأنه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكان إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر".

كما أن مما يدل على فساد قولهم ما ثبت في الشرع من أن للعرش قوائم، وأنه يهتز، ومعلوم أن الأفلاك مستديرة، وليس لها قوائم، كما أنها متحركة دائما بحركة متشابهة لا تتغير، كما ثبت- أيضا- أن العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك لا ثقيل ولا خفيف.

فعلم مما تقدم انتفاء الدليل العقلي عند هؤلاء، كما علم مخالفتهم للأدلة الشرعية وإبطالها لأقوالهم، ويضاف إلى هذا- أيضا- مخالفتهم للغة العرب، فالعرب لا تفهم من كلمة العرش هذا المعنى، ولا هو مستعمل في لغتها والقرآن إنما نزل بما يفهمون، وبعد هذا كله لا تبقى أدنى شبهة في فساد هذا القول وبطلانه. والله أعلم.

المسألة الثانية: خلق العرش وهيئته.

إن أول صفة نذكرها لعرش البارئ- سبحانه وتعالى- كونه مخلوقا من مخلوقات الله تعالى، ذلك لأن كل ما على الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى وأوجده، قال الله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، فكل شيء في هذا الكون مخلوق، والعرش من ضمن هذا الكون، فهو مخلوق أيضا.

وسلف الأمة وأئمتها يقولون: إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من

=

=

مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى: {هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، فالعرش موصوف بأنه مربوب، وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله.

وقد دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ}، فالآية تدل على أن العرش كان موجودا على الماء قبل خلق السموات والأرض، ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث عمران بن حصين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض".

وأما مسألة خلق العرش فقد-جاء ذكرها في حديث أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

وهذه الأدلة التي استدل بها السلف على إثبات خلق العرش فيها أبلغ الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، أو أنه: لم يزل مع الله تعالى.

ولقد خالف السلف في قولهم هذا بعض أهل الكلام، الذين زعموا أن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش، وهم بزعمهم هذا الذي لا دليل لهم عليه إنما يحاولون به إخراج الاستواء عن حقيقته في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، ليكون معنى الاستواء في الآية على زعمهم بمعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه، ذلك لأنهم لو سلموا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض لقيل لهم: إنكم تزعمون أن "استوى" بمعنى: استولى، فلماذا تأخر الاستيلاء إلى ما بعد خلق السموات مع أنه كان موجودا قبل ذلك، فهم- فرارا من هذا الأمر- ادعوا أن

=

=

العرش مخلوق بعد السموات والأرض.

وقد رد الإمام ابن القيم في "مختصر الصواعق": (٢/ ١٣١) على زعمهم هذا بقوله: "إن هذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلا، وهو مناقض لما دل عليه القرآن والسنة وإجماع المسلمين أظهر مناقضة، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء، وهذه واو الحال، أي: خلقها في هذه الحال، فدل على سبق العرش والماء للسموات والأرض، وفي "الصحيح" عنه ﷺ: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء" ا. هـ

وكذلك فيما ذكرناه من أدلة على سبق خلق العرش للسموات والأرض فيه رد على زعم هؤلاء، وبيان مدى مخالفة قولهم للكتاب والسنة.

المسألة الثالثة: هيئة العرش.

قد دلت الأحاديث على أنه مقبب الشكل، وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة، وهذا ما يدل عليه حديث الأعرابي المتقدم الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا"، وأشار بأصابعه مثل القبة، ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في الحديث الآخر: "إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلاها، وفوقه عرش الرحمن" فالحديث يبين أن الفردوس أوسط الجنة، وأعلاها، والجنة كما جاء في الحديث الآخر مائة درجة، وما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض، فكون العرش سقفا للفردوس- الذي هو أوسط الجنة وأعلاها- يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير. والعرش له قوائم كما جاء في الحديث الصحيح: "لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش"

=

=

الحديث.

وفي إثبات كون العرش مقببا، وأن له قوائم تحمله، رد على من زعم من الفلاسفة أن العرش فلك من الأفلاك، أو أنه الفلك التاسع. وقد تقدم الرد على زعم هؤلاء، وكذلك فيه رد على من زعم أن العرش بمعنى الملك، لأنه لا يعقل أن يكون ماسكا بقائمة من قوائم الملك، وقد ذكر ابن كثير، والذهبي: أن العرش من ياقوتة حمراء، وقد استدلوا لهذا القول بما رواه إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعدا الطائي يقول: "العرش ياقوتة حمراء" وهذا القول فيه نظر، لذا قال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص٩٩ - ١٠٠): [قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "العلو"]:

فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته، وقوائمه وماهيته وحمَلتِه، والكروبيين الحافِّين من حوله، وحسنه ورونقه وقيمته. فقد ورد أنه من ياقوتة حمراء، ولعل مساحته مسيرة خمسمائة ألف عام.

فعلق العلامة الألباني على ذلك في " مختصر العلو" قائلًا: عرش الرحمن تبارك وتعالى، نؤمن به، ونصفه بما ثبت في الكتاب والسنة فقط، فليت المؤلف رحمه الله تعالى وقف عندهما، ولم يزد عليهما وصفًا تظننًا ورجمًا بالغيب، لا سيما وهو قد ذكر فيما يأتي من الأصل عن وهب بن منبه أنه قال: " العرش مسيرة خمسين ألف سنة" فقال خمسين، ولم يقل خمسمائة! وهو على كل حال من الإسرائيليات التي لا فائدة من ذكرها إلا للتنبيه، ولذلك حذفته من هذا المختصر.

المسألة الرابعة: مكان العرش.

إن الآيات والأحاديث التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن تبارك وتعالى لتدل دلالة واضحة على أن لعرش الرحمن مكانا قبل وجود السموات والأرض وبعد خلقهما، فأما مكانه قبل خلق السموات والأرض فالآيات والأحاديث تبين لنا أن مكانه على الماء، فالله سبحانه يقول في كتابه الكريم: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ

=

=

وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء}.

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤): "وقوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء}، يقول وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن، وعن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء} قبل أن يخلق شيئا" ا. هـ

وأما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة، منها حديث عمران بن حصين المتقدم الذي جاء فيه: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض".

وكذلك ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء".

وكذلك حديث أبي رزين العقيلي المتقدم قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

فكل من الآية والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن مكان العرش منذ خلقه على الماء، وليس المراد بالماء هنا ماء البحر، لأن ماء البحر إنما وجد بعد خلق السموات والأرض، وإنما الماء المذكور هنا ماء آخر تحت العرش على ما شاء الله تعالى.

وقد سئل حبر الأمة عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن قوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء} على أي شيء كان الماء، قال: على متن الريح.

وعن سليمان التيمي أنه قال: "لو سألت أين الله، لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء، لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء، لقلت: لا أعلم، قال أبو عبد الله وذلك لقوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ

=

=

إلاَّ بِما شَاءَ}.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٦٨١): قول تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، ممكن تفسرها لنا، جزاك الله خير.

فأجاب: المسألة لا تحتاج إلى تفسير بأكثر مما هو واضح؛ لأن هذه من الأمور الغيبية التي لا يجوز للمسلمين التوسع فيها، وإدخال العقل العاجز عن إدراك المغيبات، وتصويرها في حدود المشاهدات، فكون ربنا يقول: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، هو خلق من خلق الله ﷻ، كان العرش ولا يزال على الماء، لكن هذا بلا شك لا يعني أن الماء قديم أزلي لا أول له، وأن العرش أيضًا قديم أزلي لا أول له، لأن كل ما سوى الله ﷻ فهو مخلوقٌ مسبوقٌ بالعدم، فربنا ﷻ حينما يتحدث في القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الخَلْقِيَّة الغيبية عن الناس، يخبرنا بأن العرش ليس على السماء: أجرام، وإنما على الماء، وليس إلا هذا في الآية، وكثير من الناس اليوم يتأولون النصوص القرآنية ببعض الاكتشافات العلمية، وهذا عبارة عن تَظَنُّن إن لم نقل إنه تخرُّص؛ لأننا لو سألنا العلم اليوم الذي يُعْرَفُ بالعلم التجريبي والعلم الفلكي، ما هي السماوات السبع المنصوص عليها في القرآن الكريم، طبعًا سيقف أمامها حائرًا؛ حتى الملاحدة منهم نحن لا نتحدث عمَّا وراء الطبيعة، نحن نتحدث عما أُحيط به علمًا، فنحن لا نعلم إلا هذا الفراغ الذي بعد مائتين.. ثلاثمائة كيلو متر كما يقولون، هذه ممتلئة بالهواء، ثم بعد ذلك فراغ مطلق فيها هذه الأجرام، وهذه الكواكب التي تعد بملايين الملايين، فهم لا يتحدثون إلا عما شاهدوا، ولذلك فهم لا يستطيعون التحدث عن السموات السبع بشيء، بالتالي لا يستطيعون أن يتحدثوا عن الماء الذي فوقه عرش الرحمن تبارك وتعالى، هذا ما يمكن الإجابة عن هذا السؤال ا. هـ

هذا مكان العرش قبل خلق هذا الكون الذي هو عبارة عن السموات والأرض، أما

=

=

مكانه بعد خلق السموات والأرض فالحديث عنه من جانبين:
الجانب الأول: مكانه بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات.
الجانب الثاني: مكانه بالنسبة إلى السموات والأرض بعد خلقهما.
أما مكان العرش بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات فهو أقربها إليه سبحانه، وذلك لأن الله سبحانه قد أخبر أنه مستو على عرشه في أكثر من موضع في القرآن الكريم قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ففي إثبات الاستواء على العرش دليل على قربه إليه، لأنه سبحانه مستو على أعلى مخلوقاته وأقربها إليه، وهذه ميزة امتاز بها العرش على ما سواه، ومما يؤيد كون العرش أقرب المخلوقات إلى الله ما جاء في حديث ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن النبي ﷺ قال: "ولكن ربنا- تبارك وتعالى اسمه- إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم، فيخبرونهم ماذا قال".
فالحديث يدل على أن حملة العرش هم أول من يتلقى أمر الله، ثم يبلغونه للذين يلونهم من أهل السموات، فكونهم أقرب الخلق إلى الله دليل على أن العرش أقرب منهم إليه - سبحانه - لأنهم إنما يحملونه.
أما مكان العرش بالنسبة للسموات والأرض بعد خلقهما وهل مازال على الماء، فالجواب ما يلي: إن العرش ما يزال على الماء المذكور في الآية والأحاديث، بدليل ما جاء في حديث الأوعال، في قوله ﷺ: "ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أعلاه وأسفله، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش.
"، فالحديث يشير كما أسلفنا إلى وجود ذلك الماء الذي تحت العرش، وإلى أنه مازال موجودا إلى ما بعد خلق السموات والأرض، أما مكان العرش بالنسبة إلى
=

=

السموات والأرض فهو أعلى منها، وفوقها، وهو كالقبة عليها، كما جاء في الحديث المتقدم: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" وأشار بأصابعه مثل القبة، وكذلك ما جاء في حديث العباس بن عبد المطلب الذي يسمى حديث الأوعال، فكلا الحديثين يدلان على أن العرش فوق السموات والأرض، وأعلى منهما، وهو كالسقف عليهما، بل هو سقف الجنة، كما في الحديث المتقدم: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن". فمكان العرش فوق السموات والأرض، وفوق الجنة، وهو أعلى المخلوقات، وأرفعها، وجميع المخلوقات دونه في العلو والارتفاع والله أعلم.

المسألة الخامسة: هل العرش داخلا فيما يقبض ويطوى.

لقد خص الله- سبحانه وتعالى - العرش بخصائص منها ما انفرد بها العرش عن غيره من المخلوقات، ومنها ما اشترك بها العرش مع بعض المخلوقات الأخرى، فقد سبق أن علمنا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض، فهو بهذا ليس داخلا فيما خلق في الأيام الستة، ومعلوم أن الله سبحانه قد أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ أنه يقبض يوم القيامة السموات والأرض ويطويها ويبدلها قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأرض جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِياتٌ بِيَمِينِه}، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ}، وقال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، وقال تعالى: {إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، وقال تعالى: {إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ}.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول ﷺ: "يقبض الله الأرض

=

=

يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض "، وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: "يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم ياخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون، أين المتكبرون".

فالآيات والأحاديث السابقة تدل على أن السموات والأرض وما فيهما تقبض، وتطوى، وتبدل.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى، كالجنة، والنار، والعرش، فعلى هذا يكون العرش ليس داخلا فيما يقبض، ويطوى، ويبدل، والأدلة على بقاء العرش كثيرة في الكتاب والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول مخبرا عن بقاء عرشه يوم القيامة: {وَحُمِلَتِ الأرض وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ}، وكذلك ما جاء في سورة الزمر من إخباره تعالى بقبضه للأرض، وطيه للسموات بيمينه، وذكر نفخ الصور، وصعق من في السموات والأرض، إلا من شاء الله، ثم ذكر النفخة الثانية التي يقومون بها، وأن الأرض تشرق بنور ربها، وأن الكتاب يوضع، ويجاء بالنبيين والشهداء، وأنه توفى كل نفس بما عملت، وذكر سوق الكفار إلى النار، وسوق المؤمنين إلى الجنة، إلى أن قال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ـ فالآيات فيها إخبار عن الموقف يوم القيامة، والشاهد أن العرش باق حتى بعد انتهاء الحساب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس (١/ ١٥١): "وأما العرش فلم

=

=

يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة، ولا فيما يشقه ويفطره، بل الأحاديث المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن، قال ﷺ: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن".

المسألة السادسة: استغناء الله تعالى عن العرش.

قال العلامة الألباني في تعليقه على متن الطحاوية (ص٥٢ - ٥٣): بعد نقل كلام شارح الطحاوية على قول الماتن:"وهو مستغن عن العرش وما دونه".مقررًا إياه فقال: قال الشارح رحمه الله تعالى: وإنما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش؛ ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالي محيطًا به حاملًا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرًا إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها، فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل وإحاطته ﷻ به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره للعرش وعدم الحصر للعرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فَصَّلوا بهذا التفصيل لهُدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل فضلُّوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} (الأعراف: ٥٣) وغيرها: كيف استوى؟ فقال:

=

=

الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

(فرع): تعددت الأقوال واختلفت في الكرسي كما تعددت واختلفت من قبل في العرش. والأقوال في الكرسي هي:

القول الأول: أن المراد بالكرسي: العلم. وهذا القول هو قول الجهمية، فقد أولوا الكرسي بمعنى العلم كما أولوا العرش بمعنى الملك، وكل ذلك فرارًا منهم عن إثبات علو الله واستوائه على عرشه.

وقد استدلوا بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، قال: (كرسيه علمه) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ١٥)، وعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (٢/ ١٦٧)، وابن منده في الرد على الجهمية (ص ٤٥)، وابن أبي حاتم - كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٧)، والطبراني في كتاب السنة ومن طريقه ابن حجر في تغليق التعليق (٤/ ١٨٥)، وعبد بن حميد كما في " تغليق التعليق (٤/ ١٨٦) وفتح الباري (٨/ ٤٧)، والدر المنثور (٢/ ١٧)، وابن حجر في تغليق التعليق (٤/ ١٨٥ - ١٨٦) من طرق عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، {وسع كرسيه} قال: كرسيه علمه. والأثر قال عنه الدارمي: "هو من رواية جعفر الأحمر، وليس جعفر ممن يعتمد على روايته إذ قد خالفه الرواة المتقنون"، وقال ابن منده: "ولم يتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير"، وأقره الذهبي في الميزان (٢/ ١٤٨) ثم قال: " قد روى عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره". فكأنه يشير إلى أن هذه الرواية هي المحفوظة، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٧): " وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله - تعالى - {وسع كرسيه السموات والأرض}، أي: علمه، والمحفوظ عن ابن عباس ما رواه الحاكم في مستدركه وقال: إنه على

=

=

شرط الشيخين ولم يخرجاه، من طريق سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: " الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله - ﷻ - " ا.هـ

فالخلاصة أن ما روي عن ابن عباس أن كرسيه علمه ضعيف لا يثبت، والمحفوظ عنه أنه قال: " الكرسي: موضع القدمين "، وهذا القول قد رجحه الطبري في تفسيره (٣/ ١١) بقوله: "وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد ابن جبير عنه أنه قال: هو علمه"، فتعقبه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري قائلا: العجب لأبي جعفر، كيف تناقض قوله في هذا الموضع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه علم الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكن أن يكون أولى التأويلات في معنى"الكرسي" هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضا "العلم"، كما زعم أنه دل على صحته ظاهر القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيان مختلفان في الصفة والجوهر!! وإذا كان خبر جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في مجمع الزوائد ٦: ٣٢٣" رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح"، كما بينته في التعليق على الأثر: ٥٧٩٢. ومهما قيل فيها، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجب التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: "والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الدهنى، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال:

=

=

"الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل"، وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله.

وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو"العلم"، بقوله تعالى: "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما"، فلم لم يجعل"الكرسي" هو"الرحمة"، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: "قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء" واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جدا، يجل عنه من كان مثله حذرا ولطفا ودقة.

القول الثاني: أن المراد بالكرسي هو العرش نفسه. وهذا القول مروي عن الحسن البصري، فقد روى ابن جرير بسنده عن جويبر عن الضحاك قال: كان الحسن يقول: "الكرسي هو العرش"، -وإسناده ضعيف- وقد مال ابن جرير إلى هذا القول، واعتمد في ذلك على حديث عبد الله بن خليفة قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: أدع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب تعالى ذكره، ثم قال: "إن كرسيه وسع السموات والأرض وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، ثم قال بأصابعه فجمعها: وإن له أطيط كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله" وهو حديث ضعيف منكر لا يثبت كما في الضعيفة (٨٦٦).

القول الثالث: أن المراد بالكرسي قدرته التي يمسك بها السموات والأرض.

ويقول هؤلاء: إن العرب تسمي أصل كل شيء الكرسي، كقولك: اجعل لهذا الحائط كرسيًا، أي اجعل له ما يعمده ويمسكه.

القول الرابع: أن الكرسي هو الفلك الثامن، أو ما يسمونه فلك البروج، أو فلك الكواكب الثوابت. وقد قال بهذا القول بعض المتكلمين في علم الهيئة من الفلاسفة المنسوبين للمسلمين كابن سينا وغيره وهؤلاء هم الذين قالوا أن

=

=

العرش هو الفلك التاسع.

القول الخامس: إن الكرسي جسم عظيم مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه، وهو موضع القدمين للبارئ ﷻ.

وهذا القول هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم واقتدى بسنتهم، وهذا هو ما دل عليه القرآن والسنة والإجماع ولغة العرب التي نزل القرآن بها، فالأحاديث والآثار الثابتة على هذا وبينته بيانًا واضحًا لا يدعو إلى الشك أو الارتياب، ومن تلك الأحاديث والآثار:

حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه، فقلت يا رسول الله: أيما أنزل عليك أفضل؟ قال: "آية الكرسي، وما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة).

وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ١٠٩) بعد أن سرد الطرق لهذا الحديث: "وجملة القول أن الحديث بهذه الطرق صحيح، والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه قائم بنفسه وليس شيئًا معنويًا وفيه رد على من تأوله بمعنى الملك وسعة السلطان".

وأيضًا ما جاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره أحد".

وهذا ثابت عن ابن عباس في تفسير معنى الكرسي الوارد في الآية، وهذا القول في الكرسي نقل عن كثير من الصحابة والتابعين منهم ابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، ومجاهد، وغيرهم.

ولذلك فقد ذكر كثير من العلماء أن هذا القول في الكرسي قد حصل عليه إجماع

=

=

السلف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٦/ ٥٨٤): "الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف".

وقال شارح العقيدة الطحاوية (ص ٣١٣): "وإنما هو -الكرسي- كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه".

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٧٦): "والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه".

كما أن أهل اللغة لا يعرفون معنى الكرسي غير هذا المعنى، قال الزجاج كما في تهذيب اللغة (١٠/ ٥٣): "والذي نعرفه من الكرسي في اللغة: الشيء الذي يعتمد ويجلس عليه، فهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السموات والأرض".

وقال ثعلب كما في تهذيب اللغة (١٠/ ٥٣): "الكرسي ما تعرفه العرب من كراسي الملوك".

وقال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية" (ص ٥١): وأما الكرسي ففيه قوله تعالى: {وسع كرسيه السماوات والأرض} (البقرة:٢٥٥) والكرسي هو الذي بين يدي العرش وقد صح عن ابن عباس موقوفًا عليه من قوله: " الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى".وهو مخرج في كتابي " مختصر العلو للذهبي"... ولم يصح فيه مرفوعًا سوى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة».وذلك مما يبطل أيضا تأويل الكرسي بالعلم. ولم يصح هذا التأويل عن ابن عباس كما بينته في " الصحيحة " (١٠٩)ا. هـ

وقال العلامة العثيمين القول المفيد شرح كتاب التوحيد " (٣/ ٣٩٣، ٣٩٤).:

=

=

هناك من قال: إن العرش هو الكرسي لحديث " إن الله يضع كرسيه يوم القيامة "، وظنوا أن الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى: {وسع كرسيه السموات والأرض} أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه الرحمن سبحانه، والعلم: صفة في العالم يدرك فيها المعلوم. والله أعلم ا. هـ

ومن هذا كله يتبين لنا مدى صحة هذا القول وموافقته للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومطابقته لما جاء في لغة العرب، وأما الأقوال الأخرى فهي أقوال باطلة ومخالفة لما عليه جمهور أهل السنة من سلف الأمة وخلفها.

وأما ما استدل به أهل القول الأول من قول ابن عباس، فهو غير صحيح كما بيناه في تخريجه، والصحيح عن ابن عباس هو قوله: "الكرسي موضع القدمين....".

وأما القول الثاني: إن الكرسي هو العرش نفسه، فلم يثبت عن الحسن البصري، لأن في إسناده جويبرًا وهو متفق على ضعفه، وقال فيه الحافظ ابن حجر: "ضعيف جدًا".

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٣): "رواه ابن جرير من طريق جويبر، وهو ضعيف، وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره".

وقال البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٩٣) عند الكلام على هذا القول: "هذا ليس بمرضي، والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه".

ومساندة ابن جرير الطبري لهذا القول غير صحيحة، لأن حديث عبد الله بن خليفة ضعيف كما تقدم.

=

=

أما القول الثالث: فهو قول مخالف لما دلت عليه الأحاديث والآثار، ومخالف لما عليه الجمهور من أهل السنة والجماعة ومخالف للغة العربية، وهو تأويل باطل ترده الأحاديث، وهو أيضًا تكذيب بالكرسي، وتكذيب للأحاديث الصحيحة التي دلت على وجود الكرسي.

وأما القول الرابع: فيكفي في إثبات بطلانه أن جماعة من أنفسهم ردوا عليهم هذا القول كما ذكره ابن كثير وبالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب هذا القول ليس لديهم أي دليل على قولهم هذا كما سبق وأن بيناه في قولهم في العرش.

الفهرس

